المفاهيم القرآنية

رسالة في تفسير مفاهيم
القرآن الكريم

تأليف
أ. أحمد عبد الرزاق مربوش

التعريف بالمؤلف/

المحامي / احمد عبد الرزاق مربوش سلام العامري

تاريخ ومحل الميلاد / من مواليد ١٩٧٣م بمنطقة حرف الاعمور اعرواق حيفان محافظه تعز اليمن وبها درس الا بتدائيه بمدرسه الشهيد عبد الرحمن مهيوب انعم بالعرين اعرواق ثم درس فى مدينه القاعده مديريه ذى سفال ثم بمعهد مصعب بن عمير بالحديدة ثم درس بمعهد المعلمين العام(مدرسه سباء بمدينة القاعده) ثم التحق بكلية الشريعه والقانون وعمل فى مجال المحاماه

الاقامه / ذى سفال اب الجمهوريه اليمنيه

العمل الحالى / محام مهتم بالفكر الاسلامى ودراسه القران الكريم وعلومه

المؤهل / ليسانس شريعه وقانون

الحاله الاجتماعيه متزوج من ثلاث نساء وله سبعه اولاد ثلاثه ذكور واربع بنات

بسم الله الرحمن الرحيم
إهداء**
إلى كل باحثٍ عن الاستقلال الحقيقي في زمن التبعية..
إلى الذين أدركوا أن "التقوى" ليست مجرد شعيرة تؤدى في المحاريب، بل هي موقفٌ صلب، وصمودٌ شامخ، ومنعةٌ نفسيةٌ تحمي الوعي من الاختراق..
إلى الجيل الذي يسعى بيقينٍ لتحويل "سجود المحراب" إلى "سيادة المنهج" في واقع الحياة، وإلى صياغة "كيان الدولة" من وحي "وجدان الفرد" المؤمن..
**أهدي هذا العمل، مستلهماً من آيات سورة الأحزاب معالم الطريق لبناء أمةٍ لا تنكسر أمام العواصف، وعزيمةٍ لا تلين أمام تحالفات الخصوم

.رساله شكر وعرفان
أود أن أشكر الأخ الأستاذ منير عبده عثمان الصلوى على مابذل من جهد في اخراج هذا الكتاب من مراجعه محتوى. الكتاب لغويا وفنيا وموضوعيا
المؤلف احمد عبد الرزاق مربوش

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمه تعريفيه بكتاب المفاهيم القرانيه من سوره الاحزاب:-
تعد هذه المذكرة التعريفية استعراضاً شاملاً لكتاب** "المفاهيم القرآنية من سورة الأحزاب"**، والذي يقدم رؤية تدبرية ومقاصدية فريدة لهذه السورة المدنية العظيمة، كما يتضح من الاتى .
1. محتوى الكتاب وجوهره والفكرة الرئيسية
** * الجوهر: **يركز الكتاب على فلسفة الانتقال من بناء "وجدان الفرد") كما في سورة السجدة المكية (إلى صياغة "كيان الدولة" و"المجتمع القائد" في المدينة المنورة.
** * الفكرة الرئيسية: **إبراز سورة الأحزاب كمنهاج لرسم حدود السياسة الشرعية ومنع ذوبان الدولة المسلمة في المنظومات الجاهلية، مع التأكيد على أن السياسة هي امتداد للعبودية والسجود لله.
** * المحتوى: **يتناول الكتاب تفسيراً تدبرياً لمقاطع السورة، بدءاً من أصول تشريعات الإسلام، مروراً بتصوير واقعة الأحزاب والابتلاء، وصولاً إلى منظومة القيم الاجتماعية والأخلاقية.
2. أغراض وأهداف المؤلف
** * بناء الشخصية المبدئية: **صناعة إنسان مستقل القرار لا ينكسر أمام الضغوط الخارجية أو الإغراءات المادية.
** * تأصيل السيادة القيمية: **توضيح أن الاستقلال الحقيقي يبدأ من الاستقلال القلبي والولاء لله، مما يحقق السيادة الوطنية والسياسية.
** * كشف أساليب "الفخ السياسي": **توعية الأمة بأن الضغوط المعاصرة تأتي غالباً في شكل "مقترحات ودبلوماسية خبيثة" تهدف لاختراق صناعة القرار من الداخل.
3. أسلوب الكاتب ومنهجه
** * الربط المقاصدي: **يربط بين خواتيم السور) مثل السجدة (وبدايات السور التالية) الأحزاب (لتوضيح تكامل الوحي في بناء الفرد والدولة.
** * التحليل النفسي والتربوي: **لا يكتفي بالتفسير اللغوي، بل يغوص في "الرسائل النفسية والذهنية" الكامنة خلف الآيات.
** * الواقعية التطبيقية: **يربط الآيات بالواقع المعاصر، محولاً المفاهيم القرآنية إلى خطط عمل يومية) تحت عنوان "كيف نطبق الآية في حياتنا؟".(
4. بما يمتاز هذا الكتاب عن بقية التفاسير
** * الاستقلال المنهجي: **يعلن صراحةً مبدأ "المنهج فوق كل اعتبار"، محذراً من الحلول الوسط التي تمس الثوابت.
** * التركيز على "المنعة النفسية": **يطرح مفهوم التقوى كدرع واقٍ وقوة استعلائية بالإيمان، وليس مجرد شعائر تعبدية.
** * تفكيك الخطاب المنافق: **يقدم تشريحاً دقيقاً لخطاب التخذيل والارجاف المعاصر وكيفية مواجهته قرآنياً.
5. هيكل المفاهيم في الكتاب
** * مفهوم السجود السياسي: **الانتقال من السجود الشعائري في الصلاة إلى الانقياد لتشريعات الدولة) زواج، طلاق، حروب.(
** * مفهوم القيادة والتوكل: **التوكل كفعل سياسي يعتمد على قوة الله أمام التحالفات الكونية، وليس الركون للمقترحات الخادعة.
** * منظومة القيم العشر: **بناء الشخصية المسلمة من خلال صفات محددة) القنوت، الصدق، الصبر، الخشوع (...كشرط لبناء الحضارة.
6. المنهج المعتمد والجمهور المستهدف
** * المنهج: **يعتمد المنهج** التدبري التحليلي **الذي يجمع بين النص القرآني، اللمسات البيانية، والا سقاطات التربوية والسياسية الحديثة.
** * الجمهور المستهدف:** * **القادة والمربون: **لتطوير أساليب القيادة والتهيئة النفسية.
** * الباحثون والطلاب: **المهتمون بعلوم القرآن والاجتماع الإسلامي.
** * المسلم المعاصر: **الباحث عن بوصلة ثابتة في زمن الفتن والضغوط الإعلامية.
7. ثمار قراءة هذا الكتاب
** * التحرر من "الحرج الوهمي": **التخلص من قيود العادات والتقاليد التي تخالف جوهر الدين.
** * اكتساب الصلابة النفسية: **القدرة على مواجهة "أحزاب" الضغوط الاجتماعية بثبات وثقة.
** * وضوح الرؤية: **القدرة على تمييز مصادر التأثير الخفية) المنافقين المعاصرين (وحماية "البيت الداخلي" للأمة.
٨/ملخص مقاطع الكتاب
المقطع الاول
"المقطع الأول" من الكتاب، يمثل المدخل المنهجي والتربوي الذي وضعه المؤلف لربط سورة الأحزاب بما قبلها. إليك ملخصاً تحليلياً لما ورد في هذا المقطع:
المقطع الأول: من السجود إلى السيادة (الربط بين السجدة والأحزاب)

يرى المؤلف أن الانتقال من سورة السجدة إلى سورة الأحزاب ليس مجرد ترتيب سور، بل هو انتقال في استراتيجية بناء الأمة:
1. فلسفة الانتقال (من الفرد إلى الدولة):
* **سورة السجدة (مرحلة صناعة الوجدان):** ركزت في مكة على "صناعة الفرد الساجد" الذي يستسلم لله بقلبه وعقله وسط بيئة معادية، ليكون صلباً أمام التعذيب والجحود.
* **سورة الأحزاب (مرحلة صياغة الدولة):** تنتقل بالمؤمن من السجود الشعائري في المحراب إلى "السجود التشريعي والسياسي" في واقع الدولة بالمدينة المنورة.
2. الربط بين "انتظار النصر" و"إدارة الأزمات":
* خاتمة السجدة قالت: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ}.
* بداية الأحزاب جاءت لتبين أن هذا "الانتظار" ليس قعوداً، بل هو عمل وبناء وتحدٍ للضغوط. فا لأحزاب هي التطبيق العملي لمعنى "الانتظار الإيجابي" عبر الصمود أمام تحالفات الكفر.
3. طبيعة الضغوط (من الخارج إلى الداخل):
* في السجدة (مكة): كانت الضغوط خارجية واضحة (استهزاء، تعذيب).
* في الأحزاب (المدينة): صارت الضغوط معقدة (دبلوماسية، مقترحات سياسية خبيثة من المنافقين، ضغوط اجتماعية، وحصار عسكري).
4. القاعدة الذهبية في المقطع الأول:
يؤكد المؤلف أن **"السياسة هي امتداد للسجود"**. فالمؤمن الذي سجد لله في مكة ورفض عبادة الأصنام، هو نفسه الذي يجب أن يرفض "الأصنام السياسية" والتبعية والضغوط في المدينة، ليكون قراره السيادي منبثقاً من تقوى الله وحده.
الخلاصة:
المقطع الأول يضع القارئ أمام حقيقة أن سورة الأحزاب هي سورة **"الاستقلال القلبي و السياسي"**، وأن بناء الدولة يبدأ من الشخصية التي لا تقبل المساومة على مبادئها مهما بلغت شدة "الأحزاب" المحيطة بها.
المقطع الثاني
يتناول **المقطع الثاني** من دراسة كتاب "المفاهيم القرآنية من سورة الأحزاب" للمؤلف أحمد عبد الرزاق مربوش العامري، الانتقال من التأسيس الوجداني إلى المواجهة المباشرة مع "الضغوط السياسية والاجتماعية"، ويركز بشكل دقيق على الآيات الأولى من السورة.
إليك عرض تحليلي لأبرز مضامين **المقطع الثاني**:
1. محور التوجيهات الربانية الثلاثة (الدرع القلبي للقائد)
يركز هذا المقطع على الأوامر الإلهية الثلاثة التي افتتحت بها السورة للنبي ﷺ، وهي في الحقيقة منهجية لكل مؤمن يواجه ضغوطاً:
* **"اتقِ الله":** هي قاعدة الصلابة الداخلية؛ فمن امتلأ قلبه بمخافة الله، لم يجد مكاناً للخوف من القوى البشرية (الأحزاب).
* **"ولا تطع الكافرين والمنافقين":** التحذير هنا ليس من "الكفر الصريح" فحسب، بل من **"المقترحات الناعمة"** والدبلوماسية المداهنة التي يقدمها المنافقون تحت غطاء "المصلحة" أو "الواقعية السياسية".
* **"واتبع ما يوحى إليك":** البديل العملي ليس الاجتهاد القائم على التنازل، بل هو التمسك بـ الوحي كخارطة طريق وحيدة للنجاة.
2. مفهوم "الفخ السياسي" للمنافقين
يشرح المؤلف في هذا المقطع كيف أن سورة الأحزاب كشفت محاولات المنافقين لاختراق القرار الإ سلامي من الداخل، حيث كانوا يقدمون "نصائح" تظهر في ظاهرها الحرص على المجتمع، وفي باطنها تهدف إلى:
* فك الارتباط بمنهج الوحي.
* إضعاف الروح المعنوية للمؤمنين.
* جر الدولة الناشئة إلى تبعية المنظومات الجاهلية المحيطة بها.
3. إبطال الموروثات الجاهلية (تحرير العقل)
يتعرض المقطع للآيات التي أبطلت عادات جاهلية متجذرة (مثل الظهار والتبني):
* **"ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه":** يؤصل المؤلف هنا لفكرة **"وحدة المرجعية"**؛ فلا يمكن للإنسان أن يجمع بين الولاء لله والولاء لأعدائه، ولا بين منهج الوحي ومنهج الهوى.
* **تفكيك التبني:** يرى المؤلف أن إبطال التبني لم يكن مجرد حكم اجتماعي، بل كان تدريباً للأ مة على **"قوة الصدع بالحق"** وكسر العادات الاجتماعية التي تخالف شرع الله، مهما كان الحرج الاجتماعي كبيراً.
4. التوكل كفعل سياسي (وكفى بالله وكيلا ً)
ينتهي هذا المقطع بالتأكيد على أن **التوكل** في سورة الأحزاب ليس "تواكلا ً" أو عزلة، بل هو

قرار سياسي واثق. فبعد اتخاذ التدابير (كحفر الخندق)، يأتي التوكل ليربط القلوب بـالله وحده، مما يجعل الأمة عصية على الابتزاز والتهديد الخارجي.
الخلاصة المنهجية للمقطع الثاني:
إذا كان المقطع الأول قد ركز على "لماذا نقاوم؟" (بسبب علاقتنا بالسجود لله)، فإن المقطع الثاني يركز على **"كيف نقاوم؟"**؛ وذلك من خلال:
1. التحصن بالتقوى.
2. كشف ألاعيب المنافقين.
3. التحرر من ضغوط العادات والتقاليد الجاهلية.
4. الاعتماد الكامل على كفاية الله (الوكالةالالهيه

المقطع الثالث

بناءً على البناء المنهجي لكتاب **"المفاهيم القرآنية من سورة الأحزاب"**، يركز **المقطع الثالث** على أحد أخطر المحاور في السورة، وهو **"مواجهة الزلزال والتمحيص"**، حيث ينتقل الكاتب من التوجيهات النظرية والتشريعية في بداية السورة إلى التطبيق العملي في أرض المعركة (غزوة الأحزاب).
إليك تحليل لأبرز مضامين هذا المقطع:
1. مفهوم "الزلزال النفسي" والتمحيص
يركز المؤلف في هذا المقطع على الآيات التي تصف مشهد الحصار: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ... وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}.
* **الهدف:** يوضح الكاتب أن الأزمات الكبرى (مثل تجمع الأحزاب حول المدينة) ليست مجرد أحداث عسكرية، بل هي **"أدوات ربانية للتمحيص"**؛ لاستخراج ما في القلوب وفصل المؤمن الصادق عن المنافق المتذبذب.
* **الفكرة الرئيسية:** الشدة هي التي تكشف "المفاهيم" المستقرة في النفس؛ فالمؤمن يرى في الأزمة وعد الله ونصرَه، والمنافق يرى فيها غروراً وهلاكاً.
2. صناعة "النموذج والقدوة" (مقام الأسوة الحسنة)
في وسط هذا المقطع، يبرز الكاتب دلالة الآية المحورية: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}.
* **المنهج:** يرى المؤلف أن "الأسوة" هنا ليست في العبادات الشعائرية فحسب، بل في **"ثبات القائد"** أمام التحديات الكونية. النبي ﷺ كان يحفر الخندق بيده، ويربط الحجر على بطنه، ويُبشر بفتح قصور كسرى والروم في أحلك لحظات الحصار.
* **الرسالة:** القدوة الحقيقية هي التي تمنح الأمة الأمل واليقين في وقت اليأس.
3. الفرق بين "رؤية المؤمن" و"رؤية المنافق" للأزمة
يقارن هذا المقطع بين خطابين في الأزمة:
* **خطاب الإرجاف (المنافقين):** {مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}. يحلل المؤلف هذا الخطاب باعتباره يمثل "الواقعية الانهزامية" التي تعتمد على الحسابات المادية فقط.
* **خطاب اليقين (المؤمنين):** {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}. يحلل المؤلف هذا الخطاب باعتباره يمثل "الواقعية الإيمانية" التي ترى ما وراء الأسباب المادية.
4. مفهوم "الرباط الاجتماعي" والوفاء بالعهد
يتناول المقطع قصة المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}.
* **الربط التربوي:** يوضح الكاتب أن تماسك الدولة يبدأ من "الوفاء بالعهد" الفردي بين العبد وربه، وأن المجتمع القائد هو الذي لا يغير مبادئه تحت وطأة الخوف أو الإغراء.
5. ثمرة المقطع الثالث (المنعة والسيادة)
ينتهي المقطع بالتأكيد على أن نتيجة هذا الثبات النفسي واليقيني كانت هي **"كفاية الله للمؤمنين القتال"**: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}.
* **الخلاصة:** عندما تنجح الأمة في اختبار "المفاهيم" والثبات النفسي، يتولى الله عز وجل كسر القوى المادية المعادية بآيات من عنده (الريح والجنود الغيبية).
بإيجاز: المقطع الثالث هو مقطع **"التطبيق العملي للتقوى والتوكل"** في ذروة الأزمة، وكيف يتحول الإيمان من كلمة تقال إلى صمود يغير موازين القوى على الأرض.

المقطع الرابع

ينتقل المؤلف في **المقطع الرابع** من كتابه "المفاهيم القرآنية من سورة الأحزاب" إلى مرحلة **"إعادة صياغة المنظومة الاجتماعية والأخلاقية"**، وهي المرحلة التي تلي الصمود العسكري و النفسي. يركز هذا المقطع على تنظيم البيت الداخلي للمجتمع المسلم، وتحديداً "بيت النبوة" كنموذج تطبيقي لبقية البيوت.
إليك أبرز المفاهيم التي تناولها هذا المقطع:
1. تخيير نساء النبي ﷺ (مفهوم الزهد القيادي)
يتناول المقطع الآيات التي عرضت "التخيير" على أمهات المؤمنين بين زينة الدنيا وبين الله ورسوله

والدار الآخرة.
* **المفهوم التربوي:** يرى المؤلف أن القيادة في الإسلام لا بد أن تتجرد من الرغبة في الترف المادي. فمنصب "القدوة" يتطلب تضحية بالكماليات لضمان النزاهة والارتباط بالمنهج.
* **الرسالة:** لا يمكن بناء مجتمع قوي وقائد بينما تنشغل بيوت القيادة بالرفاهية والتنافس المادي في وقت الأزمات.
2. مضاعفة المسؤولية (مفهوم المحاسبة على قدر المكانة)
يشرح المؤلف دلالة قوله تعالى: {يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}.
* **التحليل:** يؤصل الكاتب هنا لمفهوم **"المسؤولية التناسبية"**: فكلما زاد شرف المكانة و القرب من منبع الوحي، زادت المحاسبة. هذا المفهوم يكسر فكرة "الحصانة المطلقة" التي كانت سائدة في الجاهلية للطبقات الحاكمة.
3. صفات المجتمع القائد (منظومة القيم العشر)
يركز هذا المقطع بشكل مفصل على الآية الجامعة (الآية 35): {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ...}.
* **هيكل الشخصية:** يحلل المؤلف هذه الصفات العشر (الإسلام، الإيمان، القنوت، الصدق، الصبر، الخشوع، التصدق، الصوم، الحفظ، الذكر) باعتبارها **"مواصفات الجودة"** للإنسان الذي يستحق نصر الله.
* **المساواة القيمية:** يبرز المؤلف أن الخطاب القرآني هنا ساوى بين الرجل والمرأة في التكليف والجزاء، ليؤكد أن بناء المجتمع هو مسؤولية تضامنية لا تقبل التجزئة.
4. كسر الحرج الاجتماعي (قصة زواج النبي من السيدة زينب)
يتناول المقطع قضية زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد بن حارثة.
* **إبطال التبني عملياً:** يوضح الكاتب أن الله تعالى أراد كسر هذه العادة الجاهلية "بالفعل" لا بـ القول فقط، ليعلم الأمة أن **"السيادة للشرع"** فوق العادات والتقاليد المحرجة.
* **مفهوم الاستجابة:** الاستسلام لأمر الله حتى في الأمور التي قد تجلب كلام الناس أو نقد "المنافقين"، وهو قمة الاختبار لصدق الإيمان.
5. الخاتمة المنهجية للمقطع الرابع
ينتهي المقطع بالتأكيد على أن **"طهارة المجتمع"** وتنظيمه أخلاقياً هي الحصن الحقيقي الذي يمنع الاختراق الخارجي. فلا نصر عسكري (كالمذكور في المقطع الثالث) يدوم بدون انضباط أخلاقي وتشريعي في الحياة اليومية.
باختصار: المقطع الرابع هو مقطع **"التربية بالقدوة والتشريع"**، وكيف يتم تطهير المجتمع من رواسب الجاهلية النفسية والاجتماعية لإتمام بناء "الأمة النموذج".
المقطع الاخير
يختتم الكاتب أحمد عبد الرزاق مربوش العامري دراسته في **المقطع الأخير** بتناول القضايا الختامية لسورة الأحزاب، والتي تمثل "الخلاصة والتحذير الأخير"، مركزاً على مفهوم **الأمانة والعلا قة مع المجتمع الخارجي**.
إليك تحليل لأبرز مضامين المقطع الأخير:
1. صيانة الجبهة الداخلية (آداب البيوت والحجاب)
يتناول هذا المقطع الأحكام الختامية المتعلقة بالحجاب وضوابط التعامل الاجتماعي (آية الجلابيب).
* **المفهوم:** يرى المؤلف أن "العفة" ليست شأناً شخصياً فحسب، بل هي **إجراء أمني وقائي** لحماية المجتمع من "المرجفين" والذين في قلوبهم مرض. فكلما انضبط المجتمع أخلاقياً، قلّت ثغرات الاختراق التي يستغلها المنافقون لخلخلة الصف.
2. معركة "الوعي والإرجاف" (الحرب الإعلامية)
يركز المقطع على الوعيد الشديد للمرجفين في المدينة: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ...}.
* **التحليل:** يشرح الكاتب كيف أن السورة وضعت حداً فاصلاً لحرية التعبير التي تستهدف أمن الدولة المعنوي. الإرجاف (بث الشائعات) في وقت الأزمات يُعد خيانة عظمى، والسكوت عنه يؤدي إلى سقوط الدولة من الداخل قبل هجوم الأحزاب من الخارج.
3. المسؤولية الفردية أمام الساعة
يتعرض المقطع لسؤال الناس عن الساعة وبراء القادة والمتبوعين من بعضهم البعض يوم القيامة: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا}.
* **الرسالة:** التحذير من "التبعية العمياء" للزعامات الضالة أو المناهج الجاهلية. السيادة الحقيقية التي نادت بها السورة هي سيادة الفرد الذي يختار طاعة الله ورسوله حتى لو خالف سادة المجتمع وكبراءه.
4. قمة الهرم: "الأمانة العظمى"

يختم المؤلف بتحليل آية الأمانة في نهاية السورة: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا...}.
* **المفهوم:** يربط الكاتب بين بداية السورة (التقوى والقرار السياسي) ونهايتها (الأمانة). الأمانة هي **حرية الاختيار والقدرة على التكليف**. حمل الإنسان لهذه الأمانة يعني أنه مسؤول عن إقامة منهج الله في الأرض، وهي مسؤولية جسيمة تفوق قدرة الجبال، وتتطلب صدقاً لا يشوبه نفاق.
5. الثمرة الختامية: التميز عن أهل النفاق
تنتهي الدراسة بتوضيح الغاية من كل هذه الابتلاءات والتشريعات: ليعذب الله المنافقين والمشركين، ويتوب على المؤمنين والمؤمنات.
* **الخلاصة:** سورة الأحزاب بدأت بأمر النبي بالتقوى، وانتهت ببيان أن عاقبة هذه التقوى هي التوبة والرحمة، بينما عاقبة التفريط في "الأمانة" والانسياق خلف ضغوط "الأحزاب" هي الهلاك و العذاب.
بهذا المقطع، يغلق المؤلف دائرة "المفاهيم القرآنية"، مؤكداً أن سورة الأحزاب هي رحلة انتقال من الاستضعاف والابتلاء إلى التمكين القائم على الأمانة والمنظومة الأخلاقية الصلبة.

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمه تعريفيه بسورة الاحزاب
تعد سورة الأحزاب من السور المدنية ذات الطابع التشريعي والتربوي العميق، فهي لم تكتفِ بسرد أحداث تاريخية، بل وضعت دستوراً متكاملا ً لتنظيم المجتمع المسلم من الداخل وحمايته من الضغوط الخارجية.
فيما يلي عرض تفصيلي للسورة بناءً على المحاور التي طلبتها:
.1 مقدمة تعريفية بسورة الأحزاب
سورة الأحزاب هي سورة "التمحيص" و"التنظيم"، نزلت في مرحلة حرجة من تاريخ الدعوة) حول العام الخامس الهجري .(سُميت بهذا الاسم نسبةً لواقعة "الأحزاب") غزوة الخندق (حيث تكالبت قوى الكفر من الداخل والخارج لاستئصال شأفة المسلمين، فجاءت السورة لترسم حدود الاستقلال القلبي و السياسي للأمة.
.2 بيانات السورة الرقمية والزمنية
** * عدد آياتها: 73 **آية.
** * مكان نزولها: **مدنية) نزلت في المدينة المنورة.(
** * ترتيبها في المصحف: **السورة رقم (33) في ترتيب المصحف الشريف.
** * ترتيبها من حيث النزول: **نزلت بعد سورة آل عمران وقبل سورة الممتحنة، وتعتبر من السور التي نزلت في أواسط العهد المدني.
.3 التناسب والروابط البيانية
** * بين خاتمة سورة السجدة وبداية الأحزاب: **انتهت سورة السجدة) المكية (بالأمر بالإعراض عن الكافرين وانتظار نصر الله:} فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ .{فجاءت سورة الأحزاب) المدنية (لتبين** ماذا نفعل أثناء الانتظار؟ **وكيف نصنع الدولة التي تستحق ذلك النصر .الرابط هو الانتقال من صياغة "وجدان الفرد" الساجد لله في مكة، إلى صياغة "كيان الدولة" الملتزمة بتشريع الله في المدينة.
** * بين مقدمة السورة وخاتمتها:**
بدأت السورة بأمر النبي ﷺ بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين:} يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ{، وختمت ببيان "الأمانة" العظيمة التي حملها الإنسان:} إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .{...فالمقدمة تكليف بالثبات، والخاتمة تذكير بعظم المسؤولية الناتجة عن هذا الثبات.
.4 أغراض ومقاصد السورة
** * تحقيق السيادة لله: **إبطال العادات الجاهلية) كالظهار والتبني (التي تصادم شرع الله.
** * بيان مكانة النبي ﷺ: **توضيح حقوق النبي على أمته وأدب التعامل معه ومع آل بيته.
** * تمحيص الصف الداخلي: **كشف تذبذب المنافقين وبيان صفات المؤمنين الصادقين وقت الأ زمات.
.5 خصائص السورة وفضائلها
** * سورة التشريعات الاجتماعية: **تفردت بذكر أحكام الحجاب، وآداب البيوت، وقضية التبني، وتعدد زوجات النبي ﷺ.
** * الاحتفاء بالنبي ﷺ: **هي السورة التي احتوت على آية الصلاة على النبي ﷺ:} إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ.{...
** * إبطال الجاهلية: **كانت السورة حاسمة في هدم الموروثات الجاهلية التي تعيق حركة المجتمع المسلم نحو الاستقامة.
.6 المواضيع والقضايا الرئيسية
تنتظم السورة حول أربعة محاور أساسية:
** .1 المحور العقدي والسياسي: **الثبات أمام ضغوط الكفار والمنافقين، والتوكل على الله وحده في صناعة القرار.
** .2 المحور التاريخي) الابتلاء(: **عرض تفصيلي لغزوة الأحزاب وغزوة بني قريظة، وتصوير الزلزال النفسي الذي أصاب المسلمين.
** .3 المحور التشريعي والاجتماعي: **إبطال التبني، أحكام الطلاق، أحكام الحجاب، وتنظيم بيت النبوة كنموذج للمجتمع.
** .4 المحور الأخلاقي: **التأكيد على قيم الصدق، الوفاء بالعهد، الحياء، وتعظيم الأمانة.
.7 ملخص مقاصد السورة) في جملة(
سورة الأحزاب هي سورة** "الاستسلام لله والانقياد لأمره"**؛ فهي تعلم الأمة أن النصر لا يأتي بالعدد والعدة فقط، بل بطهارة المجتمع من الداخل، والارتباط الوثيق بالمنهج الإلهي، والالتفاف حول القيادة النبوية.

بسم الله الرحمن الرحيم
المقطع الاول
العلاقه بين ماورد فى نهايه سورة السجده وبين سورة الأحزاب
عندما تقف على ما ورد في نهايه سوره السجده فاعرض عنه وانتظر انهم منتظرون هذه السوره التي كانت تتحدث عن السجود والخضوع لله عز وجل والانقياد باعتباره الطريق للنجاه والسلامه وهي سوره مكيه لم يكن للمؤمنين دوله اما في سوره الاحزاب المدنيه فقد صار للمسلمين دوله ولهذا فعندما تتحدث عن الرابط بينهما فأنت تتحدث عن انتقال الوحي من صياغة** "وجدان الفرد" **في مكة إلى صياغة** "كيان الدولة" **في المدينة، وهذا الربط بين "السجود" و"الأحزاب" يمثل فلسفة الا نتقال من العبادة الشعائرية إلى العبادة التشريعية والسياسية .
وإليك شرح مفصل يربط بين السورتين من منظور) بناء الشخصية (و)إدارة الدولة(:
.1 سورة السجدة: "صناعة الخليفة الفرد") المرحلة المكية(
في مكة، كان الصراع عقديًا بحتًا، والهدف هو تثبيت "عمود الخيمة" في قلب المؤمن.
** * دلالة السجود: **السجود في السورة ليس مجرد حركة، بل هو رمز لـ** "الاستسلام المطلق" ** في وقت المستضعفين .كان المطلوب من الفرد أن يسجد بقلبه وعقله لله وحده، رافضًا السجود للأ صنام أو ضغوط المجتمع.
** * طبيعة الضغوط: **كانت ضغوطاً خارجية) استهزاء، تعذيب، جحود .(العدو واضح ومجابهته تكون بالصبر والإعراض.
** * فأعرض عنهم وانتظر: **هذا الختام هو "أمر بالانسحاب النفسي" من عبث الكفار .أنت كفرد مؤمن لست مأمورًا بتغيير الواقع السياسي حينها، بل مأمور بحماية إيمانك وانتظار الوعد الإلهي .الا نتظار هنا هو** "انتظار التمكين".**
.2 سورة الأحزاب: "صناعة المجتمع والقائد") المرحلة المدنية(
عند الانتقال للمدينة، لم يعد المسلم فردًا يختبئ بإيمانه، بل أصبح جزءًا من "دولة" لها قيادة وأسرة وعلاقات دولية.
** * من السجود إلى التشريع: **إذا كان السجود في "السجدة" هو خضوع الجوارح في الصلاة، فإن "الأحزاب" تعلمك أن السجود لله في الدولة يكون عبر** "الالتزام بحدوده" **في الزواج، والطلاق، و المواريث، وإدارة الحروب.
** * تغير طبيعة الضغوط(الفخ السياسى) في. هذه المرحله فان الضغط من الأحزاب لم يعد "اضطهادًا"كما كان فى مكه بل أصبح** "مقترحات ودبلوماسية خبيثة".**
** * المنافقون: **يضغطون من الداخل تحت ستار "المصلحة الوطنية" أو "الواقعية".
** * الكفار: **يضغطون من الخارج تحت ستار "المعاهدات" أو "التنازلات المتبادلة".
** * يا أيها النبي اتقِ الله: **هذه البداية هي "كابح جماح" لأي تفكير في تقديم تنازلات تمس جوهر التوحيد .نداء الله للنبي ﷺ بالتقوى هنا هو تذكير بأن "السياسة" لا تعني التحلل من "العبودية".
.3 معالم الطريق في "الأحزاب") الحزم والعزم(
سورة الأحزاب جاءت لترسم حدود "السياسة الشرعية" التي تمنع ذوبان الدولة المسلمة في المنظومات الجاهلية:
** * القيادة) التوكل لا التنازل(: **في مكة كان الأمر "أعرض"، في المدينة الأمر** "وتوكل على الله " .**التوكل هنا فعل سياسي يعني الاعتماد على قوة الله أمام "الأحزاب" المتكالبة، وليس الركون لمقترحاتهم الخادعة.
** * الأسرة والمجتمع: **بدأت السورة بإبطال عادات جاهلية) الظهار، التبني (لتؤكد أن الدولة المسلمة تُبنى على "الحقائق" لا على "الأوهام والتقاليد" التي قد يطالب المنافقون بالإبقاء عليها للمجاملة الا جتماعية.
** * المواجهة العسكرية: **حين جاءت الأحزاب، كشفت السورة الفارق بين "المؤمن الذي سجد لله حقا" فثبت، وبين "المنافق الذي في قلبه مرض" فارتجف.
.4 الربط الجوهري: لماذا "الأحزاب" بعد "السجدة"؟
العلاقة بينهما هي علاقة)** الاستعداد بالنتيجة**(:
** .1 الاستعداد) السجدة(: **انحن لله وحده في خلوتك) مكة(، لكي تستطيع الوقوف صامدًا أمام العالم كله) المدينة.(
** .2 النتيجة) الأحزاب(: **إذا لم يتحقق السجود والانقياد القلبي في سورة السجدة، سيسقط القائد أو المجتمع في فخ التنازلات المذكورة في سورة الأحزاب.
** .3 تسمية الأحزاب: **سُميت السورة بالأحزاب لتؤكد أن الدولة قد تواجه "تحالفات" كونية ضدها، وفي هذه اللحظة لا ينفع "الانتظار" السلبي، بل "الانتظار" الإيجابي المتمثل في الثبات على الكتاب وعدم طاعة الكافرين والمنافقين.
إذن: **الانتقال من) فأعرض عنهم **(في السجدة إلى)** ولا تطع الكافرين والمنافقين **(في الأ حزاب، هو انتقال من "أدب الاستضعاف" إلى "قوة الاستعلاء بالإيمان"؛ حيث يصبح الإعراض عن

مقترحاتهم الخبيثة هو قمة الحكمة السياسية والحزم القيادي.
فهذا الربط يوضح كيف أن "السياسة" في المنظور القرآني هي في الحقيقة امتداد لـ "السجود" و العبودية لله؟
الأمر الثانى
بناءً على ماسبق يمكننا بلورة الرؤية النهائية لهذا الربط القرآني العجيب في نقاط مركزية ترسم ملا مح **"فلسفة القوة والتمكين"** في الفكر الإسلامي:
1. السجود كمنطلق للسيادة
في سورة السجدة، كان التركيز على **"أصل الخلق"** و**"البعث"** و**"خضوع الجوارح"**. هذا البناء النفسي هو الذي أوجد "الإنسان الصامد" الذي لا ينكسر.
* **الربط:** لا يمكن لقائد أو مجتمع أن يقف في وجه "الأحزاب" (الضغوط الدولية والتحالفات الخارجية) ما لم يكن قد حسم قضية السجود لله أولاً. فمن سجد لله حقاً، استعلى على السجود للمصالح الضيقة أو الخوف من القوى المادية.
2. من "إعراض المسالم" إلى "إعراض القوي"
* **في السجدة (فأعرض عنهم):** هو إعراض المترفع عن السفاهة، إعراض من يركز على بناء ذاته في مرحلة الاستضعاف.
* **في الأحزاب (ولا تطع):** هو إعراض السياسي المحنك الذي يدرك أن "مقترحات" العدو هي فخاخ مغلفة بالدبلوماسية. النهي عن الطاعة هنا ليس مجرد رفض شعوري، بل هو **قرار سيادي** بعدم السماح للمنافقين والكفار باختراق "صناعة القرار" داخل الدولة المسلمة.
3. فتنة "المقترحات" مقابل "الوحي"
أن الضغوط في المدينة صارت "مقترحات". سورة الأحزاب جاءت لتقول إن **"المرجعية"** في دولة التوحيد ليست "المناورات السياسية" التي تضحي بالثوابت، بل هي الوحي:
> **﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾** (الأحزاب: 2).
> هذا توجيه للقائد بأن النجاح السياسي الحقيقي يكمن في مراقبة الله (الخبير بما تعملون) لا في إرضاء الأطراف الدولية على حساب جوهر الدين.
>
4. تكامل الأدوار (البيت، المجتمع، الجبهة)
سورة الأحزاب لم تكتفِ بتوجيه القائد، بل نظمت "البيت الداخلي":
* **بيت النبي ﷺ ونساء النبي:** كنموذج للقيادة والقدوة.
* **إبطال التبني والظهار:** لتطهير المجتمع من الأوهام القانونية الجاهلية.
* **غزوة الأحزاب وبني قريظة:** لبيان كيفية إدارة الأزمات العسكرية والأمنية.
هذا التكامل يوضح أن "دولة التوحيد" هي وحدة واحدة؛ إذا اختل فيها نظام الأسرة أو فُقد فيها الحزم مع المنافقين، انهارت الدولة أمام الأحزاب الخارجية.
5. دلالة الخاتمة والافتتاح (الانتظار المثمر)
حين قال الله في ختام السجدة **﴿وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾**، كان يبشر المؤمنين بأن دائرة الزمن ستدور. ولما دارت ووصلوا إلى "الأحزاب"، أخبرهم أن الانتظار قد انتهى وبدأ وقت **"الامتحان الكبير"**.
* تسمية السورة بـ **"الأحزاب"** هي تذكير دائم بأن طريق التمكين محفوف بتكالب الأعداء، وأن سلاح المواجهة ليس كثرة العدد، بل هو **"التوكل"** الذي بدأت به السورة، و**"الثبات"** الذي هو ثمرة السجود لله.
النتيجة:
لقد انتقل الخطاب من **"صناعة "العبد الساجد"** في سورة السجدة، إلى **"صناعة "المجتمع الساجد"** (المنقاد لأمر الله في حربه وسلمه وسياسته) في سورة الأحزاب. وهذا هو جوهر "الخلافة" التي أشرتَ إليها؛ فهي ليست مجرد حكم، بل هي تمكين لمنهج الله في الأرض بحزم وعزم، دون الا لتفات لمقترحات المرجفين أو تنازلات المنهزمين
القسم الاول
الاصول الرئيسيه التي تقوم عليها شرائع الاسلام من الايه واحد الى الايه ثلاثه.
المبحث الأول

رحلة تدبرية في رحاب الآية الأولى من سورة الأحزاب

مقدمة: من الانتظار إلى المواجهة ..ميلاد جديد للروح

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - ذلك المشهد المهيب في تاريخ الدعوة الإسلامية ..لحظة فارقة تنتقل فيها الأمة من طور إلى طور، ومن حال إلى حال..

تصوّر معي ذلك المشهد العظيم: المدينة المنورة وقد أحاطت بها جيوش الأحزاب من كل جانب، عشرة آلاف مقاتل اجتمعوا من قريش وغطفان وبني قريظة، يريدون استئصال هذا الدين من جذوره . وفي الداخل، طابور خفي من المنافقين يمارسون حربًا نفسية لا تقل ضراوة عن حرب السيوف، يهمسون في الأذن تارة، ويرفعون أصواتهم تارة أخرى: "ألا تسمعون؟ ألا تراعون مصالحكم؟ ألا تقدمون تنازلات تعصم دماءكم؟"

هذا هو المشهد الذي تنزلت فيه سورة الأحزاب ..سورة حملت اسمًا يكشف طبيعة المعركة: إنها ليست معركة مع عدو واحد، بل مع أحزاب متعددة، جبهات متشعبة، مؤامرات متداخلة.

وقبل أن نقف على عتبة هذه السورة العظيمة، دعني آخذ بيدك إلى الوراء قليلا ً ..إلى خواتيم سورة السجدة المكية، حيث كان الأمر الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾.

تأمل معي هذا الانتقال العجيب! هناك في مكة، حيث الضعف والقلة، كان الأمر: أعرض وانتظر .ولكن هنا في المدينة، وقد أصبح للمسلمين دولة وكيان، تغيرت طبيعة المرحلة تمامًا .لم يعد الأمر مجرد إعراض وانتظار، بل أصبح الأمر: مواجهة وثبات.

فكأن خواتيم السجدة كانت تمهيدًا نفسيًا، وإعدادًا قلبيًا، وتربية روحية لما سيأتي في الأحزاب .لقد كان الإعراض هناك تدريبًا على ضبط النفس، وتهذيبًا للانفعالات، حتى إذا جاءت لحظة المواجهة الكبرى، كان القلب مهيأ، والنفس مطمئنة، والروح ثابتة.

والآن ..دعنا نفتح معًا المصحف على أول سورة الأحزاب، ولنقرأ هذه الآية الكريمة التي ستغير مفهومنا عن القيادة، وعن الثبات، وعن العلاقة مع الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

آية واحدة ..سبع عشرة كلمة ..لكنها - والله - منهج حياة كامل، ودستور قيادة شامل، ومدرسة تربوية متكاملة .دعنا نبحر في أعماقها معًا، ولنفتح قلوبنا وعقولنا لتلقي دررها وكنوزها.

المحور الأول:
دلالة افتتاح السورة - إعلان الاستقلال المنهجي

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

قف معي عند هذا الافتتاح المهيب ..إنه ليس افتتاحًا عاديًا لسورة من سور القرآن، بل هو إعلان مدوٍ ، وصيحة حق في وجه الباطل المتجمع من كل حدب وصوب.

هل تدرك العلاقة العميقة بين هذا الافتتاح واسم السورة "الأحزاب"؟

الأحزاب ..اسم يوحي بالتكتل والتجمع والتآمر .قريش من هنا، وغطفان من هناك، ويهود بني قريظة من الداخل .كلهم اجتمعوا على هدف واحد: استئصال الإسلام .ولكن الأخطر من ذلك كله: المنافقون الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين، يأكلون معهم، ويصلون معهم، ويتحدثون بلغتهم، ولكن قلوبهم مع العدو.

وفي هذه اللحظة الحرجة، حيث الضغوط تتصاعد من كل جانب:

· ضغوط عسكرية خارجية: عشرة آلاف مقاتل يحاصرون المدينة.
· ضغوط سياسية داخلية: المنافقون يطالبون بالتنازلات والمهادنة.
· ضغوط نفسية عصيبة: الخوف والقلق والترقب.

في هذه اللحظة بالذات، ينزل الوحي بهذا الأمر الحاسم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

يا للروعة! إنها لحظة فارقة في تاريخ الصراع بين الحق والباطل .إن الله تعالى يضع القاعدة الذهبية:

لا طاعة للكافرين والمنافقين مهما كانت الظروف، ومهما اشتدت الضغوط، ومهما بدت مقترحاتهم معقولة ومقنعة.

تأمل معي - رعاك الله - كيف أن هذا الأمر لم يأتِ في أول السورة عبثًا ..لقد كان بمثابة حجر الأ ساس الذي ستبنى عليه كل المواقف التالية .إنه إعلان واضح وصريح: المنهج فوق كل الاعتبارات، و المبادئ لا تخضع للمساومات، والثوابت لا تذوب تحت ضغط الواقع.

والآن دعني أسألك سؤالا ً قد يتبادر إلى ذهنك: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى هذا النهي؟ حاشاه صلى الله عليه وسلم! فهو المعصوم المؤيد بالوحي، وهو سيد الخلق وأتقاهم لله.

وهنا تكمن روعة القرآن وعظمته التشريعية والتربوية:

أولا ً: قطع الأطماع
إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم - وهو سيد الخلق - يُؤمر بعدم طاعة الكافرين والمنافقين، فمن باب أولى وأحرى أن ينقطع رجاء الكفار والمنافقين في التأثير على من دونه من المؤمنين .إنه خطاب للنبي ظاهره، ولكن رسالته موجهة إلى الأمة جمعاء.

ثانيًا: المنهج فوق الأشخاص
هذا الأمر يؤكد قاعدة كلية: لا أحد - مهما علا قدره وارتفعت مكانته - يخرج عن دائرة العبودية لله والالتزام بأمره .إنها رسالة تربوية عظيمة: الكل سواسية أمام شرع الله.

ثالثًا: التحذير من المقترحات المغلفة بغلاف المصلحة
الخطاب هنا يخص محاولات الإغراء بالحلول الوسط والتنازلات المبدئية .إنه يعلمنا أن بعض المقترحات قد تأتي في قالب المصلحة والسياسة، ولكنها في حقيقتها سم زعاف يقتل المبادئ ويهدم الثوابت.

لمسات بيانية وبلاغية تذهل العقول

توقف معي عند هذا النهي: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾

لم يقل: "لا تسمع" أو "لا تقبل" أو "لا تلتفت" ..بل قال: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ .والطاعة تعني الانقياد والاتباع مع ا لإرادة والاختيار.

إن هذا اللفظ يحمل في طياته رسالة عميقة:

· تحذير من الانزلاق التدريجي: فالطاعة قد تبدأ بتنازل صغير، ثم تنازل أكبر، حتى يجد الإنسان نفسه وقد انسلخ من مبادئه دون أن يشعر.
· تأكيد على الاستقلالية التامة: لا مجرد رفض للاستماع، بل رفض للطاعة والاتباع والانقياد.
· قطع للطمع من الجذور: إنه نهي قاطع لا يحتمل التأويل.

ثم تأمل معي هذا الترتيب العجيب: ﴿الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾

لماذا قدم الكافرين على المنافقين مع أن خطر المنافقين أشد؛ لأنهم من الداخل؟

إنه ترتيب دقيق يحمل دلالات عميقة:

· الكافرون: خطرهم ظاهر مكشوف، يمكن الاحتراز منه والاستعداد له.
· المنافقون: خطرهم خفي مستتر، يأتي في ثوب النصيحة وعباءة المصلحة.

والقرآن يبدأ بذكر الخطر الظاهر لأنه الأصل، ثم ينتقل إلى الأخطر وهو الخطر الخفي .إنه يعلمنا ترتيب الأولويات في التعامل مع الأخطار.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

دعني أهمس في أذنك بهذه الرسائل التي تحملها الآية بين حروفها:

الرسالة الذهنية:
كن يقظًا ..اعرف مصادر التأثير التي تحيط بك .هناك كافرون يظهرون عداوتهم، وهناك منافقون يتظاهرون بالصداقة .لا تنخدع بالمظاهر، وكن على وعي تام بكل من يحاول التأثير على قراراتك ومبادئك.

الرسالة القلبية:
ثق بأن الله معك .عندما تأمرك الآية بعدم طاعة الكافرين والمنافقين، فهي في الوقت نفسه تطمئنك بأن الله لن يتركك وحدك في هذه المواجهة.

الرسالة النفسية:
أنت لست مضطرًا لإرضاء الجميع .تعلم أن تقول "لا" في وجه الضغوط التي تمس ثوابتك .القوة النفسية الحقيقية تكمن في القدرة على الثبات في وجه العواصف.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك وطلابك كيف يكونون مستقلين في تفكيرهم وقراراتهم .ازرع فيهم القوة الداخلية التي تجعلهم يواجهون ضغوط الأقران والمجتمع بثبات وثقة.
المحور الثاني:
دلالة النداء بـ "النبي" - تشريف وتكليف وتربية

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾

قف معي طويلا ً عند هذا النداء العلوي الجليل ..إنه ليس مجرد نداء عابر، بل هو خطاب يحمل في طياته أبعادًا نفسية وتربوية عميقة، سنكتشفها معًا.

أولا ً: هل هذا النداء للتشريف أم للتكليف؟

الإجابة: إنه تشريف في ثوب التكليف.

عندما يناديك الله تعالى، فإنه يشرفك أولا ً، ثم يكلفك ثانيًا .إنه يرفع من قدرك ومنزلتك قبل أن يحملك المسؤولية .وتأمل معي كيف أن الله تعالى لم يقل: "يا محمد" - مع أنه أحب الأسماء إليه - بل قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ..لماذا؟

لأن صفة "النبوة" هي الصفة المرتبطة بالمهمة الملقاة على عاتقه .إن الله تعالى يذكره بمقامه السامي، وبرسالته العظيمة، وبتلك الصلة الوثيقة بالوحي التي تميزه عن سائر البشر .ثم بعد هذا التشريف و التذكير، يأتي التكليف: ﴿اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾

ثانيًا: تكرار لفظ "النبي" في سورة الأحزاب

هل تعلم أن لفظ "النبي" تكرر في هذه السورة 15 مرة؟ إنه رقم ليس بالهين، وله دلالته العميقة في سياق السورة.

لماذا هذا التكرار الكثيف في هذه السورة بالذات؟

تأمل معي طبيعة الظروف التي نزلت فيها السورة:

· تكالب الأحزاب من الخارج والداخل.
· ضغوط نفسية هائلة على النبي صلى الله عليه وسلم.
· محاولات مستمرة للتأثير على قراراته ومواقفه.

في مثل هذه الظروف العصيبة، يحتاج القائد إلى دعم نفسي مستمر، وإلى تثبيت معنوي دائم .وهنا يأتي التكرار القرآني المعجز: كلما اشتدت الأزمة، ناداه الله بـ "النبي" ليمده بالقوة والثبات.

إنها رسالة تربوية عظيمة لكل مربٍ وقائد: الاهتمام بالجانب النفسي للمتربي لا يقل أهمية عن الجانب المعرفي والمهاري.

ثالثًا: كيف يسهم هذا الأسلوب في تأصيل العلوم النفسية والتربوية الإسلامية؟

دعني أفتح لك نافذة على هذا الكنز التربوي:

إن هذه الآية بهذا الأسلوب الرفيع تقدم لنا مبادئ أساسية في التربية الإسلامية:

.1مبدأ التهيئة النفسية:
قبل أن تكلف المتربي بمهمة صعبة، هيئه نفسيًا .ارفع من معنوياته، ذكره بمكانته وقدراته، أشعره بثقته بنفسه .هذا ما فعلته الآية مع النبي صلى الله عليه وسلم.

.2مبدأ مراعاة طبيعة النفس البشرية:
النفس البشرية تتقلب، تحتاج إلى دعم، تتأثر بالضغوط .والآية تعلمنا أن نراعي هذه الطبيعة، وأن نتعامل معها بحكمة ورفق.

.3مبدأ الخطاب بالاسم المحبوب:
تأمل كيف ناداه الله بـ "النبي" وهو الاسم المرتبط بأعظم مهمة في الوجود .إنه يعلمنا أن ننادي المتربي بالاسم أو الصفة التي يحبها، وأن نرفع من شأنه قبل أن نكلفه.

.4مبدأ التثبيت في أوقات الأزمات:
في لحظات الضغط النفسي الشديد، يحتاج الإنسان إلى من يذكره بقيمته ومكانته .وهذا ما فعلته الآ ية مع النبي صلى الله عليه وسلم.

الرسائل التربوية الخالدة من هذا النداء العلوي

للآباء والمربين:
عندما تريد أن تكلف ابنك أو طالبك بمهمة صعبة:

· ابدأ بمناداته بأحب الأسماء إليه.
· ارفع من شأنه وذكره بمكانته.
· استخدم عبارات التشجيع والتقدير.
· خاطبه بلطف ورقة: "يا بني"، "يا شبل الإسلام"، "يا فتى المستقبل".

للقادة والمديرين:
عندما تواجه فريقك بأزمة أو تحدٍ:

· ابدأ بتذكيرهم بإنجازاتهم وقدراتهم.
· خاطبهم بألقابهم المحبوبة إليهم.
· اشعرهم بأهميتهم في المنظومة ككل.

للمصلحين والدعاة:
عندما تدعو الناس إلى الحق:

· ابدأ بالتشريف قبل التكليف.
· ارفع من قدر المخاطب قبل أن تطالبه بالتغيير.
· استخدم ألفاظًا لطيفة محببة إلى النفوس.

تأمل معي كيف أن هذه الآية القصيرة تحمل في طياتها أصولا ً في علم النفس التربوي، سبقت بها النظريات الحديثة بأكثر من ألف وأربعمائة عام!
المحور الثالث:
دلالة الأمر بالتقوى - البوصلة التي لا تضل

.{اتق الله}.

ثلاث كلمات فقط ..ولكنها تحمل في طياتها منهج حياة متكامل، ودستور قرارات لا يخطئ، وبوصلة لا تضل أبدًا.

دعني أسألك سؤالا ً صادقا: عندما تقف أمام قرار مصيري في حياتك - زواج، وظيفة، شراكة، سفر، استثمار - ما هي بوصلتك؟ بماذا تهتدي؟ وعلى أي أساس تبني قرارك؟

الآية تعطيك الإجابة في كلمتين: ﴿اتقِ اللهَ﴾.

ما معنى التقوى في هذا السياق؟

التقوى هنا ليست مجرد شعائر تعبدية منعزلة عن واقع الحياة .كلا والله! إنها منظومة متكاملة تحكم كل حركاتك وسكناتك، كل قراراتك وخياراتك، كل علاقاتك وتعاملاتك.

التقوى في الآية تعني:

.1التقوى كحصن منيع:
إنها الوقاية التي تحمي القائد والمربي والإنسان العادي من السقوط في فخ التنازلات المبدئية .عندما تضع التقوى نصب عينيك، فإنك تبني حائط صد منيعًا ضد كل محاولات الاختراق الفكري والنفسي.

.2التقوى كبوصلة للقرارات:
قبل أن تتخذ أي قرار مصيري، اسأل نفسك بصدق:

· هل هذا القرار يرضي الله؟
· هل أقدم التقوى على المصلحة الشخصية العاجلة؟
· هل أنا على استعداد لتحمل تبعات هذا القرار أمام الله؟

.3التقوى كملاذ آمن:
في عالم تتجاذبه المصالح والأهواء، حيث تتغير المعايير وتتبدل القيم، تبقى التقوى هي الملاذ الآمن الذي يحفظ للإنسان بوصلته الأخلاقية.

تأمل معي هذا الترتيب العجيب في الآية:

لقد بدأ الله تعالى بالتقوى قبل النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين: ﴿اتقِ اللهَ وَلَا تطعِ الكافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ﴾.

لماذا هذا الترتيب؟

لأن التقوى هي الدرع الواقي الذي يسبق المعركة .لا يمكنك أن تواجه الضغوط الخارجية إلا إذا كنت محصنًا من الداخل .لا يمكنك أن تقول "لا" للآخرين إلا إذا كنت قد ملأت قلبك بـ "نعم" لله.

إنها رسالة نفسية عميقة:
عندما تشعر بثقل التكاليف، وبضخامة المسؤوليات، وبشدة الضغوط من حولك، تذكر أن الحل يبدأ من الداخل: اتق الله أولا ً، ثم واجه العالم بعد ذلك.
المحور الرابع:
دلالة النهي عن الطاعة - الوعي بمصادر التأثير

﴿وَلَا تطعِ الكافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ﴾.

قف معي الآن عند هذا النهي الإلهي الصريح .إنه ليس مجرد نهي عن طاعة فئة معينة في زمن معين، بل هو درس في الوعي بمصادر التأثير يمتد عبر الزمان والمكان.

من هم الكافرون والمنافقون في سياق الآية؟

في السياق التاريخي المباشر:

· الكافرون: الأحزاب المتجمعة من قريش وغطفان وغيرهم، يريدون اجتياح المدينة واستئصال الإسلام.
· المنافقون: عبد الله بن أبي وأتباعه، الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ويمارسون الضغوط

السياسية والنفسية على النبي صلى الله عليه وسلم.

ولكن القرآن الكريم ليس كتابًا تاريخيًا يُقرأ للاطلاع على أحداث الماضي فقط .إنه كتاب هداية للبشرية إلى يوم القيامة .ولذلك، فإن الآية تفتح أعيننا على الكافرين والمنافقين في كل عصر ومصر.

من هم الكافرون والمنافقون في حياتنا المعاصرة؟

دعني أرسم لك صورة واضحة تعينك على فهم الواقع من حولك:

الكافرون المعاصرون:

· كل من يعلن صراحة عداءه للإسلام وقيمه ومبادئه.
· التيارات الفكرية والإعلامية التي تروج للعلمانية المطلقة والإلحاد.
· الأنظمة والقوى العالمية التي تفرض أجندتها وقيمها على المجتمعات المسلمة.

المنافقون المعاصرون:

· المنتسبون للإسلام اسمًا، ولكنهم في قرارة أنفسهم يتبنون قيم الغرب المادية.
· المثقفون الذين يطالبون بـ "تطوير الإسلام" بما يتوافق مع "العصر الحديث".
· الإعلاميون والفنانون الذين يظهرون بمظهر المسلمين، ولكنهم يمارسون دور "حصان طروادة" في اختراق المجتمع.
· أصحاب النفوذ والمال الذين يستخدمون الإسلام شعارًا، ولكنهم يمارسون الفساد والإفساد.

الوعي بمصادر التأثير: رسالة ذهنية في غاية الأهمية

إن الآية توقظ عقلك وتنبه وعيك إلى حقيقة خطيرة: طاعة غير المؤمنين لا تعني فقط اعتناق أفكارهم ومعتقداتهم، بل قد تكون:

.1بتبني قيمهم المادية:
عندما يصبح مقياس النجاح في حياتك هو المال فقط، وتضحي بقيمك وأخلاقك من أجل الحصول عليه، فأنت في الحقيقة تطيع الكافرين والمنافقين الذين جعلوا المادة إلهًا من دون الله.

.2بقبول أساليبهم في التعامل:
عندما تبرر الغش في التجارة "لأن السوق كله كده"، أو ترضى بالرشوة "لأن الدنيا ماشية كده"، فأنت تطيع المنافقين الذين يزينون لك مخالفة شرع الله.

.3باستباحة ما حرم الله خوفًا أو طمعًا:
عندما تتنازل عن مبادئك خوفًا من فقدان وظيفة، أو طمعًا في ترقية، أو حرصًا على علاقة، فأنت في الحقيقة تطيع الكافرين والمنافقين الذين يضغطون عليك للتنازل عن دينك.

لمسات بيانية وبلاغية مذهلة

تأمل معي هذه الدقة القرآنية المعجزة:

.1تقديم الكافرين على المنافقين:
لماذا قُدم الكافرون وهم أقل خطرًا من المنافقين؟

· لأن خطرهم ظاهر يمكن التحصن منه.
· ولأنهم الأصل والمنافقون فرع عنهم.
· ولأن تقديم الأقل خطرًا يمهد لذكر الأخطر، فيكون وقع النهي عن طاعة المنافقين أشد وأقوى.

.2استخدام صيغة "لا تطع" بدلا ً من "لا تسمع" أو "لا تقبل":
الطاعة تعني الانقياد الكامل مع الرضا والاختيار .والنهي عنها يعني:

· رفض أي شكل من أشكال التبعية الفكرية أو السياسية.
· الحفاظ على الاستقلالية التامة في القرار والموقف.

· عدم السماح لأي جهة خارجية بالتأثير على مسار الأمة.

الرسائل التربوية والنفسية والذهنية

الرسالة الذهنية:
كن واعيًا بمصادر التأثير من حولك .ليس كل من ابتسم في وجهك صديق، وليس كل من أظهر النصح مخلص .تعلم أن تقرأ ما وراء الكلمات، وأن تدرك الخلفيات الفكرية لمن تتعامل معهم.

الرسالة النفسية:
أنت أقوى مما تتصور .لست مضطرًا للانسياق وراء ضغوط المجتمع أو الأقران .لديك القدرة على قول "لا" في وجه كل ما يخالف مبادئك وقيمك.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك كيف يواجهون ضغوط المجتمع .ازرع فيهم القوة الداخلية التي تجعلهم يرفضون الانحراف حتى لو كان الجميع يسيرون في طريقه.

الرسالة العملية:
الآية تجعل المسلم يواجه أحزاب الضغوط الاجتماعية والإعلامية المعاصرة بثبات .إنها تمنحه القوة ليرفض التنازل عن الثوابت مقابل مغريات زائلة.
المحور الخامس:
ختام الآية - الطمأنينة في ظل العلم والحكمة الإلهية

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

تأمل معي هذا الختام العظيم للآية الكريمة .إنه ليس مجرد ختام تقليدي، بل هو مرساة نفسية تثبت القلب في أوقات العواصف، وطمأنة ربانية تهدئ النفس في لحظات الاضطراب.

لماذا ختمت الآية بهذين الاسمين الجليلين: "عليمًا حكيمًا"؟

أولا ً: "عليمًا"
الله سبحانه عليم بكل شيء:

· عليم بحالك وما تمر به من ضغوط.
· عليم بنوايا الكافرين والمنافقين وما يبيتونه لك.
· عليم بمآلات الأمور وعواقب القرارات.
· عليم بما هو خير لك في العاجل والآجل.

عندما تعلم أن الله عليم بحالك، فإن قلبك يمتلئ طمأنينة .أنت لست وحدك في هذه المعركة .هناك من يراك، هناك من يسمعك، هناك من يعلم ما تخفيه الصدور.

ثانيًا: "حكيمًا"
الله سبحانه حكيم في تدبيره وأمره:

· حكيم فيما يأمرك به وما ينهاك عنه.
· حكيم فيما يقدره عليك من ابتلاءات.
· حكيم فيما يؤخر عنك من نصر أو تمكين.

عندما تعلم أن الله حكيم، فإن عقلك يسكن وقلبك يطمئن .ربما لا تدرك الآن الحكمة من هذا الأمر أو ذاك، ولكن ثق أن هناك حكمة بالغة، ستتجلى لك يومًا ما.

الرسالة النفسية العميقة في هذا الختام

إن هذا الختام القرآني المعجز يخاطب أعمق أعماق النفس البشرية:

عندما تتخذ قرارًا صعبًا:

تذكر أن الله عليم بحالك، حكيم في تدبيره .هذا التذكر يمنحك القوة والثبات، ويحررك من الخوف و التردد.

عندما تواجه ضغوطًا للتخلي عن مبادئك:
تذكر أن الله يعلم ما تفعل، وأنه حكيم فيما أمرك به .هذا التذكر يحصنك ضد الإغراءات والمساومات.

عندما تشعر بالوحدة في طريق الحق:
تذكر أن الله عليم بك، حكيم فيما قدره عليك .هذا التذكر يملأ قلبك أنسًا وطمأنينة.

إنها معادلة نفسية عجيبة:
كلما زاد يقينك بعلم الله وحكمته، زادت قوتك وثباتك في وجه العواصف .وكلما ضعف هذا اليقين، ضعفت معه قدرتك على المواجهة.
ثانيًا: الموضوعات المتفرعة

الموضوع الأول:
أهم المفاهيم العملية من الآية

دعنا الآن نستخرج معًا الكنوز العملية التي تزخر بها هذه الآية العظيمة .إنها ليست آية للقراءة و التأمل فحسب، بل هي منهج عمل ودستور حياة.

.1مفهوم الاستقلالية الشخصية

كيف تربي الآية في المسلم الشخصية المستقلة؟

تأمل معي هذا المشهد التربوي العظيم: النبي صلى الله عليه وسلم - وهو سيد الخلق - يُؤمر صراحة بعدم طاعة الكافرين والمنافقين .إنها رسالة واضحة لكل مسلم: لا تكن إمعة، لا تكن تابعًا، لا تجعل رأيك تبعًا لرأي الآخرين.

الاستقلالية الشخصية التي تربيها الآية تعني:

· أن تتخذ قراراتك بناءً على قناعتك الشرعية، لا بناءً على ضغوط المجتمع.
· أن تكون قادرًا على قول "لا" في وجه كل ما يخالف مبادئك.
· ألا تجعل رضاك عن نفسك مرهونًا برضا الآخرين عنك.
· أن تتحرر من عقدة "الجماعة" التي تدفعك للتنازل عن قيمك خوفًا من النقد أو السخرية.

سؤال للتأمل:
كم مرة في حياتك اتخذت قرارًا لأن "كل الناس بيعملوا كده"؟
كم مرة تنازلت عن مبدأ لأنك خفت من نظرة المجتمع؟
الآية تحررك من كل هذا .إنها تمنحك القوة لتكون نفسك، لتكون مسلمًا صادقًا مع ربه، واثقًا من طريقه، ثابتًا على مبادئه.

.2مفهوم الانضباط بالتقوى

ثلاثة لا تقبل التنازل:

الآية ترسم لنا مثلثًا ذهبيًا للحياة المستقيمة:

.1حياة منضبطة بالتقوى: كل حركة وسكنة، كل قرار وخيار، يحكمه سؤال واحد: هل هذا يرضي الله ؟
.2وعي بالمؤثرات: لا تنخدع بالظواهر، وكن يقظًا لكل من يحاول التأثير على قراراتك ومبادئك.
.3ثقة بحكمة الله: مهما بدت الأمور معقدة، ومهما اشتدت الضغوط، ثق أن الله عليم حكيم.

هذه الثلاثة لا تقبل التنازل تحت أي مسمى:

· لا تحت مسمى "الواقعية": أن تكون واقعيًا لا يعني أن تتنازل عن مبادئك.

· لا تحت مسمى "المرونة": المرونة في الأسلوب لا تعني الذوبان في المبادئ.
· لا تحت مسمى "المصلحة": المصلحة الحقيقية هي ما وافق شرع الله، وما خالف التقوى فهو خسارة وإن بدا في الظاهر مكسبًا.

.3مفهوم المنعة النفسية

لماذا يُؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتقوى وهو سيد الأتقياء؟

هذا سؤال يفتح لنا بابًا عظيمًا في فهم النفس البشرية:

إن الأمر بالتقوى للنبي صلى الله عليه وسلم يرسخ مفهومًا عميقًا: الإنسان - مهما علا قدره وارتفعت مكانته - يحتاج دائمًا إلى تحصين نفسه من ضغوط البيئة المحيطة.

المنعة النفسية التي تزرعها الآية تعني:

· لا تقل: أنا قوي بما فيه الكفاية، لا أحتاج إلى مزيد من التقوى.
· لا تغتر بمنزلتك أو علمك أو تقواك، فالنفس البشرية ضعيفة بفطرتها.
· حصن نفسك دائمًا بذكر الله ومراقبته، فالشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

.4مفهوم الاستعلاء بالحق

عدم الطاعة ليس مجرد عناد:

عندما يرفض المسلم طاعة الكافرين والمنافقين، فإنه لا يفعل ذلك من باب العناد أو التعصب الأعمى . كلا والله!

إنه استعلاء إيمان:

· استعلاء بالحق الذي جاء من عند الله.
· استعلاء بالمبادئ والقيم التي لا تقبل المساومة.
· استعلاء يرفض أن يكون الفرد أو المؤسسة أو الدولة أداة في يد قوى معادية للقيم والمبادئ.

إنه موقف نابع من عزة المؤمن بدينه، وثقته بصحة منهجه، ويقينه بأن ما عند الله خير وأبقى.

.5مفهوم العلم والحكمة كأساس للقرار

ختام الآية يؤصل لمنهج متكامل في اتخاذ القرارات:

القرارات المصيرية يجب أن تبنى على:

· العلم: العلم بالواقع، العلم بالشرع، العلم بعواقب الأمور.
· الحكمة: وضع الأمور في نصابها، تقدير الأولويات، اختيار التوقيت المناسب.
· اليقين: اليقين بأن الله يعلم ما لا نعلمه من مآلات الأمور، والثقة بحكمته في تدبيره.

الموضوع الثاني:
أهم القيم المستنبطة من الآية

دعنا نستخرج معًا الدرر القيمية التي تقدمها هذه الآية العظيمة:

.1قيمة الثبات والاستقلالية

في عالم تتغير فيه المعايير وتتبدل فيه القيم كل يوم، تأتي هذه الآية لتمنحك قيمة الثبات:

· ثبات على المبدأ وإن تخلى عنه الناس.
· ثبات على الحق وإن كلفك ذلك غاليًا ونفيسًا.
· ثبات لا يعني الجمود، بل يعني وضوح الرؤية وثبات البوصلة.

.2قيمة الوضوح واليقين

الآية تعلمك ألا تكون ضبابيًا في مواقفك:

· كن واضحًا في رفضك لكل ما يخالف شرع الله.
· كن صريحًا في مواقفك، لا تهادن في الحق.
· كن واثقًا من طريقك، فأنت على نور من ربك.

.3قيمة ترتيب الأولويات

الآية تعلمك أن ترتب أولوياتك:

· رضا الخالق مقدم على استرضاء الخصوم.
· التقوى مقدمة على المصلحة العاجلة.
· الثبات على المبدأ مقدم على كسب العلاقات.

.4قيمة الحذر واليقظة

الآية تفتح عينيك على حقيقة خطيرة:

· المنافقون لا يأتونك بقولهم: "دع دينك" .كلا!
· إنهم يطرحون سمومهم في قوالب مقترحات جذابة: "لماذا لا تكون أكثر مرونة؟"، "العصر تغير ويجب أن نتغير معه"، "الواقع يفرض علينا أن نتنازل قليلا ً".
· الحذر واليقظة يعينانك على كشف هذه المقترحات المسمومة قبل أن تنطلي عليك.

الموضوع الثالث:
دور الآية في رسم معالم الطريق وبناء الدولة

هذه الآية ليست مجرد توجيه فردي، بل هي حجر الأساس في بناء الدولة المسلمة ودستور العلاقات الدولية في الإسلام.

.1الآية تضع حجر الأساس للسيادة الوطنية والقيمية

تأمل معي هذا المفهوم الخطير: الاستقلال القلبي والسياسي.

الدولة التي تضع أعداءها في موضع التأثير على جوهر دينها وقيمها هي دولة تابعة لا سيادة لها .إنها دولة فقدت استقلالها القلبي قبل أن تفقد استقلالها السياسي.

الآية تضع قاعدة ذهبية: لا طاعة للكافرين والمنافقين.

· لا في السياسة الداخلية.
· لا في السياسة الخارجية.
· لا في الاقتصاد.
· لا في الثقافة.
· لا في التعليم.
· لا في الإعلام.

إنها إعلان استقلال شامل لا يقبل التجزئة.

.2تحديد العدو والصديق

الآية تفرز المجتمع إلى ثلاث فئات واضحة:

· مؤمنون: هم الأساس الذي تبنى عليه الدولة.
· كافرون: عداوتهم ظاهرة، يمكن التعامل معهم بحذر وبما تقتضيه المصلحة دون تفريط في الثوابت.

· منافقون: خطرهم الأشد، لأنهم يعيشون في الداخل ويحملون أفكار العدو.

هذا الفرز القرآني يعين الدولة على وضع سياسات واضحة في التعامل مع كل فئة، دون الانجرار خلف أجنداتهم أو التأثر بضغوطهم.

.3الحزم القيادي

الدولة القوية هي التي تمتلك:

· موقفًا واضحًا لا غموض فيه ولا تردد.
· موقفًا ثابتًا لا يتغير بتغير الظروف أو تبدل المصالح.
· موقفًا حاسمًا أمام المساومات التي تمس الثوابت.

الآية تمنح القيادة القوة المعنوية لتكون حازمة في مواقفها، واضحة في قراراتها، ثابتة على مبادئها.
الموضوع الرابع:
دور الآية في بناء الشخصية والمجتمع والحضارة

.1بناء الشخصية المبدئية

الآية تصنع إنسانًا من طراز فريد:

· إنسانًا لا يشتريه المال: لأن ميزانه ليس المادة بل التقوى.
· إنسانًا لا تخيفه الضغوط: لأنه يثق أن الله عليم بحاله حكيم في تدبيره.
· إنسانًا لا يغريه المنصب: لأن همه الأكبر رضا الله لا رضا الناس.
· إنسانًا مستقل القرار: لا يتأثر بضغوط الأقران أو إغراءات المنصب والجاه.

.2بناء المجتمع المتماسك

عندما يتربى أفراد المجتمع على هذه الآية:

· يتحصن المجتمع ضد التحلل الأخلاقي، لأن المنافقين دائمًا ما يطالبون بتنازلات اجتماعية بدعوى التطور والانفتاح.
· يتماسك المجتمع في وجه العواصف، لأن أفراده موحدون على مبادئ واحدة.
· تتعزز الثقة بين أفراد المجتمع، لأن الكل يسير على هدي واحد.

.3بناء الحضارة الإنسانية

ختام الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يؤصل لحقيقة عظيمة:

الحضارة الحقيقية تقوم على العلم والحكمة المرتبطين بالله:

· العلم بلا تقوى: ينتج حضارة مادية مدمرة، تسخر العلم لإشباع الشهوات وتدمير البيئة وإفساد الفطرة.
· الحكمة بلا وحي: تنتج فلسفات بشرية قاصرة، تظن أنها تملك الحقيقة المطلقة وهي لا تملك إلا جزءًا يسيرًا من المعرفة.

أما الحضارة الإسلامية:

· فتقوم على العلم الذي ينير الطريق.
· والحكمة التي تضع الأمور في نصابها.
· والوحي الذي يربط كل ذلك بالله تعالى.

.4دور الآية في البناء والتنمية

قد يظن البعض أن التقوى بعيدة عن التنمية .ولكن الآية تثبت العكس تمامًا:

التنمية القائمة على التقوى تعني:

· محاربة الفساد: لأن "اتق الله" تعني الأمانة في المال العام والخاص.
· الإتقان في العمل: لأن مراقبة الله تدفع إلى إتقان العمل وإحسانه.
· حفظ الموارد: لأن التقوى تمنع الإسراف والتبذير وتدعو إلى الاستدامة.

التنمية المستقلة تعني:

· عدم طاعة الكافرين والمنافقين: بناء اقتصاد وطني وتنمية ذاتية لا ترتهن لشروط القوى الخارجية.
· رفض الوصاية الاقتصادية: التي تريد إبقاء المجتمع مستهلكًا تابعًا لا منتجًا مستقلا ً.

الحكمة في الإدارة تعني:

· وضع الأمور في نصابها الصحيح.
· تقدير الأولويات بدقة.
· الجمع بين العلم والخبرة من جهة، والتقوى والمراقبة من جهة أخرى.
الموضوع الخامس:
كيف نطبق الآية في حياتنا العملية اليوم؟

الآن نصل إلى السؤال الأهم: كيف أحول هذه الآية من مجرد كلمات أتلوها إلى منهج حياة أعيشه؟

.1في الوظيفة والعمل

عندما يطلب منك مديرك تجاوز القانون:
تذكر قوله تعالى: ﴿اتقِ اللهَ﴾ .التقوى هنا تعني: أن تتقي الله في عملك، فلا تتجاوز القانون، ولا ترتشي ، ولا تزور.

عندما يضغط عليك زملاؤك للسير في طريق ملتو:
تذكر قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الكافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ﴾ .لا تطعهم وإن كثر عددهم، وإن سخروا منك، وإن هددوك.

عندما تخاف من فقدان وظيفتك بسبب تمسكك بدينك:
تذكر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .الله عليم بحالك، حكيم في تدبيره .ثق أنه لن يضيعك.

.2في السياسة والإدارة

عندما تواجه ضغوطًا لتقديم تنازلات تضر بمصلحة أمتك:
تذكر أن الآية خطاب للقائد قبل أن تكون خطابًا للفرد .القائد الذي يطيع الكافرين والمنافقين يفقد أهليته للقيادة.

عندما تحاول جهات خارجية فرض أجندتها على بلدك:
الآية تعطيك القوة لترفض: "لا طاعة للكافرين والمنافقين" .سيادتك الوطنية وقيمك الحضارية لا تخضع للمساومة.

عندما تواجه ضغوطًا لتحسين صورتك أمام جهة معادية:
تذكر أن الصورة الحقيقية هي صورتك عند الله، لا عند أعدائه .﴿اتقِ اللهَ﴾ أولا ً، ثم انظر إلى ما سواه.

.3في الأسرة والتربية

عندما تواجه ضغوطًا مجتمعية في تربية أبنائك:

· الكل يرسل أبناءه إلى مدارس لا تهتم بالدين: لا تطع الكافرين والمنافقين.
· الكل يتساهل في مسألة الحجاب واللباس: لا تطع الكافرين والمنافقين.
· الكل يسمح لأبنائه بمشاهدة كل ما يعرض على الشاشات: لا تطع الكافرين والمنافقين.

عندما يضغط عليك أبناؤك باسم "كل أصحابنا بيعملوا كذا
علمهم هذه الآية .علمهم الاستقلالية والثبات .علمهم أن المسلم لا يكون إمعة.

عندما تحاول المنصات الإعلامية فرض قيمها على أسرتك:
الآية تحصن أسرتك ضد هذا الغزو الفكري والنفسي .أنت لديك مرجعيتك: التقوى، ولديك بوصلتك: الوحي، ولديك حصنك: العلم والحكمة الإلهية.

الخاتمة: مثلث القيادة الرشيدة

وصلنا إلى نهاية رحلتنا التدبرية مع هذه الآية العظيمة .ولكن قبل أن نغلق المصحف، دعنا نقف وقفة أخيرة نستجمع فيها كل ما تعلمناه.

الآية تعلمنا أن القيادة الرشيدة - سواء كانت قيادة أمة، أو مؤسسة، أو أسرة، أو حتى قيادة الإنسان لنفسه - تقوم على مثلث ذهبي متكامل:

الركن الأول: القلب الموصول بالله
﴿اتقِ اللهَ﴾
هذا هو الأساس .علاقة حية دائمة بالله .مراقبة مستمرة .خوف ورجاء .حب وتعظيم .هذا القلب الموصول بالله هو الذي يمد القائد بالقوة المعنوية والثبات النفسي.

الركن الثاني: الإرادة الصلبة تجاه الضغوط
﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾
هذا هو الموقف .إرادة فولاذية لا تلين .مبادئ واضحة لا تتغير .ثبات على الحق مهما اشتدت العواصف .هذه الإرادة هي التي تحمي القائد من السقوط في فخ التنازلات والمساومات.

الركن الثالث: العقل المتسلح بالعلم والحكمة
﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾
هذه هي الأداة .عقل يعرف الواقع، ويدرس الخيارات، ويقدر العواقب .عقل يستند إلى علم الله المطلق وحكمته البالغة .هذا العقل هو الذي يرشد القائد إلى القرارات الصائبة في الأوقات الحرجة.

هذا المثلث المتكامل هو الذي يبني:

- الفرد الخادم لأمته: القوي بدينه، الثابت على مبدئه، الواعي بواقعه.
- المجتمع المتماسك: الذي يجمع بين الإيمان والتقوى والوعي والثبات.
- الدولة المهابة: التي لا تبيع سيادتها في سوق المساومات، ولا ترهن قرارها بيد غيرها.

كلمة أخيرة إلى قلبك

أيها القارئ الكريم..

لقد طفنا معًا في رحاب آية واحدة من كتاب الله .آية لا يتجاوز عدد كلماتها سبع عشرة كلمة، ولكنها - والله - حملت من المعاني والدلالات ما لو كتبناه لملأنا مجلدات.

فكيف بكتاب الله كله؟ كيف بالقرآن العظيم الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾؟

إنني أدعوك - من أعماق قلبي - أن تجعل هذه الآية رفيقة دربك، وأن تستحضرها في كل موقف تواجه فيه ضغوطًا للتخلي عن مبادئك، وفي كل مرة تشعر فيها أن الطريق أصبح صعبًا، والثبات أصبح مرهقًا.

تذكر دائمًا:

- أنك لست وحدك، فالله معك: ﴿إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.
- أنك لست ضعيفًا، فالتقوى قوتك: ﴿اتقِ اللهَ﴾.
- أنك لست مضطرًا لإرضاء أحد على حساب دينك: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

اجعل هذه الآية نبراسًا يضيء لك الطريق، وحصنًا يحميك من الضغوط، ودستورًا يحكم حياتك.

المبحث الثاني
رحلة تدبرية في رحاب الآيتين الثانية والثالثة من سورة الأحزاب

تمهيد: بين يدي الوحي ..اتباع وتسليم

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا المشهد القرآني العظيم..

لقد وقفنا معًا في المحطة الأولى من رحلتنا التدبرية عند الآية الأولى، حيث تلقينا الأمر الإلهي الحاسم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ .كان ذلك إعلانًا للاستقلال المنهجي، ودرعًا منيعًا أمام كل الضغوط والمساومات.

والآن ..وبعد أن تلقى النبي صلى الله عليه وسلم هذا النهي القاطع عن طاعة أعداء الله، يأتي التوجيه الرباني ليكمل الصورة، وليبني المنظومة المتكاملة للثبات والقيادة الرشيدة.

لقد كان السؤال الذي قد يخطر ببالك - بل ببال كل مؤمن - بعد الآية الأولى: إذا كان الله قد نهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإلى من يلتجئ؟ وعلى أي شيء يعتمد؟ وما هو مصدر التوجيه و التعليم؟

وهنا يأتي الجواب القرآني المعجز في آيتين متتاليتين، كأنهما جناحان لطائر يحلق في سماء التمكين:

الجناح الأول: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾
الجناح الثاني: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

لاحظ معي هذا الترتيب العجيب: النهي أولا ً، ثم الأمر ثانيًا، ثم التوكل ثالثًا .إنه ترتيب يخاطب العقل والقلب والنفس في آن واحد .إنه يبني شخصية القائد والمؤمن بناءً متكاملا ً لا تشوبه شائبة.

المحور الاول : تفسير الآية الثانية - اتباع الوحي ..مصدر القوة والنور

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

قف معي طويلا ً عند هذه الآية الكريمة ..إنها ليست مجرد أمر عابر، بل هي إعلان عن المصدر الحقيقي للقوة والتوجيه .عندما ينهاك الله عن طاعة أحد، فإنه لا يتركك في فراغ، بل يملأ هذا الفراغ بأمره هو، بمنهجه هو، بوحيه هو.

المعنى الإجمالي للآية:

الآية تأمر النبي صلى الله عليه وسلم - ومن خلاله كل مؤمن - باتباع ما يوحيه الله إليه من قرآن وسنة .وهذا الاتباع ليس مجرد استماع أو معرفة، بل هو اتباع كامل شامل: اتباع بالقلب تصديقًا، وباللسان نطقًا، وبالجوارح عملا ً وتطبيقًا .فالقرآن الكريم هو المصدر الذي يجب أن يستمد منه المسلم توجيهاته في كل شأن من شؤون حياته.

وقد جاء في تفسير هذه الآية: أنها زجر عن اتباع مراسم الجاهلية وأهواء النفوس، وأمر باتباع الوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .إنها نقلة نوعية من الانسياق وراء ضغوط البشر إلى الانقياد الكامل لأمر رب البشر.

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

تأمل معي هذه الدقة القرآنية المذهلة التي تذهل العقول وتحرك القلوب:

1.استخدام الفعل المضارع "يوحى":
لقد جاء الفعل بصيغة المضارع: ﴿مَا يُوحَى﴾، ولم يأت بصيغة الماضي "ما أوحي" .وهذا له دلالة عميقة جدًا .فالمضارع يدل على التجدد والاستمرار، وكأن الآية تقول للنبي صلى الله عليه وسلم ولكل مؤمن: "الوحي مستمر، والتوجيه الإلهي متجدد، فلا تظن أن الأمر انتهى عند ما نزل من قبل، بل كن

دائم الاتصال، دائم التلقي، دائم الاستعداد لما يأتي به الوحي" .وهذه اللمسة البيانية تفتح للمؤمن باب الأمل والرجاء، فالله لم يتركك بلا توجيه، بل هو معك في كل لحظة يوحي إليك بما يصلحك ويسعدك.

.2التعبير بـ "ما" الموصولة:
قوله تعالى: ﴿مَا يُوحَى﴾ ولم يقل "القرآن" أو "الآيات" ..إن استخدام "ما" الموصولة يفيد العموم و الشمول، فكل ما يوحى إليك من قرآن وسنة وتوجيهات ربانية، اتبعه كله، لا تفرق بين شيء منه .إنها رسالة واضحة: الوحي وحدة متكاملة، لا يجوز أخذ بعضه وترك بعضه الآخر.

.3العطف بالواو:
الآية مسبوقة بحرف العطف "الواو": ﴿وَاتَّبِعْ﴾ .وهذا العطف يربط هذه الآية بالآية السابقة ربطًا محكمًا . لقد قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، ثم عطف عليها: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ .هذا العطف يبين أن اتباع الوحي هو الثمرة العملية للتقوى .فالتقوى هي الحصن، واتباع الوحي هو الطريق.

.4ختام الآية باسم الله "خبيرًا":
تأمل كيف ختمت الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ .لماذا "خبيرًا" بالذات؟ ولماذا لم يقل "عليمًا" أو "بصيرًا" كما في مواضع أخرى؟

"الخبير" هو الذي يعلم بواطن الأمور ودقائقها وخفاياها .إنها رسالة تطمئن القلب وترهبه في آن واحد:

· تطمئنه: بأن الله يعلم صدق نيتك في اتباع الوحي، ويعلم الصعوبات التي تواجهها، ويعلم ما تخفيه الصدور من إخلاص أو تردد.
· وترهبه: بأن الله مطلع على كل تقصير أو تهاون في اتباع وحيه.

وقد أشار ابن عاشور إلى أن هذه الجملة جاءت تعليلا ً للأمر بالاتباع وتأنيسًا للنبي صلى الله عليه وسلم، لأن الله خبير بما في نفوسهم وعوائدهم، فإذا أبطل شيئًا من تلك العوائد فإن إبطاله من تعلق العلم بلزوم تغييره، فلا تترددوا في الامتثال.

دلالة الجمع في الخطاب: "بما تعملون"

هنا لمسة بيانية تأخذ بالألباب: الآية تخاطب النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة المفرد في ﴿وَاتَّبِعْ﴾، ثم تنتقل إلى صيغة الجمع في ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .لماذا هذا الانتقال؟

هذا الانتقال - أيها القارئ الكريم - يحمل رسالة عميقة: إن الأمر باتباع الوحي وإن كان موجهًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر، إلا أنه يشمل الأمة كلها .فالنبي صلى الله عليه وسلم هو القدوة والأسوة، وما يؤمر به هو تأمر به أمته من بعده .وكأن الآية تقول: "أنت أيها النبي أول الممتثلين، ولكن الأمر لا يقتصر عليك، بل كل من اتبعك داخل في هذا التكليف".

وهذا من روائع الأسلوب القرآني: توجيه الخطاب للقائد، والمراد به الجند جميعًا .إنه أسلوب تربوي رفيع: عندما تريد أن تأمر الجماعة، ابدأ بقائدهم، فإن صلح صلحت الرعية.

العلاقة العضوية بين النهي في الآية الأولى والأمر في الآية الثانية

تأمل معي هذه المنظومة المتكاملة:

الآية الأولى: نهي عن طاعة الكافرين والمنافقين.
الآية الثانية: أمر باتباع الوحي.

هذا الترتيب ليس عشوائيًا - وحاشا لله أن يكون كذلك - بل هو بناء نفسي وتربوي محكم:

.1تفريغ ثم ملء: أولا ً، فرغ قلب النبي صلى الله عليه وسلم من طاعة غير الله، ثم املأه بطاعة الله واتباع وحيه .إن النفس البشرية لا تتحمل الفراغ، فإذا أفرغتها من شيء، فلا بد أن تملأها بشيء آخر .وهذا منهج قرآني عظيم في التربية والتزكية.
.2قطع الطريق على الشيطان: عندما تنهى الإنسان عن شيء، فإنك إذا لم تقدم له البديل الصحيح،

فقد يعود إلى ما ثهي عنه، أو يقع في ما هو أشد منه .وهنا يقدم القرآن البديل الأمثل: بدل أن تسمع لهم، اسمع للوحي .بدل أن تتبع أهواءهم، اتبع شرع الله.
.3إعلان عن المصدر الوحيد للتشريع: الآية تقول بوضوح: المصدر هو الوحي فقط .لا أقوال الكافرين، ولا مقترحات المنافقين، ولا أعراف الجاهلية .الوحي وحده هو الحاكم.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية من الآية

الرسالة الذهنية:
الوحي هو البوصلة التي لا تضل .في عصر تتكاثر فيه المصادر، وتتنوع فيه المرجعيات، وتتصارع فيه الأفكار، تأتي هذه الآية لتمنح عقلك الثبات والوضوح: المرجعية الأولى والأخيرة هي الوحي .كل ما خ الفه باطل، وكل ما وافقه حق.

الرسالة القلبية:
عندما تشعر بالحيرة والتردد، وعندما تتجاذبك الآراء والمقترحات، تذكر أن الله لم يتركك وحدك .لقد أنزل إليك الوحي ليضيء لك الطريق .اتبعه بقلب مطمئن، واثقًا أن ما يأمرك به هو عين الصواب.

الرسالة النفسية:
أنت لست مضطرًا للبحث عن الحلول في عقول البشر القاصرة .لديك مصدر إلهي معصوم .هذا يمنحك قوة نفسية هائلة، ويحررك من التبعية الفكرية لأي أحد.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك وطلابك أن المرجعية هي القرآن والسنة .ازرع فيهم حب الوحي وتعظيمه، واجعلهم يعتزون بهذا المصدر الرباني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

المحور الثاني: تفسير الآية الثالثة - التوكل على الله ..قوة اليقين وطمأنينة القلب

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

والآن نصل إلى المحطة الثالثة في هذه الرحلة الإيمانية ..محطة التوكل على الله .تأمل معي كيف أن الله تعالى بعد أن أمر نبيه بالتقوى، ونهاه عن طاعة أعدائه، وأمره باتباع الوحي، ختم هذه التوجيهات الثلاثة بأمر رابع: التوكل على الله.

إنه الترتيب المنطقي والعقلي والنفسي: عندما تفعل كل ما بوسعك، وعندما تلتزم بكل ما أمرك الله به، يأتي دور التوكل: أن تفوض الأمر إلى الله، أن تثق به، أن تعتمد عليه في تحقيق النتائج.

المعنى الإجمالي للآية:

الآية تأمر النبي صلى الله عليه وسلم - ومن خلاله كل مؤمن - بأن يتوكل على الله في جميع أموره وأحواله .والتوكل يعني: الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب .إنه ليس تواكلا ً سلبيًا يلقي بيديه ويترك العمل، بل هو ثقة بالله بعد أن يبذل الإنسان كل ما في وسعه .فالله هو الذي يمنعك ويحفظك، وكفى به حافظًا لمن توكل عليه وأناب إليه.

وقد فسر القرطبي هذه الآية بقوله: "وتوكل على الله أي اعتمد عليه في كل أحوالك؛ فهو الذي يمنعك ولا يضرك من خذلك" .إنها طمأنة عظيمة: أنت لست وحدك .خلفك قوة عظيمة، قوة الله الذي لا يغلبه شيء.

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

.1العطف بالواو مرة أخرى:
لاحظ أن الآية بدأت بحرف العطف "الواو": ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ .هذا العطف يربط التوكل بما قبله من التقوى واتباع الوحي .إنه يخبرنا أن التوكل هو ثمرة التقوى واتباع الوحي .فمن اتقى الله واتبع وحيه، كان جديرًا بأن يتوكل عليه.

.2تقديم الجار والمجرور "على الله":
الآية تقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، ولم تقل: "وتوكل على الله" .وهذا التقديم يفيد الاختصاص والقصر .

المعنى: توكل على الله وحده، لا على غيره .لا تتوكل على كثرة العدد والعدة، لا تتوكل على قوة الجيش أو كثرة المال، لا تتوكل على ذكائك أو دهائك، بل على الله وحده.

.3استخدام صيغة المبالغة "وكيلا ً":
"وكيل" صيغة مبالغة على وزن "فعيل" .والوكيل هو الذي توكل إليه الأمور وتفوض إليه .والله سبحانه هو الوكيل الحق، الذي يقوم بتدبير أمور عباده على أتم وجه وأكمله .فهو الوكيل الكافي، الذي لا يحتاج من يوكل إليه شيئًا، بل هو الذي يغني ويسد.

.4دخول الباء في "بالله":
الآية تقول: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾، والباء هنا حرف جر زائد للتأكيد .والمعنى: كفى الله وكيلا ً .هذه الباء تفيد المبالغة في التأكيد، وكأن الآية تقول: "كفى بالله، وحسبك بالله، واكتفِ بالله" .إنه تأكيد بعد تأكيد ليطمئن القلب وتسكن النفس.

.5ختام الآية باسم "وكيلا ً":
"الوكيل" هو الحافظ، الكفيل، القائم بتدبير الأمور .وعندما تختم الآية بهذا الاسم الجليل، فإنها ترسل رسالة قوية إلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم وإلى قلب كل مؤمن: ألق همومك وأحزانك ومخاوفك على الله، فهو كافيك، وهو حسبك، وهو نعم المولى ونعم النصير.

سبب النزول: صورة حية من الواقع

ولكي تدرك - أيها القارئ الكريم - عظمة هذه الآية وتأثيرها في النفس، دعني أنقل لك سبب نزولها كما ورد في كتب التفسير:

جاء وفد من ثقيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وطلبوا منه أن يمتعهم باللات - وهي الطاغية التي كانت تعبدها ثقيف - سنة واحدة، وقالوا: "لتعلم قريش منزلتنا عندك" .فهمّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك - أي حدثته نفسه أن يجيبهم إلى طلبهم - فنزلت هذه الآية: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

تأمل هذا المشهد العظيم:

· النبي صلى الله عليه وسلم - وهو سيد الخلق - حدثته نفسه أن يلين لهم، أن يقدم تنازلا ً صغيرًا ليكسب قلوبهم.
· ولكن الوحي ينزل ليثبته، ليذكره أن التوكل على الله هو السبيل، وأن الله كافيه ما أهمه.

إنها رسالة لكل مؤمن: لا تظن أن التنازل عن شيء من دينك سيجلب لك نفعًا .توكل على الله، واثبت على الحق، والله كافيك ووكيلك.

دلالة "كفى بالله وكيلا ً"

هذه الجملة العظيمة: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ تحمل في طياتها معاني لا تنتهي:

.1الكفاية المطلقة:
الله يكفي .يكفي عن كل شيء .يكفي عن كل أحد .يكفي في كل أمر .من كان الله وكيله، فلا يحتاج إلى وكيل سواه .ومن تولاه الله، فلا يضره من خذله .ومن حفظه الله، فلا يقدر أحد على إيصال الضر إليه.

.2الوكالة التامة:
الله هو الوكيل الحق .والوكيل هو الذي يقوم بتدبير أمور موكله على أكمل وجه .وعندما يكون الله هو الوكيل، فذلك يعني أن أمورك في أيد أمينة قادرة حكيمة .فهو لا ينام، ولا يغفل، ولا ينسى، ولا يعجزه شيء.

.3الطمأنينة القصوى:
عندما تستشعر أن الله وكيلك، فإن قلبك يمتلئ طمأنينة وسكينة .أنت تعلم أن من يدبر أمرك هو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين .لن يضيعك، ولن يخذلك، ولن يسلمك لأعدائك.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية من الآية

الرسالة الذهنية:
التوكل ليس تخليًا عن العمل، بل هو استكمال للعمل .إنه الاعتماد على الله بعد أن تأخذ بكل الأسباب المشروعة .العقل السليم يخطط ويعمل، ثم يتوكل على الله في النتائج.

الرسالة القلبية:
عندما تشعر بالخوف من المستقبل، أو القلق من مكر الأعداء، أو الحزن على ما فات، تذكر هذه الآية: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾ .إنها بلسم للقلوب، وشفاء للصدور، وسكينة للأرواح.

الرسالة النفسية:
أنت لست وحدك في هذه المعركة .هناك قوة عظمى تحميك وتنصرك وتدبر أمرك .هذه القناعة تمنحك قوة نفسية لا توصف، وتحررك من الخوف والقلق والتردد.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك التوكل على الله .ازرع في قلوبهم اليقين بأن الله كافيهم وحافظهم .دربهم على الأخذ بالأسباب، ثم تفويض الأمر إلى الله .هذا يبني فيهم شخصية متوازنة: لا تواكل ولا غرور، بل توكل وثقة بالله.
المحور الثالث : المنظومة المتكاملة - الآيات الثلاث الأولى كبناء محكم

دعنا الآن - أيها القارئ الكريم - نأخذ نظرة شاملة على الآيات الثلاث الأولى من سورة الأحزاب .إنها ليست مجرد آيات متفرقة، بل هي بناء محكم متكامل، ومنهج حياة شامل.

الآية الأولى: التقوى وعدم الطاعة
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾

هذه الآية تضع الأساس: الحصن الداخلي والاستقلال الخارجي.

· التقوى: حصن داخلي يمنعك من التأثر بالضغوط.
· عدم الطاعة: استقلال خارجي يحمي قرارك من التبعية.

الآية الثانية: اتباع الوحي
﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

هذه الآية تحدد المصدر: من أين تستمد توجيهاتك وقراراتك؟

· المصدر هو الوحي، لا عقول البشر، ولا أعراف الجاهلية.
· الخبرة الإلهية: الله خبير ببواطن الأمور، فلا تخف من اتباع وحيه.

الآية الثالثة: التوكل على الله
﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾

هذه الآية تمنحك القوة والطمأنينة: من يعينك بعد أن فعلت كل ما بوسعك؟

· التوكل على الله هو السلاح الأقوى.
· الله كافيك، فلا تخف ولا تحزن.

العلاقة التربوية بين الآيات الثلاث

تأمل معي هذا التسلسل التربوي العجيب:

1.تفريغ وبناء: أولا ً، فرغ قلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من التعلق بالكافرين و المنافقين .ثم املأه بالوحي الإلهي .وأخيرًا، ثبت هذا البناء بالتوكل على الله.
2.ترتيب منطقي: لا يمكنك أن تتقي الله حقًا إلا إذا اتبعت وحيه .ولا يمكنك أن تتبع وحيه حقًا إلا إذا توكلت عليه .إنها سلسلة مترابطة لا تنفصم.

.3منهج متكامل للقيادة: القائد الناجح هو الذي يجمع بين:
· التقوى) الرادع الداخلي.(
· اتباع الوحي) البوصلة الخارجية.(
· التوكل على الله) القوة الداعمة.(

الثلاثي الذهبي: تقوى، اتباع، توكل

هذه الآيات الثلاث ترسم لنا مثلثًا ذهبيًا للحياة المستقيمة:

الضلع الأول: التقوى
هي الأساس الذي يبنى عليه كل شيء .إنها الخوف من الله، ومراقبته في السر والعلن، والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه.

الضلع الثاني: اتباع الوحي
هو المنهج العملي .التقوى تحتاج إلى دليل ومرشد، وهذا الدليل هو الوحي .اتباع الوحي هو التطبيق العملي للتقوى.

الضلع الثالث: التوكل على الله
هو الثمرة والنتيجة .عندما تتقي الله وتتبع وحيه، فإنك تسلم النتائج لله، وتثق به في كل شيء.

الخاتمة: من الآيات الثلاث إلى الحياة الكريمة

وصلنا - أيها القارئ الكريم - إلى نهاية رحلتنا التدبرية مع الآيتين الثانية والثالثة من سورة الأحزاب . ولكن الحقيقة أن الرحلة لم تنتهِ بعد ..إنها بدأت للتو!

هذه الآيات الثلاث الأولى من سورة الأحزاب ليست مجرد كلمات تتلى باللسان، بل هي منهج حياة، ودستور قيادة، ومدرسة تربوية، وبلسم شافٍ للقلوب.

دعنا نستخلص الدروس النهائية من هذه الآيات العظيمة:

.1الاستقلالية الفكرية والمنهجية:
الآيات تعلمنا أن نكون مستقلين في تفكيرنا وقراراتنا .لا نتبع الكافرين والمنافقين، بل نتبع الوحي . هذه الاستقلالية هي سر عزة المؤمن وقوته.

.2المرجعية الواحدة:
في عصر تتعدد فيه المرجعيات وتتصارع فيه الأفكار، تأتي هذه الآيات لترسخ فينا أن المرجعية الوحيدة هي الوحي .كل ما خالفه باطل، وكل ما وافقه حق.

.3التوازن بين العمل والتوكل:
الآيات توازن بين الأخذ بالأسباب) بالتقوى واتباع الوحي (والتوكل على الله .إنها تربي فينا شخصية متوازنة: تعمل بجد، وتتوكل بصدق.

.4القوة النفسية والثبات:
عندما تستحضر هذه الآيات في أوقات الشدة والضيق، فإنها تمنحك قوة نفسية لا توصف .أنت تعلم أن الله معك، وأنه خبير بعملك، وأنه وكيلك وكافيك.

دعوة للتطبيق العملي

أيها القارئ الكريم ..إن هذه الآيات ليست للقراءة فقط، بل هي للتطبيق والعمل .وإليك بعض الخطوات العملية لتعيش هذه الآيات في حياتك اليومية:

.1في كل قرار تتخذه: اسأل نفسك: هل هذا القرار يتوافق مع التقوى؟ هل هو مبني على اتباع الوحي؟ هل توكلت على الله فيه؟
.2في كل ضغط تواجهه: تذكر قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ .لا تتنازل عن مبادئك مهما كانت الضغوط.

.3في كل هم وحزن: ردد قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾ .إنها تملأ القلب طمأنينة وسكينة.
.4في تربية أبنائك: علمهم هذه الآيات .ازرع فيهم حب الوحي والتوكل على الله .اجعلهم يعيشون معاني هذه الآيات في حياتهم اليومية.

كلمة أخيرة إلى قلبك

تذكر دائمًا - أيها القارئ الكريم - أنك لست وحدك .الله معك .وهو حسبك .وهو وكيلك.

فإذا اشتدت عليك الضغوط، فتذكر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾.
وإذا تعددت أمامك السبل، فتذكر: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.
وإذا ضعفت قوتك، فتذكر: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾.

القسم الثاني

ابطال التصورات الجاهليه الفاسده وعادتها ومعتقداتها
الايه 4-5
المبحث الأول
رحلة تدبرية في رحاب الآية الرابعة من سورة الأحزاب

تمهيد: من التوجيه إلى التصحيح.. إعادة بناء المفاهيم من جذورها

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا المسار القرآني العجيب..

لقد وقفنا معًا في المحطات الثلاث الأولى من رحلتنا التدبرية في سورة الأحزاب، حيث تلقينا التوجيهات الربانية العظيمة: التقوى، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع الوحي، والتوكل على الله. كان ذلك بمثابة بناء القلعة الداخلية للمؤمن، وتحصين قراره وإرادته من أي اختراق خارجي.

والآن.. وبعد أن ثبت الله قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب المؤمنين على المبادئ العظمى، ينتقل السياق القرآني إلى مهمة لا تقل أهمية: تصحيح المفاهيم المغلوطة، وتطهير العقول والقلوب من رواسب الجاهلية.

هل شعرت يومًا أن بعض الأفكار والمفاهيم التي نشأت عليها تحتاج إلى مراجعة جذرية؟ هل تساءلت: لماذا يصر القرآن على معالجة قضايا اجتماعية معينة مثل الظهار والتبني في هذا الموضع بالذات؟

تعالَ معي نكتشف السر..

إن الآية الرابعة من سورة الأحزاب تأتي بعد تلك التوجيهات القيادية العظيمة لتضع ميزانًا دقيقًا للحقائق، ولتعلن بكل وضوح: إن التغيير الحقيقي يبدأ من تغيير المفاهيم. فلا يمكنك أن تبني أمة قوية على مفاهيم هشة، ولا يمكنك أن تقيم مجتمعًا فاضلًا على تصورات باطلة.

وهنا تكمن عبقرية القرآن: إنه لا يكتفي بإعطاء الأوامر والنواهي، بل يعالج جذور المشكلات، ويصحح أصول التصورات، ويعيد صياغة العقلية التي يفكر بها الإنسان.

المحور الأول: النفي القاطع.. ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ﴾

﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾

قف معي عند هذا الافتتاح القرآني المهيب.. إنه ليس مجرد بيان لحقيقة خلقية، بل هو قاعدة عقلية ونفسية واجتماعية تفتح أمامنا آفاقًا من الفهم العميق.

المعنى الظاهري المباشر:
الله تعالى لم يخلق لإنسان واحد قلبين في جوفه. هذه حقيقة تشريحية لا يختلف عليها اثنان. فالإنسان له قلب واحد يضخ الدم، وقلب واحد مجازي هو مركز المشاعر والعواطف والإرادة.

ولكن.. لماذا يبدأ الله بهذه الحقيقة البديهية؟

تأمل معي - رعاك الله - هذا الأسلوب القرآني المعجز: إنه يبدأ بحقيقة حسية ملموسة لا يمكن إنكارها، ليبني عليها حقائق معنوية لا تقل يقينًا عنها. إنه يقول بلسان الحال: "كما أنه من المستحيل أن يكون للرجل قلبان في جوفه، فكذلك من المستحيل أن تكون زوجته التي ظاهر منها أمًا له، ومن المستحيل أن يكون ابنه بالتبني ابنًا حقيقيًا له".

هذا الأسلوب يسمى في البلاغة القياس المنطقي أو التمثيل العقلي. إنه يخاطب عقلك أولا ً، ويوقظ فطرتك، ويستثير منطقك السليم، ثم ينتقل بك إلى القضايا التي يريد تقريرها.

دلالات وعمق وراء الحقيقة الظاهرة

إن هذه الآية تحمل في طياتها معاني أبعد بكثير من مجرد نفي وجود قلبين في جوف إنسان واحد. دعنا نغوص معًا في أعماق هذه الدلالات:

.1نفي الازدواجية والتناقض:
القلب الواحد يعني وحدة الاتجاه ووحدة الإرادة ووحدة الحب والولاء. لا يمكن للعبد أن يجمع في قلبه حب الله وحب أعدائه، أو أن يكون مؤمنًا ومنافقًا في آن واحد. إنها رسالة قوية: لا تجمع قلبك بين متناقضين. إما أن تكون لله خالصًا، وإما أن تكون لغيره. وكما قال الشاعر:

وما القلب إلا واحدٌ فإذا انثنى *** بوجهين لم يثبت على الحق وانيا

.2نفي التردد والاضطراب النفسي:
عندما يكون للإنسان قلب واحد، فإنه يتجه بكل كيانه نحو هدف واحد. أما إذا ادعى أن له قلبين - مجازًا - فإنه يعيش في صراع داخلي وتمزق نفسي لا ينتهي. والقرآن بهذه الآية يريد أن يحرر الإ نسان من هذا التمزق، وأن يدعوه إلى توحيد الوجهة وتصفية النية.

.3توحيد الحقيقة في مقابل الأوهام:
الجاهلية كانت تعيش على أوهام وخيالات واصطلاحات باطلة. فكان الرجل يقول لزوجته: "أنتِ عليّ كظهر أمي"، فيظن أن هذه الكلمة تحول الزوجة إلى أم حقيقة! وكان يتبنى ولدًا فينسبه إليه، ويورثه ميراث الابن الحقيقي، وكأن الكلمة تغير الحقيقة! فالقرآن يأتي ليضع حدًا لهذه الأوهام، ويقرر أن الحقيقة لا تتغير بالكلمات، وأن الواقع لا ينقلب بالألفاظ.

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الجزء من الآية

تأمل معي هذه الدقة القرآنية التي تذهل العقول:

.1استخدام الفعل "جعل" بدلا ً من "خلق":
القرآن الكريم استخدم هنا الفعل "جعل" ولم يستخدم الفعل "خلق". لماذا؟

"جعل" تفيد التكوين والتقدير والتشريع معًا .إنها أوسع دلالة من "خلق" .فعندما يقول الله: ﴿مَّا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾، فهو ينفي أن يكون ذلك في خلقه أو في قدره أو في شرعه .وهذا يفتح الباب ليشمل النفي القضايا التشريعية التي ستأتي بعدها) الظهار والتبني .(فالله لم يجعل ذلك خلقًا ولا شرعًا.

.2تنكير كلمة "رجل" وإفادتها العموم:
قال: ﴿لِرَجُلٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم والشمول. المعنى: ما جعل الله لأي رجل كان، في أي زمان أو مكان، قلبين في جوفه. وهذا يقطع الطريق على أي ادعاء بالخصوصية أو الاستثناء.

.3التعبير بـ "في جوفه":
لم يكتفِ بنفي وجود قلبين، بل أضاف ﴿فِي جَوْفِهِ﴾ لزيادة التوكيد والتصوير. فالجوف هو الباطن، وهو مكان القلب الحقيقي. فكأنه يقول: حتى في باطنه الذي لا يطلع عليه أحد، لا يمكن أن يكون له قلبان. فكيف بما هو ظاهر ومعلن؟

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
لا يمكن للعقل السليم أن يقبل بوجود قلبين في جوف واحد، فكذلك لا يمكن للعقل السليم أن يقبل بتحويل الزوجة إلى أم، أو الدعي إلى ابن حقيقي، بمجرد كلمات تقال. الحقيقة لا تتغير بالأوهام.

الرسالة القلبية:
طهر قلبك من الازدواجية. لا تجعل في قلبك محبة لله ومحبة لأعدائه. لا تجمع بين الإيمان والنفاق. القلب السليم هو القلب الواحد الموحد.

الرسالة النفسية:
التمزق النفسي سببه تعدد الاتجاهات وتشتت الأهداف. عندما توحد وجهتك، وتجعل همك واحدًا، فإنك تنعم بالسكينة والطمأنينة. الآية تحررك من صراع الدوافع المتناقضة.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك أن يكونوا واضحي الرؤية، محددي الأهداف. لا تتركهم يتأرجحون بين قيم متناقضة. ازرع فيهم مبدأ: القلب الواحد للهدف الواحد.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

تصوّر معي - أيها القارئ الكريم - ذلك الموظف الذي يعمل في شركتين متنافستين في نفس الوقت، ويحاول أن يرضي المديرين المتناقضين في توجيهاتهما. كم سيعاني من التمزق والتعب؟ وكم سيكون ولاؤه مشتتًا؟ وكم سيكون إنتاجه ضعيفًا؟

أو تصوّر ذلك الشاب الذي يريد أن يكون ملتزمًا بدينه، وفي نفس الوقت يريد أن يرضي أصدقاء السوء الذين يسخرون من التزامه. كم سيعيش من الصراع الداخلي؟ وكم سيتأرجح بين طريق الحق وطريق الباطل؟

الآية تقول له: لا يمكن أن تجمع بين قلبين متناقضين في صدرك. اختر قلبًا واحدًا، واتجه به إلى هدف واحد، وارضَ ربًا واحدًا.
المحور الثاني:
إبطال الظهار.. الكلمات لا تغير الحقائق

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾

والآن ننتقل إلى القضية الثانية التي تعالجها الآية، وهي قضية الظهار. وقد كان الظهار من العادات الجاهلية القبيحة التي أبطلها الإسلام.

ما هو الظهار؟
الظهار هو أن يقول الرجل لزوجته: "أنتِ عليّ كظهر أمي". وكان العرب في الجاهلية يعتبرون هذه الكلمة طلاقًا باتًا لا رجعة فيه، بل أشد من الطلاق! فالزوجة بمجرد هذه الكلمة تصبح محرمة عليه كحرمة أمه، ولا يحق له أن يعود إليها أبدًا.

تأمل معي هذه العادة الجاهلية: كلمة تقال في لحظة غضب، تترتب عليها آثار مدمرة:

- تفكيك أسرة كاملة.
- تشريد زوجة وأطفال.
- حرمان الرجل من زوجته إلى الأبد.
- والأدهى من ذلك: تشبيه الزوجة بالأم، وهو تشبيه فيه من القبح ما فيه!

فجاء القرآن بهذه الآية ليضع الأمور في نصابها الصحيح: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾. أي: ليست الزوجة التي تقولون لها هذا القول أمًا لكم في الحقيقة، لا في الخلقة ولا في الشرع. فاللّه هو الذي جعل الأمهات أمهات، والزوجات زوجات، ولا يمكن لألفاظكم وأوهامكم أن تغير هذه الحقيقة الكونية.

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الجزء

.1العطف بـ "ما" النافية مرة أخرى:
لاحظ تكرار النفي بـ "ما" في الآية: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ﴾ ثم ﴿وَمَا جَعَلَ﴾ ثم ﴿وَمَا جَعَلَ﴾. هذا التكرار يفيد التأكيد والتقرير، ويجعل كل قضية مستقلة في نفيها، فلا تلتبس واحدة بالأخرى.

.2الإضافة: "أزواجكم":
قال: ﴿أَزْوَاجَكُمْ﴾ بالإضافة إلى ضمير المخاطبين. وهذا فيه تذكير بالعلاقة الحقيقية: هؤلاء النساء هن أزواجكم، وقد جعلهن الله كذلك. فلا تحاولوا تغيير هذه الحقيقة بألفاظكم.

.3الوصف بـ "اللائي تظاهرون منهن":
استخدام الاسم الموصول "اللائي" يفيد تحديد الوصف بدقة. والمعنى: الزوجات المخصوصات اللواتي صدر منكم تجاههن الظهار، هؤلاء بالتحديد لا يصبحن أمهات.

.4التعبير بالفعل المضارع "تظاهرون":
جاء الفعل بصيغة المضارع ﴿تُظَاهِرُونَ﴾ ليفيد التجدد والاستمرار، وكأنه يقول: "هذا الفعل الذي تفعلونه الآن، أو قد تفعلونه مستقبلا ً، لا يغير من الحقيقة شيئًا". وفيه أيضًا إشارة إلى أن هذه العادة كانت مستمرة في الجاهلية.

الحكمة من إبطال الظهار في هذا السياق

قد يتساءل البعض: لماذا جاء الحديث عن الظهار والتبني في سورة الأحزاب، وفي هذا الموضع بـ الذات؟

الإجابة تكمن في طبيعة المعركة التي كانت تخوضها الأمة المسلمة في ذلك الوقت. لقد كان المسلمون يواجهون حربًا نفسية واجتماعية من المنافقين والكافرين. وكان هؤلاء يحاولون زعزعة الثوابت الا جتماعية وتفتيت الأسرة المسلمة من الداخل.

في مثل هذه الظروف، كان لا بد من تطهير المجتمع المسلم من كل العادات الجاهلية التي تسبب الظلم والتفكك الأسري، وبناء مجتمع قوي متماسك يقوم على الحق والعدل.

فالظهار كان عادة جاهلية تؤدي إلى:

· ظلم المرأة: بحرمانها من حقها في الحياة الزوجية دون ذنب اقترفته.
· تفكيك الأسرة: التي هي نواة المجتمع وقاعدته الصلبة.
· تشويه العلاقات الإنسانية: بتشبيه علاقة الزوجية بعلاقة الأمومة.

وهكذا، فإن إبطال الظهار هو جزء من بناء المجتمع القوي القادر على مواجهة الأحزاب. فلا يمكن لأمة أن تواجه أعداءها الخارجيين وهي مفككة من الداخل، ولا يمكن لجيش أن ينتصر وجنوده مشغولون بظلم زوجاتهم وتشريد أسرهن!

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
لا تنخدع بالألفاظ. الكلمات لا تغير الحقائق. الزوجة زوجة، والأم أم، ومهما قلت من كلمات فلن تتحول إحداهما إلى الأخرى. هذه رسالة عقلية مهمة: لا تجعل للألفاظ سلطانًا على الحقائق.

الرسالة القلبية:
احذر من كلمات الغضب التي تندم عليها طوال عمرك. كلمة واحدة قد تهدم أسرة، وقد تؤذي قلبًا بريئًا، وقد تقطع أوصال رحم. ضع على قلبك رقابة، وعلى لسانك لجامًا.

الرسالة النفسية:
الرجولة الحقيقية ليست في التسلط على المرأة والتحكم فيها بالكلمات الجائرة، بل في العدل والرحمة وحسن المعاملة. الآية تحرر الرجل من وهم القوة الكاذبة التي يمنحها إياه الظهار، وتدعوه إلى القوة الحقيقية في ضبط النفس والتحكم في الغضب.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك أن الكلمة مسؤولية. وأن الألفاظ لها آثارها، لكنها لا تغير الحقائق. ازرع فيهم احترام العلا قات الأسرية، وقدسية الأمومة والزوجية.

أمثلة تقريبية من حياتنا المعاصرة

المثال الأول: كلمات الطلاق في الغضب
كم من رجل في عصرنا هذا قال لزوجته في لحظة غضب: "أنت طالق" ثلاثا، ثم ندم أشد الندم، وجاء يبحث عن فتوى تعيد إليه زوجته وأطفاله؟ أليس هذا شبيهًا بالظهار في آثاره المدمرة؟

إن الآية تعلمنا درسًا عظيمًا: لا تجعل كلمة تخرج من فمك في لحظة غضب تحطم حياتك وحياة أسرتك. الكلمة الطيبة صدقة، والكلمة الخبيثة نقمة.

المثال الثاني: الألقاب والتصنيفات الجائرة
في حياتنا الاجتماعية والمهنية، نجد من يطلق على زميله لقبًا جارحًا، أو يصنفه تصنيفًا ظالمًا، فيظن أن هذا اللقب أو التصنيف قد غيّر حقيقة الشخص! يقول عنه: "هذا فاشل"، "هذا كذاب"، "هذا عديم الفائدة". فيظن أن كلماته هذه قد حولت الشخص إلى ما يقول!

الآية تعلمنا: الحقيقة لا تتغير بألفاظكم. فذلك الزميل يبقى على ما هو عليه من القدرات والمواهب، مهما حاولت أن تصفه بغير ذلك. والأجدر بك أن تراجع ألفاظك وتحسن ظنك بالناس.

المثال الثالث: الأحكام المسبقة والصور النمطية
كم من مرة حكمت على شخص من مظهره، أو من كلمة قالها، أو من موقف واحد، ثم ثبت لك أن حكمك كان خاطئًا تمامًا؟ كم من مرة أطلقت على شخص وصف "منافق" أو "مرائي" أو "جاهل" لمجرد أنه خالفك في الرأي؟

الآية تدعونا إلى تحرير عقولنا من سلطة الألفاظ والأحكام المسبقة، والنظر إلى الحقائق كما هي، لا كما نتصورها أو نصفها.
المحور الثالث: إبطال التبني.. الحقائق البيولوجية فوق الاعتبارات الاجتماعية

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾

وهنا نصل إلى القضية الثالثة التي تعالجها الآية، وهي من أخطر القضايا الاجتماعية التي كانت سائدة في الجاهلية: التبني.

ما هو التبني الجاهلي؟
كان الرجل في الجاهلية يتبنى ولدًا غريبًا، فينسبه إلى نفسه، ويعطيه كل حقوق الابن الحقيقي: يحمل اسمه، ويرثه، وتثبت بينه وبين أسرته حرمة المصاهرة والنسب. وقد كان هذا الأمر شائعًا جدًا، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه كان قد تبنى زيد بن حارثة رضي الله عنه قبل البعثة، وكان يُدعى "زيد بن محمد".

فجاء الإسلام ليلغي هذا النظام تمامًا، ويقرر حقيقة كونية: الابن الحقيقي هو الابن البيولوجي فقط. لا يمكن لكلمة "تبنيتك" أن تحول الغريب إلى ابن حقيقي، ولا يمكن لقانون بشري أن يغير حقيقة الدم والنسب.

لماذا كان التبني خطرًا على المجتمع؟

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - الحكمة العظيمة من تحريم التبني بالنسب:

1. اختلاط الأنساب:
التبني يؤدي إلى اختلاط الأنساب، ودخول غرباء في أسرة ليست أسرتهم، فيرثون من ليسوا آباءهم، ويحرم الورثة الحقيقيون من حقهم. وهذا من أعظم الظلم.

2. مشاكل المحرمية والزواج:

الابن بالتبني يصبح محرمًا على بنات المتبني، وأخواته، وكل نساء العائلة، مع أنه في الحقيقة أجنبي عنهن. وقد يتزوج هو من إحدى قريباته الحقيقيات دون أن يدري! وهذا يؤدي إلى فضيحة أخلاقية واجتماعية.

.3مشاكل نفسية عميقة:
الطفل المتبنى يعيش أزمة هوية: من أنا حقًا؟ من أبي الحقيقي؟ ولماذا تخلى عني؟ وقد يكبر وهو لا يعرف أصله وفصله، مما يسبب له اضطرابًا نفسيًا عميقًا.

.4تشويه مفهوم الأسرة:
الأسرة في الإسلام تقوم على رابطة الدم والنسب، وهي رابطة مقدسة. والتبني يزيف هذه الرابطة، ويقيم علاقات أسرية على الكذب والزور.

قصة زيد بن حارثة: درس عملي في تطبيق الآية

ولكي تدرك عظمة هذا التشريع، تعالَ معي نستعرض قصة زيد بن حارثة رضي الله عنه، التي كانت التطبيق العملي لهذه الآية.

زيد بن حارثة كان عبدًا اشترته السيدة خديجة رضي الله عنها، ثم وهبته للنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة. فأعتقه النبي وتبناه، وأصبح يُدعى "زيد بن محمد". وأحبه النبي حبًا شديدًا، وزوجه ابنة عمته زينب بنت جحش.

ولكن زواجهما لم يكتب له الاستمرار، فطلقها زيد. فأمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد انقضاء عدتها، ليكون ذلك إلغاءً عمليًا للتبني، وإثباتًا أن زيدًا ليس ابنًا حقيقيًا للنبي، وأن زينب ليست زوجة ابنه.

يقول الله تعالى في آيات لاحقة من نفس السورة: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: 37].

تأمل هذا المشهد العظيم: النبي صلى الله عليه وسلم ينفذ أمر الله في نفسه، ويتزوج مطلقة زيد بن حارثة، ليكون قدوة عملية في إبطال التبني. وقد كان هذا الأمر شديدًا على نفس النبي، وكان يخشى كلام الناس والمنافقين، لكنه امتثل لأمر ربه. فكان ذلك اختبارًا للثبات على الحق الذي أمرته به الآيات الأولى من السورة: ﴿اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾.

وهكذا ترى - أيها القارئ الكريم - كيف أن آيات سورة الأحزاب مترابطة أشد الترابط. فما أمر الله به نبيه في أول السورة من التقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، كان توطئة وتهيئة لهذه اللحظة الحاسمة، حين يتزوج النبي مطلقة ابنه بالتبني، فيواجه عاصفة من انتقادات المنافقين. ولكنه يثبت، ويتقي الله، ويتبع الوحي، ويتوكل على ربه!

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الجزء

.1كلمة "أدعياءكم":
"الدعي" هو الولد الذي يُدعى ولدًا لغير أبيه .وهذه الكلمة تحمل في طياتها معنى الاصطناع والادعاء . فهي تشير بوضوح إلى أن البنوة هنا مدعاة وليست حقيقية .فكأن الآية تقول: أنتم تدعونهم أبناء، ولكنهم في الحقيقة ليسوا كذلك.

.2العطف المتكرر بـ "ما جعل":
كما في الجزأين السابقين، استخدم النفي بـ "ما جعل" ثلاث مرات في الآية الواحدة. وهذا التكرار يقرر الحقائق الثلاث بقوة واحدة: لا قلبين في جوف، لا أمومة بالظهار، لا بنوة بالتبني.

.3مقابلتهم بقوله: "ذلكم قولكم بأفواهكم":
وهذه قفلة عظيمة سنفرد لها المحور التالي بإذن الله.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الحقيقة البيولوجية فوق كل اعتبار اجتماعي. الأب هو الأب البيولوجي، والأم هي الأم البيولوجية. لا

يمكن لقانون أو عرف أن يغير هذه الحقيقة. هذه رسالة عقلية علمية واضحة.

الرسالة القلبية:
لا تحاول أن تكون ما ليس لك. الرضا بالواقع، والقناعة بما قسم الله، هو سر السعادة. فبدلا ً من التبني الذي يزيف الحقائق، شرع الإسلام الكفالة التي تحفظ الحقائق وترعى اليتيم.

الرسالة النفسية:
الانتماء الحقيقي هو انتماء الروح والقلب، لا انتماء الاسم والنسب. فزيد بن حارثة رضي الله عنه، بعد أن ألغى الإسلام تبنيه، لم يقلل ذلك من شأنه، بل ظل حِبّ رسول الله، وأحد قادته العظام. فلا تجعل قيمتك مرهونة باسمك أو نسبك، بل بإيمانك وعملك.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك أن الحقيقة أغلى من المجاملة. لا تكذب عليهم بشأن أصولهم، ولا تزيف لهم الواقع. عاملهم بصدق، وازرع فيهم الاعتزاز بأنفسهم كما هم، لا كما تتمنون أن يكونوا.

أمثلة تقريبية من حياتنا المعاصرة

المثال الأول: التبني في العصر الحديث
في الغرب، انتشر التبني القانوني الذي يغير اسم الطفل ونسبه، ويقطع صلته بأهله الحقيقيين. وقد أظهرت الدراسات النفسية أن كثيرًا من هؤلاء الأطفال يعانون من اضطرابات الهوية والقلق الوجودي عندما يكبرون ويعرفون الحقيقة. بينما شرع الله الكفالة التي تحفظ للطفل نسبه الحقيقي، وترعاه وتهتم به دون تزييف للحقائق.

المثال الثاني: الادعاءات الكاذبة في السير الذاتية
كم من شخص نراه اليوم يزيف سيرته الذاتية، فيدعي شهادات لم يحصل عليها، أو خبرات لم يكتسبها، أو أنسابًا لا يمت إليها بصلة؟ إنه تبنٍ معنوي! يريد أن يكون ابنا لتلك الجامعة العريقة، أو لتلك القبيلة الشريفة، أو لتلك المؤسسة المرموقة. ولكن الحقيقة تظهر دائمًا، وكم من فضيحة وقعت بسبب هذا التزييف!

الآية تعلمنا: لا تدعوا ما ليس لكم. قولوا الحق، وارضوا بما قسم الله لكم، فذلك خير وأبقى.

المثال الثالث: الانتماءات الوهمية
في عصر وسائل التواصل الاجتماعي، نرى من يدعي انتماءه لأفكار أو قيم أو تيارات لا يمثلها حقًا. يريد أن يكون "ابنًا" لهذا التيار الفكري أو ذاك، وهو في الحقيقة لا يفقه من مبادئه شيئًا. إنه تبنٍ فكري يزيف الحقيقة ويخدع الناس.

الآية تقول: كونوا صادقين في انتماءاتكم. لا تدعوا ما ليس لكم. فالانتماء الحقيقي ليس بالكلمات و الشعارات، بل بالمواقف والتضحيات.
المحور الرابع:
الحقائق الإلهية في مقابل الأوهام البشرية

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

وهنا نصل إلى ذروة الآية وختامها العظيم. بعد أن قرر الله الحقائق الثلاث: لا قلبين في جوف، لا أمومة بالظهار، لا بنوة بالتبني.. يأتي التعقيب الإلهي الحاسم الذي يضع الميزان الدقيق بين قول البشر وقول الله.

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾
أي: هذا الذي تدعونه من أن للمرء قلبين، أو أن الزوجة المظاهر منها تصبح أمًا، أو أن الدعي يصبح ابنًا حقيقيًا - هذا كله مجرد كلام! مجرد ألفاظ تخرج من أفواهكم، لا وزن لها في ميزان الحقيقة، ولا قيمة لها في عالم الواقع.

تأمل معي هذه العبارة القرآنية المحكمة: ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.
إنها تشير إلى أن هذه الدعاوى لا تتجاوز الأفواه. إنها كلمات تقال باللسان، وليس لها جذور في العقل، ولا سند في الواقع، ولا أساس في الفطرة. إنها مجرد فقاعات صوتية سرعان ما تتلاشى في الهواء.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾
في مقابل قول البشر الزائف، يأتي قول الله الحق. والحق هو الثابت الذي لا يتغير، والمطابق للواقع، والموافق للفطرة والعقل. فما يقوله الله هو الحق، لأنه يعلم الحقيقة كاملة، ولا يمكن أن يخالف قوله الواقع لأنه هو الذي خلق الواقع.

﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾
ثم يختم الآية بهذه العبارة المليئة بالأمل والرجاء: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾. أي: الله لا يكتفي بأن يقول الحق، بل هو - برحمته وفضله - يهدي من يشاء إلى الطريق المستقيم الذي يوصل إلى الحق وإلى السعادة في الدنيا والآخرة.

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الختام

1.اسم الإشارة "ذلكم":
استخدام اسم الإشارة "ذلكم" للبعيد، مع أن الكلام عن دعاواهم الحاضرة، له دلالة بلاغية عميقة. إنه يشير إلى بعد هذه الدعاوى عن الحق وغربتها عن الفطرة السليمة. وكأنه يقول: هذه الدعاوى في واد، والحق في واد آخر.

2.الإضافة في "قولكم":
إضافة القول إلى ضمير المخاطبين: ﴿قَوْلُكُم﴾، فيها تعرية لهم وإلصاق للتهمة بهم. فهذا ليس قول الله، ولا قول العقلاء، بل هو قولكم أنتم خاصة.

3.التقييد بـ "بأفواهكم":
هذا القيد: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فيه تهكم لطيف وتبكيت بليغ. فالقول بطبيعته يخرج من الفم، فلماذا هذا القيد ؟ إنه للإشارة إلى أن هذه الأقوال لا تتجاوز مرحلة اللفظ، وليس لها أي أثر في الواقع أو في الشرع. إنها مجرد أصوات تخرج من الأفواه، ثم تذهب أدراج الرياح!

4.الفعل المضارع "يقول":
استخدم الفعل المضارع ﴿يَقُولُ﴾ ليفيد التجدد والاستمرار. فالله دائمًا وأبدًا يقول الحق، في كل زمان ومكان، وفي كل ما أنزل من كتب وأرسل من رسل.

5.الجملة الاسمية "وهو يهدي السبيل":
جاءت هذه الجملة اسمية لا فعلية، لتفيد الثبات والدوام. فالله سبحانه هو الهادي بذاته، وصفة الهداية لازمة له. ولم يقل: "ويهدي السبيل" بل: ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾، فالجملة الاسمية أقوى في الدلالة على الثبات من الفعلية.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
هناك فرق شاسع بين قول البشر وقول الله. قول البشر قد يكون حقًا وقد يكون باطلا ً، وقد يصيب وقد يخطئ. أما قول الله فهو الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فلا تجعل أقوال البشر في مرتبة أقوال الله.

الرسالة القلبية:
ثق بقول الله واطمئن إليه. فإذا قال الله شيئًا، فهو الحق. وإذا حكم الله بأمر، فهو العدل. وإذا شرع الله شريعة، فهي الحكمة. هذه الثقة تملأ القلب سكينة ويقينًا.

الرسالة النفسية:
لا تجعل كلام الناس يؤثر في نفسك أكثر مما ينبغي. تذكر أن كثيرًا مما يقوله الناس هو مجرد قول بأفواههم، لا قيمة له في ميزان الحقيقة. فلا تهتز لقولهم، ولا تفرح بمدحهم، ولا تحزن لذمهم، ما دمت على الحق الذي يرضي الله.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك أن يميزوا بين الحق والباطل، وبين القول الثقيل والقول الخفيف. ازرع فيهم ميزانًا نقديًا يفرقون به بين ما يقوله الله وما يقوله الناس. وعلمهم أن القرآن هو كلام الله الحق، وأن كل ما خ

الفه فهو باطل.

أمثلة تقريبية من حياتنا المعاصرة

المثال الأول: الشائعات والأخبار الكاذبة
في عصر وسائل التواصل الاجتماعي، نسمع يوميًا آلاف الأقوال: شائعات، أخبار كاذبة، تحليلات غير دقيقة، اتهامات باطلة. كثير من الناس يتأثرون بهذه الأقوال، ويبنون عليها مواقف وقرارات. ثم بعد فترة يتبين أنها كانت مجرد قول بالأفواه، لا أساس لها من الصحة.

الآية تعلمنا: لا تبنِ حياتك على أقوال الناس. تحقق، وتثبت، وارجع إلى المصادر الموثوقة. والأهم: ارجع إلى قول الله الحق الذي لا يتغير ولا يتبدل.

المثال الثاني: الدعاية والإعلانات المضللة
كم من مرة اشتريت سلعة بناء على إعلان مغرٍ، ثم اكتشفت أنها لا تستحق نصف ما قيل عنها؟ لقد كان ذلك الإعلان مجرد قول بأفواههم! أقوال جميلة تهدف إلى خداعك وأخذ مالك.

الآية توقظ وعينا: لا تنخدع بالأقوال المعسولة. انظر إلى الحقائق، إلى الجوهر، لا إلى المظهر و الكلمات البراقة.

المثال الثالث: الوعود الكاذبة في العلاقات
في الحياة الزوجية، والعمل، والصداقات، كم من شخص وعدك وعدًا جميلا ً، وأطلق كلمات معسولة، ثم أخلف ولم يفِ؟ لقد كان كلامه مجرد قول بفمه، لم يترجمه إلى فعل، ولم يصحبه نية صادقة.

الآية تعلمنا: انظر إلى الأفعال لا إلى الأقوال. ولا تكن أنت ممن يقولون بأفواههم ما لا يفعلون. كن صادقًا في قولك، أمينًا في وعدك.

المثال الرابع: الفلسفات والنظريات البشرية المتغيرة
كم من نظرية علمية أو فلسفية سادت فترة من الزمن، ثم ثبت خطؤها وبطلانها، وحلت محلها نظرية أخرى؟ إنها كلها أقوال البشر، تحتمل الصواب والخطأ. أما قول الله فهو الحق الثابت الذي لا يتغير.

الآية تضع أقدامنا على أرض صلبة: تمسك بقول الله. فكل ما عداه عرضة للتغير والتبدل، أما قول الله فهو الحق المطلق.
المحور الخامس:
النظرة الشاملة للآية - منظومة الحقائق الثابتة

دعنا الآن - أيها القارئ الكريم - نأخذ نظرة شاملة على الآية الرابعة من سورة الأحزاب. إنها ليست مجرد تقرير لأحكام شرعية منفصلة، بل هي منظومة متكاملة تهدف إلى:

.1تحرير العقل من الأوهام

الآية تحرر العقل المسلم من سلطة الأوهام وهيمنة الألفاظ. ففي الجاهلية، كانت الكلمة تصنع الواقع: أنت أمي لأني قلت لك "أنت علي كظهر أمي". أنت ابني لأني قلت "تبنيتك". أما الإسلام فيقول: الكلمة لا تصنع الواقع. الحقيقة هي الحقيقة، سواء قيلت أم لم تقل.

.2تأسيس مجتمع على الحقائق لا على الأوهام

لا يمكن أن ينهض مجتمع وهو مبني على الكذب وتزوير الحقائق. التبني تزوير للأنساب، والظهار ظلم للمرأة وتشويه للعلاقات الأسرية. الإسلام أراد أن يبني مجتمعًا قويًا على أساس الحق، مهما كان هذا الحق مؤلمًا أو صادمًا للعادات والتقاليد.

.3التمهيد للتشريعات الكبرى القادمة

هذه الآية تمهد لتشريع عظيم سيأتي في السورة نفسة: إبطال التبني بشكل عملي بزواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش. فقبل أن يأتي الحكم العملي، يأتي التأسيس العقدي والفكري: لا بنوة بالتبني. ثم يأتي التطبيق العملي: زواج النبي من مطلقة زيد.

وهذا يعلمنا درسًا عظيمًا: قبل أن تغير السلوك، غير القناعات. قبل أن تطالب الناس بتطبيق حكم شرعي، أسس له في عقولهم وقلوبهم.
المحور السادس:
كيف نطبق الآية في حياتنا العملية اليوم؟

والآن نصل إلى السؤال الأهم: كيف نحول هذه الآية العظيمة من مجرد كلمات نتلوها إلى منهج حياة نعيشه؟

.1في علاقتنا مع أنفسنا

وحد قلبك ووجهتك:
لا تجعل في قلبك حب الدنيا وحب الله في آن واحد. لا تجمع بين الإخلاص والرياء. لا تردد بين طريق الحق وطريق الباطل. كن صاحب قلب واحد، يتجه بكليته إلى الله.

تقبل حقيقتك كما هي:
لا تحاول أن تكون شخصًا آخر. لا تزيف في سيرتك الذاتية. لا تدع ما ليس لك. ارضَ بما قسم الله لك من قدرات وإمكانيات وأنساب. الحقيقة - مهما كانت مرة - خير من الوهم الجميل.

لا تجعل للألفاظ سلطانًا على نفسك:
إذا قال عنك الناس شيئًا ليس فيك، فلا تجعل كلامهم يؤثر في حقيقتك. أنت ما أنت عليه في علم الله، لا في كلام الناس. ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾.

.2في علاقتنا مع الآخرين

في العلاقات الزوجية:
احذر من كلمات الغضب التي تندم عليها. لا تجعل لسانك سببًا في هدم أسرتك. تذكر أن زوجتك هي زوجتك، وليست أمك، وليست أختك. عاملها بالمعروف، ولا تظلمها بكلمات جائرة.

في تربية الأبناء:
إذا كنت ترعى يتيمًا، فأكرمه وأحسن إليه، ولكن لا تزيف له الحقيقة. لا تنسبه إلى نفسك كذبًا. عامله بصدق، وذكره دائمًا أن قيمته ليست في نسبه، بل في تقواه وعمله الصالح. واذكر له قصة زيد بن حارثة: عبد أصبح قائدًا عظيمًا، ولم يضره أن يُدعى باسم أبيه الحقيقي.

في العلاقات الاجتماعية والمهنية:
لا تطلق على الناس ألقابًا جائرة، ولا تصنفهم تصنيفات ظالمة. زميلك في العمل ليس "فاشلا ً" لأنك قلت ذلك. جارك ليس "لصًا" لأنك ظننته كذلك. الحقيقة لا تتغير بألفاظكم. كن عادلا ً في كلامك عن الناس.

.3في علاقتنا بالمجتمع والعالم

مواجهة الثقافة الاستهلاكية:
الإعلانات تحاول أن تقنعك أنك ستصبح شخصًا أفضل إذا اشتريت هذه السلعة. إنهم يقولون بأفواههم كلامًا معسولا ً، ولكن الحقيقة أن قيمتك ليست فيما تملك، بل فيما أنت عليه. لا تجعل للألفاظ الإع لانية سلطانًا على عقلك وقلبك.

مواجهة الدعاية السياسية والإعلامية:
كثير من وسائل الإعلام تطلق أقوالا ً بأفواهها، تصف الحق باطلا ً والباطل حقًا. الآية تعلمنا ألا نكون مستهلكين سلبيين للإعلام، بل أن نمتلك وعيًا نقديًا يفرق بين قول الحق وقول الباطل.

الاعتزاز بالهوية الإسلامية:
في عصر العولمة، هناك من يحاول أن يقنعك أن هويتك الإسلامية شيء "متخلف"، وأنه يجب أن تتبنى هوية أخرى لتكون "متقدمًا". الآية تذكرك: لا تتبنَ ما ليس لك. هويتك الإسلامية هي حقيقتك، فلا تتخلى عنها لأوهام التقدم المزعوم.
خاتمة: العودة إلى قول الحق

أيها القارئ الكريم.. لقد طفنا معًا في رحاب آية عظيمة من كتاب الله. آية تحرر العقول من الأوهام، والقلوب من الازدواجية، والمجتمعات من التزييف.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· الحقيقة ثابتة لا تتغير بالكلمات.
· القلب السليم هو القلب الواحد الموحد.
· قول الله هو الحق الذي لا يأتيه الباطل.
· سبيل الهداية بيد الله وحده.

فلنجعل هذه الآية نبراسًا يضيء لنا الطريق في زمن كثرت فيه أقوال الأفواه، وقلت فيه أفعال القلوب. ولنتذكر دائمًا أن:

﴿وَاللهُ يَقُولُ الحَقّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾

فإذا التبست عليك الأمور، واختلطت عليك الأقوال، فعد إلى قول الله. وإذا ضللت الطريق، وتعددت أمامك السبل، فاسأل الله أن يهديك السبيل. فهو وحده الهادي إلى سواء السبيل.
المبحث الثاني.
رحلة تدبرية في رحاب الآية الخامسة من سورة الأحزاب

تمهيد: من هدم الباطل إلى بناء الحق.. رحلة العدل والرحمة

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا المسار القرآني البديع..

في الآية السابقة، وقفنا على مشهد عظيم من مشاهد التحرير الفكري والاجتماعي. لقد هدم القرآن الكريم أوهام الجاهلية واحدة تلو الأخرى: لا قلبين في جوف، لا أمومة بالظهار، لا بنوة بالتبني. ثم ختم الله تلك الآية بقوله الحق: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللهُ يَقُولُ الحَقّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.

والآن.. وبعد هذا الهدم الكامل للبنيان الجاهلي الواهي، يأتي القرآن ليبني بنيان الإسلام الشامخ على أنقاضه. إنه لا يكتفي بأن يقول لك: "هذا باطل" ثم يتركك في فراغ! كلا، بل يقدم لك البديل الحق، والمنهج العادل، والطريق المستقيم.

وهنا تبرز عظمه التشريع الإسلامي: إنه تشريع إيجابي بناء، لا سلبي هدام. إنه لا يكتفي بإبطال التبني، بل يرشدنا إلى كيف نتعامل مع هؤلاء الأدعياء بعد إبطال نسبتهم إلينا. كيف نحفظ كرامتهم؟ كيف نحقق العدل معهم؟ كيف نبني مجتمعًا متماسكًا على أسس واضحة؟

الآية الخامسة تجيب عن كل هذه الأسئلة بأسلوب يفيض رحمة وعدلا ً وحكمة:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

يا له من بناء محكم! تأمل معي هذه المنظومة المتكاملة:

1. الأمر الإلهي بالعدل: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾
2. التعليل بالقسط الإلهي: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ﴾
3. الاستثناء الرحيم عند الجهل: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾
4. رفع الحرج عن الخطأ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾
5. التحذير من تعمد الباطل: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾
6. الختم بصفات الرحمة والمغفرة: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

إنها آية تفيض بالعدل والرحمة معًا. آية تبني مجتمعًا على الحق والوضوح والتراحم. دعنا نبحر في أعماقها معًا.
المحور الأول:
الأمر الإلهي بالعدل.. ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾

لماذا هذا الأمر؟ ولماذا الآن؟

قف معي عند هذا الأمر الإلهي الصريح: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾. إنه ليس مجرد توجيه لفظي، بل هو إعادة تشكيل للوعي الجمعي، وثورة على أعراف الجاهلية، وبناء لمجتمع الحق والعدل.

المعنى المباشر:
انسبوا الأدعياء (الأبناء بالتبني) إلى آبائهم الحقيقيين. قولوا: "زيد بن حارثة" ولا تقولوا: "زيد بن محمد". هذا هو الأمر الإلهي الواضح.

ولكن لماذا هذا التشديد؟ أليس الاسم مجرد كلمة؟

هنا يكمن العمق القرآني العجيب. الاسم ليس مجرد كلمة، بل هو:

· عنوان الهوية: الاسم يحدد من أنت، ومن أين جئت، وإلى من تنتمي.
· حافظ الأنساب: به تحفظ الحقوق، وتعرف الصلات، وتوزع المواريث.
· رمز الكرامة: لكل إنسان الحق في أن ينسب إلى أبيه الحقيقي، مهما كان وضع أبيه.

تأمل معي هذه القصة الحية التي تكشف عظمة هذا التشريع:

لما نزلت هذه الآية، كان زيد بن حارثة يُدعى "زيد بن محمد". وكان هذا شرفًا عظيمًا له، فمن ذا الذي لا يتمنى أن يكون ابنًا لمحمد صلى الله عليه وسلم؟ ولكن الله - بحكمته البالغة - أراد أن يبطل التبني، فأنزل: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾. فصار زيد يُدعى "زيد بن حارثة".

تخيل معي مشاعر زيد في تلك اللحظة! إنه يفقد لقبًا كان يعد من أعظم الألقاب. ولكن تأمل كيف كان رد فعله، وكيف كانت عاقبته:

· لم يجزع، ولم يعترض، بل امتثل لأمر الله ورسوله.
· والله - سبحانه - عوضه خيرًا مما فقد: جعله الصحابي الوحيد الذي ذُكر باسمه صريحًا في القرآن: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 37]. إنه تخليد أبدي لا يدانيه لقب "ابن محمد"!

وهكذا نرى أن العدل الإلهي قد ينزع منك شيئًا تحبه، لكنه يعطيك ما هو خير منه وأبقى.

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا المقطع

1. صيغة الأمر "ادعوهم":
الآية تبدأ بفعل أمر: ﴿ادْعُوهُمْ﴾. وهذا الأمر موجه للأمة جمعاء. إنه تشريع ملزم وليس مجرد نصيحة أو توجيه. فالدعوة إلى الآباء الحقيقيين واجب شرعي، ومخالفتها معصية.

2. اللام في "لآبائهم":
قال: ﴿لِآبَائِهِمْ﴾ بلام الاختصاص. ولم يقل: "ادعوهم بآبائهم". وهذه اللام تفيد الاختصاص والتمليك. فالأب هو الذي يختص بالابن، والابن يختص بأبيه. إنها علاقة حصرية لا يشاركه فيها أحد.

3. تقديم الجار والمجرور:
قدم ﴿لِآبَائِهِمْ﴾ على الفعل ليفيد الاهتمام والاختصاص. فكأنه يقول: لآبائهم - لا لغيرهم - ادعوهم. فلا يجوز أن يدعى الولد لغير أبيه.

4. إضافة الآباء إلى ضمير الغائبين:
قال: ﴿لِآبَائِهِمْ﴾، فأضاف الآباء إلى الأدعياء. وهذا فيه إقرار بالعلاقة الحقيقية: هؤلاء الآباء هم آباؤهم حقًا، وهؤلاء الأبناء هم أبناؤهم حقًا. فلا تنكروا هذه الحقيقة.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الحقيقة أولاً. لا تخف من الحقيقة، ولا تجامل على حسابها. قول الحق في كل شيء، حتى في الأنساب والأسماء. فالعدل يبدأ من الكلمة الصادقة.

الرسالة القلبية:
لا تجعل حبك لشخص يدفعك إلى تزييف الحقائق من أجله. أحببت زيدًا؟ نعم. ولكن الحب لا يبرر الكذب. الوفاء الحقيقي هو أن تكون صادقًا مع من تحب.

الرسالة النفسية:
لا تجعل قيمتك مرهونة باسمك أو لقبك. زيد لم يفقد قيمته حين دعي "ابن حارثة" بدل "ابن محمد". بل زادت قيمته وكرامته بامتثاله لأمر الله. قيمتك الحقيقية في إيمانك وعملك، لا في اسمك ونسبك.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك أن الصدق أجمل من المجاملة. إذا سألوك عن أصلهم أو نسبهم، فاصدقهم. لا تزيف لهم الواقع. ازرع فيهم الاعتزاز بأنفسهم كما هم، لا كما يتمنى الآخرون أن يكونوا.

أمثلة تقريبية من حياتنا المعاصرة

المثال الأول: الألقاب والمناصب الوهمية
كم من شخص نراه اليوم يضيف إلى اسمه ألقابًا ليست له: "دكتور" وهو لم يحصل على الدكتوراه، "مهندس" وهو لم يدرس الهندسة، "شيخ" وهو ليس من أهل العلم. وغيرها من الألقاب أليس هذا نوعًا من التبني المعنوي؟ إنه يدعي انتسابًا إلى فئة ليس منها.

الآية تقول له: ادع نفسك بما أنت عليه حقًا. لا تزيف هويتك. الحقيقة - وإن كانت أقل بريقًا - خير من الزيف والكذب.

المثال الثاني: الانتماءات القبلية والعائلية المزورة
في بعض المجتمعات، نجد من ينسب نفسه إلى قبيلة شريفة أو عائلة عريقة، مع أنه ليس منها. يفعل ذلك طلبًا للوجاهة أو المال أو النفوذ. وكم من مشاكل اجتماعية وقانونية نشأت بسبب هذا التزييف!

الآية تحذر من هذا كله: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾. لا تدع نفسك لغير أبيك. لا تنتسب إلى غير أهلك. كن صادقًا في نسبك وانتمائك.

المثال الثالث: التبني غير القانوني
في عصرنا، يلجأ بعض الناس إلى تسجيل طفل متبنى باسمهم في الأوراق الرسمية، مع أنهم يعلمون أنه ليس ابنهم الحقيقي. هذا تزوير صريح يترتب عليه ضياع أنساب، واختلاط مواريث، ومشاكل نفسية للطفل حين يكبر ويكتشف الحقيقة.

الآية تعطينا البديل الشرعي: الكفالة. ارعَ اليتيم، وأحسن إليه، وربّه، ولكن لا تنسبه إليك. دعه على اسم أبيه الحقيقي، فإن لم يعرف أبوه، فادعه بأخوة الدين.
المحور الثاني:
التعليل بالقسط الإلهي.. ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾

ميزان الله لا ميزان البشر

بعد الأمر الإلهي الصريح، يأتي التعليل الذي يطمئن القلوب ويسكن النفوس: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾.

تأمل معي هذه العبارة القرآنية المحكمة:

· "هو": ضمير الفصل يفيد الحصر والتأكيد .أي: هذا الأمر بالذات، لا غيره، هو الأقسط.
· "أقسط": اسم تفضيل من القسط) العدل .(فالمعنى: أكثر عدلا ً، أعلى مرتبة في ميزان العدل.
· "عند الله": في ميزان الله، في حكمه، في شرعه .ليس في ميزان البشر المتقلب، ولا في أعرافهم المتغيرة.

لماذا هو أقسط عند الله؟

لأن الله - سبحانه - هو أحكم الحاكمين، وهو الذي يعلم ما يصلح عباده في الدنيا والآخرة. انظر إلى الحكم المتعددة من هذا التشريع:

.1حفظ الأنساب من الاختلاط: هذا عدل للأبناء الحقيقيين، حتى لا يدخل عليهم من ليس منهم فيشاركهم في نسبهم وميراثهم.
.2حفظ الحقوق المالية: هذا عدل في المواريث، فلا يرث الدعي من ليس أباه، ولا يحرم الابن الحقيقي.
.3حفظ المحرمية والزواج: هذا عدل في العلاقات الأسرية، فلا تختلط المحارم بالأجانب.
.4حفظ الكرامة النفسية: هذا عدل للدعي نفسه، فهو يعرف أصله، ولا يعيش في وهم الانتساب إلى غير أهله.
.5حفظ الحق الإلهي: هذا عدل مع الله، فهو الذي جعل الأنساب، فلا يحق لأحد أن يغير ما جعل الله.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1اسم التفضيل "أقسط":
استخدم صيغة أفعل التفضيل: "أقسط"، ولم يقل "قسط" أو "عدل". وهذا يشير إلى أن هناك درجات للعدل، وهذا التشريع هو أعلى درجات العدل. حتى لو بدا للناس أن هناك حلولا ً أخرى عادلة، فهذا هو الأعدل على الإطلاق.

.2الظرف "عند الله":
في هذا الظرف: ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ معانٍ عميقة:

· التعظيم: فالعدل هنا مستند إلى الله، وليس إلى رأي بشر.
· الثبات: فما عند الله ثابت لا يتغير، بخلاف ما عند الناس.
· الجزاء: فمن التزم بهذا الأمر، كان له الأجر عند الله، حتى لو فقد شيئًا عند الناس.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
لا تقيس الأمور بمقاييس البشر. ما تراه عادلا ً قد لا يكون أقسط عند الله. ثق أن شرع الله هو قمة العدل والحكمة، حتى لو لم تدرك الحكمة فورًا.

الرسالة القلبية:
عندما يأمرك الله بأمر قد يكون صعبًا على نفسك، تذكر: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾. هذا يملأ قلبك طمأنينة ورضا. فأنت لا تتبع هواك، بل تتبع حكم الله العادل.

الرسالة النفسية:
لا تحزن إذا فقدت شيئًا من متاع الدنيا بسبب تمسكك بالحق. فما عند الله خير وأبقى. قد تفقد لقبًا أو منصبًا أو مكانة اجتماعية، لكنك تربح القسط عند الله، وهذا هو المكسب الحقيقي.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك أن ميزان الحق ليس بكثرة المؤيدين، ولا بقوة العادات. الحق هو ما وافق شرع الله. ازرع فيهم الاستعداد للتضية من أجل الحق.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة المهندس الذي رفض الرشوة
تخيل معي مهندسًا شابًا يعمل في مشروع كبير. يأتيه مقاول يعرض عليه رشوة كبيرة مقابل التغاضي عن بعض العيوب في البناء. المهندس يعلم أن قبول الرشوة سيجلب له مالا ً وفيرًا، لكنه يرفض. يخسر المال، لكنه يربح ضميره ودينه.

قد يقول له الناس: "لماذا لم تأخذها؟ الكل يأخذ!". لكن المهندس يتذكر: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾. ما عند الله من رضا وثواب أقسط وأعدل وأبقى من مال حرام يزول.
المحور الثالث:
الرحمة في التشريع.. ماذا لو لم تعرف الأب الحقيقي؟

﴿فَإِن لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾

والآن تأمل معي روعة التشريع الإسلامي ورحمته الواسعة. بعد الأمر الصارم بنسبة الأدعياء إلى آبائهم الحقيقيين، يأتي الاستثناء الرحيم: ماذا لو لم تعرف آباءهم الحقيقيين؟

هناك حالات كثيرة لا يُعرف فيها نسب الشخص:

- لقيط وُجد على باب مسجد.
- طفل مجهول الأبوين بسبب الحروب أو الكوارث.
- شخص انقطعت أخبار أهله منذ زمن بعيد.

في هذه الحالات، ماذا نفعل؟ هل نتركه بلا اسم ولا هوية؟ هل نقول له: "أنت بلا أب" فنكسر خاطره ؟

كلا! رحمة الله تأتي بالبديل الرائع:

- ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾: انسبوهم إلى الأخوة الدينية .قولوا: "هذا أخونا في الله" .يا لها من نسبة شريفة!
- ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾: أو انسبوهم إلى الولاء) ولاء الحلف أو العتق .(قولوا: "هذا مولى فلان".

دلالات وعمق وراء هذا الاستثناء

.1حفظ الكرامة الإنسانية:
الإسلام لا يرضى أن يُترك الإنسان بلا هوية. فإذا لم تعرف له أبًا، فامنحه هوية أخرى شريفة: أخوة الدين أو الولاء. إنه إنسان له كرامة، ولا يجوز إذلاله.

.2تأكيد معنى الأمة الواحدة:
عبارة ﴿إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ترسخ مفهوم الأخوة الإسلامية. فالمسلمون إخوة، والدين يجمعهم. هذه الأ خوة قد تكون أحيانًا أقوى من أخوة النسب. كم من أخ نسب لم ينفع أخاه، وكم من أخ دين كان سندًا وعضدًا!

.3فتح باب الانتماء الشريف:
الولاء (الموالاة) علاقة شرعية معروفة في الإسلام. فمن لا يعرف له نسب، يمكن أن ينسب إلى من يتولاه ويرعاه بولاء الحلف أو العتق. وهذا يحفظ له كيانه الاجتماعي.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1أداة الشرط "فإن":
استخدم "إن" التي تفيد الشك أو الاحتمال. والمعنى: إن وُجدت هذه الحالة - وهي نادرة - فالحكم كذا. وهذا من أدب القرآن، فهو يضع الحكم للحالة النادرة كما يضعه للحالة الشائعة.

.2الإضافة في "إخوانكم":
أضاف الإخوان إلى ضمير المخاطبين: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾. وهذا فيه إشعار بالقرب والحميمية. هم ليسوا مجرد إخوة، بل هم إخوانكم أنتم، لهم ما لكم من حقوق الأخوة.

.3العطف بـ "و":
قال: ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾، فعطف بالواو التي تفيد التخيير والتنويع. فإما أن تدعوه بالأخوة الدينية، وإما بالولا ء. وهذا يعطي مرونة في التطبيق حسب الحال والمقام.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الإسلام دين الواقعية والمرونة. يضع المبادئ الثابتة، ولكنه يراعي الظروف الاستثنائية. فليس كل أمر يمكن تطبيقه بنفس الصورة في كل الأحوال.

الرسالة القلبية:
أشعر بقيمة الأخوة الإسلامية. المسلم أخو المسلم. هذه الأخوة تمنحك انتماءً عظيمًا يتجاوز حدود الدم والنسب. أنت جزء من أمة عظيمة، تربطك بها رابطة الإيمان.

الرسالة النفسية:
إذا كنت ممن لا يعرفون آباءهم، فلا تحزن. الإسلام أعطاك نسبًا شريفًا: أنت أخ للمسلمين، أو مولى لهم. هذه هوية ترفع رأسك، لا تنكسه. قيمتك في دينك وتقواك، لا في نسبك.

الرسالة التربوية:
إذا كنت مربيًا، ووجدت طفلا ً مجهول النسب، فلا تشعره بالنقص. عامله كأخ في الدين، أو كمولى. ازرع فيه الاعتزاز بإيمانه، وعلمه أن أكرم الناس عند الله أتقاهم.

أمثلة تقريبية من حياتنا المعاصرة

المثال الأول: اللقطاء ومجهولو النسب
في مجتمعاتنا، هناك أطفال لا يُعرف آباؤهم بسبب ظروف مختلفة. بعض الناس ينظرون إليهم نظرة دونية، وكأنهم "أقل" من غيرهم. وهذا ظلم كبير!

الآية تعلمنا كيف نتعامل معهم: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾. هم إخوة لنا في الدين، لهم ما لنا وعليهم ما علينا. عاملوهم بالكرامة والاحترام، وانسبوهم إلى الأمة الإسلامية، أو إلى من يتولى رعايتهم.

المثال الثاني: الأيتام واللاجئون
في الحروب والكوارث، يفقد الأطفال أهاليهم، ولا يعرفون أنسابهم. هؤلاء إخواننا في الدين، ويجب أن نكون لهم أهلا ً وسندًا. لا نقول لهم: "أنتم بلا أصل"، بل نقول: "أنتم إخواننا، ونحن أهلكم".

المثال الثالث: الانتماء إلى الجماعة المسلمة
حتى من يعرف نسبه، عليه أن يشعر أن انتماءه الأول هو للإسلام. القبيلة والعائلة والوطن انتماءات محترمة، لكنها تأتي بعد أخوة الدين. فإذا تعارضت العصبية القبلية مع أخوة الإسلام، فالإسلام مقدم.
المحور الرابع:
رفع الحرج عن الخطأ.. ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾

رحمة الله تتجلى في رفع الحرج

والآن ندخل إلى روضة من رياض الرحمة الإلهية. بعد أن أمر الله بأمر صارم: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾، يعلم - سبحانه - أن الناس قد يخطئون. فقد ينادي شخص زيدًا بـ "زيد بن محمد" من غير قصد، أو على سبيل العادة القديمة قبل أن يبلغه الحكم، أو سهوًا ونسيانًا.

فماذا يفعل؟ هل يأثم؟ هل يقع في معصية؟

الجواب يأتي بالرحمة الواسعة: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾.

· "جناح": إثم، حرج، مؤاخذة.
· "فيما أخطأتم به": في الشيء الذي وقع منكم خطأً، بغير قصد ولا تعمد.

تأمل معي كم في هذا التشريع من رفق وتيسير! إن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ويعلم ضعف الإ نسان، ويعلم أنه قد ينسى أو يخطئ. فلا مؤاخذة على الخطأ.

الفرق بين الخطأ والعمد.. دقة قرآنية مذهلة

القرآن يفرق دائمًا بين الخطأ والعمد:

· الخطأ: ما وقع بغير قصد، أو عن جهل، أو نسيان.
· العمد: ما وقع بقصد وإرادة، مع العلم بالحكم.

وهذا التفريق من أصول العدالة في الإسلام. فلا يعاقب الإنسان على ما لم يقصده، ولا يؤاخذ بما لم يتعمده.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1التعبير بـ "ليس":
استخدم "ليس" التي تفيد النفي المطلق. فليس هناك جناح أصلا ً، لا قليل ولا كثير. وهذا أبلغ من " لا جناح".

.2التنكير في "جناح":
نكر كلمة "جناح" ليفيد العموم. أي: ليس عليكم أي نوع من أنواع الإثم أو الحرج.

.3الباء في "به":
قال: ﴿أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾، والباء هنا للسببية. أي: ليس عليكم جناح بسبب هذا الخطأ. وهذا يفيد أن الخطأ قد يكون سببًا للجناح لولا رحمة الله.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الإسلام دين اليسر لا العسر. لا تظن أن الله يتربص بك ليؤاخذك على كل صغيرة وكبيرة. الله رحيم، يرفع الحرج عن المخطئ.

الرسالة القلبية:
إذا وقعت في خطأ غير مقصود، فلا تمتلئ قلبك خوفًا وقلقًا. ثق برحمة الله. فهو يعلم أنك لم تتعمد ، ولن يؤاخذك.

الرسالة النفسية:
لا تكن وسواسًا، تحاسب نفسك على كل كلمة تفلت منك بغير قصد. الدين يسر. وسع على نفسك، ولا تضيق عليها ما وسع الله.

الرسالة التربوية:
إذا أخطأ ابنك أو طالبك خطأ غير مقصود، فارفق به. لا تؤاخذه بشدة. ذكره برفق، وامنحه فرصة للتصحيح. فالله يعامل عباده بالرحمة، وأنت أولى أن تتعامل بالرحمة.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الرجل الذي نادى زيدًا بـ "ابن محمد" بعد التحريم

بعد نزول الآية، كان بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - ينادون زيد بن حارثة بـ "زيد بن محمد" على سبيل العادة القديمة، أو نسيانًا للحكم الجديد. فكانوا إذا ثبهوا استغفروا وصححوا، ولم يؤاخذهم الله على ذلك.

وفي حياتنا المعاصرة: كم من شخص تعود أن ينادي صديقه بلقب معين، ثم علم أن هذا اللقب يكرهه أو أن الشرع ينهى عنه. إذا ناداه به ناسيًا أو على سبيل العادة، فلا إثم عليه، ولكن عليه أن يجتهد في تصحيح لسانه مستقبلا ً.
المحور الخامس:
التحذير من تعمد الباطل.. ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

حيث يكون القلب هو محل التكليف

بعد رفع الحرج عن الخطأ، يأتي التحذير من العمد: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

· "لكن": للاستدراك .رفعنا عنكم جناح الخطأ، لكن المؤاخذة تقع على ما تعمدته قلوبكم.
· "ما تعمدت قلوبكم": ما قصدتموه بقلوبكم، وعقدتم العزم عليه، وفعلتموه عن علم وإرادة.

تأمل معي مركزية القلب في التشريع الإسلامي! لم يقل: "ما تعمدتم" بل قال: ﴿مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾. لأن القلب هو محل النية والقصد. العمل وحده لا يكفي للمؤاخذة، بل لا بد من نية القلب وعزمه.

لماذا هذا التحذير؟

لأن البعض قد يستغل رفع الحرج عن الخطأ، فيتعمد مخالفة الأمر بحجة أنه "نسي" أو "أخطأ". وهنا يأتي التحذير: الله يعلم ما في القلوب. فلا تخادع الله.

إن المنافقين في المدينة كانوا يتعمدون مناداة زيد بـ "زيد بن محمد" استهزاءً بالتشريع الجديد، وإظهارًا للتذمر من إبطال التبني. فجاءت الآية لتقول: إنكم تؤاخذون على ما تعمدته قلوبكم من الا ستهزاء والعناد.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1إسناد التعمد إلى القلوب:
قال: ﴿تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ولم يقل: "تعمدتم". وهذا يفيد أن العبرة بما في القلب. فربما يتكلم اللسان بكلمة، لكن القلب لم يتعمدها، فلا مؤاخذة. وربما يسكت اللسان، لكن القلب يعقد العزم على المعصية، فهذا محل المؤاخذة.

.2"ما" الموصولة:
﴿مَا تَعَمَّدَتْ﴾ تفيد العموم .أي: أي شيء تعمدته قلوبكم من مخالفة هذا الأمر أو غيره، فعليكم فيه الجناح.

.3الاستدراك بـ "لكن":
"لكن" هنا تفيد تأكيد المؤاخذة على العمد بعد نفيها عن الخطأ .وهذا أسلوب بليغ في تقرير الأحكام.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
النية هي أساس التكليف. العمل بلا نية لا قيمة له، والنية السيئة تهدم العمل الصالح. فراقب نيتك في كل ما تفعل.

الرسالة القلبية:
الله يعلم ما في قلبك. لا تخادع الله، ولا تحاول أن تظهر خلاف ما تبطن. أصلح قلبك، تصلح جوارحك.

الرسالة النفسية:
لا تقلق من الوساوس والخواطر التي تمر بقلبك دون أن تتعمدها. هذه لا تؤاخذ عليها. المؤاخذة على ما عقدت عليه قلبك، وقصدته بإرادتك.

الرسالة التربوية:
عندما تربي أبناءك، انظر إلى نياتهم. إذا أخطأوا بغير قصد، فارفق بهم. وإذا تعمدوا المخالفة، فاحتسبهم وعاقبهم بما يناسب. فالتربية على مراعاة النية من أهم أصول التربية الإسلامية.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الموظفين مع القرار الجديد

تصور أن شركة أصدرت قرارًا جديدًا: "يمنع مناداة المدير بأي لقب غير اسمه الرسمي". بعض الموظفين نادوا المدير بلقبه القديم نسيانًا أو خطأً، فلم يؤاخذوا. لكن موظفًا آخر تعمد مناداته باللقب القديم استهزاءً بالقرار أو تحديًا للمدير، فهذا يستحق المؤاخذة.

الله سبحانه هو المدير الأعظم، وقد أصدر أمرًا: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾. فمن أخطأ غير متعمد، فالله غفور رحيم. ومن تعمد المخالفة استهزاءً أو عنادًا، فليعلم أن الله مطلع على قلبه، وسيحاسبه على ما تعمد.
المحور السادس:

الختام بصفات المغفرة والرحمة.. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

الرحمة تسبق الغضب.. والمغفرة تغمر الخطايا

وهنا نصل إلى الختام المسك لهذه الآية العظيمة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

تأمل معي موضع هذا الختام! بعد أن أمر ونهى، وبعد أن رفع الحرج عن المخطئ وحذر من المتعمد، ختم الآية بذكر صفاته الرحيمة: غفور (كثير المغفرة لمن تاب)، رحيم (واسع الرحمة بعباده).

لماذا هذا الختام؟

.1فتح باب التوبة: من تعمد المخالفة ثم ندم وتاب، فـالله غفور يغفر له ذنبه، رحيم يقبل توبته.
.2تطمين المخطئ: من أخطأ بغير قصد، فـالله غفور يتجاوز عن خطئه، رحيم لا يؤاخذه.
.3حث على الامتثال برحمة لا بخوف فقط: الله لا يريد من عباده أن يطيعوه خوفًا من العقاب فقط ، بل يريدهم أن يطيعوه رجاءً في مغفرته ورحمته.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1الفعل "كان":
استخدم "كان" الدالة على الدوام والاستمرار. فـالله لم يزل ولا يزال غفورًا رحيمًا. هذه الصفات لازمة له سبحانه.

.2صيغة المبالغة "غفور" و "رحيم":

· غفور: صيغة مبالغة من الغفران) الستر والتجاوز .(فهو كثير المغفرة، عظيم الستر.
· رحيم: صيغة مبالغة من الرحمة .فهو واسع الرحمة، عظيم الرأفة.

.3تقديم "غفور" على "رحيم":
في هذا التقديم سر لطيف: المغفورة تسبق الرحمة في حق المذنب. فهو أولا ً يغفر الذنب ويزيل أثره، ثم يرحم العبد ويمنحه الخير. فالمغفورة تخلية من الشر، والرحمة تحلية بالخير.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
لا تيأس من رحمة الله. مهما كان ذنبك عظيمًا، فـالله غفور رحيم. بابه مفتوح للتائبين في كل وقت.

الرسالة القلبية:
أحب الله الذي يغفر ويرحم. لا تجعل خوفك من عقابه يطغى على رجائك في رحمته. توازن بين الخوف والرجاء، فذلك هو الإيمان الحق.

الرسالة النفسية:
إذا وقعت في خطأ أو ذنب، فلا تجلد ذاتك بقسوة. تب إلى الله، واستغفره، وثق أنه غفور رحيم. لا تجعل الشيطان يدخلك في دوامة اليأس والقنوط.

الرسالة التربوية:
عندما تؤدب ابنك أو طالبك، اختم بالرحمة. بعد أن تخطئه وتعاقبه، افتح له باب الصفح والمغفرة. أشعره أنك تحبه، وأنك تؤدبه لمصلحته. فهكذا يفعل الله بعباده.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الأب الحكيم مع ابنه المخطئ

تخيل أبًا اكتشف أن ابنه تعمد مناداة أخيه بلقب يكرهه، وهو يعلم أن هذا يغضب الله ويؤذي أخاه. ا لأب يغضب ويؤدب ابنه. لكن بعد التأديب، يضمه إليه ويقول: "أنا أحبك يا بني. أريدك أن تكون أفضل. والله يغفر لمن تاب وأصلح. فتب إلى الله، واذهب واعتذر لأخيك".

هذا الأب طبق منهج القرآن: أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، ورفع الحرج عن الخطأ، وحذر من العمد، ثم ختم بالرحمة والمغفرة. هذا هو المنهج التربوي القرآني!
المحور السابع:
النظرة الشاملة للآية - بناء مجتمع العدل والرحمة

دعنا الآن - أيها القارئ الكريم - نأخذ نظرة شاملة على الآية الخامسة من سورة الأحزاب. إنها ليست مجرد حكم فقهي في مسألة الأنساب، بل هي منهج متكامل لبناء المجتمع على أسس:

.1العدل في الأنساب والهويات

الآية تؤسس لمجتمع واضح الأنساب، لا تزييف فيه ولا تدليس. هذا وضوح ضروري لاستقرار المجتمع، وحفظ الحقوق، ومنع الجرائم.

.2الرحمة في التشريع

الآية تراعي الظروف الإنسانية، فلا تترك مجهول النسب بلا هوية، بل تمنحه هوية شريفة (أخوة الدين أو الولاء).

.3رفع الحرج عن المخطئ

الآية تراعي ضعف البشر، فلا تؤاخذهم على الخطأ غير المقصود. وهذا من يسر الإسلام.

.4محاسبة النيات لا الظواهر فقط

الآية تجعل القلب هو محل التكليف. فالعبرة بما تعمده القلب، لا بما جرى به اللسان بغير قصد.

.5فتح باب التوبة والرجاء

الآية تختتم بصفات المغفرة والرحمة، لتذكرنا أن باب الله مفتوح، وأن رحمته وسعت كل شيء.
المحور الثامن:
كيف نطبق الآية في حياتنا العملية اليوم؟
.1في التعامل مع الأنساب والهويات

كن صادقًا في نسبك:
لا تنتسب إلى غير أبيك. لا تزور في أوراقك الرسمية. لا تدع قبيلة أو عائلة ليست لك. الصدق في النسب من الإيمان.

احترم أنساب الآخرين:
لا تنسب أحدًا إلى غير أبيه. لا تطلق على شخص لقبًا يعيره بنسبه. لا تسخر من شخص لا يعرف أباه. كل الناس لآدم، وآدم من تراب.

.2في التعامل مع مجهولي النسب

عاملهم بكرامة:
إذا عرفت شخصًا لا يعرف أباه، فلا تشعره بالنقص. عامله كأخ في الدين. تذكر أن أكرمكم عند الله أتقاكم.

امنحهم الانتماء الشريف:
ساعدهم على الاندماج في المجتمع. عرفهم أنهم إخوان لنا في الدين، وأن هذا أشرف الأنساب.

.3في تربية الأبناء والطلاب

علمهم الصدق في كل شيء:
الصدق في الأنساب، الصدق في الأسماء، الصدق في الألقاب. لا تكذب عليهم ولا تزيف لهم الحقائق.

ارفق بهم عند الخطأ:

إذا أخطأ ابنك أو طالبك في مناداة شخص بغير اسمه، أو بغير لقبه، فذكره برفق. لا تعنفه، خاصة إذا كان الخطأ غير مقصود.

حاسبهم على العمد:
إذا تعمد ابنك الكذب أو التزييف أو الاستهزاء بالآخرين، فاحتسبه وأدبه. علمه أن العمد هو محل المؤاخذة.

اختم دائمًا بالرحمة:
بعد التأديب، افتح له باب الصفح والمغفرة. ذكره برحمة الله، وحثه على التوبة والاستغفار.

.4في علاقتنا بالله

تب دائمًا واستغفر:
كلنا نخطئ. كلنا نتعمد أحيانًا. ولكن باب التوبة مفتوح. ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. لا تيأس، ولا تقنط، وعد إلى الله كلما أذنبت.

اجمع بين الخوف والرجاء:
خف من عقاب الله على ما تعمدت من ذنوب، وارجُ مغفرته ورحمته. هذا التوازن يبقيك على طريق ا لاستقامة.
خاتمة: العودة إلى القسط الإلهي

أيها القارئ الكريم.. لقد طفنا معًا في رحاب آية عظيمة من كتاب الله. آية تعلمنا العدل والرحمة، و الصدق والرفق، ومحاسبة القلوب وفتح باب التوبة.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· العدل هو أن تدعو كل إنسان بأبيه، فهو أقسط عند الله.
· الرحمة هي أن تمنح مجهول النسب هوية شريفة: أخ في الدين.
· الرفق هو ألا تؤاخذ المخطئ غير المتعمد.
· الحزم هو أن تحاسب المتعمد على ما في قلبه.
· الرجاء هو أن تعلم أن الله غفور رحيم.

فلنجعل هذه الآية نبراسًا في تعاملنا مع أنفسنا ومع الآخرين. ولنتذكر دائمًا أن:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾

فإذا أخطأنا، استغفرنا. وإذا تعمدنا، تبنا. وإذا يئسنا، تذكرنا: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.
المبحث الثالث
رحلة تدبرية في رحاب الآية السادسة من سورة الأحزاب

تمهيد: من ترتيب الأنساب إلى ترتيب الأولويات.. بناء المجتمع المتماسك

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا المسار القرآني العجيب..

في الآيات السابقة، وقفنا على مشهد عظيم من مشاهد التحرير الاجتماعي. لقد هدم القرآن الكريم أوهام الجاهلية فيما يتعلق بالتبني والظهار، وأمر بإعادة الأنساب إلى نصابها الحقيقي: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾. ثم ختم ذلك كله بصفات المغفرة والرحمة: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

والآن.. وبعد أن صحح الله المفاهيم المتعلقة بالأنساب البيولوجية، ينتقل السياق القرآني إلى بناء منظومة الأولويات والولاءات في المجتمع المسلم. إنه يضع الميزان الدقيق للعلاقات: من هو الأولى بـ الولاء؟ من هو الأحق بالتقديم؟ من هو الأقرب في الحقوق والواجبات؟

وهنا تتجلى عبقرية القرآن في بناء المجتمع: إنه لا يكتفي بتصحيح الأنساب البيولوجية، بل يؤسس لأنساب معنوية وروحية قد تكون أقوى من أنساب الدم!

لقد كانت الأحزاب قد تجمعت حول المدينة، والمنافقون يثيرون الفتن في الداخل. وفي مثل هذه الظروف العصيبة، يحتاج المجتمع المسلم إلى وحدة الصف ووضوح الولاء وترتيب الأولويات. فجاءت هذه الآية العظيمة لترسم خارطة العلاقات في دولة الإسلام:

1.النبي صلى الله عليه وسلم: الأولوية المطلقة في الولاء والحب والتقدمة.
2.أزواج النبي: أمومة معنوية تحرم نكاحهن وتوجب احترامهن.
3.ذوو الأرحام: أولوية في الميراث والتكافل على مجرد الأخوة الإسلامية والمهاجرة.

إنها آية تبني هرم الولاء في المجتمع المسلم. آية تجيب على أسئلة حائرة: من نقدم إذا تعارضت الحقوق؟ من الأولى بالطاعة والاتباع؟ من الأحق بالبر والصلة؟

دعنا نبحر في أعماق هذه الآية العظيمة لنستخرج كنوزها ودررها.

المحور الأول: الأولوية المطلقة للنبي.. ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾

إعلان دستوري عظيم في بناء الأمة

قف معي - أيها القارئ الكريم - عند هذا المقطع القرآني المهيب: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. إنها ليست مجرد آية تتلى، بل هي إعلان دستوري يحدد مركز القيادة في الأمة الإسلامية، وأساس العلاقة بين النبي وأتباعه.

المعنى المباشر:
النبي صلى الله عليه وسلم أحق بالمؤمنين، وأقرب إليهم، وأولى بهم من أنفسهم التي بين جنوبهم. هذه الأولوية تعني:

· أولوية في الحب والتقديم: حب النبي مقدم على حب النفس والولد والمال.
· أولوية في الطاعة والاتباع: أمر النبي مقدم على هوى النفس ورغباتها.
· أولوية في التضحية والفداء: النبي أحق بنفس المؤمن من نفسه، فلو دعاه لأمر فيه هلاك نفسه لوجبت طاعته.
· أولوية في القضاء والحكم: حكم النبي في أي نزاع مقدم على ما تهواه نفس المؤمن.

لماذا النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

هذا سؤال يفتح لنا أبوابًا من الفهم العميق لطبيعة العلاقة بين النبي وأمته. تأمل معي هذه الأسباب:

1.لأنه هاديهم إلى الله:
النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور. هو الذي دلهم على طريق الجنة. هو الذي علمهم ما لم يكونوا يعلمون. فحقه أعظم من حق النفس التي بين جنبيك. فنفسك تأمرك بالسوء أحيانًا، أما النبي فلا يأمر إلا بالخير.

2.لأنه أرحم بهم من أنفسهم:
النبي أرحم بأمته من الأم بولدها، ومن النفس بنفسها. فهو يريد لهم الخير دائمًا، ويخاف عليهم من النار، ويسعى لهدايتهم وفلاحهم. بينما النفس قد تغتر وتظلم وتهلك صاحبها باتباع الشهوات.

3.لأنه سبب نجاتهم في الآخرة:
النبي صلى الله عليه وسلم هو صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة. هو الذي يشفع لأمته عند الله. فطاعته واتباعه سبب للنجاة من النار والفوز بالجنة.

4.لأن الله جعل طاعته طاعة له:
قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 80]. فطاعة النبي هي عين طاعة الله. فكيف لا يكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا المقطع

1.تعريف "النبي" بالألف واللام:

قال: ﴿النَّبِيُّ﴾ بالتعريف، ولم يقل: "يا أيها النبي" كما في الآية الأولى. هذا التعريف يفيد العهد الذهني. فالمقصود هو ذلك النبي المعروف المعهود، محمد صلى الله عليه وسلم، صاحب الرسالة الخاتمة.

.2اسم التفضيل "أولى":
"أولى" اسم تفضيل من الولي) القرب والحق .(فالمعنى: أحق، أقرب، أولى بالولاية .وهذه الصيغة تدل على المفاضلة بين النبي وبين النفس .فالنبي أولى، والنفس ولية لكنها في مرتبة أدنى.

.3تقديم "بالمؤمنين":
قدم الجار والمجرور ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ليفيد الاختصاص. فهو أولى بالمؤمنين خاصة، دون غيرهم. فالذين آمنوا به واتبعوه هم الذين لهم هذه المنزلة.

.4التعبير بـ "من أنفسهم":
"من" هنا للتفضيل والمقارنة .فالنبي أولى من النفس التي هي أقرب شيء إلى الإنسان .وفي هذا مبالغة عظيمة في إثبات الأولوية.

دلالة هذا المقطع في سياق سورة الأحزاب

تعالَ معي نربط هذا المقطع بما قبله وما بعده في السورة، وعلاقته باسم السورة "الأحزاب":

.1المواجهة مع الأحزاب تتطلب قيادة مطاعة:
في ظل تحالف الأحزاب ضد المدينة، كان لا بد من قيادة موحدة مطاعة .فلا يمكن لجيش أن يواجه عدوه وهو مشتت الآراء، متعدد الولاءات .فجاءت هذه الآية لتؤكد أن النبي هو القائد الأعلى، وأن طاعته واجبة على كل مؤمن، حتى لو خالفت هوى نفسه.
.2الرد على المنافقين:
المنافقون كانوا يظهرون الطاعة بألسنتهم، ويخفون المعصية في قلوبهم .وكانوا يقدمون مصالحهم الشخصية على طاعة النبي .فجاءت الآية لتقطع الطريق عليهم: النبي أولى بكم من أنفسكم، فكيف تقدمون أهواءكم على أمره؟
.3التمهيد لأحكام قادمة:
بعد هذه الآية، ستأتي آيات تتعلق بزواج النبي من زينب، وغزوة الأحزاب، ومواقف المنافقين .هذه المقدمة تقرر قاعدة: كل ما يأمر به النبي أو يفعله فهو الحق، وهو أولى بنا من أنفسنا، حتى لو كان صعبًا على نفوسنا.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
القائد الرباني يستحق الطاعة المطلقة لأنه متصل بالوحي. النبي لا ينطق عن الهوى، فأمره هو عين الصواب. هذه القناعة العقلية تريحك من الحيرة والتردد.

الرسالة القلبية:
حب النبي يجب أن يملأ قلبك. أحبه أكثر من نفسك، أكثر من أهلك، أكثر من مالك. هذا الحب ليس مجرد عاطفة، بل هو طاعة واتباع وتضحية.

الرسالة النفسية:
عندما تتعارض رغباتك مع أمر النبي، تذكر: هو أولى بك من نفسك. نفسه الأمارة بالسوء قد تخدعك، أما النبي فلا يريد لك إلا الخير. ثق به، واتبع أمره، وستجد الخير كله.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك وطلابك حب النبي صلى الله عليه وسلم. اجعله القدوة الأولى في حياتهم. علمهم أن طاعته سبب للفلاح، وأن تقديمه على كل أحد هو من علامات الإيمان.

أمثلة تقريبية من حياتنا المعاصرة

المثال الأول: المريض والطبيب الحاذق

تصوّر معي مريضًا يعاني من مرض خطير. يأتي طبيب حاذق ناصح ويصف له دواءً مرًا، ويأمره بترك

طعام يحبه. هل يطيعه المريض؟ نعم، لأنه يثق أن الطبيب أعلم بمصلحته من نفسه، وأنه أرحم به من نفسه التي تشتهي الطعام الضار.

النبي صلى الله عليه وسلم هو الطبيب الأعظم لأمراض القلوب والنفوس. أوامره ونواهيه هي الدواء الشافي. فكن كالمريض العاقل الذي يطيع طبيبه، واعلم أن النبي أولى بك من نفسك.

المثال الثاني: الجندي والقائد في المعركة

في الميدان، الجندي قد يميل إلى الهروب حفاظًا على حياته. لكن القائد يأمره بالثبات والهجوم. الجندي المخلص يطيع القائد، لأنه يعلم أن القائد أدرى بمصلحة الجيش كله، وأن هروبه قد يتسبب في هزيمة الجميع. بل قد يضحي الجندي بنفسه تنفيذًا لأمر القائد.

نحن في معركة مع النفس والشيطان والهوى. نبينا هو قائدنا الأعلى. أمره بالجهاد، بالصبر، بالتقوى، قد يكون شاقًا على النفس، لكن فيه نجاة الأمة كلها. فكن كالجندي المخلص، ولا تعص قائدك.

المثال الثالث: الأم وطفلها الصغير

الأم تمنع طفلها من لمس النار أو اللعب بالسكين، مع أن الطفل يرغب بشدة في ذلك. الأم أولى بـ الطفل من نفسه، لأنها أعلم وأرحم. الطفل لا يدرك الخطر، لكن الأم تدركه.

نحن - مع كمال عقولنا - قد لا ندرك الحكمة من بعض أوامر النبي ونواهيه. لكن إيماننا بأنه أولى بنا من أنفسنا يجعلنا نمتثل حتى لو لم نفهم الحكمة. كما يطيع الطفل أمه وهو لا يفهم، نطيع نبينا ونحن على يقين أن الخير فيما أمر به.
المحور الثاني:
أمومة أزواج النبي.. ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾

تشريف وتكريم وتربية

والآن ننتقل إلى المقطع الثاني من الآية: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾. إنه إعلان رباني فريد من نوعه في تاريخ البشرية! أزواج النبي هن أمهات المؤمنين.

تأمل معي عظمة هذا التشريف:

· زوجات النبي لسن كأي نساء في العالم.
· لهن حرمة خاصة، ومكانة عظيمة، وحقوق على الأمة.
· هذه الأمومة معنوية لا بيولوجية .فهن أمهات للمؤمنين في الاحترام والتوقير وحرمة النكاح، ولسن أمهات في النسب والمحرمية مع باقي الرجال.

لماذا هذا التشريع العظيم؟

.1تكريم النبي صلى الله عليه وسلم:
من كرامة النبي أن تكون زوجاته بهذه المنزلة. فهن أمهات لأمته، وهذا شرف لا يدانيه شرف.

.2حماية أزواجه من بعده:
بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، كان يمكن أن يطمع بعض الناس في الزواج من أرامل النبي بحجة أنهن لسن محارم. فجاءت هذه الآية لتقطع الطريق: هن أمهات المؤمنين، ولا يحل لأحد أن يتزوجهن أبدًا.

.3تأكيد حرمتهن ووجوب احترامهن:
الأم لها حق البر والاحترام والتوقير. فكذلك أمهات المؤمنين لهن على الأمة حق البر والاحترام، ونقل علمهن، والدفاع عن عرضهن.

.4إتمام معنى الأسرة المسلمة الكبرى:
الأمة الإسلامية أسرة واحدة. أبوها هو إبراهيم عليه السلام، ونبيها هو كالأب الروحي، وأزواجه هن ا لأمهات. إنها أسرة عظيمة تجمعها رابطة الإيمان.

دلالات وعمق وراء لفظ "أمهاتهم"

.1الجمع "أمهات":
لم يقل: "أمهم" بل قال: ﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾. وهذا فيه مبالغة في تشريف كل واحدة منهن بأنها أم بذاتها، ولسن مجرد أم واحدة مجازية.

.2الإضافة إلى ضمير المؤمنين:
قال: ﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾ بإضافتهن إلى المؤمنين. فهذه الأمومة خاصة بالمؤمنين دون غيرهم. الكافر ليس من أهل هذا الشرف.

.3تنكير "أمهات":
لم يقل: "هن الأمهات" بالتعريف، بل نكرها فقال: ﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾. وهذا التنكير يفيد التعظيم والتفخيم. فهن أمهات عظيمات جليلات.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1العطف بالواو:
عطف ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ على ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذا يربط بين مقام النبي ومقام أزواجه. فكما أن للنبي أولوية خاصة، فلأزواجه حرمة خاصة.

.2الجملة الاسمية:
﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ جملة اسمية تدل على الثبات والدوام .فهذه الأمومة ثابتة دائمة، لا تتغير ولا تزول.

.3تعريف "أزواجه" وإضافته للضمير:
قال: ﴿وَأَزْوَاجُهُ﴾ فعرّفهن بالإضافة إلى ضمير النبي. وهذا تشريف عظيم لهن، فشرفهن مستمد من شرف زوجية النبي.

العلاقة مع الآيات السابقة: إبطال التبني وإثبات الأمومة المعنوية

تأمل معي هذا الربط البديع:

· في الآية الرابعة: أبطل الله التبني، ونفى أن يكون الدعي ابنًا حقيقيًا.
· في الآية الخامسة: أمر الله بدعوة الأدعياء لآبائهم الحقيقيين.
· في هذه الآية: يثبت الله أمومة معنوية لأزواج النبي، وأخوة دينية للمؤمنين.

إنه توازن عجيب: لا بنوة بالتبني، ولكن هناك أمومة بالإيمان! لا تنتسب إلى غير أبيك البيولوجي، ولكن يمكنك أن تنتسب إلى الأسرة الإيمانية الكبرى التي تجمعك بالنبي وأزواجه والمؤمنين.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الإسلام دين الأسرة الواحدة. أنت لست فردًا منعزلا ً، بل أنت جزء من أمة عظيمة. لك أمهات معنويات (أزواج النبي)، وإخوة في الدين لا يحصون.

الرسالة القلبية:
أحبب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. احترمهن، وترضّ عنهن، وادعُ لهن. فهن أمهاتك في الإيمان. أي إساءة إليهن هي إساءة إلى الأمة كلها، وإلى النبي صلى الله عليه وسلم.

الرسالة النفسية:
أنت لست يتيمًا في هذا العالم. لك أمهات - وإن لم تلدهن - يحببنك ويرغبن في هدايتك. هذا الشعور بالانتماء يمنحك قوة نفسية وثقة بأنك لست وحدك.

الرسالة التربوية:

علم أبناءك حب آل بيت النبي، وخصوصًا أمهات المؤمنين. قص عليهم سيرهن العطرة: خديجة، وعائشة، وفاطمة (وإن لم تكن زوجة لكنها من آل البيت)، وحفصة، وغيرهن. ازرع فيهم توقيرهن و الدفاع عن عرضهن.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الأسرة الكبيرة الممتدة

تصوّر أسرة كبيرة، لها أب عظيم (هو النبي رمزًا)، وله زوجات كريمات (أمهات المؤمنين). كل أبناء هذه الأسرة (المؤمنون) يعتبرون زوجات الأب أمهات لهم، يحترمونهن، ويبرونهن، ولا يمكن لأحد أن يتزوج إحداهن بعد الأب.

فإذا تطاول أحد على إحدى هؤلاء الأمهات، هبّ جميع الأبناء للدفاع عنها، لأنها أمهم جميعًا.

هكذا حال الأمة الإسلامية مع أمهات المؤمنين رضي الله عنهن. أي تطاول عليهن هو تطاول على الأ مة جمعاء، وعلى نبيها صلى الله عليه وسلم.
المحور الثالث:
أولوية ذوي الأرحام في الميراث والولاية.. ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾

ترتيب الأولويات بعد الأولوية الكبرى

بعد أن قرر الله الأولوية المطلقة للنبي، وأمومة أزواجه، ينتقل إلى ترتيب الأولويات بين المؤمنين أنفسهم: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾.

المعنى المباشر:
ذوو القرابة (الأرحام) أولى ببعضهم البعض في الميراث وفي الولاية والنصرة من مجرد المؤمنين (أخوة الدين) والمهاجرين (أخوة الهجرة). هذه الآية نسخت ما كان في أول الإسلام من التوارث ب الحلف والهجرة، وأعادت الميراث إلى عصبية النسب التي أقرها الإسلام.

السياق التاريخي: المؤاخاة والتوارث بالهجرة

في بداية الهجرة، آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، وكانوا يتوارثون بهذه المؤاخاة. فكان المهاجري يرث الأنصاري والعكس، مع وجود الأقارب أحيانًا.

ثم بعد أن استقر الإسلام وقوي المجتمع المسلم، نزلت هذه الآية لترد الميراث إلى الأقارب الحقيقيين، ونسخت التوارث بالحلف والهجرة.

لماذا هذا التغيير؟

.1الحفاظ على الأسرة الطبيعية:
الإسلام يريد أن يحافظ على الأسرة الممتدة كوحدة أساسية في المجتمع. فالميراث هو أحد أهم روابط الأسرة. فإذا ورث الغريب، ضعفت أواصر القربى.

.2تحقيق العدل:
الأقارب أولى بمال قريبهم من الأباعد. هذا هو العدل الذي تقره الفطر السليمة.

.3استقرار المجتمع بعد زوال الخطر:
في بداية الهجرة، كان المسلمون في حالة حرب واضطهاد، فكان التكافل بين المهاجرين والأنصار ضرورة قصوى. فلما استقر الأمر، عادت الحقوق إلى نصابها الطبيعي.

دلالات وعمق وراء التعبير القرآني

."1أولو الأرحام":
"أولو" بمعنى أصحاب .و"الأرحام" جمع رحم، وهي القرابة .فذوو الأرحام هم الأقارب، سواء كانوا وارثين) أصحاب الفروض والعصبات (أو غير وارثين) ذوي الأرحام في مصطلح الفقه.(

.2"بعضهم أولى ببعض":
هذه العبارة تفيد المشاركة والتبادل. فالقريب أولى بقريبه، وذلك القريب أولى به. العلاقة متبادلة.

.3"في كتاب الله":
أي: في حكم الله وشرعه وقضائه الذي كتبه وأثبته في اللوح المحفوظ، أو في القرآن الكريم. وهذا يفيد أن هذه الأولوية ثابتة محكمة، لا تتغير.

.4"من المؤمنين والمهاجرين":
"من" هنا للتفضيل .فذوو الأرحام أولى من المؤمنين) عموماً (والمهاجرين) خصوصاً (الذين ليسوا بأرحام.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1تكرار اسم التفضيل "أولى":
تكرر اسم التفضيل "أولى" في الآية مرتين:

· الأولى: النبي أولى بالمؤمنين) أولوية مطلقة.(
· الثانية: أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض) أولوية نسبية في إطار البشر.(

هذا التكرار يبني هرم الأولويات:

· القمة: النبي صلى الله عليه وسلم.
· ثم: الأقارب.
· ثم: المؤمنون والمهاجرون) بحسب الأحوال.(

.2تقديم "بعضهم" على "أولى":
قال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ بتقديم "بعضهم". وهذا يفيد العموم والشمول. فكل قريب أولى بقريبه، بغض النظر عن درجة القرابة (مع مراعاة تفصيلات الميراث).

.3ذكر "المهاجرين" بعد "المؤمنين":
خص المهاجرين بالذكر بعد تعميم المؤمنين، لأنهم كانوا هم الذين يتوارثون مع الأنصار بالهجرة. فنص على إبطال توارثهم بالهجرة، ليكون أوضح وأقطع.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الإسلام يوازن بين الانتماءات المتعددة. أنت تنتمي لأسرتك البيولوجية (ذوو الأرحام)، ولأمتك الإسلا مية (المؤمنون)، وقد تنتمي لفئة خاصة (المهاجرون، المجاهدون، العلماء). ولكن لكل انتماء أولويته في مجاله. في الميراث: الأقارب أولى. في النصرة العامة: المؤمنون جميعًا.

الرسالة القلبية:
صل رحمك. بر أقاربك. تذكر أنهم أولى بك في الميراث والتكافل. لا تقطعهم لأجل أصدقاء أو معارف. الدم له حرمته في الإسلام.

الرسالة النفسية:
أنت جزء من نسيج عائلي قوي. هذه العلاقات الأسرية تمنحك دعمًا نفسيًا وسندًا اجتماعيًا. فلا تهمل أسرتك بحجة الانشغال بالعمل أو الأصدقاء.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك قيمة الأسرة الممتدة. عرفهم بأعمامهم وأخوالهم وأبناء عمومتهم. ازرع فيهم صلة الرحم وبر الأقارب. فهذا من الدين.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة المهاجر الذي نسي أهله

تخيل شابًا هاجر إلى بلد أجنبي، وهناك تعرف على أصدقاء جدد، وأصبحوا كالإخوة له. أغدق عليهم من ماله ووقته، ونسي أهله وأقاربه في بلده الأصلي. ثم مرض هذا الشاب واحتاج إلى من يقف بجانبه، فوجد أصدقاءه مشغولين عنه، بينما أهله وأقاربه هم الذين ساندوه حقًا.

هذا مثال على أن الأقارب أولى بالبر في كثير من الأحوال. نعم، الصديق قد يكون أخًا في الله، وقد يكون له حق، لكن حق القريب مقدم في الميراث والنفقة والتكافل الخاص.
المحور الرابع:
استثناء المعروف للأولياء.. ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾

رحمة الإسلام في عدم إغلاق الأبواب

بعد أن قرر الله أن ذوي الأرحام أولى بالميراث من المؤمنين والمهاجرين، جاء الاستثناء الرحيم: ﴿إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا﴾.

المعنى المباشر:
لكن - مع أن الميراث أصبح للأقارب فقط - يجوز لكم، بل يُستحب لكم، أن تفعلوا معروفًا إلى أوليائكم (أصدقائكم، حلفائكم، من آخيتموهم) من غير الميراث. كأن توصوا لهم بوصية من الثلث، أو تهبوهم هبة في حياتكم، أو تحسنوا إليهم بغير ذلك.

المعروف: كل ما عرف في الشرع والعرف أنه حسن جميل من الإحسان والبر.

لماذا هذا الاستثناء؟

.1حفظ الود والعلاقات الإنسانية:
قد تكون بينك وبين شخص غير قريب لك علاقة ود ومحبة قوية (كالصديق الصدوق، أو الحليف، أو الأنصاري الذي آخيته). فليس من العدل ولا من الرحمة أن تقطع كل صلة به بعد أن نزل الحكم بحرمانه من الميراث. فأبقى الإسلام باب الوصية والهبة مفتوحًا.

.2مراعاة النفوس والمشاعر:
تغيير الأحكام فجأة قد يكون صعبًا على النفوس. فجاء هذا الاستثناء ليطمئن القلوب، ويؤكد أن العلا قات الإنسانية لا تزال محترمة، وأن البر والمعروف مستمر.

.3تشريع الوصية كبديل عن الميراث:
الوصية مشروعة في حدود الثلث لغير الوارث. فهي تمكنك من إعطاء صديقك أو مولاك شيئًا من م الك بعد موتك، دون أن تضر بالورثة.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1أداة الاستثناء "إلا":
"إلا" هنا استثناء منقطع) بمعنى لكن .(أي: لكن فعل المعروف إلى الأولياء جائز ومستحب.

.2"أن تفعلوا":
استخدم "أن" المصدرية مع الفعل المضارع، ليفيد الاستمرار والتجدد. فباب فعل المعروف مفتوح دائمًا، في كل وقت.

.3"إلى أوليائكم":
أضاف الأولياء إلى ضمير المخاطبين: ﴿أَوْلِيَائِكُمْ﴾. وهذا فيه تحبيب لهم وتذكير بالعلاقة السابقة. هم أولياؤكم، فلا تنسوهم.

.4تنكير "معروفًا":
نكر "معروفًا" ليفيد العموم والإطلاق. فكل ما تعارف الناس على أنه حسن فهو داخل في المعروف. الباب واسع.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الإسلام دين المرونة. مع أنه يضع القواعد الثابتة (الميراث للأقارب)، إلا أنه يفتح منافذ الرحمة (الوصية، الهبة) لمراعاة الظروف والعلاقات الخاصة.

الرسالة القلبية:
لا تنسَ أصدقاءك وأحبابك. حتى لو لم يرثوك، يمكنك أن توصي لهم بشيء من مالك، أو تهديهم في حياتك. المعروف لا يضيع عند الله.

الرسالة النفسية:
لا تشعر بالذنب إذا ورثك أقاربك ولم يرثك أصدقاؤك. هذا حكم الله العادل. لكن يمكنك تعويض أصدقائك بطرق أخرى مشروعة. هذا يريح ضميرك ويطمئن قلبك.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك أن المعروف يشمل كل أبواب الخير. ليس فقط المال، بل الكلمة الطيبة، والمساعدة، و الشفاعة الحسنة. افتح لهم آفاق فعل الخير للجميع: أقارب وأصدقاء وجيران.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الصديقين اللذين لم يرث أحدهما الآخر

تصوّر صديقين حميمين، أحدهما غني والآخر فقير. يقول الغني للفقير: "أنت أخي، وسأجعل لك نصيبًا من مالي بعد موتي". لكن لما مات الغني، وُزع ماله على ورثته الشرعيين (أبنائه وزوجته)، ولم يأخذ الصديق شيئًا. الصديق الفقير لم يغضب، لأنه يعلم أن هذا حكم الله. لكن أبناء الغني تذكروا وصية أبيهم، فأعطوا الصديق الفقير هدية قيمة، أو اشتروا له بيتًا، وفاءً لصداقة أبيهم.

هذا هو المعروف الذي استثنته الآية.
المحور الخامس:
تأكيد الكتابة والتقدير.. ﴿كانَ ذٰلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا﴾

ختام الآية: تثبيت الأحكام في اللوح المحفوظ

تأمل معي هذا الختام العظيم: ﴿كانَ ذٰلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا﴾.

المعنى:
كل ما سبق من أحكام (أولوية النبي، أمومة أزواجه، أولوية الأرحام، استثناء المعروف) كان مكتوبًا مثبتًا في الكتاب (اللوح المحفوظ، أو القرآن، أو علم الله الأزلي) مسطورًا (مسطرًا مبينًا واضحًا).

لماذا هذا الختام؟

1.تأكيد أن هذه الأحكام ليست وليدة اللحظة: بل هي من علم الله الأزلي وتقديره السابق .فهي حكمة بالغة، وليست مجرد رد فعل على أحداث.
2.تثبيت المؤمنين: إذا علمت أن هذه الأحكام مسطورة في كتاب الله الأزلي، اطمأن قلبك وثبتت نفسك .هي ليست آراء بشرية قابلة للتغيير.
3.قطع الطريق على المعترضين: من يعترض على هذه الأحكام كأنما يعترض على ما كتبه الله في ا لأزل .وهذا من أعظم الجرأة على الله.
4.ربط الأحكام بالمصدر الإلهي: هذه الأحكام ليست من عند محمد صلى الله عليه وسلم، بل هي من عند الله، وهي مسطورة في كتابه.

اللمسات البيانية والبلاغية

1.الفعل "كان":
استخدم "كان" الدالة على الدوام والاستمرار. فما زال ذلك في الكتاب مسطورًا منذ الأزل وإلى الأبد.

2.اسم الإشارة "ذلك":

أشار إلى الأحكام المذكورة بـ "ذلك"، وفيه تعظيم لهذه الأحكام وتفخيم لشأنها.

.3"في الكتاب":
المراد به اللوح المحفوظ، أو القرآن، أو علم الله. وكلها تفيد معنى التقدير الأزلي والثبات المطلق.

.4"مسطورًا":
"مسطور" من السطر، وهو الصف من الكتابة .والمعنى: مكتوب كتابة واضحة بينة، لا لبس فيها ولا غموض .وفي هذا تصوير بليغ لقوة الإثبات ووضوحه.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
أحكام الله ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان. ما كان حقًا في الأزل سيبقى حقًا إلى الأبد. لا تجعل عقلك يتأرجح مع الموضات والأهواء.

الرسالة القلبية:
اطمئن إلى ثبات الدين. أنت على حق واضح مبين، مسطور في كتاب الله. هذا اليقين يملأ قلبك سكينة وطمأنينة في زمن الاضطراب.

الرسالة النفسية:
لا تقلق من تغير الأحكام البشرية وتقلبها. أنت تستند إلى كتاب مسطور من عند الله. هذا يمنحك قوة نفسية وثباتًا في وجه العواصف.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبناءك احترام الكتاب (القرآن) والثقة بأحكامه. علمهم أن ما فيه هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الدستور واللوائح المؤقتة

في أي دولة، هناك دستور ثابت يعلو على كل القوانين، وهناك لوائح تنفيذية قد تتغير. الأحكام الشرعية الكبرى هي بمثابة الدستور الإلهي المسطور في اللوح المحفوظ، لا يتغير ولا يتبدل. أما الا جتهادات الفقهية في بعض المسائل فهي بمثابة اللوائح التي قد تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولكنها دائمًا تدور في فلك الدستور الثابت.

الآية تذكرنا بأن أصول الدين وأمهات الأحكام هي من الكتاب المسطور، فلا مجال للعبث بها أو تغييرها.
المحور السادس:
النظرة الشاملة للآية - بناء هرم الولاء والانتماء

دعنا الآن - أيها القارئ الكريم - نأخذ نظرة شاملة على الآية السادسة من سورة الأحزاب. إنها ترسم لنا هرم الولاء في المجتمع المسلم:

القمة: النبي صلى الله عليه وسلم

· له الأولوية المطلقة على كل مؤمن.
· طاعته مقدم على هوى النفس.
· حبه فوق كل حب.

الطبقة الثانية: أزواج النبي

· لهن حرمة الأمومة على المؤمنين.
· لا يحل نكاحهن بعد النبي.
· لهن حق التوقير والاحترام.

الطبقة الثالثة: ذوو الأرحام (الأقارب)

· لهم الأولوية في الميراث على مجرد المؤمنين.
· لهم حق الصلة والبر والتكافل الخاص.

الطبقة الرابعة: المؤمنون والمهاجرون

· تجمعهم أخوة الدين العامة.
· لهم حق النصرة والتكافل العام.
· يمكن فعل المعروف معهم بالوصية والهبة.

إن هذا الهرم العظيم يبني مجتمعًا متماسكًا:

· قلبه النابض: النبي صلى الله عليه وسلم، الذي يوجه ويرشد.
· حرماته المصونة: أزواج النبي، أمهات المؤمنين.
· خلاياه الأساسية: الأسر الممتدة المترابطة.
· نسيجه العام: الأمة الإسلامية الكبرى.
المحور السابع:
كيف نطبق الآية في حياتنا العملية اليوم؟

.1في علاقتنا بالنبي صلى الله عليه وسلم

قدم حبه وطاعته على كل شيء:

· إذا تعارضت رغبتك مع سنة النبي، فقدم السنة.
· أحبه أكثر من نفسك وأهلك ومالك.
· اقرأ سيرته، وتخلق بأخلاقه.

.2في علاقتنا بأمهات المؤمنين

احترمهن وترضّ عنهن:

· لا تسمح لأحد أن ينتقص من أمهات المؤمنين.
· ترضّ عنهن في دعائك: "رضي الله عن أمهات المؤمنين".
· تعلم من سيرهن العطرة، واقتدِ بهن.

.3في علاقتنا بذوي أرحامنا

صل رحمك وبر أقاربك:

· خصص وقتًا لزيارة أقاربك.
· تفقد أحوالهم، وساعد محتاجهم.
· لا تقطع رحمك بسبب خلافات دنيوية.
· تذكر أنهم أولى بك في الميراث والتكافل الخاص.

.4في علاقتنا بالمؤمنين عمومًا

كن أخًا للمؤمنين:

· أحب لهم ما تحب لنفسك.
· انصرهم وادعمهم في الشدائد.
· أوصِ لأصدقائك الأوفياء بوصية من مالك إن أردت.

.5في تربية أبنائنا

ازرع فيهم حب النبي وآل بيته:

· قص عليهم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بأسلوب شيق.
· علمهم أسماء أمهات المؤمنين وفضل كل واحدة منهن.
· شجعهم على صلة أرحامهم وزيارة أقاربهم.

.6في بناء المجتمع

ابن مجتمعًا متماسكًا على هدي هذه الآية:

· القيادة الراشدة المطاعة.
· احترام الرموز والمقدسات) أمهات المؤمنين نموذجًا.(
· تقوية الأسر الممتدة وصلة الأرحام.
· تعزيز أخوة الإيمان بين عموم المسلمين.
خاتمة: العودة إلى الكتاب المسطور

أيها القارئ الكريم.. لقد طفنا معًا في رحاب آية عظيمة من كتاب الله. آية ترسم خارطة العلاقات في المجتمع المسلم، وتؤسس لهرم الولاء الذي يضمن تماسك الأمة وقوتها.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· النبي أولى بنا من أنفسنا، فطاعته وحبه هما أساس الإيمان.
· أزواجه أمهاتنا، فلهن حق التوقير والاحترام.
· ذوو الأرحام أولى ببعضهم في الميراث والتكافل.
· المعروف ماض إلى الأولياء والأصدقاء.
· كل ذلك كان في الكتاب مسطورًا، ثابتًا لا يتغير.

فلنجعل هذه الآية نبراسًا في بناء علاقاتنا وأسرنا ومجتمعاتنا. ولنتذكر دائمًا أن:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾

فإذا أمرنا النبي بأمر، سمعنا وأطعنا. وإذا نهانا عن شيء، انتهينا. فهو أرحم بنا من أنفسنا، وهو يدلنا على ما فيه خيرنا في الدنيا والآخرة.
المبحث الرابع .
رحلة تدبرية في رحاب الآيتين السابعة والثامنة من سورة الأحزاب

تمهيد: من بناء المجتمع إلى بناء الرسالة.. الميثاق الغليظ

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا المسار القرآني العجيب..

لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشاهد عظيمة من بناء الأمة المسلمة من الداخل. بدأنا بتثبيت القيادة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾، ثم توجيه القائد إلى مصدر التلقي: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾، ثم تصحيح المفاهيم الاجتماعية: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾، ثم بناء هرم الأولويات والولاء: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

والآن.. بعد أن تم بناء البيت المسلم من الداخل، وتثبيت أركانه، وتحصين جدرانه، ينتقل السياق القرآني إلى السياق الكوني الأوسع. إنه يفتح نافذة على تاريخ النبوات، ويربط رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بـ رسالات الأنبياء جميعًا. إنه يضع النبي الخاتم في موقعه الصحيح من خارطة الرسالات السماوية.

لماذا هذا الانتقال؟ وما علاقته باسم السورة "الأحزاب"؟

المنافقون واليهود في المدينة كانوا يشككون في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. كانوا يقولون: "ما هذا إلا رجل يريد أن يتسلط علينا". وكان أهل الكتاب منهم - خاصة - يزعمون أنهم على ميثاق مع الله، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النبوة في بني إسرائيل لا في العرب.

فجاءت هاتان الآيتان الكريمتان لتضع النقاط على الحروف، ولتعلن بكل وضوح:

· محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعًا من الرسل، بل هو خاتمهم، وهو داخل في الميثاق العظيم الذي أخذه الله على جميع النبيين.
· هذا الميثاق ليس خاصًا ببني إسرائيل وحدهم، بل شمل نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام جميعًا.
· الميثاق هو: أن تؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وتنصروه.

إنه إعلان مدوٍ في وجه الأحزاب المتآمرة: إن الرسالة التي تحاربونها اليوم هي امتداد للرسالة التي آمن بها أنبياؤكم! فكيف تكفرون بها؟ وكيف تحاربون صاحبها؟

دعنا نبحر في أعماق هاتين الآيتين العظيمتين، ونستخرج كنوزهما ودررهما.
المحور الأول:
الميثاق المأخوذ على جميع النبيين

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾

قف معي عند هذا الافتتاح المهيب.. كلمة "وإذ" تأخذنا في رحلة عبر الزمن إلى ما قبل خلق البشر، إلى عالم الغيب حيث أخذ الله المواثيق على أنبيائه.

المعنى الإجمالي:
اذكر - أيها النبي - حين أخذنا من جميع النبيين عهدهم وميثاقهم الغليظ. وأخذنا منك - يا محمد - خاصة، ومن أولي العزم من الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم. هؤلاء هم أئمة النبيين وقادتهم.

ما هو هذا الميثاق؟
يجيب عنه بقية الآية: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ وهو: أن يبلغوا رسالات الله، وأن يصدق بعضهم بعضًا، وأن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وينصروه إن أدركوه. وهذا ما ورد صراحة في آية أخرى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 81].

لماذا هذا التذكير بالميثاق هنا؟

1.تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم:
في خضم المؤامرات والأحزاب، كان النبي صلى الله عليه وسلم بحاجة إلى تثبيت معنوي. فجاءه التذكير بأنه ليس وحده في هذه المعركة، بل هو وارث الأنبياء، وصاحب الميثاق الغليظ الذي أخذه الله على جميع النبيين. إنه قائد الموكب النبوي العظيم، فليهن عليه ما يلقى من أذى.

2.إقامة الحجة على أهل الكتاب:
اليهود والنصارى يزعمون اتباع موسى وعيسى. فإذا كان موسى وعيسى قد أخذا الميثاق على أنفسهما وأممهما بالإيمان بمحمد ونصرته، فكيف يكفر به أهل الكتاب؟ وكيف يحاربونه؟ إنه إفحام لهم وإقامة للحجة عليهم.

3.إعلان وحدة الرسالات:
الآية تعلن أن دين الأنبياء واحد، وأن رسالاتهم متصلة، وأن خاتمها هو محمد صلى الله عليه وسلم. هذا الرد على من يزعم أن الإسلام دين جديد منقطع عما سبقه. كلا! بل هو امتداد وتصديق وتتميم.

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا المقطع

1."إذ" الظرفية:
"وإذ" ظرف زمان للماضي .والمعنى: اذكر يا محمد ذلك الوقت العظيم .وفيه تهويل للأمر وتعظيم لشأنه .إنه حدث كوني عظيم يستحق أن يُذكر ويُتدبر.

2.جمع النبيين ثم تخصيص الخمسة:

بدأ بجمع النبيين: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾، ثم خص منهم خمسة: محمد، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى. لماذا هؤلاء الخمسة بالذات؟

· محمد صلى الله عليه وسلم: لأنه المخاطب الأول، وهو خاتم النبيين.
· نوح عليه السلام: لأنه أبو البشر الثاني بعد الطوفان، وأول رسول أرسل إلى أهل الأرض.
· إبراهيم عليه السلام: لأنه أبو الأنبياء، وإمام الحنفاء، وجد العرب وبني إسرائيل.
· موسى عليه السلام: لأنه صاحب الشريعة العظيمة التي ظلت قرونًا، وكليم الله.
· عيسى عليه السلام: لأنه كلمة الله وروحه، وخاتم أنبياء بني إسرائيل، والمبشر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

إنهم أولو العزم من الرسل كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35].

3.تخصيص عيسى بـ "ابن مريم":
قال: ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾، ولم يكتفِ بـ "عيسى" كما فعل مع نوح وإبراهيم وموسى. لماذا؟

· للتأكيد على بشريته: فهو ليس ابن الله كما يزعم النصارى، بل هو ابن مريم البشرية.
· للإشارة إلى معجزة ولادته: فهو مولود من أم بلا أب، وهذا من آيات الله.
· لبيان نسبته الحقيقية: انتسابه لأمه، لا لأب، لأن لا أب له.

4.الإضافة في "ميثاقهم":
قال: ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾. فأضاف الميثاق إليهم. وهذا يفيد أن الميثاق خاص بهم، ومناسب لمقامهم ورسالاتهم. لكل نبي ميثاق يخصه، ولكنهم جميعًا يشتركون في أصل الميثاق: تبليغ الرسالة والإيمان بمحمد.

5.وصف الميثاق بـ "غليظًا":
في نهاية الآية قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾. "غليظ" صفة مشبهة تدل على القوة والشدة والثبات. الميثاق غليظ أي: شديد مؤكد، لا يمكن نقضه أو التهاون فيه.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الرسالة المحمدية ليست طارئة على تاريخ البشرية. إنها حلقة في سلسلة ذهبية من النبوات. والأنبياء جميعًا إخوة، ودينهم واحد. هذا يفتح عقلك على وحدة الحق عبر التاريخ.

الرسالة القلبية:
عندما تشعر بالغربة في تمسكك بدينك، تذكر أنك على ميثاق مع الله. تذكر أنك تسير على درب الأ نبياء العظام: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم. هذا يملأ قلبك عزة وشرفًا.

الرسالة النفسية:
لست وحدك في هذه المعركة. الأنبياء كلهم معك، لأنهم أخذوا الميثاق بنصرتك. هذا الشعور بالانتماء إلى الموكب النبوي العظيم يمنحك قوة نفسية هائلة، ويجعلك تتحمل المشاق بصبر وثبات.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك حب الأنبياء جميعًا. لا تفرق بينهم. قص عليهم قصصهم، وعلمهم أن الإسلام هو دينهم جميعًا. هذا يبني فيهم نظرة شمولية للتاريخ والرسالات.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة سلسلة القادة في مؤسسة عريقة

تخيل أنك تعمل في مؤسسة عريقة عمرها مئات السنين. أنت الآن في موقع المسؤولية، وتواجه تحديات جسيمة. يأتي إليك ميثاق المؤسسة الذي وقعه جميع المديرين السابقين عبر التاريخ. في هذا الميثاق، تعهد كل مدير سابق بدعم المدير الحالي الذي يأتي بعدهم، وبأنهم على عهد واحد في خدمة المؤسسة.

كيف ستشعر؟ ستشعر بأنك لست وحدك. ستشعر بأن قادة عظماء سبقوك، وهم معك بروحهم

وعهدهم. ستمتلئ عزة وثقة، وستواجه التحديات بصلابة.

هذا هو حال النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا الميثاق. إنه المدير الخاتم للمؤسسة النبوية العريقة. جميع الأنبياء السابقين أخذوا العهد بدعمه ونصرته. فهو ليس بدعًا من الرسل، بل هو خاتمهم وإمامهم.
المحور الثاني:
الحكمة من هذا الميثاق الغليظ

﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾

والآن نصل إلى الآية الثامنة، وهي تكمل الحكمة من أخذ هذا الميثاق:

﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

المعنى المباشر:
أخذ الله هذا الميثاق الغليظ على النبيين ليسأل يوم القيامة الصادقين (وهم الأنبياء وأتباعهم) عن صدقهم في تبليغ الرسالة والوفاء بالميثاق. وهذا السؤال ليس سؤال استفهام، بل هو سؤال تقرير وتوبيخ للكافرين، وتشريف للصادقين بإظهار صدقهم على رؤوس الأشهاد.

وفي مقابل هؤلاء الصادقين، أعد الله للكافرين الذين نقضوا الميثاق وكذبوا الرسل عذابًا أليمًا.

من هم الصادقون؟

الصادقون هنا هم:

· الأنبياء: الذين بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وصدقوا بعضهم بعضًا.
· أتباع الأنبياء: الذين آمنوا بهم واتبعوهم وصدقوهم.

فالسؤال للأنبياء: هل بلغتم؟ فيشهدون أنهم بلغوا. والسؤال للأمم: هل استجبتم؟ فيكون السؤال تبكيتًا للكافرين، وتشريفًا للمؤمنين بإظهار إيمانهم وصدقهم.

لماذا هذا السؤال؟

.1إظهار عدل الله:
الله تعالى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة. فسؤال الصادقين عن صدقهم هو إقامة للحجة على الكافرين. كأنه يقول: "هؤلاء الأنبياء بلغوكم، وهؤلاء المؤمنون اتبعوهم، فما عذركم أنتم؟"

.2تشريف الصادقين:
أن يُسأل النبي عن صدقه في تبليغ الرسالة، ويُسأل المؤمن عن صدقه في اتباعها، فهذا تشريف عظيم. إنه اعتراف بفضلهم، وإظهار لمكانتهم على رؤوس الخلائق.

.3وعيد للكافرين:
ذكر العذاب الأليم بعد ذكر السؤال هو تهديد ووعيد للكافرين الذين نقضوا الميثاق وكذبوا الرسل. إنه يزرع الرعب في قلوبهم، ويجعلهم يفكرون في مصيرهم.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1لام التعليل "ليسأل":
اللام في ﴿لِيَسْأَلَ﴾ هي لام التعليل. والمعنى: أخذنا الميثاق لأجل أن نسأل الصادقين عن صدقهم. وهذا يفيد أن السؤال غاية وحكمة من أخذ الميثاق.

.2الفعل المضارع "يسأل":
استخدم الفعل المضارع "يسأل" ليفيد التجدد والاستمرار في السؤال يوم القيامة. فالسؤال سيطول، وسيكون مشهدًا عظيمًا من مشاهد الحساب.

.3تعريف "الصادقين":

قال: ﴿الصَّادِقِينَ﴾ بالتعريف، للدلالة على فئة معينة عرفوا بالصدق، وهم الأنبياء وأتباعهم. وهذا التعريف تشريف لهم.

.4الإضافة في "صدقهم":
أضاف الصدق إليهم: ﴿صِدْقِهِمْ﴾. وهذا يفيد أن لكل واحد منهم صدقه الخاص المناسب لمقامه ورسالته وزمانه.

.5الفعل "أعد":
قال: ﴿وَأَعَدَّ﴾ بصيغة الماضي، ليفيد التحقق والثبوت. فالعذاب معد مهيأ منذ الآن، وهو موجود في علم الله وقدره.

.6وصف العذاب بـ "أليمًا":
"أليم" صفة مشبهة تدل على شدة الألم والإيلام .وهو وعيد شديد يهز القلوب.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
أنت مسؤول. كل إنسان سيُسأل يوم القيامة: عن صدقه، عن وفائه، عن تبليغه. هذا السؤال ليس للأ نبياء فقط، بل لكل صاحب رسالة وأمانة. فاستعد للسؤال.

الرسالة القلبية:
أخلص في عملك. اجعل الصدق شعارك. تذكر أنك ستُسأل عن صدقك يوم القيامة. هذا يملأ قلبك خشية ومراقبة لله، ويدفعك إلى الإتقان والإخلاص.

الرسالة النفسية:
لا تخف من كلام الناس. لا تهتز لانتقاداتهم. المهم هو صدقك عند الله. سيأتي يوم تُسأل فيه عن صدقك، وسيشهد لك الأنبياء والصالحون. هذا يمنحك قوة نفسية وثباتًا في وجه العواصف.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك قيمة الصدق. علمهم أن الصادق يُسأل عن صدقه تشريفًا له، بينما الكاذب يُفضح كذبه. اجعل الصدق منهج حياة في أقوالهم وأفعالهم.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة حفل التكريم في نهاية العام

تخيل أنك في مؤسسة كبيرة، وفي نهاية العام يقام حفل تكريم للموظفين المتميزين. المدير العام يصعد على المنصة، ويدعو الموظفين الصادقين المخلصين بأسمائهم، ويسألهم أمام الجميع: "ماذا فعلتم هذا العام؟ كيف أديتم الأمانة؟" ليس سؤال استنكار، بل هو سؤال تشريف! إنه يريد أن يسمع الحضور إنجازاتهم، ليكونوا قدوة لغيرهم.

وفي نفس الحفل، يعلن المدير أن المقصرين والمخربين قد أعدت لهم الإدارة جزاءً أليمًا (فصل من العمل، خصم من الراتب).

هذا هو مشهد يوم القيامة مصغرًا. الصادقون يُسألون عن صدقهم تشريفًا لهم، والكافرون ينتظرهم عذاب أليم.
المحور الثالث:
الربط بين الآيتين وآيات السورة السابقة

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - كيف أن هاتين الآيتين ليستا جزرًا منعزلة في بحر السورة، بل هما مرتبطتان أشد الارتباط بما قبلهما وما بعدهما:

.1الربط مع الآية السادسة: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾

في الآية السادسة، أثبت الله الأولوية المطلقة للنبي على المؤمنين. وفي الآية السابعة، يثبت أولويته

على جميع النبيين! إنه ترقٍ عظيم:

· هناك: أولى بالمؤمنين.
· هنا: أخذ الميثاق على جميع النبيين للإيمان به ونصرته.

فالنبي صلى الله عليه وسلم ليس فقط قائد أمته، بل هو إمام الأنبياء جميعًا وخطيبهم يوم القيامة.

.2الربط مع اسم السورة "الأحزاب":

لماذا يُذكر ميثاق الأنبياء في سورة الأحزاب؟
لأن الأحزاب اجتمعوا على حرب النبي صلى الله عليه وسلم، والمنافقون في الداخل يشككون في نبوته. فجاءت هذه الآيات لتقول:

· لا تستغربوا اجتماع الأحزاب على حرب محمد، فالأنبياء قبله حوربوا وأوذوا.
· لا تشكوا في نبوته، فجميع الأنبياء أخذوا العهد بالإيمان به ونصرته.
· اصبروا كما صبر أولو العزم من الرسل.

.3التمهيد لما بعدها: ذكر الأنبياء كنماذج للصبر

بعد هذه الآيات، ستأتي آيات عن غزوة الأحزاب، وما فيها من ابتلاء وتمحيص. فكان لا بد من تمهيد نفسي للمؤمنين: تذكيرهم بأن الأنبياء العظام صبروا على أشد مما يصبرون عليه. فهذا يهون عليهم البلاء، ويدفعهم إلى الاقتداء.
المحور الرابع:
كيف نطبق الآيتين في حياتنا العملية اليوم؟

.1في علاقتنا بالأنبياء جميعًا

آمن بهم جميعًا ولا تفرق بينهم:

· اقرأ قصصهم، وتعلم من سيرهم.
· ترضّ عنهم في دعائك: "عليهم الصلاة والسلام".
· تذكر أنهم إخوة، وأن دينهم واحد.

.2في علاقتنا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم خاصة

آمن به وناصره:

· الإيمان به: تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر.
· نصرته: بنشر سنته، والدفاع عن عرضه، والذب عن شريعته.
· تذكر أن هذا ميثاق أخذه الله على كل نبي، فكيف بك أنت؟

.3في علاقتنا مع أنفسنا: كن صادقًا

استعد للسؤال عن صدقك:

· هل أنت صادق في إيمانك؟ هل ترجمت إيمانك إلى عمل؟
· هل أنت صادق في علاقاتك؟ هل تؤدي الأمانات إلى أهلها؟
· هل أنت صادق في دعوتك؟ هل تدعو إلى الله بلسان الحال قبل لسان المقال؟

.4في تربية أبنائنا

ازرع فيهم حب الأنبياء والصدق:

· قص عليهم قصص الأنبياء بأسلوب مشوق.
· اجعل الصدق قيمة أساسية في البيت.
· كافئهم على الصدق، ولو كان مرًا.

.5في مواجهة التحديات والضغوط

تذكر أنك على ميثاق مع الله:

· عندما تشعر بالضعف، تذكر أن الأنبياء قبلك صبروا على أشد مما تواجه.
· عندما تشك في الطريق، تذكر أنك على عهد مع الله، وأن الصادقين سيسألون عن صدقهم تشريفًا لهم.
خاتمة: العودة إلى الميثاق الغليظ

أيها القارئ الكريم.. لقد طفنا معًا في رحاب آيتين عظيمتين من كتاب الله. آيتين تأخذاننا إلى ما وراء الزمان والمكان، إلى عالم الغيب حيث أخذ الله الميثاق الغليظ على أنبيائه ورسله.

لقد علمتنا هاتان الآيتان أن:

· النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس بدعًا من الرسل، بل هو خاتمهم وإمامهم.
· الميثاق الذي أخذه الله على النبيين يشمل الإيمان بمحمد ونصرته.
· الصادقون سيسألون عن صدقهم تشريفًا لهم يوم القيامة.
· الكافرون أعد لهم عذاب أليم جزاء نقضهم الميثاق.

فلنجعل هاتين الآيتين نبراسًا في حياتنا. ولنتذكر دائمًا أننا أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأننا ورثة الأنبياء العظام. فلنكن على قدر هذه المسؤولية، ولنصدق في إيماننا وأعمالنا، ولننصر نبينا بكل ما أوتينا من قوة.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

المقطع الثانى
القسم الاول
رحلة تدبرية في رحاب الآيات9) - (11من سورة الأحزاب تصوير واقعه الأحزاب

تمهيد: من الميثاق إلى الميدان ..عندما ينزل البلاء ليكشف الصادقين

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا التحول العجيب في مسار السورة..

لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشاهد عظيمة من بناء العقيدة وترسيخ القيادة وتصحيح المفاهيم وأخذ المواثيق .كان ذلك كله بمثابة الإعداد النظري والبناء الداخلي للأمة .وكأن الله سبحانه وتعالى كان يربي هذه الأمة في معسكر تدريبي، يغرس فيها المبادئ، ويرسخ فيها القيم، ويصقل فيها الإيمان.

والآن ..حان وقت الامتحان العملي! حان وقت أن تخرج هذه الأمة من قاعة الدرس إلى ساحة المعركة .حان وقت أن يتبين الصادق من الكاذب، والثابت من المتزلزل.

تخيل معي المشهد: المدينة المنورة ..جيوش الأحزاب قد أحاطت بها من كل جانب .عشرة آلاف مقاتل اجتمعوا من قريش وغطفان وبني قريظة .إنه حلف الشيطان الذي أراد استئصال الإسلام من جذوره . والمسلمون لا يزيدون على ثلاثة آلاف .الكفة غير متكافئة أبدًا في ميزان البشر.

وفي هذا المشهد المهيب، تنزل هذه الآيات الكريمة لتصور لنا أدق التفاصيل النفسية لتلك اللحظات العصيبة .إنها ليست مجرد سرد تاريخي، بل هي تحليل نفسي عميق، ودرس تربوي بليغ، وتثبيت للمؤمنين في كل زمان ومكان.

دعنا نعيش معًا تلك اللحظات ..لحظات الرعب والخوف ..لحظات الابتلاء والزلزال ..ولكن أيضًا لحظات النصر الإلهي الذي يأتي من حيث لا نحتسب.

المحور الأول: نعمة النصر ..تذكير قبل التفصيل

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾

تبدأ الآية بنداء حبيب إلى حبيب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ .إنه نداء التشريف والتذكير بهذه الصفة العظيمة: الإيمان .وكأنه يقول لهم: "أنتم المؤمنون! تذكروا من أنتم، وتذكروا نعمة الله عليكم".

ثم يأتي الأمر: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ .والذكر هنا ليس مجرد استحضار ذهني عابر، بل هو ذكر بـ القلب واللسان والجوارح .ذكر يستلزم الشكر والاعتراف والعمل بمقتضى هذه النعمة.

لماذا يبدأ بتذكيرهم بالنعمة قبل أن يذكر لهم تفاصيل البلاء؟

هذا من التربية القرآنية العجيبة! قبل أن تصف لهم شدة الرعب الذي مروا به، تذكرهم بنعمة النجاة التي حلت بهم .إنه أسلوب الطمأنة قبل التفصيل، والتبشير قبل التذكير بالشدة .وكأنه يقول: "أنتم الآن في أمان .لقد انتهى الخطر .فاذكروا هذه النعمة التي أنقذتكم من الهلاك".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا المقطع

1.النداء بـ "يا أيها الذين آمنوا":
هذا النداء موجه للمؤمنين خاصة، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى الإيمان .وهو تذكير لهم بأنهم أهل لهذه النعمة، وأهل لشكرها.

2.الأمر بـ "اذكروا":
الأمر بالذكر للشكر، فكل ذكر لنعمة يستلزم شكرها .وشكر النعمة يكون بالقلب) اعترافًا(، وباللسان)ثناءً(، وبالجوارح) عملًا وطاعة.(

3.إضافة النعمة إلى الله:
قال: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، فأضاف النعمة إلى اسم الجلالة .وهذا تعظيم للنعمة، وتذكير بأن مصدرها هو الله وحده، لا الأسباب الظاهرة.
المحور الثاني:- وصف البلاء العظيم ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾

﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾

والآن يبدأ القرآن في سرد التفاصيل .ولكن تأمل كيف يسردها: باختصار شديد! إنه لا يطيل في وصف الجيوش وأعدادها وأسلحتها، بل يمر عليها مرورًا سريعًا: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، ثم ينتقل فورًا إلى فعل الله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾.

هذا الأسلوب يعلمنا درسًا عظيمًا: لا تتوقف طويلا ً عند حجم المشكلة، بل انظر إلى حجم المعين .لا تشغل بالك بتعداد قوى الباطل، بل استحضر قوة الله التي لا تغالب.

من هم الجنود؟

الجنود التي جاءتكم: هم الأحزاب الذين تحالفوا على حرب الإسلام .عشرة آلاف مقاتل، بقيادة أبي سفيان، ومن معه من قريش وغطفان وبني قريظة .لقد جاءوا من فوقكم) من جهة نجد (ومن أسفل منكم) من جهة مكة .(لقد أحاطوا بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم.

وجنود لم تروها: من هم؟

أما الجنود التي لم يروها فهي الملائكة .أرسل الله ريحًا صرصرًا عاتية) ريح الدبور (قلعت خيامهم، وأكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، ودفنت رحالهم .وأرسل معها ملائكة لم يرها المسلمون، تزيدهم رعبًا إلى رعبهم.

وهنا تتجلى السنة الإلهية: عندما يصدق المؤمنون في توكلهم على الله، ويأخذون بالأسباب المتاحة)حفر الخندق(، يرسل الله جنودًا من عنده لا تخطر على بال بشر.

اللمسات البيانية والبلاغية

1.تنكير "جنود" في الموضعين:

· في الأولى: ﴿جُنُودٌ﴾ نكرة للتحقير والتقليل من شأنهم، مع كثرتهم .فهم في ميزان الله لا شيء.
· في الثانية: ﴿وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ نكرة للتعظيم والتفخيم .إنهم جنود الله الذين لا يعلم عددهم إلا هو.

2.الفاء في "فأرسلنا":
الفاء هنا للتعقيب السريع .بمجرد أن جاءتكم الجنود، فورًا أرسلنا عليهم الريح والجنود .لم يترككم الله وحدكم لحظة واحدة .إنه الاستجابة الفورية لصبر المؤمنين وتوكلهم.

3."ريحًا" نكرة:
قال: ﴿رِيحًا﴾ نكرة، ولم يقل "الريح" .وهذا يفيد التهويل والتعظيم .إنها ريح عظيمة لا توصف.
المحور الثالث وصف الحاله النفسيه للمؤمنين..... مشهد من اروع ما صور القران

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾

والآن نصل إلى ذروة الوصف النفسي في القرآن الكريم .تأمل معي هذه الصورة الحية التي تجعلك تعيش المشهد وكأنك هناك.

أولا ً: الإحاطة من كل جانب ..﴿مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾

· من فوقكم: من جهة الشرق، حيث نجد، جاءت غطفان.
· ومن أسفل منكم: من جهة الغرب، حيث مكة، جاءت قريش.
· ومن الداخل: بنو قريظة نقضوا العهد، وأصبحوا خطرًا على النساء والأطفال.

إنها محاصرة كاملة .لا منفذ للخروج، ولا ملجأ للهروب .هذا هو المشهد الذي أراده الله ليصفّي النفوس، وليمحص القلوب.

ثانيًا: زاغت الأبصار ..أولى علامات الرعب

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ﴾ ."زاغت" من الزيغ، وهو الميل والانحراف .والمعنى: شخصت الأبصار، وانحرفت عن كل شيء إلا مصدر الخطر .لم تعد العيون تنظر إلى شيء إلا إلى تلك الجموع الزاحفة من كل جانب .إنها حالة من الذهول والرعب تفقد العين قدرتها على التركيز الطبيعي.

تأمل دقة التعبير: لم يقل "خافت العيون" أو "دمعت العيون"، بل قال: "زاغت"، ليعبر عن الحيرة والا ضطراب اللذين أصابا النفوس.

ثالثًا: بلغت القلوب الحناجر ..أقصى درجات الخوف

﴿وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ﴾ .هذا التعبير من أبلغ ما وصف به الخوف الشديد في لغة العرب .القلب في موضعه الطبيعي داخل الصدر .فإذا اشتد الخوف، اضطرب القلب، وارتفع، حتى يكاد يصل إلى الحنجرة) الحلقوم .(إنه تعبير مجازي عن شدة الفزع.

والأطباء اليوم يثبتون أن الخوف الشديد يؤدي إلى تسارع ضربات القلب، وارتفاع الحجاب الحاجز، مما يجعل الإنسان يشعر بأن قلبه في حلقه! سبحان الله! هذا ما وصفه القرآن منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام.

رابعًا: تظنون بالله الظنونا ..اختبار اليقين

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ .في هذه اللحظات العصيبة، انقسمت الظنون:

· ظن المؤمنين الصادقين: "هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا" .ظنوا أن النصر آتٍ، وأن وعد الله حق.
· ظن المنافقين وضعاف الإيمان: "ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا" .ظنوا أن المسلمين هالكون، وأن الأ مر انتهى.

وكلمة "الظنونا" بالألف في نهاية الآية) عند الوقف (هي من فواصل الآيات التي تزيد من جرس الموسيقى القرآنية، وتوحي بالطول والامتداد، كأنها تصور كثرة الظنون وتنوعها.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1"زاغت" بالماضي:
استخدام الفعل الماضي "زاغت" ليفيد التحقق والثبوت .لقد حدث الزيغ فعلا ً، ولم يكن مجرد احتمال.

.2"بلغت" بالماضي أيضًا:
كذلك "بلغت" بصيغة الماضي، ليفيد أن الأمر وقع وتحقق، وليس مجرد وصف متخيل.

.3"وتظنون" بالمضارع:
أما "تظنون" فجاءت بالمضارع، لتفيد التجدد والاستمرار .الظنون كانت متجددة متغيرة من لحظة إلى أخرى، بحسب ما يرون من تطورات الموقف.

.4إضافة "الظنونا" بالألف:
هذه الألف تسمى ألف الإطلاق، وهي تزاد في الفواصل القرآنية لتحسين النغم ولإكمال الوزن الموسيقي للآية .وفيها أيضًا إيحاء بالانفتاح والاتساع، فكأن الظنون كثيرة متنوعة لا تنحصر.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الخوف الشديد يؤثر على الإدراك والجسم .هذا طبيعي .لكن المؤمن الصادق لا يترك الخوف يسيطر على عقله، بل يربط قلبه بالله، ويثق بوعده.

الرسالة القلبية:

لا تستغرب أن يبلغ الخوف بقلبك الحنجرة .الأنبياء وأصحابهم مروا بهذه اللحظات .المهم ماذا كان ظنك بالله في تلك اللحظة؟ هل أحسنت الظن أم أسأت؟

الرسالة النفسية:
الضغط النفسي الشديد يكشف المعدن الحقيقي .في لحظات الرخاء، قد يبدو الجميع مؤمنين .لكن في لحظات الشدة، يتبين الصادق من الكاذب .فلا تلم نفسك على الخوف الطبيعي، بل لم نفسك إن أسأت الظن بالله.

الرسالة التربوية:
عندما يمر أبناؤك أو طلابك بلحظات خوف وقلق) امتحان، مرض، مشكلة(، لا تطلب منهم أن يكونوا خارقين .الخوف طبيعة بشرية .ولكن ذكرهم بالله، وثبتهم بوعد الله، وازرع فيهم حسن الظن به.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة المريض الذي ينتظر نتيجة التحاليل

تخيل أنك أجريت تحاليل طبية، وأنت في انتظار النتيجة التي قد تحمل خبرًا سيئًا .قلبك يخفق، عيناك شاخصتان إلى باب الطبيب، أفكارك تتزاحم: "ماذا لو كان المرض خطيرًا؟ ماذا لو كان مميتًا؟" . أنت تظن بالله الظنونا: مرة تحسن الظن، وتقول: "الله أرحم بي، سيشفيني" .ومرة يهاجمك الشيطان، فتسيء الظن.

هذه اللحظات هي اختبار لصدق إيمانك .المؤمن الصادق يثبت على حسن الظن بالله، ويردد: "اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك".
المحور الرابع: حصاد الابتلاء ..﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾

والآن يختم الله هذا المشهد المهيب بآية قصيرة، لكنها تحمل خلاصة الدرس كله: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

"هنالك": اسم إشارة للبعيد .والمشار إليه هو ذلك الوقت العصيب، وذلك المكان المحاصر، وتلك الحال الشديدة .إنه إشارة إلى ذروة الشدة.

"ابتلي المؤمنون": أي اختبروا وامتحنوا .والابتلاء هو سنة الله في تمييز الصادق من الكاذب .لقد أراد الله أن يختبر إيمانهم في أشد الظروف، ليعلم من يثبت ومن يتزعزع.

"وزلزلوا زلزالا ً شديدا": الزلزال هو الاضطراب والحركة الشديدة .والمعنى: اضطربوا اضطرابًا شديدًا، وخافوا خوفًا عظيمًا، وتحركت قلوبهم من الرعب .وهذا وصف نفسي، وليس وصفًا لزلزال أرضي حقيقي.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1اسم الإشارة "هنالك":
"هنالك" للبعيد، وفيه تهويل للأمر، وتصوير لشدة الموقف وبعده عن الأحوال العادية .كأنه يقول: في ذلك المقام الرهيب، وفي تلك الحال العجيبة.

.2بناء الفعل للمجهول "ابتلي":
قال: ﴿ابْتُلِيَ﴾ بصيغة المبني للمجهول، ولم يسم الفاعل .والفاعل معلوم، وهو الله سبحانه .ولكن حذف الفاعل هنا للعلم به، ولتفخيم شأنه، وللإشارة إلى أن الابتلاء سنة ماضية لا تتعلق بشخص معين.

.3"المؤمنون" بالتعريف:
أدخل "أل" على المؤمنين: ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ .وهذا يفيد أن كل المؤمنين ابتلوا، وليس بعضهم فقط .الابتلاء عام وشامل.

.4المفعول المطلق "زلزالا ً":

.{زِلزَالًا}: مفعول مطلق مؤكد للفعل "زلزلوا" .وفيه تأكيد على شدة الاضطراب.

.5وصف الزلزال بـ "شديدًا":
"شديد" صفة مشبهة تدل على الثبوت والاستمرار .فلم يكن زلزالا ً عابرًا خفيفًا، بل كان عنيفًا قويًا هز القلوب هزًا.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الابتلاء سنة إلهية لا تتخلف .كل مؤمن سيبتلى .فلا تظن أنك ستدخل الجنة دون أن تمتحن .{أَحَسِبَ النَاسُ أن يُتْرَكوا أن يَقولوا آمَنَا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}] العنكبوت:.[2

الرسالة القلبية:
الزلزال الشديد يكشف ما في القلوب .فإذا زلزلت، فانظر إلى قلبك: هل تعلق بالله أم تعلق بالأسباب؟ هل أحسنت الظن أم أسأت؟

الرسالة النفسية:
لا تخجل من الخوف الطبيعي .المؤمنون في غزوة الأحزاب زلزلوا زلزالا ً شديدًا .الخوف فطرة بشرية .لكن الفرق بين المؤمن والمنافق هو ماذا تفعل بعد الخوف؟ هل تثبت وتتوكل، أم تتزعزع وتشك؟

الرسالة التربوية:
علم أبناءك أن الحياة دار ابتلاء .لا تعدهم بحياة وردية خالية من المشاكل .بل أعدهم للابتلاء، وعلمهم كيف يواجهونه: بالصبر، وحسن الظن بالله، والثقة بوعده.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الامتحان النهائي الحاسم

تخيل طالبًا يدرس طوال العام، ويصل إلى الامتحان النهائي الحاسم الذي يحدد مصيره .يدخل قاعة ا لامتحان، فيرى الأسئلة صعبة، والوقت ضيقًا، والمراقبين شديدي الملاحظة .قلبه يبلغ حنجرته، وعيناه تزيغان بين ورقة الأسئلة وورقة الإجابة .هذا زلزال شديد! ولكن الطالب المجتهد يثبت، ويتذكر أنه ذاكر واجتهد، فيحسن الظن بالله، ويكتب ما يعرف.

بعد الامتحان، يخرج وهو يشعر أنه ابتلي وامتحن .هذا الابتلاء أظهر المجتهد من الكسول، والصادق من الكاذب في ادعاء المذاكرة.
المحور الخامس:
النظرة الشاملة للآيات الثلاث ..دروس وعبر

دعنا الآن - أيها القارئ الكريم - نستخلص الدروس الكبرى من هذه الآيات العظيمة:

.1الابتلاء بعد البناء

الآيات السابقة بنت العقيدة ورتبت الأولويات .وهذه الآيات تختبر هذا البناء .هذه هي سنة الله: تمحيص الإيمان بعد تقريره.

.2التوازن بين الأسباب والنتائج

المؤمنون أخذوا بكل الأسباب الممكنة) حفر الخندق، تنظيم الجيش .(ولكن النصر جاء من عند الله)الريح، الملائكة .(وهذا يعلمنا: خذ بالأسباب، لكن لا تتوكل عليها، بل توكل على رب الأسباب.

.3الشدة تكشف المعادن

في الرخاء، الكل يدعي الإيمان .وفي الشدة، يظهر الصادق وينكشف الكاذب .هذه الآيات تصور غربال ا لأحداث الذي يفرز الناس.

.4رحمة الله في البلاء

حتى في أشد لحظات الرعب، رحمة الله تحيط بالمؤمنين .لم يتركهم وحدهم .أرسل الريح والجنود .
وهكذا دائمًا: مع العسر يسرًا.
المحور السادس:
كيف نطبق هذه الآيات في حياتنا العملية اليوم؟

.1عند مواجهة الشدائد والأزمات

اذكر نعمة الله عليك في الماضي:
عندما تواجه أزمة جديدة، تذكر كيف نجاك الله من أزمات سابقة .هذا يملأ قلبك ثقة بأنه سينجيك هذه المرة أيضًا.

لا تركز على حجم المشكلة، بل على قدرة الله:
لا تعدد قوى الباطل وعددهم .بل قل: "حسبنا الله ونعم الوكيل" .ثق أن جنود الله التي لا تراها أقوى من كل جيوش الأرض.

تقبل الخوف الطبيعي، ولكن أحسن الظن بالله:
لا تطلب من نفسك أن تكون خارقًا لا يخاف .الخوف فطرة .ولكن لا تدع الخوف يسيطر على ظنك بالله .قل: "اللهم إني أخاف، ولكني أحسن الظن بك".

.2في تربية الأبناء والطلاب

أعدهم للابتلاءات:
لا تربهم على أن الحياة وردية .حدثهم عن ابتلاءات الأنبياء والصالحين .علمهم أن الابتلاء سنة، وأن النصر مع الصبر.

علمهم أن الخوف طبيعي:
لا تسخر من طفل يخاف من امتحان أو موقف صعب .طمئنه أن الخوف طبيعي، حتى الصحابة خافوا .ولكن المهم هو ماذا تفعل وأنت خائف.

ذكرهم بنعم الله السابقة:
عندما يمر ابنك بمشكلة، ذكره كيف نجح في مشكلات سابقة .قل له: "أتذكر عندما كنت خائفًا من كذا ونجحت؟ الله الذي نصرك حينها سينصرك الآن".

.3في بناء المجتمع والأمة

الوحدة في مواجهة الأحزاب:
الأحزاب تحالفت على المسلمين .والمسلمون واجهوهم بصف واحد .هذا درس للأمة: الوحدة هي السبيل لمواجهة تحالفات الأعداء.

خذوا بالأسباب ولا تنسوا رب الأسباب:
حفر الخندق سبب بشري .والريح والملائكة نصر إلهي .الأمة اليوم بحاجة إلى الأخذ بكل أسباب القوة)علم، اقتصاد، تكنولوجيا(، مع التوكل على الله والثقة بنصره.

.4في حياتنا الشخصية

عندما تشعر أنك محاصر من كل جانب:
قد تشعر أحيانًا أن المشاكل تأتيك من فوقك ومن أسفل منك: مشاكل في العمل، في البيت، في الصحة .تذكر أن الله يرى مكانك، وأنه سيجعل لك مخرجًا.

عندما يبلغ قلبك الحنجرة من الخوف:
في لحظات الرعب الشديد) حادث، مرض خطير، فقدان عزيز(، تذكر أن هذه اللحظات هي اختبار لصدقك .ثبت قلبك بذكر الله، وأحسن الظن به.

عندما يمر عليك زلزال شديد:
الزلازل ليست دائمًا أرضية .هناك زلازل نفسية) فقدان وظيفة، طلاق، فشل مشروع .(هذه الزلازل تمحص المؤمنين .اصبر، واثبت، واعلم أن بعد العسر يسرًا.
خاتمة: العودة إلى نعمة الله

أيها القارئ الكريم ..لقد طفنا معًا في رحاب ثلاث آيات عظيمات من كتاب الله .آيات تصور لنا أشد لحظات الرعب في تاريخ الأمة، ولكنها في الوقت نفسه تصور لنا أعظم لحظات النصر والتمكين.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· نعمة الله يجب أن تذكر وتشكر، فهي التي أنقذتنا من الهلاك.
· الجنود قد تأتي من البشر، وقد تأتي من عند الله بطرق لا نحتسبها.
· الخوف طبيعة بشرية، حتى بلوغ القلوب الحناجر لا يقدح في الإيمان.
· الظنون تتنوع في الشدة، والمؤمن الصادق هو من يحسن الظن بالله.
· الابتلاء سنة إلهية لتمحيص الصادقين.
· الزلزال الشديد يهز القلوب، ولكنه لا يزعزع إيمان المخلصين.

فلنجعل هذه الآيات نبراسًا في مواجهة الشدائد، ولنتذكر دائمًا أن مع العسر يسرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾
القسم الثاني
موقف المنافقين
المبحث الأول .
رحلة تدبرية في رحاب الآيات (12-15) من سورة الأحزاب

تمهيد: من زلزال المؤمنين إلى خذلان المنافقين.. عندما تكشف الشدة الأقنعة

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا المسار القرآني العجيب في تصوير أدق مشاهد النفس البشرية في أوقات المحن..

لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشهد الرعب العظيم الذي أصاب المؤمنين في غزوة الأحزاب. رأينا كيف زاغت الأبصار، وكيف بلغت القلوب الحناجر، وكيف زلزل المؤمنون زلزالا ً شديدًا. كان ذلك كله تصويرًا للحالة النفسية العامة التي عمت الجميع: المؤمن الصادق، والمنافق المتربص، وضعيف الإيمان.

والآن.. ينتقل بنا القرآن الكريم إلى تشريح أدق، وتحليل أعمق. إنه لا يكتفي بوصف المشهد العام، بل يخترق الصدور، ويكشف ما تخفيه النفوس، ويفضح الأقوال التي تقال همسًا في زوايا الخفاء.

في هذه الآيات الأربع، سنرى ثلاث فئات تتحرك في المشهد:

1.المنافقون والذين في قلوبهم مرض: يطلقون مقولات اليأس والتشكيك في وعد الله ورسوله.
2.طائفة منهم: تحاول إقناع الناس بالفرار تحت ذرائع واهية.
3.فريق آخر: يتقدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن بالانسحاب بحجج كاذبة.

ثم يأتي الحكم الإلهي الفاصل الذي يكشف حقيقة نواياهم، ويذكرهم بعهودهم التي نقضوها.

إنها آيات تفضح المنافقين في كل زمان ومكان. إنها تضع المجهر القرآني على أمراض القلوب التي تظهر في أوقات الشدة. إنها تقدم لنا درسًا سياسيًا وعسكريًا ونفسيًا وتربويًا لا غنى عنه لأي أمة تريد أن تواجه التحديات.

دعنا نعيش معًا هذه المشاهد، ونستخرج دررها وكنوزها.
المحور الاول: كشف اقوال المنافقين ومرضى القلوب

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾

المعنى الإجمالي للآية

اذكر - أيها النبي - ذلك الوقت العصيب حين كان المنافقون (الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر) و الذين في قلوبهم مرض (ضعفاء الإيمان، حديثو العهد بالإسلام، أو المتشككون) يقولون في أنفسهم، أو يهمسون لبعضهم البعض: "ما وعدنا الله ورسوله من النصر والتمكين إلا غرورًا وخداعًا".

إنها كلمة الكفر التي تكشف ما في قلوبهم. هم يرون الأحزاب قد أحاطت بالمدينة من كل جانب، فيظنون أن وعد الله بالنصر كان مجرد كلام للتهدئة، لا حقيقة له. وهكذا تفعل الشدة: تستخرج ما في القلوب، وتظهر حقيقة الإيمان وحقيقة النفاق.

من هم "الذين في قلوبهم مرض"؟

هذه الفئة تختلف عن المنافقين الخلص. هم:

· ضعفاء الإيمان: الذين لم يرسخ الإيمان في قلوبهم بعد.
· المتشككون: الذين يدخلهم الشك عند الشدائد.
· حديثو العهد بالإسلام: الذين لم يختبروا إيمانهم في المحن بعد.

والقرآن يجمعهم مع المنافقين في هذا الموقف، لأن قولهم واحد، وأثرهم واحد في تثبيط الهمم وإضعاف الجبهة الداخلية.

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

.1العطف بـ "إذ" مرة أخرى:
تكرر "إذ" الظرفية في هذه الآيات، لتربط المشاهد المختلفة بتلك الغزوة العظيمة. فكأنه يقول: في ذلك الوقت نفسه، حين كان المؤمنون يزلزلون، كان المنافقون يقولون كذا وكذا. إنه جمع للمشاهد المتزامنة في لوحة واحدة.

.2الفعل المضارع "يقول":
استخدم الفعل المضارع "يقول" ولم يستخدم الماضي "قالوا". هذا يفيد استمرار القول وتجدده. لم تكن كلمة عابرة قالوها مرة واحدة، بل كانت حديثهم المتكرر، وهمسهم الدائم، وتهمتهم المستمرة. وهذا أبلغ في وصف الإصرار على التخذيل.

.3وصف قلوبهم بـ "مرض":
المرض هو الانحراف عن حالة الصحة والاعتدال. والمرض القلبي هنا هو الشك والنفاق وضعف اليقين. وقد أضافه إلى القلوب: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ليدل على تمكن المرض منها، وأنه مستقر فيها، وليس عارضًا طارئًا.

.4الاستثناء المفرغ:
﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ .هذا أسلوب القصر والحصر .كأنهم يقولون: ليس وعد الله ورسوله إلا غرورًا، وليس إلا كذبًا وخداعًا .وهذا من أشد التكذيب وأقبح الجحود.

.5كلمة "غرورًا":
الغرور هو الخداع بالباطل. وصفوا وعد الله - وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل - بأنه غرور وخداع! إنها كلمة تحمل سخرية واستهزاء، وتكشف عن عمق المرض في قلوبهم.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
انتبه! الشدة تكشف حقيقة الإيمان. قد يبدو الناس كلهم مؤمنين في الرخاء، لكن في ساعة العسرة تظهر معادن الرجال. لا تنخدع بكلام الناس في أوقات الأمن، بل انظر إليهم في أوقات الخوف.

الرسالة القلبية:

إياك أن تشك في وعد الله! وعد الله حق، ونصره آتٍ، مهما بدت الأسباب الظاهرة معاكسة. لا تجعل قلبك يمرض بالشك، بل طهّره باليقين. ثق أن ما وعد الله ورسوله هو الحق المبين.

الرسالة النفسية:
عندما تسمع كلمات اليأس والتشكيك من حولك، لا تتأثر بها. اعلم أن هذه الكلمات تصدر عن قلوب مريضة أو نفوس منافقة. ثبت قلبك، وكن من الصادقين الذين يزدادون إيمانًا عند الشدائد.

الرسالة التربوية:
احذر من أن تكون سببًا في تثبيط الهمم. كلمة واحدة منك في وقت الشدة قد تهدم ما بني في سنوات. كن دائمًا صوت الحق والأمل، لا صوت اليأس والتشكيك.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة المشروع الذي واجه أزمة مالية

تخيل مجموعة من الشباب بدأوا مشروعًا تجاريًا واعدًا، وكان قائدهم يعدهم بالنجاح والتوسع. ثم فجأة، تمر الشركة بأزمة مالية خانقة، وتحيط بها الديون من كل جانب. في هذه اللحظة، تنقسم المجموعة:

· المؤمنون الصادقون: يقولون: "القائد وعدنا، وقد رأينا منه الصدق .هذه أزمة عابرة، سنصبر ونتجاوزها معًا".
· المنافقون ومرضى القلوب: يهمسون في الأركان: "ما وعدنا القائد إلا غرورًا .لقد خدعنا .المشروع فاشل، فلننسحب قبل أن نخسر أكثر".

هؤلاء المثبطون يكشفون حقيقتهم في الأزمة. إنهم لا يؤمنون بالمشروع ولا بالقائد. وهم عبء على المجموعة، بل هم سبب رئيسي في الفشل إن لم يُكشف أمرهم.

هكذا كان حال المنافقين في غزوة الأحزاب: عبئًا على الجيش المسلم، وسببًا في إضعاف الروح المعنوية.
المحور الثاني محاوله بعض المنافقين اقناع الناس بالفرار
﴿وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾

المعنى الإجمالي

في نفس ذلك الوقت العصيب، قامت طائفة من المنافقين بدور أخطر: لم يكتفوا بالهمس والتشكيك، بل تحركوا عمليًا لإقناع الناس بالانسحاب من المعركة! نادوا بأعلى أصواتهم: "يا أهل يثرب (المدينة)! لا مقام لكم هنا. لا فائدة من البقاء. ارجعوا إلى بيوتكم!".

إنها الدعوة الصريحة إلى الفرار، والهزيمة النفسية قبل الهزيمة العسكرية. إنهم يريدون تفتيت الجيش من الداخل، وإخلاء الجبهة أمام العدو.

لماذا قالوا "يا أهل يثرب" ولم يقولوا "يا أهل المدينة"؟

يثرب هو الاسم القديم للمدينة قبل الإسلام. والمنافقون استخدموه عمدًا!

· استخدام الاسم الجاهلي: فيه استهانة بالإسلام ومحاولة لإرجاع الناس إلى عادات الجاهلية وأعرافها . كأنهم يقولون: "عودوا إلى ما كنتم عليه قبل هذا الدين الذي جلب عليكم الحروب!".
· إثارة النعرات القبلية: يثرب كانت مرتعًا للصراعات القبلية بين الأوس والخزرج .فاستخدام هذا الاسم يهدف إلى إيقاظ العصبيات القديمة وتفريق الوحدة الإسلامية التي جمعت القبائل تحت راية "المدينة المنورة".

"لا مقام لكم" ..تحطيم للروح المعنوية

· لا مقام: لا فائدة من البقاء، لا مكان لكم هنا، وجودكم عبثي.
· فارجعوا: انسحبوا فورًا، عودوا إلى أهليكم وأموالكم، لا تضحوا بأنفسكم في معركة خاسرة.

تأمل كيف أن هذه الكلمات القليلة تحمل أخطر رسائل التخذيل. إنهم لا يعرضون رأيًا، بل يُصدرون أمرًا: "ارجعوا". وهذا من وقاحة المنافقين وجرأتهم في زعزعة الجيش المسلم.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1"طائفة منهم":
التعبير بـ "طائفة" يفيد أنهم جماعة منظمة، وليسوا أفرادًا متفرقين. هذا يدل على وجود تنظيم للمنافقين، وتنسيق بينهم لتنفيذ مخططات التخذيل.

.2النداء "يا أهل يثرب":
النداء لعموم أهل المدينة، وليس للمؤمنين خاصة. إنهم يريدون إثارة الرأي العام، وخلق حالة من الذعر الجماعي.

.3"لا مقام لكم":
نفي لأي فائدة من البقاء. وهو حكم قاطع لا يحتمل النقاش. وهذا أسلوب الديكتاتوريين الذين يفرضون آراءهم بالقوة النفسية.

.4الأمر "فارجعوا":
الفاء للتعقيب السريع. كأنهم يقولون: "ما دمتم قد عرفتم أنه لا فائدة من البقاء، فلا تتأخروا لحظة واحدة، ارجعوا فورًا".

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
انتبه إلى لغة المنافقين. هم لا يقولون: "رأينا كذا" أو "نقترح كذا"، بل يُصدرون أحكامًا قاطعة وأوامر مباشرة. هذا الأسلوب يهدف إلى إلغاء العقل وتعطيل التفكير عند الآخرين.

الرسالة القلبية:
لا تسمح لأحد أن يزعزع ثباتك بدعاوى الهزيمة. عندما تسمع من يقول: "لا أمل"، "انسحبوا"، "لا فائدة"، فاعلم أن هذا صوت المنافقين في كل زمان. سد أذنك عنه، وثبت قلبك على الحق.

الرسالة النفسية:
المنافقون يستغلون الخوف الطبيعي عند الناس. هم يعرفون أن الخوف موجود، فيقومون بتضخيمه وتحويله إلى حالة استسلام جماعي. كن واعيًا لهذه الحرب النفسية، ولا تسمح لهم بالتلاعب بمشاعرك.

الرسالة التربوية:
احذر من أن تكون صوت الهزيمة في مجتمعك. لا تكن ذلك الشخص الذي يثبط الهمم، ويقول: "لا فائدة، الوضع ميؤوس منه". كن صوت الأمل، وحافزًا للعمل، لا مثبطًا للهمم.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة المباراة الحاسمة والمشجع المثبط

تخيل فريقًا رياضيًا يخوض مباراة نهائية صعبة. الجمهور كله متحمس ويدعم الفريق. وفجأة، في لحظة تراجع الفريق، يقوم أحد المشجعين (وهو في الحقيقة من مشجعي الفريق المنافس متخفيًا) ويصرخ: "يا جماعة! لا فائدة! الفريق خاسر لا محالة! ارجعوا إلى بيوتكم!".

هذا المشجع المتخفي لا يريد الخير للفريق. إنه عميل يريد تحطيم الروح المعنوية، وإفراغ المدرجات من الجمهور الداعم، ليفوز فريقه الحقيقي.

هكذا كان المنافقون في غزوة الأحزاب: عملاء للأحزاب في الداخل، يريدون تفتيت الجيش المسلم ليفوز الأعداء.
المحور الثالث: استئذان فريق آخر بحجج كاذبة

·{وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}·

المعنى الإجمالي

في الوقت نفسه، قام فريق آخر من المنافقين بخطوة مختلفة: استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في ترك الجيش والعودة إلى بيوتهم، متحججين بحجة تبدو معقولة في الظاهر: "إن بيوتنا عورة".

· عورة: أي غير محصنة، مكشوفة للعدو، خالية من الرجال الذين يحمونها .قالوا: "نخشى أن يدخلها العدو في غيابنا، فيهتك أعراضنا ويسلب أموالنا".

وهنا يأتي التعقيب الإلهي الفاضح: ·{وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}·. الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يكشف حقيقتهم: بيوتهم ليست عورة! إنها حصينة آمنة. هم لا يخافون على بيوتهم، بل يخافون على أنفسهم من القتال. إنهم يريدون الفرار فقط، ويتخذون هذه الحجة ستارًا كاذبًا.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1الفعل المضارع "يستأذن":
استخدم المضارع "يستأذن" ليفيد التجدد والتكرر. لم يستأذنوا مرة واحدة، بل كانوا يلحون في الا ستئذان، ويكررون الطلب بأساليب مختلفة.

.2"فريق منهم":
كلمة "فريق" تدل على أنهم جماعة منظمة، وليسوا أفرادًا. هذا الفريق غير الطائفة التي نادت بالفرار علنًا. إنهم فئة أخرى من المنافقين، تتبع أسلوبًا مختلفًا في التخذيل.

.3قولهم "إن بيوتنا عورة":
استخدموا "إن" المؤكدة، ليوهموا النبي بصدقهم. "إن بيوتنا حقًا عورة، ولسنا نكذب". وهذا من دهاء المنافقين: يغلفون كذبهم بألفاظ التأكيد.

.4النفي الإلهي: "وما هي بعورة":
أسلوب نفي قاطع. الباء في "بعورة" تفيد تأكيد النفي. كأنه يقول: "ليست عورة بوجه من الوجوه، ولا بأي حال من الأحوال". إنه تكذيب صريح لادعائهم.

.5الاستثناء المفرغ: "إن يريدون إلا فرارًا":
مرة أخرى، أسلوب القصر والحصر. هم لا يريدون شيئًا من وراء هذا الاستئذان إلا الفرار. لا خوفًا على البيوت، ولا على الأعراض، ولا أي شيء آخر. الفرار فقط هو مرادهم.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
المنافقون مبدعون في اختلاق الأعذار. حججهم تبدو مقنعة في الظاهر: "خوف على البيوت"، "مسؤولية تجاه الأهل"، "ظروف خاصة". ولكن الله يكشف حقيقتهم: إنهم جبانة وفارون. تعلم أن تميز بين العذر الحقيقي والحجة الكاذبة.

الرسالة القلبية:
لا تخادع نفسك. عندما تتهرب من واجب، قد تقنع نفسك بأن لديك عذرًا مقنعًا. ولكن الله يعلم حقيقة نيتك. راجع قلبك دائمًا: هل عذرك حقيقي أم هو غطاء للفرار من المسؤولية؟

الرسالة النفسية:
المنافق يريد أمرين: السلامة (بالفرار) والسمعة (بإظهار العذر). هو لا يريد أن يوصف بالجبن، فيختلق الأعذار. المؤمن الصادق لا يهتم بسمعته عند الناس، بل بموقفه عند الله. إن كان لا بد من الفرار، فرّ دون اختلاق أعذار كاذبة.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك أن يكونوا صادقين مع أنفسهم. إذا أرادوا التهرب من مسؤولية، لا تسمح لهم باختلاق الأ

أعذار الواهية. قل لهم: "إن كنت لا تريد، فقل لا أريد، ولا تكذب على نفسك وعلى الله".

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الموظف الذي يتهرب من مشروع صعب

تخيل مديرًا يطلب من فريقه التطوع لمشروع صعب يتطلب جهدًا إضافيًا وسفرًا. أحد الموظفين لا يريد المشاركة لأنه جبان أو كسول. لكنه لا يقول ذلك. بل يقول للمدير: "يا أستاذ، أنا مستعد للتضحية ، ولكن والدتي مريضة ولا أستطيع تركها. بيتي محتاج لي".

المدير يعلم أن والدته ليست مريضة، وأن بيته ليس بحاجة ماسة إليه. إنه يعرف أن هذا الموظف يريد الفرار فقط. ولكنه قد يضطر لقبول العذر حفاظًا على مشاعره.

الله - سبحانه - لا يخادع. إنه يعلم حقيقة نواياانا. وقد فضح المنافقين وكشف أعذارهم الكاذبة في القرآن لتكون عبرة لنا.
المحور الرابع: كشف حقيقة نواياهم عند الابتلاء الحقيقي

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾

المعنى الإجمالي

بعد أن فضح الله أعذارهم الكاذبة، ينتقل إلى كشف أعمق: ماذا سيفعل هؤلاء المنافقون لو تغيرت الظروف؟

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾: لو دخلت عليهم المدينة من جميع جوانبها وأطرافها جيوش الأعداء . لو أصبحوا محاصرين تمامًا في بيوتهم، لا منجى لهم ولا مهرب.

﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾: ثم طُلب منهم الردة عن الإسلام، والعودة إلى الكفر، ومحاربة المسلمين.

﴿لَآتَوْهَا﴾: لفعلوا ذلك فورًا! لارتدوا عن دينهم، وقاتلوا مع الكفار ضد المسلمين.

﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾: وما ترددوا، ولا تأخروا، ولا فكروا طويلا ً، بل استجابوا في لحظة يسيرة.

إنها شهادة إلهية على أن الإيمان لم يستقر في قلوبهم قط. هم في حالة استعداد دائم للردة، ينتظرون فقط اللحظة المناسبة.

من هم هؤلاء الذين هذه صفاتهم؟

الآية تتحدث عن المنافقين الخلص، الذين:

· يظهرون الإسلام بألسنتهم.
· يبطنون الكفر في قلوبهم.
· ينتظرون الفرصة للانقلاب على المسلمين.

إنهم ليسوا ضعفاء إيمان فقط، بل هم أعداء متخفون في الداخل. وهذه الصورة التي ترسمها الآية تكشف خطورتهم الحقيقية على الأمة في أوقات المحن.

اللمسات البيانية والبلاغية

1.أداة الشرط "لو":
"لو" حرف امتناع لامتناع .المعنى: لم تدخل عليهم الأقطار، ولم يسألوا الفتنة، ولكن لو حدث ذلك لا رتدوا فورًا .هذا الأسلوب يقرر حقيقة في علم الله، ويكشف ما في قلوبهم قبل أن يقع الفعل.

2.بناء الفعل للمجهول:
﴿دُخِلَتْ﴾ و﴿سُئِلُوا﴾ مبنيان للمجهول .الفاعل محذوف، لأنه معلوم: الأعداء أو الأحزاب .وهذا الحذف لإ

إرادة العموم: أي عدو، من أي جهة.

.3"من أقطارها":
الأقطار: الجوانب والنواحي. والمعنى: من كل جهة. وهذا يفيد الإحاطة الكاملة، وانقطاع الأمل في النجاة. في مثل هذه الحالة، ينكشف المعدن الحقيقي.

.4"الفتنة":
المراد بالفتنة هنا: الردة عن الإسلام، والكفر بعد الإيمان. وهي أعظم فتنة في الدين. سؤالهم الفتنة يعني دعوتهم إلى الكفر ومحاربة المؤمنين.

.5اللام في "لآتوها":
اللام لام جواب القسم، وهي تفيد التأكيد الشديد على وقوع الفعل. إنهم سيأتونها يقينًا، لا محالة.

.6"وما تلبثوا بها إلا يسيرًا":

· تلبثوا: تمكثوا وتتأخروا وتترددوا.
· يسيرًا: وقتًا قليلا ً جدًا.

النفي والاستثناء يفيدان سرعة الاستجابة. هم جاهزون للردة، لا يحتاجون إلى وقت للتفكير.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
خطر المنافقين ليس فقط في أقوالهم المثبطة، بل في استعدادهم للانقلاب عند أول فرصة. هم طابور خامس داخل الأمة. الوعي بهذه الحقيقة ضروري لحماية الجبهة الداخلية.

الرسالة القلبية:
انظر إلى قلبك: هل أنت ثابت على الحق حتى لو تغيرت الظروف؟ هل إيمانك راسخ لا يتزعزع بـ الشدائد؟ أم أنك قد تتردد وتتلبث لو عرضت عليك الفتنة؟

الرسالة النفسية:
لا تكن من الذين يبيعون دينهم بعرض من الدنيا. قد تأتيك لحظات ضعف تعرض عليك فيها تنازلات مبدئية مقابل مكاسب دنيوية. تذكر هذه الآية، وثبت نفسك، ولا تكن ممن يأتون الفتنة في يسير من الوقت.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك الثبات على المبدأ. علمهم أن الرجولة الحقيقية هي في الثبات على الحق عند الشدائد ، لا في الذوبان مع كل ريح. قص عليهم قصص الثابتين الذين لم تزعزعهم الفتن.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الجاسوس الذي ينتظر اللحظة المناسبة

تخيل دولة في حالة حرب. هناك جاسوس يعيش بين المواطنين، يتظاهر بالولاء للدولة. هو في الظاهر مواطن مخلص، لكنه في الباطن عميل للعدو. هو لا يقوم بأي عمل تخريبي الآن، ولكنه ينتظر اللحظة المناسبة. لو تمكن العدو من دخول المدينة، فسيكون هذا الجاسوس أول من يتعاون معهم، ويدلهم على نقاط الضعف.

هؤلاء هم المنافقون في المدينة. هم جواسيس الأعداء في الداخل. في وقت السلم، قد لا يظهر خطرهم. لكن في وقت الحرب، ينقلبون على إخوانهم، ويكونون أشد خطرًا من العدو الخارجي.
المحور الخامس: تذكيرهم بعهدهم الذي نقضوه

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾

المعنى الإجمالي

بعد أن كشف الله حقيقة نواياهم، يذكرهم بعهدهم السابق: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾.

هؤلاء المنافقون كانوا قد أعطوا الله عهدًا وميثاقًا قبل غزوة الأحزاب، وفي مناسبات سابقة، بأنهم لن يفروا من القتال، وأنهم سيثبتون مع النبي صلى الله عليه وسلم، ولن يولوا الأدبار (لن يهربوا).

والآن، في ساعة الشدة، نقضوا هذا العهد! استأذنوا بحجج كاذبة، وأرادوا الفرار، وخالفوا ما عاهدوا الله عليه.

ثم يأتي التهديد الإلهي: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾. أي: سيسألهم الله عن هذا العهد يوم القيامة. سيسألهم: لماذا نقضتم عهدكم؟ لماذا فررتم؟ لماذا خنتم؟ وهذا السؤال ليس سؤال استفهام، بل هو سؤال توبيخ وعقاب.

متى عاهدوا الله هذا العهد؟

ذكر المفسرون عدة مواقف:

· قبل غزوة الأحزاب: كان بعضهم قد تخلف عن غزوة بدر، فندموا وقالوا: "لئن أحيانا الله إلى غزوة أخرى لنقاتلن مع النبي" .فلما جاءت الأحزاب، نقضوا عهدهم.
· بيعة العقبة: بعض المنافقين كانوا حاضرين بيعة العقبة، وبايعوا على السمع والطاعة في العسر و اليسر.
· العهد العام: كل مسلم يدخل في الإسلام يعاهد الله ضمنًا على طاعته واتباع رسوله والجهاد في سبيله.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1اللام الموطئة للقسم "لقد":
"لقد" تفيد التوكيد الشديد .إنه قسم من الله بأنهم قد عاهدوه حقًا .لا شك في ذلك ولا مراء.

.2الفعل "عاهدوا":
صيغة "فاعل" تدل على المشاركة. هم عاهدوا الله، والله قبل عهدهم. إنه عقد متبادل بين طرفين.

.3"من قبل":
أي: قبل هذه الغزوة، وقبل هذه الشدة. وهذا يفيد أنهم نقضوا العهد بعد أن قطعوه على أنفسهم. وهذا أشد في الإثم.

.4"لا يولون الأدبار":

· يولون: من التولية، أي الإدبار والهرب.
· الأدبار: الظهور، وولاية الدبر كناية عن الفرار من القتال.

إنه تعبير بليغ عن الفرار من مواجهة العدو.

.5الجملة الاسمية "وكان عهد الله مسئولا ً":
استخدم الجملة الاسمية لتفيد الثبات والدوام. عهد الله دائمًا وأبدًا مسئولا ً عنه. سيسأل عنه كل من عاهده. وهذا وعيد شديد.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
العهد مسؤولية عظيمة. لا تعاهد الله على شيء إلا وأنت عازم على الوفاء. كل عهد تقطعه مع الله (توبة، نذر، عزم على طاعة) هو دين في عنقك ستُسأل عنه يوم القيامة.

الرسالة القلبية:
راقب عهودك مع الله. كم مرة عاهدت الله على ترك معصية ثم عدت إليها؟ كم مرة عاهدته على

طاعة ثم توانيت؟ استحِ من الله الذي سيُسألك عن عهده.

الرسالة النفسية:
لا تكن كذابًا في عهودك مع الله. الصدق في العهد من علامات الإيمان الصادق. والنقض من علامات النفاق. ثبت نفسك، وأوف بعهدك، مهما كانت الظروف صعبة.

الرسالة التربوية:
علم أبناءك قيمة العهد. إذا وعدوا بشيء، فليوفوا به. وإذا قطعوا عهدًا على أنفسهم (بخصوص الصلاة ، أو المذاكرة، أو الصدق)، فليكونوا أوفياء لعهدهم. ذكرهم أن المنافقين نقضوا عهدهم، فلا تكن مثلهم.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الجندي الذي أقسم على الثبات ثم فرّ

تخيل جنديًا في الجيش. قبل المعركة، يقف مع زملائه ويرفع يده مقسمًا: "والله لن أتخلى عن موقعي ، سأدافع عن وطني حتى آخر قطرة من دمي". الجميع يصفق له.

تبدأ المعركة، وتشتد. فجأة، يرى هذا الجندي كثرة الأعداء وشدة القتال. ينسى قسمه، ويلقي سلاحه، ويفر هاربًا، تاركًا زملائه في قلب المعركة.

بعد المعركة، يقف أمام محكمة عسكرية. يُسأل: "لماذا نقضت قسمك؟ لماذا فررت وتركت زملاءك؟". إنه مسئول عن عهده، وسينال عقابه.

هذا هو حال المنافقين يوم القيامة. سيقفون أمام محكمة الله العادلة، ويُسألون عن عهدهم الذي نقضوه: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾.
المحور السادس: النظرة الشاملة للآيات الأربع.. دروس وعبر

دعنا الآن - أيها القارئ الكريم - نستخلص الدروس الكبرى من هذه الآيات العظيمة:

1.الشدة تمحيص وتكشف الحقائق

هذه الآيات تؤكد أن أوقات الشدة هي محك الاختبار. فيها يظهر الصادق، وينكشف المنافق، ويتميز القوي من الضعيف. فلا تستغرب إذا رأيت بعض الوجوه تتغير، وبعض الألسنة تنقلب عند الشدائد.

2.خطر المنافقين يفوق خطر الأعداء

المنافقون يضربون من الداخل. هم يثيرون اليأس، ويدعون إلى الفرار، ويثبطون الهمم. خطرهم أشد من خطر جيوش الأحزاب، لأن الجيوش تُواجه بالسيوف، أما المنافقون فيواجهون بالكلمة الخبيثة التي تنخر في العظام.

3.أعذار المنافقين واهية ومكشوفة

الله فضح أعذارهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾. وهذا يعلمنا أن نكون صادقين مع أنفسنا ومع الله. لا نخادع الله بأعذار واهية، فالله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

4.نقض العهد من علامات النفاق

الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين، ونقضه من صفات المنافقين. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان". فالذي يعد الله شيئًا ثم يخلف، فيه شعبة من النفاق.

5.الاستعداد الدائم للردة عند المنافقين

الآية الرابعة عشرة تكشف حقيقة مرعبة: المنافقون جاهزون للارتداد عن الإسلام في أي لحظة، إذا وجدوا الفرصة سانحة. إنهم لا يؤمنون حقًا، بل هم في ريبة دائمة.
المحور السابع:

كيف نطبق هذه الآيات في حياتنا العملية اليوم؟

.1في أوقات الأزمات الشخصية والعامة

لا تكن مثبطًا للهمم:
إذا مرت الأمة بأزمة، أو مرت مؤسستك بمشكلة، أو مر صديقك بضائقة، لا تكن ذلك الذي يقول: "لا أمل"، "انسحبوا"، "ما وعدنا القائد إلا غرورًا". كن صوت الأمل والثبات.

لا تختلق الأعذار للتهرب:
إذا كلفت بمهمة صعبة، لا تبحث عن أعذار واهية للتهرب. واجه المسؤولية، وقل: "سأفعل ما بوسعي، والله المستعان". ولا تكن كالمنافقين الذين قالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾.

أوف بعهودك:
إذا قطعت عهدًا على نفسك (بتوبة، أو نذر، أو وعد)، فأوفِ به. ولا تكن ممن ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ ثم نقضوا.

.2في تربية الأبناء والطلاب

علمهم أن الشدة تكشف المعادن:
لا تخف عليهم من الشدائد، بل أعدهم لها. قل لهم: "ستمرون بأوقات صعبة، في الامتحانات، في العمل ، في الحياة. في هذه الأوقات، ستُعرف حقيقة إيمانكم وثباتكم".

ازرع فيهم الصدق في الاعتذار:
إذا أراد ابنك التهرب من مسؤولية، علمه أن يقول الحقيقة: "لا أستطيع"، أو "لا أريد". ولا تسمح له باختلاق الأعذار الكاذبة. قل له: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾.

علمهم قيمة العهد والوعد:
إذا وعد ابنك بشيء، ألزمه بالوفاء. إذا قال: "سأصلي في المسجد"، أو "سأذاكر ساعتين"، ذكره أن العهد مسؤولية، وأن المنافق هو من يخلف وعده.

.3في مجال القيادة والإدارة

انتبه للمثبطين في فريقك:
في أي فريق عمل، هناك منافقون (بالمعنى الإداري). هم الذين يثبطون الهمم، ويشككون في القرارات، ويبحثون عن أعذار للتهرب. اكتشفهم مبكرًا، ولا تسمح لهم بتسميم الجو العام.

لا تنخدع بالأعذار الواهية:
عندما يتقدم إليك موظف بعذر للتهرب من مهمة، تأكد من صدقه. لا تكن ساذجًا فتصدق كل ما يقال. بعض الأعذار ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾.

ذكر فريقك بالعهد والمسؤولية:
عندما تبدأ مشروعًا مع فريق، خذ منهم عهدًا بالجدية والالتزام. وذكرهم أن العهد مسؤولية أمام الله وأمام الناس.

.4في علاقتنا مع الله

جدد عهدك مع الله دائمًا:
كل يوم، جدد عهدك مع الله: "اللهم إني أعاهدك على طاعتك، والثبات على دينك، ونصرة نبيك". واحذر أن تنقض هذا العهد.

اسأل نفسك: هل أنا من الصادقين أم من المنافقين؟
في كل موقف صعب، اسأل نفسك: "هل أنا صادق في إيماني؟ هل أثبت عند الشدة؟ أم أني مثل الذين قالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾؟".

تب إلى الله من نقض العهود:

إذا وجدت أنك نقضت عهدًا مع الله (كنذر لم تفِ به، أو توبة لم تثبت عليها، أو عزم على طاعة توانيت عنها)، فتب إلى الله. فهو غفور رحيم، يقبل توبة التائبين.
خاتمة: العودة إلى العهد والثبات

أيها القارئ الكريم.. لقد طفنا معًا في رحاب أربع آيات عظيمات من كتاب الله. آيات تكشف المستور، وتظهر المخبوء، وتضع النقاط على الحروف في شأن المنافقين ومرضى القلوب.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· المنافقين يستغلون الشدائد لنشر اليأس والتشكيك في وعد الله.
· بعضهم يدعو علنًا إلى الفرار والانسحاب.
· بعضهم الآخر يختلق أعذارًا كاذبة للتهرب من المسؤولية.
· حقيقتهم أنهم جاهزون للردة عند أول فرصة.
· وقد نقضوا عهد الله الذي قطعوه على أنفسهم بالثبات.

فلنجعل هذه الآيات نبراسًا في تمييز الصادق من الكاذب، والثابت من المتزعزع. ولنكن من الذين يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق. ولنثبت عند الشدائد، مؤمنين بأن وعد الله حق، وأن النصر آتٍ لا محالة.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾

اللهم ثبتنا على عهدك، واجعلنا من الصادقين في إيمانهم، الموفين بعهودهم، الثابتين على الحق عند الشدائد.
المبحث الثاني
رحلة تدبرية في رحاب الآيتين (16-17) من سورة الأحزاب

تمهيد: من فضح النوايا إلى إبطال الحجج.. عندما يواجه المنافقون بالحقيقة المرة

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا المسار القرآني العجيب في التعامل مع الظاهرة النفاقية..

لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشاهد كشف الأقنعة وفضح النوايا. رأينا كيف أن المنافقين ومرضى القلوب قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، وكيف دعت طائفة منهم إلى الفرار: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾، وكيف استأذن فريق آخر بأعذار كاذبة: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، ثم كشف الله حقيقتهم: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

والآن.. بعد أن فضح الله حقيقة ما في قلوبهم، وبعد أن كشف زيف أعذارهم، ينتقل السياق القرآني إلى مرحلة جديدة: إبطال الفكرة ذاتها التي يقوم عليها سلوكهم.

هؤلاء المنافقون كانوا يظنون أن الفرار سينجيهم، وأن الانسحاب سيحفظ أرواحهم. ظنوا أنهم إذا تركوا الجيش المسلم وذهبوا إلى بيوتهم، فإنهم سيسلمون من الموت والقتل. هذا هو الوهم الكبير الذي دفعهم إلى التخذيل والاستئذان الكاذب.

فجاءت هاتان الآيتان الكريمتان لتنسفا هذا الوهم من أساسه. إنهما تعلنان بكل وضوح: لن ينفعكم الفرار! لن تهربوا من قدر الله. الموت آتٍ لا محالة في وقته المحدد، سواء كنتم في ساحة المعركة أو في بيوتكم. والأجل إذا حضر فلا عاصم منه، ولا ولي يدفعه، ولا نصير يمنعه.

إنها آيات تزلزل عقيدة الهاربين، وتكشف سخف منطقهم، وتضعهم أمام الحقيقة المطلقة: لا ملجأ من الله إلا إليه.

دعنا نبحر في أعماق هاتين الآيتين العظيمتين، ونستخرج كنوزهما ودررهما.
المحور الأول:
الأمر الإلهي بالرد عليهم.. ﴿قُلْ﴾

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾

تبدأ الآية بأمر مباشر من الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ﴾. هذا الأمر يحمل دلالات عظيمة:

.1مواجهة المنافقين بالحجة:
الله يأمر نبيه أن يواجههم بهذه الحقيقة، لا أن يسكت عنهم. فالسكوت عن المنافقين قد يُفهم على أنه ضعف أو إقرار لهم على منطقهم. ولكن الحق يجب أن يقال، والباطل يجب أن يُدحض، مهما كان القائل.

.2التحدي العلني:
الأمر بـ "قل" يعني أن هذا الكلام سيُقال علنًا، على مسمع من الجميع. سيعلم المؤمنون والمنافقون جميعًا هذه الحقيقة. وهذا فيه فضح إضافي للمنافقين أمام الملأ.

.3تفويض الأمر إلى الله:
النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى. هو مأمور من الله أن يقول هذا الكلام. فهو مبلغ عن ربه، وليس مسؤولا ً عن رد فعلهم.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1"لن ينفعكم":
استخدم "لن" النافية للاستقبال، وهي تفيد النفي المؤبد. المعنى: أبدًا لن ينفعكم الفرار، لا في هذه الغزوة ولا في غيرها. إنها حقيقة مطلقة لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

.2تقديم المفعول "ينفعكم":
قدم ضمير المخاطبين في الفعل: "ينفعكم"، ليواجههم بعدم النفع الخاص بهم. كأنه يقول: "أنتم بالذات - أيها المنافقون - لن ينفعكم الفرار".

.3"الفرار":
استخدم "أل" التعريف في كلمة "الفرار" ليفيد العهد الذهني. أي: هذا الفرار الذي تفكرون فيه، وتدعون إليه، وتستأذنون من أجله. هذا الفرار بعينه لن ينفعكم.

.4الشرط "إن فررتم":
هذا أسلوب تأكيد للنفي بطريقة بليغة. المعنى: حتى لو فررتم حقيقة، وخرجتم من المعركة، ونجوتم بأجسادكم، فلن ينفعكم هذا الفرار. فلماذا؟ لأن الموت قادم لا محالة في وقته المحدد.

.5"من الموت أو القتل":

· الموت: هو الأجل الطبيعي الذي ينتهي به عمر الإنسان (مرض، هرم، حادث).
· القتل: هو الموت بسبب الحرب أو الاعتداء.

والتنويع بينهما بـ "أو" يفيد شمول جميع أنواع الموت. سواء مت على فراشك (موت) أو في المعركة (قتل)، النتيجة واحدة: الموت آتٍ، والفرار لن يؤخر الأجل.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الهروب من مواجهة الخطر لا يمنع الموت. قد يؤجله، ولكن لا يلغيه. الموت حقيقة كونية لا مفر منها. فلماذا تجبن وتفر، وتخسر شرفك وآخرتك، مقابل تأجيل لحظات؟

الرسالة القلبية:
لا تخف من الموت في سبيل الحق. اعلم أن الأعمار بيد الله. لن تموت قبل أجلك، ولن تتأخر عنه لحظة. فلماذا تقدم الدنيا الفانية على الآخرة الباقية؟

الرسالة النفسية:
المنافق جبان بطبعه. يظن أن الفرار ينجيه، ولكنه في الحقيقة يخسر كل شيء. المؤمن شجاع لأنه يوقن أن الموت حق، وأن الفرار لا يؤخره. هذا اليقين يحرره من الخوف المرضي، ويمنحه قوة نفسية عظيمة.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك الشجاعة المستندة إلى الإيمان بالقدر. علمهم أن الحذر لا يمنع القدر، ولكن الفرار من الواجب لن ينفعهم. علمهم أن الموت في سبيل الله شهادة، وليس نهاية.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الطالب الذي يتهرب من الامتحان خوفًا من الفشل

تخيل طالبًا يخاف من الامتحان النهائي. يقول: "سأغيب، سأقدم عذرًا طبيًا، سأهرب من الامتحان". هو يظن أن هذا التهرب سينجيه من الفشل. ولكن ما النتيجة؟

· سيؤجل الامتحان إلى وقت لاحق.
· سيواجه الامتحان في النهاية.
· بل ربما يكون أكثر صعوبة لأنه لم يستعد جيدًا.

هذا هو حال المنافق الذي يفر من القتال. يظن أنه ينجو من الموت، ولكن الموت سينتظره في مكان آخر، في زمان آخر. بل سيموت خاسرًا شرف الجهاد، ومحرومًا من أجر الشهادة.
المحور الثاني:
متعة قليلة.. ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

المعنى العميق

بعد أن أثبت الله أن الفرار لن ينفع في دفع الموت، ينتقل إلى نتيجة أخرى: ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

· "إذًا": حرف جواب وجزاء. أي: إذا فررتم ونجوتم بأجسادكم، فإن النتيجة ستكون كذا.
· "لا تمتعون": لا تنتفعون بالحياة، ولا تستمتعون بها.
· "إلا قليلا ً": إلا مدة يسيرة، ثم يأتيكم الموت حتمًا.

ما هي هذه المتعة القليلة؟

إنها الحياة الدنيا التي هربوا من الموت من أجلها. سيعيشون بعد فرارهم أيامًا أو شهورًا أو سنوات قليلة، يتمتعون فيها بملذات الدنيا الزائلة. ثم يأتي الموت فجأة، وتنتهي المتعة، ويبدأ الحساب.

فهل تستحق هذه المتعة القليلة أن يخسر الإنسان آخرته، وشرفه، وكرامته، ورضوان الله؟

إنها صفقة خاسرة بكل المقاييس! كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: 77].

اللمسات البيانية والبلاغية

.1"إذًا":
هذه الكلمة تلخص جواب الشرط. كأنه يقول: حينئذٍ، وفي تلك الحال، لا تمتعون إلا قليلا ً. إنها تربط نتيجة الفرار بـ سببها بطريقة موجزة بليغة.

.2النفي بـ "لا":
"لا" النافية للاستقبال. والمعنى: لن تمتعوا في المستقبل بعد الفرار إلا قليلا ً.

.3الاستثناء بـ "إلا قليلا ً":
هذا استثناء مفرغ يفيد الحصر. المتعة محصورة في القليل فقط. ووصف القلة بـ "قليلا ً" (نكرة) يفيد تحقير هذه المتعة وتهوين شأنها.

.4بناء الفعل للمجهول "تمتعون":
لم يسم الفاعل. المتعة ستأتيهم من حيث لا يشعرون، ومن حيث لا يختارون. ولكنها في النهاية متعة زائلة.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
انظر إلى المآل لا إلى الحال. قد يبدو الفرار مريحًا في اللحظة الحاضرة. لكن انظر إلى النهاية: متعة قليلة، ثم موت، ثم حساب عسير. العاقل من يختار الباقي على الفاني.

الرسالة القلبية:
لا تبع آخرتك بدنياك. قد تعرض عليك صفقة: "تنازل عن مبدأ، عن واجب، عن حق، واربح متاعًا قليلا ". تذكر أن ما عند الله خير وأبقى. المتعة الحقيقية هي في رضوان الله وجنته.

الرسالة النفسية:
المنافق يعيش صراعًا نفسيًا بين حب الدنيا والخوف من الموت. المؤمن يعيش طمأنينة لأنه رضي ب الله ووثق بوعده. اختر الطمأنينة على الصراع.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك طول النظر. علمهم أن اللذة العاجلة قد تعقبها ندامة آجلة. وعلمهم أن الصبر على الطاعة يتبعه فرح دائم.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة التاجر الذي يغش ليربح سريعًا

تخيل تاجرًا يبيع سلعة. يغش في الميزان أو في جودة البضاعة. يربح في البداية مبلغًا كبيرًا (متعة قليلة). لكن بعد فترة، ينكشف غشه، فيخسر سمعته، ويفقد زبائنه، وربما يعاقب قانونيًا. لقد استمتع قليلا ً، ثم جاءت العاقبة الوخيمة.

هذا هو حال المنافق الذي يفر من القتال. يستمتع بأيام معدودة في بيته، ثم يأتيه الموت، ثم يلقى العذاب الأليم في الآخرة. فهل يستحق؟
المحور الثالث:
التحدي الإلهي.. ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾

﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾

والآن نصل إلى ذروة الحجة، وسؤال التحدي الذي يخرس الألسنة، ويشل الأفكار. يأمر الله نبيه أن يوجه إلى المنافقين هذا الاستفهام الإنكاري الذي لا جواب له إلا الاعتراف بالعجز:

"من ذا الذي يمنعكم ويحميكم من الله إن أراد بكم سوءًا؟"

تفكيك السؤال البلاغي العظيم

1."من ذا الذي":

· "من": استفهام عن الفاعل.
· "ذا": اسم إشارة للتنبيه والتعظيم.
· "الذي": اسم موصول للتعريف.

اجتمعت ثلاث أدوات في كلمة واحدة تقريبًا، لتفيد التحدي والاستبعاد. كأنه يقول: "أي أحد هذا الذي يزعم أنه يستطيع أن يعصمكم؟ هاتوه! أظهروه! لا يوجد!".

2."يعصمكم":
العصمة هي الحفظ والمنع والدفع. والمعنى: من الذي يحفظكم ويمنعكم من بأس الله؟ هل لديكم حارس، حام، قوة تستطيع أن تصد قضاء الله؟

3."من الله":
أي: من عقابه، من قضائه، من قدره. فالله إذا أراد شيئًا، فلا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

.4"إن أراد بكم سوءًا":

· السوء: هنا بمعنى العذاب والهلاك والعقاب. فـالله إذا أراد أن يعذبكم بذنوبكم، أو يهلككم في الدنيا قبل الآخرة، فمن يمنعه؟

.5"أو أراد بكم رحمة":
هنا تتمة عجيبة للسؤال! لم يكتفِ بذكر السوء، بل أضاف الرحمة: "أو أراد بكم رحمة". والمعنى: من ذا الذي يستطيع أن يمنع رحمة الله عنكم إن أرادها لكم؟ من ذا الذي يقف في وجه إرادة الله الرحيمة؟

لماذا ذكر "الرحمة" مع "السوء" في هذا السياق؟

هذا من روائع البلاغة القرآنية التي تذهل العقول:

· إثبات أن الأمر كله بيد الله: ليس فقط العذاب، بل الرحمة أيضًا. فلا أحد يملك دفع الضر، ولا أحد يملك جلب النفع إلا الله.
· تحذيرهم من اليأس من رحمة الله: حتى في هذا الموقف الذي يهددهم فيه، يفتح لهم باب الرجاء. كأنه يقول: "أنتم خائفون من السوء، هاربون منه. ولكن تذكروا أن الرحمة أيضًا بيد الله. فبدلا ً من أن تفروا من قدره، توبوا إليه تستحقوا رحمته".
· قطع الطريق على أي ادعاء بالقوة المستقلة: لا أنتم ولا غيركم قادرون على دفع ضر أو جلب نفع. الكل مفتقر إلى الله.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1الاستفهام الإنكاري:
السؤال هنا ليس للاستعلام، بل هو للإنكار والتحدي. الجواب المضمن هو: "لا أحد!". وهذا الأسلوب يقرع الأسماع، ويوقظ العقول، ويبكت الخصم.

.2تقديم "السوء" على "الرحمة":
السياق هو سياق تهديد للمنافقين الفارين. فكان المناسب تقديم ما يخافونه (السوء) على ما يرجونه (الرحمة). ومع ذلك، لم يخلهم من التذكير بالرحمة لعلهم يتوبون.

.3استخدام "أراد" في الموضعين:
الإرادة الإلهية هي السبب الأول لكل ما يقع. فـالله إذا أراد شيئًا، كان. وهذا يقرر عقيدة القضاء و القدر التي تمنح المؤمن الطمأنينة.

.4التنكير في "سوءًا" و"رحمة":
نكر الكلمتين ليفيد العموم والشمول. أي: أي نوع من السوء، وأي نوع من الرحمة. فالأمر مطلق بيد الله.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
لا تظن أن هناك قوة في الكون تستطيع أن تحميك من الله. لا مال، ولا جاه، ولا حصون، ولا جيوش. كل القوى دون قوة الله لا شيء. فلماذا تتوكل على غير الله؟

الرسالة القلبية:
ألقِ خوفك ورجاءك على الله وحده. لا تخف من أحد كما تخاف من الله. ولا ترجُ أحدًا كما ترجو الله. فهو وحده الذي يملك السوء والرحمة.

الرسالة النفسية:
المنافق يخاف من الموت في المعركة، ويظن أن الفرار يعصمه. لكن الآية تذكره أن العاصم الحقيقي هو الله. فإذا أراد الله به سوءًا في بيته، فلن يمنعه أحد. هذا يحرره من وهم الأسباب، ويدفعه إلى التوكل على مسبب الأسباب.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك عقيدة التوكل على الله. علمهم أن يأخذوا بالأسباب، ولكن لا يعتمدوا عليها. قل لهم: "إذا أردت النجاح، فذاكر (وهذا سبب). ولكن لا تظن أن المذاكرة تعصمك من الفشل. المعصم هو الله".

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الرجل الذي يظن أن ماله يحميه من المرض

تخيل رجلا ً ثريًا جدًا. يقول في نفسه: "أنا أملك المال، أملك أفضل الأطباء، أملك أفضل المستشفيات. أنا في عصمة من المرض!". ثم فجأة، يصاب بمرض عضال لا ينفع معه مال ولا طبيب.

عندها يدرك حقيقة الآية: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾. لا أحد! لا مال، ولا طب، ولا أي قوة بشرية تستطيع أن تمنع قدر الله.

هذا هو حال المنافقين الذين يظنون أن الفرار إلى بيوتهم سيعصمهم من الموت. لو أراد الله بهم الموت في بيوتهم، فمن ذا الذي يعصمهم؟
المحور الرابع:
لا ولي ولا نصير من دون الله

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

المعنى الإجمالي

هذه الجملة تكمل الصورة وتضع النقطة الأخيرة في إبطال حجج المنافقين. بعد أن أثبت أن لا عاصم من الله، يثبت أن لا بديل عن الله. لن يجد هؤلاء المنافقون الفارون من دون الله (أي: من غيره) وليًا يتولى أمورهم وينصرهم، ولا نصيرًا يدفع عنهم العذاب.

· ولي: هو القريب الحميم الذي يتولى أمورك ويدافع عنك.
· نصير: هو المعين الظهير الذي ينصرك عند الشدة.

وقد نفى الله كليهما. فلا قريب يحمي، ولا معين ينصر. هم مفلسون من كل شيء عندما يتعلق الأمر بقضاء الله.

اللمسات البيانية والبلاغية

.1الفعل المضارع "يجدون":
استخدم المضارع "يجدون" ليفيد التجدد والاستمرار. هم أبدًا لن يجدوا وليًا ولا نصيرًا. لا في الحال، ولا في المآل. في الدنيا، سيكونون أذلة بعد فرارهم. وفي الآخرة، سيكونون أشد ذلا ً.

.2"من دون الله":
أي: من غيره، من سواه. وهذا يفيد أن كل ما سوى الله لا يملك ولاية ولا نصرة حقيقية.

.3تنكير "وليًا" و"نصيرًا":
نكر الكلمتين ليفيد النفي المطلق. لا ولي أيًا كان، ولا نصير أيًا كان. لا قليل ولا كثير، لا ضعيف ولا قوي.

.4العطف بـ "لا" الثانية:
قال: ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ فأعاد "لا" لتأكيد النفي واستقلال كل منفي. هم لا يجدون وليًا، ولا يجدون نصيرًا أيضًا.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
لا تركن إلى العلاقات والمعارف لتنجيك من قدر الله. قد يكون لك أصدقاء أقوياء، وقد تكون ذا جاه وسلطان. ولكن لا ولي ولا نصير يوم يأتي قضاء الله. فاجعل ولاءك الأول لله.

الرسالة القلبية:
تعلق قلبك بالله وحده. هو الولي الحقيقي، وهو النصير الذي لا يغلب. كل من سواه عاجز ضعيف. فلا تجعل قلبك يتعلق بغيره.

الرسالة النفسية:
المنافق يعيش في قلق دائم، لأنه يعتمد على أولياء من البشر قد يخذلونه. المؤمن يعيش في سكينة، لأنه يعتمد على الله الذي لا يخذل من توكل عليه.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك أن العزة لله جميعًا. لا تطلب العزة من المخلوقين، ولا تذل لأحد. الله هو الولي وهو النصير. من كان الله وليه، فلا خوف عليه.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة المسؤول الذي يعتمد على "واسطته"

تخيل مسؤولًا فاسدًا، يرتكب المخالفات، ويعتمد على "واسطة" قوية (ولي ونصير) يحميه من العقاب. يقول في نفسه: "فلان يحميني، لن يصلوا إليّ". ثم فجأة، تتبدل الأحوال، وتنكشف الحقائق، ويُعاقب، ولا تنفعه واسطته.

هذا هو حال المنافقين. يظنون أن الفرار والاختباء والعلاقات ستعصمهم من بأس الله. ولكنهم لن يجدوا من دون الله وليًا ولا نصيرًا.
المحور الخامس:
النظرة الشاملة للآيتين.. دروس وعبر

.1وهم النجاة بالفرار

الآيتان تنسفان أكبر وهم يعيشه الجبان والمنافق: أن الفرار ينجي من الموت. الحقيقة التي يقررها القرآن هي: الفرار لا يقدم ولا يؤخر. الأجل محدد، والموت آتٍ، سواء في ساحة المعركة أو على فراش البيت.

.2حقارة الدنيا أمام الآخرة

الدنيا متاع قليل، والآخرة خير وأبقى. المنافق يبيع آخرته الباقية بدنيا فانية، وهذه خسارة عظمى. المؤمن يبيع دنياه الفانية بآخرة باقية، وهذا هو الربح العظيم.

.3التوكل على الله وحده

لا عاصم من أمر الله، ولا ولي ولا نصير من دونه. هذه العقيدة تحرر المؤمن من الخوف من المخلوقين، وتجعله يواجه الحياة بشجاعة، لأنه يعلم أن الأمر كله بيد الله.

.4فتح باب الرجاء حتى في مواضع التهديد

ذكر "الرحمة" مع "السوء" يعلمنا أن لا نيأس من رحمة الله مهما كانت ذنوبنا. باب التوبة مفتوح دائمًا.
المحور السادس:
كيف نطبق هاتين الآيتين في حياتنا العملية اليوم؟

.1في مواجهة المخاوف

لا تتهرب من الواجب خوفًا من العواقب:
إذا كنت تخاف من قول الحق، أو من القيام بمسؤولية، أو من مواجهة ظالم، فذكر نفسك: ﴿لَن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾. الهروب لن ينفعك. الموت آتٍ. فلماذا تموت جبانًا خاسرًا، ولا تموت شهيدًا صادقًا؟

واجه المخاطر بثقة في الله:
قل لنفسك: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51]. لن يصيبك إلا ما قدره الله. فلماذا الخوف

؟

.2في زمن الفتن والضغوط

لا تستسلم لدعوات التخذيل والهزيمة:
عندما تسمع من يقول: "انسحبوا، لا فائدة، دعكم من هذا المشروع، دعكم من هذه الدعوة، حافظوا على أنفسكم"، فتذكر: هذه لغة المنافقين. واجههم بقول الله: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾.

ثبت قلبك بالتوكل على الله:
قل: "اللهم أنت الولي، وأنت النصير. لا عاصم منك إلا أنت. أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان".

.3في التربية والبناء

علم أبناءك الشجاعة لا التهور:
الشجاعة ليست عدم الخوف، بل هي مواجهة الخوف بعقيدة صحيحة. علمهم أن الموت حق، وأن الفرار لا يؤخره. هذا يجعلهم شجعانًا في مواجهة مصاعب الحياة (امتحانات، أمراض، ظلم).

علمهم أن الدنيا متاع قليل:
لا تجعل الدنيا أكبر همهم. ذكرهم دائمًا أن ما عند الله خير وأبقى. هذا يجعلهم يتحملون المتاعب بصبر، ويضحون بالراحة العاجلة لأجل النجاح الدائم.

.4في علاقتنا مع الله

جدد توكلك على الله كل يوم:
كل صباح، قل: "اللهم إني توكلت عليك، وأنت الولي والنصير. لا عاصم منك إلا أنت. أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك".

لا تيأس من رحمة الله:
إذا وقعت في ذنب، أو فررت من واجب في الماضي، فلا تقنط. تذكر أن الرحمة بيد الله. تب إليه، وعد إلى الصواب. فالله غفور رحيم.
خاتمة: العودة إلى الحقيقة الواحدة

أيها القارئ الكريم.. لقد طفنا معًا في رحاب آيتين عظيمتين من كتاب الله. آيتين تزلزلان وهم النجاة بالفرار، وتقرران عقيدة التوكل على الواحد القهار.

لقد علمتنا هاتان الآيتان أن:

· الفرار لن ينفع، لأن الأجل محدود، والموت آتٍ لا محالة.
· متعة الدنيا قليلة، فليس من الحكمة أن نضحي بالآخرة الباقية من أجل الدنيا الفانية.
· لا عاصم من أمر الله، ولا ولي ولا نصير من دونه. فمن يتوكل على غيره فهو خاسر.
· الرحمة بيد الله كما أن السوء بيده، فلا نيأس من رحمته مهما فرطنا.

فلنجعل هاتين الآيتين نبراسًا في حياتنا اليومية، نستمد منهما الشجاعة في مواجهة التحديات، و اليقين في زمن الشكوك، والثبات عند الفتن.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.
المبحث الثالث
رحلة تدبرية في رحاب الآيات (18-20) من سورة الأحزاب

تمهيد: من الفرار إلى التثبيط.. طبقات المنافقين في ساحة المعركة

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا المسار القرآني الدقيق في تشريح أمراض النفاق..

لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشاهد متعددة من فضح المنافقين ومرضى القلوب في غزوة الأحزاب. رأينا طائفة تشكك في وعد الله: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، وطائفة تدعو إلى الفرار: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾، وفريق يستأذن بأعذار كاذبة: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾. ثم جاء الرد الإلهي الماحق: ﴿لَن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾، و﴿مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ﴾.

والآن.. ينتقل بنا القرآن الكريم إلى طبقة أخرى من المنافقين، وأخطرها أثرًا في الجبهة الداخلية. إنهم ليسوا مجرد هاربين أو مستأذنين، بل هم معوقون مثبطون. هم الذين يجلسون في الصفوف الخلفية، ويمارسون حربًا نفسية منظمة ضد المؤمنين: يثبطون العزائم، ويدعون إلى التراجع، ويصورون المعركة وكأنها هزيمة محققة، ثم هم - مع ذلك - يبخلون بأي جهد حتى القليل.

ثم يصور القرآن حالتهم النفسية في مشهد من أروع ما خطت يد الوحي: في ساعة الخوف تدور أعينهم كالمغمى عليه من الموت، وفي ساعة الأمن يسلقون المؤمنين بألسنة حداد. جبناء في الميدان، أشداء في الكلام!

إنها آيات تكشف أخطر أنواع النفاق: النفاق الذي لا يكتفي بالجبن الفردي، بل يسعى لنشر العدوى، وتسميم الأجواء، وتحطيم الروح المعنوية. إنها تقدم لنا صورة بانورامية لنفسية المثبطين، وتحذر المؤمنين من خطرهم، وتعلن حكم الله فيهم: إحباط الأعمال والخذلان الأبدي.

دعنا نعيش معًا هذه المشاهد الحية، ونستخرج دررها وعبرها.

المحور الأول: كشف المعوقين والقائلين "هلم إلينا"

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

المعنى الإجمالي للآية

يبدأ الله هذه الآية بـ ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ بصيغة التحقيق والتأكيد. إنه يعلم - سبحانه - علمًا تامًا محيطًا بهؤلاء المعوقين الذين يثبطون الناس عن الجهاد، والقائلين لإخوانهم في النسب أو في الظاهر: "هلم إلينا" أي: تعالوا إلينا، اتركوا القتال، فالموت محقق، والبأس شديد.

ثم يصفهم بصفة ملازمة لهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. أي: لا يحضرون القتال ولا يواجهون الشدة إلا حضورًا قليلا ً، إما في الزمن (لا يثبتون طويلا ً)، وإما في الكيفية (بغير نية صادقة)، وإما في العدد (لا يخرج منهم إلا النادر رياءً وسمعة).

من هم "المعوقون"؟

المعوق: من العوق وهو الصرف والمنع. المعوقون هم الذين:

- يثبطون الهمم: يحاولون إقناع المؤمنين بأن المعركة خاسرة، وأن لا فائدة من القتال.
- يصرفون الناس عن الجهاد: بأساليب ملتوية، وتخويف من العواقب، وإغراء بالبقاء.
- يجلسون هم أنفسهم: فلا يخرجون للقتال، ثم يريدون من الآخرين أن يجلسوا مثلهم!

هؤلاء أخطر من الجبناء الفارين. لأن الجبان يضر نفسه فقط، أما المعوق فيضر الأمة كلها بنشر روح ا لانهزام.

"هلم إلينا": دعوة صريحة إلى الفرار

- "هلم": اسم فعل أمر بمعنى "تعال" أو "أقبل". وهي كلمة جامعة تدل على الدعوة العاجلة إلى ترك المهمة والانضمام إلى صفوف المتخاذلين.
- "إلينا": أي إلى مكانهم، إلى حالهم من القعود والتخاذل.

ووصفهم للمؤمنين بأنهم "إخوانهم" فيه خداع وتظاهر بالنصح. كأنهم يقولون: "نحن إخوانكم، ننصحكم لمصلحتكم، تعالوا إلينا ننجو معًا". وهذا من دهاء المنافقين في تزيين الباطل بغلاف النصح والشفقة.

"ولا يأتون البأس إلا قليلا ً": البخل بالجهد

· البأس: الشدة، وغلب إطلاقه على القتال والحرب.
· إلا قليلا ً: استثناء منفي يفيد الحصر. هم لا يأتون البأس في أي حال إلا حالا ً قليلة: قلة في الزمن، أو قلة في العدد، أو قلة في النية والإخلاص.

هؤلاء يبخلون بأنفسهم وأموالهم وجهدهم. هم في الصفوف الخلفية دائمًا، لا يتقدمون الصفوف، ولا يثبتون إذا اشتدت المعركة.

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

1. "قد" للتحقيق:
"قد" إذا دخلت على الفعل المضارع "يعلم" أفادت التأكيد والتحقيق. فاللّٰه حقًا يعلمهم، وقطعًا مطلع عليهم. هذا تهديد لهم بأنه لا تخفى عليه خافية من أمرهم.

2. تعريف "المعوقين" و"القائلين":
دخلت "أل" على الاسمين لتفيد العهد. أي: هؤلاء المعوقون المعهودون في غزوة الأحزاب. وقد يراد بها الجنس ليشمل كل من اتصف بهذه الصفة في كل زمان.

3. الجمع بين "المعوقين" و"القائلين":
الجمع بينهما بـ الواو يفيد أنهم صنفان قد يكونان متداخلين:

· المعوقون بالفعل: الذين يثبطون الناس بأي وسيلة.
· القائلون باللسان: الذين يصرحون بدعوة الفرار.

4. "إخوانهم":
استخدام كلمة "إخوانهم" على سبيل الاستعارة التهكمية. هم ليسوا إخوانهم في الدين ولا في النسب الحقيقي (بالنسبة لبعضهم)، ولكنهم يظهرون الأخوة خداعًا.

5. "هلم":
هذه الكلمة من أسماء الأفعال، وهي تدل على الأمر العاجل. وفيها جفاء وغلظة، لأنهم يأمرون ولا يستأذنون. كأنهم يقولون: "تعالوا فورًا، لا تترددوا!".

6. "ولا يأتون البأس إلا قليلا ً":
استثناء القلة من النفي العام يفيد ذمهم على تقصيرهم. فهم مقصرون حتى في القليل الذي يأتونه، لأ نه غير مخلص، وغير نافع.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
انتبه إلى المثبطين في مجتمعك! هم الذين يقتلون الهمم، ويثبطون العزائم، ويدعون إلى الركون إلى ا لأرض. هؤلاء معوقون، وخطرهم على الأمة عظيم. تعلم أن تميز كلامهم، ولا تسمح لهم بالتأثير عليك.

الرسالة القلبية:
لا تكن معوقًا لإخوانك. إذا رأيت أحدًا يريد الخير، شجعه وادعمه، ولا تثبطه. وإذا رأيت مجتمعك في أزمة، كن صوت الأمل والبناء، لا صوت اليأس والهدم.

الرسالة النفسية:
المعوق جبان وحسود. هو لا يريد الخير لنفسه (لا يجاهد)، ولا يريده لغيره (يثبطهم عن الجهاد). هذه نفس مريضة. فأصلح نفسك، واجعل همتك عالية في الخير، وادعُ غيرك إليه.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك الهمة العالية وروح المبادرة. علمهم ألا يكونوا من الذين يثبطون الهمم، بل من الذين يبنونها. وإذا رأوا زميلا ً لهم يريد النجاح، فليشجعوه، لا أن يثبطوه.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الموظف المثبط في فريق العمل

تخيل فريق عمل مكلف بمشروع صعب يتطلب جهدًا إضافيًا. أحد أعضاء الفريق يجلس في زاوية ويقول لزملائه: "لماذا تتعبون أنفسكم؟ هذا المشروع فاشل لا محالة. تعالوا نستريح، المهم أن نأخذ رواتبنا في آخر الشهر". هو لا يعمل، ويحاول أن يمنع الآخرين من العمل.

هذا هو المعوق. ضرره مضاعف: يضر نفسه بالكسل، ويضر الفريق بالتثبيط. المدير الناجح هو من يكشف هؤلاء المعوقين ويبعدهم عن الفريق قبل أن ينشروا سمومهم.
المحور الثاني: وصف حالهم بين الخوف والأمن.. مشهد نفسي بديع

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾

والآن نصل إلى أحد أروع المشاهد النفسية في القرآن الكريم. إنه تشريح دقيق لنفسية المنافقين في لحظات الخطر ولحظات الأمن.

أولا ً: صفة ملازمة لهم.. ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾

"أشحة" جمع شحيح. والشح هو البخل مع الحرص. والمعنى: هم بخلاء عليكم بكل خير:

· بخلاء بأموالهم: لا ينفقون في سبيل الله.
· بخلاء بأنفسهم: لا يجاهدون معكم.
· بخلاء بمشاعرهم: لا يحبون لكم الخير.
· بخلاء بوقتهم وجهدهم: لا يعاونونكم في الشدائد.

وهذه الصفة لازمة لهم في كل أحوالهم، في الخوف وفي الأمن.

ثانيًا: حالهم عند الخوف.. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾

الخوف: هو شدة الفزع عند لقاء العدو. والمقصود هنا: ساعة القتال حين يلتحم الصفان.

في هذه اللحظة، ماذا يفعل هؤلاء المنافقون؟

﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾.

تأمل هذه الصورة الحية:

· ينظرون إليك: يوجهون أبصارهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم (أو إلى القائد)، ولكن نظراتهم ليست نظرات ثبات واستنجاد، بل نظرات رعب وجبن.
· تدور أعينهم: العين لا تستقر في موضع، بل تتقلب يمينًا وشمالا ً في حيرة وذهول، تنظر إلى أي مخرج للفرار. إنها نظرات الخائف المذعور الذي فقد السيطرة على نفسه.
· كالذي يغشى عليه من الموت: هم في حال من الرعب الشديد كالمحتضر الذي يشهد سكرات الموت، تدور عيناه وتشخصان، ويذهب وعيه!

سبحان الله! هذا الوصف القرآني يطابق تمامًا ما يعرفه الطب الحديث عن نوبات الهلع والخوف الشديد، حيث يفقد الإنسان السيطرة على عضلاته، وتتسع حدقتا عينيه، وتضطرب حركاته.

ثالثًا: حالهم عند ذهاب الخوف.. ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾

فإذا انتهت المعركة، وزال الخطر، واطمأنت النفوس، انقلب هؤلاء الجبناء إلى أشداء في الكلام!

· "سلقوكم": من السلق وهو الطعن أو الإيلام باللسان. والمعنى: آذوكم بألسنتهم، ورموكم بالكلام الجارح ، وادعوا الشجاعة والبسالة بعد فوات الأوان!
· "بألسنة حداد": "حداد" جمع حديد، أي حادة قاطعة. كناية عن شدة كلامهم وقسوته.

هذا هو دأب الجبناء: في ساعة الخطر خرس لا ينطقون إلا بالتخذيل، وفي ساعة الأمن يطنطنون كـ الذباب، ويدعون أنهم كانوا أبطالا ً لولا كذا وكذا!

رابعًا: بخلهم بالخير.. ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾

كرر وصفهم بـ "أشحة" مرة أخرى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾.

· "الخير": هو المال أو الغنيمة أو كل ما ينفع المؤمنين.
· هم بخلاء حتى في توزيع الغنائم، أو في الثناء على المجاهدين، أو في أي خير يعود على المؤمنين.

في وقت الخوف، هم أشحة على المؤمنين بأنفسهم وجهدهم. وفي وقت الأمن، هم أشحة على الخير الذي أفاء الله على المؤمنين، فيحسدونهم عليه، ويودون لو حرموا منه.

خامسًا: الحكم الإلهي الفاصل.. ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

بعد هذا الوصف الدقيق، يصدر الله حكمه العادل فيهم:

· "أولئك لم يؤمنوا": هؤلاء ليسوا مؤمنين أصلا ً! إيمانهم ظاهري فقط، وقلوبهم خالية من الإيمان الحقيقي. والدليل: الجبن الشديد عند الخوف، والتثبيط، والبخل، والطعن في المؤمنين بعد الأمن. هذه كلها علامات النفاق، وليست من صفات المؤمنين.
· "فأحبط الله أعمالهم": أبطلها وجعلها هباءً منثورًا. حتى ما يظهرونه من أعمال صالحة (صلاة، صدقة، قتال قليل) لا قيمة لها عند الله، لأنها غير مقبولة بدون إيمان.
· "وكان ذلك على الله يسيرًا": إحباط أعمالهم سهل يسير على الله. فهو لا يعجزه شيء. وفيه وعيد لهم بأن عقابهم آتٍ لا محالة، وهو هين على الله.

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

1. "أشحة" حال منصوبة:
جاءت "أشحة" حالا ً من فاعل "يأتون" في الآية السابقة. فهي تصف هيئتهم الدائمة. هم دائمًا أشحة ، في كل أحوالهم.

2. الفاء في "فإذا جاء الخوف":
الفاء للترتيب والتعقيب. والمعنى: فحينئذٍ، إذا فاجأهم الخوف، رأيتهم على تلك الحالة المزرية.

3. "تدور أعينهم":
جملة "تدور أعينهم" حال من فاعل "ينظرون". فهي تصف كيفية نظرهم. نظرهم مصحوب بدوران الأ عين.

4. التشبيه البليغ "كالذي يغشى عليه من الموت":
هذا التشبيه يرسم صورة مرئية في ذهن السامع. كأنك ترى المحتضر في سكرات الموت. إنه تشبيه يهينهم ويظهر شدة جبنهم.

5. المقابلة بين حال الخوف وحال الأمن:

· في الخوف: جبناء تدور أعينهم.
· في الأمن: أشداء بألسنتهم.
وهذا من بديع التصوير الذي يظهر تناقض شخصياتهم.

6. "سلقوكم":
استخدام فعل "سلق" الذي يفيد الإيلام والشدة. لم يقل "تكلموا" أو "قالوا"، بل قال "سلقوكم" ليصور أذى اللسان الذي هو أشد من أذى السيف أحيانًا.

7. "بألسنة حداد":
وصف الألسنة بأنها "حداد" استعارة مكنية. شبه اللسان بالسيف الحاد في إيلامه وقطعه.

8. تكرار "أشحة":
تكرار هذه الكلمة في الآية يؤكد أن البخل سجية فيهم، في الخوف والأمن، في الدماء والأموال.

9. اسم الإشارة "أولئك":
استخدام "أولئك" للبعيد يفيد بعدهم عن الإيمان وعن رحمة الله.

10. "يسيرًا":
ختام الآية بهذه الكلمة يصور قدرة الله المطلقة. إحباط أعمالهم، وعذابهم، كله هين عليه سبحانه.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
انظر إلى علامات المنافقين التي ذكرتها الآية: البخل، الجبن عند الشدة، كثرة الكلام عند الأمن، أذى اللسان. هذه العلامات موجودة في كل زمان. تعرف عليها، واحذر أن تتصف بها.

الرسالة القلبية:
إياك أن تكون جريئًا في الكلام جبانًا في الفعال. هذه صفة المنافقين. كن ثابتًا في الشدائد، معتدلا ً في الرخاء. لا تكن ممن يسلق الناس بألسنة حداد بعد زوال الخطر.

الرسالة النفسية:
المنافق يعيش ازدواجية نفسية قاتلة. في الخوف: رعب وانهيار. في الأمن: غرور وعدوان. هذه الا زدواجية تمزقه من الداخل. المؤمن ثابت الشخصية في كل الأحوال، مطمئن القلب، متوازن الانفعالات.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك الشجاعة الحقيقية التي تظهر في المواقف الصعبة، لا الشجاعة الكاذبة التي تظهر بـ اللسان فقط. علمهم أن يوازنوا بين القول والفعل، وألا يكونوا كالمنافقين الذين ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ بعد المعركة.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الزميل الذي ينتقد بعد انتهاء الأزمة

تخيل أن فريقًا في شركة واجه أزمة مالية خانقة، وعمل بعض الأعضاء بجد لإنقاذ الموقف. خلال الأ زمة، كان أحد الزملاء صامتًا مرتجفًا، لا يقدم أي حل، بل كان يهمس في الأركان: "الشركة مفلسة، لا أمل". ثم بعد أن نجح الفريق في تجاوز الأزمة، انقلب هذا الزميل إلى ناقد لاذع! قال: "كان يجب أن تفعلوا كذا وكذا. أنا كنت أعرف الحل من البداية، لكنكم لم تستشيروني!".

هذا هو المنافق الذي وصفته الآية: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ... فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.
المحور الثالث: خوفهم الدائم من الأحزاب.. ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾

المعنى الإجمالي للآية

هذه الآية تكمل وصف الحالة النفسية لهؤلاء المنافقين، وتصور مدى الخوف المزمن الذي يعيشون فيه.

﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾: من شدة خوفهم ورعبهم، يظنون أن جيوش الأحزاب لا تزال محيطة بالمدينة، حتى بعد أن هزمهم الله بالريح والملائكة! إنهم لا يصدقون أن الخطر قد زال، لأن الخوف قد تمكن من قلوبهم تمامًا.

﴿وَإِن يَأتِ الأَحْزَابُ﴾: وإن عادت الأحزاب مرة أخرى، أو جاءت جيوش أخرى مثلهم.

﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾: يتمنون بشدة لو أنهم في البادية، بعيدين عن المدينة، مع الأعراب البدو الرحل، لا علاقة لهم بالمسلمين ولا بحروبهم.

﴿يَسأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾: هم في البادية، بعيدون كل البعد، لكنهم يسألون القادمين من المدينة: "ماذا حدث للمسلمين؟ هل هُزموا؟ هل قُتل محمد؟". إنهم لا يريدون أن يشاركوا في القتال، بل يريدون فقط الأخبار من بعيد، ليشمتوا أو ليطمئنوا على أنفسهم.

﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾: وحتى لو فرضنا أنهم بقوا فيكم، وحضروا المعركة، فإنهم لن يقاتلوا إلا قتالا ً قليلا ً غير نافع: قتال رياء وسمعة، لا إيمان ولا إخلاص. أو قتالا ً قصير الزمن، سرعان ما يفرون بعده.

اللمسات البيانية والبلاغية

1. الفعل المضارع "يحسبون":
استخدام المضارع يدل على استمرار هذا الظن وتجدده. فهم دائمًا في حالة ظن وخوف من الأحزاب، حتى بعد رحيلهم.

2. "الأحزاب" بالتعريف:
أدخل "أل" على الأحزاب ليفيد العهد. هم أحزاب هذه الغزوة المعروفون: قريش وغطفان وبنو قريظة.

3. "لم يذهبوا":
نفي الذهاب بـ "لم" الجازمة يفيد استمرار النفي في الماضي. هم يظنون أن الأحزاب ما زالوا هنا، لم يبرحوا المكان.

4. الشرط "وإن يأت الأحزاب":
"إن" للشرط المحتمل. والمعنى: إن حدث وعاد الأحزاب في المستقبل.

5. "يودوا":
"يودوا" بمعنى يتمنوا. والتمني هو طلب ما لا يرجى حصوله أو ما هو بعيد المنال. فهم يتمنون المستحيل: أن يكونوا في البادية وليسوا في المدينة.

6. "لو أنهم بادون":
"لو" للمصدرية، تفيد التمني. و"بادون" جمع بادٍ، وهو ساكن البادية. وهم يتمنون حالة البدو بما فيها من خشونة وبعد عن الحضارة، فقط لينجوا من القتال!

7. "في الأعراب":
"الأعراب" هم سكان البادية من العرب. ووصفهم بالبداوة يفيد شدة بعدهم عن المدينة وأهلها.

8. "يسألون عن أنبائكم":
جملة حالية تفيد هيئتهم وهم في البادية. هم بعيدون، لكنهم متلهفون للأخبار، ليس حبًا فيكم، بل خوفًا على أنفسهم وشماتة محتملة.

9. "ولو كانوا فيكم":
"لو" امتناعية. والمعنى: هم لم يكونوا فيكم (لأنهم فروا أو تخلفوا)، ولكن على سبيل الفرض، لو كانوا فيكم، فماذا سيفعلون؟

10. "ما قاتلوا إلا قليلا ً":
استثناء القلة من النفي العام. وهذا مثل قوله في الآية الأولى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. إنها تأكيد على جبنهم وعدم جدواهم في القتال.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:

المنافق لا يثق بنصر الله أبدًا. حتى بعد أن يرى النصر بعينيه، يظل خائفًا من عودة العدو. هذا لأن الخوف في قلبه وليس في الواقع. المؤمن يطمئن بعد النصر، ويشكر الله.

الرسالة القلبية:
لا تكن ممن يتمنى البعد عن ساحات الخير خوفًا من التضحية. المنافق يتمنى أن يكون في البادية، بعيدًا عن الجهاد. المؤمن يتمنى أن يكون في الصفوف الأولى، قريبًا من رسول الله وقائده.

الرسالة النفسية:
المنافق يعيش حالة من القلق المزمن. هو دائمًا يتوقع الأسوأ، ولا يرى إلا الشر. هذه النظرة السوداوية تحرمه لذة الإيمان وطمأنينة التوكل.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك حب الخير والإقبال على المسؤوليات. لا تدعهم ينشأون على التهرب من الواجبات، وتمني البعد عن ساحات العمل والعطاء. علمهم أن يكونوا في قلب الأحداث، لا على هامشها.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة المتخاذل الذي يتابع الأخبار من بعيد

تخيل مجموعة من الشباب يشاركون في عمل تطوعي لمساعدة المتضررين من زلزال. أحد الشباب تخلف عنهم بحجج واهية، وجلس في بيته. هو خائف من الزلازل الارتدادية، ولا يريد المجازفة. ومع ذلك، هو يلتصق بالهاتف يتابع أخبارهم: "هل أصيب أحد؟ هل فشلت المهمة؟". لو سألته عن سبب تخلفه، لقال: "لو كنت معهم لفعلت وفعلت!". ولكن الحقيقة أنه لن يفعل شيئًا، وحتى لو ذهب، لكان عبئًا عليهم.

هذا هو حال المنافقين مع الأحزاب: ﴿وَلَوْ كانُوا فِيكُم مّا قاتَلُوا إِلّا قَلِيلًا﴾.
المحور الرابع:
النظرة الشاملة للآيات الثلاث.. دروس وعبر

1. طبقات المنافقين وخطورتهم

الآيات تكشف ثلاث طبقات من المنافقين في غزوة الأحزاب:

· المعوقون: الذين يثبطون الناس ويدعونهم إلى الفرار.
· الجبناء: الذين ترتعد فرائصهم عند الخوف، ويشتد لسانهم عند الأمن.
· المتمنون للبعد: الذين يودون لو كانوا بعيدين عن كل مسؤولية.

وهذه الطبقات موجودة في كل زمان ومكان، وهي أخطر أعداء الأمة في الداخل.

2. الجبن والبخل وجهان لعملة واحدة

المنافق جبان في الميدان، وبخيل بالمال والجهد. المؤمن شجاع في الميدان، وجواد بما يملك. الإيمان يزرع الشجاعة والكرم، والنفاق يزرع الجبن والبخل.

3. خطورة اللسان في وقت الأمن

كثير من الناس أبطال بالكلام بعد انتهاء المعركة. هؤلاء منافقون بصفاتهم. المؤمن الحق يتكلم قليلا ً ويعمل كثيرًا، ولا يسلق الناس بألسنة حداد بعد زوال الخطر.

4. إحباط الأعمال عقوبة النفاق

كل أعمال المنافقين الظاهرة لا قيمة لها عند الله. صلاتهم، صدقاتهم، وحتى قتالهم القليل، محبط مرفوض. لأن الإيمان هو الأساس الذي تقوم عليه الأعمال.
المحور الخامس:
كيف نطبق هذه الآيات في حياتنا العملية اليوم؟

1. في مواجهة المثبطين في المجتمع

لا تسمح لهم بالتأثير عليك:
إذا قال لك أحد: "لماذا تتعب نفسك؟ لا فائدة! دع غيرك يقوم بالعمل". فتذكر قول الله في المعوقين. قل له: "أنا لا أستمع للمعوقين. سأفعل ما بوسعي، والله المستعان".

كشف زيفهم:
إذا رأيت شخصًا يثبط الهمم في أوقات العمل، ثم يتكلم كثيرًا بعد إنجاز العمل، فاعلم أن هذه علامة نفاق. لا تجعله يؤثر في معنوياتك.

2. في تقويم أنفسنا

احذر أن تكون معوقًا:
اسأل نفسك: هل أنا أشجع الناس على الخير أم أثبطهم؟ هل أقول لإخواني: "هلموا إلى الخير" أم "هلموا إلى الراحة"؟ كن داعية إلى الخير، لا داعية إلى القعود.

توازن في أقوالك وأفعالك:
لا تكن ممن يخاف في الشدة ويثرثر في الرخاء. كن ثابتًا في المواقف الصعبة، معتدلا ً في كلامك بعدها. تذكر أن ﴿سَلَقُوكُم بِأَلسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ صفة منافقين.

تخلص من الجبن والبخل:
الجبن والبخل مرضان قلبيان. عالجهما بـ الإيمان والتوكل على الله. تذكر أن الأرزاق بيد الله، والأعمار بيد الله. فلا تبخل بمالك، ولا تجبن بنفسك في مواطن الحق.

3. في تربية الأبناء والطلاب

علمهم الشجاعة العملية لا الكلامية:
لا تمدح ابنك إذا كان شجاعًا باللسان فقط. قل له: "أريد أن أرى شجاعتك في مواقف حقيقية: في الدفاع عن زميل مظلوم، في قول الحق أمام المعلم، في تحمل المسؤولية".

ازرع فيهم روح المبادرة:
شجعهم على التطوع والمشاركة في الأعمال الجماعية. لا تسمح لهم بأن يكونوا متفرجين أو معلقين فقط. قل لهم: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾، فلا تكونوا مثلهم.

علمهم أن البخل بالخير مذموم:
إذا رأيت ابنك يبخل بماله أو بجهده على إخوانه، فذكره بقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ﴾. وقل له: "لا تكن شحيحًا. المؤمن جواد بما يملك".

4. في مجال القيادة والإدارة

انتبه للمعوقين في فريقك:
في أي فريق عمل، هناك معوقون. هم الذين يقولون: "لا نستطيع"، "المشروع فاشل"، "الوقت ضيق". هؤلاء يقتلون روح الفريق. اكتشفهم مبكرًا، وعالجهم، أو أبعدهم إن لزم الأمر.

لا تنخدع بالكلام بعد الإنجاز:
بعد نجاح المشروع، سيأتي من يتبنى النجاح ويقول: "لقد قلت لكم من البداية!"، أو ينتقد: "كان يجب أن نفعل أفضل!". هؤلاء هم من سلقوكم بألسنة حداد. لا تلتفت إليهم، واعتمد على الصادقين الذين كانوا معك في الشدة.
خاتمة: التحذير من طبائع المنافقين

أيها القارئ الكريم.. لقد طفنا معًا في رحاب ثلاث آيات عظيمات من كتاب الله. آيات تشريح دقيق لنفسية المنافقين، وتكشف طبائعهم التي تتكرر في كل عصر.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· المعوقين هم الذين يثبطون الهمم ويدعون إلى القعود، وهم خطر على الأمة.
· المنافق جبان في الشدة، شديد اللسان في الرخاء، بخيل بماله وجهده.
· أعمالهم محبطة عند الله، لأن الإيمان لم يدخل قلوبهم.
· خوفهم مزمن، حتى بعد زوال الخطر، وهم يتمنون البعد عن ساحات العزة والكرامة.

فلنجعل هذه الآيات نبراسًا في تمييز الصادق من الكاذب، والثابت من المتزلزل. ولنحذر أن نتصف بصفات المنافقين، ولنحرص أن نكون من المؤمنين الصادقين الذين يثبتون عند الشدائد، ويصدقون في أقوالهم وأفعالهم، ويجودون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الله.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ المُعَوِّقِينَ مِنكمْ وَالقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ البَأسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الخَوْفُ سَلَقُوكم بِأَلسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا * يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ۖ وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا فِيكم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾

المبحث الرابع

رحلة تدبرية في رحاب الآية (21) من سورة الأحزاب

تمهيد: من تشريح الأمراض إلى وصف الدواء.. لماذا جاءت آية الأسوة هنا؟

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا المسار القرآني العجيب في بناء النفس المؤمنة وعلاج أمراض القلوب..

لقد وقفنا في الآيات السابقة - من بداية السورة إلى الآية العشرين - على مشاهد متعددة من تشريح النفاق ووصف المتخاذلين وكشف المعوقين. رأينا المنافقين الذين يقولون: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾. ورأينا المعوقين الذين يدعون إخوانهم: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾. ورأينا الجبناء الذين ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ﴾. ورأينا المتمنين للبعد الذين ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾.

كان ذلك كله تشريحًا دقيقًا لأمراض القلوب، وكشفًا لأستار النفوس المريضة. ولكن القرآن الكريم ليس كتاب تشريح فقط، بل هو كتاب علاج وهداية. إنه لا يكتفي بأن يقول لك: "هذا مرض، وهذا خطأ"، بل يقدم لك الدواء، ويرسم لك الطريق، ويضع أمامك النموذج الذي يجب أن تقتدي به.

وهنا - في هذه الآية الكريمة - يأتي الدواء الشافي، والنموذج الكامل. بعد أن رأيت صور الفشل و الجبن والنفاق، تعالَ الآن لترى صورة النجاح والشجاعة والإيمان. تعالَ لترى الأسوة الحسنة.

وكأن الله سبحانه يقول لعباده: "هل رأيتم هؤلاء المنافقين؟ هل رأيتم جبنهم وتخاذلهم؟ هل رأيتم كيف يعيشون في خوف دائم، وكيف يتمنون البعد عن ساحات العزة؟ لا تكونوا مثلهم! بل انظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظروا كيف كان ثابتًا في وجه الأحزاب، مطمئن القلب، واثقًا بوعد الله. انظروا إليه، واجعلوه أسوتكم الحسنة".

إنها آية واحدة، ولكنها تختصر المنهج كله. إنها البوصلة التي توجه المسلم في كل زمان ومكان. دعنا نبحر في أعماقها، ونستخرج دررها وكنوزها.

المحور الأول:

النداء الإلهي للتأسي.. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

المعنى الإجمالي للآية

﴿لَقَدْ كَانَ لَكمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾

تبدأ الآية بالقسم المؤكد: "لقد". إنه قسم من الله، وتأكيد عظيم على أهمية ما سيأتي. والمعنى: والله لقد كان لكم - أيها المؤمنون - في رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قدوة حسنة، ونموذج رائع، ومثال كامل يُحتذى به في كل شيء: في أقواله وأفعاله وأحواله، في صبره وثباته، في شجاعته وتوكله، في جهاده وعبادته.

ولكن هذه الأسوة لا ينتفع بها كل أحد، بل ينتفع بها من كان يرجو الله واليوم الآخر، ويذكر الله كثيرًا. فهي خاصة بالمؤمنين الصادقين، الذين تؤهلهم عقيدتهم وسلوكهم للاقتداء الحقيقي.

لماذا جاءت هذه الآية في هذا الموضع بالذات؟

هذا سؤال يكشف عن دقة النظم القرآني وروعة التربية الإلهية:

1. تقديم النموذج المضاد:
بعد أن عرض القرآن نماذج الفشل (المنافقين، المعوقين، الجبناء)، يعرض الآن نموذج النجاح (رسول الله صلى الله عليه وسلم). هذه هي طريقة القرآن في التربية: لا يكتفي بالتحذير من الشر، بل يرغب في الخير، ولا يكتفي بذكر القدوة السيئة، بل يذكر القدوة الحسنة.

2. الجواب العملي على مواقف المنافقين:

· المنافقون قالوا: ﴿مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾. والرسول صلى الله عليه وسلم كان واثقًا بوعد الله، لم يتزعزع إيمانه لحظة.
· المنافقون قالوا: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾. والرسول صلى الله عليه وسلم كان ثابتًا في الميدان، يباشر حفر الخندق بنفسه، ويواجه الخطر بصدره.
· المنافقون ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ من الخوف. والرسول صلى الله عليه وسلم كان مطمئن القلب، يردد: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب".
· المنافقون ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾. والرسول صلى الله عليه وسلم كان في قلب المعركة، في أخطر مكان، في مقدمة الصفوف.

3. العلاج العملي لأمراض النفوس:
إذا كان الخوف والجبن والبخل هي أمراض المنافقين، فإن الدواء هو الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان أشجع الناس وأكرم الناس وأثبت الناس. وكأن الآية تقول: "إذا أردتم أن تتخلصوا من هذه الأمراض، فانظروا إلى رسول الله، واجعلوه قدوتكم".
المحور الثاني:
اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

أولا ً: القسم المؤكد.. ﴿لَقَدْ﴾

افتتاح الآية بـ "لقد" يحمل دلالات عظيمة:

· اللام: لام القسم، وتفيد التوكيد. فالله سبحانه يقسم على أهمية هذا الخبر.
· "قد": حرف تحقيق، وتفيد ثبوت الخبر وتحقق وقوعه. فالأمر ليس مجرد احتمال أو ترجيح، بل هو حقيقة واقعة لا شك فيها.

فكأن الله يقول: "والله، وبكل تأكيد، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة". وهذا القسم الإلهي يرفع شأن هذه الأسوة، ويدل على مركزيتها في الدين.

ثانيًا: التعبير بـ "كان".. ﴿لَقَدْ كَانَ﴾

استخدام الفعل الماضي "كان" له دلالتان:

· الدوام والاستمرار: "كان" هنا ليست لمجرد الزمن الماضي، بل هي كان التامة التي تفيد ثبوت الوصف ودوامه. فالنبي صلى الله عليه وسلم كان ولا يزال أسوة حسنة للأمة إلى يوم القيامة.
· التحقق والوقوع: التأكيد على أن هذه الأسوة قد وجدت فعلا ً في التاريخ، وليست مجرد فكرة نظرية. إنها واقع معاش في حياة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: اللام في "لكم".. ﴿لَكُمْ﴾

هذه اللام لام الاختصاص. والمعنى: هذه الأسوة خاصة بكم - أيها المؤمنون - وهي معدة لكم، وموجهة إليكم. إنها هدية الله لهذه الأمة. وكأنه يقول: "هذا الكنز لكم، فخذوه وانتفعوا به".

رابعًا: الظرف "في رسول الله".. ﴿فِي رَسُولِ اللهِ﴾

استخدام "في" هنا له سر بلاغي عظيم:

· لم يقل: "برسول الله"، بل قال: "في رسول الله".
· "في" تفيد الظرفية والاحتواء. والمعنى: في شخصه الكريم، في سيرته، في أقواله وأفعاله وأحواله، في كل جوانب حياته، تجدون الأسوة الحسنة. إنه بكليته أسوة، وليس في جانب واحد فقط.
· وهذا يشير إلى شمولية الأسوة وكمالها. فالنبي صلى الله عليه وسلم قدوة في العبادة، والجهاد، والأخلاق، والسياسة، والقضاء، والأسرة، والاقتصاد. كل جوانب الحياة تجد فيها الأسوة في شخصه الكريم.

خامسًا: وصف النبي بـ "رسول الله".. ﴿رَسُولِ اللهِ﴾

لم يقل: "في محمد"، بل قال: "في رسول الله". وهذه إضافة تشريفية عظيمة:

· "رسول": صفة الرسالة والتبليغ عن الله. وهذا يشير إلى أن كل ما يفعله هو بوحي من الله، وليس عن هوى. فأسوته معصومة، وموافقة لمراد الله.
· "الله": اسم الجلالة، الذي يضفي القداسة والعظمة على هذه الأسوة. فأنت تقتدي بمن أرسله الله، وبمن اصطفاه الله، وبمن أوحى إليه.

سادسًا: وصف الأسوة بـ "حسنة".. ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

· "أسوة": بضم الهمزة وكسرها، ومعناها القدوة، والمثال الذي يُحتذى.
· "حسنة": وصف لها. والحسنة هي الجميلة في ذاتها، والنافعة في عاقبتها.

فالأسوة هنا حسنة بكل المقاييس:

· حسنة في الظاهر: أخلاقه، شمائله، تعامله.
· حسنة في الباطن: إيمانه، يقينه، توكله.
· حسنة في العاجل: تريح النفس، وتطمئن القلب.
· حسنة في الآجل: توصل إلى رضوان الله وجنته.

وهذا الوصف ينفي أي نقص في هذه القدوة. فهي كاملة من كل وجه.

سابعًا: تقييد الانتفاع بالأسوة.. ﴿لِمَن كانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ﴾

هذا القيد مهم جدًا لفهم الآية. الأسوة موجودة للجميع، ولكن المنتفع بها هو من كان له هذه الصفات الثلاث:

1. يرجو الله: أي يؤمن بالله، ويرجو ثوابه، ويخاف عقابه. فالرجاء هنا يشمل الإيمان والطمع في رحمة الله.
2. واليوم الآخر: يؤمن بالبعث والحساب والجنة والنار. وهذا الإيمان هو الدافع الأكبر للاقتداء بالرسول.
3. وذكر الله كثيرًا: يذكر الله في كل أحواله، بقلبه ولسانه وجوارحه. وكثرة الذكر تثبت القلب وتعين على الاقتداء.

لماذا هذه الشروط الثلاثة؟

لأن الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم ليس سهلا ً. إنه يتطلب:

· التضحية: بالنفس والمال والوقت. وهذا لا يفعله إلا من يرجو ثواب الله.
· الصبر: على الشدائد والمحن. وهذا لا يثبت عليه إلا من يؤمن باليوم الآخر، ويعلم أن ما ينتظره خير مما يتركه.
· الثبات: في وجه المغريات والشهوات. وهذا لا يقوى عليه إلا من يذكر الله كثيرًا.

وهكذا نرى أن شروط الانتفاع بالأسوة هي عين علاج أمراض المنافقين:

· المنافقون لا يرجون الله (لأنهم كفار في الباطن).
· المنافقون لا يؤمنون باليوم الآخر حق الإيمان (لأنهم لو آمنوا لما جبنوا وبخلوا).
· المنافقون لا يذكرون الله كثيرًا (بل قلوبهم غافلة لاهية).

لذلك، حرموا من الأسوة الحسنة، ولم يستطيعوا الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم.
المحور الثالث:
العلاقة العميقة بين آية الأسوة والآيات السابقة

دعنا الآن نربط هذه الآية بالسياق السابق لنرى كمال النظم القرآني ودقة التربية الإلهية:

1. مواجهة قول المنافقين: ﴿مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾

المنافقون شكوا في وعد الله ورسوله، وظنوا أن النصر غرور. فجاءت آية الأسوة لتقول: انظروا إلى رسول الله! هل شك لحظة؟ هل تزعزع إيمانه؟ كلا! بل كان واثقًا بوعد الله، يبشر أصحابه بالنصر وهم في أشد لحظات الضيق. لقد كان يضرب بالمعول في الخندق وهو يقول: "والله لتفتحن عليكم الشام وفارس". إنه اليقين الذي لا يتزعزع.

الدرس: إذا أردت أن تتخلص من الشك في وعد الله، فانظر إلى رسول الله، واقتدِ بيقينه وثقته بربه.

2. مواجهة قول المعوقين: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾

المعوقون دعوا إلى الفرار، وادعوا أن لا فائدة من البقاء. فأين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ كان في قلب المعركة، في أخطر مكان، في مقدمة الصفوف. كان يثبت المؤمنين، ويقول: "لا عليكم! اصبروا وصابروا!".

روى الإمام أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينقل التراب في حفر الخندق حتى وارى التراب جلدة بطنه! وهو يقول:

"اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا"

هذا هو النبي الذي تدعونا الآية للتأسي به. يقف مع جنوده في الخندق، يعمل بيده، ويرفع معنوياتهم بشعره وكلماته. فأين هذا من المعوقين الذين يجلسون في بيوتهم ويثبطون الناس؟

الدرس: إذا أردت أن تتخلص من روح الانهزام ودعاوى الفرار، فانظر إلى رسول الله، واقتدِ بثباته وعمله الدؤوب في أشد الظروف.

3. مواجهة حال الجبناء: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾

المنافقون في ساعة الخوف تدور أعينهم من الرعب، ويفقدون السيطرة على أنفسهم. فأين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

روى البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: "كنا والله إذا اشتد البأس، كنا نتحصن برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به". أي: يقف إلى جواره في المعركة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "كنا إذا حمي البأس، ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه".

تأمل هذا! النبي صلى الله عليه وسلم هو أقرب الناس إلى العدو! هو في أخطر مكان! ومع ذلك، هو أثبت الناس قلبًا، وأطمأنهم نفسًا. لا تدور عيناه، ولا يرتعد جسده، بل هو كالجبل الأشم في وجه العواصف.

الدرس: إذا أردت أن تتخلص من الخوف المرضي والهلع، فانظر إلى رسول الله، واقتدِ بشجاعته ورباطة جأشه.

4. مواجهة حال البخلاء: ﴿أَشِحَّةً عَلَى الخَيْرِ﴾

المنافقون بخلاء بكل خير: بأموالهم، بأنفسهم، بجهدهم، حتى بمشاعرهم الطيبة. فأين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

كان أجود الناس، وأكرم الناس، وأبذل الناس لنفسه وماله في سبيل الله. كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وكان يقول: "ما نقص مال من صدقة". وكان يبذل نفسه في أخطر المواقف، ولا يبخل على أمته بجهد ولا وقت.

الدرس: إذا أردت أن تتخلص من البخل والشح، فانظر إلى رسول الله، واقتدِ بجوده وكرمه وتضحيته.

5. مواجهة حال المتمنين للبعد: ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾

المنافقون يتمنون البعد عن ساحات العزة والكرامة. يتمنون أن يكونوا في البادية، لا علاقة لهم بـ المسلمين ولا بجهادهم. فأين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

كان يتمنى أن يكون في مقدمة الصفوف، في قلب المعركة. كان يتحسر إذا فاته جهاد. كان يقول: "و الذي نفسي بيده، لولا أن رجالا ً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله".

تأمل الفرق! هؤلاء يتمنون البعد عن الجهاد، ورسول الله يتمنى لو لم يتخلف عن أي سرية! هذه هي الأسوة الحسنة.

الدرس: إذا أردت أن تتخلص من حب الدعة وتمني البعد عن المسؤوليات، فانظر إلى رسول الله، واقتدِ بحبه للخير وإقباله على الجهاد والتضحية.
المحور الرابع:
أبعاد الأسوة الحسنة.. ماذا تعني لنا اليوم؟

أولا ً: الأسوة في الثبات على المبدأ

في زمن تتغير فيه المبادئ، وتتبدل فيه القيم، وتكثر فيه الضغوط للتنازل عن الثوابت، تأتي آية الأ سوة لتقول: ثبتوا كما ثبت رسول الله. هو واجه الأحزاب، وواجه الحصار، وواجه الجوع والخوف، ومع ذلك لم يتنازل عن مبدأ، ولم يقبل بحل وسط على حساب دينه. كان موقفه واضحًا: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته".

ثانيًا: الأسوة في العمل والأخذ بالأسباب

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتفِ بالتوكل القلبي، بل أخذ بكل الأسباب الممكنة. حفر الخندق (وهي فكرة عسكرية جديدة على العرب)، ونظم الجيش، ووضع خطط الدفاع. ثم بعد ذلك توكل على الله. هذه هي الأسوة الحسنة: الجمع بين التوكل والعمل، لا تواكل ولا غرور بالأسباب.

ثالثًا: الأسوة في القيادة بالقدوة

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائدًا من بعيد، يصدر الأوامر ويجلس في برج عاجي. بل كان في قلب الأحداث، يعمل مع العمال، ويجوع مع الجنود، ويواجه الخطر معهم. هذه القيادة بالقدوة هي التي تصنع الولاء الحقيقي والحب الصادق. وهكذا يجب أن يكون كل قائد في أي مجال: قدوة لفريقه قبل أن يكون آمرًا عليهم.

رابعًا: الأسوة في حسن الظن بالله

في أشد لحظات الضيق، حين بلغت القلوب الحناجر، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسن الظن بربه. كان يبشر أصحابه بالنصر، ويعدهم بفتح فارس والروم، وهم في الخندق لا يجدون ما يسدون به جوعهم! هذا اليقين هو الذي يجب أن نتعلمه: أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا.

خامسًا: الأسوة في التعامل مع الشدائد

رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا كيف نتعامل مع الأزمات:

· بالصبر: "الصبر ضياء".
· بالدعاء: كان يرفع يديه إلى السماء: "اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم وزلزلهم".
· بالعمل: لم يجلس ينتظر النصر، بل حفر الخندق، ودافع عن المدينة.
· بروح الفكاهة والأمل: كان يمازح أصحابه وهم يحفرون، ويرفع معنوياتهم بالأشعار والأخبار المفرحة.
المحور الخامس:
الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية

لا تبحث عن قدوة في غير مكانها. قدوة المسلم هي رسول الله صلى الله عليه وسلم. كل ما سواه من البشر خطاءون، وقد يضلون ويضلون. أما رسول الله، فهو المعصوم المؤيد بالوحي. فاجعل عقلك وتفكيرك وقراراتك مستمدة من هديه وسنته.

الرسالة القلبية

أحب رسول الله حبًا يتجاوز حب النفس والولد والمال. هذا الحب هو الذي يدفعك إلى الاقتداء. فإذا أحببت رسول الله حقًا، تشبهت به في أخلاقه وأفعاله. واسأل نفسك دائمًا: "ماذا كان سيفعل رسول الله لو كان في موقفي هذا؟".

الرسالة النفسية

اقتداؤك برسول الله يمنحك قوة نفسية عظيمة. عندما تشعر بالخوف، تذكر شجاعته. عندما تشعر بالحزن، تذكر صبره. عندما تشعر بالضعف، تذكر ثباته. إنه النموذج الكامل الذي تستمد منه الطاقة الروحية والنفسية لمواجهة مصاعب الحياة.

الرسالة التربوية

اجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم محور التربية. ازرع في أبنائك وطلابك حب رسول الله منذ الصغر. قص عليهم سيرته العطرة بأسلوب شيق. علمهم أن أعظم شرف هو الاقتداء به. واجعل شعارهم: "أبي وأمي أنت يا رسول الله".
المحور السادس:
شروط الانتفاع بالأسوة الحسنة

الشرط الأول: رجاء الله.. ﴿لِمَن كانَ يَرْجُو اللهَ﴾

الرجاء هو الإيمان والطمع في رحمة الله. من لا يؤمن بالله، ولا يرجو ثوابه، فلن يجد في نفسه الدافع للاقتداء بالرسول. فالاقتداء تضحية، والتضحية تحتاج إلى إيمان بوجود ثواب يستحق التضحية.

الشرط الثاني: الإيمان باليوم الآخر.. ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾

الإيمان باليوم الآخر هو البوصلة التي توجه سلوك المؤمن. من يؤمن بأن هناك حسابًا وجزاءً، وجنة وناراً، سيجد في نفسه الدافع للاقتداء بالرسول، لأنه يعلم أن هذا هو طريق الجنة. أما من لا يؤمن باليوم الآخر، فإنه يعيش للدنيا فقط، ولن يضحي بشيء من أجل الآخرة.

الشرط الثالث: كثرة ذكر الله.. ﴿وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾

الذكر هو الوقود الذي يحرك النفس نحو الخير. من يذكر الله كثيرًا، يحيا قلبه، وتقوى عزيمته، ويثبت على الطاعة. أما الغافل عن ذكر الله، فإن قلبه يقسو، وهمته تضعف، وعزيمته تخور. فلا يستطيع الاقتداء بالرسول في الشدائد.

العلاقة بين الشروط الثلاثة والاقتداء:

· رجاء الله: يعطيك الهدف (الجنة ورضوان الله).
· اليوم الآخر: يعطيك الدافع (الخوف من النار، والطمع في الجنة).
· كثرة الذكر: تعطيك القوة (الطاقة الروحية للاستمرار).

وبهذه الثلاثة يكتمل الإيمان، ويصح الاقتداء.
المحور السابع:
أمثلة تقريبية من حياتنا المعاصرة

المثال الأول: القدوة في العمل

تخيل مدير شركة يواجه أزمة مالية خانقة. الموظفون خائفون، والمعنويات منهارة. بعض المدراء في مثل هذه الحالة يختفون، أو يعلقون المشاكل على غيرهم. لكن المدير القدوة هو الذي يكون في مقدمة الصفوف، يعمل مع موظفيه، يخفض راتبه قبل رواتبهم، ويبحث عن حلول بنفسه. هذا المدير هو الذي يلتف حوله الموظفون، ويبذلون أقصى جهدهم لإنقاذ الشركة.

هذا هو الاقتداء برسول الله في القيادة.

المثال الثاني: القدوة في الأسرة

تخيل أبًا يريد أن يربي أبناءه على الصدق والأمانة. هو يكذب أمامهم، ويخلف وعوده معهم. هل سيتعلمون الصدق؟ أبدًا! لكن الأب الذي يكون قدوة لأبنائه، فيصدقهم الحديث، ويفي بوعوده، هو الذي سينشئ أبناءً صادقين أوفياء.

هذا هو الاقتداء برسول الله في التربية.

المثال الثالث: القدوة في الدعوة إلى الله

تخيل داعية يدعو الناس إلى الزهد في الدنيا، وهو غارق في ملذاتها. أو يدعوهم إلى الصبر، وهو جزوع عند أول بلاء. كلامه لن يؤثر في أحد. لكن الداعية الذي يكون قدوة في زهده وصبره وتواضعه، هو الذي يفتح الله له القلوب.

هذا هو الاقتداء برسول الله في الدعوة.
خاتمة: العودة إلى الأسوة الحسنة

أيها القارئ الكريم.. لقد طفنا معًا في رحاب آية عظيمة من كتاب الله. آية تجمع الدواء بعد تشريح الداء. آية ترسم الطريق بعد بيان العثرات. آية تقدم النموذج الكامل بعد عرض النماذج الفاشلة.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة في كل شيء: في ثباته، وشجاعته، وكرمه، وصبره، ويقينه.
· الاقتداء به هو علاج أمراض النفاق: الجبن، البخل، التخاذل، الشك في وعد الله.
· الانتفاع بهذه الأسوة مشروط بـ رجاء الله، والإيمان باليوم الآخر، وكثرة الذكر.
· كل موقف في حياتنا يمكن أن نجد له نموذجًا في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلنجعل هذه الآية نبراسًا في حياتنا اليومية. ولنحرص على قراءة سيرة رسول الله، والتأمل في مواقفه، واستحضار هديه في كل ما نواجهه من مواقف.

ولنردد دائمًا: "صلى الله على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد".

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾
القسم الثالث

رحلة تدبرية في رحاب الآيات (22-24) من سورة الأحزاب

تمهيد: من فضح المنافقين إلى تكريم الصادقين.. موازين العدل الإلهي

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا الانتقال العجيب في مسار السورة..

لقد وقفنا في الآيات السابقة - من الآية 9 إلى 20 - على مشاهد متعددة من تشريح النفاق وكشف أستار المنافقين ووصف أمراض القلوب. رأينا كيف زلزل المؤمنون زلزالا ً شديدًا، وكيف ظهر المنافقون على حقيقتهم: قالوا ﴿مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، ودعوا إلى الفرار ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾، واستأذنوا بأعذار كاذبة ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، وكانوا أشحة على الخير، تدور أعينهم من الخوف، يودون لو كانوا بادين في الأعراب. ثم جاءت آية الأسوة الحسنة (21) لتقدم النموذج الكامل في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي كان في قلب المعركة ثابتًا مطمئنًا، يعمل ويدعو ويبشر.

والآن.. بعد أن عرض الله تعالى صورتين متناقضتين:

· صورة المنافقين: الجبناء، المثبطين، البخلاء، الشاكين في وعد الله.
· صورة الرسول صلى الله عليه وسلم: الأسوة الحسنة في الثبات واليقين والتضحية.

ينتقل السياق القرآني ليعرض الصورة الثالثة، وهي صورة المؤمنين الصادقين الذين تأسوا برسول الله حقًا، فثبتوا في وجه العاصفة، وازدادوا إيمانًا وتسليمًا. إنه التكريم الإلهي لهؤلاء الصادقين، وتخليد ذكراهم في كتاب الله إلى يوم القيامة.

وكأن الله سبحانه يقول لنا: "انظروا إلى الفريقين: فريق المنافقين الذين زلزلوا وساءت ظنونهم، وفريق المؤمنين الصادقين الذين ثبتوا وأحسنوا الظن. ثم انظروا إلى ثلة خاصة من هؤلاء المؤمنين، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، منهم من قضى نحبه شهيدًا، ومنهم من ينتظر. ثم اعلموا أن الله سيجزي الصادقين بصدقهم، وسيحاسب المنافقين بعدله ورحمته".

هذه الآيات الثلاث ترسم مشهدًا متكاملا ً للابتلاء والتمحيص والجزاء. إنها تقدم لنا درسًا في الإيمان الحق، ونموذجًا للرجال الذين لا تزعزعهم الجبال. دعنا نبحر في أعماقها، ونستخرج دررها وكنوزها.

المحور الأول: إيمان الصادقين عند رؤية الأحزاب

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾

المعنى الإجمالي للآية

في هذه الآية الكريمة، ينقلنا القرآن إلى مشهد مهيب من مشاهد غزوة الأحزاب. بعد أن وصف حال المنافقين عند رؤية الأحزاب (الخوف، دوران الأعين، الشك في وعد الله)، يصف لنا حال المؤمنين الصادقين في نفس اللحظة.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾: حين وقعت أعينهم على تلك الجموع الهائلة القادمة من كل حدب وصوب، عشرة آلاف مقاتل، يملأون الأفق سيوفًا ورماحًا، قد أحاطوا بالمدينة من فوقهم ومن أسفل منهم.

ماذا كان رد فعلهم؟ هل هلعوا؟ هل شكوا؟ هل قالوا كما قال المنافقون: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾؟

كلا! بل كان ردهم عكس ذلك تمامًا:
﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: هذا الذي نراه بأعيننا هو عين ما وعدنا به الله ورسوله! لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخبرهم أنهم سيواجهون شدائد ومحنًا، وأن الأحزاب ستتجمع عليهم، وأنهم سيبتلون ليُمحصوا. فلما رأوا ذلك متحققًا أمامهم، ازدادوا يقينًا بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، وازدادوا إيمانًا بأن كل ما أخبر به حق.

·{وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ}·: تأكيد منهم على صدق الوعد الإلهي والنبوي. نعم، لقد وعدنا الله ورسوله بالابت
لاء، وها هو الابتلاء قد جاء. ووعدنا الله ورسوله بالنصر بعد الصبر، ونحن واثقون أن هذا الوعد آتٍ
لا محالة.

·{وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}·: هذه هي ثمرة الإيمان الصادق. رؤية الأحزاب - وهي مشهد يبعث الرعب في القلوب - لم تزد هؤلاء المؤمنين إلا إيمانًا بالله، وتسليمًا لأمره وقضائه. فكلما اشتدت المحنة، زاد إيمانهم ورسخ يقينهم.

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

1. "لما" الظرفية:
"لما" ظرف زمان بمعنى "حين". وهو يربط رؤية الأحزاب بـ رد فعل المؤمنين. وفيه تصوير لحظي للمشهد: بمجرد أن رأوا الأحزاب، فورًا قالوا هذا القول الإيماني العظيم. لم يترددوا، لم يتلكأوا، لم يشكوا. هذا هو رد الفعل الفطري للإيمان الصادق.

2. تعريف "المؤمنون" بـ "أل":
قال: ·{الْمُؤْمِنُونَ}· بالتعريف، ليميزهم عن المنافقين الذين سبق ذكرهم. هؤلاء هم المؤمنون الحقيقيون، الذين رسخ الإيمان في قلوبهم. وقد تكرر ذكرهم بهذا الوصف في الآيات السابقة: ·{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ}· مقابل ·{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ}·. إنها مقابلة بلاغية واضحة بين الصنفين.

3. إعادة تعريف "الأحزاب" بـ "أل":
قال: ·{الْأَحْزَابَ}· بالتعريف، إشارة إلى الأحزاب المعهودين الذين سمعوا عنهم، وتوقعوا قدومهم. فحين رأوهم بأعينهم، تذكروا وعد الله ورسوله بذلك.

4. اسم الإشارة "هذا":
استخدام "هذا" للإشارة إلى الحاضر المشاهد. كأنهم يقولون: "هذا الذي نراه بأعيننا الآن، هو عين ما كنا نسمع عنه ونؤمن به غيبًا. والآن صار شهادة". وهذا يدل على قوة يقينهم، وكأن الغيب عندهم ك
الشهادة.

5. "ما" الموصولة في "ما وعدنا":
"ما" تفيد العموم والشمول. أي: كل ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والتمحيص والشدة ثم النصر. هذا الموقف هو جزء من الوعد الإلهي الشامل.

6. التعبير بـ "وعدنا":
الوعد هو الإخبار بخير سيأتي. وقد وعدهم الله ورسوله بـ أمرين:

· وعد بالابتلاء: وهو ما رأوه الآن (الأحزاب).
· وعد بالنصر: وهو ما ينتظرونه بثقة.

فلما تحقق وعد الابتلاء، ازدادوا يقينًا بوعد النصر.

7. تقديم "الله" على "رسوله":
في الموضعين: ·{وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ}· و·{وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ}·. وهذا تأكيد على أن الأصل هو وعد الله، وأن الرسول مبلغ عن الله. فصدق الرسول هو من صدق الله.

8. أسلوب الحصر في "وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا":
هذا حصر يفيد أن الزيادة كانت محصورة في الإيمان والتسليم. لم يزدهم الخوف شيئًا، لم يزدهم الشك شيئًا، بل حصروا الزيادة في الإيمان والتسليم. وهذا من كمال يقينهم.

9. العطف بـ "واو" في "وتسليمًا":
التسليم هو الانقياد التام لأمر الله. وعطفه على الإيمان يدل على أنهما متلازمان. الإيمان بالقلب، و التسليم بالجوارح.

العلاقة بين موقف المؤمنين وموقف المنافقين

تأمل معي هذه المقابلة البلاغية العجيبة بين وصف المنافقين ووصف المؤمنين:

موقف المنافقين موقف المؤمنين
قالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ قالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾
شكوا في وعد الله صدقوا بوعد الله
خافوا ودارت أعينهم اطمأنوا وازدادوا إيمانًا
طلبوا الفرار إلى البيوت أو البادية ثبتوا في الميدان
بخلوا بأنفسهم وأموالهم جادوا بأنفسهم وأموالهم

إنها مفارقة كاملة! نفس المشهد، ونفس الخطر، ولكن القلوب مختلفة، فكانت الاستجابات مختلفة. وهذا يثبت أن المحنة لا تصنع الرجال، بل تكشفهم. فالمنافق كان منافقًا قبل المحنة، والمؤمن كان مؤمنًا قبلها. المحنة فقط أظهرت ما في القلوب.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
عندما تواجه الشدائد والمحن، لا تنظر إليها على أنها عقوبات، بل انظر إليها على أنها تحقيق لوعد الله. الله وعد المؤمنين بالابتلاء: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 2]. فإذا جاء الابتلاء، فهذا دليل على صدق الإيمان، وليس دليلا ً على غضب الله.

الرسالة القلبية:
إيمانك يجب أن يزداد عند الشدائد، لا أن ينقص. المؤمن الصادق كلما رأى بعينه تحقيق وعد الله (حتى لو كان وعدًا بابتلاء)، ازداد قلبه يقينًا وتسليمًا. فلا تجعل المحن تضعف إيمانك، بل اجعلها تقويه.

الرسالة النفسية:
أنت بين خيارين عندما تواجه الأزمة:

- خيار المنافقين: الخوف، الشك، الفرار، الانهيار النفسي.
- خيار المؤمنين: الثبات، اليقين، التسليم، القوة النفسية.

اختر لنفسك خيار المؤمنين، وردد بقلبك ولسانك: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك وطلابك ثقافة الابتلاء. لا تعدهم بحياة وردية، بل أخبرهم أنهم سيواجهون صعوبات في الدراسة، في العمل، في الحياة. وعلمهم أن الصعوبات هي تحقيق لوعد الله، وأن النجاح يأتي بعد الصبر. هذا يعدهم نفسيًا لمواجهة الحياة.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الطالب الذي توقع الامتحان الصعب

تخيل طالبًا قال له معلمه في بداية العام: "استعدوا، سيكون هناك امتحان صعب في نهاية العام، ومن يجتازه سينجح بتفوق". الطالب آمن بكلام المعلم، واستعد طوال العام. في يوم الامتحان، رأى الأسئلة صعبة كما أخبره المعلم. ماذا سيكون رد فعله؟

- الطالب المؤمن بصدق المعلم: سيقول: "هذا ما وعدنا به المعلم! لقد كان صادقًا!". وسيدخل الامتحان بثقة، لأنه استعد. والصعوبة ستزيده إصرارًا على النجاح.
- الطالب المتشكك: سيقول: "لم أتوقع هذا! لقد خدعنا!". وسيصاب بالإحباط والهلع، لأنه لم يستعد.

هذا هو الفرق بين المؤمن والمنافق عند رؤية الأحزاب. المؤمن استعد بالإيمان والعمل الصالح، فلما جاءت الشدة، ثبت وازداد يقينًا. والمنافق لم يستعد، فلما جاءت الشدة، انهار.

المحور الثاني: رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا

بَدّلوا تبْديلًا﴾.

المعنى الإجمالي للآية

بعد أن وصف الله عموم المؤمنين وثباتهم عند رؤية الأحزاب، ينتقل إلى تكريم خاصة خاصة من هؤ لاء المؤمنين. إنهم رجال - والتنكير هنا للتعظيم - صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

ما هو هذا العهد؟
العهد هو بيعة العقبة، أو بيعة الرضوان، أو العهد العام على الجهاد والثبات حتى الموت. لقد قطعوا على أنفسهم عهدًا مع الله أن يثبتوا، ويجاهدوا، ولا يفروا، ويبذلوا أرواحهم في سبيل الله.

﴿فَمِنْهُم مّن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾:

· قضى: أدى ووفى.
· نحبه: النحب هو النذر أو العهد أو الأجل. والمعنى: فمنهم من وفى بعهده بأن استشهد في سبيل الله. ومن هؤلاء: حمزة بن عبد المطلب (استشهد في أحد)، وأنس بن النضر (استشهد في أحد)، ومصعب بن عمير، وغيرهم من شهداء بدر وأحد والأحزاب.

﴿وَمِنْهُم مّن يَنتَظِرُ﴾:
أي: ومنهم من لا يزال حيًا، ينتظر الشهادة التي وعد الله بها، أو ينتظر إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة. لم يستعجل الموت، لكنه مستعد له في كل لحظة، وصابر ثابت على عهده.

﴿وَمَا بَدّلوا تبْديلًا﴾:
هذا هو موطن الشهادة الإلهية لهؤلاء الرجال. ما بدلوا عهدهم، ما غيروه، ما نقضوه، ما تراجعوا عنه قيد أنملة. لا الذين استشهدوا (فقد ثبتوا حتى آخر لحظة)، ولا الذين بقوا أحياء (فقد ظلوا على عهدهم). وهذا خلاف المنافقين الذين ﴿عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ ثم نقضوا عهدهم وفرّوا.

من هم هؤلاء الرجال؟

ذكر المفسرون أسماء بعضهم:

· حمزة بن عبد المطلب: أسد الله، استشهد في أحد.
· أنس بن النضر: عم أنس بن مالك، قال يوم أحد: "اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء (المسلمون الذين انهزموا)، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (المشركون)". ثم تقدم فاستشهد.
· طلحة بن عبيد الله: ثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد، ووقاه بيده حتى شلت.
· سعد بن معاذ: الذي استجاب الله لدعائه في الأحزاب، ثم استشهد بعدها متأثرًا بجراحه.
· زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة: الذين استشهدوا في غزوة مؤتة بعد ذلك.

وغيرهم كثير من الصادقين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

1. "من المؤمنين":
"من" هنا تبعيضية. والمعنى: بعض المؤمنين، وهم الخاصة الذين بلغوا هذه المرتبة العالية. فليس كل المؤمنين في درجة واحدة، بل هناك رجال مميزون في صدقهم ووفائهم.

2. تنكير "رجال" للتعظيم:
قال: ﴿رِجَالٌ﴾ نكرة، ولم يقل "الرجال". وهذا التنكير للتعظيم والتفخيم. أي: رجال عظماء، رجال أبطال، لا كالمنافقين الجبناء.

3. استخدام كلمة "رجال":
اختيار كلمة "رجال" دون "ناس" أو "قوم" له دلالة عميقة. الرجولة هنا ليست ذكورة بيولوجية، بل هي رجولة المواقف ورجولة الثبات ورجولة الوفاء. إنهم رجال بمعنى الكلمة، جمعوا الشجاعة والصدق و التضحية.

4. الفعل "صدقوا" وما فيه من بلاغة:

· "صدقوا": من الصدق، وهو مطابقة القول للفعل، ومطابقة الظاهر للباطن. هم قالوا بألسنتهم: "نعاهد الله على الجهاد والثبات"، ثم صدقوا هذا القول بأفعالهم. وهذا هو الصدق الكامل.
· تعدية الفعل بـ "ما" الموصولة: ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا﴾. أي: صدقوا العهد الذي عاهدوا الله عليه. فكأن العهد أصبح شيئًا ملموسًا صدقوه بأرواحهم.

5. "عاهدوا الله عليه":

· "عاهدوا": صيغة مفاعلة، تفيد التفاعل والمشاركة. هم عاهدوا الله، والله قبل عهدهم. إنه عقد متبادل بين العبد وربه.
· "عليه": الضمير يعود على العهد أو على ما تضمنه العهد من ثبات وجهاد. وهذا يفيد الالتزام التام بكل بنود العهد.

6. "فمنهم من قضى نحبه":

· الفاء: للتفريع والتقسيم. بعد أن أثبت صدقهم، فرع على ذلك تقسيمهم إلى قسمين.
· "قضى نحبه": قضى بمعنى أدى ووفى. والنحب هو النذر، أو الأجل، أو العهد. والتعبير بـ "قضى نحبه" يشمل الوفاء بالعهد وانتهاء الأجل معًا. فباستشهاده، وفى بعهده وانتهى أجله في طاعة الله.

7. "ومنهم من ينتظر":

· الفعل المضارع "ينتظر" يدل على الاستمرار والتجدد. هم دائمًا في حالة انتظار للشهادة، ودائمًا على أهبة الاستعداد. ليس انتظارًا سلبيًا، بل انتظار مصحوب بالعمل والثبات.
· التنكير في "نحبه" وعدم ذكر مفعول "ينتظر" يفيد التفخيم والتعظيم. إنهم ينتظرون أمرًا عظيمًا (الشهادة، النصر، إحدى الحسنيين).

8. "وما بدلوا تبديلا ۝":

· "ما" النافية.
· "بدلوا": التبديل هو تغيير الشيء مع بقاء صورته. فهم ما غيروا عهدهم، ولا بدلوا نيتهم، ولا نقضوا ميثاقهم.
· "تبديلا ۝": مفعول مطلق مؤكد، يفيد نفي أي نوع من أنواع التبديل، قليلا ۝ كان أو كثيرًا.

المقارنة مع المنافقين في الآيات السابقة

تأمل هذه المقابلة البليغة:

المنافقون رجال المؤمنين
﴿عَاهَدُوا اللهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾
نقضوا العهد وفروا وفوا بالعهد وثبتوا
بدلوا عهدهم ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾
استأذنوا بحجج كاذبة: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ ثبتوا حتى قضوا نحبهم أو ينتظرون
أشحة على الخير جادوا بأرواحهم
وصفهم الله: ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ وصفهم الله: ﴿رِجَالٌ﴾ (تعظيمًا)

إنها مفارقة كاملة بين صنفين من الناس، كلاهما عاهد الله، ولكن أحدهما صدق والآخر كذب، أحدهما وفى والآخر نقض. وهكذا تفعل الشدائد: تكشف الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
لا يكفي أن تعاهد الله بلسانك، بل يجب أن تصدق هذا العهد بفعلك. الصدق هو مطابقة القول للعمل. كثير من الناس يتكلمون عن التضحية والجهاد، ولكن القليل هم الذين يصدقون عندما تحين ساعة

الحقيقة.

الرسالة القلبية:
تطلع إلى منزلة الرجولة الإيمانية. هذه المنزلة ليست محصورة في الصحابة، بل بابها مفتوح لكل من صدق ما عاهد الله عليه. اسأل نفسك: هل أنا من الرجال الذين صدقوا؟ هل عاهدت الله على شيء (توبة، طاعة، جهاد نفس) ثم صدقت فيه؟

الرسالة النفسية:
أنت بين حالين:

· إما أن تقضي نحبك: تموت على العهد، شهيدًا في سبيل الله (حتى لو على فراشك، إذا كنت صادق النية).
· وإما أن تنتظر: تعيش صابرًا ثابتًا، مستعدًا للقاء الله في أي لحظة.
وفي كلا الحالين، المهم هو ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾. لا تغير عهدك، لا تنقض ميثاقك، لا تتراجع عن وعدك لله.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك قيمة الوفاء بالعهد. علمهم أن الوعد دين، وأن العهد مسؤولية. إذا وعدوا بشيء، فليوفوا. وإذا قطعوا عهدًا على أنفسهم (مثل حفظ قرآن، أو ترك معصية)، فليصدقوا. واذكر لهم نماذج الرجال من الصحابة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الجندي الذي أقسم على حماية وطنه

تخيل جنديًا في الجيش، وقف في حفل رسمي، ورفع يده مقسمًا: "أقسم بالله أن أحمي وطني، وأن أفديه بروحي ودمي". ثم جاءت ساعة الحرب، وهاجم العدو. هذا الجندي تذكر قسمه، وثبت في موقعه، وقاتل ببسالة حتى استشهد.

بعد الحرب، كتب اسمه في سجل الشرف. وقيل عنه: "هذا رجل صدق ما عاهد الله عليه، قضى نحبه، وما بدل تبديلا ".

في المقابل، جندي آخر فر من المعركة، واختبأ، ونجا بحياته. لكنه فقد شرفه، وعاش مذمومًا بين الناس، لأنه نقض عهده.

هذا هو الفرق بين الرجال وغير الرجال. الرجال هم الذين يصدقون، ولو كلفهم ذلك أرواحهم. وغيرهم يكذبون، وينقضون العهد عند أول محنة.
المحور الثالث: حكمة الابتلاء والجزاء العادل

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

المعنى الإجمالي للآية

بعد أن عرض الله موقف المؤمنين وموقف المنافقين، ونموذج الرجال الصادقين، يختم هذه المقاطع ببيان الحكمة الإلهية من كل ما حدث في غزوة الأحزاب، وبيان الجزاء العادل للفريقين.

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾:
اللام هنا لام التعليل. أي: كان كل ذلك الابتلاء والتمحيص في غزوة الأحزاب من أجل أن يجزي الله الصادقين بصدقهم. والصادقون هم:

· عموم المؤمنين الذين قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.
· خصوص الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.
فجزاؤهم هو رضوان الله، والجنة، والذكر الحسن في الدنيا (كما أثنى عليهم في هذه الآيات).

·{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}:
أما المنافقون، فمصيرهم إلى العذاب، ولكن بمشيئة الله:

· إن شاء عذبهم: بعدله، جزاء نفاقهم وكفرهم.
· أو يتب عليهم: إن تابوا قبل الموت، ورجعوا إلى الله، وصدقوا في إيمانهم. فالله يقبل التوبة عن عباده، ولو كانوا منافقين، إذا أخلصوا التوبة.

·{إِنَّ اللهَ كانَ غَفُورًا رَحِيمًا}:
ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين يفتح باب الرجاء على مصراعيه. فحتى المنافقون - وهم أشد الناس جرمًا - باب التوبة مفتوح لهم، إن هم تابوا وأنابوا. فالله غفور (يغفر الذنوب العظيمة)، رحيم (يرحم عباده ويقبل توبتهم).

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

1. لام التعليل "ليجزي":
اللام هنا تفيد بيان الحكمة من الابتلاء. الله لم يخلق الابتلاء عبثًا، بل لحكمة عظيمة: تمييز الصادق من الكاذب، وجزاء كل فريق بما يستحق. وهذا يعلمنا أن ننظر إلى ما وراء الأحداث، ونثق أن لله في كل ابتلاء حكمة بالغة.

2. تقديم "الصادقين" على "المنافقين":
قدم الله جزاء الصادقين على عذاب المنافقين، لأن السياق سياق تكريم الصادقين، ولأن رحمة الله سبقت غضبه.

3. الباء في "بصدقهم":
الباء هنا للسببية أو المقابلة. أي: يجزيهم بسبب صدقهم، أو يجزيهم مقابل صدقهم. والجزاء من جنس العمل: صدقوا، فجوزوا بالصدق (أي: أظهر الله صدقهم، وأثنى عليهم، وجازاهم الجنة).

4. ذكر "الصدق" مرة أخرى:
تكرر لفظ "الصدق" ومشتقاته في هذه الآيات مرارًا:

· ·{صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا}.
· ·{الصَّادِقِينَ}.
· ·{بِصِدْقِهِمْ}.

وهذا التكرار يدل على مركزية الصدق في الإيمان. فالصدق هو جوهر الدين، وأساس النجاة.

5. التعبير بـ "يعذب" بالمضارع:
جاء الفعل "يعذب" مضارعًا، ليفيد الاستمرار والتجدد. فعذاب المنافقين دائم مستمر في الآخرة.

6. "إن شاء أو يتوب عليهم":

· "إن" للشرط. فالعذاب معلق بمشيئة الله.
· "أو" للتخيير والتقسيم. فالأمر بين أمرين: إما العذاب، وإما التوبة.
وهذا من كمال عدل الله ورحمته. لم يحكم عليهم بالعذاب حتمًا، بل علق الأمر بمشيئته، وفتح لهم باب التوبة.

7. الفعل "يتوب" مضارع أيضًا:
"يتوب" مضارع يفيد التجدد والاستمرار. فباب التوبة مفتوح دائمًا، ما لم يغرغر العبد.

8. "عليهم":
التوبة من الله على العبد تعني قبول التوبة، والعفو عنه. فعبر بـ "عليهم" التي تفيد العلو والفضل، لأ ن التوبة نعمة من الله يمن بها على عبده.

9. ختام الآية: "إن الله كان غفورًا رحيمًا":

· "إن" للتوكيد.
· "كان" للدوام والاستمرار.
· "غفورًا": صيغة مبالغة، تدل على كثرة المغفرة.
· "رحيمًا": صيغة مبالغة، تدل على سعة الرحمة.

فهو دائمًا وأبدًا متصف بهاتين الصفتين. وهذا يبسط الأمل في قلوب التائبين.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
الابتلاءات والمحن لها حكمة إلهية عظيمة. هي ليست عقوبات عشوائية، بل هي تمحيص وتمييز وجزاء. ثق أن الله حكيم في كل ما يقدره، وأن الخير قد يكون في طي المكروه.

الرسالة القلبية:
أخلص الصدق لله في كل شيء. الصدق ينجيك يوم القيامة. والله يجزي الصادقين بصدقهم. فاجعل الصدق شعارك في القول والفعل والنية.

الرسالة النفسية:
لا تيأس من رحمة الله، حتى لو كنت من أشد الناس نفاقًا في الماضي. باب التوبة مفتوح. الله غفور رحيم. إذا أقبلت عليه بصدق، قبل توبتك، وبدل سيئاتك حسنات. فلا تقنط، ولا تستسلم للشيطان.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك الأمل في رحمة الله، مع الخوف من عقابه. علمهم أن الصادقين لهم الجنة، وأن المنافقين لهم النار إن لم يتوبوا. وازرع فيهم حب الصدق، وكراهية النفاق. وذكرهم أن باب التوبة مفتوح دائمًا، فلا ييأسوا من إصلاح أنفسهم.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الامتحان العادل

تخيل أستاذًا يعلن في بداية العام: "سيكون هناك امتحان صعب في نهاية العام، وسأميز فيه بين المجتهدين والمهملين. المجتهدون سينجحون بتفوق، والمهملون سيرسبون، إلا إذا تداركوا أنفسهم قبل الامتحان".

الطلاب الصادقون في اجتهادهم، صدقوا ما عاهدوا أنفسهم عليه من مذاكرة. فجاء الامتحان، فنجحوا بجدارة. هؤلاء هم الصادقون الذين جزوا بصدقهم.

أما الطلاب المهملون (المنافقون في المذاكرة)، فقد رسبوا. لكن الأستاذ - من رحمته - قال: "من يريد أن يعيد المذاكرة ويقدم اختبارًا إضافيًا، فالباب مفتوح". هذا هو ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

والأستاذ غفور رحيم بطلابه، لكنه عادل في حكمه.

هكذا هو الله سبحانه: يبتلينا ليميز الصادق من الكاذب، ثم يجزي كل فريق بما يستحق. ولكنه - برحمته - يفتح باب التوبة للجميع.
المحور الرابع:
النظرة الشاملة للآيات الثلاث.. دروس وعبر

1. الابتلاء سنة ماضية وحكمة بالغة

الآيات تؤكد أن الابتلاء هو سنة الله في تمييز الصادقين من الكاذبين. وقد تجلى ذلك في غزوة الأحزاب، حيث ظهر المؤمنون الصادقون الذين ازدادوا إيمانًا، وظهر المنافقون الذين انهاروا وشكوا وفروا.

2. الصدق هو جوهر الإيمان

الصدق يتكرر في هذه الآيات بشكل لافت. الصدق هو مطابقة الظاهر للباطن، ومطابقة القول للفعل. المؤمنون صدقوا في إيمانهم، وصدقوا في عهدهم. والمنافقون كذبوا في إيمانهم، وكذبوا في عهدهم. فالفيصل هو الصدق.

3. الرجولة الحقيقية هي رجولة الموقف

الآية 23 تكرم رجالا ً ليسوا بالضرورة أقوياء الأجسام، بل هم أقوياء القلوب، أوفياء العهود. الرجولة هنا هي رجولة الثبات ورجولة التضحية. وهذا يعلمنا أن قيمة الإنسان ليست في شكله أو ماله، بل في مواقفه.

4. العدل الإلهي والرحمة الإلهية متلازمان

الآية 24 تجمع بين العدل (تعذيب المنافقين) والرحمة (قبول التوبة). وهذا هو التوازن العظيم في صفات الله. هو عادل في مجازاة المسيء، ورحيم في قبول توبة التائب. فلا نيأس من رحمته، ولا نأمن مكره.
المحور الخامس:
كيف نطبق هذه الآيات في حياتنا العملية اليوم؟

1. عند مواجهة المحن والابتلاءات

ردد بقلبك ولسانك:
عندما تواجه مشكلة كبيرة، قل: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. هذا يملأ قلبك يقينًا وطمأنينة. تذكر أن الابتلاء دليل على صدق الإيمان، وليس دليلا ً على غضب الله.

ازدد إيمانًا وتسليمًا:
لا تجعل المحنة تنقص إيمانك، بل اجعلها تزيده. اسأل نفسك: "ماذا يريد الله مني في هذا الابتلاء؟ كيف أزداد به قربًا منه؟".

2. في الوفاء بالعهود مع الله ومع الناس

تذكر عهودك مع الله:
هل عاهدت الله على توبة؟ على طاعة؟ على ترك معصية؟ صدق ما عاهدت الله عليه. لا تكن من الذين ينقضون العهد عند أول اختبار. تذكر ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

أوف بوعدك مع الناس:
إذا وعدت أحدًا بشيء، فأوفِ بوعدك. الوعد دين. لا تكن كالمنافقين الذين يقولون ما لا يفعلون.

3. في تربية الأبناء والطلاب

ارو لهم قصص الصادقين:
قص عليهم قصة أنس بن النضر، وحمزة، ومصعب بن عمير، وغيرهم من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه. ازرع فيهم حب التضحية والوفاء بالعهد.

علمهم أن قيمة الإنسان بمواقفه:
لا تجعلهم يركزون على المظاهر (الملبس، المال، الشكل)، بل على المواقف. قل لهم: "الرجولة ليست بـ العضلات، بل بالثبات على المبدأ".

4. في علاقتنا مع الله

جدد عهدك مع الله كل يوم:
قل في دعائك: "اللهم إني أعاهدك على الإيمان بك، والثبات على دينك، والجهاد في سبيلك. فأعني على صدق هذا العهد، واجعلني من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوك عليه".

لا تيأس من رحمة الله:
إذا نقضت عهدًا، أو وقعت في ذنب، فتب ولا تقنط. تذكر أن الله ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. بابه مفتوح دائمًا.

خاتمة: العودة إلى الصدق والوفاء

أيها القارئ الكريم.. لقد طفنا معًا في رحاب ثلاث آيات عظيمات من كتاب الله. آيات ترسم الفارق بين الصادقين والكاذبين، والمؤمنين والمنافقين، والرجال وغير الرجال.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· المؤمن الصادق يزداد إيمانًا عند رؤية الشدائد، لأنه يراها تحقيقًا لوعد الله.
· الرجولة الحقيقية هي في صدق العهد والوفاء به حتى الموت.
· الابتلاء هو محك الصدق، والجزاء من جنس العمل.
· رحمة الله واسعة، وباب التوبة مفتوح للجميع، حتى المنافقين إن تابوا.

فلنحرص على أن نكون من الصادقين الذين ﴿قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾. ولنكن من الرجال الذين ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، و﴿مَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾. ولنثق أن الله ﴿سَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

القسم الرابع

رحلة تدبرية في رحاب الآيات (25-27) من سورة الأحزاب

تمهيد: من الابتلاء إلى النصر.. عندما يتدخل الله بنفسه

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذا التحول العظيم في مسار السورة..

لقد وقفنا في الآيات السابقة على مشاهد الابتلاء والتمحيص. رأينا زلزال المؤمنين، وفضح المنافقين، وثبات الصادقين. وكانت الآية الرابعة والعشرون قد ختمت ببيان الحكمة من الابتلاء: ﴿لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾. لقد أوضح الله لنا أن القتال والجهاد إنما شرعا للابتلاء و التمييز، وليس لأن الله عاجز عن نصر دينه بغير ذلك! حاشاه سبحانه.

والآن.. تأتي هذه الآيات الثلاث (25-27) لتكشف لنا عن الحقيقة المذهلة التي قد تغيب عن أذهان الكثيرين في خضم المعارك والأحداث: إن الله قادر على نصر عباده المؤمنين دون أن يرفعوا سيفًا واحدًا! إنه يتولى المعركة بنفسه، ويرسل جنوده التي لا يراها أحد، ويكفي المؤمنين القتال، ويرد الكافرين بغيظهم، ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم.

هذه الآيات هي إعلان إلهي مدوٍ أن النصر من عند الله وحده. إنها تذكير للمؤمنين - في كل زمان ومكان - أنهم عندما يجاهدون ويقاتلون، فإنما ذلك تكريم لهم، ورفع لدرجاتهم، وابتلاء لصدقهم، وليس لأن الله محتاج إلى جهادهم! فالله غني عن العالمين، وهو القادر على كل شيء. لو شاء سبحانه لأهلك الأحزاب بطرفة عين، بلا حفر خندق ولا حمل سلاح. ولكنه أراد أن يبتلي المؤمنين، ويكرمهم بشرف الجهاد، ويرفع درجات الشهداء، ويفضح المنافقين.

دعنا نبحر في أعماق هذه الآيات العظيمة، التي تفيض بالقدرة الإلهية المباشرة، والنصر المؤزر، والفضل العظيم.

المحور الأول:
رد الكافرين بغيظهم.. النصر بلا قتال

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾

المعنى الإجمالي للآية

هذه الآية توجز النتيجة النهائية لغزوة الأحزاب في كلمات قليلة، ولكنها كلمات تهز الوجدان وتفيض بـ القدرة الإلهية المطلقة.

·{وَرَدَّ اللهُ الذِينَ كفَرُوا}: الله - بنفسه، بقدرته، بجنوده التي لا ترى - ردّ جيوش الأحزاب الكافرين عن المدينة. لم يردهم سيف، ولا جيش، ولا قتال منظم، بل تدخل الله مباشرة! لقد أرسل عليهم ريحًا صرصرًا (ريح الدبور الشديدة البرد) في ليلة شاتية مظلمة، وجنودًا من الملائكة لم يرها البشر، فألقت الرعب في قلوبهم، وقلعت خيامهم، وأكفأت قدورهم، ودفنت رحالهم.

·{بِغَيْظِهِمْ}: الباء هنا للمصاحبة أو الحالية. والمعنى: ردهم وهم ممتلئون غيظًا وحنقًا وحسرة. لقد جاءوا ومعهم العدة والعدد، عشرة آلاف مقاتل، متحفزون لاستئصال المسلمين. ثم رجعوا خائبين، لم يحققوا شيئًا مما جاؤوا من أجله. رجعوا بغيظهم يملأ صدورهم، لم يشفوا غليلهم، ولم ينالوا ثأرهم. يا لها من هزيمة نفسية فوق الهزيمة العسكرية!

·{لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا}: هذا تأكيد على فشلهم الذريع. لم ينالوا أي خير دنيوي: لا غنيمة، ولا نصر، ولا قتل للعدو. ولم ينالوا أي خير أخروي: لأنهم كفار. خسروا الدنيا والآخرة. وهذا هو الخسران المبين.

·{وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ}: هنا بيت القصيد، ولب الرسالة التي تريد هذه الآيات إيصالها. كفى الله المؤمنين القتال! أي: أغناهم عن القتال، وتولى هو المعركة بنفسه. لم يحتاجوا إلى ملاقاة الأحزاب في معركة فاصلة، بل كفاهم الله مؤونة القتال، ونصرهم من غير مباشرة حرب واسعة. نعم، حصلت مناوشات، وحفر الخندق، ورمي بالنبل، ولكن المعركة الفاصلة كفاها الله إياهم.

·{وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}: ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين هو التعليل لكل ما سبق. الله رد الكافرين لأنه قوي لا يغلبه شيء، عزيز لا يناله ذل. الله كفى المؤمنين القتال لأنه قوي يغني عن نصرتهم، عزيز يغلب بذاته. فما حصل كان مظهرًا من مظاهر قوته وعزته.

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

1. إسناد الفعل "رد" إلى الله مباشرة:
·{وَرَدَّ اللهُ}. لم يقل: "فانصرف الأحزاب" أو "فانهزموا"، بل أسند الفعل إلى اسم الجلالة مباشرة. هذا تعظيم للأمر، وتأكيد على أن النصر كان إلهيًا محضًا. لم يكن للمؤمنين فيه يد، بل هو فضل الله عليهم.

2. الباء في "بغيظهم":
هذه الباء تصور حالهم وهم يرجعون. لم يرجعوا فقط خائبين، بل رجعوا متلبسين بالغيظ، مصحوبين بالحسرة. الغيظ يملأ أفئدتهم، ويحرق صدورهم. إنها صورة نفسية بليغة.

3. نفي نيل الخير بـ "لم":
"لم" حرف جزم ونفي وقلب، يفيد النفي المطلق في الماضي. هم لم ينالوا خيرًا طوال مدة الحصار، منذ أن جاؤوا إلى أن رجعوا. الخير منفي عنهم بالكلية.

4. الفعل "كفى" وما فيه من إعجاز:
"كفى" فعل ماض يدل على الإغناء والاكتفاء. والمعنى: أغناهم عن القتال، وتولى هو أمرهم. وفيه إشارة خفية إلى أن الله لم يكن بحاجة إلى قتالهم، بل هم المحتاجون إلى فضله. فلما صدقوا في الا بتلاء، كافأهم بأن كفاهم القتال.

5. "المؤمنين" مقابل "الذين كفروا":
في الآية مقابلة لطيفة:

· الذين كفروا: ردهم الله بغيظهم.
· المؤمنين: كفاهم الله القتال.
فالفريقان كلاهما تلقى من الله فعلًا مباشرًا: الكافرون تلقوا الرد والخيبة، والمؤمنون تلقوا الكفاية و النصر. وهذا من كمال عدل الله.

6. ختام الآية: "وكان الله قويًا عزيزًا":

· "كان": تدل على الدوام والاستمرار. الله لم يزل ولا يزال قويًا عزيزًا.
· "قويًا": صفة مشبهة تدل على تمام القدرة.

· "عزيزًا": صفة مشبهة تدل على الغلبة والمنعة. فهو القوي في ذاته، العزيز الذي لا يغالبه أحد.

الحقيقة الكبرى: الله قادر على نصر دينه بلا قتال!

تأمل معي - أيها القارئ الكريم - هذه الحقيقة التي تزلزل الكيان:

الله سبحانه وتعالى عندما شرع الجهاد والقتال في سبيله، لم يشرعه لحاجته إلى المؤمنين، ولا لعجزه عن نصر دينه بدونهم! حاشاه وكلا!

بل شرعه للابتلاء والتمحيص وتمييز الخبيث من الطيب. كما قال تعالى في الآية السابقة: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾.

والدليل العملي على هذه الحقيقة هو ما حدث في غزوة الأحزاب. لقد كفى الله المؤمنين القتال! تدخل بنفسه، وأرسل الريح والملائكة، ورد الأحزاب بغيظهم، دون حاجة إلى معركة فاصلة يخوضها المؤمنون.

فلماذا إذن حفر المؤمنون الخندق؟ ولماذا رابطوا؟ ولماذا قاتلوا في مناوشات؟

· لأن ذلك كان الابتلاء: ليظهر صبرهم، وثباتهم، وصدق إيمانهم.
· ولأن ذلك كان التكريم: فالله أراد أن يشهد لهم بالفضل، وأن يرفع درجاتهم بالجهاد.
· ولأن ذلك كان التربية: ليتعلموا التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب.

فالجهاد تكريم من الله لعباده المؤمنين، ورفعة لدرجاتهم، ووسام شرف على صدورهم. وهو في نفس الوقت ابتلاء وتمحيص. وليس حاجة من الله إليهم. فهو الغني الحميد.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
لا تظن أن انتصار الحق متوقف عليك وحدك. أنت مأمور بالأخذ بالأسباب، ومأمور بالجهاد والتضحية، ولكن النصر يأتي من عند الله. فإذا صدقت، وبذلت، فإن الله يتولى هو النصر، وربما كفاك القتال كما كفى المؤمنين في الأحزاب.

الرسالة القلبية:
اطمئن! الله قوي عزيز. هو الذي يرد كيد الأعداء، وهو الذي يكفي المؤمنين شر القتال. ثق به، وتوكل عليه، ولا تخف من كثرة الأحزاب وتحالفاتهم. ربك أقوى وأعز.

الرسالة النفسية:
عندما تبذل جهدك في سبيل الله، لا تظن أنك تتفضل على الله. بل أنت المحتاج إلى فضله. هو الغني عن جهادك، ولكنه أراد أن يكرمك ويرفعك. فجاهد شكرًا لله، لا منةً على الله.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك وطلابك عزة الإيمان والثقة بالله. علمهم أن الأعداء مهما تحالفوا، فإنهم سيردون بغيظهم إن نحن صدقنا وتوكلنا على الله. وعلمهم أن الجهاد والعمل والتضحية هي وسام شرف لنا، وليست حاجة من الله إلينا.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة صاحب المشروع الذي تدخل له صاحب النفوذ

تخيل أنك صاحب مشروع صغير، وهناك شركة كبرى تحاول تدمير مشروعك والقضاء عليك. أنت بذلت كل ما في وسعك: أعددت خطة دفاع، وحاولت الصمود، وتوكلت على الله. أنت في ابتلاء عظيم.

ثم فجأة، يتدخل صاحب نفوذ كبير جدًا، ويأمر تلك الشركة الكبرى بالانسحاب فورًا، ويهددها بعقوبات إن عادت. الشركة تنسحب بغيظها، لم تنل منك شيئًا. أنت لم تقاتلها بنفسك، بل كفاك صاحب النفوذ

القتال.

هذا الصاحب هو الله سبحانه! هو القوي العزيز الذي يتدخل بنفسه لنصر عباده المؤمنين، بعد أن يبتليهم ليرى صدقهم وصبرهم. فإذا صدقوا، كفاهم القتال، ونصرهم من حيث لا يحتسبون.
المحور الثاني:
إنزال اليهود من صياصيهم وقذف الرعب في قلوبهم

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾

المعنى الإجمالي للآية

هذه الآية تنتقل إلى الفصل الثاني من النصر الإلهي، وهو ما حدث مع بني قريظة من اليهود.

من هم "الذين ظاهروهم من أهل الكتاب"؟
هم يهود بني قريظة، الذين كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد وميثاق على ألا يعاونوا عليه أحدًا، وأن يدافعوا معه عن المدينة. ولكنهم نقضوا العهد في أحلك الظروف، وظاهروا الأحزاب (أي: عاونوهم وتحالفوا معهم) ضد المسلمين، وفتحوا جبهة داخلية خطيرة كادت تقضي على المسلمين.

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾:

· "أنزل": أي أخرجهم من حصونهم، وأجبرهم على النزول إلى حكم النبي صلى الله عليه وسلم.
· "صياصيهم": جمع صيصة، وهي الحصن المنيع، وكل ما يتحصن به. والمعنى: أنزلهم الله من حصونهم المنيعة التي كانوا يعتمدون عليها، والتي ظنوا أنها تمنعهم من بأس الله.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾:
"قذف" فعل يدل على الرمي بقوة وشدة. والله تعالى قذف في قلوبهم الرعب، فملأها خوفًا وهلعًا. وهذا هو جند الله الخفي الذي لا يقاوم. لقد كانوا في حصونهم، عندهم الطعام والماء والسلاح، ويستطيعون الصمود طويلاً ً. ولكن الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم أنزلهم من حصونهم دون قتال يذكر.

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾:
بعد أن نزلوا، حكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه (بطلب منهم، وبتحكيم من النبي صلى الله عليه وسلم) بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم ونساؤهم. وهذا ما تم.

· فريقًا تقتلون: وهم الرجال المقاتلون.
· وتأسرون فريقًا: وهم النساء والصبيان.

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

1. الفعل "أنزل":
استخدام "أنزل" فيه إشارة إلى أنهم كانوا في ارتفاع ومنعة في حصونهم، فأخرجهم الله منها أذلة صاغرين. وفيه أيضًا إشارة إلى سهولة الأمر على الله: هم عالون، وهو ينزلهم بقدرته.

2. التعبير بـ "ظاهروهم":
"ظاهروهم" من المظاهرة وهي المعاونة والمناصرة. وهذا تذكير بجرمهم: هم لم يكتفوا بنقض العهد، بل عاونوا الأحزاب على المسلمين. وهذا هو الخيانة العظمى.

3. "من أهل الكتاب":
هذا الوصف يفضحهم ويقرعهم. هم أهل كتاب، يعرفون الحق، ويعرفون صفة النبي صلى الله عليه وسلم في كتبهم. ومع ذلك نقضوا العهد وخانوا. فجرمهم أعظم من جرم مشركي العرب.

4. "صياصيهم":
هذه الكلمة تصور شدة منعتهم وعلو حصونهم. فالحصن صيصة لأنه يمتنع به كما تمتنع الدابة

بصيصيتها (قرنها). ومع ذلك، لم تنفعهم صياصيهم من بأس الله.

5. "قذف":
هذا الفعل بليغ جدًا في تصوير سرعة الرعب وشدته وتمكنه من القلوب. لم يقل: "ألقى" أو "وضع"، بل قال: "قذف". فالرعب رمي في قلوبهم بقوة، فاستقر فيها، ولم يخرج منها. وكأنه سهم أصاب الهدف.

6. "في قلوبهم":
خص القلوب دون غيرها، لأن القلب هو مركز الشجاعة والخوف. فإذا امتلأ القلب رعبًا، انهار الجسد كله، ولم تنفع الحصون ولا الأسلحة.

7. التقسيم بـ "فريقًا... وفريقًا":
هذا تفصيل بعد إجمال، يصور مصيرهم بعد النزول. هم لم يبقوا مجموعة واحدة، بل انقسموا إلى مقتولين ومأسورين.

العلاقة مع الآيات السابقة: الجهاد ابتلاء لا حاجة

تأمل معي كيف أن هذه الآية تؤكد ما قلناه في الآية السابقة:

لقد كفى الله المؤمنين القتال مع الأحزاب، فلم يحتاجوا إلى معركة فاصلة مع قريش وغطفان. أما مع بني قريظة، فقد أمرهم بالقتال والأسر. لماذا؟

لأن بني قريظة خانوا العهد، وكانوا في الداخل، وخطرهم أشد. فأراد الله أن يبتلي المؤمنين بحصارهم وقتال مقاتلتهم، ويكرمهم بأن تكون أيديهم هي العليا في تطهير المدينة من الخونة. فـ الجهاد هنا كان ابتلاءً وتكريمًا معًا.

ولو شاء الله لأنزلهم من صياصيهم وأهلكهم بريح أو صاعقة، دون حاجة إلى قتال المؤمنين. ولكنه أراد أن يشهد المؤمنون نصر الله بأعينهم، وتكون أيديهم هي التي توقع العقاب بالخائنين، فيشتفوا منهم، وتطمئن قلوبهم.

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
لا حصن ولا قوة تمنع من بأس الله. بنو قريظة كانوا في حصون منيعة، ولديهم طعام وسلاح، ومعهم حلفاء أقوياء. ولكن الرعب الذي قذفه الله في قلوبهم أنزلهم صاغرين. فلا تعتمد على حصونك المادية، واعتمد على حصن الله.

الرسالة القلبية:
الخيانة عاقبتها وخيمة. بنو قريظة نقضوا العهد في أحلك الظروف، فكان جزاؤهم القتل والأسر. فاحذر خيانة العهد مع الله ومع الناس. فالخائن يمقته الله، ويجعل الرعب في قلبه.

الرسالة النفسية:
الله ينتصر للمؤمنين من أعدائهم. إذا رأيت الخائنين والمتآمرين يحيكون المؤامرات، فلا تقلق. ثق أن الله سيرد كيدهم، وسيذيقهم وبال أمرهم. وقد يجعلك أنت سببًا في عقابهم، تكريمًا لك.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك حرمة العهد، وبشاعة الخيانة. قص عليهم قصة بني قريظة، وكيف أنهم نقضوا العهد، فكان مصيرهم الدمار. وعلمهم أن الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين، والغدر من صفات المنافقين و اليهود.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة الشريك الخائن في الشركة

تخيل أنك وشريكًا لك أسستما شركة، واتفقتما على ميثاق ألا تتعاملا مع شركة منافسة. ثم تمر الشركة بأزمة مالية، فإذا بشريكك ينقض العهد، ويتعامل سرًا مع الشركة المنافسة ضدك! هذه خيانة

عظمى.

بعد فترة، تكتشف خيانته. أنت لا تملك القوة لمواجهته، ولكن السلطات تتدخل، وتكتشف تلاعباته المالية، فيُسجن، وتُصادر أمواله، وترجع إليك حصتك كاملة. لقد أنزله الله من صياصيه، وقذف في قلبه الرعب، وأوقع به العقاب.

هذا ما حدث مع بني قريظة. نقضوا العهد، فأنزلهم الله من حصونهم، وقتل مقاتلتهم، وأسر نساؤهم. ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.
المحور الثالث:
توريث المؤمنين أرض الكافرين وديارهم وأموالهم

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾

المعنى الإجمالي للآية

هذه الآية تكمل النصر وتصور ثمرته العظيمة للمؤمنين.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾:

· "أورثكم": أي جعلها لكم ميراثا، تنتقل إليكم ملكيتها.
· "أرضهم": الأراضي الزراعية والبور التي كانت لبني قريظة.
· "ديارهم": منازلهم وحصونهم التي كانوا يسكنونها.
· "أموالهم": كل ما يملكون من نقود وعروض تجارة ومواشٍ وغيرها.

كل هذه أورثها الله للمؤمنين، فأصبحت غنيمة لهم، ينتفعون بها في حياتهم.

﴿وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا﴾:
هذه بشارة عظيمة تتجاوز ما حدث في غزوة الأحزاب. والمعنى: وأورثكم الله أيضًا أرضًا لم تطؤوها بعد، أي: ستفتحونها في المستقبل. وهذا يشمل:

· خيبر: التي فتحت بعد الأحزاب مباشرة.
· مكة: التي فتحت بعد صلح الحديبية.
· فارس والروم: التي فتحت في عهد الخلفاء الراشدين.
· كل ما سيفتحه المسلمون إلى يوم القيامة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾:
ختم الآية بهذه العقيدة العظيمة. الله قدير على أن يورثكم أرضهم، وقدير على أن يورثكم أرضًا لم تطؤوها. لا يعجزه شيء. فكل ما وعدكم به آتٍ لا محالة.

اللمسات البيانية والبلاغية في الآية

1. الفعل "أورثكم":
"الإرث" هو انتقال الملكية بلا تعب ولا ثمن. وكأن الله يقول: أنتم لم تتعبوا في تحصيل هذه الأموال، بل هي هدية من الله لكم، وميراث من أعدائكم. وهذا تكرمة عظيمة للمؤمنين.

2. تعداد ما أورثهم:
ذكر ثلاثة أشياء:

· الأرض: الأساس.
· الديار: المساكن.
· الأموال: المنقولات.
وهذا استقصاء لكل ما يمكن أن يملكوه. فما تركوا شيئًا إلا صار للمؤمنين.

3. "أرضًا لم تطؤوها":

· "لم تطؤوها": كناية عن الفتح والتملك. لم تطأها أقدامكم بعد، ولكنها ستكون لكم.
· تنكير "أرضًا": للتعظيم والتفخيم. إنها أرض عظيمة، واسعة، لم تروها بعد، ولكنها في علم الله وفي وعده لكم.

4. واو العطف في "وأرضًا":
عطف "وأرضًا" على ما سبق، ليفيد أن هذه نعمة مستقلة، وهي وعد بالمستقبل، وليست فقط ما حصل في الماضي.

5. ختام الآية: "وكان الله على كل شيء قديرًا":

· "كان": للدوام والاستمرار.
· "على كل شيء": لفظ عام مطلق يشمل كل ما يمكن أن يخطر بالبال.
· "قديرًا": صيغة مبالغة، تدل على كمال القدرة.

فهذا الختام يعلق القلوب بالله، ويبث فيها الثقة بأن كل ما وعد الله به فهو واقع، لأنه قدير لا يعجزه شيء.

لماذا هذا التوريث؟ حكمة إلهية عظيمة

تأمل معي: لماذا أورث الله المؤمنين أرض الكافرين وأموالهم، بدل أن يهلكها كما أهلك قوم نوح وعاد وثمود؟

1. تكريم للمؤمنين:
الله أراد أن يكرم عباده المؤمنين، فيجعلهم ورثة لأعدائهم. فهذا عز لهم، وشرف، وزيادة في النعمة.

2. إقامة الحجة على الكافرين:
عندما يرى الكافرون أن أموالهم وديارهم صارت للمؤمنين، فهذا أشد حسرة عليهم من مجرد الهلاك. إنهم يرون النعمة تتحول إلى أعدائهم.

3. استمرار الجهاد والابتلاء:
لما كان الجهاد عبادة وابتلاء، فإن الله يبقي الأرض والمال للمؤمنين، ليستمروا في الشكر، وليكون ذلك دافعًا لغيرهم للإيمان.

4. تحقيق سنة الاستخلاف:
هذه هي سنة الله في استخلاف المؤمنين في الأرض، وتمكينهم، وتوريثهم أرض الكافرين. كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 5].

الرسائل الذهنية والقلبية والنفسية والتربوية

الرسالة الذهنية:
لا تظن أن أموال الكافرين وقوتهم ستدوم لهم. سنة الله أن يورثها لعباده المؤمنين، إذا صدقوا وصبروا. هذا وعد الله، والله لا يخلف الميعاد.

الرسالة القلبية:
أحب وعد الله، وثق بتحقيقه. إذا رأيت الكافرين يستأثرون بخيرات الأرض، فلا تحزن. ثق أن الله سيورثها لعباده الصالحين في الوقت الذي يشاء. ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: 128].

الرسالة النفسية:
أنت وارث الأرض بفضل الله. لا تشعر بالدونية أو الضعف أمام قوة الكافرين المادية. أنت تملك وعد الله، وهم يملكون فانيات. اصبر واثبت، وسترى نصر الله وتوريثه.

الرسالة التربوية:
ازرع في أبنائك حب الخير واستثماره في طاعة الله. علمهم أن الأموال والأراضي التي يملكها المؤمنون هي نعمة من الله، وإرث من أعدائهم. فعليهم أن يشكروا هذه النعمة، وأن يستخدموها في

طاعة الله.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة

قصة العائلة التي ورثت بيت خصمها

تخيل عائلة مؤمنة صابرة، جارها رجل ظالم غني، يحاول دائمًا إيذاءهم والاستيلاء على أرضهم. العائلة صبرت، وتوكلت على الله، ودعت عليه.

بعد سنوات، يموت هذا الرجل الظالم مفلسًا، وتضطر عائلته لبيع بيته وأرضه. ومن عجيب قدر الله، أن العائلة المؤمنة هي التي اشترت بيته وأرضه، وأصبحت مالكة لما كان له!

لقد أورثهم الله أرضه وديارهه. هذا مصغر جدًا لما حدث مع بني قريظة والأحزاب.
المحور الرابع:
النظرة الشاملة للآيات الثلاث.. تجليات القدرة الإلهية المباشرة

1. الله هو الفاعل الحقيقي في كل شيء

تأمل الأفعال التي أسندها الله إلى نفسه في هذه الآيات:

- ﴿رَدَّ اللهُ﴾.
- ﴿كفَى اللهُ﴾.
- ﴿أنزَلَ﴾ (بنو قريظة).
- ﴿قذَفَ فِي قلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾.
- ﴿أَوْرَثَكُم﴾.

كلها أفعال إلهية مباشرة. المؤمنون لم يفعلوا شيئًا في رد الأحزاب، ولم ينزلوا بني قريظة من صياصيهم، ولم يقذفوا الرعب في قلوبهم. الله هو الذي فعل كل ذلك. المؤمنون فقط صبروا، وثبتوا، وأخذوا بالأسباب، فكافأهم الله بأن تولى هو المعركة بنفسه.

2. الجهاد ابتلاء وتكريم، لا حاجة

هذه الآيات تؤكد بوضوح أن الله غني عن جهاد المؤمنين. هو القوي العزيز، القدير على كل شيء. لو شاء لأهلك الأحزاب بلا قتال، كما أهلك عادًا بالريح العقيم. ولكنه أراد أن يبتلي المؤمنين، ليميز الصادق من الكاذب، وليكرمهم بشرف الجهاد والثبات.

فالجهاد ليس عبئًا، بل هو وسام شرف. وليس حاجة لله، بل هو رحمة بالمؤمنين ليرفع درجاتهم.

3. النصر من عند الله وحده

لا ينبغي للمؤمن أن يغتر بكثرته أو قوته. النصر من عند الله. الأحزاب كانوا عشرة آلاف، والمسلمون ث لاثة آلاف. ومع ذلك، رد الله الأحزاب بغيظهم. فلا تعتمد على عددك وعدتك، بل توكل على ربك، وخذ بالأسباب، ثم انتظر النصر من عنده.

4. توريث المؤمنين أرض الكافرين سنة ماضية

ما حدث مع بني قريظة من توريث أرضهم وديارهم وأموالهم للمؤمنين، هو سنة إلهية مستمرة. فالله يورث الأرض لمن يشاء من عباده الصالحين. وهذا وعد للمؤمنين في كل زمان: إذا صدقوا وصبروا، فإن الله سيمكنهم، ويورثهم أرض أعدائهم.
المحور الخامس:
كيف نطبق هذه الآيات في حياتنا العملية اليوم؟

1. في علاقتنا بالله والتوكل عليه

ثق أن النصر من عند الله:
لا تعتمد على قوتك الذاتية فقط. خذ بالأسباب، واجتهد، ثم توكل على الله. هو الذي يرد الأعداء،

وهو الذي ينزلهم من صياصيهم، وهو الذي يورثك الخير.

لا تظن أنك تتفضل على الله بعملك:
أنت المحتاج إلى فضل الله. هو الغني عن عبادتك وجهادك. ولكنه أراد أن يكرمك ويرفعك. فاعمل شكرًا، لا منةً.

2. عند مواجهة الأعداء والمؤامرات

لا تخف من تحالفات الأعداء:
الأحزاب تحالفوا على المسلمين، ولكن ردهم الله بغيظهم. فمهما تحالف أعداؤك، ومهما كثر عددهم، ثق أن الله قادر على ردهم، وكفايتك شرهم.

اصبر واثبت:
الأحزاب لم يُهزموا في يوم واحد. حاصروا المدينة شهرًا كاملا ً. والمؤمنون صبروا وثبتوا، حتى جاء نصر الله. فاصبر على أذى الأعداء، واثبت على الحق، وانتظر نصر الله.

3. في التعامل مع الخائنين

لا تأمن الخائنين:
بنو قريظة كانوا أهل كتاب، ولكنهم خانوا العهد في أحلك الظروف. فلا تأمن المنافقين والخائنين، مهما أظهروا من ود. وكن حذرًا من مكرهم.

ثق أن الله سينتقم لك من الخائنين:
إذا خانك أحد، وكنت صادقًا، فلا تحزن. الله سينتقم لك. هو الذي أنزلهم من صياصيهم، وقذف في قلوبهم الرعب. وقد يجعلك أنت سببًا في عقابهم.

4. في استقبال وعد الله بالمستقبل

تفاءل بالمستقبل:
الله وعد المؤمنين بأرض لم تطؤوها. وهذا يشمل كل خير سيأتي في المستقبل. فلا تيأس، ولا تنظر إلى الواقع المرير فقط. تفاءل بأن الله سيورثك خيرًا لم تره بعد، وسيفتح عليك أبوابًا لم تكن في حسبانك.

اعمل للمستقبل بثقة:
بما أن الله وعدك بالمستقبل، فاعمل له بجد واجتهاد. لا تكن كسولا ً. الأرض التي سترثها تحتاج إلى عمارة وبناء. فكن مستعدًا لنعمة الله القادمة.
خاتمة: العودة إلى الله القوي العزيز القدير

أيها القارئ الكريم.. لقد طفنا معًا في رحاب ثلاث آيات عظيمات من كتاب الله. آيات تفيض بالقدرة ا لإلهية، وتعلن النصر المؤزر، وتبشر بالمستقبل الواعد.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· الله هو الذي يرد كيد الأعداء، ويكفي المؤمنين شر القتال.
· الله هو الذي ينزل الأعداء من حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم.
· الله هو الذي يورث المؤمنين أرض الكافرين وديارهم وأموالهم، ويبشرهم بأرض لم تطؤوها بعد.
· الجهاد والقتال إنما شرعا للابتلاء والتمحيص والتكريم، لا لحاجة الله إلى عباده.
· النصر من عند الله وحده، وهو قوي عزيز قدير على كل شيء.

فلنحمد الله على نعمته، ولنشكره على نصره، ولنثق بوعده، ولنعمل للمستقبل بجد واجتهاد، ولنوقن أنه ﴿عَلَىٰ كلّ شَيْءٍ قدِيرٌ﴾.

﴿وَرَدّ اللهُ الذِينَ كفرُوا بِغَيْظِهِمْ لمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ ۚ وَكَانَ اللهُ قوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تقتُلُونَ وَتَأسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لمْ تطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كلّ شَيْءٍ

قدِيرًا﴾.

صدق الله العظيم..

المقطع الثالث
تتناول ايات هذا المقطع من 28--34 تاديب الله لنساء النبي صلى الله عليه وسلم كقدوه ونموذج ل نساء المؤمنين الى قيام الساعه
المبحث الأول
تفسير آية التخيير) الأحزاب: (28 – دراسة شاملة في الأبعاد البيانية والتربوية والحضارية
مدخل إلى رحاب الآية الكريمة
تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني الفريد، مشهدًا لا يشبه أي مشهد في تاريخ البشرية .إنه مشهد يُرسم فيه قدرٌ من أقدار السماء داخل حجرات بيت النبوة، في اللحظة التي يلتقي فيها البشري بالرباني، والمادي بالروحي، والزائل بالخالد.

يقول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا"

إنها ليست مجرد آية تتلى، بل هي ميثاق، هي فلسفة حياة كاملة، هي مدرسة في التربية والقيادة وبناء الحضارة .إنها الآية التي أعادت تعريف الحرية، وأرست قواعد الكرامة، ورسمت خارطة الطريق للمرأة المسلمة عبر العصور.

فلنغص معًا في أعماق هذه الجوهرة القرآنية، ولنستخرج دررها واحدةً واحدة، بقلبٍ حاضرٍ وعقلٍ متأمل، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، وكأن الخطاب موجّه إلينا شخصيًا في زمن كثرت فيه المغريات ، وتشعبت فيه السبل، وتاه فيه كثيرون بين زينة الدنيا وباقيات الصالحات.
الامر الاول: لماذا بدأ النداء للنبي أن يبلغ زوجاته؟ – فلسفة الوساطة النبوية وأسرارها

اللمسة البيانية الأولى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ"

قف معي عند هذا النداء العلوي الكريم: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" .إنه نداء لم يأتِ عبثًا، فكل حرف في كتاب الله له موضعه ومغزاه .لم يقل الله: "يا أيها الرسول" هنا، بل قال: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ"، والنبوة مقامٌ أرفع وأخص من الرسالة، إنها مقام التلقي الخاص من الله، مقام القرب والاصطفاء .وفي هذا سرٌ عظيم: أن الأمر الذي سيصدر من فم النبي لأزواجه ليس مجرد رأي بشري أو تعليم عادي، بل هو وحيٌ يوحى، هو أمرٌ من فوق سبع سماوات، يريد الله أن يصل إلى مسامع النساء عبر أنقى قناة وأطهر واسطة: قلب النبي صلى الله عليه وسلم ولسانه.

لماذا لم يخاطبهن مباشرة؟

تخيل – رعاك الله – لو أن الخطاب جاء مباشرة: "يا نساء النبي إن كنتن تردن..."، هل كان سيكون له نفس الوقع؟ هل كان سيحمل نفس الهيبة؟ نفس القداسة؟ نفس البعد التربوي العميق؟

إن توجيه الخطاب للنبي أولا ً ثم تكليفه بتبليغه لزوجاته يحمل في طياته رسائل نفسية وتربوية وحضارية عظيمة، أذكرها لك لتتأمل فيها بعمق:

١.إضفاء صبغة المنهج النبوي على الأمر

حين يتلقى النبي صلى الله عليه وسلم الأمر من ربه ثم ينقله إلى أهله، فإنه بذلك يحوّل الخيار المطروح من مجرد خيار شخصي بين زوج وزوجته، إلى منهج تربوي متكامل يرسّخ في وجدان الأ مة .فالنبي هنا ليس زوجًا يطلب من زوجته أن تصبر على ضيق العيش فحسب، بل هو مربٍّ وقائد يضع شريكة حياته أمام مسؤوليتها التاريخية .وهذا يعلمنا درسًا عظيمًا: أن الإصلاح الاجتماعي لا يبدأ من أطراف المجتمع، بل من الدائرة الأقرب للقيادة، لتكون هذه الدائرة هي النموذج الذي يُحتذى، و المدرسة التي تتخرج منها الأجيال.

٢.تعظيم شأن المرأة وتكريم مقامها

تأمل معي هذا المعنى الدقيق: الله تعالى – وهو الغني عن العالمين – لم يفرض على نساء النبي البقاء في بيوتهن رغم الشظف والضيق، بل جعل الأمر خيارًا يُعرض عليهن، وجعل النبي هو من يعرض هذا الخيار .وفي هذا تكريم عظيم للمرأة، فقرار مصيري بهذا الحجم يُعرض عليها لتختار فيه بملء إرادتها، عبر أكرم وسيط وأعظم مبلغ .إنه إعلان قرآني بأن المرأة – حتى في أعلى مقامات القرب من النبي – هي كيان مستقل، تخاطب في صميم وعيها وإرادتها، ولا تساق سوقًا ولا تكره

إكراهًا.

٣.بناء هالة القداسة حول بيت النبوة

حين يصدر الأمر من الله إلى النبي، ثم من النبي إلى أزواجه، فإن المجتمع المسلم برمته يصبح شاهدًا على هذا المشهد المهيب .إنه أشبه بإعلان رسمي من السماء بأن بيت النبوة ليس كأي بيت، وأن ساكناته لسن كأي نساء، وأن القرار الذي سيتخذنه سيكون درسًا للعالمين .هذه الوساطة النبوية في التبليغ تجعل من الحدث واقعة تاريخية تُروى وتُدرس، لا مجرد حوار أسري عابر.

٤.اللمسة البلاغية: إظهار العناية والاهتمام البالغ

في البلاغة العربية، توجيه الخطاب إلى المخاطَب الأعلى) النبي (ثم تفويضه بتبليغ المخاطَب الأدنى)الأزواج (يُسمى الالتفات، وهو من أساليب التوكيد والاهتمام .فالله تعالى يريد أن يقول للمسلمين جميعًا: "انظروا كيف أني أعتني بتربية بيت النبوة عناية خاصة، حتى جعلت نبيي هو المبلِّغ المباشر لهذا الأمر العظيم" .إنه كمن يرسل رسالة عاجلة مع أعظم مبعوث وأكرم رسول، ليوصلها إلى أقرب الناس إليه.

٥.الرسالة التربوية للرجال: كيف تتعامل مع زوجتك في القضايا المصيرية

تأمل معي كيف علم الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون لطيفًا رفيقًا حتى وهو يبلغ زوجاته أمرًا قد يبدو قاسيًا في ظاهره .إنه لم يقل: "قل لهن: إما أن تصبرن على العيش معي كما أنا، وإما أن تذهبن"، بل قال: "فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" .أسلوب في غاية الرقة واللطف، يدعوهن إلى التعالي، وهو لفظ يوحي بالارتقاء والرفعة لا بالنزول والهوان، ويَعِدُهن ب- المتعة) العطية الحسنة (وب- السراح الجميل) الفراق الكريم .(وهذه مدرسة عملية لكل زوج: أن القضايا المصيرية في الحياة الزوجية تُطرح بوضوح، لكن في إطار من التكريم والاحترام والرفق، لا في إطار التهديد والإذ لال.

٦.الرسالة النفسية العميقة: تحويل الضغط إلى خيار واع

المرأة التي تسمع الأمر من زوجها مباشرة – حتى لو كان نبيًا – قد تشعر بنوع من الضغط النفسي، لأنها تخشى أن تخيب ظنه أو تغضبه .لكن حين يأتي الأمر عبر هذه القناة المقدسة) الله ← النبي ← الزوجات(، فإنها تدرك أن الخيار حقيقي وليس صوريًا، وأنها حرة تمامًا في اختيار الطريق الذي يناسبها، دون أي ضغط عاطفي أو نفسي من الزوج .وهذا منتهى التحرر النفسي الذي يمنحه الإسلام للمرأة.

الأمر الثاني: دلالة تخصيص نساء النبي بالنداء – فلسفة القدوة وتخليد مكانة المرأة

إن تخصيص الخطاب بنساء النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ليس حصرًا للمعنى فيهن، بل هو توسيع للمعنى ليشمل كل امرأة مسلمة، ولكنه توسيع من باب تشريف النموذج وتعظيم القدوة.

١.واسطة النبوة في الخطاب: صناعة النموذج الحي

حين يبدأ النداء ب- "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ"، فإن الله تعالى يضع أمامنا حقيقة تربوية كبرى: أن القائد أو المربي لا يمكنه أن يطلب من أتباعه أو طلابه شيئًا إلا إذا بدأ بأقرب الناس إليه .إن بيت القيادة هو المرآة التي تعكس صدق المبادئ التي ينادي بها القائد .فلو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس إلى الزهد في الدنيا، بينما نساؤه يعشن في بحبوحة من العيش وبذخ من المتاع، لكان ذلك مدعاة للتشكيك في مصداقية الدعوة .ولكن لأن بيت النبوة كان النموذج العملي الأول لهذا الزهد، فقد أصبحت الدعوة إليه منطبعة في القلوب، حية في الضمائر.

٢.صناعة النموذج المثالي: اللوحة الفكرية التي لا تبهت

تأمل معي هذا المعنى العظيم: حين يختص القرآن نساء النبي بهذا الخطاب، فهو لا يحصره فيهن، بل يخلق معيارًا ذهبيًا تقاس عليه كمالات النساء عبر العصور .إنهن "أمهات المؤمنين"، وهذه الأمومة ليست أمومة نسب فقط، بل هي أمومة قدوة وتربية .إنها تعني أن كل امرأة مسلمة هي "ابنة" روحية لهؤلاء الأمهات العظيمات، وعليها أن تقتدي بهن كما تقتدي البنت بأمها.

• حضور النموذج في الوجدان الجمعي للأمة

عندما تقرأ المرأة المسلمة هذه الآية، وتعلم أن الخطاب موجه لنخبة النساء في تاريخ الإسلام، يتولد في نفسها شعوران عظيمان متلازمان:

· الشعور الأول: الإجلال والتعظيم – إنهن لسن نساء عاديات، بل هن أمهات المؤمنين، زوجات خاتم ا لأنبياء، من اختارهن الله لتكون بيوتهن مهبط الوحي، وحجراتهن مدارس العلم والإيمان.
· الشعور الثاني: الرغبة في التشبه والاقتداء – إذا كان هذا هو مستوى التكليف لهذه النخبة المختارة، فكيف بي أنا؟ ألست أحوج منهن إلى الزهد والترفع والتضحية؟ إن النموذج هنا ليس مجرد نصائح جافة تقال في خطب الوعظ، بل هو تجسيد حي لنساء عشن هذه التجربة فعليًا، واجهن إغراءات الدنيا بعزيمة، وانتصرن على بشريتهن بإيمان.

• القدوة العملية: لوحة فكرية للمرأة

القرآن الكريم هنا لا يخاطب نساء النبي فحسب، بل يرسم عبرهن لوحة فكرية متكاملة لكل امرأة مسلمة .ما هي معالم هذه اللوحة؟

· دورك ليس هامشيًا: أنتِ – أيتها المرأة – لست مجرد تابع للرجل في رحلة الحياة، بل أنتِ في قلب صناعة التاريخ .قراراتك الشخصية لها أثر يتجاوز جدران بيتك إلى المجتمع والدولة والحضارة.
· بقدر ترفعك عن الماديات يخلد ذكرك وتأثيرك: انظري كيف خلد القرآن ذكر نساء النبي بهذه الآية وبغيرها إلى يوم القيامة .لماذا؟ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة على زينة الدنيا ومتاعها الزائل .وكل امرأة تخطو هذا الطريق الصعب، تختار القيم على السعر، والمبادئ على المغانم، فإنها تكتب اسمها في سجل الخالدات، ولو لم يذكرها التاريخ بأسمائها.

٣.تحويل الخطاب من خاص إلى حاضر دائم

رغم أن المخاطبات في الآية هن نساء النبي فقط، إلا أن علة الحكم – وهي إيثار الله والدار الآخرة على زينة الدنيا – هي علة عامة لكل مؤمنة .وهذه من بدائع التشريع القرآني: أن يخصص السبب وتعم العلة، فيصبح الخطاب الخاص تشريعًا عامًا دائمًا.

• الارتقاء بالهمة

عندما ترى المرأة المسلمة أن أمهات المؤمنين – وهن في أعلى مكانة وأشرف مقام – قد طُلب منهن هذا الزهد وهذه التضحية، فإنه يسهل عليها هي – وهي في مقام أدنى – أن تتقبل هذا الأمر وتعتز به .إنها تقول لنفسها: "إذا كانت سيدات نساء العالمين قد اخترن الكفاف والقناعة، فكيف أشقى أنا بطلب الزيادة والاستكثار من الماديات؟"

• بناء الوجدان على القيم لا على الأثمان

الآية تعمل في أعماق النفس البشرية عملًا عجيبًا، فهي تعيد صياغة رغبات المرأة، وتعيد توجيه بوصلة قلبها .فبدلًا من أن يكون وجدانها معلقًا بـ المتاع) الفستان الفاخر، الحلي الثمين، الأثاث المترف(، يصبح معلقًا بـ المقام) القرب من الله، رضوانه، معية رسوله في الجنة .(تمامًا كما اختارت أمهات المؤمنين مقام الزوجية للنبي على متاع الدنيا الزائل .وهذه ثورة نفسية حقيقية يحدثها القرآن في أعماق المؤمنة.

٤.دور المرأة في صناعة التاريخ – القرار الشخصي بأثر حضاري

هذا الخطاب القرآني الرفيع يؤسس لمفهوم بالغ الأهمية: أن قرار المرأة الشخصي – حتى في شؤون بيتها الخاص – له أثر سياسي وحضاري قد لا تدركه هي نفسها في حينه.

• قرار زوجات النبي كان دعمًا معنويًا للدولة الإسلامية الناشئة

تخيل معي المشهد: الدولة الإسلامية في المدينة تواجه تحديات خارجية جسيمة: غزوات متتابعة، حصار اقتصادي، مؤامرات ودسائس .في هذا الوقت العصيب، ماذا لو أن نساء النبي بدأن يطالبنه

بتوسعة في العيش، بكسوة أفخر، بطعام ألذ، بمسكن أرحب؟ ماذا كان سيكون وقع ذلك على قلب النبي وهو يحمل هم الدعوة والدولة؟ وماذا كان سيكون وقع ذلك على المسلمين العاديين الذين يرون قائدهم منشغلًا بتلبية مطالب زوجاته المادية بدلًا من التفرغ لإدارة شؤون الأمة؟

إن اختيار أمهات المؤمنين للبقاء على حالهن من الزهد والكفاف كان دعمًا معنويًا هائلًا للدولة الإسلا مية الناشئة .لقد حررن بيت القيادة من ضغوط الاستهلاك والمفاخرة المادية، ليتفرغ هذا البيت لوظيفته الأساسية: تلقي الوحي، تربية الأمة، تعليم العلم، قيادة المسيرة .وهكذا، وبقرار شخصي بحت، كنّ قد أسهمن في أعظم مشروع حضاري عرفته البشرية.

• المرأة حامية القيم لا مجرد مستهلكة لها

الآية ترسم للمرأة دورها الحضاري الأسمى: أن تكون حامية للقيم في مجتمع تتهددها أمواج المادة العاتية .إنها تدرك أن صمودها في وجه طغيان الماديات ليس مجرد ترف روحي، بل هو مساهمة حقيقية في استقامة المجتمع وتماسكه .فإذا صمدت المرأة – وهي المحرك الأساسي لثقافة الاستهلاك أو ثقافة البناء في الأسرة – فإن المجتمع كله ينتصر في هذه المعركة الوجودية.

تأمل معي: كم من أسرة انهارت بسبب ضغط الزوجة على زوجها لشراء ما يفوق طاقته من كماليات؟ وكم من زوج انزلق في طرق ملتوية) رشوة، غش، احتيال (ليتمكن من تلبية مطالب زوجته الاستهلا كية المتصاعدة؟ وكم من طاقات المجتمع أهدرت في مظاهر كاذبة وبذخ فارغ، بينما المشاريع الكبرى)التعليم، الصحة، البحث العلمي (تعاني من نقص التمويل؟

إن وعي المرأة بهذه الآية يجعلها حائط صد منيعًا ضد ثقافة الاستهلاك المدمرة، ويجعل بيتها حصنًا للقيم لا معرضًا للسلع.

٥.المساهمة في بناء الحضارة: المسار الروحي الخاص للمرأة

إن جعل نساء النبي نموذجًا للمرأة المسلمة يمنحها ثقة وجودية عظيمة .إنها تدرك أنها ليست تابعة للرجل في مسارها الروحي، بل لها معركتها الخاصة مع الدنيا وزينتها، مع المغريات والمباهات، وانتصارها في هذه المعركة ليس مجرد نجاح شخصي، بل هو مساهمة حقيقية في بناء حضارة لا تنكسر أمام الإغراءات المادية.

• أنتِ لستِ ظلًا لأحد

المرأة المسلمة – في ضوء هذه الآية – تدرك أن لها بصمتها الخاصة في مسيرة الحضارة الإسلامية . إنها ليست مجرد زوجة وأم فقط) مع عظم هذا الدور(، بل هي صانعة حضارة بطريقتها الخاصة: من خلال اختياراتها، من خلال صبرها، من خلال ترفعها عن الصغائر، من خلال إيثارها للقيم على الأثمان . إن زوجات النبي لم يشاركن في الغزوات بالسيف، لكنهن شاركن في بناء الحضارة بـ القرار المصيري الذي اتخذنه في حجراتهن.

• خلاصة الأمر الثاني

إن ابتداء الآية بهذا النداء العظيم: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ" هو في حقيقته دعوة مفتوحة لكل امرأة مسلمة أن تدخل مدرسة أمهات المؤمنين، لتتعلم منهن كيف تكون حياتها العملية انعكاسًا لتلك اللوحة الفكرية الربانية .إنها دعوة لتكون عزتها بالقيَم لا بالثمن، وجمالها بالسلوك لا بالمتاع، وقوتها في التخلي عن صغائر الأمور من أجل عظمات الغايات.
الامر الثالث: دلالة "إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا" – تشريح الرغبة البشرية واستنهاض الهمة

هذا المقطع من الآية هو قلب الحدث وذروة الامتحان .إنه السؤال الذي يضع المرأة) والرجل أيضًا (أمام مرآة نفسه لترى حقيقة ما تريد، لا ما تدّعي أنها تريد.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا"

١."إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ" – أداة الشرط التي تفتح باب الاختيار الواعي

استخدام "إن" الشرطية هنا له دلالة عميقة ."إن" تفيد الشك أو الاحتمال، وكأن الآية تقول: "إن كان

هذا هو ما تردنه حقًا في أعماق قلوبكن، بعد تفكير وتدبر، لا مجرد رغبة عابرة أو شهوة طارئة" .إنها تفتح لهن باب التأمل والمراجعة الذاتية قبل أن يخترن الطريق .إنها لا تدفعهن دفعًا إلى قرار متسرع، بل تمنحهن الفرصة لفحص نواياهن ومراجعة أولوياتهن.

.٢"الحَيَاة الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا" – التفريق بين الضروري والزائل

تأمل دقة التعبير القرآني: لم يقل "الحياة الدنيا" فقط، بل أضاف "وَزِينَتَهَا" .لماذا؟

· الحياة الدنيا تشير إلى أساسيات العيش ومقوماته) الطعام، الشراب، المسكن، الأمن .(وهذا مطلب مشروع لكل إنسان.
· أما الزينة فهي ما يزيد عن الضرورة من متاع وزخرف ومظاهر.

والجمع بينهما هنا يعني: "إن كنتن تردن الحياة الدنيا بكل ما فيها، بأساسياتها وزوائدها، بضرورياتها وكمالياتها، فتعالين" .وهذا تعليم عظيم: أن المشكلة ليست في طلب أساسيات العيش، بل في جعل الزينة والمباهات هي الهدف الأسمى من الحياة.

.٣الاستفهام التقديري: صحوة الضمير ويقظة القلب

الآية – وإن جاءت بصيغة الشرط الظاهر – تحمل في طياتها استفهامًا تقديريًا يهز الأعماق: "هل حقًا تردن الحياة الدنيا وزينتها على ما هو أعظم وأبقى؟" هذا الاستفهام التقديري يعمل في النفس عمل المنبّه القوي، فيوقظها من غفلتها، ويجعلها تراجع حساباتها.

الرسائل التربوية والنفسية والفكرية من هذه العبارة الكريمة

أ .الوضوح والشفافية: أن تضع نفسك أمام خيارين لا ثالث لهما

الآية تعلمنا درسًا عظيمًا في التربية: أن نكون واضحين مع أنفسنا أولًا .إنها تضع الخيارين على طرفي نقيض دون مواربة أو غموض: إما الدنيا وزينتها، وإما الله ورسوله والدار الآخرة .لا يوجد حل وسط، لا يوجد مساومة، لا يوجد أن نأخذ من الدنيا ما نشتهي ومن الآخرة ما نرجو دون تضحية أو تنازل.

وهذا المبدأ التربوي – الوضوح مع الذات – هو حجر الأساس في بناء الشخصية القوية .كم من إنسان يعيش حياته في ضباب من الأماني والأوهام، يريد أن يجمع بين المتناقضات: يريد مال الدنيا وعز الآخرة، يريد متعة العاجلة وثواب الآجلة، دون أن يقدم شيئًا من نفسه .الآية تقول لنا بوضوح: "قرر ما تريد، ثم امض في طريقك، وتحمل تبعات اختيارك".

ب .فحص الأولويات: ماذا تختار عندما تتصارع القيم؟

الآية تطرح سؤالًا وجوديًا على كل إنسان: "ما هي أولويتك العليا في هذه الحياة؟" إنها تدعونا إلى مهارة حياتية غاية في الأهمية، وهي فحص الأولويات عند اتخاذ القرارات.

مثال تقريبي من حياتنا المعاصرة:
تخيل معي امرأة مسلمة تواجه خيارين في حياتها:

· الخيار الأول: زوج صالح، ذو دين وخلق، لكنه متوسط الدخل، لا يستطيع أن يوفر لها مستوى الرفاهية الذي تراه حولها في وسائل التواصل الاجتماعي) سيارة فارهة، فيلا ضخمة، سفر سنوي إلى أرقى المنتجعات.(
· الخيار الثاني: حياة مادية ميسورة، ربما مع زوج آخر، أو ربما بالانغماس في العمل الوظيفي والاستغلال المادي مع التفريط في بعض جوانب الحياة الأسرية والروحية.

الآية هنا تضعها أمام نفسها لتسألها: "إن كنتِ تريدين زينة الدنيا ومتاعها، فهذا طريق .وإن كنتِ تريدين الله ورسوله والدار الآخرة، فهذا طريق آخر .اختاري، ولا يمكنك الجمع بينهما إذا تعارضا".

هذا الفحص للأولويات يحرر الإنسان من ردود الفعل المادية ويرتقي به إلى القرارات القيمية .فبدلًا من أن يكون السؤال: "هل هذا الشيء جميل؟ هل أستطيع تحمل ثمنه؟"، يصبح السؤال: "هل هذا الشيء يعينني على رسالتي في الحياة أم يصرفني عنها؟ هل يزيدني قربًا من الله أم يبعدني عنه؟"

ج .مفهوم "الانتصار على البشرية": أن تختار ما ينبغي لا ما تشتهي

الإنسان بطبعه محب للتملك ومولع بالزينة، وهذا ليس عيبًا في ذاته، بل هو من فطرة الله التي فطر الناس عليها .ولكن العبرة ليست في وجود هذه الرغبة، بل في مدى سيطرتها على القرار.

الآية هنا تضعنا أمام حقيقة الامتحان الإنساني الأعظم: أن تنتصر على بشريتك، أن تقمع رغبتك المشروعة في التمتع بالدنيا، ليس لأنها حرام، بل لأنك اخترت الأسمى والأبقى .وهذا هو سر عظمة زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وسر كونهن قدوة لنا .إنهن لم يكنّ ملائكة لا يشتهين شيئًا من الدنيا، بل كنّ بشرًا مثلنا، لهن رغباتهن وآمالهن في العيش الرغد والحياة الهانئة .لكنهن – بإيمانهن ووعيهن – انتصرن على هذه الرغبة البشرية واخترن مقام القرب من النبي على متاع الدنيا الزائل.

مثال تقريبي معاصر:
تخيل معي طبيبًا شابًا متخصصًا في جراحة القلب، يتلقى عرضين للعمل:

· العرض الأول: العمل في مستشفى حكومي في منطقة نائية، براتب متواضع، لكنه سيكون الوحيد الذي يقدم هذه الخدمة لملايين الفقراء المحتاجين.
· العرض الثاني: العمل في مستشفى خاص فاخر في العاصمة، براتب خيالي، وسيارة فارهة، وسكن فندقي، لكن خدمته ستقتصر على القادرين من الأثرياء.

أي العرضين يختار؟ هل يختار راحة النفس وخدمة المحتاجين، أم يختار زينة الدنيا ومتاعها؟ إن اختار الأول، فهو ينتصر على بشريته ويتأهل لمقام القدوة .وإن اختار الثاني، فهو بشر يأخذ بنصيبه من الدنيا، لكنه خسر مقامًا عظيمًا عند الله وعند الناس.

د .أن طلب الزينة قد يحرمك من الدرجات العالية في الآخرة

الآية لا تقول إن طلب الزينة حرام أو ممنوع .فالله تعالى يقول في موضع آخر: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ") الأعراف: .(32 ولكن الآية هنا تلفت الانتباه إلى حقيقة مرّة: أن تعلق القلب بالزينة، وجعلها هي الهدف الأسمى من الحياة، قد يكون عقبة تحول بينك وبين الدرجات العالية في الآخرة.

إن مقام "أمهات المؤمنين" و"زوجات النبي في الجنة" هو مقام لا يناله إلا من ضحّى من أجله .ومن أرادت الحياة الدنيا وزينتها، فلها ذلك، لكنها لن تنال هذا المقام الرفيع .وهذا درس عام: أن المناصب الروحية العالية لها ضريبة، وضريبتها أن تتخفف من أعباء الدنيا وهمومها لتتفرغ للمعالي.
الأمر الرابع:
"فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" – قمة الرقي الإنساني في التعامل

هذا المقطع من الآية هو درة التاج في الأدب النبوي القرآني .إنه يرسم مشهدًا لا يكاد العقل البشري يصدقه: زوجات يُخيّرن بين البقاء مع أزواجهن على ضيق العيش، وبين الفراق مع العطية الحسنة وا لانصراف الكريم .تأمل معي كل لفظة في هذا التعبير المعجز.

١."فَتَعَالَيْنَ" – دعوة إلى الرفعة لا إلى الانحطاط

لفظة "تعاليْن" مشتقة من العلو والارتفاع .إنها ليست "تعالوا" بالواو المذكرة، ولا "هلمّ" المجردة، بل هي صيغة تحمل في طياتها معنى التسامي والارتقاء .وكأن الآية تقول لهن: "إذا كان هذا هو خياركن، فتعالين إليه بروح مرتفعة، لا بمذلة ولا بانكسار .إنها رغبة بشرية مشروعة، ولن نعاقبكن عليها، بل سنكرمكن ونعطيكن حقوقكن".

تأمل الفرق بين هذا التعبير القرآني العظيم وبين ما قد يصدر من بعض الأزواج في لحظات الغضب: "اذهبي، طلقتك، لا أريد رؤيتك!" .كم من امرأة خرجت من بيت زوجها بدموع المرارة والمذلة، بعد أن سمعت كلمات جارحة ونظرات محتقرة! بينما القرآن يعلمنا أنه حتى في لحظة إنهاء العلاقة الزوجية، فإن الارتقاء والكرامة هما الأصل.

٢."أُمَتِّعْكُنَّ" – المتعة والعطية الحسنة

"أمتعكن" من المتعة، وهي العطية الحسنة التي تمنح للمرأة عند الفراق جبرًا لخاطرها وتعويضًا لها . ولكن لاحظ أن الفعل "أمتع" هنا مسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كجزء من واجبه الأخلاقي تجاه زوجاته .ومع أن الآية لم تحدد قدر هذه المتعة، إلا أن فعل النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك كان ناطقًا بأنها كانت عطية سخية تليق بمقامهن وترفع عنهن ذل الحاجة.

وهذا تعليم عظيم للأزواج: أن الفراق – إن وقع – يجب أن يكون مصحوبًا بـ الاحترام المادي و المعنوي للمرأة .فلا تخرج من بيت الزوجية صفر اليدين بعد سنوات من العشرة والصحبة، بل تخرج مكرمة معطاة حقها كاملًا.

.٣"وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" – دستور الانفصال في الإسلام

هذه العبارة الكريمة هي ميثاق شرف للمرأة المسلمة عند انتهاء الحياة الزوجية ."السراح الجميل" هو:

· السراح بلا أذى: لا كلمة نابية، لا نظرة احتقار، لا تشهير بالسمعة، لا كيد في الحقوق.
· السراح بلا نزاع: أن تأخذ حقها كاملًا دون مماطلة أو بخس.
· السراح مع حفظ الود: أن يظل بينهما من المعروف ما كان بينهما من العشرة .قال تعالى في موضع آخر: "وَلَا تنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ") البقرة:.(237

.٤لماذا رُبطت الدنيا بالزينة؟ وما علاقة ذلك بـ "السراح الجميل"؟

ربط الحياة الدنيا بـ "زينتها" في هذا السياق له دلالة بالغة الأهمية .فالدنيا بذاتها – بمقومات العيش الأساسية – لم تكن هي المشكلة .فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يملك من الدنيا إلا ما يقيم أوده وأود عياله .لكن ما طلبه بعض نسائه هو الزينة: أي الكماليات والمظاهر التي اعتادتها نساء قريش في الجاهلية .وهذا يبين أن الدافع للفراق – إن وقع – ليس الحاجة الماسة إلى الطعام و الشراب، بل الرغبة في التمتع بالزينة والمباهات.

والسراح الجميل هنا هو تكريم لهن رغم اختيارهن للدنيا على مقام النبوة .وكأن الآية تقول: "حتى لو اخترتن الدنيا وزينتها على الله ورسوله، فإن الله يأمر نبيّه ألا يعنفكن ولا يبخسكن حقوقكن، بل يمتعكن ويسرحكن بالحسنى" .أي سمو وأي رقي هذا الذي يعلمه القرآن للمسلمين في تعاملهم مع النساء!

.٥كيف نطبق "فتعالين أمتعكن" في حياتنا اليومية؟

قد يقول قائل: "هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته، فما علاقته بنا نحن؟" والجواب: إن القرآن "حَيٌّ عَابِرٌ لِلزَّمَانِ وَالمَكَانِ" كما ذكرت، وكل آية فيه تحمل دروسًا وعبرًا لحياتنا اليومية .فكيف نطبق هذه الآية في واقعنا؟

• في العلاقات الزوجية عند استحالة العشرة

إذا وصلت العلاقة الزوجية إلى طريق مسدود، وأصبح الفراق هو الحل الأمثل، فإن هذه الآية ترسم خارطة الطريق:

.1الوضوح والشفافية: أن يجلس الزوجان معًا، ويعرض كل منهما موقفه بصراحة ودون مواربة ."أنا لا أستطيع توفير هذا المستوى من العيش الذي تطلبين، فهل تقبلين بما أقدر عليه أم تفضلين الانفصال؟"
.2التكريم المادي: أن تعطى المرأة حقها كاملًا) المؤخر، المتعة، النفقة أثناء العدة (دون مماطلة أو نقصان.
.3التكريم المعنوي: أن يتم الفراق بكلمة طيبة، وبدعاء صالح، وبحفظ للأسرار، وبعدم التشهير أو الا نتقام.

• في علاقات العمل والصداقة

حتى في العلاقات غير الزوجية، مبدأ "السراح الجميل" يبقى مبدأً ساميًا .كم من صديقين افترقا بعد خلاف، فامتلأت مجالسهما بالغيبة والنميمة والتشهير؟ وكم من موظف ترك عمله بعد نزاع مع مديره، فأخذ يطعن في سمعة المؤسسة التي عمل بها لسنوات؟

الإسلام يعلمنا أن نكون كبراء في نهاياتنا كما نحن في بداياتنا .أن تنتهي العلاقة بسلام، دون ضغائن أو أحقاد، هو علامة على نضج النفس ورقي الروح.

• في التربية الأسرية

الأبناء يراقبون كيف يتعامل الأب مع الأم، والعكس .فإذا رأوا الأب يكرم الأم ويكرمها في كل الأحوال ، حتى في حالات الخلاف أو الطلاق، تعلموا هذا الخلق الرفيع .وإذا رأوا العكس، تعلموا الإذلال والا نتقام.
ثانيًا: أهم المواضيع المستخلصة من الآية الكريمة

الموضوع الأول:
لماذا سميت هذه الآية بآية التخيير؟ وهل كان التخيير بسبب معصية أم بسبب المطالبة بالتوسعة في العيش؟

.١سبب التسمية: "التخيير" بين طريقين واضحين

سميت هذه الآية بآية التخيير لأنها تضع نساء النبي صلى الله عليه وسلم أمام خيارين واضحين لا ث الث لهما:

· إما البقاء مع النبي على ما هن عليه من ضيق العيش وشظفه، مقابل الأجر العظيم ومقام الزوجية في الدنيا والآخرة.
· وإما الفراق مع العطية الحسنة والسراح الجميل، والتمتع بزينة الدنيا ومتاعها.

وهذا التخيير لم يكن بسبب معصية أو ذنب ارتكبته أمهات المؤمنين، حاشاهن، بل كان بسبب مطالبتهن بتوسعة في النفقة والعيش .وقد ورد في أسباب النزول أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم طلبن منه أن يوسع عليهن في المعيشة، وأن يكسوهن من ثياب اليمن الفاخرة بدلًا من ثياب البيوت الخشنة، وأن يجعل لهن طعامًا ألذ مما يأكلن.

.٢التخيير: وضع حد فاصل بين حياة الرسالة وحياة المتعة

جاءت الآية لتضع حدًا فاصلًا لا لبس فيه بين:

· حياة المتعة والماديات: حيث يكون الهم الأكبر هو الحصول على أفضل ما في الدنيا من متاع وزينة.
· حياة الرسالة والقدوة: حيث تكون التضحية والزهد والتفرغ لحمل الأمانة هي الأصل.

وكأن الآية تقول لأمهات المؤمنين: "إن مقامكن كمقام النبوة نفسه: شرف عظيم، ولكن له ضريبة .فمن أرادت الشرف بلا ضريبة، فلتذهب إلى حيث لا ضريبة، ولكنها ستفقد الشرف" .وهذا درس لكل من أراد أن يكون قدوة أو صاحب رسالة في هذه الحياة.

.٣الارتباط بالعظماء يتطلب ضريبة من الزهد والتضحية

هذه الآية تخبرنا بحقيقة مرة: أن الارتباط بالعظماء وبالأدوار الإصلاحية يتطلب ضريبة من الزهد و الترفع عن الانغماس في الماديات .إنه ليس مجرد "حظ" أو "نصيب" أن تكون زوجة لعالم أو داعية أو قائد إصلاحي .إنه أمانة ومسؤولية قبل أن يكون شرفًا .ولهذا نجد في تاريخنا أمثلة كثيرة لنساء عظيمات وقفن إلى جانب أزواجهن الدعاة والمصلحين، فتحملن معهم شظف العيش ومرارة الغربة وقلة ذات اليد، طمعًا في الأجر والثواب، ورغبة في أن يكن شريكات في صناعة التاريخ.

مثال تقريبي معاصر:
تخيل معي زوجة شاب متخصص في فيزياء الكم، يعمل في أبحاث متقدمة قد تستغرق عشرين عامًا، براتب متواضع جدًا مقارنة بزملائه الذين يعملون في شركات استثمارية كبرى .هذه الزوجة بين خيارين:

· الخيار الأول: أن تضغط على زوجها لترك هذا المسار البحثي الطويل غير المضمون، والالتحاق بشركة تجارية تدر عليه أموالًا طائلة، لتعيش حياة الرفاهية التي تراها حولها.

· الخيار الثاني: أن تصبر وتقنع وتدعم زوجها في مساره العلمي، وتتحمل معه ضيق العيش، لتكون شريكة في اكتشاف علمي قد يغير وجه البشرية.

إن اختارت الخيار الثاني، فهي تنتصر على رغبتها البشرية، وتشارك في صناعة التاريخ، وتنال شرف المساهمة في مشروع عظيم .وإن اختارت الأول، فقد تنعم بالمال، لكنها خسرت شرف الرسالة.

٤.تحرير بيت النبوة من ضغوط الاستهلاك والمفاخرة المادية

من أهم مقاصد هذه الآية: تحرير بيت النبوة من ضغوط الاستهلاك والمفاخرة المادية .فالبيت الذي ينزل فيه الوحي، والذي هو مدرسة الأمة وقبلتها، يجب أن يكون نموذجًا للزهد والتجرد، حتى لا ينشغل النبي بهموم العيش عن هموم الرسالة.

وتأمل معي كيف أن هذا التحرير لم يكن ليحدث إلا بقرار من النساء أنفسهن .فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يجبرهن على البقاء في ضيق العيش، بل خيرهن .وعندما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، كنّ بذلك قد حررن أنفسهن من عبودية المادة، وحررن بيت النبوة من ضغوط الاستهلاك، وحررن الأمة من نموذج مشوه للقيادة الروحية.
الموضوع الثاني:
الآية ودورها في رسم معالم بناء الشخصية للمرأة المسلمة

هذه الآية الكريمة – رغم قصرها – تعد مدرسة متكاملة في صناعة وصياغة الشخصية الإسلامية، رجلًا وامرأة .إنها لا تتحدث عن مجرد واقعة تاريخية انتهت بانتهاء أسبابها، بل تضع هندسة نفسية وتربوية لإدارة الرغبات والقرارات، تصلح لكل زمان ومكان.

١.مهارة فحص الأولويات واتخاذ القرار الواعي

الآية تزود المؤمن والمؤمنة بـ أداة ذهنية غاية في الأهمية: أن يسأل نفسه قبل كل قرار مصيري: "لماذا أفعل هذا؟ ما هو الدافع الحقيقي وراء هذا القرار؟"

التطبيق العملي في حياتنا:

· عند شراء سيارة جديدة: هل تشتري سيارة متواضعة تؤدي الغرض، أم ترهق نفسك بالديون لتشتري سيارة فارهة "لأن فلانًا اشترى مثلها"؟ الآية تدعوك أن تسأل نفسك: "هل الدافع هو الحاجة الوظيفية والمنفعة الحقيقية، أم هو الاستعراض والمباهات والمجاراة؟"
· في حفلات الزفاف: كم من أسرة بدأت حياتها الزوجية مثقلة بالديون بسبب تكاليف حفل زفاف باذخ، لمجرد أن "العادة جرت بذلك" أو "ماذا سيقول الناس؟" .وعي المرأة المسلمة بهذه الآية يجعلها تدرك أن بركة الزواج في تيسيره، وأن قيمتها الحقيقية في ذاتها وأخلاقها وعلمها، لا في فخامة القاعة ولا في ثمن الفستان.

٢.التوازن بين الدنيا والآخرة وعزة النفس

الآية لا تطلب من النساء) ولا من الرجال (الفقر، بل تطلب منهم الترفع .والفرق بينهما عظيم:

· الفقر هو العوز والحاجة المادية التي قد تذل النفس.
· الترفع هو عزة النفس وعدم استعبادها للمادة، مع القدرة على التمتع بالطيبات باعتدال.

الرسالة التربوية:
الآية تقرر في وجدان المرأة أن قيمتها مستمدة من علاقتها بالله ورسوله، وليس من مظاهر الدنيا الزائلة .إنها تمدها بمهارة الموازنة بين متطلبات الحياة الدنيا) كسيلة (ومتطلبات الآخرة) كغاية .(فالا ستمتاع بالطيبات مشروع، لكنه ليس الغاية، بل هو وقود الرحلة إلى الله.

مثال تطبيقي:
زوجة شابة ترى صديقاتها يتباهين بما اشترين من ذهب وأثاث فاخر، فتشعر بالغيرة والضيق .هذه الآ ية تعيد برمجة تفكيرها: "قيمتي ليست في الذهب الذي على صدري، بل في الإيمان الذي في قلبي . صحيح أنني لا أملك ما يملكن، لكنني أملك القناعة والرضا، وهما كنز لا يفنى".

.٣آداب الانفصال: "السراح الجميل" وتطبيقاته المعاصرة

في زمن كثرت فيه الخلافات الأسرية وتحولت المحاكم إلى ساحات للمعارك بين الأزواج السابقين، يأتي "السراح الجميل" ليكون نموذجًا حضاريًا نفتقده بشدة.

الصورة التطبيقية للسراح الجميل:

· زوجان استحالت العشرة بينهما، فبدلًا من أن يملأوا الدنيا صراخًا وقضايا كيدية، يجلسان جلسة تفاهم هادئة.
· يتفقان على أن تأخذ الزوجة كامل حقوقها المالية) المؤخر، المتعة (بلا مماطلة.
· يخرج كل منهما من حياة الآخر بسلام، يحفظ الود الذي كان بينهما، ولا يشهر بأسرار البيت، ويدعو كل منهما للآخر بالخير.
· هذا هو السراح الجميل الذي يليق بالمسلم والمسلمة.

.٤مشاركة المرأة في الكفاح: ثمن القيادة والريادة

الآية ترسخ في وعي المرأة المسلمة أنها ليست مجرد تابع للرجل، بل هي شريكة في مشروع النهضة . إذا كان الزوج صاحب رسالة أو قائدًا في مجاله، فإن صبر زوجته وقناعتها وكفاحها معه هو قمة المشاركة في القيادة.

مثال من التاريخ:
انظر إلى خديجة رضي الله عنها، كيف كانت شريكة للنبي صلى الله عليه وسلم في بدايات الدعوة بمالها ونفسها وعاطفتها .لم تطلب منه أن يترك دعوته ليتفرغ للتجارة وزيادة المال، بل دعمته وآزرته حتى سمي العام الذي ماتت فيه "عام الحزن" .هذا هو نموذج المرأة الشريكة في صناعة التاريخ.

مثال معاصر:
زوجة داعية أو عالم أو طبيب يعمل في مناطق النزاعات أو الفقر .هي تتحمل غيابه الطويل، وقلقها عليه، وتدبير أمور البيت والأبناء في غيبته .هذا الصبر والقناعة هو ثمن القيادة والريادة التي تقوم بها الأسرة معًا.
ثالثًا: القيم الواردة في الآية الكريمة

تتضمن هذه الآية العظيمة منظومة متكاملة من القيم التي تبني الفرد والمجتمع:

القيمة تجلياتها في الآية
الوضوح والشفافية عرض الخيارين بصراحة: الدنيا وزينتها، أو الله ورسوله والدار الآخرة .لا مواربة و لا غموض.
حرية الاختيار التخيير الصريح دون إكراه: "إن كنتن تردن ...وإن كنتن تردن..."، مما يرسخ مبدأ الإرادة الحرة.
عزة النفس والكرامة حتى مع اختيار الدنيا، تبقى الكرامة مصانة: "أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلًا".
الزهد الإيجابي ليس فقرًا مفروضًا، بل ترفعًا واختيارًا واعيًا لعدم جعل الدنيا أكبر الهم.
تقديم الأسمى على الأدنى إيثار الآخرة ورضوان الله على رغبات النفس العاجلة.
الأولوية للقيم على المظاهر المجتمع الذي يقدّر الأخلاق والجوهر فوق المظهر والثراء.
الرقي في التعامل حتى في لحظات الاختيار الصعبة، يظل الإحسان والرفق هما الأصل: "فتعالين".
القدوة والمسؤولية مقام النبوة والقيادة يقتضي صلة دائمة بالله، وقدوة عملية للناس.
رابعًا: المفاهيم العملية – ماذا تريد منا الآية أن نتعلم ونطبق؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية وأبعادها، حان الوقت لنخرج بـ مفاهيم عملية قابلة للتطبيق في حياتنا اليومية .فما الذي يريده الله منا من خلال هذه الآية؟

.١مفهوم الوضوح مع الذات

الآية تعلمنا أن نكون واضحين مع أنفسنا أولًا وقبل كل شيء .أن نسأل أنفسنا بصدق: "ما الذي أريده حقًا من هذه الحياة؟ هل أعيش لأجمع المال والمتاع، أم أعيش لأبني شيئًا يبقى بعد رحيلي؟" هذا السؤال الصادق هو بداية الطريق إلى حياة ذات معنى.

.٢مفهوم الاستقلال النفسي عن المادة

الآية تبين لنا أن سعادتنا الحقيقية لا ينبغي أن تكون مرتبطة بما نملك من متاع وزينة .فالمرأة التي تستمد قيمتها من ثمن فستانها أو ماركة حقيبتها، هي امرأة أسيرة للمادة .أما المرأة التي تستمد قيمتها من إيمانها وعلمها وأخلاقها، فهي امرأة حرة، لا تهزها تقلبات الأسعار ولا تبدلات الموضات.

.٣مفهوم التضحية من أجل المبدأ

الآية تزرع فينا أن الحياة الكريمة هي حياة المبادئ، وأن المبادئ العظيمة تتطلب تضحيات عظيمة . الدولة والحضارة لا تقومان على أكتاف المترفين الذين يلهثون وراء ملذاتهم، بل على أكتاف الصابرين المترفعين الذين يقدمون مصلحة الجماعة على رغبات الفرد.

.٤مفهوم استعادة الحرية الحقيقية للمرأة

الحرية التي تمنحها هذه الآية للمرأة ليست حرية "التبرج" و"السفور" كما يروج البعض، بل هي حرية ا لاختيار الواعي، وحرية التحرر من الضغوط الاجتماعية المادية، وحرية أن تكون كما تريد لا كما يريد لها الآخرون أن تكون .إنها حرية أن تختار طريق الآخرة بملء إرادتها، لا لأن المجتمع يفرضه عليها، و لا لأنها تخشى نظرة الناس.
خاتمة: الآية التي تعيد تعريف الحياة

في الختام، نقف إجلالًا وإكبارًا أمام هذه الآية العظيمة، التي في سطورها القلائل اختزلت فلسفة كاملة للحياة .إنها ليست مجرد حكم شرعي في مسألة فقهية، بل هي إعلان كوني عن معنى الحرية، وعن قيمة الاختيار، وعن ثمن القدوة.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· المرأة ليست ظلًا للرجل، بل هي كيان مستقل له مساره الروحي الخاص ومعركته الحضارية الخاصة.
· القرارات الصغيرة في حجرات البيوت قد تصنع تاريخًا عظيمًا للأمم.
· الترفع عن المادة ليس ضعفًا، بل هو قمة القوة، وقمة الحرية.
· حتى في لحظات الفراق، يبقى الرقي والكرامة والإحسان هو شعار المؤمنين.

فلنرفع رؤوسنا بهذه الآية، ولنجعلها نبراسًا لنا في خياراتنا اليومية، وفي علاقاتنا الأسرية، وفي بناء مجتمعاتنا، حتى نكون من الذين قال الله فيهم: "رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ") التوبة:.(100

اللهم اجعلنا ممن يختارونك ورسولك والدار الآخرة على زينة الدنيا ومتاعها الزائل، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.
المبحث الثاني.
تفسير آية التخيير (الأحزاب: 29) – إعلان الاختيار الأسمى وبيان الجزاء الأعظم

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

بعد أن وقفنا في رحاب الآية الثامنة والعشرين، ورأينا كيف عرض الله تعالى على نساء النبي صلى الله عليه وسلم خيار الدنيا وزينتها، وكيف فتح لهن باب الفراق بالمعروف والإحسان، نأتي الآن إلى الوجه الآخر من العملة، إلى الاختيار الأسمى، إلى الطريق الذي اختارته أمهات المؤمنين بملء إرادتهن ووعيهن.

يقول الله تعالى: "وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا"

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا التناظر البديع بين الآيتين:

· هناك: "إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا" – عرضٌ للخيار الأدنى.
· وهنا: "وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ" – عرضٌ للخيار الأعلى.

وهذا هو التخيير الحقيقي: أن تُعرض عليك الخيارات كلها بوضوح، أن ترى الدنيا بحلوها ومرها، وأن ترى الآخرة بوعدها وجزائها، ثم تختار بقلبك وعقلك معًا.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، وكأننا نقف في حجرات أمهات المؤمنين، نسمع بأذاننا هذا النداء الرباني العظيم.

الأمر الأول: دلالة العطف بـ "وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ" – فلسفة التخيير بين الأدنى والأعلى

اللمسة البيانية الأولى: حرف العطف "الواو" – عدالة العرض وإتاحة الاختيار

قف معي عند أول حرف في هذه الآية: "الواو" في قوله: "وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ". إنها ليست واوًا عابرة، بل هي واو العطف التي تربط هذا الخيار بالخيار السابق في الآية 28. وهذه الواو تحمل في طياتها معاني عظيمة:

١.العدالة المطلقة في عرض الخيارات

إن مجيء الخيارين متعاطفين بالواو – لا بأداة تفصل بينهما – يعني أن الله تعالى يعرض عليهن الطريقين معًا في آنٍ واحد، دون أن يرجح أحدهما على الآخر في لغة الخطاب. إنه يقول لهن: "هذا طريق، وهذا طريق آخر. انظرن إليهما معًا، وقارنّ بينهما، ثم اخترن عن بينة ووعي".

وهذا منتهى الإنصاف الإلهي، ومنتهى احترام الإرادة البشرية. فالله تعالى – وهو الغني عن العالمين – لا يسوق عباده سوقًا إلى طاعته، بل يعرض عليهم الخيارات، ويبين لهم العواقب، ثم يتركهم يختارون.

٢.التدرج في العرض: من الأدنى إلى الأعلى

لاحظ أن الآية الأولى بدأت بالخيار الأدنى: "إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا"، ثم جاءت الآية الثانية بالخيار الأعلى: "وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ". وهذا الترتيب – من الأدنى إلى الأعلى – له حكمته:

· التهيئة النفسية: أن تبدأ بعرض الأقل ليكون القلب أكثر استعدادًا لتلقي الأسمى والأعظم.
· إظهار التفاوت العظيم: أن ترى الفرق بين "الحياة الدنيا وزينتها" وبين "الله ورسوله والدار الآخرة"، فتعرف قدر ما أنت مقبل عليه أو معرض عنه.

٣.المقابلة البلاغية العجيبة

تأمل معي هذه المقابلة البديعية بين الآيتين:

الآية 28 الآية 29
"الْحَيَاةَ الدُّنْيَا" – الفانية الزائلة "اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ" – الباقي الخالد
"وَزِينَتَهَا" – المتاع الحسي "أَجْرًا عَظِيمًا" – الجزاء المعنوي والروحي
"فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ" – عطاء محدود "فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ" – إعداد إلهي عظيم
"وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" – فراق دنيوي "لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ" – بقاء في مقام الإحسان

هذه المقابلة تجعل المؤمن يرى الصورتين أمامه بوضوح: صورة الدنيا بما فيها من زينة زائلة، وصورة الآخرة بما فيها من أجر عظيم. وأي عاقل يتردد بعد هذه المقارنة؟
الأمر الثاني:
"وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ" – تفكيك أسمى اختيار في حياة المؤمنة

هذا المقطع من الآية هو ذروة الاختيار وقمة الإرادة. إنه ليس مجرد اختيار بين بديلين، بل هو إعلا ن حب، وبيعة وفاء، وعهد إيثار.

اللمسات البيانية والبلاغية في ترتيب ألفاظ الآية

١."اللَّهَ" – البدء بالأصل والغاية

لاحظ أن أول ما بدأت به الآية في عرض الخيار الأعلى هو اسم الجلالة "الله". لم تبدأ بـ "رسوله" ولا بـ "الدار الآخرة"، بل بدأت بـ "الله". لماذا؟

· لأن الله هو الأصل: كل شيء يأتي بعده، حتى رسوله، حتى الدار الآخرة، هو تابع له ومضاف إليه . فمحبة الرسول هي من محبة الله، والدار الآخرة هي دار الله التي أعدها لعباده.
· لأن الله هو الغاية: المؤمن لا يريد الرسول لذاته، ولا الدار الآخرة لنعيمها فقط، بل يريد الله أولًا وقبل كل شيء .إنه يريد رضاه، يريد قربه، يريد النظر إلى وجهه الكريم.

وهذا تعليم عظيم لنا: أن نصحح نوايانا، وأن نراجع بواطن قلوبنا. هل نعبد الله لذاته أم لما يعطينا من نعم؟ هل نطيع الرسول لأن الله أمرنا بذلك أم لمنفعة دنيوية عاجلة؟

.٢"وَرَسُولِهِ" – إضافة التشريف والتكريم

تأمل كيف قال: "وَرَسُولِهِ"، فأضاف الرسول إلى ضمير الجلالة: "رسول ه". وهذه الإضافة تشريف عظيم للنبي صلى الله عليه وسلم، وتنبيه إلى أن إرادة الرسول هي من إرادة الله، وأن محبته تابعة لمحبة الله، وأن طاعته من طاعة الله.

وفي هذا السياق – وهو سياق تخيير نساء النبي – فإن ذكر "رسوله" يحمل دلالة خاصة: إنكن لسن تردن زوجًا عاديًا، بل تردن رسول الله، الذي شرفه الله وأضافه إلى نفسه. وهذا تنبيه لهن إلى عظم مقام من هن معه، وإلى أن اختيار البقاء معه هو اختيار لله أولًا، ثم لرسوله ثانيًا.

.٣"وَالدَّارَ الْآخِرَةَ" – الوعد بالخلود والنعيم

بعد ذكر الله (المبدأ والغاية) ورسوله (الوسيلة والقدوة)، تأتي "الدَّارَ الْآخِرَةَ" لتكون الجزاء والمآل. و الدار الآخرة هي:

· دار القرار: لا فناء بعدها ولا زوال.
· دار الجزاء: يوفى فيها كل عامل عمله.
· دار النعيم المقيم: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والتعبير بـ "الدَّارَ" يوحي بالسعة والاستقرار والتمكين، فهي ليست مجرد "جنة" فقط، بل هي دار بكل ما تحمله الكلمة من معاني الأمن والاستيطان والانتماء.

.٤الترتيب الثلاثي: الله – الرسول – الدار الآخرة

هذا الترتيب الثلاثي ليس عشوائيًا، بل هو ترتيب منطقي وعقدي ونفسي:

· الله: هو المحبوب لذاته، وهو الغاية القصوى.
· الرسول: هو الهادي إلى الله، وهو القدوة العملية في الطريق.
· الدار الآخرة: هي الميعاد الذي سيلقى فيه المؤمن ربه ورسوله، وسينعم بما أعد له.

ومن أراد الدار الآخرة فعليه أن يريد الله ورسوله أولًا، فالطريق إلى الدار الآخرة يمر عبر محبة الله وطاعة رسوله. وهذا هو الإيمان الكامل: إلهٌ يُعبد، ورسولٌ يُتبع، ودارٌ تُرتجى.

الرسائل التربوية والنفسية والفكرية من هذا الخيار العظيم

أ. الاختيار الواعي: أن تعرف ماذا تريد حقًا

الآية تدعونا إلى الوضوح التام مع أنفسنا. إنها تقول لكل مؤمن ومؤمنة: "حدد ماذا تريد من هذه الحياة".

· هل تريد الله؟ أي أن تكون الغاية من كل حركاتك وسكناتك هي رضاه، هو أن تعبده حق عبادته، هو أن تصل إلى مقام القرب منه.
· هل تريد رسوله؟ أي أن تسير على نهجه، أن تتخلق بأخلاقه، أن تجعل سنته هي منهج حياتك.
· هل تريد الدار الآخرة؟ أي أن تعمل للآخرة عمل من يراها أمام عينيه، أن تتزود ليوم لا ينفع فيه م

ال ولا بنون.

مثال تقريبي:
تخيل معي رجلًا يعمل في وظيفة مرموقة براتب عالٍ جدًا، لكن هذه الوظيفة تتطلب منه أن يكذب أحيانًا، وأن يغش أحيانًا أخرى، وأن يتغاضى عن بعض المحرمات. هذا الرجل واقف بين خيارين:

· خيار الدنيا: أن يستمر في الوظيفة، يجمع المال، يشتري السيارة الفارهة والبيت الكبير، لكنه يخسر رضا الله وطاعة رسوله.
· خيار الله ورسوله والدار الآخرة: أن يترك هذه الوظيفة، يبحث عن عمل حلال وإن كان براتب أقل، لكنه يكسب رضا الله وبركة رسوله وأجر الآخرة.

الآية تقول له: "إن كنت تريد الله ورسوله والدار الآخرة حقًا، فستقدم هذا الخيار على ما سواه". وهذا هو الامتحان الحقيقي.

ب. أن الإرادة الحقيقية تُعرف بالعمل لا بالتمني

الآية تستخدم فعل "تردن" وهو فعل إرادة وطلب. والإرادة ليست مجرد أمنية تدور في الخيال، أو كلمة تقال باللسان، بل هي عزم القلب الذي يتبعه عمل الجوارح.

كم من إنسان يقول: "أريد الجنة"، لكنه لا يعمل لها؟ كم من امرأة تقول: "أحب الله ورسوله"، لكنها لا تقدم على التضحية بشيء من زينة الدنيا من أجل هذا الحب؟ الآية تقول لنا: "إن كنتن تردن حقًا، فليكن عملكن مصدقًا لكنّ".

ج. شمولية الرغبة: الله ورسوله والدار الآخرة معًا

لاحظ أن الآية لم تقل: "وإن كنتن تردن الله" فقط، ولا "وإن كنتن تردن الدار الآخرة" فقط، بل جمعت الثلاثة معًا: "اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ". وهذا لأن الإيمان الكامل لا يتجزأ:

· فمن أراد الله حقًا، أحب رسوله حتمًا.
· ومن أحب الله ورسوله، عمل للدار الآخرة ضرورة.

وهذا تعليم عظيم لنا: ألا نفصل بين أركان الإيمان. فمحبة الله لا تكتمل إلا بمحبة رسوله واتباعه. و العمل للآخرة لا يصح إلا إذا كان خالصًا لله وموافقًا لسنة رسوله.
الأمر الثالث:
"فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا" – الجزاء من جنس الاختيار

بعد أن عرضت الآية الخيار الأعلى، جاءت بـ الفاء التي تسمى فاء الجزاء أو فاء السببية: "فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ". هذه الفاء تربط بين الاختيار والجزاء، بين الإرادة والوعد الإلهي. وكأن الآية تقول: "إن اخترتن هذا الطريق، فاعلمن أن الله قد أعد لكن جزاءً عظيمًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الجزء من الآية

١."فَإِنَّ اللَّهَ" – التوكيد بـ "إنّ"

استخدام "إنّ" هنا للتوكيد، وهو توكيد للوعد الإلهي. وكأن الله تعالى يقول: "ثقن تمام الثقة، وتأكدن كل التأكد، أني قد أعددت لكن هذا الأجر العظيم". إنه وعد من ملك الملوك، ووعده حق، وقوله صدق.

٢."أَعَدَّ" – الإعداد المسبق والعناية الفائقة

لفظة "أَعَدَّ" تحمل في طياتها معاني دقيقة:

· الإعداد المسبق: الأجر موجود ومُعد من قبل أن تختارن، من قبل أن تُخلقن، من قبل أن توجد الدنيا .وهذا يدل على سعة رحمة الله، وأنه ينتظر من عباده أن يختاروه ليفيض عليهم من خزائنه.
· العناية والتهيئة: الإعداد يعني التهيئة والتحضير بعناية فائقة .فالله تعالى لم يجعل الأجر شيئًا

عاديًا، بل أعده إعدادًا يليق بجلاله وكرمه، ويليق بمقام من اختار الله ورسوله والدار الآخرة على زينة الدنيا.

مثال تقريبي:
تخيل معي ملكًا عظيمًا يقول لخادم مخلص: "لقد أعددت لك قصرًا في أجمل بقاع مملكتي، وجهزته بأفخر الأثاث وأروع الحدائق، وأنا في انتظار أن تأتي لتسكنه". هذا الخادم لم ير القصر بعد، لكنه يثق بكلام الملك، ويعلم أن ما أعده له يفوق كل وصف. هذا هو حال المؤمن مع وعد الله: ثقة مطلقة في أن ما أعده الله له هو فوق ما يخطر على باله.

٣."لِلمُحْسِنَاتِ مِنكنّ" – لماذا "المحسنات" ولم يقل "المؤمنات" أو "الصابرات"؟

هذه اللفظة – "المُحْسِنَاتِ" – هي مفتاح فهم مقام أمهات المؤمنين، وسر عظمة اختيارهن. لم يقل الله: "للصابرات منكن" مع أن الصبر عظيم، ولم يقل: "للمؤمنات منكن" مع أن الإيمان هو الأصل، بل قال: "لِلمُحْسِنَاتِ". فما سر هذا التعبير؟

أ. الإحسان: أعلى مراتب الدين

كما في حديث جبريل المشهور، مراتب الدين ثلاثة: الإسلام (الاستسلام الظاهر)، ثم الإيمان (التصديق القلبي)، ثم الإحسان وهو: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

فالإحسان هو ذروة سنام الدين، وهو مقام المراقبة الدائمة لله، وهو أن تعمل العمل ليس فقط لأنه مأمور به، بل لأنك تستشعر أن الله ينظر إليك، ويحب أن يراك على هذه الحال من الكمال والإتقان.

ب. الإحسان في الاختيار: أن تختار الأسمى بوعي ومحبة

اختيار أمهات المؤمنين لم يكن مجرد صبر على ضيق العيش، بل كان إحسانًا في الاختيار:

· أحسنّ إلى أنفسهن: لأنهن اخترن لها ما يرفعها عند الله.
· أحسنّ إلى نبيهن: لأنهن خففن عنه هموم الدنيا ليتفرغ للرسالة.
· أحسنّ إلى الأمة: لأنهن كنّ قدوة عملية تحتذى.

فوصفهن بـ "المحسنات" هو تكريم لهن على جودة اختيارهن وإتقان نيتهن ومراقبتهن لله في كل خطوة.

ج. "مِنكنّ" – تخصيص التشريف وتأكيد الفضل

قول الله: "مِنكنّ" يفيد أن هذا الوعد بالجزاء العظيم خاص بمن اخترن هذا الطريق من نساء النبي. فليست كل زوجة لنبي تنال هذا الأجر تلقائيًا، بل من أحسنت الاختيار وصدقت في إرادتها لله ورسوله والدار الآخرة.

وهذا تنبيه لطيف: أن المقام وحده لا يكفي، بل لا بد معه من العمل والإخلاص. فكون المرأة زوجة للنبي شرف عظيم، لكن الشرف الأكبر هو أن تثبت جدارتها بهذا الشرف باختيارها وعملها.

٤."أَجْرًا عَظِيمًا" – وصف يفوق التصور

وصف الأجر بأنه "عَظِيم" هو من باب التفخيم والتعظيم الذي يترك للخيال أن يتصور ما لا يمكن وصفه. فعظمة الأجر هنا تناسب عظمة المطلوب:

· عظمة التضحية: أن تترك زينة الدنيا ومتاعها.
· عظمة الاختيار: أن تختار الله ورسوله والدار الآخرة.
· عظمة المقام: أن تكون زوجة للنبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا، ورفيقته في الجنة.

فكان الأجر عظيمًا ليتناسب مع عظمة هذه الأمور كلها.

ما هو هذا "الأجر العظيم"؟

· في الدنيا: شرف الانتساب للنبي، وثناء الله عليهن في القرآن إلى يوم القيامة، وكونهن أمهات للمؤمنين، وقدوة للنساء المسلمات عبر العصور.
· في البرزخ: الراحة والروح والريحان، وجوار النبي في البرزخ.
· في الآخرة: أن يكن زوجات النبي في الجنة، في أعلى عليين، مع النبيين والصديقين والشهداء و الصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.
الأمر الرابع:
العلاقة التكاملية بين آية التخيير (28) وآية الجزاء (29) – وحدة الموضوع وشمولية التربية

الآيتان – 28 و29 – هما في الحقيقة وحدة واحدة متكاملة، لا يمكن فهم إحداهما بمعزل عن الأخرى. إنهما معًا يرسمان منهجًا تربويًا متكاملًا في صناعة القرار وبناء الشخصية.

جدول المقارنة التكاملية بين الآيتين

الوجه آية 28 آية 29
العرض عرض الدنيا وزينتها كخيار ممكن عرض الله ورسوله والدار الآخرة كخيار أعلى
النتيجة الفراق مع المتعة والسراح الجميل البقاء مع الأجر العظيم
الجزاء المذكور متعة دنيوية محدودة ("أمتعكن") أجر عظيم (غير محدود)
الوصف وصف ظاهري ("سراحًا جميلًا") وصف باطني ("أجرًا عظيمًا")
المآل دنيا فانية آخرة باقية
المشاعر رحمة ورفق حتى مع الفراق محبة وكرامة مع البقاء

الدروس التربوية من التكامل بين الآيتين

١.الحرية الحقيقية: أن ترى الخيارين ثم تختار

الآيتان معًا تعلماننا أن الحرية الحقيقية ليست في أن تفعل ما تشتهيه نفسك دون قيود، بل في أن تُعرض عليك الخيارات بوضوح، ثم تختار بوعي وإرادة ما تراه أصلح لآخرتك ودنياك. وهذا هو أرقى أشكال الحرية الإنسانية.

٢.التربية على الموازنة بين الخيارات

الآيتان تدربان المؤمن والمؤمنة على مهارة الموازنة بين الخيارات في الحياة:

· أن يضع الخيارين أمامه: خيار الدنيا بمغرياته، وخيار الآخرة بوعوده.
· أن يقارن بينهما: الزائل مقابل الباقي، المحدود مقابل اللامحدود.
· أن يختار عن بينة: "إن كنتن تردن ...وإن كنتن تردن...".

٣.أن الجزاء من جنس العمل والنية

· من أرادت الدنيا وزينتها، فجزاؤها متعة دنيوية محدودة، وسراح جميل يحفظ لها كرامتها.
· ومن أرادت الله ورسوله والدار الآخرة، فجزاؤها أجر عظيم من الله، لا يقدر قدره ولا يوصف.

وهذا سنة إلهية مطردة: "مَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَصِيبٍ" (الشورى: 20).
خامسًا: القيم المستفادة من الآية 29

القيمة تجلياتها في الآية
الإيثار إيثار الله ورسوله والدار الآخرة على زينة الدنيا ومتاعها.
علو الهمة التطلع إلى الأجر العظيم لا إلى المتعة المحدودة.
الإحسان بلوغ أعلى مراتب الدين في الاختيار والعمل.
صدق الإرادة أن تكون الرغبة في الله والدار الآخرة حقيقية لا لفظية.
الثقة بوعد الله الإيمان بأن ما أعده الله هو الأفضل والأبقى.
الوعي بالعواقب إدراك أن لكل اختيار عاقبته ونتيجته.
شمولية الإيمان الجمع بين محبة الله ومحبة رسوله والعمل للآخرة.
العدالة الإلهية إتاحة الخيارين بوضوح، وبيان عاقبة كل خيار.

سادسًا: المفاهيم العملية – ماذا تريد منا الآية 29 أن نتعلم ونطبق؟

.١مفهوم الإرادة الصادقة: أن يكون الباطن مثل الظاهر

الآية تدعونا إلى صدق النية في إرادة الله والدار الآخرة. فليس كل من قال "أريد الجنة" صادقًا، حتى يثبت صدقه بالعمل والتضحية.

تطبيق عملي:

· إذا قلت: "أريد العلم النافع"، فهل أنت مستعد للسهر والتعب والجد في طلبه؟
· إذا قلت: "أريد مرضاة الله"، فهل أنت مستعد لترك ما يغضبه من معاصٍ وشهوات؟
· إذا قلت: "أريد أن أكون من المحسنين"، فهل أنت تستشعر مراقبة الله في كل صغيرة وكبيرة؟

.٢مفهوم الإحسان في الاختيار: أن تختار الأجود لا الأسهل

"المحسنات" هن من اخترن الأجود والأعلى، لا الأسهل والأدنى .وفي حياتنا اليومية، نتعرض لاختيارات كثيرة:

· هل نختار الطعام الحلال وإن كان أقل وأغلى، أم نختار الطعام المشبوه لأنه أرخص وأسهل؟
· هل نختار الصدق وإن كان مرًا، أم نختار الكذب لأنه أكثر راحة في اللحظة الراهنة؟
· هل نختار بر الوالدين وإن كان فيه مشقة، أم نختار الأنانية والراحة؟

الإحسان هو أن تختار ما هو أجود عند الله، لا ما هو أسهل على النفس.

.٣مفهوم الثقة بالجزاء الإلهي: أن تعمل ولا تستعجل الثمرة

الآية تعد المحسنات بـ "أجرًا عظيمًا"، لكنها لا تحدد متى وكيف. وهذا يعلمنا أن نعمل العمل الصالح، ونترك الثمرة لله، واثقين بأن ما عنده هو خير وأبقى.

مثال تطبيقي:
شاب يترك فرصة عمل مغرية في بلاد الغرب ليخدم والديه المسنين في بلده. قد لا يرى ثمرة هذا البر في الدنيا (من مال أو شهرة)، لكنه واثق أن الله أعد له أجرًا عظيمًا في الآخرة، وقد يرى من بركة بره في الدنيا ما لم يكن يحتسب.

.٤مفهوم شمولية الإيمان: أن تريد الله ورسوله والدار الآخرة معًا

لا تفصل بين أركان إيمانك. فمن قال: "أنا أحب الله" لكنه لا يتبع رسوله، فهو كاذب. ومن قال: "أنا أريد الجنة" لكنه لا يعمل لها، فهو متمنّ كاذب.

تطبيق عملي:

· في العبادات: لا تكتفِ بالصلاة فقط وتضيع حق الله في الزكاة أو الصيام.
· في الأخلاق: لا تكتفِ بحسن الخلق مع الناس وتنسى حق الله في الخلوات.
· في المعاملات: لا تكتفِ بالصدق في البيع والشراء وتنسى حق أهلك وأولادك في التربية والنفقة.
خاتمة: الاختيار الذي صنع التاريخ

في الختام، نقف بخشوع أمام هذا المشهد المهيب: نساء النبي صلى الله عليه وسلم، أمهات المؤمنين، وهن يخترن بملء إرادتهن وكامل وعيهن الطريق الأصعب والأعلى: الله ورسوله والدار الآخرة.

لم يكن هذا الاختيار مجرد قرار شخصي، بل كان حدثًا تاريخيًا غيّر مسار الدعوة، ورسّخ مفهوم القدوة، وأعطى للأمة نموذجًا حيًا للمرأة التي تعرف ما تريد، وتختار ما ينفعها في أخراها، وتضحي بزينة الدنيا من أجل أجر عظيم عند الله.

لقد اخترن أن يكن أمهات للمؤمنين في الدنيا، ورفيقات للنبي في الجنة في الآخرة. وبهذا الاختيار، كتب الله لهن الخلود في كتابه العزيز، وجعلهن قدوة لكل مؤمنة إلى يوم القيامة.

فلنسأل أنفسنا – رجالًا ونساءً – هذا السؤال القرآني العظيم:
"ماذا نريد حقًا؟"

· هل نريد الحياة الدنيا وزينتها؟ أم نريد الله ورسوله والدار الآخرة؟
· هل نحن مستعدون لدفع ثمن الاختيار الأعلى؟
· وهل نرجو أن نكون من "المحسنين" و"المحسنات" الذين أعد الله لهم أجرًا عظيمًا؟

المبحث الثالث.
تفسير آية مضاعفة العذاب (الأحزاب: 30) – في رحاب المسؤولية المضاعفة والعدل الإلهي

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

بعد أن وقفنا في رحاب الآيتين الكريمتين (28-29) ورأينا كيف خيّر الله نساء نبيه بين الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة، وكيف وعد المحسنات منهن بأجر عظيم، تأتي الآية الثلاثون لتكمل هذا السياق القرآني العظيم، ولكن من زاوية أخرى، من زاوية المسؤولية والتبعة.

إنها الآية التي تضع الموازين الدقيقة للعدالة الإلهية: فكما أن لمقام القرب من النبي أجرًا مضاعفًا للإحسان، فإن له عذابًا مضاعفًا للإساءة. وكما أن النعمة العظيمة تستوجب شكرًا عظيمًا، فإن المعصية من أصحاب المقامات الرفيعة تستوجب عقابًا أشد.

يقول الله تعالى: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا"

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا النداء المباشر: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ". في الآيتين السابقتين كان الخطاب بواسطة النبي: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ". أما هنا فالخطاب مباشر من الله إلى نساء النبي. لماذا؟ ما السر في هذا التحول البياني؟ وما الرسائل التربوية والنفسية الكامنة وراءه؟

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، وكأننا نسمع بأذاننا هذا التحذير الرباني المحفوف بالرحمة قبل العقوبة.

الامر الاول: لماذا تحول الخطاب إلى المباشرة؟ "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ" – فلسفة التحذير المباشر وأسراره

اللمسة البيانية الأولى: من وساطة النبوة إلى خطاب المسؤولية المباشرة

قف معي عند هذا التحول العجيب في أسلوب الخطاب القرآني:

· في آيتي التخيير28) -(29: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ" – خطاب غير مباشر، عبر وساطة النبي.
· في آية التحذير(30) : "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ" – خطاب مباشر من الله إليهن.

هذا التحول ليس عشوائيًا، بل هو هندسة إلهية دقيقة تحمل في طياتها رسائل تربوية ونفسية وحضارية عظيمة. فلماذا هذا التحول؟

١.طبيعة الموضوع: التخيير رفقٌ، والتحذير صرامة

· آيتا التخيير كانتا في مقام العرض والاختيار، وهو مقام يتطلب الرفق واللطف، فجاء الخطاب عبر النبي صلى الله عليه وسلم – وهو الزوج الرحيم – ليكون التبليغ محفوفًا بالمودة والرحمة.
· أما آية التحذير فهي في مقام بيان المسؤولية والتبعة، وهو مقام يتطلب الصرامة والوضوح، فجاء الخطاب مباشرة من الله، ليكنّ على يقين أن الأمر ليس مجرد توصية من زوج، بل هو أمر إلهي وتحذير رباني لا مجال فيه للتهاون.

وهذا يعلمنا درسًا تربويًا عظيمًا: أن أساليب التربية تتنوع بتنوع المقامات.

· في مقام الترغيب والعرض نستخدم الرفق واللين والوساطة.
· وفي مقام الترهيب والتحذير نستخدم الحزم والوضوح والمباشرة.

٢.إعلان مبدأ المسؤولية الفردية: أنتنّ مسؤولات مباشرة أمام الله

حين يوجه الله الخطاب مباشرة إلى نساء النبي – دون وساطة – فهو بذلك يقرر مبدأً عظيمًا: أنتنّ مسؤولات أمام الله مباشرة، ولسنّ مجرد "زوجات نبي" تابعين له في المسؤولية.

نعم، النبي هو الزوج والقائد والمربي، ولكن المسؤولية الأخلاقية والدينية هي مسؤولية فردية، لا يتحملها أحد عن أحد. وهذا الخطاب المباشر يرسخ في وجدان كل مؤمن ومؤمنة – مهما علا مقامه أو قرب من أولياء الله – أنه مسؤول عن نفسه أمام الله، وأنه سيُسأل يوم القيامة فردًا: "مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ" (الصافات: 25).

٣.تشريفهن بالخطاب المباشر من الله

في نفس الوقت الذي يحمل فيه الخطاب المباشر معنى التحذير والصرامة، فهو يحمل أيضًا معنى التشريف والتكريم. فأن يخاطبك الله – ملك الملوك – مباشرة، فهذا شرف عظيم. إنه يقول لهن: "أنتنّ لسن كسائر النساء، أنتنّ نساء نبيي وخيرتي من خلقه، ولذلك أنا أخاطبكنّ مباشرة، وأحذركنّ بنفسي، وأبين لكنّ عظم المسؤولية الملقاة على عواتقكنّ".

وهذا من بديع القرآن: أن يجمع في الخطاب الواحد بين التحذير والتشريف، وبين الترهيب والترغيب.

٤.قطع الطريق على أي تهاون أو تأويل

حين يصل التحذير عبر واسطة – ولو كان النبي نفسه – فقد يظن ظانّ أن فيه مجالًا للتأويل أو التخفيف، أو أنه مجرد "نصيحة زوج" يمكن التغاضي عنها. أما حين يأتي الخطاب مباشرة من الله، فإنه يقطع كل عذر، ويسد كل باب للتسويف أو التهاون. إنه كمن يتلقى إنذارًا رسميًا مختومًا بخاتم الملك، لا مجال للجدال فيه أو تأجيل العمل به.

اللمسة البيانية الثانية: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ" – إضافة التشريف والتثقيل

تأمل معي هذا النداء: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ". لم يقل: "يا نساء محمد" ولا "يا أزواج النبي" فحسب، بل قال: "نِسَاءَ النَّبِيِّ".

· النساء: جمع "امرأة"، وهو لفظ يشمل كل من في عصمة النبي من زوجات، وفيه إشارة إلى أنهن جماعة لهن حكم واحد في هذا المقام.
· النبي: وهو الوصف الذي يدل على الاتصال بالله وتلقي الوحي .ولم يقل "الرسول" لأن مقام الرسالة يتعلق بالتبليغ للأمة، أما مقام النبوة فهو مقام خاص بينه وبين ربه.

فإضافتهن إلى "النبي" – لا إلى "محمد" – هي إضافة تشريف وتثقيل للمسؤولية في آن واحد:

· تشريف: لأنهن نساء النبي، الذي هو أشرف الخلق وأقربهم إلى الله.
· تثقيل: لأن كونهن نساء النبي يعني أنهن لسن كسائر النساء، وأن ما يصدر منهن من خير أو شر سيكون له وقع مضاعف في ميزان الحسنات والسيئات.
الامر الثاني: دلالة "مَن يَأتِ مِنكنّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ" – تشريح المسؤولية ومفهوم القدوة السلبية

هذا المقطع من الآية هو قلب التحذير. إنه يضع نساء النبي أمام حقيقة مرّة: أن الخطأ منهن ليس كالخطأ من غيرهن، وأن المعصية في حقهن ليست كالمعصية في حق عامة النساء.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "مَن يَأتِ مِنكنّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ"

١."مَن" – أداة الشرط التي تفتح باب الاحتمال والاحتراز

استخدام "مَن" الشرطية – وهي للعاقل – يفيد أن التحذير موجه لكل فردة منهن على حدة. "أيكنّ تفعل كذا، فلها كذا". وهذا فيه:

· تحذير فردي: كل واحدة مسؤولة عن نفسها، وعليها أن تحذر أن تكون هي المقصودة بهذا الوعيد.
· عدم اتهام أحد بعينه: الآية لم تقل: "فلانة أتت بفاحشة"، بل جعلت الأمر معلقًا على الشرط، إكرامًا لهن، وسترًا عليهن، مع بيان عظم التبعة.

.٢"يَأتِ" – فعل المجيء والإتيان: دلالة القصد والعمد

لفظة "يَأتِ" (من الإتيان) تحمل دلالة القصد والتعمد. إنها لا تقول: "من تقع منكن في فاحشة"، بل: "من تأتِ بفاحشة"، أي من تتعمدها وتقصدها وتسعى إليها. وهذا تفريق مهم بين:

· الزلل والخطأ غير المقصود: الذي قد يقع فيه أي إنسان.
· الإتيان بالفاحشة عن قصد وتعمد وإصرار: وهذا هو الذي يستوجب مضاعفة العذاب.

وهذا من عدل الله ورحمته: أن العقوبة المضاعفة تكون على الجريمة المتعمدة من أصحاب المقامات الرفيعة، لا على الزلة أو الهفوة غير المقصودة.

.٣"بِفاحِشَةٍ" – تنكير الفاحشة للتهويل والتفخيم

لفظة "فَاحِشَةٍ" جاءت نكرة، والتنكير هنا للتهويل والتفخيم. أي: أي فاحشة كانت، عظيمة أو دون ذلك، فإنها في حق نساء النبي عظيمة تستوجب مضاعفة العذاب.

ما هي الفاحشة؟
الفاحشة في اللغة: كل ما عظم قبحه من قول أو فعل. وفي الشرع: تطلق غالبًا على كبائر الذنوب، كالزنا والسرقة والقذف. ولكن في هذا المقام – مقام نساء النبي – كل معصية تتنافى مع مقام النبوة، وكل خروج عن جادة الأدب والطاعة، يدخل في معنى "الفاحشة" باعتبار شناعته في حقهن.

.٤"مُبَيِّنَةٍ" – وصف الفاحشة بأنها واضحة لا التباس فيها

وصف الفاحشة بأنها "مُبَيِّنَة" (أي ظاهرة واضحة لا شبهة فيها) له دلالتان مهمتان:

أ. التأكيد على شناعة الفعل: الفاحشة ليست مجرد شبهة أو أمر مشتبه فيه، بل هي أمر واضح بين، لا يحتاج إلى تأويل أو اجتهاد لمعرفة قبحه. وهذا يقطع الطريق على أي محاولة لتخفيف الأمر أو تأويله.

ب. رفع الحرج عن غير المتعمدة: في وصف الفاحشة بأنها "مبينة" إشارة إلى أن ما ليس مبينًا – أي ما كان فيه شبهة أو احتمال – لا يدخل في هذا الوعيد الشديد. وهذا من رحمة الله وعدله.

الرسائل التربوية والنفسية والفكرية من هذا التحذير

أ. مبدأ تناسب المسؤولية مع المقام: "كلما علا مقامك عظمت تبعتك"

هذه الآية ترسخ مبدأ تربويًا عظيمًا: أن المسؤولية تتناسب طرديًا مع النعمة والمكانة والعلم.

· فكلما زادت نعم الله عليك) بالهداية، بالعلم، بالقرب من الصالحين، بالمكانة الاجتماعية(، زادت مسؤوليتك أمام الله.
· وكلما علا مقامك، عظمت تبعة خطئك، لأن خطأك لن يقتصر عليك وحدك، بل سيتعداك إلى التأثير على الآخرين وتشويه صورة القدوة.

مثال تقريبي معاصر:

· عالم دين معروف: إذا وقع في خطأ أخلاقي، فإن أثر هذا الخطأ لا يقتصر عليه، بل يتعداه إلى:
· زعزعة ثقة الناس في العلماء.
· جعل البعض يتخذ من خطئه مبررًا لترك التدين.
· تشويه صورة الإسلام أمام غير المسلمين.
· أما رجل عادي غير معروف: فإن خطأه يبقى في نطاقه الشخصي، ولا يتعداه إلا قليلًا.

ولهذا فإن عقوبة العالم على المعصية أشد من عقوبة الجاهل، وعقوبة الداعية أشد من عقوبة العامي، وعقوبة نساء النبي أشد من عقوبة سائر النساء. وهذا هو العدل، لا الظلم.

ب. القدوة السلبية: أن خطأك قد يضل به آخرون

الآية تنبه نساء النبي – ومن خلالهن كل من يتصدر للقدوة – إلى خطر القدوة السلبية. فحين تفعل المرأة الصالحة – فضلًا عن زوجة النبي – معصية ظاهرة واضحة، فإنها بذلك:

· تجرئ غيرها على فعل المعصية: "إذا كانت فلانة – وهي بهذا المقام – تفعل كذا، فلماذا لا أفعلها أنا ؟"
· تكسر حاجز الهيبة بين الناس وبين المعاصي.
· تضعف الوازع الديني في نفوس الكثيرين.

ولهذا كانت العقوبة مضاعفة: عقوبة على الفعل نفسه، وعقوبة على الأثر السيئ الذي تركه هذا الفعل في الآخرين.

ج. أن العصمة لله وحده، وأن التحذير لا يعني الوقوع

من المهم أن نفهم أن هذا التحذير الإلهي الشديد لنساء النبي لا يعني أنهن قد وقعن في الفاحشة، حاشاهن رضي الله عنهن. بل هو:

· تربية وقائية: لتحصينهن من الوقوع في الخطأ.
· بيان للمسؤولية: ليعلمن قدر المقام الذي هن فيه.
· درس للأمة: لتعرف أن المقامات الرفيعة تتطلب حذرًا مضاعفًا.

إنه كالأب الحكيم الذي يقول لابنه – وهو يعلم صلاحه – : "يا بني، إنك ابن فلان، والناس ينظرون إليك، فإن أخطأت فخطؤك عظيم، فعليك أن تكون حذرًا أشد الحذر". هذا لا يعني أن الابن سيخطئ، بل هو تحصين وتذكير وتربية.
الامر الثالث: "يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ" – فلسفة مضاعفة العقوبة وعدالة التشديد

هذا هو بيان الجزاء المترتب على الإتيان بالفاحشة المبينة. إنه ليس مجرد عذاب، بل عذاب مضاعف ضعفين. فما الحكمة من هذه المضاعفة؟ وما دلالة التعبير بـ "ضِعْفَيْنِ"؟

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ"

١."يُضَاعَفْ" – فعل المضاعفة ودلالة الزيادة المطردة

لفظة "يُضَاعَفْ" تفيد أن العذاب يُزاد ويُضاعف، وأصلها من "الضعف" وهو المثل. فمضاعفة الشيء تعني جعله مثلين أو أكثر.

وسبب هذه المضاعفة واضح كما بينا:

· عظم النعمة: فكلما عظمت نعمة الله على العبد، عظمت مسؤوليته، وعظمت عقوبته إذا أخطأ.
· عظم الأثر: فخطأ نساء النبي له أثر مضاعف على الأمة، فعقوبته مضاعفة.
· عظم المقام: فالمعصية من الشريف أقبح من المعصية من الوضيع، وعقوبتها أشد.

٢."ضِعْفَيْنِ" – تحديد مقدار المضاعفة بدقة

التعبير بـ "ضِعْفَيْنِ" (مثنى "ضعف") يعني أن العذاب يكون مثلين، أي ضعف عذاب غيرهن من النساء.

والسؤال: لماذا ضعفين بالضبط؟ لماذا لم يقل "أضعافًا كثيرة"؟

· التحديد يدل على العدل: فالله تعالى لا يظلم أحدًا مثقال ذرة .إنه يحدد العقوبة بدقة متناهية، حتى يعلم العباد أن عقوبته قائمة على العدل والقسط، لا على التشفي أو التعسف.
· وقد يكون "ضعفين" هو الحد الأدنى للمضاعفة، وقد يزيد: بعض المفسرين قالوا إن "ضعفين" هو الحد الأدنى للمضاعفة، وأنها قد تزيد تبعًا لعظم الفاحشة وأثرها.

٣.المقابلة بين مضاعفة الأجر ومضاعفة العذاب

هذه الآية – مع الآية السابقة – ترسم صورة متكاملة للعدالة الإلهية:

· في الآية29 : "أَجْرًا عَظِيمًا" للمحسنات.
· في الآية30 : "يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ" لمن تأتِ بفاحشة مبينة.

وهذا تناظر بديع يدل على أن الجزاء من جنس العمل:

· من أحسنت، فلها أجر مضاعف) وإن لم يذكر التضعيف صراحة في الآية29 ، إلا أن "الأجر العظيم" يفيد ذلك.(
· ومن أساءت، فلها عذاب مضاعف.

وهذا هو قانون المسؤولية المتناسبة مع النعمة: "كُلَّمَا زَادَتِ النِّعَمُ زَادَتِ التَّبِعَاتُ".

الرسائل التربوية والنفسية من مضاعفة العذاب

أ. أن مضاعفة العذاب ليست ظلمًا، بل عدلٌ

قد يتبادر إلى الذهن سؤال: "كيف يكون عادلًا أن يُعاقب شخص على نفس المعصية بعقوبة أشد من غيره؟"

والجواب من وجوه:

1.النعمة أعظم: نعمة الله على نساء النبي – بصحبتهن للنبي، وكونهن أمهات للمؤمنين، ونزول الوحي في بيوتهن – هي نعمة لا تقاس بها نعمة .فمن الطبيعي أن تكون مسؤوليتهن أعظم، وعقوبتهن عند التقصير أشد.
2.العلم أوفر: نساء النبي كنّ أعلم النساء بالحلال والحرام، لأن الوحي ينزل في بيوتهن، والنبي بين أظهرهن .ومن كان أعلم، كان أعظم مسؤولية .قال تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ") فاطر: 28).
3.الأثر أوسع: كما بينا، أثر المعصية من نساء النبي يتعداهن إلى الأمة كلها، فهم قدوة، وخطؤهن يؤثر في إيمان الناس وقدوتهم.

مثال توضيحي:
تخيل معي رجلين:

· الأول: رجل بسيط يعيش في قرية نائية، لا يعرفه إلا القليل.
· الثاني: وزير في الحكومة، مسؤول عن مصالح ملايين الناس.

كلاهما ارتكب نفس المخالفة المرورية (قطع إشارة حمراء). هل عقوبتهما متساوية في القانون؟ لا. فـ الوزير سيحاسب حسابًا أشد، ليس فقط على المخالفة، بل على الإساءة إلى المنصب وزعزعة ثقة الناس بالمسؤولين. هذا هو نفس المبدأ في الشريعة الإسلامية: المسؤولية تتناسب مع المقام.

ب. التربية على استشعار عظم النعمة

مضاعفة العذاب تربي في المؤمن استشعارًا دائمًا لعظم نعم الله عليه، فلا يغفل ولا يبطر. إنه كلما رأى نعمة جديدة في حياته (علمًا، مالًا، جاهًا، قربًا من الصالحين)، تذكر أن هذه النعمة تحمل في طياتها مسؤولية مضاعفة، وأن التقصير في حقها يستوجب عقابًا مضاعفًا.

وهذا الاستشعار يورث في القلب خوفًا ورجاءً معًا:

· خوفًا من التقصير ومن عذاب الله.
· رجاءً في رحمة الله وعفوه، وفي أن يعينه على القيام بحق النعمة.

ج. أن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا يترك المسيئين

في هذه الآية – مع أختها السابقة – تطمين لقلوب المؤمنين والمؤمنات بأن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، ولا يترك من أساء دون جزاء. فكما أن الإحسان في المقام الرفيع له أجره المضاعف، فإن الإساءة في المقام الرفيع لها عقابها المضاعف. وهذا منتهى العدل، ومنتهى الحكمة.
الامر الرابع: "وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا" – ختم الآية بعزة القدرة وسهولة الجزاء

هذا الختم الإلهي البديع هو تاج الآية وخاتمتها المعجزة. بعد أن ذكر الله وعيده الشديد بمضاعفة العذاب ضعفين، ختم بقوله: "وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الختم العظيم

١."وَكَانَ" – فعل الكون الدال على الثبات والاستمرار

استخدام "كانَ" هنا – وهي فعل ماض – لا يفيد الزمن الماضي فحسب، بل يفيد الثبات والاستمرار. فالمعنى: أن مضاعفة العذاب هي أمر ثابت في حكم الله، وهي يسيرة عليه دائمًا، ليس فيها مشقة و لا عناء.

٢."ذَٰلِكَ" – اسم الإشارة للبعيد: تعظيم الأمر وتهويله

استخدام "ذَٰلِكَ" (للبعيد) بدلًا من "هذا" (للقريب) فيه إشارة إلى عظم هذا الأمر وتهويل شأنه. فالمشار إليه هو مضاعفة العذاب، وهو أمر عظيم في نفسه، ولكنه مع عظمته يسير على الله.

٣."عَلَى اللَّهِ" – إظهار العزة والقدرة المطلقة

تقديم الجار والمجرور "عَلَى اللَّهِ" على الخبر "يَسِيرًا" يفيد التخصيص والقصر. أي: هذا الأمر العظيم – مضاعفة العذاب – هو يسير على الله خاصة، وإن كان عسيرًا على غيره. فالله وحده هو القادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

٤."يَسِيرًا" – سهولة العقاب على الله

لفظة "يَسِير" تعني: سهل، هيّن، لا مشقة فيه ولا كلفة. وهذا يذكرنا بقوله تعالى في آيات أخرى:

· "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا") فاطر:.(44
· "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ") يس:.(82

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الختم الإلهي

أ. الجمع بين الترهيب والترغيب في آن واحد

هذا الختم العظيم يجمع بين معنيين متقابلين في آن واحد:

من جهة (الترهيب): هو تحذير شديد للمسيئين. فالله قادر على إنزال العذاب المضاعف بمن يشاء، وهو يسير عليه، فلا يظن ظانّ أن الله عاجز عن عقابه، أو أن العقاب بعيد أو صعب عليه.

من جهة (الترغيب): هو تطمين للمحسنين بأن الله قادر على إيصال الأجر العظيم لهم، كما هو قادر على إنزال العذاب بالمسيئين. فكما أن مضاعفة العذاب يسيرة عليه، فمضاعفة الأجر يسيرة عليه أيضًا.

ب. إثبات قدرة الله المطلقة ونفي العجز عنه

الآية ترد على أي شك قد يخطر في بال: "كيف يعذب الله نساء نبيه وقد كنّ في بيته؟" أو "كيف يضاعف العذاب على من كانت قريبة من النبي؟"

الرد الإلهي قاطع: "وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا". فالله لا يحابي أحدًا، ولا تمنعه قرابة ولا مكانة من إنزال العقاب بمن يستحقه. إنه العدل المطلق، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا شفاعة شافع إلا بإذنه.

ج. التذكير بأن حساب الله ليس كحساب البشر

في الدنيا، قد يفلت الكبير من العقاب بسبب نفوذه أو مكانته، وقد يُظلم الصغير ولا يجد من ينصفه. أما في الآخرة، فالحساب يسير على الله، لا يحول دونه نفوذ ولا جاه ولا قرابة. "فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" (الزلزلة: 7-8).

وهذا يبعث الطمأنينة في قلوب المظلومين، والرعب في قلوب الظالمين.

خامسًا: العلاقة التكاملية بين آيات التخيير (28-29) وآية مضاعفة العذاب (30)

الآيات الثلاث (28-30) تشكل وحدة موضوعية متكاملة في الحديث عن نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ويمكن تلخيص العلاقة بينها في الجدول التالي:

الوجه آية 28 آية 29 آية 30
الموضوع التخيير: عرض الدنيا وزينتها التخيير: عرض الله والرسول والدار الآخرة التحذير: بيان المسؤولية والتبعة
الخطاب غير مباشر (قل لأزواجك) غير مباشر (قل لأزواجك) مباشر (يا نساء النبي)
النبرة رفق ولطف (فتعالين) ترغيب (أجرًا عظيمًا) ترهيب وتحذير (يضاعف لها العذاب)
الجزاء متعة دنيوية + سراح جميل أجر عظيم عذاب مضاعف ضعفين
الغاية التربوية تعليم حرية الاختيار تعليم علو الهمة والإيثار تعليم المسؤولية المتناسبة مع المقام

الدروس التربوية من تكامل الآيات الثلاث

١.منهج القرآن في التربية: الترغيب والترهيب معًا

الآيات الثلاث ترسم لنا المنهج القرآني المتوازن في التربية:

- الآية28 : فيها تخيير) حرية.(
- الآية29 : فيها ترغيب) أجر عظيم.(
- الآية30 : فيها ترهيب) عذاب مضاعف.(

وهكذا ينبغي أن تكون التربية: لا إكراه مع حرية الاختيار، ولا ترغيب وحده دون ترهيب، ولا ترهيب وحده دون ترغيب. إنه توازن دقيق يصنع شخصية سوية، تخاف الله وترجوه، وتختار الخير عن قناعة لا عن إكراه.

٢.أن النعمة العظيمة تحمل في طياتها الخطر العظيم

من تأمل الآيات الثلاث معًا يدرك أن مقام نساء النبي – وهو مقام شريف عظيم – ليس مجرد شرف ، بل هو امتحان عظيم أيضًا. فبقدر ما فيه من أجر مضاعف، فيه عذاب مضاعف لمن انحرفت. وهذا يذكر كل صاحب نعمة (علم، مال، جاه، قرب من الصالحين) أن نعمته سيف ذو حدين: إن شكرها وأدى حقها نجا وفاز، وإن كفرها وأساء استحق العذاب المضاعف.

٣.أن الله لا يعامل الجميع معاملة واحدة

الآيات الثلاث تؤكد أن المسؤولية متفاوتة، وأن الجزاء متفاوت، وأن الله تعالى لا يسوي بين:

- من عاش في بيت النبوة، ومن عاش في بيوت الغفلة.
- من سمع الوحي يتلى صباح مساء، ومن لم يسمع به إلا قليلًا.
- من كان تحت نظر النبي وتربيته، ومن كان بعيدًا عن ذلك.

وهذا من عدل الله، لا من ظلمه. "أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ" (القلم: 35-36).

سادسًا: القيم المستفادة من الآية 30

القيمة تجلياتها في الآية
المسؤولية الفردية الخطاب المباشر: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ"، كل واحدة مسؤولة عن نفسها.
تناسب المسؤولية مع النعمة مضاعفة العذاب ضعفين بسبب عظم النعمة والمقام.
العدالة الإلهية العقوبة مضاعفة على من عظمت نعمته وعلمه وأثره.
خطورة القدوة السلبية الفاحشة من نساء النبي أشد تأثيرًا، فعقوبتها أشد.
الوضوح والشفافية التحذير صريح ومباشر، لا مواربة فيه.

التوازن بين الترغيب والترهيب الآية تأتي بعد آية الترغيب لتكمل الصورة.
استشعار عظم النعمة تذكر أن النعمة الكبيرة تحمل مسؤولية كبيرة.
قدرة الله المطلقة "وَكانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا" – تذكير بعزة الله وقدرته.
سابعًا: المفاهيم العملية – ماذا تريد منا الآية 30 أن نتعلم ونطبق؟

.١مفهوم المسؤولية المتناسبة مع المقام

الآية تعلمنا أن كل زيادة في النعمة هي زيادة في المسؤولية. فإذا كنت:

· صاحب علم: فمسؤوليتك أن تعلم الناس، ولا تكتم علمًا، ولا تفتي بغير علم.
· صاحب مال: فمسؤوليتك أن تنفقه في وجوه الخير، ولا تبخل، ولا تنفقه في الحرام.
· صاحب جاه أو منصب: فمسؤوليتك أن تنصف المظلوم، وتعين المحتاج، ولا تستغل منصبك للظلم.
· ممن ينتسب إلى الصالحين: فمسؤوليتك أن تكون قدوة حسنة، ولا تشوه صورة الدين بتصرفاتك.

تطبيق عملي:
قبل أن تطلب من الله زيادة النعمة (علمًا، مالًا، جاهًا)، اسأل نفسك: "هل أنا مستعد لتحمل المسؤولية المضاعفة التي تأتي مع هذه النعمة؟"

.٢مفهوم الحذر من القدوة السلبية

الآية تحذرنا من خطر أن نكون سببًا في ضلال الآخرين. فكل معصية تفعلها علنًا، وكل خطأ ترتكبه أمام الناس، قد يكون حجة لغيرك على فعل المنكر.

تطبيق عملي:

· إذا كنت أبًا أو أمًا: تذكر أن أبناءك يراقبونك، وأن خطأك أمامهم قد يجرئهم على الخطأ.
· إذا كنت مدرسًا أو داعية: تذكر أن طلابك ينظرون إليك كقدوة، وأن زلتك قد تزلزل ثقتهم في الدين.
· إذا كنت صاحب حساب مؤثر في وسائل التواصل: تذكر أن كل كلمة تكتبها، وكل صورة تنشرها، تحمل مسؤولية مضاعفة.

.٣مفهوم استشعار عظم النعمة

الآية تدعونا إلى التفكر في نعم الله علينا، لا لنتباهى بها، بل لنستشعر ثقل المسؤولية التي تأتي معها.

تطبيق عملي:

· اجلس مع نفسك جلسة محاسبة، واسألها: "ما هي النعم التي خصني الله بها دون غيري؟) الإيمان، العلم، الصحة، المال، الأسرة .(...وكيف أستخدم هذه النعم في طاعة الله؟ وهل أنا مقصر في حقها؟"

.٤مفهوم التوازن بين الخوف والرجاء

الآية – مع الآيتين السابقتين – تعلمنا أن نعيش حياتنا بين الخوف والرجاء:

· لا نأمن مكر الله: فحتى لو كنا في أعلى المقامات، يجب أن نخاف من التقصير ومن عقاب الله.
· ولا نيأس من رحمة الله: فالله غفور رحيم، وهو يضاعف الأجر للمحسنين كما يضاعف العذاب للمسيئين.

تطبيق عملي:

· في دعائك، اجمع بين الخوف والرجاء .قل كما علمنا النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل".
خاتمة: في رحاب العدل الإلهي

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة التي ترسم لنا صورة العدالة الإلهية في أبهى

صورها. إنها آية تذكرنا بأن النعم ليست مجرد هبات، بل هي مسؤوليات وأمانات. وأن المقامات الرفيعة ليست مجرد تشريف، بل هي تكليف.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· الخطأ من الكبير ليس كالخطأ من الصغير.
· وأن المعصية من العالم ليست كالمعصية من الجاهل.
· وأن الزلة من القدوة أعظم أثرًا، فأعظم عقابًا.

وفي نفس الوقت، علمتنا أن الله عادل، لا يظلم مثقال ذرة، وأنه قادر على كل شيء، يسير عليه أن يضاعف العذاب للمسيئين، كما يسير عليه أن يضاعف الأجر للمحسنين.

فلنحذر أن نكون ممن يأتي بالفاحشة المبينة بعد أن علمنا الحق، ولنحرص أن نكون من المحسنين و المحسنات الذين أعد الله لهم أجرًا عظيمًا.

المبحث الرابع

.تفسير آية مضاعفة الأجر (الأحزاب: 31) – في رحاب الطاعة الواعية والجزاء المضاعف

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

بعد أن وقفنا في رحاب الآية الثلاثين، ورأينا كيف حذّر الله نساء نبيه من مغبة الإتيان بفاحشة مبينة، وكيف أن العذاب يضاعف لهن ضعفين بسبب عظم مقامهن وجسامة مسؤوليتهن، تأتي هذه الآ ية الكريمة لتفتح لنا نافذة جديدة من نوافذ الرحمة والفضل الإلهي. إنها الآية التي توازن ميزان العدل الإلهي، فبعد أن بيّنت عاقبة الإساءة، تبيّن عاقبة الإحسان، ليكتمل بذلك مشهد التربية الربانية المتكاملة.

يقول الله تعالى: "وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا"

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا النداء الإلهي العظيم. إنه ليس مجرد وعد بالجزاء، بل هو إعلا ن عن قانون إلهي ثابت: أن الطاعة الخالصة لله ورسوله، المقرونة بالعمل الصالح، تفتح أبوابًا من الفضل لا تخطر على قلب بشر. إنها دعوة لكل مؤمنة – بل لكل مؤمن – أن ترتقي إلى مقام القنوت، ذلك المقام الذي يجمع بين خضوع القلب وطاعة الجوارح، فيكون الجزاء أجرًا مضاعفًا ورزقًا كريمًا.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، وكأننا نسمع بأذاننا هذا الوعد الإلهي الكريم.

الأمر الأول:

"وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ" – فلسفة القنوت ومعناه العميق

اللمسة البيانية الأولى: "وَمَن" – أداة الشرط وفتح باب الأمل

تبدأ الآية الكريمة بـ "وَمَن"، وهي أداة شرط تدل على العموم والشمول. وكما استُخدمت في آية التحذير: "مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ"، استُخدمت هنا في آية الوعد: "وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ". وهذا التناظر البديع يعكس عدالة الله المطلقة:

· هناك: "مَن يَأْتِ" – باب التحذير مفتوح لكل من تقع في الخطأ.
· وهنا: "وَمَن يَقْنُتْ" – باب الرحمة مفتوح لكل من تقبل على الطاعة.

إنها رسالة واضحة: لا أحد محروم من فضل الله إذا أقبل عليه، ولا أحد بمنجى من عدله إذا أعرض عنه. الكل مخاطب، والكل مسؤول، والكل له فرصة الفوز والنجاة.

اللمسة البيانية الثانية: "يَقْنُتْ" – جوهر العبودية وسر القبول

اللفظة المحورية في هذه الآية هي "يَقْنُتْ". إنها كلمة عظيمة، تحمل في طياتها معاني سامية، وتكشف عن سر العلاقة بين العبد وربه. فلنقف مع هذه الكلمة وقفة متأنية، ولنستكشف أبعادها اللغوية والروحية.

.١المعنى اللغوي للقنوت

القنوت في اللغة العربية له عدة معانٍ متقاربة، كلها تدور حول الطاعة والخضوع والخشوع:

· الطاعة الدائمة: أصل القنوت هو لزوم الطاعة والخضوع لله.
· القيام في الصلاة: ومنه "القنوت" في الصلاة، وهو الدعاء حال القيام.
· السكوت والخشوع: ومنه قوله تعالى: "وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ") البقرة:(238 ، أي خاشعين ساكنين.
· الإخلاص في العبادة: فالقانت هو من أخلص عبادته لله وحده.

فالقنوت إذن هو حالة قلبية تظهر في سلوك الجوارح. إنه ليس مجرد طاعة شكلية، بل هو خضوع باطني وانقياد كامل لله ورسوله، مع دوام واستمرار على هذا الطريق.

.٢لماذا "يَقْنُتْ" وليس "يُطِعْ" أو "يَعْبُدْ"؟

قد يسأل سائل: لماذا استخدم القرآن لفظ "يَقْنُتْ" هنا، ولم يستخدم "يُطِعْ" أو "يَعْبُدْ"؟ والجواب يكمن في الثراء الدلالي لهذه الكلمة:

· "الطاعة" قد تكون ظاهرية فقط، يؤديها الإنسان وهو كاره، أو خوفًا من عقاب.
· "العبادة" قد تكون أداءً للشعائر دون حضور القلب.
· أما "القنوت" فهو طاعة ممزوجة بالحب والخضوع والخشوع والإخلاص .إنه طاعة من ينظر إلى الله بقلبه قبل أن يتحرك بجوارحه .إنه طاعة المحب الخاشع، لا طاعة العبد الخائف فقط.

ولذلك اختار الله هذا اللفظ ليكون وصفًا لأمهات المؤمنين – ولمن تسير على دربهن – لأنه المقام الأسمى في العبودية.

.٣القنوت: رحلة من القلب إلى الجوارح

تأمل معي هذا المشهد الإيماني الرائع الذي ترسمه كلمة "يَقْنُتْ":

· في القلب: خضوع تام لله، ومحبة صادقة له ولرسوله، وخشية دائمة من التقصير.
· في اللسان: ذكر دائم، ودعاء خاشع، وكلام طيب.
· في الجوارح: عمل دؤوب في طاعة الله، واتباع دقيق لسنة الرسول، وخدمة للدين والأمة.

هذا هو القنوت: أن يكون الإنسان بكليته – قلبًا وقالبًا – متوجهًا إلى الله، خاضعًا له، متبعًا لرسوله.

الرسائل التربوية والنفسية من لفظ "يَقْنُتْ"

أ. القنوت: مفتاح مضاعفة الأجر

الآية تربط بين القنوت ومضاعفة الأجر. وهذا يعني أن مضاعفة الأجر ليست مجرد جزاء على كثرة العمل، بل هي جزاء على جودة العمل وصفاء النية وإخلاص القلب. فالمرأة التي تقنت لله ورسوله – أي تخضع بقلبها وتطيع بجوارحها – قد يكون عملها في الظاهر قليلًا، لكنه في ميزان الله عظيم، لأنه صادر عن قلب مخبت خاشع.

مثال تقريبي معاصر:
تخيل معي امرأتين:

· الأولى: تؤدي الصلوات الخمس، وتصوم رمضان، وتقرأ القرآن، لكن قلبها غافل، وعقلها مشغول بالدنيا أثناء العبادة .هي تطيع، لكنها لا تقنت.
· الثانية: تؤدي نفس العبادات، لكنها تؤديها بقلب حاضر، وخشوع تام، واستشعار لعظمة الله .هي تقنت لله.

أيهما أقرب إلى مضاعفة الأجر؟ إنها الثانية بلا شك. فالعبادة الواحدة من قلب قانت تعدل أضعافها من قلب غافل.

ب. القنوت في زمن المشتتات: تحدٍ وفرصة

في عصرنا الحاضر، حيث تكثر المشتتات الذهنية (وسائل التواصل، الإعلام، ضغوط العمل والحياة)، أصبح تحقيق مقام القنوت تحديًا كبيرًا. كيف نقنت لله وقلوبنا موزعة بين مئات الإشعارات وآلاف الصور وملايين الأفكار؟

الآية تدعونا إلى استعادة القنوت في حياتنا:

· أن نخصص أوقاتًا للخلوة بالله، بعيدًا عن ضجيج الدنيا.
· أن نتدرب على الخشوع في الصلاة، ولو بدأنا بدقائق معدودة.
· أن نجعل نية القرب من الله هي المحرك الأساسي لكل أعمالنا، حتى أعمالنا الدنيوية.

إن القنوت في هذا الزمن ليس مستحيلًا، بل هو جهاد، وجزاؤه عند الله أجر مضاعف.
الأمر الثاني:
"لِلَّهِ وَرَسُولِهِ" – تحديد جهة القنوت وإخلاص التوجه

بعد أن بينت الآية أن الطريق إلى مضاعفة الأجر هو القنوت، جاءت لتحدد جهة هذا القنوت واتجاهه: "لِلَّهِ وَرَسُولِهِ". وهذا التحديد يحمل في طياته دلالات عقدية وتربوية عظيمة.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "لِلَّهِ وَرَسُولِهِ"

١.تقديم "لِلَّهِ" – البدء بالأصل والغاية

لاحظ أن الآية بدأت بـ "لِلَّهِ" ثم أتبعت بـ "وَرَسُولِهِ". وهذا الترتيب مقصود وله دلالته:

· الله هو الأصل: فالقنوت لله أولًا وقبل كل شيء .هو الغاية التي نتوجه إليها، وهو المقصود بالعبادة والخضوع.
· الرسول هو المبلغ والقدوة: القنوت للرسول هو تابع للقنوت لله، وليس مستقلا ً عنه .فنحن نقنت للرسول بمعنى طاعته واتباع سنته، لا بمعنى عبادته أو تأليهه.

وهذا يعلمنا درسًا عقديًا مهمًا: أن العبادة لله وحده، وأن طاعة الرسول هي من طاعة الله. قال تعالى: "مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ" (النساء: 80).

٢.الجمع بين "الله" و"رسوله" في القنوت – معنى التلازم

لم تقل الآية: "ومن يقنت لله" فقط، بل جمعت بين "لِلَّهِ وَرَسُولِهِ". وهذا الجمع يحمل معنى التلازم بين:

· محبة الله ومحبة رسوله.
· طاعة الله وطاعة رسوله.
· الخضوع لله واتباع هدي رسوله.

فلا يصح قنوت لله دون قنوت لرسوله. فمن ادعى أنه يحب الله ويطيعه، ثم خالف سنة رسوله وهَدْيَه، فهو كاذب في دعواه. إن القنوت الكامل لا يتحقق إلا باتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣.خصوصية الخطاب لنساء النبي: "لله ورسوله" كمصدر للتشريف والتكليف

في سياق الحديث عن نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فإن قوله: "لِلَّهِ وَرَسُولِهِ" يحمل معنى إضافيًا:

· تشريف: فقنوتهن لله ورسوله يعني أنهن في مقام خاص، حيث الرسول هو زوجهن وصاحبهن، وقنوتهن له هو جزء من حياتهن اليومية.
· تكليف: هذا القرب من الرسول يضاعف مسؤوليتهن في الطاعة والاتباع، كما ضاعف مسؤوليتهن في تجنب المعاصي.

وهذا يعلمنا أن كل قرب من أولياء الله ورسوله هو شرف وتكليف معًا. فمن كان قريبًا من العلماء، أو

الدعاة، أو الصالحين، فعليه أن يكون أكثر حرصًا على الطاعة والاتباع، لأن الناس ينظرون إليه على أنه امتداد لهذه القدوة.

الرسائل التربوية والنفسية من "لِلَّهِ وَرَسُولِهِ"

أ. وحدة المصدر: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

الجمع بين الله ورسوله في القنوت يعلمنا أن الطاعة المطلقة هي لله وحده، وأن طاعة أي مخلوق – حتى الرسول – هي مقيدة بطاعة الله. فلا يجوز أن نطيع أحدًا في معصية الله، حتى لو كان هذا ا لأحد قريبًا عزيزًا.

تطبيق عملي في حياتنا المعاصرة:

· إذا أمرك والدك بقطع صلة الرحم، فلا تطعه، لأن طاعة الله مقدمة على طاعة الوالدين.
· إذا طلب منك مديرك في العمل أن تغش أو تكذب، فلا تطعه، لأن طاعة الله مقدمة على طاعة صاحب العمل.
· إذا دعاك زوجك إلى أمر فيه معصية، فلا تطيعه، لأن القنوت لله ورسوله مقدم على كل قنوت.

ب. أن القنوت للرسول هو قنوت لله في الحقيقة

هذه الآية ترد على من يزعم أن محبة الرسول وطاعته أمر منفصل عن محبة الله وطاعته. إنها تؤكد أن القنوت للرسول هو جزء لا يتجزأ من القنوت لله. فمن أطاع الرسول، فقد أطاع الله. ومن أحب الرسول، فقد أحب الله. ومن تبع سنته، فقد عبد الله حق عبادته.

تطبيق عملي:
عندما تقرأ حديثًا للرسول صلى الله عليه وسلم، وتحرص على تطبيقه في حياتك، فأنت في هذه اللحظة تقنت لله ورسوله. عندما تتبع هديه في أكلك وشربك ونومك ومعاملاتك، فأنت تقنت لله ورسوله. إنها عبادة ممتدة في كل تفاصيل الحياة.
الأمر الثالث:
"وَتَعْمَلْ صَالِحًا" – قرن القنوت القلبي بالعمل الجوارحي

بعد أن ذكرت الآية القنوت – وهو الحالة القلبية والروحية – أتبعته بـ "وَتَعْمَلْ صَالِحًا" – وهو السلوك العملي. وهذا الجمع بين القلب والجوارح، بين الباطن والظاهر، هو منتهى الكمال الإيماني.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَتَعْمَلْ صَالِحًا"

١."وَتَعْمَلْ" – العطف بـ "الواو" ودلالة الجمع بين الأمرين

الواو هنا هي واو العطف، وهي تفيد الجمع بين القنوت والعمل الصالح، وليس التخيير بينهما. ف المعنى: أن الأجر المضاعف والرزق الكريم مشروطان بـ الأمرين معًا:

· القنوت لله ورسوله) حالة قلبية.(
· العمل الصالح) سلوك عملي.(

فلا يكفي أن يكون القلب خاشعًا مخبتًا، دون أن يترجم هذا الخشوع إلى عمل صالح. ولا يكفي أن يعمل الإنسان أعمالًا صالحة في الظاهر، دون أن يكون قلبه قانتًا لله ورسوله. الكمال أن يجتمع الأ مران.

٢."صَالِحًا" – وصف العمل بالصلاح: معيار القبول

وصف العمل بأنه "صَالِحًا" له دلالة عميقة. فليس كل عمل مقبول عند الله، حتى لو كان ظاهره الخير. العمل المقبول هو العمل الصالح، الذي توفر فيه شرطان:

· الإخلاص لله: أن يكون العمل خالصًا لوجه الله، لا تشوبه شائبة رياء أو سمعة أو طلبًا للدنيا.
· المتابعة للرسول: أن يكون العمل موافقًا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ليس فيه ابتداع ولا

مخالفة.

فالعمل الصالح هو الذي يجمع بين الإخلاص والصواب. إخلاص في النية، وصواب في المنهج.

.٣تنكير "صَالِحًا" – شمول كل عمل صالح مهما صغر

لفظة "صَالِحًا" جاءت نكرة، والتنكير هنا يفيد العموم والشمول. أي: أي عمل صالح، مهما كان صغيرًا في نظر الناس، فإنه يدخل في هذا الوعد الإلهي. فليس العمل الصالح مقصورًا على عبادات معينة، بل يشمل:

· العبادات: صلاة، صيام، ذكر، تلاوة قرآن.
· الأخلاق: صدق، أمانة، حياء، كرم.
· المعاملات: بر الوالدين، إصلاح ذات البين، كفالة يتيم.
· الخدمات: تعليم جاهل، إطعام جائع، سقاية عطشان.

كل عمل يقصد به وجه الله، ويوافق سنة رسوله، فهو عمل صالح، ويدخل في هذا الوعد الإلهي العظيم.

الرسائل التربوية والنفسية من "وَتعْمَلْ صَالِحًا"

أ. الإيمان ليس مجرد مشاعر، بل هو عمل وسلوك

هذه الآية تؤكد حقيقة تربوية كبرى: أن الإيمان الحقيقي لا ينفصل عن العمل. فليس الإيمان مجرد مشاعر قلبية أو تأملات روحية، بل هو حركة في الواقع، وأثر في الحياة. القنوت – وهو قمة الأحوال القلبية – لا يكتمل إلا بالعمل الصالح – وهو قمة السلوك العملي.

مثال تطبيقي:

· امرأة تقول: "أنا أحب الله ورسوله"، لكنها لا تصلي، ولا تحتشم، ولا تحسن إلى جيرانها .هذا ادعاء لا دليل عليه.
· أما المرأة التي تقنت لله ورسوله بقلبها، ثم تعمل صالحًا بجوارحها) تصلي، تتصدق، تبر والديها(، فهذه هي التي ينطبق عليها وعد الله في هذه الآية.

ب. العمل الصالح: ميدان المنافسة الحقيقي

الآية تفتح أمام المرأة المسلمة ميدانًا واسعًا للمنافسة في الخيرات. فالعمل الصالح ليس محصورًا في المسجد أو في أوقات محددة، بل هو ممتد في كل لحظة من لحظات الحياة:

· في البيت: تربية الأبناء على الإيمان، إعداد الطعام للأسرة بنية إعانتهم على طاعة الله، تنظيف البيت بنية التفرغ للعبادة والعلم.
· في العمل: إتقان العمل، الأمانة، الصدق، التعاون مع الزملاء.
· في المجتمع: صلة الرحم، زيارة المريض، إغاثة الملهوف، نشر العلم النافع.

كل هذه الأعمال – إذا صلحت النية – هي عمل صالح، وهي طريق إلى الأجر المضاعف والرزق الكريم.

ج. أن الجزاء على قدر العمل وجودته

الآية تشير إلى أن مضاعفة الأجر مرتبطة بـ نوع العمل وجودته. فليس كل من عمل صالحًا ينال نفس الدرجة من الأجر المضاعف، بل الأجر على قدر:

· الإخلاص: كلما كان العمل أخلص لله، كان الأجر أعظم.
· المشقة: كلما كان العمل أشق على النفس، كان الأجر أكبر.
· الأثر: كلما كان أثر العمل أوسع وأبقى، كان الأجر أوفر.

مثال تقريبي:

· امرأة تتصدق بجنيه واحد وهي محتاجة إليه، أجرها أعظم من امرأة غنية تتصدق بألف جنيه دون أن تشعر بقيمتها.
· امرأة تربي أبناءها على الإيمان في زمن الفتن والمغريات، أجرها مضاعف على امرأة في زمن سكون وهدوء.
الأمر الرابع:
"نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ" – فلسفة مضاعفة الأجر وأبعادها

بعد أن بينت الآية شروط الفوز (القنوت والعمل الصالح)، جاءت ببيان الجزاء: "نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ". هذا هو الوعد الإلهي الكريم، وهذا هو المقابل لمضاعفة العذاب التي ذكرت في الآية السابقة.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ"

١."نُؤْتِهَا" – نسبة الإيتاء إلى الله بضمير الجمع للتعظيم

قوله: "نُؤْتِهَا" – بضمير المتكلم الجمع – هو من باب التعظيم. فالله تعالى ينسب إعطاء الأجر إلى نفسه بصيغة الجمع، إيذانًا بعظمة هذا العطاء وجلالة مصدره. فالمعطي هو الله، مالك الملك، الذي خزائنه لا تنفد، وعطاؤه لا ينقطع.

٢."أَجْرَهَا" – إضافة الأجر إلى ضمير الفاعلة: دقة العدل الإلهي

لاحظ أن الآية قالت: "أَجْرَهَا"، فأضافت الأجر إلى ضمير المؤنثة المفردة (الهاء). وهذا يدل على دقة العدل الإلهي: أن الأجر الذي تعطاه هو أجر عملها هي، لا أجر غيرها. فكل واحدة تنال أجرها كاملًا غير منقوص، حسب عملها وإخلاصها وقنوتها.

٣."مَرَّتَيْنِ" – مضاعفة الأجر: لماذا مرتين؟

كما أن العذاب يضاعف ضعفين، فإن الأجر يضاعف مرتين. وهذا التناظر يدل على عدل الله المطلق: فكما أن المعصية من نساء النبي لها وزر مضاعف، فإن الطاعة لهن لها أجر مضاعف.

لماذا "مرتين" وليس "ضعفين"؟

· "ضعفين") في آية العذاب (تفيد المثلين، أي ضعف عذاب غيرهن.
· "مرتين") في آية الأجر (تفيد أيضًا التضعيف، أي أجرين: أجر على الطاعة، وأجر على عظم المقام و المسؤولية.

وهذا من بديع البيان القرآني: تنويع الألفاظ مع اتحاد المعنى، ليكون الكلام أحلى في السمع، وأوقع في النفس.

لماذا مضاعفة الأجر؟ الحكمة من وراء التضعيف

مضاعفة الأجر لنساء النبي – ولمن يسير على دربهن من النساء – تعود إلى عدة أسباب:

أ. عظم النعمة والمسؤولية

كما بينا في الآية السابقة، نعمة الله على نساء النبي عظيمة (القرب من النبي، العلم، المكانة)، وهذه النعمة تستوجب مسؤولية مضاعفة. ومن عدل الله أن الأجر يضاعف كما الوزر يضاعف. فكما أن خطأهن أعظم أثرًا فعقوبته أشد، فإن طاعتهن أعظم أثرًا فأجرهن أوفر.

ب. كونهن قدوة للأمة

نساء النبي هن أمهات المؤمنين، وقدوة لنساء العالمين. فكل عمل صالح يقمن به، وكل طاعة يؤدينها، تصبح درسًا عمليًا للأمة، وتحتذى عبر الأجيال. وهذا الأثر الممتد عبر الزمان يستوجب أجرًا مضاعفًا.

مثال توضيحي:
عندما تقتنع امرأة مسلمة في القرن الحادي والعشرين بحديث عن زهد عائشة رضي الله عنها، فتثقل

من إنفاقها على الكماليات، فإن عائشة تنال أجر هذا الاقتداء، مع أن العمل صدر من غيرها. وهذا هو الأجر الممتد، الذي لا ينقطع بموت صاحبه.

ج. تشجيعًا على الاستمرار في الطاعة رغم المشقة

مضاعفة الأجر هي حافز إلهي عظيم للاستمرار في الطاعة. فعندما تعلم المرأة أن أجرها مضاعف، فإن ذلك يهون عليها مشقة الطاعة، ويدفعها إلى المزيد من الخير.

الرسائل التربوية والنفسية من مضاعفة الأجر

أ. أن الله لا يضيع أجر المحسنين

هذه الآية تطمئن كل مؤمنة – بل كل مؤمن – أن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملًا. فمهما بدا عملك صغيرًا في عينك، فهو عظيم عند الله، وسيُجزى به أضعافًا مضاعفة.

ب. أن طريق مضاعفة الأجر مفتوح للجميع

قد يقول قائل: "مضاعفة الأجر خاصة بنساء النبي، فما حظنا نحن؟". والجواب: إن علة مضاعفة الأجر – وهي القنوت لله ورسوله والعمل الصالح – هي علة عامة لكل مؤمن ومؤمنة. فكل من حقق هذه الشروط نال من فضل الله مضاعفة الأجر، وإن تفاوتت الدرجات.

تطبيق عملي:

· طالب العلم: الذي يطلب العلم الشرعي ليعلم الناس، أجره مضاعف لأنه قدوة.
· الداعية: التي تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، أجرها مضاعف لأن أثرها متعدٍ.
· الأم: التي تربي أبناءها على الإيمان في زمن الفتن، أجرها مضاعف لأنها تحمي جيلًا كاملًا.

كل من تصدر للقدوة، أو كان لأعماله أثر متعدٍ، فإن له نصيبًا من مضاعفة الأجر بإذن الله.
الأمر الخامس:
"وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا" – الرزق الكريم: ما هو؟ وكيف نعيشه في واقعنا؟

هذا هو الختام الإلهي للآية الكريمة، وهو ختام يفوح بالرحمة والفضل والعطاء. بعد أن وعد الله بـ المضاعفة في الأجر، أضاف وعدًا آخر: "وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا". فما هو هذا الرزق الكريم؟ وكيف يمكن أن نعيشه في حياتنا اليومية؟

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا"

١."أَعْتَدْنَا" – الإعداد المسبق والعناية الفائقة

لفظة "أَعْتَدْنَا" – من الإعداد والعتاد – تفيد أن هذا الرزق مُعَدٌ مسبقًا، ومُهيّأ بعناية فائقة. فالله تعالى لم يقل: "سنرزقها"، بل قال: "أَعْتَدْنَا"، أي هيأنا وجهزنا وهيّأنا.

وهذا يدل على:

· كرم الله المسبق: فالله يعد لعباده الصالحين من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، قبل أن يعملوا أعمالهم.
· عناية خاصة: فالإعداد يعني التهيئة والتحضير بعناية، وهذا يدل على أن هذا الرزق ليس شيئًا عاديًا ، بل هو شيء خاص أعد بعناية للمحسنات القانتات.

٢."رِزْقًا" – الرزق: ما هو؟

الرزق في اللغة: كل ما ينتفع به الإنسان، ماديًا كان أو معنويًا. والرزق في القرآن يأتي على معانٍ متعددة:

· الرزق المادي: المال، الطعام، المسكن، الزوج الصالح، الأولاد.
· الرزق المعنوي: العلم، الحكمة، الإيمان، السكينة، محبة الناس، القبول في الأرض.

· الرزق الأخروي: الجنة، النعيم المقيم، رؤية الله تعالى.

فالرزق الكريم الذي أعده الله للمحسنات القانتات يشمل كل هذه الأنواع، في الدنيا والآخرة.

.٣"كريمًا" – صفة الرزق: ما معنى أن يكون الرزق كريمًا؟

وصف الرزق بأنه "كريم" يحمل معاني سامية:

· كريم في مصدره: فهو من الله الكريم، الذي يعطي بغير حساب، ولا يمن بغير استحقاق.
· كريم في صفته: فهو رزق طيب حلال، ليس فيه شائبة حرام ولا منّة ولا أذى.
· كريم في مقداره: فهو رزق واسع فسيح، لا ضيق فيه ولا شح.
· كريم في دوامه: فهو رزق دائم غير منقطع، ليس كأرزاق الدنيا التي تزول وتنقطع.

فالرزق الكريم هو نقيض الرزق الخبيث، ونقيض الرزق القليل، ونقيض الرزق المنقطع. إنه رزق يليق بجلال الله وكرمه، ويليق بمقام المحسنات القانتات.

كيف نعيش "الرزق الكريم" في واقعنا المعاصر؟

قد يسأل سائل: "أنا امرأة مسلمة، أحاول أن أقنت لله ورسوله وأعمل صالحًا، لكني لا أرى هذا الرزق الكريم في حياتي! رزقي قليل، وعيشي ضيق، فكيف أعيش هذه الآية في واقعي؟"

والجواب من وجوه:

أ. الرزق الكريم ليس مجرد المال

أول خطأ قد نقع فيه هو حصر الرزق في المال والمتاع المادي. الرزق الكريم الذي أعده الله للمحسنات أوسع بكثير من ذلك. قد تكون المرأة قليلة المال، لكنها غنية بالرزق الكريم:

· رزق القناعة: أن ترضى بما قسم الله لها، فتعيش غنية النفس وإن كان مالها قليلًا .هذه القناعة رزق كريم لا يقدر بثمن.
· رزق السكينة: أن ينزل الله الطمأنينة في قلبها، فلا تقلق على الرزق، ولا تحسد أحدًا على ما آتاه الله .هذه السكينة رزق كريم يفوق كنوز الدنيا.
· رزق محبة الناس: أن يحبها الناس ويقبلوا عليها، ويذكروها بالخير .هذا القبول رزق كريم من الله.
· رزق الذرية الصالحة: أن يرزقها الله أولادًا بارين صالحين، يدعون لها بعد موتها .هذا رزق كريم لا ينقطع.

مثال واقعي:
تأملي في حال بعض الأمهات الفقيرات في القرى النائية. قد لا يملكن من الدنيا شيئًا، لكنك ترين في وجوههن نور القناعة وسكينة الرضا. إنهن يعشن الرزق الكريم في قلوبهن، وإن كان رزقهن المادي قليلًا.

ب. الرزق الكريم قد يكون في تأخير العطاء الدنيوي لزيادة الأجر الأخروي

من صور الرزق الكريم أن يؤخر الله عنك بعض أرزاق الدنيا، ليزيد لك في أرزاق الآخرة. فالمرأة التي تصبر على ضيق العيش، وتقنت لله ورسوله، ولا تجعل الدنيا أكبر همها، هي في نعيم عظيم لا تشعر به. إنها تتعرض لنفحات الرزق الكريم في كل لحظة صبر ورضا.

تطبيق عملي:
عندما تمرين بضائقة مالية، فقولي لنفسك: "لعل الله يؤخر عني هذا المال ليعطيني بدلًا منه رزقًا كريمًا في الآخرة، وليرفع درجتي بالصبر". هذا اليقين هو من أعظم أرزاق القلوب.

ج. الرزق الكريم في البركة لا في الكثرة

كم من امرأة رزقها قليل، لكنه مبارك، يكفيها ويكفي أسرتها ويزيد! وكم من امرأة رزقها كثير، لكنه غير مبارك، لا يكاد يكفيها حتى ينفد، أو يكون وبالًا عليها!

الرزق الكريم هو الرزق المبارك، الذي تشعرين معه أن القليل يكفي، وأن الحلال يغني عن الحرام، وأن البركة تجعل المال القليل يعمل عمل المال الكثير.

مثال واقعي:
امرأة تعمل في وظيفة متواضعة براتب قليل، لكنها تتصدق منه، وتصل رحمها منه، وتحسن إلى جيرانها منه. هذا الراتب القليل يصبح رزقًا كريمًا لأنه مبارك، ينمو ويكثر ببركة الطاعة والإحسان.

د. الرزق الكريم المنتظر في الآخرة: حافز للعمل والصبر

مهما بلغ رزق الدنيا من السعة والجودة، فهو زائل لا محالة. أما الرزق الكريم الحقيقي فهو ما أعده الله للمحسنات في الجنة: "لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ" (ق: 35).

هذا الرزق الكريم المنتظر هو حافز عظيم للمؤمنة على العمل الصالح والصبر على ضيق الدنيا. إنها تعمل وهي تعلم أن ما عند الله خير وأبقى.
سادسًا: القيم المستفادة من الآية 31

القيمة تجلياتها في الآية
الإخلاص والخضوع لله القنوت: حالة قلبية تجمع الخشوع والطاعة والإخلاص.
الجمع بين الباطن والظاهر "يقنت" (قلب) + "وتعمل صالحًا" (جوارح).
التلازم بين محبة الله ومحبة رسوله "لله ورسوله" – لا يصح قنوت لله دون قنوت لرسوله.
العدالة الإلهية في الجزاء مضاعفة الأجر "مرتين" مقابل مضاعفة العذاب.
شمولية العمل الصالح "وتعمل صالحًا" تشمل كل عمل خالص موافق للسنة.
سعة الفضل الإلهي "أجرها مرتين" + "رزقًا كريمًا" – عطاء متعدد ومضاعف.
الكرم الإلهي الرزق الكريم: واسع، طيب، دائم، من مصدر كريم.
الصبر والاحتساب الأجر المضاعف يحفز على الصبر وتحمل مشاق الطاعة.
سابعًا: المفاهيم العملية – كيف نعيش آية "الرزق الكريم" في حياتنا المعاصرة؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية الكريمة، حان الوقت لنخرج بـ مفاهيم عملية قابلة للتطبيق في حياتنا اليومية. فكيف نجعل هذه الآية حية في واقعنا؟

.١تربية القلب على القنوت: خطوات عملية لتحقيق الخشوع الدائم

القنوت ليس مقامًا خاصًا بنساء النبي وحدهن، بل هو مقام مفتوح لكل مؤمنة. فكيف نصل إليه؟

خطوات عملية:

· تخصيص وقت يومي للخلوة بالله: ولو عشر دقائق قبل الفجر، تجلسين فيها وحدك، تذكرين الله، تتفكرين في نعمه، تسألينه القنوت والخشوع.
· تدبر القرآن ولو آية واحدة يوميًا: لا تقرئي القرآن لمجرد الختم، بل قفي عند آية واحدة، وتأملي معانيها، واسألي نفسك: كيف أطبقها في حياتي؟
· محاسبة النفس قبل النوم: اسألي نفسك كل ليلة: هل خشع قلبي لله اليوم؟ هل أخلصت في أعمالي ؟ هل اتبعت سنة الرسول في تعاملاتي؟

.٢تحويل الأعمال اليومية إلى "عمل صالح" مضاعف الأجر

الآية تعلمنا أن العمل الصالح ليس محصورًا في العبادات الشعائرية، بل كل عمل يومي يمكن أن يتحول إلى عبادة إذا صلحت النية.

تطبيق عملي:

· عند إعداد الطعام: انوي به إطعام أهلك لإعانتهم على طاعة الله، واذكري اسم الله عند البدء، واحتسبي الأجر في كل لقمة.
· عند تنظيف البيت: انوي به إماطة الأذى عن طريق المسلمين) أهلك(، وتهيئة بيئة نظيفة للعبادة و الذكر.
· عند تربية الأبناء: انوي به تنشئة جيل صالح يعبد الله، ويكون ذخرًا للإسلام والمسلمين.

· عند الذهاب إلى العمل: انوي به إعفاف نفسك عن سؤال الناس، وخدمة المجتمع، وكسب الرزق الحلال.

بهذه النيات، تتحول حياتك كلها إلى عمل صالح، وتستحقين وعد الله بـ الأجر المضاعف والرزق الكريم.

٣.البحث عن "الرزق الكريم" في غير المال

في زمن أصبح فيه المال هو المعيار الأول للنجاح والسعادة، تأتي هذه الآية لتعيد تعريف الرزق. فلنبحث عن أرزاق الله الكريمة في حياتنا، ولنشكرها، ولنفرح بها.

أمثلة معاصرة:

· رزق الصحة والعافية: كم من غني مريض يتمنى الصحة بكل ماله! صحتك رزق كريم، فاحمدي الله عليه.
· رزق الستر والعفاف: كم من امرأة ابتليت بالتشرد أو الفاحشة! سترك وعفافك رزق كريم، فلا تفرطي فيه.
· رزق الصحبة الصالحة: صديقة صادقة تنصحك وتدلك على الخير، هذا رزق كريم لا يقدر بثمن.
· رزق العلم النافع: أن تفهمي في دينك، أن تعرفي الحلال والحرام، أن تميزي بين الحق والباطل، هذا رزق كريم من الله.

٤.استشعار مضاعفة الأجر في كل طاعة

الآية تدعونا إلى استشعار عظم الأجر عند كل طاعة نقوم بها. هذا الاستشعار يورث النشاط والهمة، ويجعل الطاعة محبوبة إلى النفس.

تطبيق عملي:

· عند الصلاة: تذكري أنك تقنتين لله ورسوله، وأن أجرك مضاعف بإذن الله .صلي بخشوع، وكأنها آخر صلاة في حياتك.
· عند الصدقة: تذكري أن الله أعد لك رزقًا كريمًا في الآخرة مقابل هذه الصدقة .تصدقي وأنت فرحة، موقنة بالخلف من الله.
· عند كظم الغيظ: تذكري أن ضبط النفس ومقابلة الإساءة بالإحسان هو من العمل الصالح، وأن أجره مضاعف عند الله.

٥.القدوة المعاصرة: كوني "أمًا للمؤمنين" في محيطك

نساء النبي كنّ أمهات للمؤمنين، وقدوة لنساء العالمين. وأنت – أيتها المرأة المسلمة – يمكنك أن تكوني قدوة في محيطك، فتنالي بذلك أجرًا مضاعفًا، لأن أثرك سيمتد إلى من حولك.

كيف تكونين قدوة؟

· في أسرتك: كوني مثالًا للزوجة الصالحة، والأم المربية، والابنة البارة .أبناؤك وأخواتك يتعلمون منك أكثر مما يتعلمون من الكتب.
· في عملك: كوني مثالًا للأمانة والإتقان والصدق .زميلاتك في العمل سيتأثرن بسلوكك، وقد يكن سببًا في هدايتهن.
· في وسائل التواصل: انشري الخير، والكلمة الطيبة، والعلم النافع .متابعاتك يتأثرن بما تنشرين، ولك أجر كل من اهتدى بكلامك.
خاتمة: في رحاب الوعد الإلهي الكريم

في الختام، نقف بخشوع أمام هذا الوعد الإلهي العظيم، الذي يفيض رحمة وفضلًا وكرمًا. إنها آية تذكرنا بأن الطريق إلى الله – رغم ما فيه من مشقة وتضحيات – مفروش بـ الأجر المضاعف و الرزق الكريم. إنها آية تزرع في القلب الأمل، وتبعث في النفس الهمة، وتدفع إلى مزيد من القنوت و العمل الصالح.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· القنوت هو قمة العبودية، وهو يجمع بين خشوع القلب وطاعة الجوارح.
· العمل الصالح هو الترجمة العملية للإيمان، وهو مفتاح مضاعفة الأجر.
· الأجر المضاعف هو جزاء المحسنات، وهو دليل على عدل الله وكرمه.
· الرزق الكريم هو أوسع من المال، وهو يشمل كل ما ينتفع به المؤمن في الدنيا والآخرة.

فلنحرص – رجالًا ونساءً – أن نكون من القانتين القانتات، والعاملين العاملات للصالحات، لنستحق وعد الله بـ الأجر المضاعف والرزق الكريم.

المبحث الخامس

تفسير آية "لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء" (الأحزاب: 32) – ميثاق التميز والمسؤولية وأدب الخطاب

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني الفريد، الذي يخاطب فيه الله تبارك وتعالى أمهات المؤمنين، زوجات خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، ليضع بين أيديهن ميثاق شرف ودستور تميز، يرسم لهن مكانتهن، ويحدد لهن مسؤولياتهن، ويعلمهن كيف يكنّ قدوة للعالمين.

يقول الله تعالى: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا"

إنها ليست مجرد آية تتلى في المحاريب، بل هي إعلان إلهي يحدد هوية المرأة المسلمة، ويضع ضوابط التعامل بين الجنسين، ويؤسس لأدب رفيع في الحديث والخطاب. إنها آية تنطلق من خصوصية نساء النبي، لكنها تفيض برسائلها على كل امرأة مسلمة، فتصوغ وعيها، وتهذب سلوكها، وتحمي كرامتها.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، وكأننا نقف بين يدي الله نسمع توجيهاته لنا في زمن كثرت فيه الفتن، وتلاطمت فيه أمواج الشهوات، وضاعت فيه حدود التعامل بين الرجال والنساء.

الأمر الأول:

"يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ" – فلسفة التميز والمسؤولية المضاعفة

اللمسة البيانية الأولى: النداء المباشر – "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ"

قف معي عند هذا النداء العلوي الكريم: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ". إنه نداء يتكرر في هذا السياق القرآني، ليؤكد على خصوصية المخاطبات وعظم المسؤولية الملقاة على عواتقهن. ولنتأمل معًا أبعاد هذا النداء:

١.نداء التشريف والتكريم

أن يناديك الله – سبحانه وتعالى – ويخصك بالخطاب، هذا وحده شرف لا يدانيه شرف. فكيف إذا كان النداء مقرونًا بأعظم وصف: "نِسَاءَ النَّبِيِّ"؟ إنه تشريف لهن في الدنيا والآخرة، وتخليد لذكرهن في كتاب يُتلى إلى يوم القيامة. إنه يقول لهن – ومن خلالهن لكل مؤمنة – : "أنتنّ لسن نكرة في هذا الوجود، أنتنّ معروفات بأشرف نسبة، منسوبات إلى أكرم نبي".

٢.نداء التكليف والمسؤولية

ولكن هذا النداء – كما يحمل التشريف – يحمل في طياته التكليف. فكونك "امرأة من نساء النبي"، أو "ابنة لهذه الأمة المحمدية"، يعني أنك لست كغيرك، وأن عليك واجبات تفوق واجبات غيرك. إنه نداء يقول لهن: "تنبهن! أنتنّ في موضع القدوة، فانظرن كيف تتصرفن".

٣.الخطاب المباشر: تأكيد على الفردية في المسؤولية

لاحظ أن الخطاب جاء بصيغة الجمع المباشر: "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ". لم يقل: يا ايها النبي. قل كما قال في آية التخيير: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ". لماذا هذا التحول إلى المباشرة؟

السبب – والله أعلم – أن ما سيأتي بعد هذا النداء هو أمر تكليفي وتحذير يتعلق بسلوكهن الشخصي المباشر (النطق والقول). فكان من المناسب أن يأتي الخطاب مباشرة من الله، ليكون أبلغ في التوجيه، وأقوى في الردع عن المحظور، وأعظم في الحث على المأمور به.

اللمسة البيانية الثانية: "لَسْتُنَّ كأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء" – نفي المساواة وإثبات التميز

هذه الجملة هي قلب الآية ومحورها. إنها تقرر حقيقة وجودية: أنتنّ لستن مثل أحد من النساء. ولنقف مع هذه الكلمات وقفة متأنية، لنستخرج ما فيها من كنوز:

١."لَسْتُنَّ" – نفي مؤكد باللام

استخدام "لَسْتُنَّ" – وهي من أخوات "كان" النافية – يفيد النفي المؤكد. فهي أقوى من "ما أنتن" أو "لن تكنّ". وكأن الآية تقول: "انتبهن جيدًا، وتأكدن تمامًا، أنتنّ لستن كأحد من النساء". هذا التأكيد يأتي ليزيل أي شك، وليقطع الطريق على أي توهم بالمساواة بينهن وبين عامة النساء.

٢."كأَحَدٍ" – نفي المساواة حتى مع فرد واحد

كلمة "أحَد" في سياق النفي تفيد العموم والشمول. فالمعنى: لستنّ كأي امرأة كانت، مهما علا شأنها أو شرف نسبها. لا توجد امرأة واحدة في العالمين تصل إلى مقامكن، أو تشارككن في خصوصية المكانة والمسؤولية.

وهذا النفي العام الشامل يرسخ في نفوسهن – وفي نفوس المؤمنات – أن مقام الصحبة للنبي، ومقام كون المرأة من أمهات المؤمنين، هو مقام فريد لا يتكرر، وله أحكام خاصة تتناسب مع عظمه.

٣."مِنَ النِّسَاء" – بيان الجنس وتأكيد التميز

لم تقل الآية: "لستن كأحد من البشر"، بل قالت: "مِنَ النِّسَاء". وهذا تخصيص بعد تعميم، وفيه إشارة إلى أن التميز ليس فقط على سائر البشر، بل هو تميز داخل جنس النساء نفسه. فأنتنّ – مع أنكن نساء – لستنّ كسائر النساء في الأحكام والواجبات والمكانة.

لماذا لستن كأحد من النساء؟ أبعاد هذا التميز

قد يسأل سائل: ما هي أوجه هذا التميز الذي جعلهنّ لسن كأحد من النساء؟ والجواب يتجلى في عدة أوجه:

أ. تميز في المكانة والتشريف

· هنّ زوجات خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم.
· هنّ أمهات المؤمنين، بنص القرآن: "وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ" (الأحزاب: 6).
· بيوتهن مهبط الوحي، ومنازل نزول القرآن.
· يحرم نكاحهن بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة.

ب. تميز في المسؤولية والتبعة

· مضاعفة الأجر: كما قال تعالى: "نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ" (الأحزاب: 31).
· مضاعفة العذاب: كما قال: "يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ" (الأحزاب: 30).
· خصوصية الخطاب: توجيه الأوامر والنواهي إليهن مباشرة في القرآن.

ج. تميز في الأحكام الشرعية

· الحجاب: وجوب الحجاب الكامل، وعدم جواز رؤية الأجانب لهن.
· الخطاب: النهي عن الخضوع بالقول، كما في هذه الآية.
· البقاء في البيوت: الأمر بالقرار في البيوت، وعدم التبرج، كما في الآيات التالية.

الرسائل التربوية والنفسية من "لَسْتُنَّ كأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء"

أ. مبدأ "التميز لا يعني التكبر، بل يعني تحمل المسؤولية"

هذه الآية تعلمنا درسًا عظيمًا: أن التميز الذي يمنحه الله لبعض عباده (بالنسب، بالعلم، بالمال، بالمكانة) ليس شرفًا مجردًا للتفاخر به على الناس، بل هو مسؤولية مضاعفة وتبعة ثقيلة. فبقدر ما تتميزين، بقدر ما يُنتظر منك أن تكوني قدوة، وبقدر ما تكون زلتك أعظم أثرًا.

تطبيق معاصر:

· المرأة التي وهبها الله جمالًا: عليها أن تدرك أن جمالها مسؤولية، لا وسيلة للفتنة والإغراء. تميزها بـ الجمال يقتضي أن تكون أكثر حياءً واحتشامًا من غيرها، لئلا تكون فتنة للآخرين.
· المرأة التي رزقها الله علمًا: عليها أن تدرك أن علمها أمانة، وأن الناس ينظرون إليها كقدوة، وأن كلمة منها قد تهدي أو تضل. تميزها بالعلم يقتضي أن تكون أكثر حرصًا على الصواب، وأبعد عن الزلل.
· المرأة التي شرفها الله بالانتساب لأسرة صالحة: عليها أن تدرك أن هذا النسب تكليف، لا مجرد وسام على الصدر. تميزها بالنسب يقتضي أن تكون أكثر حرصًا على سمعة أسرتها، وأحرص على ألا تشوه هذا النسب بتصرفاتها.

ب. أنتِ لستِ كأحد – شعور يمنح الثقة والاعتزاز

الآية تمنح المرأة المسلمة ثقة وجودية عظيمة. إنها تقول لها: "أنتِ – بانتمائك لهذا الدين، واقتدائك بأمهات المؤمنين – لستِ مجرد امرأة عادية في هذا الكون. أنتِ لكِ رسالة، لكِ دور، لكِ قيمة تفوق كل مقاييس الدنيا المادية".

هذا الشعور بالتميز الإيماني يحرر المرأة من التبعية العمياء، ويجعلها تعتز بدينها وهويتها، فلا تلهث وراء تقليد غيرهن من النساء اللاتي لا يحملن هذه الرسالة، ولا يلتزمن بهذه القيم.

مثال من الواقع:
عندما ترى المرأة المسلمة نساءً في وسائل الإعلام أو مواقع التواصل يتسابقن في إظهار الزينة و التبرج، ويعرضن أجسادهن وملابسهن الفاخرة، فإن هذه الآية تهمس في أذنها: "لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ". أنتِ لستِ منهن، أنتِ من أمة محمد، أنتِ تسيرين على درب أمهات المؤمنين. فلماذا تلهثين وراءهن؟ ولماذا تقلدين من هن دونك مكانة وقيمة؟

ج. التميز لا يعني الانعزال، بل يعني التأثير الإيجابي

قد يظن البعض أن هذه الآية تدعو نساء النبي – والنساء عامة – إلى الانعزال عن المجتمع، والترفع عن الناس. وهذا فهم خاطئ. فالتميز هنا ليس تميز عزلة، بل تميز قدوة. كونهن لسن كأحد من النساء يعني أنهن النموذج الذي يُحتذى، والمدرسة التي تتخرج منها الأجيال.

إن المرأة التي تفهم هذه الآية لا تنعزل عن مجتمعها، بل تتفاعل معه، ولكن من موقع المعلمة و المربية، لا من موقع المتأثرة التابعة. إنها تخالط الناس، وتشارك في بناء المجتمع، لكنها تحافظ على هويتها المتميزة، فلا تذوب في ثقافة الاستهلاك والمظاهر.
الأمر الثاني:
"إِنِ اتَّقَيْتُنَّ" – شرط التميز الحقيقي

بعد أن قررت الآية حقيقة التميز بقولها: "لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ"، جاءت بشرط دقيق: "إِنِ اتَّقَيْتُنَّ". وهذا الشرط هو مفتاح الفهم الصحيح للآية. فما دلالة هذا الشرط؟

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "إِنِ اتَّقَيْتُنَّ"

١."إِنْ" – أداة الشرط التي تفتح باب الاحتمال والتحقق

"إن" هنا شرطية، تفيد تعليق الحكم على وجود الشرط. والمعنى: "أنتنّ لستن كأحد من النساء إن حصلت منكن التقوى". وهذا يعني أن التميز المذكور في الآية ليس تميزًا مطلقًا بالولادة أو النسب، بل هو تميز مشروط بتحقيق التقوى.

.٢"اتقيْتُنّ" – التقوى: جوهر التميز وحقيقته

التقوى هي الخوف من الله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، واستشعار مراقبته في السر والعلن. وهي جماع الخير كله.

فالآية تقول: "إن التميز الحقيقي لكنّ – يا نساء النبي – ليس مجرد كونكنّ زوجات للرسول، بل هو اقتران هذا الشرف بتقوى الله. فإن لم تتقين الله، فإن هذا الشرف وحده لا ينفعكن، ولا يجعلكن في مقام القدوة الحقيقي".

الرسائل التربوية والنفسية من شرط "إنِ اتقيْتُنّ"

أ. لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى

هذه الآية تؤكد مبدأ قرآنيًا عظيمًا: "إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتقاكُمْ" (الحجرات: 13). فحتى نساء النبي – رضي الله عنهن – مع عظم شرفهن، علق الله تميزهن الحقيقي على التقوى. فكيف بمن دونهن؟

وهذا يعلمنا أن النسب والمكانة الاجتماعية والعلم والجمال – كلها لا قيمة لها عند الله إذا لم تقترن بـ التقوى. فالمرأة التقية التي لا يعرفها أحد، قد تكون أكرم عند الله من امرأة ذات حسب ونسب وجمال، إذا كانت غافلة عن تقوى الله.

مثال من الواقع:
كم من امرأة بسيطة، فقيرة، لا جاه لها ولا منصب، لكنها تتق الله في سرها وعلنها، تحافظ على صلا تها، تحتشم في لباسها، تحسن إلى جيرانها. هذه المرأة – في ميزان الله – هي المتميزة حقًا، وهي التي تنطبق عليها معاني هذه الآية. وكم من امرأة مشهورة، غنية، جميلة، لكنها بعيدة عن تقوى الله، غارقة في ملذات الدنيا. هذه المرأة – رغم مظاهرها – ليست في مقام التميز الحقيقي عند الله.

ب. التقوى هي الضمان لاستمرار التميز وبقاء الأثر

الآية تشير إلى أن التقوى هي التي تحفظ للمرأة مكانتها، وتجعلها قدوة صالحة عبر الأجيال. فنساء النبي – رضي الله عنهن – خلد الله ذكرهن، وجعلهن أمهات للمؤمنين، وقدوة للعالمين، بسبب تقواهن وإيمانهن وصبرهن، لا لمجرد كونهن زوجات للنبي.

وهذا درس لكل امرأة تطمح أن تكون قدوة في محيطها: أن التقوى هي التي تصنع القدوة الحقيقية، وهي التي تخلد الأثر الطيب بعد الموت. فكم من امرأة مشهورة في زمانها، نُسيت بعد موتها! وكم من امرأة صالحة تقية، لا يزال ذكرها عطرًا، ويُقتدى بها بعد قرون!

ج. التقوى شرط للفهم الصحيح والتطبيق السليم

اشتراط التقوى هنا له دلالة تربوية عميقة: أن التوجيهات الشرعية – ومنها ما سيأتي في الآية من أوامر ونواه – لا يمكن أن تُفهم فهمًا صحيحًا، ولا أن تُطبق تطبيقًا سليمًا، إلا بوجود التقوى في القلب.

فالمرأة التي تتق الله هي التي ستستجيب لأمره: "فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ"، وهي التي ستمتثل لأمره: "وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا". أما المرأة التي لا تخشى الله، فقد تقرأ هذه الآية ولا تحرك ساكنًا، أو تؤولها على هواها.
الأمر الثالث:
"فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ" – النهي عن الخضوع بالقول وأسراره التربوية

بعد أن قررت الآية مبدأ التميز المشروط بالتقوى، جاءت الفاء لتربط بين التقوى والسلوك العملي: "فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ". هذه الفاء هي فاء السببية، وكأنها تقول: "إذا تحققت فيكنّ التقوى، فمن مقتضياتها ومن نتائجها: ألا تخضعن بالقول".

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ"

.١"فَلَا تَخْضَعْنَ" – نهي مؤكد بنون التوكيد

"لَا تَخْضَعْنَ" – بنون النسوة المؤكدة – هو نهي قوي مؤكد. والنون هنا تفيد توكيد النهي، وتوجيهه إلى جمع النسوة. فالمقصود: إياكنّ والخضوع بالقول! انتهوا عن هذا الأمر تمامًا! وهذا التأكيد يدل على خطورة الفعل المنهي عنه، وعلى عظم أثره السيئ.

٢."بِالْقَوْلِ" – تحديد مجال النهي: الصوت والحديث

النهي هنا ليس عن الخضوع بالجسد (فهذا له آيات أخرى)، بل هو نهي عن الخضوع بالقول. أي بطريقة النطق وأداء الصوت.

ما هو الخضوع بالقول؟
الخضوع بالقول هو ترقيق الصوت وتمييعه وتحسينه عند مخاطبة الرجال الأجانب، بطريقة تثير الطمع وتحرك الشهوة. إنه ذلك الصوت الذي تتكلف فيه المرأة الليونة المفرطة، والترقيق المصطنع، والتغنّج في الحديث، مما يجعل كلامها أقرب إلى المغازلة منه إلى المخاطبة العادية.

وليس المقصود النهي عن أصل الكلام مع الرجال، فالنساء في عهد النبي كن يكلمن الرجال في البيع والشراء والمسائل الشرعية وغيرها. ولكن المنهي عنه هو هيئة الكلام وصورته التي تثير الفتنة.

٣."فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ" – بيان العلة والسبب

الفاء في "فَيَطْمَعَ" هي فاء السببية أيضًا، وهي تبين النتيجة المترتبة على الخضوع بالقول. فإذا خضعت المرأة بالقول، فإن النتيجة الحتمية هي: طمع المريض القلب.

من هو "الذي في قلبه مرض"؟

· المرض القلبي هنا هو مرض الشهوة ومرض النفاق وضعف الإيمان.
· فهو الرجل الذي في قلبه ميل إلى الفساد، واستعداد للافتتان، ورغبة في الحرام.
· هذا الرجل إذا سمع صوت المرأة الخاضع بالقول، تحركت شهوته، وطمع فيها، وتخيل ما لا يجوز له تخيله، وقد يتجرأ على ما لا ينبغي.

فالآية تحذر المرأة من أن تكون سببًا في إثارة شهوات الآخرين، وفي إيقاعهم في الفتنة. إنها تحملها جزءًا من مسؤولية حماية المجتمع من الفساد الأخلاقي.

الرسائل التربوية والنفسية من النهي عن الخضوع بالقول

أ. سد الذرائع: حماية للمرأة قبل حماية الرجل

الآية ترسي مبدأ سد الذرائع، وهو مبدأ عظيم في الشريعة الإسلامية. فالخضوع بالقول في ذاته قد لا يكون محرمًا لعينه، لكنه وسيلة تفضي إلى الحرام (طمع المريض القلب، ثم ما يتبعه من فتنة وفساد). فجاء النهي عنه سدًا للذريعة، وحماية للمجتمع.

وهذا النهي يحمي المرأة أولًا، قبل أن يحمي الرجل. فالمرأة التي تتكلف الخضوع بالقول، قد تثير طمع رجل مريض القلب، فتتعرض لمضايقاته، أو تلاحقه نظراته، أو يجرؤ على التحرش بها. فالآية تحمي كرامتها، وتصون حرمتها، وتمنع أن تكون مادة للفتنة.

مثال من الواقع المعاصر:
كم من امرأة اشتكت من تحرش زميل لها في العمل، أو من ملاحقة رجل لها في الطريق! وعند التحقيق، قد يتبين أنها بغير قصد كانت تتحدث بصوت لين مثير، أو تبتسم ابتسامات عريضة، أو تتعامل بدلال أنثوي. هي لم تقصد الفتنة، لكن المريض القلب فُتن، وتجرأ. هذه الآية تحميها من هذا كله، بأن تأمرها بـ القول المعروف الذي لا مطمع فيه لمريض.

ب. ضبط الصوت: عبادة وسلوك حضاري

الآية تلفت انتباهنا إلى أهمية الصوت في التواصل الإنساني. فالصوت ليس مجرد أداة لنقل المعلومات ، بل هو رسالة تحمل في نبرتها وإيقاعها معاني ودلالات قد تكون أقوى من الكلمات نفسها.

فالمرأة المسلمة – في ضوء هذه الآية – تتعلم ضبط صوتها عند مخاطبة الرجال الأجانب، فلا يكون صوتها متكلفًا، ولا متغنجًا، ولا مثيرًا. بل يكون صوتًا عاديًا، جِدّيًا، مباشرًا، لا يحمل أي إيحاءات أو رسائل خفية.

وهذا الأدب – أدب ضبط الصوت – ليس مجرد حكم شرعي، بل هو سلوك حضاري راق، يحافظ على وقار المرأة، ويصون حياءها، ويمنع الالتباس في العلاقات بين الجنسين.

ج. مسؤولية المرأة في حماية المجتمع من الفتنة

الآية تحمل المرأة المسلمة مسؤولية أخلاقية تجاه مجتمعها. إنها ليست مسؤولة فقط عن نفسها وعن عفتها، بل هي مسؤولة أيضًا عن ألا تكون سببًا في فتنة الآخرين، وإثارة شهواتهم، وإضعاف إيمانهم.

وهذا الشعور بالمسؤولية يجعل المرأة واعية بسلوكها، مراقبة لتصرفاتها، مقدرة لعواقب أفعالها. إنها لا تقول: "أنا حرة في صوتي، ومن فُتن فمشكلته هو". بل تقول: "أنا مسؤولة أمام الله عن كل كلمة أقولها، وعن كل نبرة صوت أصدرها، وسأحاسب إذا كنت سببًا في فتنة عبد من عباد الله".
الأمر الرابع:
"وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا" – الأمر بالقول المعروف وصفاته

بعد النهي عن الخضوع بالقول، تأتي الآية بالأمر المقابل: "وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا". وهذا هو البديل الإيجابي الذي تقدمه الشريعة دائمًا: لا تكتفي بالنهي عن السلوك السيئ، بل تأمر بالسلوك الحسن البديل.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا"

١."وَقُلْنَ" – أمر مؤكد بنون التوكيد

كما أن النهي مؤكد بقوله: "فَلَا تَخْضَعْنَ" ، فإن الأمر هنا مؤكد بقوله: "وَقُلْنَ". والتأكيد هنا يدل على أهمية هذا الأمر، ووجوب الامتثال له.

٢."قَوْلًا مَّعْرُوفًا" – وصف القول بأنه "معروف"

لفظة "مَّعْرُوفًا" تحمل دلالات واسعة وعميقة:

· المعروف لغة: ما تعرفه النفوس السليمة، وتقبله الفطر المستقيمة، ولا تستنكره.
· المعروف شرعًا: ما أذن به الشرع، وأمر به، أو أباحه.
· المعروف عرفًا: ما جرى به العرف الصحيح، وتقبله الأعراف القويمة، مما لا يخالف الشرع.

فالقول المعروف هو القول الحسن، الموافق للشرع والعقل والعرف الصحيح. إنه القول الذي:

· لا إثم فيه.
· لا إغراء فيه.
· لا تكلف فيه.
· لا يحمل معاني خفية مريبة.
· بل هو قول واضح، جاد، محترم، يليق بالمرأة المسلمة وبالرجل الذي تخاطبه.

صفات القول المعروف كما ترسمها الآية

من خلال التأمل في الآية وسياقها، يمكننا استخلاص صفات هذا القول المعروف:

أ. الوضوح والجدية

القول المعروف هو قول واضح لا غموض فيه ولا التباس. هو قول جاد لا هزل فيه ولا عبث. إنه قول يليق بالعلاقات المحترمة بين الرجال والنساء في المجتمع المسلم.

ب. الاقتصاد في النبرة والصوت

القول المعروف يقتضي أن يكون الصوت عاديًا طبيعيًا، لا ترقيق فيه ولا تمييع، ولا خشونة مفرطة

أيضًا. بل هو صوت وسط، يؤدي المعنى المطلوب دون أي إضافات صوتية مثيرة.

ج. عدم التكلف والتصنع

القول المعروف هو قول عفوي، غير متكلف ولا متصنع. فالمرأة لا تتكلف فيه ليونة مصطنعة، ولا تحاول تحسين صوتها ليكون أكثر إغراءً، بل تتحدث على سجيتها، كما تتحدث مع نساء أهلها.

د. الاقتصار على قدر الحاجة

القول المعروف يقتضي ألا تتوسع المرأة في الحديث مع الرجل الأجنبي بغير حاجة. فإذا دعت الحاجة إلى الكلام (في بيع، أو شراء، أو مسألة علمية، أو معاملة رسمية)، فلتكن الكلمات بقدر الحاجة ، دون استطراد أو حكايات جانبية، ودون أسئلة شخصية أو تعليقات خارجة عن الموضوع.

الرسائل التربوية والنفسية من الأمر بالقول المعروف

أ. التربية على ضبط اللسان: فالكلمة مسؤولية

الآية تربي المرأة المسلمة على ضبط لسانها، وتذكرها بأن الكلمة مسؤولية، وأنها ستُسأل عن كل لفظ يخرج من فمها: "مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ" (ق: 18).

وهذا الضبط لا يقتصر على مضمون الكلام فقط، بل يشمل أيضًا طريقة أدائه ونبرة الصوت فيه. وهذا مستوى رفيع من الوعي بالكلام، لا يتنبه له إلا من تربى على معاني القرآن.

ب. القول المعروف: أساس التواصل الصحي بين الجنسين

الآية تضع القول المعروف كأساس للتواصل الصحي بين الرجال والنساء في المجتمع المسلم. فعندما تلتزم المرأة بهذا الأدب، فإنها:

· تحمي نفسها من التعرض للمضايقات.
· تحفظ كرامتها ووقارها.
· تساهم في طهارة المجتمع ونقاء العلاقات.
· تمنع الالتباس وسوء الفهم في التعامل.

مثال من بيئة العمل:
تخيلي معي امرأة تعمل في مكتب، وتحتاج إلى التحدث مع زملائها الرجال في أمور العمل. إذا التزمت القول المعروف (صوت عادي، كلمات واضحة وجادة، دون تمييع أو دلال)، فإنها:

· تفرض الاحترام على الجميع.
· تقطع الطريق على أي زميل قد يسيء فهم لطفها أو صوتها.
· تحافظ على جو العمل المهني بعيدًا عن الإثارة والتوتر.
أما إذا خضعت بالقول، فقد تفتح على نفسها بابًا من المضايقات والإحراجات هي في غنى عنها.

ج. القول المعروف لا يعني الجفاء أو الفظاظة

من المهم أن نفهم أن القول المعروف لا يعني أن تكون المرأة جافة أو فظة أو خشنة في حديثها مع الرجال. فالإسلام يدعو إلى الرفق واللين في كل شيء. والقول المعروف يمكن أن يكون لينًا ومهذبًا في نفس الوقت، دون أن يكون خاضعًا أو مثيرًا.

الفرق دقيق، لكنه واضح لمن تأمل:

· القول المعروف اللين: هو أن تكون الكلمات مهذبة، والنبرة هادئة، والأسلوب راقيًا، لكن دون تمييع أو تغنّج.
· القول الخاضع: هو أن يكون الصوت مصطنعًا، وفيه ترقيق مقصود، وتكسير في الكلام، مما يوحي بـ الدلال والإغراء.

فالمرأة المسلمة تتحلى بـ أدب الحديث وحسن الخطاب، لكن دون أن تتجاوز الحدود التي رسمتها

هذه الآية الكريمة.
خامسًا: كيف نعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

.١في التواصل المباشر مع الرجال الأجانب

أ. في بيئة العمل أو الدراسة:

· اجعلي حديثك مع الزملاء الرجال مقتصرًا على موضوع العمل أو الدراسة.
· حافظي على نبرة صوت عادية، لا ترقيق فيها ولا تمييع.
· تجنبي المزاح الذي قد يُفهم خطأ، أو التعليقات الشخصية (على المظهر، الملابس، الصوت).
· كوني واضحة وجادة في تعاملك، مع الاحتفاظ بالاحترام والأدب.

ب. في الأماكن العامة (السوق، المواصلات، المستشفى):

· عند الحاجة إلى سؤال رجل (بائع، سائق، طبيب)، فليكن السؤال مباشرًا ومحددًا، دون استطراد.
· لا ترفعي صوتك بما لا حاجة له، ولا تخفضيه بطريقة مصطنعة.
· احرصي على ألا يكون حديثك مثارًا للانتباه أو ملفتًا للرجال من حولك.

.٢في التواصل عبر وسائل التواصل الاجتماعي والاتصالات الهاتفية

في عصر الرقمنة، امتد نطاق "القول" ليشمل الرسائل النصية، والتسجيلات الصوتية، والمكالمات الهاتفية ، والفيديوهات. فكيف نطبق الآية في هذا المجال؟

أ. في المكالمات الهاتفية:

· إذا اضطررت إلى مكالمة رجل أجنبي (لحاجة عمل أو خدمة)، فاحرصي على أن يكون صوتك عاديًا، لا ترقيق فيه.
· تجنبي الضحكات المجلجلة أو التنهيدات أو التأوهات التي قد تثير الانتباه.
· اجعلي المكالمة قصيرة ومحددة الهدف.

ب. في الرسائل النصية (واتساب، ماسنجر، إيميل):

· لا ترسلي رموزًا تعبيرية (إيموجي) ذات دلالات عاطفية (قلوب، ورود، وجوه غامزة).
· اجعلي لغة الرسائل رسمية ومهنية، دون مبالغة في اللطف أو الدعابة.
· تجنبي الإطالة في الرسائل بغير حاجة، أو السؤال عن الأحوال الشخصية.

ج. في التسجيلات الصوتية والفيديوهات المنشورة:

· إذا كنتِ تنشرين محتوى صوتيًا أو مرئيًا (دروسًا، محاضرات، نصائح) للعامة، فاحرصي على أن يكون صوتك معروفًا (أي جادًا، واضحًا، غير مثير).
· لا تتكلفي في صوتك ترقيقًا أو تغنيجًا لجذب المستمعين. فجاذبية المحتوى تكون بمضمونه وأسلوبه العلمي، لا بصوت متكلف.

.٣في تربية الأبناء والبنات على هذه الآية

الآية ليست للكبار فقط، بل يجب أن نغرس معانيها في نفوس النشء من الصغر.

أ. تربية البنات على "التميز الإيماني":

· علمي ابنتك أنها لست كأحد من الفتيات اللاتي لا يعرفن قيمة الدين. هي متميزة بحجابها، بحيائها، بقيمها.
· دربيها على ضبط صوتها منذ الصغر، وعلميها الفرق بين الحديث العادي والحديث المتكلف.
· اشرحي لها أن جمال صوتها ليس عيبًا، لكن استخدامه للفتنة هو الممنوع.

ب. تربية الأبناء على "غض البصر وحفظ القلب":

· علمي ابنك أن الآية تخاطبه أيضًا: فعليه أن يحفظ قلبه من المرض، فلا يستمع إلى الأصوات الخاضعة بالقول، ولا يتتبعها.
· دربيه على غض البصر عن كل ما يثير الشهوة، سواء في الواقع أو في وسائل الإعلام.
· ذكريه بأن الذي في قلبه مرض هو الذي يطمع عند سماع الصوت الخاضع، أما سليم القلب فيعرض ويرفع نفسه عن ذلك.

٤.التعامل مع المحتوى الإعلامي ومواقع التواصل

في زمن أصبحت فيه الأصوات النسائية تغزو الفضاء الإعلامي بكل أشكاله، كيف تتعامل المرأة المسلمة الواعية مع هذا الواقع؟

أ. كناقدة واعية لا كمستهلكة مقلدة:

· عندما تستمعين إلى إعلامية أو مؤثرة على وسائل التواصل، انتبهي إلى طريقة حديثها. هل صوتها معروف (جاد، واضح) أم خاضع (مثير، متكلف)؟
· لا تقلدي طريقة كلام المؤثرات إذا كانت مخالفة للآداب الإسلامية. تميزي بأنك لستِ كأحد من النساء في هذا المجال.
· انشري الوعي بين صديقاتك وأخواتك حول أدب الصوت في الإسلام، بلطف وحكمة.

ب. كمنتجة للمحتوى (إذا كنتِ تقدمين محتوى صوتيًا أو مرئيًا):

· اجعلي الآية الكريمة نصب عينيك عند تسجيل أي محتوى. اسألي نفسك: "هل صوتي في هذا التسجيل قول معروف؟"
· ركزي على جودة المضمون وقيمته العلمية، ولا تجعلي جاذبية المحتوى معتمدة على نبرة الصوت أو طريقة الأداء.
· تذكري أن أجرك مضاعف إذا كنتِ قدوة صالحة في هذا المجال، ووزرك عظيم إذا كنتِ سببًا في فتنة الآخرين.

سادسًا: القيم المستفادة من الآية 32

القيمة تجلياتها في الآية
التميز الإيماني "لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ" – مكانة خاصة للمرأة المسلمة الملتزمة.
المسؤولية الفردية الخطاب المباشر يرسخ أن كل امرأة مسؤولة عن سلوكها.
التقوى أساس القيمة الحقيقية "إِنِ اتَّقَيْتُنَّ" – لا قيمة للنسب أو المكانة بدون تقوى.
سد الذرائع النهي عن الخضوع بالقول لمنع الفتنة قبل وقوعها.
الحياء وعفة اللسان الأمر بالقول المعروف يربي على الحياء في الكلام.
الوعي بتأثير الصوت التنبيه إلى أن طريقة الكلام تحمل رسائل قد تكون أخطر من مضمونه.
حماية المجتمع من الفساد المرأة المسلمة شريكة في بناء مجتمع طاهر بسلوكها وأدبها.
الوضوح والجدية في التعامل القول المعروف يقتضي الوضوح والجدية وعدم الالتباس.
خاتمة: في رحاب أدب الخطاب الإلهي

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تضع أمام المرأة المسلمة دستورًا متكاملًا لأدب الحديث مع الرجال الأجانب. إنها آية تجمع بين تشريف المرأة ببيان مكانتها المتميزة، وتحميلها المسؤولية في حماية نفسها ومجتمعها، وتعليمها أدبًا رفيعًا في التعامل، وحثها على التقوى التي هي م لاك الأمر كله.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· التميز الحقيقي ليس بالجمال ولا بالمال ولا بالنسب، بل بالتقوى.
· الصوت أمانة، وقد يكون فتنة إذا أسيء استخدامه.
· القول المعروف هو سياج الأمان للمرأة في تعاملها مع الرجال.
· المرأة المسلمة ليست مجرد فرد في المجتمع، بل هي مدرسة في الأخلاق والفضائل.

فلنحرص – أيتها المرأة المسلمة – أن نكون عند حسن الظن بهذا الدين العظيم، وأن نتمثل هذه الآية في كل كلمة ننطق بها، وفي كل نبرة صوت نصدرها، حتى نكون قدوة صالحة، وننال الأجر المضاعف والرزق الكريم الذي وعد الله به المحسنات.

المبحث السادس.
تفسير آية "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ" (الأحزاب: 33) – ميثاق الاستقرار والطهارة والرسالة الحضارية

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني العظيم، الذي يرسم لأمهات المؤمنين، ومن خلا لهن لكل امرأة مسلمة، خارطة طريق نحو حياة مستقرة، طاهرة، عامرة بالعبادة، واعية بالرسالة. إنها آية تحمل في طياتها دستور البيت المسلم، وميثاق العفاف والطهر، وإعلان الإرادة الإلهية في تطهير بيت النبوة وأهله ليكون منارة للعالمين.

يقول الله تعالى: "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا"

إنها ليست مجرد آية تتلى في المحاريب، بل هي برنامج حياة متكامل، يبدأ من استقرار البيت، ويمر عبر صيانة العفاف، ويتجلى في إقامة الشعائر وطاعة الله ورسوله، ليصل إلى ذروة التطهير الإلهي لأ هل بيت النبوة. إنها آية ترسم للمرأة المسلمة دورها المحوري في بناء الحضارة من داخل حصنها الأ مين: بيتها.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، وكأننا نقف في بيوتنا نستمع إلى توجيهات ربنا، في زمن كثرت فيه دعوات الخروج والانحلال، واشتدت فيه الرياح العاتية التي تريد أن تقتلع المرأة من جذورها ورسالتها.
الأمر الأول:
"وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ" – فلسفة الاستقرار ودور البيت في صناعة الحضارة

اللمسة البيانية الأولى: "وَقَرْنَ" – أمر بالسكينة والاستقرار

قف معي عند هذه الكلمة القرآنية العجيبة: "وَقَرْنَ". إنها ليست مجرد أمر بـ "البقاء" في البيوت، بل هي أمر بـ "الوقار" و"السكينة" و"الاستقرار" في البيوت. فلنتأمل دلالاتها اللغوية والتربوية:

١.القراءة والمعنى: بين "وقَرن" و"وقِرن"

قرئت هذه الكلمة بقراءتين مشهورتين:

· "وَقَرْنَ" بفتح القاف: من الوقار، أي: "كنّ ذوات وقار وسكينة في بيوتكن" .وهذا المعنى أعمق وأشمل، فهو يأمرهن ليس فقط بالمكوث في البيوت، بل بأن يكون هذا المكوث مصحوبًا بـ الوقار والسكينة والهيبة.
· "وَقِرْنَ" بكسر القاف: من القرار، أي: "استقررن والزمن بيوتكن" .وهذا أيضًا معنى صحيح، ويؤكد على الاستقرار وعدم الخروج إلا لحاجة.

والجمع بين المعنيين يعطينا صورة متكاملة: المرأة المسلمة مأمورة بأن تستقر في بيتها، وأن يكون استقرارها مصحوبًا بالوقار والسكينة، لا بالضجر والتبرم.

٢."في بُيُوتِكُنَّ" – إضافة البيوت إليهن: تشريف وتكريم

لاحظ أن الآية أضافت البيوت إلى ضميرهن: "بُيُوتِكُنَّ". لم تقل: "في البيوت"، بل "في بيوتكن". وهذه ا لإضافة تحمل دلالات عظيمة:

· تشريف وتكريم: البيوت هي مملكتهن، وحصن عزتهن، ومجال تأثيرهن .هي ليست سجنًا كما يزعم المغرضون، بل هي ميدان عملهن الأساسي، ومنه ينطلق أثرهن الحضاري.

· تمليك معنوي: إضافة البيت إليهن يمنحهن شعورًا بـ الملكية المعنوية، ويجعلهن مسؤولات عن إدارة هذا الحصن، وعن تربيته وتنميته.
· خصوصية المكان: "بيوتكن" هي تلك الحجرات المباركة التي نزل فيها الوحي، وتردد فيها ذكر الله، وعاش فيها النبي صلى الله عليه وسلم .إنها بيوت ليست كأي بيوت، وقد أكرمهن الله بأن جعلهن ساكناتها ومدبراتها.

لماذا الأمر بالقرار في البيوت؟ فلسفة الاستقرار وأبعاده الحضارية

قد يسأل سائل: لماذا أمر الله نساء النبي – ومن خلالهن النساء عامة – بالقرار في البيوت؟ أليس في ذلك تقييد لحريتهن وحجر على إمكاناتهن؟

والجواب – من خلال فهم عميق للآية وروح الإسلام – يتجلى في عدة أوجه:

أ. البيت هو المركز الاستراتيجي لصناعة الحضارة

البيت في الإسلام ليس مجرد مكان للنوم والطعام، بل هو الخلية الأولى لبناء المجتمع، والمصنع البشري الذي تخرج منه الأجيال، والمدرسة الأولى التي تتعلم فيها الأمة قيمها وأخلاقها. فإذا خلت هذه الخلية من الأم المستقرة، فمن الذي سيقوم بهذه المهمة العظيمة؟

المرأة التي تقر في بيتها ليست عاطلة ولا هامشية. إنها مديرة أعلى لأعظم مشروع على وجه الأرض: مشروع تربية الإنسان. إنها تشرف على تكوين العقول، وصياغة النفوس، وبناء القيم. وهذه المهمة تحتاج إلى استقرار، وتفرغ، ووقار.

مثال من الواقع:
كم من أم استقرت في بيتها، فربت أبناءها على حب العلم والأخلاق، فصار أحدهم عالمًا نفع الأمة، وآخر طبيبًا يداوي جراحات الناس، وثالثة أمًا صالحة تربي جيلًا جديدًا! هذا الأثر الحضاري العظيم لا يمكن أن يتحقق إذا كانت الأم دائمة الخروج، منشغلة بأعمال أخرى عن رسالتها الأساسية.

ب. البيت حصن للأمان النفسي والروحي للمرأة

في زمن كثرت فيه الفتن، واشتدت فيه إغراءات الشارع، يأتي هذا الأمر الإلهي ليكون حماية للمرأة، لا تقييدًا لها. إنه يضعها في حصن آمن، بعيدًا عن الابتذال والمزاحمة والاحتكاك الذي قد يرهق نفسها، ويذهب بوقارها.

المرأة التي تقر في بيتها هي ملكة في مملكتها، تتحكم في بيئتها، وتنعم بـ الخصوصية والسكينة، بعكس المرأة التي تخرج في كل وقت بغير حاجة، فتعاني من ضغوط الشارع وزحام المواصلات ومضايقات السفهاء.

ج. القرار في البيوت لا يعني الانعزال عن الحياة

من المهم أن نفهم أن الأمر بـ "وقرن في بيوتكن" ليس أمرًا بـ الانعزال المطلق أو الرهبنة. فالمرأة المسلمة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت تخرج لحوائجها: تخرج للمسجد، تخرج لزيارة أهلها ، تخرج لقضاء مصالحها، تشارك في الجهاد بالتمريض وسقاية الماء. لكن الأصل هو الاستقرار في البيت، والخروج يكون لحاجة وبقدرها.

الآية ترسم القاعدة لا الاستثناء. فالأصل أن تكون المرأة مستقرة في بيتها، تملؤه حياة وبركة وعبادة وتربية. فإن دعت الحاجة إلى الخروج، خرجت محتشمة، وقورة، ملتزمة بالضوابط الشرعية.

الرسائل التربوية والنفسية من "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ"

أ. استعادة قيمة البيت في عصر التفريغ

في عصرنا الحاضر، يعاني البيت المسلم من تفريغ تدريجي لمحتواه الإنساني. فالأب في عمله طوال اليوم، والأم في عملها أو في جمعياتها، والأبناء في مدارسهم ودروسهم وشاشاتهم. يعود الجميع إلى البيت منهكين، ليس لديهم وقت للحديث، ولا طاقة للتربية، ولا رغبة في العبادة الجماعية.

هذه الآية تدعونا إلى استعادة مركزية البيت في حياتنا:

· أن نعيد للمرأة مكانتها كمديرة لهذا الحصن.
· أن نجعل من البيت جنة نسكن إليها، لا فندقًا ننام فيه.
· أن نخطط لأنشطة بيتية تجمع الأسرة) قراءة قرآن، جلسة حوار، طعام جماعي.(

ب. الوقار في البيت: طاقة إيجابية تصنع السكينة

الأمر ب- "وقرن" (من الوقار) يعلمنا أن طريقة وجودنا في البيت مهمة بقدر وجودنا نفسه. فالمرأة الوقور في بيتها:

· لا تملأ البيت صراخًا وانفعالات.
· لا تستهلك طاقتها في الثرثرة الهاتفية أو متابعة التفاهات.
· بل تكون سكنًا لزوجها، ومدرسة لأبنائها، ونبعًا للسكينة.

تطبيق عملي:
عندما تعودين إلى بيتك بعد يوم خارجي (لعمل أو زيارة)، خذي لحظة لإعادة ضبط نفسك: اخلعي مع حذائك هموم الشارع، وادخلي بيتك بوقار، مبتسمة، هادئة، لتمنحي أسرتك من سكينة قلبك قبل أن تمنحيهم من طعام يدك.

ج. التمكين لا التقييد: فهم مقاصدي للأمر

لفهم الأمر فهماً صحيحاً، يجب أن ننظر إليه من زاوية المقاصد. فمقصد الشارع من أمر المرأة بالقرار في بيتها ليس تقييدها، بل تمكينها من أداء رسالتها العظيمة دون تشويش أو إرهاق. إنه يحمي طاقتها ووقتها ومشاعرها من أن تستنزف في غير ما خُلقت له من دور عظيم.
الأمر الثاني:
"وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى" – النهي عن التبرج وأبعاده النفسية والحضارية

بعد الأمر ب- الاستقرار في البيوت، يأتي النهي عن ضده السلوكي: التبرج. وهذا النهي يوضح أن مجرد البقاء في البيت ليس كافيًا، بل لا بد من الالتزام بآداب الخروج عند الحاجة إليه.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى"

١."وَلَا تَبَرَّجْنَ" – نهي مؤكد عن إظهار الزينة والمفاتن

لفظة "التبرج" مأخوذة من "البرج"، وهو البناء المرتفع الظاهر. فكأن المرأة المتبرجة تجعل من نفسها برجًا ظاهرًا، تلفت الأنظار، وتستجلب الأبصار. والمعنى الشرعي: إظهار المرأة زينتها ومفاتنها للرجال الأ جانب.

والنهي هنا مؤكد بنون التوكيد: "لَا تَبَرَّجْنَ"، مما يدل على خطورة هذا الفعل وعظم شأنه.

٢."تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى" – إضافة التبرج إلى الجاهلية: تجذير للقبح

لم ينه الله عن التبرج فقط، بل أضافه إلى "الجاهلية الأولى". وهذا له دلالة عظيمة:

· تنفير من الفعل: بربط التبرج ب- الجاهلية، وهي كل ما كان عليه العرب قبل الإسلام من جهل وض لال وفساد، فإن الآية تثير في النفس نفورًا طبعيًا من هذا السلوك .فمن ترضى لنفسها أن تتشبه بأهل الجاهلية؟
· تأكيد أن التبرج ليس من الإسلام في شيء: فالإسلام جاء ليهذب النفوس، ويصون الأعراض، ويمنع الاختلاط المثير .فكل سلوك يخالف هذا فهو رجوع إلى الجاهلية، وإن تسمى بأسماء حديثة) تحرر، موضة، انفتاح.(

٣."الأُولَى" – تحديد زمن الجاهلية: تنفير إضافي

وصف الجاهلية بأنها "الأولى" يشير إلى جاهلية ما قبل الإسلام، التي كانت غارقة في الفساد والانحلا

ال. ووصفها بـ "الأولى" يفتح الذهن إلى أن هناك جاهلية "أخرى" قد تأتي بعد الإسلام، وهي كل زمن ينتكس فيه الناس عن هدي الإسلام إلى أخلاق الجاهلية.

وهذا يجعل الآية تحذيرًا متجددًا لكل الأجيال: "إياكنّ أن تعُدن إلى تبرج الجاهلية الأولى، تحت أي مسمى عصري".

كيف كان تبرج الجاهلية الأولى؟ ولماذا هو منكر؟

تبرج الجاهلية الأولى كان يتجلى في:

· إبداء الزينة والملابس الفاخرة بقصد لفت الأنظار وإثارة الشهوات.
· المشي بالخيلاء والتغنج، كما قال تعالى عنهن في موضع آخر: "يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ") النور:.(31
· الخروج متعطرات متجملات ليراهن الرجال.

والحكمة من النهي عن هذا التبرج تتجلى في:

· صيانة المرأة: أن تكون جوهرة مصونة لا يراها كل أحد، فلا تكون سلعة رخيصة تتداولها الأبصار.
· حماية المجتمع: من إثارة الغرائز، وتفشي الفاحشة، وانهيار الأخلاق.
· الحفاظ على الأسرة: فإثارة الرجال بزينة النساء الأجنبيات يضعف تماسك الأسرة ويشعل نار الغيرة والخيانة.

الرسائل التربوية والنفسية من النهي عن التبرج

أ. التحرر من "نظرة الآخر" والاستعباد للمرآة

التبرج يجعل المرأة أسيرة لنظرة الآخرين. فهي تتزين وتتجمل وتخرج متبرجة لترى، ولتُمدح، ولتُعجب. وهذا استعباد نفسي خطير، يجعل قيمتها الذاتية معلقة بـ تقييم الناس، فإذا أعجبوا شعرت بالسعادة، وإذا لم يلتفتوا شعرت بالإحباط.

أما المرأة التي تلتزم بأمر الله: "وَلَا تَبَرَّجْنَ"، فهي حرة من هذا الاستعباد. قيمتها مستمدة من رضا الله عنها، لا من نظرات الرجال. إنها تتزين لنفسها، ولزوجها، ولله، لا لأعين الناس.

مثال من الواقع:
كم من امرأة قضت ساعات أمام المرآة، وأنفقت أموالًا طائلة، لتظهر في حفل أو مناسبة، ثم عادت إلى بيتها منهكة، مقهورة لأن أحدًا لم يلحظ فستانها الجديد أو تسريحة شعرها! هذه هي عبودية التبرج. أما المرأة العفيفة فتعيش في سلام داخلي، لأنها لا تنتظر إعجاب أحد.

ب. الجمال مصون لا مبذول: فلسفة الحجاب والعفاف

الآية تعلمنا فلسفة صيانة الجمال بدل بذله. فالمرأة الجميلة – وكل امرأة جميلة في نظر زوجها وأهلها – لا ترمي بجمالها في الطريق لكل عابر، بل تصونه وتحفظه لمن يستحقه ويقدره: زوجها وأسرتها.

هذه الفلسفة تزيد من قيمة المرأة في نظر المجتمع، وتجعل جمالها شيئًا خاصًا وثمينًا، لا سلعة عامة مشاعة.

تطبيق معاصر:
عندما تخرجين من بيتك لقضاء حاجة، تخيلي أن جمالك وزينتك هي جوهرة ثمينة. هل تتركين الجوهرة الثمينة مكشوفة في الطريق حيث يمكن أن تخطفها الأيدي أو تتلفها الأتربة؟ أم تضعينها في حافظة آمنة، وتخرجينها فقط في المكان الآمن المناسب؟ هذا هو معنى الحجاب والعفاف.

ج. الفرق بين التزين للزوج والتبرج للأجانب

الآية لا تنهى عن الزينة مطلقًا، بل تنهى عن إظهارها للرجال الأجانب. فالمرأة المسلمة مأمورة بالتزين

لزوجها، بل إن ذلك من حسن التبعل والعشرة بالمعروف. ففي البيت، ومع زوجها ومحارمها، لها أن تلبس ما تشاء من جميل الثياب، وأن تتجمل بما يسرها ويسر زوجها.

تطبيق عملي:
اجعلي لك ملابس للخروج (فضفاضة، غير شفافة، غير لافتة)، وملابس للبيت (جميلة، مريحة، تظهر أنوثتك لزوجك وأسرتك). ولا تجعلي العكس: ملابس البيت رثة متواضعة، وملابس الخروج فاخرة متبرجة! هذا قلب للموازين الشرعية والمنطقية.
الأمر الثالث:
"وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" – البعد التعبدي والطاعة الشاملة

بعد الأوامر والنواهي المتعلقة بـ السلوك الاجتماعي (القرار في البيوت، وعدم التبرج)، تنتقل الآية إلى الأساس الروحي الذي يقوم عليه هذا السلوك، وهو العبادة والطاعة.

اللمسات البيانية والبلاغية في الأوامر الثلاثة

١."وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ" – إقامة الصلاة لا مجرد أدائها

لم يقل: "وصَلِّين"، بل قال: "وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ". والإقامة أعمق من الأداء. فالإقامة تعني:

· أداءها في وقتها.
· بأركانها وشروطها كاملة.
· بخشوع وحضور قلب.
· المداومة عليها وعدم التهاون فيها.

فالآية تأمر نساء النبي – ومن خلالهن النساء المؤمنات – أن يجعلن الصلاة قائمة في حياتهن، أي: ركيزة ثابتة تدور حولها سائر الأعمال. فالصلاة هي الوقود الروحي الذي يعين المرأة على القرار في البيت، والالتزام بالعفة، وطاعة الله ورسوله.

٢."وَآتِينَ الزَّكَاةَ" – العطاء المالي والتزكية النفسية

بعد الصلاة – وهي عبادة بدنية روحانية – تأتي الزكاة، وهي عبادة مالية اجتماعية. وهذا يدل على أن المرأة المستقرة في بيتها ليست معزولة عن المجتمع، بل هي شريكة في واجباته المالية، ومساهمة في تكافله الاجتماعي.

والزكاة هنا قد تشمل الزكاة المفروضة (إذا كان للمرأة مال يبلغ النصاب)، وقد تشمل الصدقة والعطاء بشكل عام. فكون المرأة في بيتها لا يعني أن يدها مغلولة عن الخير، بل هي تنفق من مالها (إن كان لها مال)، أو تحث زوجها على الإنفاق في وجوه الخير.

٣."وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" – طاعة شاملة بعد تفصيل بعض الطاعات

بعد ذكر الصلاة والزكاة كنموذجين للطاعات، يأتي الأمر الشامل: "وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ". وهذا يشمل:

· كل ما أمر الله به في القرآن.
· كل ما أمر به الرسول في سنته.
· في شؤون البيت، وفي تربية الأولاد، وفي التعامل مع الزوج، وفي الخروج من البيت عند الحاجة.

وهذا يعلمنا أن التزام المرأة بالبيت وعدم تبرجها ليس مجرد عادات وتقاليد، بل هو طاعة لله ورسوله، وهو جزء من الدين الذي تؤجر عليه وتثاب.

الرسائل التربوية والنفسية من هذه الأوامر التعبدية

أ. العبادة هي مصدر القوة للالتزام بالأوامر السلوكية

الآية تربط بين السلوك (القرار في البيت، عدم التبرج) والعبادة (الصلاة، الزكاة، الطاعة). وهذا الترتيب يعلمنا أن الطاقة الروحية المستمدة من الصلاة والعبادة هي التي تمنح المرأة القوة على الالتزام بهذه

التوجيهات السلوكية.

فالمرأة التي تحافظ على صلاتها، وتتلو كتاب الله، وتذكر ربها، هي أقدر على ضبط نفسها، وأقوى على مواجهة إغراءات التبرج، وأقنع بقرارها في بيتها. أما المرأة التي تفرغ من هذه الطاقة الروحية، فقد تجد صعوبة في الالتزام.

تطبيق عملي:
عندما تشعرين بملل من البقاء في البيت، أو رغبة في الخروج لمجرد التسلية والتفرج، فجربي أن تجلسي للصلاة أو لقراءة ورد من القرآن. ستجدين أن هذه العبادة تملأ فراغك الروحي، وتمنحك سكينة تجعلك تشعرين بأن بيتك هو جنتك، لا سجنك.

ب. المرأة شريكة في النظام المالي والاجتماعي للأمة

الأمر بـ "آتين الزكاة" يؤكد أن المرأة كيان مالي مستقل، وأن لها دورًا اقتصاديًا واجتماعيًا حتى وهي في بيتها. فهي قد تملك مالًا (من ميراث، أو عمل، أو هبة)، وعليها أن تزكي هذا المال، وتشارك في سداد حاجة الفقراء.

وهذا يعزز شعورها بالمسؤولية المجتمعية، ويجعلها عنصرًا فاعلًا في الأمة، وليست مجرد تابع للرجل.

ج. طاعة الله ورسوله: إطار عام لكل تصرفات الحياة

الأمر بـ "أطعن الله ورسوله" يجعل كل حركة وكل سكنة في حياة المرأة المسلمة عبادة إذا قصدت بها طاعة الله ورسوله. فإذا أطعمت زوجها وأبناءها، فهي في طاعة الله. وإذا ربت أبناءها على الخلق الحسن، فهي في طاعة الله. وإذا حفظت نفسها وبيتها، فهي في طاعة الله.

هذا الشمول في مفهوم الطاعة يجعل حياة المرأة كلها خيرًا وبركة، ويملأ قلبها بـ الرضا واليقين بأنها في عبادة دائمة.
الأمر الرابع:
"إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تطْهِيرًا" – ذروة التطهير الإلهي لأهل بيت النبوة

هذا هو ختام الآية وذروة سنامها. بعد الأوامر والنواهي الموجهة لنساء النبي، تأتي هذه الجملة الا عتراضية العظيمة لتعلن عن إرادة الله الخاصة في تطهير أهل البيت من كل رجس ودنس.

اللمسات البيانية والبلاغية في آية التطهير

١."إِنَّمَا" – أداة حصر وتوكيد

"إنما" تفيد الحصر والتوكيد .فالله تعالى يؤكد أن إرادته من هذه الأوامر والنواهي هي حصريًا وخصوصًا: تطهير أهل البيت وإذهاب الرجس عنهم .وكأنه يقول: "ما آمركن به وما أنهاكن عنه، ليس لمصلحة تعود عليّ، بل لمصلحتكن أنتنّ، لإرادتي تطهيركن وتنزيهكن".

٢."لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ" – إذهاب الرجس: أي رجس؟

"الرِّجْس" في اللغة: كل قذر ونجس ودنس، حسيًا كان أو معنويًا .وفي هذا السياق، يشمل الرجس المعنوي:

· الذنوب والمعاصي: خصوصًا ما يتعلق بالتبرج وإثارة الفتن.
· الشك والريب في الدين.
· الأخلاق الذميمة من كبر وحسد وغل.
· وساوس الشيطان وخطواته.

فالله يريد أن يزيل عن أهل البيت كل هذه الأرجاس، ليكونوا طاهرين مطهرين.

٣."أَهْلَ الْبَيْتِ" – من هم أهل البيت في هذه الآية؟

هذا الموضع هو محور خلاف بين المفسرين، لكن جمهور العلماء على أن أهل البيت في هذه الآية يشملون:

· نساء النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهن، لأن سياق الآيات قبلهن وبعدهن في الحديث عنهن.
· علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، بدليل حديث الكساء المشهور: "اللّهم هؤلاء أهل بيتي".

والجمع بين القولين: أن الآية نزلت في نساء النبي، ثم دخل معهن في حكمها أهل الكساء، ثم عمّت كل من ينتسب إلى بيت النبوة بالقرابة أو بالاتباع.

٤."وَيُطَهِّرَكُمْ تطْهِيرًا" – تأكيد التطهير بالمصدر المفعول المطلق

قوله: "وَيُطَهِّرَكُمْ تطْهِيرًا" فيه توكيد عظيم. فالمفعول المطلق "تطْهِيرًا" يؤكد فعل التطهير ويثبته، ويرفع عنه أي احتمال للمجاز أو المبالغة. فالمعنى: يطهركم تطهيرًا كاملًا، لا شائبة فيه ولا نقص.

الرسائل التربوية والنفسية من آية التطهير

أ. بيان الغاية من التكاليف الشرعية: التطهير لا التعنيت

هذه الآية تكشف عن رحمة الله وحكمته في تشريع الأحكام. فالأمر بـ القرار في البيوت، والنهي عن التبرج، والأمر بـ الصلاة والزكاة والطاعة – كل هذه التكاليف غايتها وثمرتها: تطهير المؤمنين و المؤمنات من الأرجاس والأدناس.

وهذا يعطي المؤمنة دافعًا قويًا للالتزام، لأنها تدرك أن هذه التكاليف هي دواء وعلاج لقلبها ونفسها، يطهرها ويرفعها. إنها ليست قيودًا تثقل كاهلها، بل هي أجنحة تحلق بها إلى معارج الطهر والنقاء.

تطبيق نفسي:
عندما تجدين مشقة في الالتزام بالحجاب الكامل، أو في البقاء في البيت، تذكري أن الله يريد بك التطهير، ويريد أن يذهب عنك الرجس. فهذه المشقة هي جرعة علاج مرة في بدايتها، لكن عاقبتها صحة وعافية ونقاء.

ب. الطهارة المعنوية لا تقل أهمية عن الطهارة الحسية

الآية تركز على الرجس المعنوي (الذنوب، الشك، الأخلاق السيئة). وهذا يذكرنا بأننا نهتم غالبًا بـ طهارة البدن والثوب، ونغفل عن طهارة القلب والروح. فكم من امرأة تخرج متطهرة متعطرة، لكن قلبها مليء بالحقد والحسد والغيبة!

الآية تدعونا إلى الطهارة الشاملة: طهارة البدن بالوضوء والغسل، وطهارة الثوب بالغسل والتنظيف، وطهارة القلب بالتوبة والإخلاص، وطهارة اللسان بترك الغيبة والنميمة، وطهارة الجوارح بترك المعاصي.

ج. شرف الانتساب إلى "أهل البيت" بالاتباع والمحبة

قد يقول قائل: "هذا التطهير خاص بأهل بيت النبي، فما حظنا نحن؟"

والجواب: باب التطهير مفتوح لكل مؤمن ومؤمنة. فكما أن الله أراد إذهاب الرجس عن أهل بيت النبوة باتباعهم أوامره، فإن كل من يتبع أوامر الله ويجتنب نواهيه فإنه يتعرض لهذه الإرادة الإلهية في التطهير.

بل إن من أحب أهل البيت واقتدى بهم، نال من بركة هذه الآية، ودخل في معنى الانتساب إليهم. ق ال النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين" (البخاري ومسلم). فالصالحون من المؤمنين هم أولياء الله، وهم مشمولون بإرادة الله في التطهير بقدر اتباعهم.

خامسًا: كيف نعيش آية "وقرن في بيوتكن" في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين، حيث تغيرت ظروف الحياة، وخرجت المرأة للعمل والتعليم؟

١.إعادة تعريف "القرار في البيت" بما يتناسب مع العصر دون تفريط في الأصل

في عصرنا، قد تحتاج المرأة إلى الخروج للعمل أو التعليم. فكيف نوفق بين هذا وبين الأمر بـ "وقرن في بيوتكن"؟

التطبيق العملي:

· نية القرار: اجعلي نية قلبك أن أصلك ومستقرك هو البيت .فالخروج هو استثناء لحاجة، وليس أصل حياتك .حتى وأنت في عملك، قلبك معلق ببيتك، وتنتظرين العودة إليه.
· ترتيب الأولويات: رتبي حياتك بحيث لا يطغى العمل خارج البيت على واجبات البيت .فإذا كان عملك يؤدي إلى إهمال زوجك، أو ضياع أبنائك، أو تفريط في حق نفسك من العبادة والراحة، فأنت بحاجة إلى إعادة النظر في هذا العمل أو تقليل ساعاته.
· الاستقرار النفسي: حتى لو خرجت للعمل، حافظي على وقار البيت في نفسك .لا تكوني في الشارع كما تكونين في البيت .في البيت أنت ملكة متوجة، وفي الخارج أنت محتشمة وقورة، تؤدين مهمتك وتعودين إلى مملكتك.

٢.مواجهة "تبرج الجاهلية الحديثة" في زمن السوشيال ميديا

تبرج الجاهلية الأولى كان في الطرقات والأسواق. أما تبرج الجاهلية الحديثة فصار على الشاشات ووسائل التواصل الاجتماعي. فكم من امرأة مستقرة في بيتها، لكنها متبرجة على حسابها في الإ نستغرام، تنشر صورها ومقاطعها بالزينة الكاملة!

كيف نطبق النهي عن التبرج في هذا العصر؟

· غض الطرف عن نشر الصور الشخصية: لا تنشري صورك بزينتك الكاملة على وسائل التواصل، حتى لو كنت في بيتك .فالشاشة نافذة يطل منها الرجال الأجانب .واجعلي حسابك خاصًا إن أردت مشاركة صور عائلية مع قريباتك.
· الحذر من "تبرج الصوت" في المقاطع: كما نهت الآية السابقة عن الخضوع بالقول، انتبهي إلى نبرة صوتك في المقاطع الصوتية أو المرئية التي تنشرينها.
· التربية الإعلامية للأبناء: علمي بناتك أن التبرج الإلكتروني لا يقل خطرًا عن التبرج في الشارع .ف الصورة التي تنشرها قد يراها آلاف الرجال، وقد تستخدم في أغراض سيئة.

٣.جعل البيت "محرابًا للعبادة" لا مجرد "فندقًا للإقامة"

الآية أمرت بـ "أقمن الصلاة" في سياق الحديث عن البيت. وهذا يعني أن البيت ينبغي أن يكون مكانًا للعبادة، لا مجرد مكان للأكل والنوم.

كيف نجعل بيوتنا عامرة بالعبادة؟

· تخصيص ركن للصلاة والذكر: اجعلي في بيتك زاوية هادئة، فيها سجادة ومصحف وسبحة، تلجئين إليها للخلوة بالله.
· إقامة صلاة الجماعة في البيت: صلي مع زوجك وأبنائك جماعة في البيت) خاصة إذا تعسر الذهاب للمسجد .(فهذا يملأ البيت روحانية وبركة.
· ورد قرآني جماعي: اجتمعي مع أسرتك ولو لعشر دقائق بعد صلاة المغرب لتلاوة صفحة من القرآن وتدبرها.

٤.استشعار "إرادة التطهير الإلهية" في كل تحديات الحياة

عندما تواجهين تحديات في الالتزام بالحجاب، أو ضغوطًا للخروج والتبرج، أو صعوبات في التوفيق بين البيت والعمل، تذكري قول الله: "إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا".

هذه الإرادة الإلهية تحيط بك في كل لحظة. فكل اختيار صعب تقومين به من أجل الله، هو خطوة في طريق التطهير. وكل شهوة تقمعينها، وكل نظرة تغضينها، وكل ساعة تقضينها في بيتك راضية، هي دليل على أن الله يطهرك ويزكي روحك.

تطبيق عملي:
اكتبي هذه الآية على ورقة وعلقيها في مكان ترينه كثيرًا (على المرآة، على الثلاجة). كلما قرأتِها، تذكري أن الله يريد بك الخير والطهر، وليس التعقيد أو التضييق.
سادسًا: القيم المستفادة من الآية 33

القيمة تجلياتها في الآية
الاستقرار والسكينة "وقرن في بيوتكن" – الأمر بالاستقرار والوقار في البيت.
العفاف والحياء "ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى" – صيانة الجمال عن البذل.
مركزية العبادة في الحياة "وأقمن الصلاة" – الصلاة ركيزة أساسية في حياة المرأة.
المسؤولية المالية والاجتماعية "وآتين الزكاة" – المرأة شريكة في واجبات الأمة.
الطاعة الشاملة لله ورسوله "وأطعن الله ورسوله" – جعل الحياة كلها لله.
إرادة التطهير الإلهية "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس" – التشريعات غايتها تزكية النفوس.
الطهارة الشاملة "ويطهركم تطهيرًا" – طهارة حسية ومعنوية.
شرف الانتساب لأهل البيت "أهل البيت" – فضل الانتساب الحقيقي بالإيمان والاتباع.
خاتمة: في رحاب التطهير الإلهي والاستقرار الإيماني

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي ترسم للمرأة المسلمة هوية متكاملة، وتضعها في موقعها الطبيعي كـ صانعة للرجال وبانية للأجيال من داخل حصنها الأمين: بيتها.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· البيت ليس سجنًا، بل هو مملكة المرأة ومجال إبداعها ومصنع الحضارة.
· العفاف ليس تقييدًا، بل هو تحرر من نظرة الآخر، وصيانة لأغلى ما تملك المرأة: جمالها وكرامتها.
· العبادة هي الوقود الذي يمد المرأة بالطاقة للقيام بدورها العظيم.
· التطهير هو الغاية الكبرى من كل التكاليف الشرعية، وهو هدية الله لعباده المؤمنين.

فلنحرص – أيتها المرأة المسلمة – أن نكون أهل بيت النبوة بالاتباع والمحبة، ولنعش في بيوتنا وقارًا ، وفي خروجنا عفافًا، وفي عبادتنا إخلاصًا، حتى ننال التطهير الكامل، ونكون أهلًا لرحمات الله وبركاته.

اللهم طهر قلوبنا من كل رجس، وبيوتنا من كل فتنة، وأعمالنا من كل رياء. اللهم اجعلنا من عبادك المطهرين، وارزقنا الاستقرار في بيوتنا على طاعتك، والعفاف في خروجنا، والقبول في الأرض. اللهم إنا نسألك أن تذهب عنا الرجس وتطهرنا تطهيرًا، إنك ولي ذلك والقادر عليه.
المبحث السابع
تفسير آية "وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ" (الأحزاب: 34) – رسالة الذكر والعلم في مملكة البيت

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني العجيب، الذي يأتي تتويجًا لسلسلة التوجيهات الربانية لنساء النبي صلى الله عليه وسلم، ومن خلالهن لكل امرأة مسلمة. بعد أن أمرهن الله بـ الا ستقرار في البيوت، ونهاهن عن تبرج الجاهلية، وأمرهن بـ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، يختم هذه المنظومة التربوية المتكاملة بأمر عظيم، هو سر قوتهن وثباتهن واستمرار عطائهن: الأمر بـ ذكر ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة.

يقول الله تعالى: "وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا"

إنها ليست مجرد آية عابرة في سياق طويل، بل هي القلب النابض لكل الأوامر السابقة، وهي السر الإ لهي الذي يجعل بيوت المسلمين – إذا امتلأت بذكر الله وتلاوة آياته – منارات للهداية، وحضونًا للتربية، ومصانع للرجال. إنها الآية التي تخبرنا أن البيت الذي لا يُذكر فيه ما يتلى من آيات الله وحكمته، هو بيت ميت الروح، وإن كان عامرًا بالأثاث والزينة.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأننا نقف في بيوتنا نسمع هذا الأمر الإلهي الكريم، في زمن أصبحت فيه البيوت عامرة بكل شيء، إلا ذكر الله وتلاوة كتابه وفقه الحكمة!

الأمر الأول: "وَاذْكُرْنَ" – لماذا الأمر بالذكر؟ وما أبعاده؟

اللمسة البيانية الأولى: العطف بـ "الواو" ودلالة التكامل

تبدأ الآية الكريمة بـ "وَاذْكُرْنَ"، وهي معطوفة بالواو على ما سبقها من أوامر: "وَقَرْنَ" ، "وَلَا تَبَرَّجْنَ" ، "وَأَقِمْنَ" ، "وَآتِينَ" ، "وَأَطِعْنَ". هذه الواو تفيد التكامل والترابط بين كل هذه الأوامر، وكأنها تقول: "لا يكتمل بناء شخصيتكن وبيوتكن إلا بهذا الأمر الأخير: الذكر". فالاستقرار في البيت، والعفاف، والصلاة، والزكاة، والطاعة – كلها تستمد روحها وقوتها من هذا النبع الصافي: ذكر آيات الله والحكمة.

اللمسة البيانية الثانية: "اذْكُرْنَ" – بين الذكر القلبي والتذكر العملي

لفظة "اذْكُرْنَ" تحمل في طياتها معنيين عظيمين متكاملين:

١.الذكر القلبي: الحفظ في الصدور والتأمل في العقول

"اذكرن" بمعنى: احفظن في قلوبكن، واجعَلن على بالكن، ولا تنسين. إنه أمر بأن يكنّ على صلة دائمة بما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة. ليس الأمر مجرد سماع عابر، بل هو حفظ واعٍ، واستحضار دائم، وتأمل عميق.

وهذا يعلمنا أن العلم النافع ليس مجرد معلومات تخزن في الذاكرة، بل هو نور يملأ القلب، وهدى يوجه السلوك، وطاقة تدفع للعمل. فالمرأة التي تذكر ما يتلى في بيتها من آيات الله، هي امرأة تعيش القرآن في كل تفاصيل حياتها.

٢.التذكر العملي: العمل بالمقتضى والتبليغ للغير

"اذكرن" لا يقف عند حد الحفظ والتأمل، بل يتعداه إلى العمل والتبليغ. فمن لوازم الذكر الحقيقي: أن تعمل بما تذكر، وأن تُذكر به غيرك.

فنساء النبي – رضي الله عنهن – كنّ أوعية للوحي، ومدارس للعلم، ومراجع للأمة. كنّ يسمعن القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم فيحفظنه، ويفقهن أحكامه فيعلمنها، ويروين الأحاديث فيبلغنها. فهن المذكرات للأمة بما تلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة.

الرسائل التربوية والنفسية من الأمر "وَاذْكُرْنَ"

أ. الذكر هو وقود الطاعات وجنّة من المعاصي

الآية تضع الذكر في ختام سلسلة الأوامر والنواهي، لتكون الخاتمة التي تحفظ الفاتحة. فما فائدة الأ مر بـ القرار في البيوت وعدم التبرج وإقامة الصلاة، إذا كان البيت خاليًا من ذكر الله، والقلب غافلًا عن آياته؟

إن الذكر هو الذي يجعل الاستقرار في البيت متعة روحية، لا سجنًا ماديًا. وهو الذي يملأ قلب المرأة بالعفة فتستغني به عن التبرج ولفت الأنظار. وهو الذي يوقظ القلب لإقامة الصلاة بخشوع، ويحرك اليد لإيتاء الزكاة بطيب نفس، ويسهل على النفس طاعة الله ورسوله.

مثال من الواقع:
امرأتان كلتاهما مستقرة في بيتها:

· الأولى: بيتها مليء بآلات اللهو (التلفاز، الهاتف، المسلسلات)، وقلبها غافل عن ذكر الله. تشعر بالملل والضيق، وتتطلع للخروج بأي حجة، وقد تقع في الغيبة أو متابعة المتبرجات.
· الثانية: بيتها عامر بتلاوة القرآن، ومجالس الذكر، ومذاكرة العلم. تشعر بالسكينة والرضا، وتجد في بيتها جنتها، وتخرج لحاجتها فقط بقلب عامر بذكر الله.

أيتهما أقرب إلى تحقيق مراد الله من هذه الأوامر؟ بلا شك الثانية.

ب. الذكر النافع هو ذكر "ما يتلى" لا كل ما يقال

لاحظ أن الآية لم تأمر بـ الذكر المطلق، بل أمرت بذكر "مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ". وهذا تحديد مهم جدًا في زمننا الذي كثرت فيه الأقوال، واختلط فيه الحق بالباطل.

فليس كل ما يقال أو ما يسمع يستحق أن يُذكر أو يحفظ أو يُتأمل. إنما الذكر النافع المأمور به هو ذكر الوحي (آيات الله) والسنة (الحكمة). فهما المصدران الوحيدان للهداية والنور.

تطبيق معاصر:
في زمن الإنفجار المعلوماتي والسوشيال ميديا، تتعرض المرأة لوابل من الأقوال والآراء والنصائح يوميًا. هذه الآية تعطيها مقياسًا ذهبيًا للتمييز: "احفظي واذكري وتأملي فقط ما كان من آيات الله (القرآن) والحكمة (السنة الصحيحة والفهم الصحيح). أما أقوال الناس وآراؤهم ونظرياتهم، فلا تجعليها شغلك الشاغل، ولا تملئي بها قلبك وعقلك على حساب كلام الله ورسوله".
الأمر الثاني:
"مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ" – خصوصية المكان وبركة نزول الوحي

بعد الأمر بـ الذكر، تأتي مادته وموضوعه: "مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ". وهذا المقطع من الآية يفتح لنا أبوابًا من التأمل في فضل بيوت النبي، وفي دور البيت المسلم في استقبال الوحي وتداوله.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ"

١."مَا يُتْلَى" – صيغة المضارع: تجدد التلاوة واستمرارها

لفظة "يُتْلَى" فعل مضارع، وهو يفيد التجدد والاستمرار. فالتلاوة في بيوت النبي لم تكن حادثة عابرة في الماضي، بل هي عملية مستمرة، تتجدد كل يوم، في كل وقت، مع نزول الوحي أو مع تلاوة ما سبق نزوله.

وهذا يعلمنا أن البيت المسلم ينبغي أن يكون مسجدًا مصغرًا، لا ينقطع فيه صوت القرآن. فكما أن الوحي كان يتلى باستمرار في بيوت النبي، ينبغي أن يكون القرآن يتلى باستمرار في بيوتنا: في الصلوات، في جلسات الذكر، في أوقات السحر، في تربية الأبناء.

٢."فِي بُيُوتِكُنَّ" – إضافة البيوت إليهن مرة أخرى: تأكيد على المركزية

كما في قوله: "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ" ، تكرر هنا إضافة البيوت إلى ضميرهن: "بُيُوتِكُنَّ". وهذا التكرار له دلالتان عظيمتان:

· تأكيد الشرف: بيوتهن هي مهبط الوحي، ومنازل نزول القرآن. وهذا شرف لم ينله أحد من النساء قبلهن ولا بعدهن. فالله يذكرهن بهذا الشرف ليزدادوا حرصًا على تعظيم ما يتلى في هذه البيوت المباركة.
· تأكيد المسؤولية: كون الوحي يتلى في بيوتهن يعني أنهن أولى الناس بسماعه، وأحراهم بفهمه، وأجدرهم بالعمل به وتبليغه. فهن أمناء الوحي في بيوتهن.

٣."مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ" – بيان مصدري الذكر: الكتاب والسنة

هذا هو بيان لما يُتلى في بيوتهن:

· آيَاتِ اللهِ: وهي القرآن الكريم، كلام الله المنزل على نبيه.
· الحِكْمَةِ: وهي السنة النبوية، أقوال النبي وأفعاله وتقريراته، وهي الحكمة العملية التي تشرح القرآن وتبينه.

والجمع بينهما في هذه الآية يدل على تلازمهما وأنهما مصدران متكاملان للهداية. فلا يغني القرآن عن السنة، ولا تغني السنة عن القرآن. وكلاهما وحي من الله، كما قال تعالى: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ" (النجم: 3-4).

الرسائل التربوية والنفسية من "مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ"

أ. البيت المسلم هو المدرسة الأولى لتلقي الوحي وتدبره

هذه الآية تكرس مركزية البيت في التربية الإيمانية. فقبل المسجد، وقبل المدرسة، وقبل وسائل الإعلا م، ينبغي أن يكون البيت هو المكان الذي يسمع فيه الأبناء آيات الله والحكمة لأول مرة، ويتعلمون فيه معانيها، ويتربون على العمل بها.

إنها دعوة لكل أم وأب أن يجعلوا بيوتهم عامرة بتلاوة القرآن، مزدانة بمجالس الذكر، منيرة بمذاكرة السنة. فالطفل الذي ينشأ في بيت يُتلى فيه القرآن، ويسمع أحاديث النبي، ويشهد والديه يتدبران ويتذاكران، لن يكون كالطفل الذي ينشأ في بيت لا يُسمع فيه إلا الأغاني والمسلسلات والثرثرة.

مثال تطبيقي:
كم من أم تشتكي من إدمان أبنائها للأجهزة الإلكترونية، ومن بعدهم عن الدين! والعلاج يبدأ من الآية: "وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ". اجعلي في بيتك وقتًا ثابتًا لتلاوة القرآن، ولو عشر دقائق يوميًا بعد صلاة الفجر أو المغرب. اجتمعي مع أبنائك، واقرئي صفحة واحدة، واشرحي لهم معنى آية واحدة، واربطيها بحياتهم. سترين كيف يتحول البيت تدريجيًا من ساحة للملل إلى جنة للذكر.

ب. أنتنّ مؤتمنات على الوحي: شرف المسؤولية وعظم الأمانة

كون الوحي يتلى في بيوتكن يعني أنكن المستقبلات الأوليات لهذا الوحي، والحافظات له، والمبلغات عنه. وهذا شرف عظيم، لكنه في نفس الوقت مسؤولية جسيمة.

فالمرأة المسلمة – على خطى أمهات المؤمنين – هي أمينة على كلام الله وكلام رسوله في بيتها. هي التي تحفظه من التحريف، وتصونه من الإهمال، وتنشره في أسرتها ومجتمعها. وهي مسؤولة أمام الله عن هذه الأمانة: هل حفظتها؟ هل عملت بها؟ هل بلغتها؟

تطبيق معاصر:
في عصرنا، أصبح الوصول إلى آيات الله والحكمة سهلا ً جدًا: المصاحف في كل مكان، وتطبيقات القرآن على الهواتف، ودروس العلماء على الإنترنت. لكن السؤال: هل نحن نؤدي أمانة هذا الوحي؟ هل نخصص وقتًا لتلاوته وتدبره؟ هل نحرص على تعلم تفسيره وفقهه؟ هل نعمل به في بيوتنا وحياتنا؟ أم أن المصحف مهمل على الرف يعلوه الغبار، وتطبيقات القرآن منسية في زاوية الهاتف؟
الأمر الثالث:
"إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا" – ختم الآية باسمين كريمين من أسماء الله الحسنى

بعد الأمر بـ الذكر، وبيان موضوعه (آيات الله والحكمة) ومكانه (البيوت)، تختم الآية بهذا التعليل الإ لهي العجيب: "إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا". هذا الختم ليس مجرد تذييل، بل هو سر الآية وروحها. فما علاقة هذين الاسمين الكريمين بموضوع الآية؟

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا"

١."إِنَّ" – تأكيد الخبر وتقريره

"إِنَّ" تفيد التوكيد، فالله يؤكد لعباده – ولا سيما النساء في بيوتهن – أنه لطيف خبير. وهذا التأكيد يمنح الطمأنينة والثقة بأن الله محيط بهن، وعالم بأحوالهن، ولطيف بهن في تدبيره.

٢."كَانَ" – فعل الكون: دوام وثبوت الصفة

"كَانَ" هنا تفيد الدوام والاستمرار. فالله لم يزل ولا يزال لطيفًا خبيرًا. لطفه وخبرته ليسا حادثين، بل هما صفتان ذاتيتان له سبحانه.

٣."لَطِيفًا" – اللطف الإلهي: ما معناه في هذا السياق؟

اسم الله "اللطيف" له معانٍ سامية:

· البر الرفيق بعباده: الذي يوصل إليهم الخير والنفع بلطف ورفق، من حيث لا يشعرون.
· العالم بدقائق الأمور وخباياها: الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

ففي هذا السياق، "اللطيف" يشير إلى أن الله:

· لطيف بنساء النبي إذ اختارهن لصحبة نبيه، وجعلهن أمهات للمؤمنين، وخصهن بهذه التوجيهات التي تطهرهن وترفع مقامهن.
· لطيف بجميع النساء إذ شرع لهن من الأحكام ما يحميهن ويصونهن ويريحهن من عناء المزاحمة و المشقة. فأمره بالقرار في البيت هو لطف، لأن في خروجهن الدائم مشقة وفتنة. ونهيه عن التبرج هو لطف، لأنه يصون جمالهن عن الابتذال.
· لطيف في أمره لهن بالذكر، لأن في هذا الذكر سعادة القلب، وطمأنينة النفس، ونور العقل، ورفعة الدرجات.

٤."خَبِيرًا" – الخبرة الإلهية: العلم المحيط بكل شيء

اسم الله "الخبير" يعني العالم ببواطن الأمور، المحيط بكل شيء علمًا. وفي هذا السياق:

· هو خبير بقلوبكن: يعلم ما فيها من إخلاص أو نفاق، من رغبة في الخير أو ميل إلى الشر.
· هو خبير بأحوالكن: يعلم ضعفكن وحاجتكن، ويعلم ما يصلحكن وما يفسدكن.
· هو خبير بمن يطيعه منكن ومن يعصيه: وسيجازي كلًا بما يستحق.

لماذا ختمت الآية بـ "لطيفًا خبيرًا"؟ الربط العجيب بالذكر والتلاوة

الربط بين الأمر بالذكر وختام الآية بهذين الاسمين الكريمين له دلالات عميقة:

أ. التذكير بأن هذه الأوامر صادرة عن لطف الله وخبرته

كأن الله يقول لنساء النبي – ومن خلالهن لكل مؤمنة –: "لا تظنن أن هذه الأوامر (القرار في البيوت، عدم التبرج، إقامة الصلاة، الذكر) هي تضييق عليكن أو انتقاص من حريتكن. بل هي صادرة عن لطفي بكن وخبرتي بما يصلحكن. أنا اللطيف الذي يريد بكن اليسر لا العسر، والخبير الذي يعلم ما يصلح حالكن في الدنيا والآخرة".

هذا الفهم يملأ قلب المؤمنة رضا وطمأنينة، ويدفع عنها وساوس الشيطان الذي يوحي إليها بأن هذه ا لأحكام قيود تمنعها من "الاستمتاع بالحياة". فالآية تقول لها: "إن الله لطيف خبير، فثقي بحكمته ولطفه، واعلمي أن ما أمرك به هو عين الرحمة وعين السعادة".

ب. اللطف والخبرة في إيصال الوحي إلى البيوت

من مظاهر لطف الله وخبرته أنه جعل البيوت – لا المساجد فقط – مهبطًا للوحي ومجالًا لتلاوة آياته وحكمته. فلو كان الوحي مقصورًا على المساجد، لكان حظ النساء منه أقل، لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل. ولكن من لطف الله أن جعل بيوت النبي هي المنبع الأول للوحي، وجعل نساء النبي هن الوعاء الأول لحفظه وتبليغه، ثم امتد هذا اللطف إلى بيوت المؤمنين جميعًا، حيث يمكنهم تلاوة كتاب الله وتدارسه في بيوتهم، فينالون من بركة الوحي وهم في حرمهم الآمن.

ج. التربية على مراقبة الله في الخلوات

كون الله "خبيرًا" يعني أنه مطلع على ما في البيوت، يعلم ما يتلى فيها، وما يقال، وما يفعل. وهذا يربي في المرأة المسلمة مراقبة دائمة لله، حتى وهي في خلوتها في بيتها. فهي تعلم أن الله خبير بما تقرأ، خبير بما تسمع، خبير بما تدخله إلى بيتها من أقوال وآراء. فلا تغفل، ولا تتساهل، لأن عين الله التي لا تنام ترعاها وتحصي عليها.

الرسائل التربوية والنفسية من ختام الآية

أ. الثقة المطلقة في حكمة التشريع الإلهي

هذه الآية تعلمنا أن نثق في أوامر الله ونواهيه ثقة مطلقة، حتى لو لم ندرك الحكمة من ورائها فورًا. فما دام الآمر هو اللطيف الخبير، فالأمر كله خير ورحمة وصلاح.

عندما تجد المرأة المسلمة مشقة في الالتزام بالحجاب الكامل في الحر، أو في البقاء في البيت مع شعور بالملل، أو في تربية الأبناء على حفظ القرآن، تتذكر أن الله لطيف خبير، وأن هذه المشقة محفوفة بلطفه، وأن عاقبتها خير في الدنيا وأجر عظيم في الآخرة.

ب. استشعار اللطف الإلهي في تفاصيل الحياة اليومية

المرأة التي تعيش مع هذه الآية تتعلم أن تلتمس لطف الله في كل أحداث حياتها. ففي ضيق العيش ترى لطف الله في بركة القليل وصحة الأبدان. وفي تربية الأبناء ترى لطف الله في لحظات الهداية وكلمات البر. وفي خدمة زوجها ترى لطف الله في المودة والرحمة التي تلقيها في قلبه.

هذا الاستشعار الدائم للطف الله يحول الحياة اليومية – حتى مع متاعبها – إلى عبادة وسعادة ورضا.

ج. الخوف من اطلاع الله على ما في البيوت

في نفس الوقت الذي يمنح فيه اسم "الخبير" الطمأنينة للمطيعين، فإنه يبعث الخوف في قلوب الغافلين والمقصرين. فالله خبير بما يدور في بيوتنا من أقوال وأفعال، خبير بما تدخله إلى بيوتنا عبر الشاشات من منكرات، خبير بمن نغتابه في مجالسنا، خبير بما نهمله من تلاوة القرآن وتعليمه لأبنائنا.

فلنستحضر هذه المراقبة الإلهية، ولنجعل بيوتنا أهلًا لأن يُذكر فيها اسم الله، وتتلى فيها آياته.
رابعًا:
كيف نعيش آية "وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ" في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نجعل هذه الآية حية في بيوتنا وحياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.تحويل البيت إلى "مدرسة قرآنية" للأبناء والأسرة

أ. وقت ثابت لتلاوة القرآن وتدبره:

· اجعلي في بيتك مجلسًا يوميًا للقرآن، ولو عشر دقائق فقط. المهم الاستمرار لا طول المدة. بعد صلاة الفجر أو المغرب، تجتمع الأسرة حول المصحف.
· لا تجعلي التلاوة مرورًا سريعًا على الحروف، بل قفي عند آية واحدة، واسألي: "ماذا تعلمنا هذه الآية ؟ كيف نطبقها في حياتنا؟". هذا هو الذكر الذي يجمع بين التلاوة والتدبر.

ب. ربط الأبناء بالقرآن منذ الصغر:

· علميهم قصار السور بأسلوب محبب، واربطي كل سورة بقصة أو معنى يفهمونه. (سورة الفيل: قصة أبرهة والفيلة، سورة قريش: نعمة الأمن والطعام...).
· اجعلي مسابقات قرآنية في البيت بجوائز بسيطة: من يحفظ سورة جديدة؟ من يقرأ جزءًا كاملًا؟ من يعرف تفسير آية معينة؟

٢.التعامل الواعي مع "التلاوة" في عصر الشاشات

في زمننا، أصبحت "التلاوة" تأتي من مصادر متعددة: التلفاز، اليوتيوب، تطبيقات الهواتف، مقاطع الواتساب. كيف نتعامل مع هذا الفيض؟

أ. انتقاء ما يُتلى:

· اجعلي المحتوى القرآني والعلمي هو الأساس في قائمة متابعاتك. تابعي قنوات موثوقة تنشر تفسير القرآن وشروح الأحاديث.

· قنّني وقت التعرض للمحتوى الترفيهي (مسلسلات، برامج منوعات)، واجعليه في أدنى الدرجات، بعد أن تكوني قد ذكرتِ ما يُتلى من آيات الله والحكمة.

ب. استخدام التكنولوجيا في نشر الذكر:

· أرسلي آية من القرآن مع تفسيرها المختصر في مجموعة العائلة على الواتساب يوميًا.
· شاركي مقطعًا قصيرًا من درس علمي نافع مع صديقاتك.

.٣المرأة المسلمة: حارسة الوحي في بيتها

كوني أمينة على ما يُتلى في بيتك. أنت المسؤولة الأولى عن:

· وجود مصاحف في أماكن ظاهرة في البيت.
· منع دخول ما يخالف آيات الله والحكمة إلى بيتك من قنوات فاسدة، أو أفلام خليعة، أو مجلات هابطة.
· تشجيع أفراد أسرتك على حضور مجالس العلم وحلقات التحفيظ.

.٤استشعار اسمي "اللطيف الخبير" في حياتك اليومية

أ. دفتر يوميات "لطف الله":

· خصصي دفترًا صغيرًا تكتبين فيه كل يوم موقفًا واحدًا شعرت فيه بلطف الله بك: "اليوم كنت متضايقة من أمر كذا، فإذا بصديقتي تتصل وتريح قلبي... لطف الله". "اليوم كنت أحتاج مبلغًا من المال، فإذا بزوجي يعطيني إياه دون أن أسأل... لطف الله". هذا التدوين يُنمّي استشعار اللطف الإلهي في قلبك.

ب. مراقبة الله في الخلوات:

· قبل أن تفتحي موقعًا على الإنترنت، أو تشاهدي مقطعًا على هاتفك، اسألي نفسك: "الله خبير بما سأشاهده الآن. هل يرضى عني إذا رآني أشاهد هذا؟".
خامسًا: القيم المستفادة من الآية 34

القيمة تجلياتها في الآية
مركزية الوحي في حياة المرأة "واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة" – الوحي هو غذاء الروح ونور القلب.
المسؤولية العلمية والتربوية للمرأة المرأة مؤتمنة على حفظ الوحي وتبليغه في أسرتها ومجتمعها.
تحويل البيت إلى مدرسة إيمانية جعل البيت مكانًا لتلاوة القرآن ومدارسة السنة.
الجمع بين العلم والعمل "اذكرن" يشمل الحفظ والفهم والعمل والتبليغ.
الثقة في حكمة التشريع الإلهي "إن الله كان لطيفًا خبيرًا" – كل أوامر الله ونواهيه صادرة عن لطف وعلم تامين.
استشعار مراقبة الله "خبيرًا" – الله مطلع على ما في البيوت والقلوب.
التماس اللطف الإلهي في الحياة "لطيفًا" – رؤية آثار لطف الله في تفاصيل الحياة اليومية.
التكامل بين الكتاب والسنة "آيات الله والحكمة" – لا غنى لأحدهما عن الآخر.
خاتمة: في رحاب الذكر والعلم واللطف الإلهي

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تضع أمام المرأة المسلمة السر الأعظم لا ستقرارها النفسي، وطهارتها القلبية، ونجاحها في أداء رسالتها الحضارية. إنه سر ذكر الله وتلاوة كتابه وتدبر حكمته في حرم البيت الآمن.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· البيت لا يكون مملكة حقيقية للمرأة إلا إذا كان عامرًا بذكر الله وتلاوة آياته.
· المرأة ليست مجرد ربة بيت، بل هي حارسة الوحي، ومدرسة الأجيال، وأمينة الأمة على كلام ربها.
· الذكر هو الوقود الذي يشحن قلبها بالصبر والرضا والعفة والقوة على مواجهة التحديات.
· لطف الله وخبرته يحيطان بها في كل لحظة، فلتثق به، ولتلتجئ إليه، ولتستشعر رعايته في كل

شأنها.

فلنحرص – أيتها المرأة المسلمة – أن نجعل بيوتنا رياضًا من رياض الجنة، عامرة بتلاوة القرآن، زاكية بذكر الرحمن، منيرة بنور الحكمة والإيمان، حتى ننال شرف الانتساب إلى تلك البيوت المباركة التي تليت فيها آيات الله والحكمة، وحتى نكون أهلًا للطف الله وخبرته، ونفوز بالتطهير والأجر العظيم.

اللهم اجعلنا من الذاكرين لك كثيرًا، التالين لكتابك آناء الليل وأطراف النهار. اللهم اجعل بيوتنا عامرة بذكرك، منورة بتلاوة كتابك، آمنة من كل فتنة وسوء. اللهم إنا نسألك من لطفك الخفي، ومن خبرتك المحيطة، أن تهدينا سواء السبيل، وتطهر قلوبنا وبيوتنا من كل رجس، إنك لطيف خبير.

..

المقطع الرابع
القسم الاول
المبحث الأول
مقومات الشخصيه المسلمه
تفسير آية الأوصاف العشرة للمسلمين والمسلمات (الأحزاب: 35) – دستور الشخصية المسلمة المتكاملة وأساس المجتمع والحضارة

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذه الآية القرآنية الفريدة، التي لا تشبه أي آية أخرى في القرآن الكريم من حيث بنائها ونظمها ودلالاتها. إنها آية تتكرر فيها عشر صفات، عشر مرتين: مرة للرجال، ومرة للنساء. إنها وثيقة المساواة في القيم والمسؤوليات، وإعلان الشراكة في بناء الحضارة، ودستور الشخصية المسلمة المتكاملة.

في هذه الآية الكريمة، يرسم لنا القرآن اللوحة المتكاملة للإنسان المسلم، رجلا ً كان أو امرأة، لا من حيث الشكل أو المظهر، بل من حيث الجوهر والصفات والأعمال. إنها الصفات التي إذا اجتمعت في الفرد، صنعت منه لبنة صالحة لبناء المجتمع. وإذا انتشرت في المجتمع، صنعت منه أمة قوية، وحضارة راسخة، تنأى عن كيانات الجاهلية، ومتاهات الانحراف، وقيود العادات والتقاليد البالية.

إنها الآية التي تعلن بكل وضوح: لا فرق بين رجل وامرأة في ميزان القيم الإيمانية. فكما أن الرجل مطالب بـ الإسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدق والصوم وحفظ الفرج وذكر الله، فإن المرأة مطالبة بكل ذلك على قدم المساواة. إنها شراكة كاملة في حمل الأمانة، وأداء الرسالة، وبناء الحضارة.

يقول الله تعالى:
"إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، ولنرَ كيف أنها القاعدة الذهبية لبناء الشخصية المسلمة، والمجتمع المسلم، والحضارة الإسلامية، بعيدًا عن أدران الجاهلية ومتاهات الضلال.

الأمر الأول:
"إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ" – افتتاح الآية بالتوكيد والمساواة في الإسلام

اللمسة البيانية الأولى: "إِنَّ" – تأكيد الخبر وتقريره

تبدأ الآية الكريمة بـ "إِنَّ"، وهي أداة توكيد. فكأن الله يقول: "حقًا ويقينًا، إن المسلمين والمسلمات... أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا". وهذا التوكيد يقطع كل شك، ويدفع كل وهم، ويؤكد أن هذا الوعد ثابت لا يتزحزح.

اللمسة البيانية الثانية: ذكر الرجال والنساء معًا في كل صفة – إعلان المساواة الكاملة

لاحظ – أيها القارئ الكريم – هذا النظم العجيب: الآية تذكر كل صفة بصيغة جمع المذكر السالم، ثم تعطف عليها بصيغة جمع المؤنث السالم. "الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ" ، "وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ" ، "وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ"... وهكذا في كل الصفات العشر.

لماذا هذا التكرار؟ أليس يكفي "المسلمين" ليشمل الجنسين؟
بلى، إن "المسلمين" بصيغة التذكير تشمل الجنسين (تغليبًا). ولكن القرآن – في هذا المقام بالذات – يصر على ذكر النساء بصريح اللفظ، مقترنات بالرجال في كل صفة. وهذا له دلالات عظيمة:

أ. رفع ما توهمه بعض النساء من حرمانهن من الفضل

لما نزلت آيات سابقة في السورة تخاطب الرجال غالبًا (مثل: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ" لم تكن قد

نزلت بعد)، قالت بعض النساء: "يا رسول الله، ما نرى الله يذكرنا في القرآن بشيء! إنما يذكر الرجال!". وفي رواية أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "يا رسول الله، ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟!". فأنزل الله هذه الآية الكريمة، تكريمًا للمرأة، ورفعًا لمقامها، وإعلانًا أنها شريكة الرجل في كل فضيلة، وفي كل أجر.

ب. تأكيد استقلال شخصية المرأة ومسؤوليتها الفردية

بذكر "وَالمُسْلِمَاتِ" و"وَالمُؤْمِنَاتِ" ... إلخ، فإن القرآن يؤكد أن المرأة كيان مستقل، مكلفة من قبل الله مباشرة، مسؤولة عن أعمالها، مجزية بها، دون وساطة من أحد، حتى من زوجها أو أبيها. وهذا منتهى التكريم والاستقلالية.

ج. إعلان المساواة في أصل التكليف والجزاء

الآية تعلن بكل وضوح: لا فرق بين رجل وامرأة في أصل التكليف بهذه الصفات، ولا في الجزاء المترتب عليها. فكما أن الرجل مطالب بأن يكون مسلمًا، مؤمنًا، قانتًا... فإن المرأة مطالبة بذلك كله. وكما أن الرجل ينتظر المغفرة والأجر العظيم، فإن المرأة تنتظر ذلك كله.

الأمر الثاني: الأوصاف العشرة – مقومات الشخصية المسلمة المتكاملة

الآية الكريمة تذكر عشر صفات، هي ركائز ومقومات الشخصية المسلمة المتكاملة. وهذه الصفات ليست متفرقة، بل هي مترابطة، متكاملة، يغذي بعضها بعضًا، ويمسك بعضها ببعض، بحيث لا ينفك بعضها عن بعض. إنها أشبه بأعضاء الجسد الواحد، إذا اشتكى منها عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر و الحمى.

ولنأخذ هذه الصفات واحدة واحدة، ولنستكشف معانيها وأبعادها وأثرها في بناء الفرد والمجتمع و الحضارة:

**الصفة الأولى: "المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ" – الإسلام: الاستسلام الظاهر لله

الإسلام هو الاستسلام لله، والانقياد لأوامره، والخضوع لحكمه، والإتيان بالشعائر الظاهرة: الشهادتان، و الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج. وهو أول مراتب الدين، وباب الدخول في رحمة الله.

أثر هذه الصفة في بناء الشخصية:

· الإسلام يعطي الإنسان هوية واضحة، وانتماءً راسخًا للأمة المسلمة .فالمسلم يعرف من هو، ولماذا خُلق، وإلى أين يصير.
· الإسلام يضبط السلوك الظاهر، ويمنع من الانحراف والوقوع في المحرمات.

**أثر هذه الصفة في بناء المجتمع:

· المجتمع المسلم هو المجتمع الذي يلتزم أفراده بـ شعائر الإسلام، ويظهرون الانتماء لهذا الدين.
· الإسلام يوحد الأمة على عقيدة واحدة، وشعائر واحدة، مما يقوي التماسك الاجتماعي.

**الصفة الثانية: "وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ" – الإيمان: التصديق القلبي والعمل

الإيمان هو التصديق الجازم بـالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. وهو أعلى من الإسلام، لأنه يتعلق بـ القلب والباطن، مع العمل بالجوارح.

**الفرق بين "المسلمين" و"المؤمنين" في الآية:

· "المسلمين" إشارة إلى الانقياد الظاهر) الشعائر والأعمال.(
· "المؤمنين" إشارة إلى التصديق القلبي) العقيدة والإخلاص.(

وقد جمع الله بينهما في الآية، لأن الكمال في الجمع بينهما: إسلام ظاهر، وإيمان باطن.

**أثر هذه الصفة في بناء الشخصية:

· الإيمان يملأ القلب طمأنينة وسكينة، ويربط المؤمن بربه في كل لحظة.
· الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، ويثبت عند المحن والابتلاءات.

**أثر هذه الصفة في بناء المجتمع:

· المجتمع المؤمن هو المجتمع الذي تسوده الثقة، والتعاون، والتراحم، لأن الإيمان يأمر بذلك.
· الإيمان يحصن المجتمع من الأمراض الأخلاقية) كالحسد، والغل، والكراهية(، لأنه يغرس في القلوب خشية الله ومراقبته.

**الصفة الثالثة: "وَالقانِتِينَ وَالقانِتَاتِ" – القنوت: الطاعة الدائمة مع الخشوع

القنوت هو دوام الطاعة مع الخشوع والخضوع لله. وهو أعلى من مجرد الطاعة الظاهرة، لأنه يتضمن حضور القلب، والإخلاص، والاستمرار على العبادة. قال تعالى: "أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ" (الزمر: 9).

***أثر هذه الصفة في بناء الشخصية:

· القنوت يربي في النفس الصبر والمداومة على الخير، وعدم الملل من العبادة.
· القنوت يجعل العبادة لذة ومتعة، لا ثقلا ً وواجبًا.

**أثر هذه الصفة في بناء المجتمع:

· المجتمع القانت هو المجتمع الذي يديم طاعة الله، ولا ينقطع عن العبادة، مما يجلب عليه البركات و الرحمات.
· القنوت ينشر في المجتمع روح الانضباط والالتزام، والبعد عن الفوضى.

**الصفة الرابعة: "وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ" – الصدق: مطابقة القول للواقع والنية

الصدق هو مطابقة القول للواقع، ومطابقة الباطن للظاهر. وهو أساس كل خير، وعنوان كل فضيلة. ق ال صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة" (رواه البخاري ومسلم).

**أثر هذه الصفة في بناء الشخصية:

· الصدق يكسب الإنسان ثقة الناس، ومحبتهم، واحترامهم.
· الصدق يريح الضمير، ويمنع من التناقض بين الظاهر والباطن.

**أثر هذه الصفة في بناء المجتمع:

· المجتمع الصادق هو المجتمع الذي تسوده الثقة، وتنتفي فيه الخيانة والكذب.
· الصدق أساس التعاملات) البيع، الشراء، القضاء، الشهادة(، فإذا انتشر، ازدهر الاقتصاد واستقر المجتمع.

**الصفة الخامسة: "وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ" – الصبر: حبس النفس على ما تكره

الصبر هو حبس النفس على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة. وهو نصف الإيمان، وزاد المؤمن في طريقه إلى الله. قال تعالى: "إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ" (الزمر: 10).

**أثر هذه الصفة في بناء الشخصية:

· الصبر يقوي العزيمة، ويثبت عند الشدائد، ويمنع من اليأس.
· الصبر يمكن الإنسان من تحقيق أهدافه، وتجاوز عقباته.

**أثر هذه الصفة في بناء المجتمع:

· المجتمع الصابر هو المجتمع الذي يواجه التحديات بثبات، ولا ينهار عند الأزمات.
· الصبر يمكن الأمة من تحقيق النهضة، وتجاوز مراحل الضعف.

**الصفة السادسة: "وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ" – الخشوع: سكون القلب وخضوعه لله

الخشوع هو سكون القلب وخضوعه لله، وتذلل الجوارح وسكونها. وهو روح العبادة، وسر قبولها. قال تعالى: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ" (المؤمنون: 1-2).

**أثر هذه الصفة في بناء الشخصية:

· الخشوع يجعل العبادة مؤثرة في القلب، ومغيرة للسلوك.
· الخشوع يورث السكينة والطمأنينة، ويبعد عن القلق والاضطراب.

**أثر هذه الصفة في بناء المجتمع:

· المجتمع الخاشع هو المجتمع الذي يقف أفراده بين يدي الله بقلوب خاضعة، مما ينشر الرحمة والسلام.
· الخشوع يمنع من الغرور والتكبر، ويجعل الناس متواضعين بعضهم لبعض.

"*الصفة السابعة: "وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ" – التصدق: بذل المال ابتغاء وجه الله

التصدق هو بذل المال للفقراء والمحتاجين، ابتغاء وجه الله. وهو دليل على الإيمان، وطريق إلى الجنة. قال صلى الله عليه وسلم: "الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار" (رواه الترمذي).

**أثر هذه الصفة في بناء الشخصية:

· التصدق يطهر النفس من الشح والبخل، ويربيها على الكرم والجود.
· التصدق يجلب البركة في المال، ويدفع البلاء.

**أثر هذه الصفة في بناء المجتمع:

· المجتمع المتصدق هو المجتمع الذي يسوده التكافل والتراحم، ويختفي فيه الفقر والحاجة.
· التصدق يقلل الفوارق الطبقية، ويمنع الحسد والكراهية بين الأغنياء والفقراء.

**الصفة الثامنة: "وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ" – الصوم: الإمساك عن المفطرات تعبدًا لله

الصوم هو الإمساك عن المفطرات (الطعام، الشراب، الشهوة) من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، تعبدًا لله. وهو عبادة عظيمة، وسر بين العبد وربه. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (البقرة: 183).

**أثر هذه الصفة في بناء الشخصية:

· الصوم يربي الإرادة، ويقوي العزيمة، ويعلم الصبر.
· الصوم يذكر بنعم الله، ويدفع إلى الشكر.

**أثر هذه الصفة في بناء المجتمع:

· المجتمع الصائم هو المجتمع الذي يشعر أفراده بـ جوع الفقراء، فيرق قلبهم لهم، ويتصدقون عليهم.
· الصوم يوحد الأمة في شهر رمضان، ويجعلهم أمة واحدة، تصوم وتفطر معًا.

**الصفة التاسعة: "وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ" – حفظ الفرج: العفاف والطهارة

حفظ الفرج هو صيانته عن الحرام (الزنا، واللواط، والاستمناء...)، والاكتفاء بما أحل الله (الزواج، وملك اليمين). وهو من أعظم مظاهر العفة والطهارة. قال تعالى: "وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ" (المؤمنون: 5-6).

**أثر هذه الصفة في بناء الشخصية:

· حفظ الفرج يحمي الفرد من الأمراض) الحسية والمعنوية(، ويصون كرامته.
· حفظ الفرج يورث الطهارة والنقاء، ويرفع المنزلة عند الله.

**أثر هذه الصفة في بناء المجتمع:

· المجتمع العفيف هو المجتمع الذي تنتفي فيه الفواحش، وتستقر فيه الأسر، وتحفظ فيه الأنساب.
· حفظ الفرج يحمي المجتمع من الأمراض الجنسية، والتفكك الأسري، وضياع الأنساب.

**الصفة العاشرة: "وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ" – ذكر الله: اتصال القلب بالله

ذكر الله هو اتصال القلب بالله، واستحضار عظمته، والثناء عليه، ودعاؤه. وهو غذاء الروح، وحياة القلب. قال تعالى: "الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ" (الرعد: 28).

**أثر هذه الصفة في بناء الشخصية:

· ذكر الله يملأ القلب طمأنينة وسكينة، ويطرد الوساوس والهموم.
· ذكر الله يقوي الصلة بالله، ويجعل المؤمن في معية الله.

**أثر هذه الصفة في بناء المجتمع:

· المجتمع الذاكر هو المجتمع الذي يمتلئ بـ ذكر الله، وتلاوة القرآن، والدعاء .وهذا يجلب البركات، ويدفع النقم.
· ذكر الله يوحد الأمة على كلمة التوحيد، ويجعلهم أمة واحدة، تذكر ربها في كل حين.

الأمر الثالث:
الترابط والتكامل بين الأوصاف العشرة – منظومة متكاملة لا تتجزأ

هذه الأوصاف العشرة ليست صفات منعزلة، بل هي منظومة متكاملة، يغذي بعضها بعضًا، ويمسك بعضها ببعض. إنها أشبه بأعضاء الجسد الواحد، إذا اشتكى منها عضو، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. أو أشبه بالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضًا.

**كيف يترابط هذه الأوصاف؟

· الإسلام هو الباب الذي يدخل منه الإنسان إلى رحمة الله.
· الإيمان هو الروح التي تحيي هذا الإسلام، وتجعله مقبولا ً عند الله.
· القنوت هو المداومة على الطاعة، التي هي ثمرة الإيمان.
· الصدق هو اللسان الذي ينطق بـ الإيمان، والقلب الذي يخلص لله.
· الصبر هو الدرع الذي يحمي هذه الصفات كلها، ويثبت عليها عند المحن.
· الخشوع هو القلب الذي يخضع لله، في الصلاة والذكر وسائر العبادات.
· التصدق هو اليد التي تبذل المال، ثمرة للإيمان والصدق والصبر.
· الصوم هو الجوع الذي يذكر بنعم الله، ويدفع إلى التصدق والخشوع.
· حفظ الفرج هو العفاف الذي يصون هذه الصفات كلها، ويمنع من التلوث.
· ذكر الله هو الوقود الذي يغذي هذه الصفات كلها، ويبقيها حية وفاعلة.

فمن جمع هذه الصفات، فقد استكمل مقومات الشخصية المسلمة، وأصبح لبنة صالحة لبناء المجتمع و الحضارة.

الأمر الرابع:
أثر هذه الأوصاف في بناء المجتمع المسلم والحضارة الإسلامية بعيدًا عن كيانات الجاهلية

هذه الأوصاف العشرة ليست مجرد صفات فردية، بل هي ركائز أساسية لبناء المجتمع المسلم، و الحضارة الإسلامية، بعيدًا عن كيانات الجاهلية، ومتاهات الانحراف الديني، وقيود العادات والتقاليد

السيئة.

.١مواجهة كيانات الجاهلية

كيانات الجاهلية (سواء كانت جاهلية قديمة أو حديثة) تقوم على أضداد هذه الصفات:

· بدل الإسلام: الكفر والشرك والإلحاد.
· بدل الإيمان: الشك والريبة والنفاق.
· بدل القنوت: التمرد والعصيان واتباع الهوى.
· بدل الصدق: الكذب والخداع والتضليل.
· بدل الصبر: الجزع واليأس والانهيار.
· بدل الخشوع: الغرور والتكبر والاستعلاء.
· بدل التصدق: الشح والبخل والاحتكار.
· بدل الصوم: الانغماس في الشهوات والملذات.
· بدل حفظ الفرج: الانحلال والفواحش والزنا.
· بدل ذكر الله: الغفلة واللهو والنسيان.

فإذا تمسك المسلمون بهذه الأوصاف العشرة، فإنهم يقضون على كيانات الجاهلية من جذورها، ويقيمون مجتمعًا إسلاميًا نظيفًا، طاهرًا، قويًا.

.٢الخروج من متاهات الانحراف الديني والعادات السيئة

المتاهات الدينية (كالبدع، والخرافات، والغلو، والتطرف) والعادات والتقاليد السيئة (كالعنصرية، والقبلية، والطبقية، والظلم) كلها تنشأ من غياب هذه الأوصاف، أو الخلل فيها. فإذا التزم المسلمون بهذه الأ وصاف، فإنهم:

· بالإسلام والإيمان: يتبرؤون من كل بدعة وخرافة، ويلتزمون بالكتاب والسنة.
· بالصدق والعدل: يقضون على الكذب والظلم والمحاباة.
· بالصبر والقنوت: يواجهون التحديات بثبات، ولا ينجرفون وراء الدعوات الهدامة.
· بالتصدق والتكافل: يقضون على الفقر والحاجة، ويذيبون الفوارق الطبقية.
· بحفظ الفرج والعفاف: يحمون المجتمع من الفواحش والأمراض.

.٣المساواة بين الرجل والمرأة في بناء الحضارة

الآية الكريمة تساوي بين الرجل والمرأة في كل هذه الصفات، مما يدل على أن المرأة شريكة كاملة للرجل في بناء الحضارة. فهي ليست هامشية، ولا تابعة، بل هي عنصر فاعل، وركيزة أساسية في البناء الحضاري.

دور المرأة في هذه الأوصاف:

· المسلمة والمؤمنة: تعبد الله، وتلتزم بشرعه، وتدعو إليه.
· القانتة: تداوم على الطاعة، وتربي أبناءها على القنوت.
· الصادقة: تكون قدوة في الصدق، وتنشئ جيلا ً صادقًا.
· الصابرة: تصبر على مشاق الحياة، وتربي أبناءها على الصبر.
· الخاشعة: تخشع في صلاتها، وتملأ بيتها خشوعًا وإيمانًا.
· المتصدقة: تنفق من مالها في سبيل الله، وتعلم أبناءها الكرم.
· الصائمة: تصوم رمضان، وتصوم النوافل، وتعود أبناءها على الصيام.
· الحافظة فرجها: تصون عرضها، وتحافظ على شرفها، وتكون قدوة في العفاف.
· الذاكرة الله كثيرًا: تملأ بيتها ذكرًا وقرآنًا، وتربي أبناءها على ذكر الله.

وهكذا، فإن المرأة المسلمة – بهذه الأوصاف – هي صانعة الأجيال، ومربية الرجال، وبانية الحضارة من داخل بيتها، قبل أن تخرج إلى المجتمع. وهي شريكة الرجل في كل ميدان من ميادين الخير.

الأمر الخامس:
"أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" – الجزاء الأوفى على هذه الأوصاف

بعد أن ذكر الله هذه الأوصاف العشرة، ختم الآية ببيان الجزاء الذي أعده لأهلها: "أَعَدَّ اللهُ لهُم مَّغفِرَةً وأَجْرًا عَظِيمًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الختم

١."أَعَدَّ" – الإعداد المسبق والعناية الفائقة

"أَعَدَّ" – من الإعداد والعتاد – تفيد أن هذا الجزاء مُعَدٌ مسبقًا، ومُهيّأ بعناية فائقة .فالله هيأ لأهل هذه الصفات مغفرة وأجرًا عظيمًا، قبل أن يعملوا أعمالهم .وهذا من سعة رحمته وكرمه.

٢."اللهُ" – اسم الجلالة: مصدر المغفرة والأجر

الجزاء صادر من الله، مالك الملك، رب العالمين. وهذا يكفي لبيان عظم هذا الجزاء وجلالة شأنه.

٣."لهُم" – لام الاختصاص: الجزاء خاص بأهل هذه الصفات

"لهُم" تفيد أن هذا الجزاء خاص بمن اتصف بهذه الأوصاف العشرة .أما من تخلى عنها، فلا نصيب له في هذا الوعد الإلهي.

٤."مَّغفِرَةً" – تنكير للتعظيم: مغفرة عظيمة

"مَّغفِرَةً" نكرة للتعظيم، فهي مغفرة عظيمة، تشمل كل الذنوب، وتمحو كل السيئات.

٥."وأَجْرًا عَظِيمًا" – وصف الأجر بالعظم: مبالغة في التعظيم

وصف الأجر بأنه "عَظِيم" (مع تنكير "أجرًا" للتعظيم) يدل على أن هذا الأجر يفوق الوصف، ويجل عن الإدراك. إنه الجنة وما فيها من نعيم مقيم، ورضوان الله الأكبر، والنظر إلى وجهه الكريم.

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الجزاء

أ. تحفيز المؤمنين والمؤمنات على الاتصاف بهذه الأوصاف

الآية تضع حافزًا عظيمًا للمؤمنين والمؤمنات على الاتصاف بهذه الأوصاف العشرة. فهم يعلمون أن ثمرة هذه الصفات هي المغفرة والأجر العظيم، الذي لا يدانيه شيء.

ب. أن الجزاء على قدر العمل

الآية تدل على أن الجزاء عظيم، لأن العمل عظيم. فمن اتصف بهذه الأوصاف العشرة، فقد بذل جهدًا كبيرًا، وضحى كثيرًا، فاستحق هذا الأجر العظيم.

ج. فتح باب الأمل للمقصرين

"مَّغفِرَةً" تفتح باب الأمل أمام المقصرين في هذه الأوصاف .فالله يغفر لمن تاب وأناب، ويسامح من أخطأ وزل .فلا ييأس مؤمن من رحمة الله، ولو قصر في بعض هذه الصفات.

الأمر السادس:
كيف نعيش هذه الآية في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.تربية النفس على هذه الأوصاف العشرة

التطبيق العملي:

· خصص وقتًا يوميًا لمراجعة نفسك في ضوء هذه الأوصاف العشرة .اسأل نفسك: "أين أنا من الإسلام ؟ من الإيمان؟ من القنوت؟ من الصدق؟..."
· ضع خطة عملية لتقوية كل صفة من هذه الصفات في نفسك .مثلا ً: لتقوية الصدق: تجنب الكذب تمامًا، ولو في المزاح .لتقوية الصبر: تدرب على الصبر على المكاره اليومية) زحام، تأخير، كلمة جارحة.(...
· ادعُ الله أن يرزقك هذه الصفات ."اللّهم ارزقنا الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، و الخشوع، والتصدق، والصوم، وحفظ الفرج، وذكرك كثيرًا".

.٢تربية الأبناء على هذه الأوصاف

التطبيق العملي:

· علم أبناءك هذه الأوصاف العشرة، واشرح لهم معانيها وأهميتها.
· كن قدوة لهم في التزامك بهذه الصفات .فالأطفال يتعلمون بالقدوة أكثر مما يتعلمون بالكلام.
· كافئهم عندما يتحلون بهذه الصفات) مثلا ً: إذا صدق في حديثه، أو صبر على أذى، أو تصدق من مصروفه.(

.٣إشاعة هذه الأوصاف في المجتمع

التطبيق العملي:

· انشر ثقافة هذه الأوصاف بين أهلك وأصدقائك وزملائك في العمل.
· كن داعية إلى هذه الصفات بسلوكك قبل لسانك .فإذا رأى الناس صدقك وصبرك وعفافك، اقتدوا بك.
· شارك في الأعمال الخيرية التي تعزز هذه الصفات في المجتمع) مثل: جمع التبرعات للفقراء، تنظيم حلقات الذكر، تشجيع الشباب على الصوم.(...

.٤مواجهة كيانات الجاهلية الحديثة بهذه الأوصاف

التطبيق العملي:

· الجأ إلى هذه الأوصاف لتكون درعًا واقيًا لك ولأسرتك من غزو الجاهلية الحديثة) الإباحية، الإلحاد، الانحلال.(...
· ابنِ مجتمعك الصغير) أسرتك (على هذه القيم، ليكون حصنًا حصينًا في وجه التيارات المنحرفة.
· لا تنجرف وراء الدعوات الهدامة التي تزين الرذيلة، وتشوه الفضيلة .تمسك بهذه الأوصاف، واثبت عليها، ولو خالفك الناس.

.٥تمكين المرأة المسلمة بهذه الأوصاف

التطبيق العملي:

· أيتها المرأة المسلمة: اعتزي بهذه الأوصاف، وتحلي بها، وكوني قدوة لغيرك .أنت شريكة الرجل في بناء الحضارة، فلا تهتزي أمام دعوات التحرر المزعومة التي تريد أن تخرجك من عفتك وكرامتك.
· أيها الرجل المسلم: أعن المرأة على الاتصاف بهذه الأوصاف .شجعها، وادعمها، وقدر دورها في البيت والمجتمع .ولا تحتقر جهودها، ولا تهمش مكانتها.
سابعًا: القيم المستفادة من الآية 35

القيمة تجلياتها في الآية
المساواة بين الرجل والمرأة في أصل التكليف والجزاء "المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ... أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا".
تكامل الأوصاف العشرة وترابطها الصفات العشرة منظومة متكاملة، يغذي بعضها بعضًا.
الإسلام والاستسلام لله "المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ" – أساس الدين.
الإيمان والتصديق القلبي "وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ" – روح العبادة.
القنوت والمداومة على الطاعة "وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ" – دوام العبادة بخشوع.
الصدق في القول والعمل "وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ" – أساس الثقة.

الصبر على الطاعات والمحن "وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ" – زاد المؤمن.
الخشوع والخضوع لله "وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ" – روح الصلاة.
التصدق وبذل المال "وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ" – تكافل المجتمع.
الصوم وتربية الإرادة "وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ" – تقوى وصبر.
حفظ الفرج والعفاف "وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ" – طهارة المجتمع.
ذكر الله الكثير "وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ" – حياة القلب.
المغفرة والأجر العظيم "أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" – الجزاء الأوفى.

خاتمة: في رحاب الشخصية المسلمة المتكاملة

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تمثل دستور الشخصية المسلمة المتكاملة، وقاعدة بناء المجتمع والحضارة الإسلامية. إنها آية فريدة في نظمها ودلالاتها، تجمع عشر صفات، وتكررها مرتين: مرة للرجال، ومرة للنساء، لتعلن المساواة الكاملة في القيم والمسؤوليات والجزاء.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· الشخصية المسلمة المتكاملة هي التي تجمع هذه الأوصاف العشرة، وتتربى عليها، وتثبت عندها.
· المجتمع المسلم لا يمكن أن ينهض إلا إذا اتصف أفراده بهذه الصفات.
· الحضارة الإسلامية لا تقوم على الماديات فقط، بل تقوم على هذه القيم والأخلاق.
· المرأة شريكة كاملة للرجل في حمل الأمانة، وأداء الرسالة، وبناء الحضارة.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نربي أنفسنا وأهلينا على هذه الأوصاف العشرة، وأن نجعلها دستور حياتنا، حتى نفوز بـ المغفرة والأجر العظيم، ونكون أهلا ً لـ حمل الأمانة، وأداء الخلافة في الأ رض.

اللهم ارزقنا الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، وحفظ الفرج، وذكرك كثيرًا. اللهم ارزق نساءنا من هذه الصفات مثل ما ترزق رجالنا. اللهم أعد لنا مغفرة وأجرًا عظيمًا. اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

المبحث الثاني

اعلان الحاكميه لله

تفسير آية "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا") الأحزاب: (36 – ميثاق التسليم المطلق وإعلان العبودية الكاملة

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني العظيم، الذي يرسم للمؤمنين والمؤمنات أساس العلاقة مع الله ورسوله، ويضع حدًا فاصلًا بين الإيمان الحقيقي والادعاء، وبين العبودية الصادقة و التمرد الخفي .إنها آية تنزل كالسيف البتار على كل نزعة استقلالية في القلب، وعلى كل رغبة ذاتية تتعارض مع حكم الله ورسوله.

يقول الله تعالى: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا"

إنها ليست مجرد آية تتلى في المحاريب، بل هي وثيقة إعلان العبودية لله رب العالمين، وميثاق التسليم المطلق لحكمه وحكم رسوله .إنها الآية التي تجيب على أعظم سؤال في حياة المؤمن: "من له الحق في أن يقرر مصيري؟"، وتجيب بكل وضوح: لا خيرة لك أيها المؤمن إذا قضى الله ورسوله أمرًا.

هذه الآية نزلت في سياق خاص، هو سياق زواج زينب بنت جحش من زيد بن حارثة رضي الله عنهما .زينب كانت امرأة قرشية من بيت حسب ونسب، وزيد كان مولى للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان يسمى "زيد بن محمد" قبل أن يبطل الإسلام التبني .فلما خطبها النبي لزيد، امتنعت زينب وأخوها عبد الله، استكبارًا لنسبها على نسب زيد .فنزلت هذه الآية لتضع الحد الفاصل بين الإيمان الحقيقي والادعاء، ولتعلن أن قضاء الله ورسوله هو الحكم النهائي الذي لا مجال للاعتراض عليه، ولا للخيرة معه.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، وكأننا نقف بين يدي الله نسمع هذا الإعلان العظيم، في زمن كثرت فيه الاختيارات، وتشعبت فيه السبل، وتجرأ فيه كثيرون على رد أحكام الله بحجة "الحرية الشخصية" و"مواكبة العصر".
الأمر الأول:
"وَمَا كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ" – نفي مطلق مؤكد وتعميم شامل

اللمسة البيانية الأولى: "وَمَا كانَ" – أقوى صيغ النفي في العربية

قف معي عند هذه الصيغة العجيبة: "وَمَا كانَ لِمُؤْمِنٍ..." .إنها ليست مجرد نفي عادي، بل هي أقوى صيغ النفي في لغة العرب، وهي تفيد النفي المؤكد والاستحالة المطلقة.

.١دلالة "ما كان" في القرآن

تأتي صيغة "مَا كانَ لِقَالٍ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا" في القرآن للتعبير عن أمر مستحيل، لا يمكن أن يقع بحال من الأحوال .ومثال ذلك:

· قوله تعالى عن نبيه: "وَمَا كانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ") آل عمران: .(161 أي: يستحيل على النبي أن يخون أو يغل من الغنيمة.
· وقوله: "مَا كانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ") مريم: .(35 أي: يستحيل على الله أن يكون له ولد.

فكأن الآية تقول: "يستحيل، ولا يمكن أن يقع، ولا يتصور بحال، أن يكون لمؤمن أو مؤمنة حق الا ختيار إذا قضى الله ورسوله أمرًا".

هذه الصيغة القوية تصدم الوجدان، وتوقظ القلب من غفلته .إنها تقول للمؤمن: "انتبه! أنت تحمل اسم الإيمان، فكيف يمكن أن تفكر في الاعتراض على حكم الله؟ هذا مستحيل في منطق الإيمان!".

.٢دلالة "لِمُؤْمِنٍ" – اللام المفيدة للاستحقاق والاختصاص

اللام في "لِمُؤْمِنٍ" هي لام الاختصاص أو لام الاستحقاق .والمعنى: "ليس من حق المؤمن، ولا مما يليق به، ولا مما ينبغي لمقامه الإيماني أن يكون له الخيرة مع قضاء الله ورسوله".

فكأن الآية تقول: "إن الإيمان نفسه – الذي تنتسب إليه – هو الذي ينفي عنك حق الاعتراض، ويوجب عليك التسليم المطلق .فإن كنت مؤمنًا حقًا، فاعلم أن التسليم لحكم الله ورسوله هو أول لوازم إيمانك وأظهر علاماته".

اللمسة البيانية الثانية: "لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ" – تعميم الحكم وشموله للجميع

لاحظ كيف جمعت الآية بين المذكر والمؤنث: "لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ" .هذا الجمع له دلالات عظيمة:

.١شمول الحكم لجميع المكلفين

الآية تؤكد أن هذا الحكم – وهو وجوب التسليم لحكم الله ورسوله – ليس خاصًا بالرجال دون النساء، ولا بالنساء دون الرجال، بل هو عام يشمل كل مؤمن ومؤمنة، في كل زمان ومكان .فكما أن زينب بنت جحش – وهي امرأة – خوطبت بهذا الحكم، فإن كل مؤمنة إلى يوم القيامة مخاطبة به.

وهذا فيه رد على دعاوى خاطئة قد تروج في بعض الأوساط، مثل: "النساء غير مطالبات بما يطالب به الرجال في بعض أحكام الدين"، أو "للمرأة خصوصية تسمح لها بالاعتراض على بعض الأحكام" .الآ ية تقطع هذا الطريق: الكل سواء في وجوب التسليم لحكم الله ورسوله.

.٢نفي خاص بعد نفي عام: تأكيد وتقرير

العطف بـ "وَلَا" لتأكيد النفي: "لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ" .فهو ينفي الحكم عن المؤمن أولًا، ثم يؤكد نفيه عن المؤمنة .وهذا أبلغ من قوله: "للمؤمنين والمؤمنات"، لأنه يفرد كل جنس بالذكر، ويؤكد نفيه عنه، ثم يعطف عليه الآخر، فيكون أوقع في النفس وأثبت في الذهن.

.٣رفع شأن المرأة وإثبات مسؤوليتها الكاملة

في هذه الآية – كما في غيرها – مساواة تامة بين الرجل والمرأة في أصل التكليف ووجوب التسليم .وهذا يدل على أن المرأة المسلمة هي كيان مكلف، مسؤول مسؤولية كاملة أمام الله، مطالب بالطاعة والامتثال مثلها مثل الرجل .وهذا تشريف لها، لا انتقاص من قدرها، فـالله يخاطبها مباشرة، ويكلفها مباشرة، ويحاسبها على إيمانها وطاعتها.

الرسائل التربوية والنفسية من صدر الآية

أ .الإيمان الحقيقي يبدأ حيث تنتهي الأهواء

الآية تضع مقياسًا دقيقًا للإيمان الحقيقي: أن تنتهي رغباتك وأهواؤك عند حدود أمر الله ورسوله . فليس الإيمان مشاعر قلبية فقط، ولا كلمات تقال باللسان، بل هو موقف عملي يتجلى في التسليم وا لانقياد وترك الاختيار عند ورود الأمر الإلهي.

مثال من الواقع:
قد يقول رجل: "أنا مؤمن، أصلي وأصوم"، لكنه إذا عرضت عليه صفقة تجارية محرمة فيها ربح كبير، قال: "الظروف صعبة، وهذه فرصة لا تعوض، وسأتوب لاحقًا" .هذا الرجل لم يحقق معنى الآية، لأنه قدم خيرته على خيرة الله.

وقد تقول امرأة: "أنا مؤمنة، وأحب الله ورسوله"، لكنها إذا دُعيت إلى الالتزام بالحجاب الشرعي الكامل، قالت: "المجتمع لم يتقبل هذا بعد، وسألتزم تدريجيًا" .هذه المرأة لم تحقق معنى الآية، لأنها فضلت اختيارها وتقديرها على أمر الله القاطع.

ب .مبدأ "الاستحالة الأخلاقية" في حق المؤمن

الآية تغرس في نفس المؤمن ما يمكن أن نسميه "الاستحالة الأخلاقية" .فكما يستحيل أن يطير الإ نسان بلا جناحين، وكما يستحيل أن يجتمع النور والظلام في مكان واحد، فإنه يستحيل أخلاقيًا وإيمانيًا أن يكون مؤمن حقًا، ثم يعترض على حكم الله ورسوله، أو يقدم اختياره على اختيار الله.

هذا الشعور بـ "الاستحالة" هو حاجز نفسي قوي يمنع المؤمن حتى من التفكير في مخالفة أمر الله . إنه يجعل الطاعة أمرًا طبيعيًا وتلقائيًا، تمامًا كما يتنفس الإنسان دون أن يفكر في ذلك.

الأمر الثاني:
"إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا" – تحديد مناط التسليم

بعد أن قررت الآية استحالة الخيرة للمؤمن، جاءت لتحدد الموضع الذي يجب فيه هذا التسليم المطلق: "إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا" .فما معنى القضاء هنا؟ وما الفرق بين قضاء الله وقضاء رسوله؟

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا"

.١"إِذَا" – أداة الشرط: ربط التسليم بوجود القضاء

"إذا" أداة شرط تفيد تحقق الوقوع .فالمعنى: "في كل وقت، وفي كل زمان، إذا تحقق ووقع أن قضى الله ورسوله أمرًا، ففي تلك اللحظة يسقط حق المؤمن في الاختيار، ويجب عليه التسليم".

وهذا يعني أن التسليم ليس مطلقًا في كل شيء، بل هو مقيد بما قضاه الله ورسوله .فالأمور التي لم يقض الله ورسوله فيها أمرًا، ترك الله للمؤمن حرية الاختيار فيها ضمن الضوابط الشرعية العامة . وهذا من رحمة الله وتيسيره.

.٢"قَضَى" – معنى القضاء ودلالته على الحتم والبت

لفظة "قَضَى" في اللغة تدل على الفراغ من الأمر وإحكامه والبت فيه .فقضاء الله هو حكمه النافذ، وأمره البتّي الذي لا مرد له.

والآية تجمع بين قضاء الله) في القرآن (وقضاء رسوله) في السنة .(فالحكم الشرعي الذي جاء في كتاب الله، أو ثبت في سنة رسوله الصحيحة، هو قضاء يجب التسليم له.

.٣"اللهُ وَرَسُولُهُ" – الجمع بين الله ورسوله: لماذا؟

قد يسأل سائل: لماذا قال: "قضَى اللهُ وَرَسُولُهُ"، مع أن القضاء الحق هو قضاء الله وحده؟

والجواب من وجوه:

· تشريف للرسول: رفع الله ذكر رسوله بأن قرن قضاءه بقضائه، وأوجب طاعته كما أوجب طاعته هو سبحانه.
· بيان أن قضاء الرسول هو قضاء الله: فما يقضيه الرسول من أحكام، فهو بوحي من الله، كما قال تعالى: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ") النجم:3 - .(4فطاعة الرسول هي طاعة الله.
· تأكيد وجوب التسليم للسنة: كما يجب التسليم للقرآن، يجب التسليم للسنة الصحيحة .فلا يصح أن يقول قائل: "أنا أطيع الله في القرآن، ولا ألزم بسنة الرسول".

.٤"أَمْرًا" – تنكير الأمر: شمول كل قضاء مهما كان

لفظة "أَمْرًا" جاءت نكرة، والتنكير هنا يفيد العموم والشمول .أي: أي أمر كان، كبيرًا أو صغيرًا، في العبادات أو المعاملات، في شؤون الأسرة أو المجتمع، إذا قضى الله ورسوله فيه بحكم، فقد سقط حق المؤمن في الاختيار.

فليس هناك "أمور هامشية" يجوز الاعتراض فيها، و"أمور أساسية" يجب التسليم فيها .بل كل ما ثبت فيه حكم الله ورسوله، فالتسليم فيه واجب، والاعتراض عليه حرام.

الرسائل التربوية والنفسية من "إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا"

أ .التسليم ليس في كل شيء، بل في حدود القضاء

هذه الآية توازن بين حرية الإنسان وعبوديته لله .فالإنسان حر في أن يختار طعامه، وشرابه، ومسكنه ، ومهنته، وزوجه، ضمن الضوابط الشرعية .ولكن إذا جاء أمر الله ورسوله في مسألة ما، فقد انتهت حريته، ووجب عليه التسليم.

وهذا يعلمنا ألا تسقط حكم أنفسنا على الأمور التي ليس فيها قضاء إلهي .فبعض الناس يتحرجون في أمور مباحة، ويظنون أن "الورع" فيها هو تركها! وهذا تشدد لم يأمر به الله .بينما يتساهلون في أمور قضى الله فيها بحكم! وهذا تفريط خطير.

مثال تطبيقي:

· الزواج من امرأة معينة: إذا لم يكن هناك مانع شرعي، فالأصل الإباحة، وللمؤمن أن يختار من يشاء . فإذا قال له أحد: "لا تتزوجها، لأنها ليست من مستواك الاجتماعي"، فهذا ليس قضاء من الله، بل هو رأي بشري، لا يجب عليه طاعته.
· أما إذا كانت المرأة محرمة عليه) مثل أخته من الرضاعة(، فهذا قضاء من الله، ولا مجال للاختيار هنا.

ب .الفرق بين القضاء الشرعي والقضاء الكوني

من المهم التفريق بين نوعين من القضاء:

· القضاء الشرعي: وهو أمر الله ونهيه) افعل كذا، لا تفعل كذا .(هذا هو الذي يجب التسليم له طوعًا.
· القضاء الكوني: وهو وقوع الأقدار) مرض، موت، خسارة .(هذا يجب الرضا به والصبر عليه، وليس فيه "اختيار" أصلًا.

الآية تتحدث عن القضاء الشرعي، لأنها تقول: "أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ"، والخيرة لا تكون إلا في أمر قبل الفعل، أي: قبل أن يختار الإنسان الامتثال أو عدمه.

الأمر الثالث:
"أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ" – نفي حق الاختيار عند ورود الأمر

هذا هو محل النفي، وهو جوهر الآية .بعد أن نفت الآية – بصيغة الاستحالة – أن يكون للمؤمن حق الاعتراض، بينت ما هو المنفي بالضبط: "أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ".

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ"

.١"أَن يَكُونَ" – المصدر المؤول: نفي الفعل وجميع متعلقاته

"أن يكون" مع اسمها وخبرها تؤول بمصدر، والتقدير: "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة كونُ الخيرة لهم" . وهذا النفي أقوى من نفي الفعل فقط، لأنه ينفي أصل وجود الخيرة وكونها، لا مجرد وقوعها.

.٢"لَهُمُ" – اللام المفيدة للاختصاص والملكية

اللام في "لَهُمُ" تفيد الملكية والاختصاص .فكأن الآية تنفي أن تكون الخيرة ملكًا لهم، أو حقًا خاصًا بهم، أو أمرًا راجعًا إليهم.

فالمؤمن – في منطق الإيمان – لا يملك حق الاختيار إذا قضى الله ورسوله أمرًا .الخيرة في هذه الحالة ملك لله وحده، وهو الذي يختار لعباده ما هو خير لهم: "وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ") القصص:.(68

.٣"الخِيَرَةُ" – مصدر دال على التخيير والاختيار

"الخِيَرَة" بمعنى التخيير والاختيار .وهي اسم مصدر من "اختار" .فالمعنى: ليس للمؤمن حق الاختيار، ولا حق التخيير بين البدائل، إذا كان هناك قضاء إلهي في المسألة.

.٤"مِنْ أَمْرِهِمْ" – بيان مجال الخيرة المنفية

"مِنْ أَمْرِهِمْ" أي: في شأنهم الخاص، وفيما يتعلق بهم .والآية تقول: "ليس لهم الخيرة في أمورهم الخاصة إذا قضى الله ورسوله فيها أمرًا" .فالأمور التي لم يقضِ الله فيها بأمر، لهم فيها الخيرة.

وهذا يدل على أن الشريعة الإسلامية لم تأتِ لتلغي حرية الإنسان بالكلية، بل لت تهذبها وت وجهها . فالإنسان حر في دائرة المباحات، لكنه عبد محض في دائرة الأوامر والنواهي.

الرسائل التربوية والنفسية من نفي الخيرة

أ ."الخيرة" الحقيقية هي في اختيار الله، لا في اختيار العبد

هذه الآية تصل بنا إلى حقيقة إيمانية عظيمة: أن اختيار الله للعبد هو الخير كله، حتى لو رأى العبد بظاهره خلاف ذلك.

قصة زينب بنت جحش – سبب نزول الآية – تثبت هذا المعنى بجلاء .لقد امتنعت زينب في البداية عن الزواج من زيد بن حارثة، استكبارًا لنسبها .ولكن بعد أن نزلت الآية، سلمت لأمر الله ورسوله، وتزوجت زيدًا .ثم ماذا حدث؟ طلقها زيد، ثم زوجها الله من النبي صلى الله عليه وسلم من فوق سبع سماوات، بلا ولي ولا شهود! وصارت أمًا للمؤمنين، وزوجة لسيد المرسلين في الجنة.

أرأيت كيف أن التسليم لأمر الله فتح لها أبوابًا من الخير لم تكن تحلم بها؟! إنها الخيرة الحقيقية، التي لا يراها الإنسان بعقله القاصر، ولكن لطف الله وخبرته يدخرانها لمن سلم وانقاد.

مثال من الواقع المعاصر:

· شاب يريد الزواج من فتاة، لكن والديه يعترضان لسبب غير شرعي .فيطيعهما ويتركها طاعة لله وبرًا بوالديه .بعد سنوات، يلتقي بامرأة أخرى، صالحة، تقية، تنجب له أبناء صالحين، ويعيش معها في سعادة وهناء .هذا هو الخير الذي اختاره الله له، وكان أفضل مما اختاره لنفسه.
· شاب يرفض وظيفة فيها شبهة حرام، رغم راتبها المغري .بعد فترة، تأتيه وظيفة حلال، براتب أقل

لكنه مبارك، ويفتح الله عليه من حيث لا يحتسب.

ب .إسقاط الخيرة عند القضاء: قمة العبودية والحرية في آن واحد

قد يظن البعض أن إسقاط الخيرة هو إلغاء للحرية وإذلال للإنسان .ولكن الحقيقة – في منطق الإ يمان – عكس ذلك تمامًا:

· هو قمة العبودية لله: لأن العبد يعلن أنه لا يملك من أمره شيئًا، وأن المالك الحقيقي هو الله، و المدبر الحقيقي هو الله، والخيرة لله وحده.
· وهو قمة الحرية في نفس الوقت: لأن الإنسان يتحرر من عبودية هواه، وقيود شهواته، وضغط المجتمع، ليصبح عبدًا لله وحده .وهذه هي الحرية الحقيقية: أن تكون حرًا من كل عبودية إلا عبودية الله.

تطبيق نفسي:
عندما يأمر الله المرأة بالحجاب، فهي تسقط خيرتها في اختيار ملابسها أمام الأجانب، وتلتزم بما أمر الله .هذا الإسقاط هو تحرر من عبودية الموضة، وتحرر من نظرة المجتمع، وتحرر من ضغط الشهوات . إنها تصبح حرة لأنها عبد لله وحده.

الأمر الرابع:
"وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلّ ضَلَالًا مُبِينًا" – بيان عاقبة رفض التسليم

بعد أن قررت الآية استحالة الخيرة للمؤمن عند قضاء الله ورسوله، جاءت بهذا الوعيد الشديد لمن عصى ورفض التسليم .وهذا هو الجزاء المترتب على مخالفة هذا الأصل العظيم.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلّ ضَلَالًا مُبِينًا"

١."وَمَن يَعْصِ" – من الشرطية: تعميم الوعيد

"مَن" من أدوات الشرط، وهي تفيد العموم .أي: أي شخص – مؤمنًا كان أو غير مؤمن – يعصِ الله ورسوله بعد أن بلغه الأمر، فإنه يستحق هذا الوعيد.

٢."يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ" – وصف الفعل بأنه "عصيان" لا مجرد "مخالفة"

لفظة "يَعْصِ" تحمل دلالة التمرد والخروج عن الطاعة .إنها ليست مجرد "مخالفة" عابرة، بل هي عصيان متعمد، ورفض للانقياد .وهذا يناسب سياق الآية، حيث كان موقف زينب وأخيها موقف استكبار وترفع، وليس مجرد تردد.

٣."فَقَدْ ضَلّ" – الفاء الرابطة للجزاء: بيان النتيجة المباشرة

الفاء في "فَقَدْ ضَلّ" هي فاء الجزاء، وهي تربط بين العصيان والضلال ربطًا مباشرًا .فمن يعصِ الله ورسوله، فإنه يضل في الحال، ولو لم يشعر بذلك .فالمعصية ضلال في ذاتها، وهي تؤدي إلى ضلال أكبر.

٤."ضَلَالًا مُبِينًا" – وصف الضلال بأنه "مبين"

وصف الضلال بأنه "مُبِين" – أي: واضح بين، لا خفاء فيه – له دلالتان:

· دلالة على شدة الضلال: فهو ليس ضلالًا خفيًا يمكن التستر عليه، بل هو ضلال واضح، يعرفه كل عاقل.
· دلالة على وضوح الحق قبل المعصية: فمن يعصِ الله ورسوله بعد أن تبين له الحق ووضح له الأمر ، فإنه يقع في ضلال مبين، لأنه ترك الهدى الواضح واتبع الهوى.

لماذا سمي رفض التسليم "ضلالًا مبينًا"؟

قد يسأل سائل: لماذا كان رفض التسليم لحكم الله ورسوله ضلالًا وليس مجرد خطأ أو زلل؟

والجواب: لأن الهداية الحقيقية هي في اتباع أمر الله ورسوله .فمن رفض هذا الأمر، فقد فارق الهدى ووقع في الضلال .والضلال هنا مبين، لأن:

· الحق واضح: فالآية تتحدث عن حالة قضاء الله ورسوله أمرًا، أي أن الحكم الشرعي قد بلغ العبد ووضح له .فإذا عصى بعد ذلك، فهو ضال عن عمد.
· البديل باطل: البديل الذي يختاره العاصي لنفسه هو هواه ورغبته، وهذا هو الضلال بعينه.

الرسائل التربوية والنفسية من ختام الآية

أ .العصيان ليس حرية، بل هو عين الضلال والعبودية للهوى

كثيرًا ما يُروج في عصرنا أن العصيان ورفض التسليم هو حرية وتحرر .ولكن الآية تكشف زيف هذا ا لادعاء، وتؤكد أن العصيان هو الضلال نفسه.

فالذي يرفض حكم الله في مسألة ما، يظن أنه اختار لنفسه، بينما هو في الحقيقة وقع في أسر هواه ، واستعبدته شهوته، وضل عن الطريق المستقيم .فالحرية الحقيقية – كما أسلفنا – هي التحرر من عبودية الهوى لتكون عبدًا لله وحده.

ب .وضوح الحق يضاعف المسؤولية

وصف الضلال بأنه "مُبِين" يذكرنا بأن كلما ازدادت معرفة الإنسان بالحق، ازدادت مسؤوليته عن اتباعه، واشتدت عقوبته إذا خالفه.

فالعالم الذي يعرف حكم الله في مسألة ثم يخالفه، ضلاله مبين وعقوبته أشد من الجاهل .والمرأة التي تعلم وجوب الحجاب ثم تتبرج، ضلالها مبين .والرجل الذي يعلم حرمة الربا ثم يتعامل به، ضلا له مبين.

تطبيق عملي:
كلما تعلمت حكمًا شرعيًا جديدًا، فلتقل لنفسك: "الآن زادت مسؤوليتي، ووضح الحق لي، فإن عصيت بعد هذا، كنت من الضالين ضلالًا مبينًا" .هذا الاستشعار يعين على الامتثال، ويجعل العلم حجة للمؤمن لا عليه.

خامسًا:
قصة زينب بنت جحش – التطبيق الحي للآية وأبعادها التربوية

لا يكتمل فهم هذه الآية دون الوقوف عند سبب نزولها، وقصة زينب بنت جحش رضي الله عنها . فهذه القصة هي التجسيد العملي لمعاني الآية، وهي مدرسة تربوية متكاملة في التسليم والثقة بالله.

القصة باختصار

· زينب بنت جحش كانت ابنة عمة النبي صلى الله عليه وسلم) أميمة بنت عبد المطلب .(كانت امرأة قرشية من بيت حسب ونسب، وكانت جميلة وذات مكانة.
· زيد بن حارثة كان غلامًا للنبي، فأعتقه وتبناه، وكان يُدعى "زيد بن محمد" قبل تحريم التبني .وكان أسود اللون، قصيرًا، أفطس الأنف.
· خطب النبي صلى الله عليه وسلم زينب لزيد، فامتنعت هي وأخوها عبد الله، وقالت: "أنا ابنة عمتك يا رسول الله، فلا أرضاه لنفسي" .وكانت تظن أن النبي يخطبها لنفسه، فلما علمت أنه يخطبها لزيد، استنكفت.
· فنزلت هذه الآية: "وَمَا كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ..."، فلما سمعتها زينب، قالت: "رضيتُ يا رسول الله، أمضي لما أراده الله ورسوله" .وتزوجت زيدًا.

الدروس التربوية من قصة زينب رضي الله عنها

أ .التسليم يحول "المر" إلى "أحلى من العسل"

انظر كيف أن زينب – بعد أن سلمت – لم تكتفِ بالرضا الظاهر، بل عاشت مع زيد زوجة صالحة .

ورغم أن زيدًا طلقها بعد ذلك، إلا أن هذا الطلاق كان سببًا في أن يتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم، لتكون أمًا للمؤمنين، وليزول بزواجها منه حكم التبني الذي كان معمولًا به في الجاهلية.

لقد اختارت زينب في البداية حسبها ونسبها، فكانت الخيرة لله أن يرفعها إلى مقام النبوة .وهذا هو اللطف الخفي الذي لا يدركه الإنسان إلا بعد التسليم.

رسالة لكل مؤمن ومؤمنة:
إذا سلمت لأمر الله في أمر تكرهه نفسك، فثق أن الله سيجعل في هذا التسليم خيرًا عظيمًا، إما في الدنيا، أو في الآخرة، أو فيهما معًا .فلا تستبطئ لطف الله، ولا تستعجل ثمرة التسليم.

ب .الإسلام لا يعرف العنصرية والطبقية

قصة زواج زينب من زيد هي إعلان عملي لمبدأ المساواة في الإسلام .فزينب القرشية من صميم بيت النبوة، وزيد المولى الذي كان عبدًا، جمع بينهما الإسلام، وأبطل فوارق النسب.

وهذا درس عظيم للمجتمعات المسلمة اليوم، التي لا تزال تعاني من رواسب الجاهلية في التفاخر بالأنساب والاحتقار بسبب اللون أو الأصل .الآية تقول: لا خيرة لأحد في رفض ما قضى الله به من مساواة وإخاء بين المؤمنين.

ج .المرأة المسلمة شريكة في إرساء التشريعات الكبرى

زواج زينب من زيد، ثم طلاقها منه، ثم زواجها من النبي، كان سببًا في نزول تشريعات عظيمة:

· إبطال التبني: حيث كان زيد يُدعى "زيد بن محمد"، فجاء الإسلام ليمنع ذلك، ويقرر أن "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ".
· إباحة زواج مطلقة الابن بالتبني: حيث تزوج النبي زينب بعد طلاقها من زيد، ليكون أسوة عملية للمسلمين في أن الابن بالتبني ليس كالابن الحقيقي في الأحكام.

وهكذا، كانت زينب – بتسليمها – شريكة في بناء صرح التشريع الإسلامي، وخُلد ذكرها في القرآن إلى يوم القيامة.

سادسًا:
كيف نعيش آية "وَمَا كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ" في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية وقصتها، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين، حيث تكثر الخيارات، وتتشعب السبل، وتتداخل الأهواء؟

١.في الأمور التي قضى الله فيها بأمر قطعي

هناك أحكام قطعية في الإسلام، لا مجال للاجتهاد فيها، ولا للاعتراض عليها:

· فرضية الصلاة والصيام والزكاة والحج.
· حرمة الزنا والربا والسرقة والكذب.
· وجوب الحجاب الشرعي الكامل على المرأة.
· وجوب بر الوالدين وطاعتهما في المعروف.

في هذه الأمور، لا مكان لـ "الخيرة" .يجب على المؤمن أن يسلم تسليمًا مطلقًا، ويقول كما قالت زينب: "أمضي لما أراده الله ورسوله".

تطبيق عملي:

· إذا كنتِ امرأة مسلمة، وتشعرين بضيق من الحجاب في الحر، أو بضغط مجتمعي لخلعه، تذكري هذه الآية: لا خيرة لكِ مع أمر الله .قولي لنفسك: "رضيتُ باللهِ ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا ورسولًا".
· إذا كنتِ شابًا مسلمًا، وتُعرض عليك صفقة ربوية مربحة، تذكر هذه الآية: لا خيرة لك مع أمر الله .

قل: "اللهم لا خيرة لي في أمر قضيتَ فيه بحكم، فاصرف عني الحرام، وارزقني الحلال".

٢.في الأمور التي لم يرد فيها نص قطعي

في كثير من أمور الحياة اليومية، لم يرد نص قطعي، بل ترك الله لنا حرية الاختيار ضمن الضوابط العامة .في هذه الدائرة، لك الخيرة، ولا حرج عليك في الاختيار.

تطبيق عملي:

· اختيار التخصص الجامعي: ليس هناك نص قطعي يوجب عليك تخصصًا معينًا .اختر ما يناسب قدراتك وميولك، وما تظن أنه أنفع للأمة، مع الالتزام بالضوابط الشرعية) اجتناب التخصصات المحرمة أو المشبوهة.(
· اختيار المسكن: لك أن تختار الحي الذي يناسبك، والمسكن الذي يعجبك، ما دمت لا تقصد بذلك التباهي والاستطالة على الجيران.

٣.التدرب على "التسليم" في الأمور الصغيرة

التسليم المطلق لله هو عضلة روحية تحتاج إلى تمرين .فإذا لم نتدرب على التسليم في الأمور الصغيرة، فكيف سنسلم في الأمور الكبيرة؟

تمرين عملي:

· عندما تسمع الأذان، قم إلى الصلاة فورًا، دون تسويف .هذا تدريب يومي على التسليم لأمر الله.
· عندما تقرأ آية فيها أمر أو نهي، قل في نفسك: "سمعتُ وأطعتُ"، واعزم على التطبيق الفوري.
· إذا حدث أمر تكرهه) مرض، خسارة، فوات مصلحة(، قل: "الحمد لله على كل حال، رضيتُ بقضائك يا رب" .هذا التسليم للقضاء الكوني يعين على التسليم للقضاء الشرعي.

٤.تربية الأبناء على مبدأ "لا خيرة مع أمر الله"

من أهم مسؤولياتنا التربوية أن نغرس في أبنائنا هذا المبدأ العظيم منذ الصغر.

كيف نغرس هذا المبدأ؟

· القصة: احكِ لهم قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكيف سلمت لأمر الله، وكيف كافأها الله بأن صارت أمًا للمؤمنين.
· القدوة: عندما يأمر الأب أو الأم الأبناء بأمر) مثل: أغلق التلفاز، اذهب للنوم(، وعندما يسأل الابن: "لماذا؟"، لا يجب أن تكون الإجابة دائمًا التعليل المنطقي فقط .أحيانًا، يجب أن نقول: "لأنني أمرتك، و الله أمرك بطاعتي في المعروف" .هذا يربي في الطفل الانقياد للسلطة الشرعية، ويهيئه للانقياد لسلطة الله ورسوله.
· الربط بالآية: كلما أراد الابن الاعتراض على أمر والديه) في معروف(، ذكرهم بهذه الآية: "وَمَا كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ...أن يَكونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ" .واشرح لهم أن طاعة الوالدين هي من أمر الله، فلا خيرة لـ لابن مع أمر الله.

سابعًا: القيم المستفادة من الآية36

القيمة تجلياتها في الآية
التسليم المطلق لله ورسوله "وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ...أن يكون لهم الخيرة" – نفي حق الاختيار عند ورود الأمر.
العبودية الكاملة لله إعلان أن المؤمن عبد لله، لا يملك من أمره شيئًا إلا ما أذن به الله.
الإيمان الحقيقي يقتضي الطاعة ربط الآية بين الإيمان وانتفاء الخيرة، فالإيمان يوجب التسليم.
المساواة بين الرجل والمرأة في التكليف "لمؤمن ولا مؤمنة" – شمول الحكم للجنسين على السواء.
خطورة الاعتراض على أحكام الله "ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالًا مبينًا" – المعصية ضلال وخسران مبين.
الثقة في حكمة الله ولطفه قصة زينب تثبت أن اختيار الله للعبد خير من اختياره لنفسه.
إبطال الفوارق الجاهلية زواج زينب من زيد يهدم فوارق النسب واللون والطبقة.

وضوح الحق يضاعف المسؤولية "ضلالًا مبينًا" – وضوح الحكم يجعل مخالفته ضلالًا واضحًا.

خاتمة: في رحاب التسليم المطلق والحرية الحقيقية

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تضع أمام المؤمن والمؤمنة أساس علاقتهما بربهما: التسليم المطلق، والانقياد الكامل، وإسقاط الخيرة عند ورود الأمر الإلهي .إنها آية تحرر الإنسان من عبودية الهوى وضغط المجتمع، لتربطه بـ عبودية الله وحده، وهذه هي الحرية الحقيقية.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· الإيمان الحقيقي ليس كلمة تقال باللسان، بل هو موقف وتسليم وطاعة.
· الخيرة ليست حقًا مطلقًا للإنسان، بل هي حق مقيد بما لم يقضِ الله فيه بأمر.
· رفض التسليم ليس حرية، بل هو ضلال مبين، وعبودية للهوى.
· اختيار الله للعبد هو الخير كله، وإن رأى العبد بظاهره خلاف ذلك.

فلنحرص – رجالًا ونساءً – أن نكون من الذين يقولون: سمعنا وأطعنا، وأن نعيش معنى: "وَمَا كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ"، في كل كبيرة وصغيرة من أمور حياتنا، حتى نكون من عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا دينهم لله، وسلموا تسليمًا، ففازوا بـ رضوان الله وجنات النعيم.

اللهم ارزقنا التسليم المطلق لأمرك وأمر رسولك .اللهم اجعلنا ممن إذا قضيت أمرًا قالوا: سمعنا وأطعنا .اللهم لا تجعل لنا خيرة مع أمرك، واختر لنا فإنك خير من يختار .اللهم اهدنا سواء السبيل، وجنبنا الضلال المبين، إنك سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

القسم الثاني

قصه زوج الرسول صلى الله عليه وسلم من زينيب بنت جحش

المبحث الأول

تفسير آية زيد بن حارثة وزينب بنت جحش (الأحزاب: 37) – إعلان إرادة الله فوق كل إرادة، وتحرير المجتمع من رواسب الجاهلية

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني المهيب، الذي يرسم لنا لوحة ربانية تفيض بـ الدروس والعبر، وتكشف عن حقيقة العبودية ومعنى التسليم، وتؤسس لقاعدة حضارية كبرى في تحرير المجتمع من قيود العادات والتقاليد التي تخالف مراد الله.

إنها آية تتحدث عن قصة حب إلهي، وتدبير رباني، وزواج مبارك أراده الله وأمضاه، رغم أنفة النفوس وخوف البشر من كلام الناس. إنها الآية التي يذكر فيها القرآن الكريم اسم صحابي جليل هو زيد بن حارثة رضي الله عنه، فيكون الصحابي الوحيد الذي ورد اسمه صريحًا في كتاب الله. وهذا وحده شرف عظيم ووسام فخر له ولأهل بيته إلى يوم القيامة.

يقول الله تعالى: "وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا"

إنها ليست مجرد آية تتلى في المحاريب، بل هي درس عظيم في الصبر على حكم الله، والثقة بتدبيره، والتحرر من الخوف من الناس، وإبطال العادات الجاهلية التي تعوق مسيرة الإيمان. إنها الآية التي تعلن بكل وضوح: "وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا"، فما أراده الله كائن لا محالة، وما قضاه نافذ لا يرده راد.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، وكأننا نعيش تلك اللحظات الفارقة في تاريخ التشريع الإسلا مي، في زمن ما زالت فيه أعراف الجاهلية تطل برأسها بين الحين والآخر، لتقف حجر عثرة في طريق الالتزام بشرع الله.

الأمر الأول:
"وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ" – تشريف زيد بن حارثة وبيان فضله

اللمسة البيانية الأولى: "وَإِذْ" – استحضار الماضي وكأنه حاضر

تبدأ الآية الكريمة بـ "وَإِذْ"، وهي ظرف زمان يفيد الماضي. ولكنها في السياق القرآني تأتي غالبًا لـ استحضار الماضي وكأنه حاضر، ليكون أبلغ في العظة وأوقع في النفس. فكأن الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم: "واذكر يا محمد إذ تقول...". وهذا الاستحضار يجعلنا – نحن القراء – نعيش الحدث وكأنه يقع أمام أعيننا الآن، فنستشعر هول الموقف وعظم التوجيه الإلهي.

اللمسة البيانية الثانية: "لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ" – وصف زيد بنعمة مزدوجة

هذا الوصف العظيم لـ زيد بن حارثة هو وسام شرف لم ينله أحد غيره في القرآن. فمن هو زيد، وما هي النعمة المزدوجة التي أنعم الله بها عليه؟

١.من هو زيد بن حارثة؟

زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، كان غلامًا صغيرًا، أغارت عليه بعض القبائل في الجاهلية، وباعوه في سوق عكاظ، فاشترته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ثم وهبته للنبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة.

وعندما علم أبوه وعمه بمكانه، جاءا إلى مكة ليفتدياه. فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: "خيروه، فإن اختاركم فهو لكم". فلما خُيّر زيد بين العودة إلى أهله والبقاء مع النبي، قال: "ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت مني بمنزلة الأب والعم". فتعجب أبوه وعمه، وقالا: "ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟!"، فقال: "إني رأيت من هذا الرجل شيئًا، لا أختار عليه أحدًا أبدًا".

فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم وفاءه وصدق محبته، خرج به إلى حجر الكعبة، وقال: "يا معشر قريش، اشهدوا أن زيدًا ابني، يرثني وأرثه". فصار يُدعى "زيد بن محمد" ، حتى نزل قول الله تعالى: "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ" (الأحزاب: 5)، فعاد يُدعى "زيد بن حارثة".

٢."أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ" – نعمة الإسلام والهداية

النعمة الأولى التي يذكرها الله في هذه الآية هي نعمة الإسلام. فالله هو الذي هدى زيدًا للإسلام، وجعله من السابقين الأولين إلى التصديق بالنبي صلى الله عليه وسلم. وهذه النعمة الكبرى التي لا تدانيها نعمة، والتي منّ الله بها على زيد، فصار من أهل الجنة، وقائدًا للجيوش في غزوة مؤتة، وشهيدًا في سبيل الله.

٣."وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ" – نعمة العتق والتبني والتربية النبوية

النعمة الثانية هي نعمة النبي صلى الله عليه وسلم على زيد. فقد أعتقه من الرق، وتبناه قبل تحريم التبني، ورباه في بيته، وزوجه من ابنة عمته زينب بنت جحش، وأحبه حبًا شديدًا حتى كان يُسمى "حِبُّ رسول الله". وهذه النعمة – بعد نعمة الإسلام – هي من أعظم النعم التي يمكن أن ينالها إنسان.

الرسالة التربوية:
في هذا الوصف المزدوج تعليم للمؤمنين كيف ينسبون النعمة إلى أهلها. فزيد يجتمع له نعمتان: نعمة من الله مباشرة (الإسلام)، ونعمة من رسوله (العتق والتربية). وهو عبد أنعم الله عليه، فلا ينبغي أن يُذكر إلا بخير، ولا ينبغي أن يُنظر إليه إلا بعين الإجلال والتكريم.
الأمر الثاني:
"أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ" – النهي عن الطلاق والأمر بالتقوى

بعد أن شرف الله زيدًا بهذا الوصف العظيم، جاء إلى الموقف الحرج الذي كان سببًا في نزول الآية. فماذا كان الموقف؟

السياق التاريخي للموقف

زيد بن حارثة تزوج زينب بنت جحش رضي الله عنها – كما سبق في آية التخيير – بعد أن نزل قول الله: "وَمَا كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا..."، فسلمت زينب وتزوجت زيدًا.

ولكن الحياة الزوجية بين زيد وزينب لم تكن مستقرة. كان بينهما تفاوت في الطباع، وربما تفاوت في المكانة الاجتماعية السابقة، فكان زيد يشكو للنبي صلى الله عليه وسلم من نشوز زينب وترفعها عليه، وكان يستأذنه في طلاقها.

والنبي صلى الله عليه وسلم – بحكمته وحرصه على استقرار الأسر – كان ينصحه قائلًا: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتقِ اللهَ". أي: لا تطلقها، واصبر عليها، واتق الله في معاملتها، فلعل الله يجعل في ذلك خيرًا.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتقِ اللهَ"

١."أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ" – أمر بالإمساك والاستمرار في الزواج

لفظة "أَمْسِكْ" تفيد الاستمرار وعدم التفريط. وكلمة "عَلَيْكَ" تفيد الإلزام والحفظ. فكأنه يقول له: "احفظ زوجك عندك، ولا تفرط فيها، واصبر على ما تجد منها".

وهذا من هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الإصلاح بين الأزواج. فهو لا يستعجل الطلاق، ولا يشجع عليه، بل يأمر بالإمساك والصبر والتقوى، عسى أن يصلح الله الحال.

٢."وَاتقِ اللهَ" – الأمر بالتقوى: مفتاح حل كل مشكلة

النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتفِ بأمر زيد بـ الإمساك، بل أردفه بـ "وَاتقِ اللهَ". وهذا هو السر في حل المشكلات الزوجية وسائر المشكلات. فـ التقوى هي التي تهذب النفوس، وتلين القلوب، وتدفع إلى العدل والإحسان.

فكأنه يقول له: "إن كنت تريد أن تستقيم حياتك الزوجية، فـ اتق الله في زوجتك. لا تظلمها، ولا تبخسها حقها، وأحسن عشرتها، واصبر على ما تكره منها، فإن تقوى الله هي الضمان الوحيد لاستمرار الحياة الزوجية بسعادة".

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الموقف

أ. حرص النبي على استقرار الأسر وكراهيته للطلاق

هذا الموقف يعلمنا هدي النبي صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الخلافات الزوجية. فلم يكن يستعجل الطلاق، بل كان يأمر بالإمساك والصبر والتقوى. وهذا هو المنهج النبوي الذي ينبغي أن نسير عليه: أن نستنفد كل وسائل الإصلاح قبل اللجوء إلى الطلاق.

تطبيق معاصر:
عندما يشتكي زوج لصديقه أو لقريب له من زوجته، فلا ينبغي أن يكون الرد: "طلقها! ما تستاهلك!". بل ينبغي أن يكون الرد نبويًا: "أمسك عليك زوجك واتق الله". أي: اصبر، وحاول الإصلاح، واستشر المختصين، وادعُ الله أن يصلح بينكما. فإن استحالت العشرة بعد ذلك، كان الطلاق آخر الحلول لا أولها.

ب. التقوى هي أساس السعادة الزوجية

المشكلات الزوجية غالبًا ما تنشأ من غياب التقوى. فالزوج الذي لا يتقي الله يظلم زوجته، والزوجة التي لا تتقي الله تنشز على زوجها. ولو استحضر كل منهما تقوى الله، لذابت كثير من الخلافات، ولعاد الود والرحمة.

تطبيق عملي:
عند حدوث خلاف زوجي، ليقل كل من الزوجين لنفسه: "اتقِ الله!". هذه الكلمة – إذا صدرت من قلب صادق – كفيلة بأن تطفئ نار الغضب، وترد النفس عن الظلم، وتفتح باب التفاهم.

الأمر الثالث:
"وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ" – إخفاء النبي ما أعلمه الله به

هذا هو محور الآية وسر نزولها. لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخفي في نفسه أمرًا عظيمًا، وكان الله يعلمه، وسيظهره في وقته المقدور. فما هو هذا الأمر الذي كان يخفيه النبي؟

ما الذي كان يخفيه النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه؟

أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم – بوحي منه – أن زيدًا سيطلق زينب، وأن الله سيزوجه إياها بعد ذلك، ليكون ذلك تشريعًا عمليًا لإبطال عادة جاهلية، وهي: أن الابن بالتبني يأخذ حكم الابن الحقيقي في تحريم زوجة أبيه بعد الطلاق.

النبي صلى الله عليه وسلم أعلم بهذا الأمر قبل وقوعه، ولكنه أخفاه في نفسه، ولم يُظهره لأحد. لماذا؟

· خوفًا من قالة الناس: أن يقول المنافقون واليهود: "انظروا إلى محمد! ينهى عن زوجة الابن، ثم يتزوج زوجة ابنه زيد!" .وقد كانت هذه فرية جاهزة عند أعداء الإسلام.
· حياءً من زيد نفسه: لأن زيدًا كان يُدعى "زيد بن محمد"، وكان الناس ينظرون إليه على أنه ابن النبي .فكيف يتزوج النبي مطلقة ابنه؟ هذا مما تستنكره النفوس في ذلك الزمان.
· انتظارًا للأمر الإلهي المباشر: فالنبي صلى الله عليه وسلم – وهو العبد المحض – لا يفعل شيئًا من تلقاء نفسه، بل ينتظر الأمر الصريح من الله.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ"

١."تُخْفِي" – المضارع: استمرار الإخفاء

صيغة المضارع "تُخْفِي" تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستمر في إخفاء هذا الأمر، ولم يبده لأحد، حتى جاء الأمر الإلهي بإظهاره.

٢."فِي نَفْسِكَ" – تأكيد أن الإخفاء كان في أعمق أعماق القلب

"فِي نَفْسِكَ" تعني أن هذا الأمر كان مكنونًا في صدر النبي، لم يبح به حتى لأقرب الناس إليه، مثل عائشة أو أبي بكر أو عمر .وهذا يدل على شدة حرصه على كتمان ما أمره الله بكتمانه حتى يأذن بإظهاره.

٣."مَا اللهُ مُبْدِيهِ" – إخبار بأن الله سيظهره لا محالة

"مُبْدِيهِ" – اسم فاعل من "أبدى"، أي: مُظهره .والجملة "مَا اللهُ مُبْدِيهِ" تفيد أن إظهار هذا الأمر هو قضاء إلهي لا بد من وقوعه .فما أخفاه النبي بأمر الله، سيظهره الله في وقته المحدد، ليكون آية وتشريعًا للأمة.

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الموقف العظيم

أ. النبي بشر يخضع للمشاعر البشرية، ولكنه لا يتجاوز حدود الله

هذا الموقف يظهر بشرية النبي صلى الله عليه وسلم في أبهى صورها. فهو يخاف من كلام الناس، ويستحي من موقف قد يحرجه. ولكنه – مع ذلك – لم يعصِ الله، ولم يتجاوز ما أمره به. بل أخفى الأمر حتى يأتي الأمر الإلهي، ثم امتثل دون تردد.

وهذا درس عظيم لنا: أن الخوف الطبيعي من الناس، والحياء من المواقف المحرجة، هي مشاعر بشرية لا تُنافي الإيمان، ما دامت لا تدفع إلى معصية الله. فالمؤمن قد يخاف من كلام الناس، لكنه لا يقدم هذا الخوف على خشية الله.

مثال من الواقع:
رجل يؤمر بـ معروف (مثل إطلاق لحيته، أو تقصير ثوبه)، لكنه يخاف من سخرية زملائه في العمل.

هذا الخوف طبيعي، ولكن عليه أن يتقي الله، ويمتثل الأمر، ويتوكل على الله، ويدعو الله أن يصرف عنه ألسنة السوء. أما إذا قدم خوفه من الناس على طاعة الله، فهذا هو العصيان الذي نهى الله عنه.

ب. حكمة الله في تأخير إظهار بعض الأمور

الله تعالى كان قادرًا على أن يأمر نبيه مباشرة بإظهار هذا الأمر من البداية. ولكنه – سبحانه – أخفاه في نفس نبيه، ثم أظهره في وقته. لماذا؟

· لإقامة الحجة على المنافقين واليهود: فلو أن النبي أخبر بذلك من البداية، لقالوا: "إنه يخطط للزواج من زينب، ولذلك يأمر زيدًا بإمساكها!" .أما بعد أن طلقها زيد بمحض إرادته، وانقضت عدتها، جاء الأمر الإلهي بالزواج منها، فلم يجد المنافقون مدخلًا للتشنيع.
· لتربية الأمة على الصبر والثقة بتدبير الله: فالله يعلم عباده أن ما يخفيه عنهم من أمور المستقبل هو لحكمة بالغة، وأن عليهم أن يثقوا به، وألا يستعجلوا إظهار ما ستره.

ج. كتمان الأسرار التي اؤتمنت عليها: أمانة وعبادة

النبي صلى الله عليه وسلم ائتمنه الله على هذا السر، فلم يبح به لأحد. وهذا يعلمنا أهمية كتمان الأ سرار، خاصة أسرار البيوت وأسرار العلاقات. فالمؤمن أمين على ما اؤتمن عليه، ولا ينبغي أن يكون نمامًا أو مفشيًا للأسرار.

تطبيق عملي:
إذا ائتمنك زوجك على سر من أسراره، أو ائتمنتك زوجتك على حديث خاص، فاحفظ هذا السر، ولا تنشره بين أهلك أو أصدقائك. فإن إفشاء الأسرار من خيانة الأمانة، وهو دليل على ضعف الإيمان.

الأمر الرابع:
"وَتَخْشَى النَاسَ وَاللهُ أَحَقُ أَن تَخْشَاهُ" – توجيه رباني إلى مقام الخشية الحقيقية

هذا هو التوجيه الإلهي المباشر للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو في نفس الوقت درس عظيم للأمة جمعاء. فالله تعالى يخبرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخشى الناس (أي: يخاف من كلامهم وألسنتهم)، فيقول له: "وَاللهُ أَحَقُ أَن تَخْشَاهُ".

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَتَخْشَى النَاسَ وَاللهُ أَحَقُ أَن تَخْشَاهُ"

١."وَتَخْشَى" – المضارع: استمرار حالة الخشية

"وَتَخْشَى" فعل مضارع، يفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في حالة مستمرة من الخشية من ق الة الناس وألسنة المنافقين .وهذا ليس عيبًا فيه، بل هو طبيعة بشرية، ولكن الله يريد أن يرتقي به إلى المقام الأعلى: أن تكون خشيته من الله هي المقدمة والغالبة.

٢."النَاسَ" – عام يشمل كل من يخاف منه

لفظة "النَاسَ" عامة، تشمل المنافقين واليهود والمشركين، وكل من كان يتربص بالنبي الدوائر. والنبي صلى الله عليه وسلم كان يخشى قالتهم، وطعنهم في نبوته، وتشويههم لصورته.

٣."وَاللهُ أَحَقُ أَن تَخْشَاهُ" – تفضيل خشية الله على خشية الناس

"أَحَقُ" أفعل تفضيل، يدل على أن خشية الله هي الأولى والأجدر والأحق من خشية الناس .فالله هو الذي يملك الضر والنفع، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء .فإذا تعارضت خشية الله مع خشية الناس، فـ خشية الله هي المقدمة.

وهذا التوجيه الإلهي لا يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقدم خشية الناس على خشية الله، حاشاه! بل المعنى: "أنت تخشى الناس، وهذا طبيعي، ولكن الأجدر بك – وأنت نبي الله ورسوله – أن تجعل خشية الله هي الغالبة، وأن تمضي لما أمرك الله به دون أن تلتفت إلى قول قائل".

الرسائل التربوية والنفسية من هذا التوجيه الإلهي

أ. مقام "الخشية من الله" هو مقام الأنبياء والصديقين

الخشية من الله هي أعلى مراتب الإيمان. وهي غير الخوف العادي. فالخوف قد يكون من العقاب فقط، أما الخشية فهي خوف ممزوج بتعظيم وإجلال ومحبة. وهي التي تمنع المؤمن من معصية الله، حتى لو غابت عنه رقابة الناس.

تطبيق عملي:
عندما تكون في خلوة، ولا يراك أحد، وتدعوك نفسك إلى معصية (نظرة محرمة، كلمة بذيئة، سماع أغنية)، فاستحضر خشية الله. قل لنفسك: "الله يراني الآن، وهو أحق أن أخشاه من كل الناس". هذا ا لاستحضار هو سياج الأمان الذي يحميك من الوقوع في المعصية.

ب. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

هذه الآية هي أساس قاعدة عظيمة في الإسلام: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". فإذا أمرك و الدك أو مديرك أو زوجك أو أي صاحب سلطة بأمر يخالف شرع الله، فلا طاعة له، لأن الله أحق أن تخشاه من كل هؤلاء.

مثال من الواقع:

· الموظفة التي يأمرها مديرها بـ الكذب على العملاء، أو التبرج لجذب الزبائن .عليها أن تقول: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" .والله سيرزقها من حيث لا تحتسب.
· الزوجة التي يأمرها زوجها بـ قطع صلة الرحم، أو منع والديها من زيارتها .عليها أن تخشى الله، و لا تطيع زوجها في هذا الأمر، مع حسن التبعل والرفق في الرد.

ج. تحرير النفس من "عقدة الخوف من كلام الناس"

كم من إنسان يملك الحق، ويعرف الصواب، لكنه يتردد في فعله، خوفًا من كلام الناس! هذه الآية تحررنا من هذه العقدة النفسية. إنها تقول لنا: "الناس لن ينفعوك ولن يضروك إلا بإذن الله. فلماذا تخشاهم وتترك ما يرضي الله؟"

تطبيق معاصر:

· شاب يريد أن يتزوج بامرأة صالحة، لكنها مطلقة أو أرملة أو أكبر منه سنًا .يخاف من كلام الناس: "ماذا سيقولون؟ تزوج مطلقة!" .هذه الآية تقول له: "والله أحق أن تخشاه" .امضِ في زواجك، وأرضِ الله، وسيهون عليك كلام الناس.
· فتاة تريد أن تلبس الحجاب الشرعي الكامل، لكنها تخاف من سخرية زميلاتها، أو نظرة المجتمع . هذه الآية تقول لها: "والله أحق أن تخشيه" .البسي حجابك، واثبتي، وستجدين عزة وكرامة من عند الله.
الأمر الخامس:
"فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا" – وقوع الأمر الإلهي وإتمام الزواج المبارك

بعد كل هذه المقدمات، يأتي المشهد الختامي: زيد يطلق زينب، وتنقضي عدتها، ويأتي الأمر الإلهي للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها. وهنا يعلن الله بكل عزة وجلال: "زَوَّجْنَاكَهَا"، ليسند هذا الزواج إلى ذاته العلية، فيكون أشرف زواج في تاريخ البشرية.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا"

١."فَلَمَّا" – ظرف زمان مع الفاء الرابطة

"فَلَمَّا" تفيد الترتيب والتعقيب .أي: بعد أن طلق زيد زينب، وانقضت عدتها، عندها فقط أمرنا بزواجك منها .وهذا يدل على أن زواج النبي من زينب لم يكن اعتباطًا، بل كان مرتبطًا بحدث سابق، وهو طلا ق زيد وانقضاء عدتها.

٢."قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا" – تعبير لطيف عن الطلاق

لفظة "وَطرًا" تعني: الحاجة أو الغرض. فقوله: "قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطرًا" كناية لطيفة عن الطلاق بعد انتهاء الرغبة في استمرار الزواج. وهذا من أدب القرآن في التعبير عن العلاقات الزوجية.

وفيه أيضًا تكريم لزيد، حيث نسب الفعل إليه: "قَضَىٰ زَيْدٌ"، فجعله صاحب القرار، ولم يقل: "فلما طلقها زيد" بصيغة قد توحي بشيء من التقصير.

.٣"زَوَّجْنَاكَهَا" – نسبة التزويج إلى الله بضمير الجمع للتعظيم

هذه هي ذروة الآية وعقد تاجها. الله تعالى يقول لنبيه: "زَوَّجْنَاكَهَا". أي: نحن – بجلالنا وعظمتنا – تولينا تزويجك إياها.

وهذا تشريف عظيم لم ينله أحد من البشر قبل النبي صلى الله عليه وسلم ولا بعده. فكل الأنبياء تزوجوا بأمر الله، لكن لم ينص الله في كتابه على أنه تولى تزويجهم بنفسه. أما النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد شرفه الله بأن قال: "زَوَّجْنَاكَهَا". فكان الله هو الولي، وهو الشاهد، وهو المُزَوِّج. وهذا من أعظم دلائل محبة الله لنبيه، وتكريمه له.

.٤دخول زينب بيت النبوة دون مهر ولا ولي ولا شهود

من عجائب هذا الزواج أنه تم بأمر الله المباشر، دون مهر (لأن المهر هو حق الزوجة، وقد تنازلت عنه شرفًا بهذا الزواج، أو جعله الله لها في الجنة)، ودون ولي (لأن الله كان وليها)، ودون شهود من البشر (لأن الله وملائكته كانوا الشهود). وهذا الزواج خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز لغيره.

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الزواج المبارك

أ. أن أمر الله نافذ لا محالة

الآية تثبت أن ما أراده الله كان، رغم كل الظروف وكل الاعتراضات وكل المخاوف. زينب رفضت زيدًا في البداية، ولكنها سلمت لأمر الله فتزوجته. ثم طلقها زيد، فتزوجها خير البشر. وهذا يثبت أن التسليم لأمر الله هو الطريق الوحيد للفوز بـ الخيرة الحقيقية.

تطبيق نفسي:
إذا أُغلق في وجهك باب كنت ترغب فيه، فاعلم أن الله ادخر لك بابًا خيرًا منه. وإذا أُجبرت على أمر كنت تكرهه، فاصبر وسلم، فلعل الله يخبئ لك فيه من الخير ما لا يخطر على بالك.

ب. رفع الحرج عن الأمة في زواج مطلقات الأدعياء

هذا الزواج المبارك كان تشريعًا عمليًا لإبطال عادة جاهلية، هي: تحريم زوجة الابن بالتبني على أبيه بعد الطلاق. فالجاهلية كانت تعتبر الابن بالتبني كالابن الحقيقي في جميع الأحكام، حتى في تحريم زوجته على أبيه.

فلما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بعد طلاقها من زيد – الذي كان يُدعى ابنه – كان هذا إعلانًا عمليًا بأن التبني لا يُنشئ حرمة المصاهرة. وهكذا رفع الله الحرج عن المؤمنين، وأباح لهم زواج مطلقات أدعيائهم.

ج. تكريم المرأة وتخليد ذكرها

زينب بنت جحش رضي الله عنها نالت شرفًا لم تنله امرأة في الإسلام. فهي:

· ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
· التي زوجها الله من نبيه من فوق سبع سماوات.
· التي نزلت فيها آيات تتلى إلى يوم القيامة.
· التي كانت أمًا للمؤمنين، وزوجة للنبي في الجنة.

وهذا يدل على أن المرأة في الإسلام ليست مهمشة، بل قد تصل إلى أعلى مراتب الشرف، إذا اتقت الله وسلمت لأمره. فكم من رجال عظماء لم يرد ذكرهم في القرآن! أما زينب فقد خلد الله ذكرها،

وجعل قصتها درسًا خالدًا للأجيال.

الأمر السادس:
"لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا" – بيان الحكمة التشريعية من الزواج

بعد أن أخبر الله أنه زوج نبيه زينب، جاء ليبين الحكمة من هذا الزواج: "لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ...". وهذا هو المقصد التشريعي الأعظم من هذه القصة كلها.

اللمسات البيانية والبلاغية في بيان الحكمة

١."لِكَيْ" – لام التعليل: بيان الغاية

"لِكَيْ" تفيد التعليل، أي: لأجل أن لا يكون على المؤمنين حرج .فالزواج النبوي لم يكن غاية في ذاته، بل كان وسيلة لتحقيق غاية تشريعية كبرى، وهي رفع الحرج عن الأمة.

٢."حَرَجٌ" – نفي الحرج: أصل عظيم في الشريعة

"الحرج" هو الضيق والمشقة .والله تعالى يخبرنا أنه شرع هذا الزواج ليكون تشريعًا عامًا يرفع الحرج عن المؤمنين .وهذا يؤكد أن الشريعة الإسلامية مبناها على التيسير ورفع الحرج، كما قال تعالى: "وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ") الحج:.(78

٣."أَدْعِيَائِهِمْ" – جمع "دعي": إشارة إلى التبني الجاهلي

"الأدعياء" جمع "دَعِيّ"، وهو الولد المتبنى الذي يُدعى إلى غير أبيه .والآية تستخدم هذا اللفظ لتأكيد إبطال التبني، وبيان أن الابن بالتبني ليس ابنًا حقيقيًا، فلا تترتب عليه أحكام النسب.

٤."إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا" – تعليق الإباحة بشرط الطلاق وانقضاء العدة

الآية تشترط لإباحة زواج مطلقة الدعي: أن يطلقها (يقضي منها وطرًا)، وأن تنقضي عدتها. وهذا هو الحكم الشرعي الذي استقر عليه الأمر.

الرسائل التربوية والنفسية من هذه الحكمة التشريعية

أ. الشريعة الإسلامية تيسر لا تعسر

هذه الآية تؤكد أن الله يريد بعباده اليسر، ويرفع عنهم الأغلال والآصار التي كانت على الأمم قبلنا، و العادات الجاهلية التي لا أصل لها في الدين. فـ التبني وما يترتب عليه من أحكام باطلة، كان حرجًا وضيقًا على الناس، فجاء الإسلام ليزيله.

تطبيق معاصر:
في عصرنا، قد تظهر عادات وتقاليد تخالف روح الشريعة وتضيق على الناس. هذه الآية تدعونا إلى تحكيم شرع الله، ورفض كل عادة تتعارض معه، حتى لو كانت سائدة في المجتمع. فـ المقياس هو كتاب الله وسنة رسوله، لا ما وجدنا عليه آباءنا.

ب. إبطال التبني: حماية للأنساب وإحقاق للحق

تحريم التبني في الإسلام له حكم عظيمة:

· حفظ الأنساب: فلا يختلط النسب الحقيقي بـ النسب المزعوم.
· إحقاق الحقوق: فالابن بالتبني لا يرث، ولا يحرم زوجته على أبيه بالتبني، ولا تثبت بينه وبين أسرة المتبني حرمة المصاهرة.
· تحرير النفوس: فالطفل المتبنى يُربى على أنه ابن فلان الحقيقي، ولا يُظلم بسلب نسبه الحقيقي.

وهذا لا يعني منع كفالة اليتيم أو تربية الأطفال المحتاجين، بل على العكس، الإسلام يحث على كفالة اليتيم والإحسان إليه، ولكن دون أن يُنسب إلى غير أبيه، ودون أن تترتب عليه أحكام النسب.

الامر السابع: "وَكانَ أمْرُ اللهِ مَفعُولًا" – ختم الآية بحقيقة كونية ثابتة

هذا هو الختم الإلهي للآية الكريمة، وهو ختم يفيض عزة وجلالًا ويقينًا. "وَكانَ أمْرُ اللهِ مَفعُولًا". ما أعمق هذه الكلمات! وما أعظم دلالاتها!

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَكانَ أمْرُ اللهِ مَفعُولًا"

١."وَكانَ" – فعل الكون: ثبوت ودوام الحقيقة

"كانَ" هنا تفيد الدوام والثبوت .فالمعنى: لم يزل ولا يزال أمر الله نافذًا، ماضيًا، لا يرده شيء.

٢."أمْرُ اللهِ" – إضافة الأمر إلى الله: مصدر العزة والقوة

الأمر مضاف إلى الله، الذي له الأمر كله، والذي لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه. فإذا كان الآمر هو الله، فمن ذا الذي يستطيع أن يمنع أو يعترض؟

٣."مَفعُولًا" – صيغة المفعول: تأكيد الوقوع

"مَفعُولًا" اسم مفعول، يدل على أن الأمر قد فُعل ووقع وتم، وأنه كائن لا محالة .فلا مجال للشك أو التردد.

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الختم العظيم

أ. اليقين بأن ما أراده الله كائن، وما لم يرده لن يكون

هذه الآية تزرع في قلب المؤمن يقينًا راسخًا بأن أمر الله نافذ. فما قضاه الله في كتابه أو على لسان رسوله، فهو واقع لا محالة. وما أراده الله من أقدار (مرض، موت، رزق)، فهو كائن لا محالة. وهذا اليقين هو سر الطمأنينة وسكينة القلب.

تطبيق عملي:
عندما يقلق المؤمن من المستقبل، أو يخاف من تدبير الأعداء، أو يحزن على ما فات، فإنه يتذكر هذه الآية: "وَكانَ أمْرُ اللهِ مَفعُولًا". فيعلم أن ما قدره الله سيكون، وما لم يقدره لن يكون. فيريح قلبه، ويسلم أمره لله.

ب. التحذير من الاعتراض على شرع الله

كما أن أمر الله الكوني نافذ لا محالة، فإن أمره الشرعي واجب الاتباع والتسليم. فمن اعترض على حكم من أحكام الله، أو استنكف عن طاعته، فهو معترض على أمر الله الذي هو مفعول في علمه وقضائه.

تطبيق معاصر:
عندما يسمع المؤمن حكمًا شرعيًا (مثل تحريم الربا، أو وجوب الحجاب)، قد تقول له نفسه: "كيف؟ ولماذا؟". فليتذكر هذه الآية: "وَكانَ أمْرُ اللهِ مَفعُولًا". فليس له أن يعترض، بل عليه أن يسلم، ويعلم أن الله حكيم عليم، وأن شرعه كله خير ورحمة.
ثامنًا:
كيف نعيش آية زيد وزينب في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.في العلاقات الزوجية: الصبر والتقوى قبل الطلاق

التطبيق العملي:

. إذا حدثت خلافات زوجية، فلا تستعجل الطلاق .تذكر قول النبي لزيد: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ" .استشر المختصين، واطلب الإصلاح، وادعُ الله أن يؤلف بين القلوب.

· تذكر أن الطلاق هو أبغض الحلال إلى الله، فلا تلجأ إليه إلا بعد استنفاد كل الوسائل.

.٢في مواجهة ضغط المجتمع: الخشية من الله أولًا

التطبيق العملي:

· إذا أردت أن تفعل معروفًا(زواج من امرأة صالحة مطلقة، التزام بحجاب شرعى) وخفت من كلام الناس، فتذكر: "وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ" .امض في طريقك، وارضَ الله، وسيهون عليك كلام الخلق.
· درب نفسك على عدم المبالاة بكلام الناس في الأمور التي ترضي الله .واعلم أن رضا الناس غاية لا تدرك، أما رضا الله فهو غاية يسيرة لمن أخلص النية.

.٣في التحرر من العادات الجاهلية: تحكيم الشرع لا العرف

التطبيق العملي:

· قد توجد في مجتمعاتنا عادات تخالف شرع الله) مثل: المغالاة في المهور، الإسراف في حفلات الزفاف، منع تزويج المطلقة أو الأرملة .(هذه الآية تعلمنا أن نرفض هذه العادات، ونحكم شرع الله، حتى لو استنكر الناس ذلك.
· "لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ" – الإسلام جاء ليرفع الحرج، فلا تجعلوا العادات تجلب الحرج و الضيق على الناس.

.٤في اليقين بقضاء الله وقدره: الرضا والتسليم

التطبيق العملي:

· إذا فاتك أمر كنت ترغبه) وظيفة، زواج، صفقة(، فقل: "قدر الله وما شاء فعل"، وتذكر أن "أَمْرَ اللَّهِ مَفْعُولًا"، وأن الخيرة فيما اختاره الله لك.
· إذا أصابتك مصيبة، فاصبر، واعلم أنها بأمر الله، وأنها تكفر عنك السيئات وترفع درجاتك، وأن أمر الله نافذ.

.٥في تربية الأبناء: غرس معاني التسليم والثقة بالله

التطبيق العملي:

· احكِ لأبنائك قصة زيد وزينب، بأسلوب مبسط، واشرح لهم كيف أن التسليم لأمر الله فتح لزينب أبواب الشرف، وكيف أن خشية الله هي النجاة.
· علمهم أن أمر الله نافذ، وأن عليهم أن يرضوا بما قسمه الله لهم، وألا يحزنوا على ما فات، ولا يفرحوا بما أتاهم فرح البطر.
تاسعًا: القيم المستفادة من الآية 37

القيمة تجلياتها في الآية
التسليم لأمر الله قصة زيد وزينب تثبت أن التسليم هو طريق الخير.
تقديم خشية الله على خشية الناس "وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ" – مبدأ عظيم في الإيمان.
الصبر على الشدائد الزوجية "أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ" – النهي عن استعجال الطلاق.
الثقة بتدبير الله ولطفه زينب سلمت فتزوجها النبي، وصارت أمًا للمؤمنين.
إبطال العادات الجاهلية "لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ" – تحرير المجتمع من رواسب الجاهلية.
اليقين بنفاذ أمر الله "وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا" – حقيقة كونية ثابتة.
كتمان الأسرار والأمانة النبي أخفى ما أعلمه الله به حتى أذن له بإظهاره.
تشريف المرأة وتكريمها قصة زينب تظهر أن المرأة قد تبلغ أعلى مراتب الشرف بالإيمان والتقوى.
خاتمة: في رحاب اليقين بنفاذ أمر الله

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي ترسم لنا لوحة إيمانية متكاملة، تجمع بين التسليم لأمر الله، وتقديم خشيته على خشية الناس، والصبر على الشدائد، والثقة بتدبيره ولطفه، و اليقين بنفاذ أمره.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· أمر الله نافذ، وما أراده كان، وما لم يرده لن يكون.
· خشية الله هي النجاة، وهي المقدمة على كل خشية.
· التسليم لأمر الله – وإن كرهته النفس – هو طريق الخير وسبب البركة.
· الإسلام جاء ليرفع الحرج والضيق عن الناس، ويحررهم من أغلال الجاهلية وعاداتها البالية.
· المرأة في الإسلام مكرمة، وقد تصل إلى أعلى مراتب الشرف، كما حدث لزينب بنت جحش رضي الله عنها.

فلنحرص – رجالًا ونساءً – أن نكون من الذين إذا قضى الله أمرًا قالوا: سمعنا وأطعنا، وأن نقدم خشية الله على خشية الناس، وأن نثق بتدبيره ولطفه، حتى نكون من عباده المخلصين، الذين سلموا تسليمًا، ففازوا ب رضوانه وجناته.

المبحث الثاني.
.تفسير آية "مَّا كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ" (الأحزاب: 38) – إعلان رفع الحرج وتقرير سنة الله في الأ نبياء

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

بعد أن قصّ الله علينا في الآية السابقة قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما، وكيف زوّج الله نبيه زينب من فوق سبع سماوات ليكون ذلك تشريعًا عمليًا يرفع الحرج عن المؤمنين في زواج مطلقات الأدعياء، تأتي هذه الآية الكريمة لتضع النقطة الأخيرة في هذا الملف، ولتؤكد حقيقة عظيمة هي: أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس عليه حرج في أن يفعل ما فرضه الله له وأحله، وأن هذا هو سنّة الله في الأنبياء من قبله، وأن أمر الله كله واقع بمقدار.

إنها آية تقرر قاعدة كلية في التعامل مع الأحكام الشرعية التي قد تستثقلها النفوس، أو تستنكرها العادات، أو يثير حولها المنافقون والمتربصون الشبهات. إنها تعلن بكل وضوح: لا حرج على النبي فيما أحل الله له، فكيف بغيره من المؤمنين؟

يقول الله تعالى: "مَّا كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا"

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، ليحررنا من حرج العادات وقيود الأوهام، وليعيدنا إلى صفاء التوحيد ونقاء التسليم.

الامر الاول:
"مَّا كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ" – قاعدة رفع الحرج وأبعادها الإيمانية

اللمسة البيانية الأولى: "مَّا كانَ" – أقوى صيغ النفي المؤكد

تبدأ الآية الكريمة بصيغة "مَّا كانَ"، وهي – كما أسلفنا في آيات سابقة – من أقوى صيغ النفي في لغة العرب، وتفيد نفي الشيء واستحالة وقوعه. فالمعنى: يستحيل، ولا يمكن أن يكون، ولا يتصور بحال، أن يكون على النبي حرج فيما فرضه الله له وأحله.

وهذا النفي القوي يقطع الطريق على كل شبهة، ويسد الباب على كل وسواس قد يثيره أعداء الدين أو ضعفاء النفوس. إنه يعلن أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من زواجه بزينب بعد طلاقها من زيد، هو أمر مباح، بل هو واجب بحكم التشريع الإلهي، فلا حرج فيه، ولا إثم، ولا عيب.

اللمسة البيانية الثانية: "عَلَى النَّبِيِّ" – تحديد المخاطب وتشريفه

لفظة "النَّبِيِّ" هنا هي محور النفي. فالآية تنفي الحرج عن النبي صلى الله عليه وسلم خصوصًا، مع أن الحكم عام للمؤمنين. ولكن تخصيص النبي بالذكر له دلالات عظيمة:

.١تشريف للنبي وتكريم له

الله تعالى يخص نبيه بالذكر، وينفي عنه الحرج في هذا الموقف بالذات، لأن المتهمين والمتربصين كانوا يستهدفون شخص النبي، ويحاولون تشويه صورته، وإلصاق الحرج والعيب به. فجاء الرد الإلهي مباشرة: "ما كان على النبي من حرج". فكأن الله يقول: "أنتم أيها المنافقون تقولون: إن محمدًا وقع في الحرج والعيب! كلا والله! ما كان على النبي من حرج أبدًا".

.٢تأكيد عصمة النبي في تبليغ الشرع وامتثاله

النبي صلى الله عليه وسلم هو القدوة والأسوة. فإذا ثبت أنه لا حرج عليه فيما فعله، كان ذلك تشريعًا عامًا للأمة: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ" (الأحزاب: 21). فنفي الحرج عن النبي هو نفي للحرج عن كل مؤمن يفعله.

اللمسة البيانية الثالثة: "مِنْ حَرَجٍ" – تنكير الحرج لشمول كل أنواع الحرج

لفظة "حَرَجٍ" جاءت نكرة في سياق النفي، والتنكير هنا يفيد العموم والشمول. أي: لا يوجد أي نوع من أنواع الحرج على النبي فيما فرض الله له.

ما هو الحرج؟
الحرج في اللغة: الضيق والمشقة والإثم. فهو يشمل:

· الحرج النفسي: كالشعور بالضيق والقلق من كلام الناس.
· الحرج الاجتماعي: كالخوف من العار أو قالة السوء.
· الحرج الشرعي: كأن يكون الفعل إثمًا أو محرمًا.

فالآية تنفي عن النبي كل هذه الأنواع من الحرج. فما فعله لم يكن إثمًا، ولا عارًا، ولا ينبغي أن يكون سببًا للضيق النفسي، لأنه أمر الله وفرضه.

اللمسة البيانية الرابعة: "فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ" – تحديد مجال نفي الحرج

هذا هو القيد المهم. نفي الحرج عن النبي ليس مطلقًا في كل شيء، بل هو مقيد بما فرضه الله له وأحله. فما أحله الله من مباحات (كالزواج، والأكل، والشرب)، لا حرج على النبي في فعله. وما أوجبه الله عليه، لا حرج عليه في أدائه. وما قضاه الله من أقدار، لا حرج عليه في وقوعها.

"فَرَضَ اللَّهُ" هنا بمعنى: شرع وأحل وأوجب .فالزواج بزينب كان فرضًا بمعنى الإباحة والتشريع، وقيل: كان فرضًا بمعنى الوجوب على النبي خاصة، تنفيذًا لحكمة إلهية .وعلى كلا المعنيين، فما شرعه الله وأذن فيه، لا يمكن أن يكون حرجًا على من امتثله.

الرسائل التربوية والنفسية من هذه القاعدة العظيمة

أ. تحرير المؤمن من "حرج العادات" و"ضغط المجتمع"

هذه الآية ترسي قاعدة ذهبية في حياة المؤمن: "لا حرج عليك فيما أحل الله لك". فإذا كنت تفعل أمرًا أحله الله، فلا تلتفت إلى استنكار الناس، ولا تشعر بـ الحرج النفسي، ولا تخف من قالة السوء. فما دام الله قد فرضه لك (أي: أحله وشرعه)، فهو حقك، ولا حرج عليك فيه.

مثال من الواقع المعاصر:

· رجل يريد أن يتزوج بامرأة مطلقة أو أرملة .قد يقول له الناس: "عيب! تزوج واحدة كانت متزوجة قبلك!" .هذه الآية تقول له: "ما كان على المؤمن من حرج فيما أحل الله له" .زواجك من مطلقة حلال ، بل قد يكون سنة) فالنبي تزوج مطلقات وأرامل .(فلا تشعر بالحرج، ولا تلتفت لكلام الناس.
· امرأة تريد أن تطلب الطلاق لسبب شرعي) مثل: سوء عشرة الزوج، أو عدم قدرتها على الصبر معه .(قد يقول لها المجتمع: "الطلاق عار! اصبري ولو على جمر!" .هذه الآية تقول: "ما كان على المؤمنة من حرج فيما أحل الله لها" .الطلاق حلال عند الحاجة، ولا حرج عليك فيه إذا كان لسبب شرعي.

ب. الفرق بين "الحرج الشرعي" و"الحرج الوهمي"

كثير من الناس يعيشون في حرج وهمي، سببه العادات والتقاليد والخوف من كلام الناس. أما الحرج الشرعي الحقيقي، فهو ما حرمه الله (كالزنا، والربا، والكذب). فالآية تعلمنا أن نميز بين النوعين:

· ما أحل الله: لا حرج فيه، حتى لو استنكره الناس.
· ما حرم الله: هو الحرج الحقيقي، وهو الإثم والضلال.

تطبيق عملي:
قبل أن تشعر بالضيق أو الحرج من فعل شيء، اسأل نفسك: "هل هذا الفعل مما أحله الله أم مما حرمه؟". فإن كان مما أحله الله، فاطرد عن نفسك الحرج الوهمي، وتذكر قول الله: "مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ".

ج. النبي قدوة في التحرر من الحرج الوهمي

النبي صلى الله عليه وسلم تزوج زينب بأمر الله، رغم الضجة التي أثارها المنافقون، ورغم الحرج النفسي الذي كان يشعر به في البداية (كما في آية: "وَتَخْشَى النَّاسَ"). ولكنه امتثل أمر الله، وتجاوز الحرج الوهمي، فكان قدوة لأمته في التحرر من ضغط المجتمع.

وهذا يعلمنا أن القدوة الحقيقية لا تكون في اتباع العادات، بل في اتباع شرع الله، حتى لو خالف ذلك هوى الناس وعاداتهم.
الأمر الثاني:
"سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" – تأصيل تاريخي وربط بسنة الأنبياء

بعد أن قررت الآية قاعدة رفع الحرج عن النبي فيما أحل الله له، جاءت بهذا التعليل التاريخي العميق: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ". وهذا الربط يقطع الطريق على كل من يظن أن هذا الحكم خاص بالنبي، أو أنه بدع في الشرائع.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ"

١."سُنَّةَ اللَّهِ" – منصوب على المصدرية: تأكيد وتقرير

لفظة "سُنَّةَ" منصوبة على المصدرية، أو على الاختصاص. والتقدير: "سَنَّ اللَّهُ ذَلِكَ سُنَّةً"، أو "نحن على سنة الله". والمعنى: أن رفع الحرج عن النبي فيما أحل الله له، هو قانون إلهي ثابت، وسنة ماضية في جميع الأنبياء من قبله.

ما هي "سنة الله"؟
سنة الله هي طريقته وقانونه الذي أجراه في خلقه، وهو ثابت لا يتغير ولا يتبدل. قال تعالى: "فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا" (فاطر: 43).

٢."فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" – الإشارة إلى الأنبياء السابقين

"الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" هم الأنبياء والرسل الذين سبقوا النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم .فالله يخبرنا أن رفع الحرج عن النبي فيما أحل الله له، هو نفس السنة التي كانت للأنبياء من قبله.

مثال من حياة الأنبياء السابقين:

· داود عليه السلام: تزوج امرأة أوريا بعد أن طلقها زوجها، فلم يكن عليه حرج في ذلك، مع أن المنافقين قد يثيرون الشبهات حول هذا الزواج .ولكن الله أحله له، فكان سنة.
· سليمان عليه السلام: كان له نساء كثيرات، وتزوج من أمهات الأولاد ومن غيرهم، فلم يكن عليه حرج في ذلك، لأنه أمر أحله الله له وللأنبياء من قبله.

وهكذا، فإن زواج النبي محمد صلى الله عليه وسلم بزينب بعد طلاقها من زيد، هو امتداد لسنة إلهية ثابتة في حياة الأنبياء، وليس أمرًا شاذًا أو مستنكرًا.

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الربط التاريخي

أ. أن أحكام الله ليست بدعًا، بل هي سنن ثابتة

هذه الآية تؤكد أن الشريعة الإسلامية ليست منقطعة عن الشرائع السابقة، بل هي امتداد لها في أصولها ومبادئها. فما أحله الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، هو من جنس ما أحله للأنبياء من قبله. وهذا يرد على شبهات المستشرقين والمنافقين الذين يحاولون تشويه صورة النبي بزعم أن تعدد زوجاته أو زواجه بزينب كان أمرًا شاذًا.

تطبيق معاصر:
عندما تقرأ شبهة حول تعدد زوجات النبي، أو زواجه بزينب، فتذكر أن هذه سنة الله في الأنبياء من قبله. فداود وسليمان وغيرهما كان لهم نساء كثيرات، ولم يكن ذلك عارًا عليهم، بل كان تشريعًا إلهيًا لحكم بالغة. فلماذا يُستنكر على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ما كان سنة فيمن سبقه من الأ نبياء؟!

ب. الاطمئنان إلى أن ما شرعه الله هو الخير كله

الربط بـ "سنة الله في الذين خلوا من قبل" يمنح المؤمن طمأنينة ويقينًا بأن أحكام الله ليست عشوائية، بل هي قوانين ثابتة، جرت بها سنته في الأمم السابقة. فالله حكيم عليم، وشرعه خير ورحمة.
الأمر الثالث:
"وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا" – ختم الآية بحقيقة القدر النافذ

هذا هو الختم الإلهي للآية الكريمة، وهو ختم يفيض عزة وجلالًا ويقينًا. وقد تكرر هذا المعنى في الآ ية السابقة: "وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا"، ولكن هنا جاء بصيغة أبلغ وأعمق: "قَدَرًا مَقْدُورًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا"

١."وَكانَ" – فعل الكون: دوام وثبوت الحقيقة

كما سبق، "كانَ" تفيد الدوام والثبوت. فالمعنى: لم يزل ولا يزال أمر الله واقعًا بمقدار، نافذًا لا يرده شيء.

٢."أَمْرُ اللهِ" – إضافة الأمر إلى الله: مصدر العزة والقوة

الأمر مضاف إلى الله، الذي له الأمر كله، والذي لا معقب لحكمه. فإذا كان الآمر هو الله، فمن ذا الذي يستطيع أن يمنع أو يعترض؟

٣."قَدَرًا مَقْدُورًا" – تأكيد على أن الأمر مقدر بتدبير محكم

هذا التعبير العجيب "قَدَرًا مَقْدُورًا" فيه مبالغة وتأكيد عظيمان:

· "قَدَرًا" مصدر مؤكد، أي: تقديرًا وتدبيرًا.
· "مَقْدُورًا" اسم مفعول مؤكد، أي: مقدرًا في علم الله الأزلي، ومحكمًا في تنفيذه.

فالمعنى: أمر الله كله – ومنه زواج النبي بزينب – هو واقع بمقدار، مقدر في علم الله الأزلي، جاري وفق حكمته وتدبيره، لا يمكن أن يتخلف أو يتبدل.

الفرق بين "مفعولًا" و"مقدورًا" – دقة البيان القرآني

في الآية السابقة قال: "وَكانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا"، وفي هذه الآية قال: "وَكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا". ولكل تعبير موقعه المناسب:

· "مَفْعُولًا" في الآية السابقة، كان التركيز على وقوع الفعل نفسه) زواج النبي بزينب .(فكان التعبير بـ "مفعولًا" مناسبًا، لأنه يدل على أن الأمر قد فُعل وتم.
· "قَدَرًا مَقْدُورًا" في هذه الآية، كان التركيز على رفع الحرج وبيان السنة الإلهية .فكان التعبير بـ "قدرًا مقدورًا" مناسبًا، لأنه يدل على أن هذا الأمر) رفع الحرج عن النبي، وسنة الله في الأنبياء (هو

تقدير إلهي محكم، وقانون ثابت، لا مجرد حادثة عابرة.

الرسائل التربوية والنفسية من ختم الآية بالقدر

أ. اليقين بأن كل ما يقع فهو بتقدير الله وحكمته

هذه الآية تزرع في قلب المؤمن يقينًا راسخًا بأن كل ما يجري في الكون – من أحداث وأحكام وأقدار – هو بقدر الله وتدبيره. فما أحله الله، فقد قدره وأراده. وما حرمه، فقد قدره وأراده. وما وقع من مصائب أو نعم، فهو بقدر الله.

وهذا اليقين هو سر الطمأنينة وسكينة القلب. فالمؤمن يعلم أن أمر الله نافذ، وأن ما قدره كان، وما لم يقدره لن يكون. فلا يجزع من مصيبة، ولا يبطر عند نعمة، بل يسلم الأمر لله.

تطبيق نفسي:
عندما تواجه موقفًا صعبًا، أو تتعرض لانتقادات بسبب تمسكك بشرع الله، تذكر أن أمر الله قدر مقدور. فما قدره الله من أذى الناس لك، هو واقع لا محالة، وما قدره من ثباتك هو واقع لا محالة. فتوكل على الله، وامض في طريقك، ولا تلتفت إلى قالة السوء.

ب. أن أحكام الله الشرعية هي من قدره، فلا اعتراض عليها

كما أن أقدار الله الكونية (كالمرض والموت) يجب الرضا بها، فإن أحكامه الشرعية (كالحلال والحرام) يجب التسليم لها. فالله قدر أن يكون هذا حلالًا وهذا حرامًا، فلا يجوز الاعتراض على حكمه، ولا استنكار ما أحله.

تطبيق عملي:
عندما تسمع حكمًا شرعيًا قد تستثقله نفسك (مثل: تحريم الربا، أو وجوب الحجاب)، فقل لنفسك: "هذا أمر الله، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا". فليس لي الخيرة في هذا الأمر، بل عليّ التسليم، لأن الله حكيم عليم، وشرعه كله خير ورحمة.

ج. الفرق بين "القضاء" و"القدر" في هذه الآية

الآية تجمع بين "أَمْرُ اللهِ" (وهو القضاء) و"قَدَرًا مَّقْدُورًا" (وهو القدر). والقضاء هو الحكم الكلي، والقدر هو التفصيل والتنفيذ.

· القضاء: أن الله حكم في الأزل بأن النبي سيتزوج زينب، وأن ذلك حلال، ولا حرج فيه.
· القدر: أن هذا الحكم نفذ في وقته المحدد، بطلاق زيد، ثم زواج النبي.

وهذا يعلمنا أن أحكام الله الشرعية هي من قضائه وقدره، فلا حرج على المؤمن في امتثالها.

رابعًا:
كيف نعيش آية "مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ" في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.في مواجهة ضغط المجتمع والعادات: لا حرج فيما أحل الله

التطبيق العملي:

· إذا كنت شابًا وتريد أن تتزوج من امرأة مطلقة أو أرملة، وتخاف من كلام الناس، فتذكر هذه الآية: "ما كان على المؤمن من حرج فيما أحل الله له" .زواجك بها حلال، بل قد يكون سنة، فلا تشعر بـ الحرج، ولا تلتفت لقالة السوء.
· إذا كنت فتاة وتريدين خلع الحجاب أو التبرج خوفًا من سخرية الزميلات، فتذكري أن الحجاب هو فرض الله، وليس حرجًا عليك، بل الحرج هو في مخالفة أمر الله .فاثبتي على حقك، ولا تخافي في الله لومة لائم.

.٢في تحرير النفس من "الحرج الوهمي" في الأمور المباحة

التطبيق العملي:

· في الطعام والشراب: قد تجد في مجتمعك من يحرم على نفسه بعض الطيبات التي أحلها الله)مثل: بعض أنواع الطعام، أو بعض أنواع الترفيه المباح .(هذه الآية تحررك من هذا الحرج الوهمي . فما أحله الله، لا حرج فيه، ولا ينبغي أن تشعر بالذنب أو الضيق من فعله.
· في الزواج والطلاق: كثير من الناس يعيشون في حرج نفسي بسبب خوفهم من الطلاق، حتى لو كانت الحياة الزوجية مستحيلة .هذه الآية تذكرهم بأن الطلاق – عند الحاجة – هو حلال، ولا حرج فيه .فلا تجعلوا الخوف من كلام الناس سببًا في استمرار الظلم والشقاء.

.٣في التعامل مع شبهات أعداء الإسلام حول أحكام الشريعة

التطبيق العملي:

· عندما تسمع شبهة حول تعدد زوجات النبي، أو زواجه بزينب، أو أي حكم شرعي، تذكر هذه الآية: "سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" .فهذه الأحكام ليست بدعًا، بل هي سنن إلهية ثابتة .فلا تهتز ثقتك بدينك، واطلب العلم الشرعي لترد به على الشبهات.

.٤في الرضا بقضاء الله وقدره: "وَكانَ أَمْرُ اللهِ قدَرًا مَقدُورًا"

التطبيق العملي:

· إذا فشلت في مشروع كنت ترجوه، أو فقدت عزيزًا عليك، أو أصابتك مصيبة، فقل: "قدر الله وما شاء فعل" .تذكر أن أمر الله قدر مقدور، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك .هذا اليقين هو البلسم الشافي لجراح القلوب.

.٥في تربية الأبناء: غرس معاني التحرر من الحرج الوهمي

التطبيق العملي:

· علموا أبناءكم أن الحرج الحقيقي هو معصية الله، لا كلام الناس .فإذا أرادوا فعل أمر مباح، وخافوا من سخرية الأصدقاء، فذكروهم بقول الله: "مَّا كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ".
· علموهم أن الأنبياء هم القدوة، لا المشاهير والمؤثرون .فإذا تعارضت العادة مع الشرع، فالشرع مقدم، ولا حرج في اتباعه.

خامسًا: القيم المستفادة من الآية 38

القيمة تجلياتها في الآية
رفع الحرج عن المؤمن فيما أحل الله "مَّا كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ" – قاعدة كلية في التيسير.
التحرر من ضغط العادات والمجتمع نفي الحرج عما أحله الله، ولو استنكره الناس.
الاقتداء بالأنبياء في التحرر من الحرج الوهمي النبي قدوة في تنفيذ أمر الله رغم ضغط المنافقين.
وحدة الشرائع في أصولها ومبادئها "سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" – الإسلام امتداد للشرائع السابقة.
اليقين بأن أمر الله نافذ ومقدر "وَكانَ أَمْرُ اللهِ قدَرًا مَقدُورًا" – كل ما يجري بتقدير الله وتدبيره.
التسليم لأحكام الله الشرعية كما نسلم لأقداره الكونية، نسلم لأحكامه الشرعية.
التمييز بين الحرج الشرعي والحرج الوهمي الحرج الحقيقي هو ما حرمه الله، لا ما استنكره الناس.
الطمأنينة النفسية بثبات سنة الله سنن الله ثابتة لا تتغير، مما يمنح المؤمن استقرارًا نفسيًا.
خاتمة: في رحاب رفع الحرج ونفاذ القدر

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تضع أمام المؤمن قاعدة ذهبية في التعامل مع أحكام الله وأقداره. إنها آية تحرره من حرج العادات وضغط المجتمع، وتربطه بـ سنة الله الثابتة في الأنبياء من قبله، وتمنحه اليقين بأن أمر الله نافذ، وقدره واقع لا محالة.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· لا حرج على المؤمن فيما أحل الله له، ولو استنكره الناس.
· سنة الله في الأنبياء من قبله هي رفع الحرج والتيسير.
· أمر الله كله قدر مقدور، واقع في موعده المحدد، وفق حكمته وتدبيره.
· الحرج الحقيقي هو معصية الله، لا قالة الناس.

فلنحرص – رجالًا ونساءً – أن نكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن نتحرر من الحرج الوهمي الذي تفرضه علينا العادات والتقاليد المخالفة للشرع. ولنجعل كتاب الله وسنة رسوله هما المقياس والفيصل، ولنوقن بأن أمر الله قدر مقدور، فلا يضرنا من خالفنا، ولا ينفعنا من وافقنا، إ لا بإذن الله.

القسم الثاني

المبحث الأول

تفسير آية "الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ" (الأحزاب: 39) – ميثاق الدعوة والخشية والثقة بالله

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني العظيم، الذي يرسم لنا صورة الأنبياء و المرسلين، والدعاة الصادقين من بعدهم، في أسمى حالات التبليغ والخشية والتوكل. إنها آية تفيض عزة وشجاعة ويقينًا، وتضع أمامنا المنهج الرباني لمن حملوا على عواتقهم أعظم أمانة في الوجود: تبليغ رسالات الله إلى الناس.

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن رفع الحرج عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما أحل الله له، وعن سنته تعالى في الأنبياء من قبله، تأتي هذه الآية لتكشف عن الصفات الأساسية التي أهلتهم لحمل هذه الأمانة العظيمة، والتي ينبغي أن يتحلى بها كل من سار على دربهم من الدعاة والمصلحين إلى يوم الدين.

يقول الله تعالى: "الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا"

إنها ليست مجرد آية تتلى في المحاريب، بل هي وثيقة شرف لكل داعية، وميثاق عمل لكل مصلح، ودستور حياة لكل من تصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إنها الآية التي تعلن أن التبليغ ليس مجرد نقل كلمات، بل هو حمل أمانة ومواجهة تحديات، لا يقوى عليها إلا من امتلأ قلبه بخشية الله، وتحرر من خشية الناس.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، ليشحذ هممنا، ويقوي عزائمنا، ويذكرنا بأن حمل رسالة الله هو أشرف مهمة، وأن الثقة بالله هي أعظم زاد.

الأمر الأول:
"الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ" – شرف المهمة وعظم الأمانة

اللمسة البيانية الأولى: "الَّذِينَ" – اسم موصول للتعظيم والتفخيم

تبدأ الآية الكريمة باسم الموصول "الَّذِينَ"، وهو هنا في محل رفع على المدح، أو نعت للأنبياء المذكورين في الآية السابقة: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ". فكأنه يقول: "هم الذين يبلغون رسالا ت الله". وهذا الأسلوب – الإخبار عنهم بهذه الصفات الجليلة – هو مدح عظيم وتفخيم لشأنهم.

اللمسة البيانية الثانية: "يُبَلِّغُونَ" – صيغة المضارع: التجدد والاستمرار

لفظة "يُبَلِّغُونَ" فعل مضارع، وهو يفيد التجدد والاستمرار. فتبليغ رسالات الله لم يكن حدثًا عابرًا في حياة الأنبياء، بل كان وظيفتهم الدائمة، وشغلهم الشاغل، وهدف حياتهم. إنهم في تبليغ دائم، لا يكلون ولا يملون، مهما واجهوا من عقبات وتحديات.

اللمسة البيانية الثالثة: "رِسَالَاتِ اللَّهِ" – جمع الرسالات: شمول وعموم

لفظة "رِسَالَاتِ" جاءت جمعًا، مع أن كل نبي له رسالة واحدة. وهذا الجمع له دلالتان:

١.شمول جميع الرسالات السماوية

الآية تتحدث عن جميع الأنبياء، وكل منهم يبلغ رسالة الله التي أوحيت إليه. فالجمع هنا لاختلاف المخاطبين، أي: كل واحد منهم يبلغ رسالته. وهذا يشمل نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا عليهم الصلاة والسلام، وغيرهم من الأنبياء.

٢.إشارة إلى أن الرسالة الواحدة تشتمل على رسالات متعددة

حتى النبي الواحد، رسالته واحدة في أصلها (التوحيد)، ولكنها تشتمل على رسالات متعددة في تفاصيلها: رسالة في العبادات، ورسالة في المعاملات، ورسالة في الأخلاق، ورسالة في التشريع. فهو يبلغ رسالات الله بكل هذه المعاني.

اللمسة البيانية الرابعة: إضافة "رِسَالَاتِ" إلى "اللهِ" – مصدر القداسة والعزة

الرسالات مضافة إلى "اللهِ"، وهذا التعظيم هو الذي يمنحها قداستها، ويفرض على المبلغين مسؤولية عظيمة في حفظها وتبليغها كما أنزلت، دون تحريف أو تبديل أو كتمان.

أبعاد التبليغ: ما معنى "يبلغون رسالات الله"؟

التبليغ ليس مجرد إلقاء كلمات أو نقل نصوص. إنه عملية متكاملة تشمل:

أ. التبليغ الكامل غير المنقوص

المبلغ الحق هو من يبلغ الرسالة كاملة، لا يحذف منها شيئًا خوفًا من الناس، ولا يزيد عليها شيئًا اتباعًا للهوى. وهذا من أعظم أمانة التبليغ. قال تعالى لنبيه: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ" (المائدة: 67).

ب. التبليغ الواضح البيّن

المبلغ الحق هو من يبلغ الرسالة ببيان ووضوح، حتى يفهمها الناس، وتقوم عليهم الحجة. فلا يكفي أن يتلو النصوص، بل يجب أن يشرحها ويفسرها ويقربها إلى أفهام المخاطبين.

ج. التبليغ بالحكمة والموعظة الحسنة

المبلغ الحق هو من يراعي أحوال المخاطبين، فيخاطبهم على قدر عقولهم، ويستخدم الحكمة و الموعظة الحسنة، كما أمر الله: "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" (النحل: 125).

الرسائل التربوية والنفسية من صفة "يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ"

أ. شرف حمل رسالة الله إلى الناس

هذه الآية تذكر كل داعية ومصلح ومعلم خير، بأنه يسير على درب الأنبياء، ويحمل أشرف مهمة في الوجود: تبليغ رسالات الله إلى الناس. وهذا الشرف يهون عليه كل مشقة، ويجعله يستصغر كل تضحية في سبيل هذه المهمة.

تطبيق معاصر:

· الأم التي تعلم أبناءها القرآن والسنة، هي مبلغة لرسالات الله، ولها من الشرف والأجر مثل ما للأ نبياء في التبليغ، بقدر إخلاصها وجهدها.
· المعلم الذي يغرس القيم الإسلامية في طلابه، هو مبلغ لرسالات الله، وله أجر عظيم على كل طالب يهتدي على يديه.
· الناشط على وسائل التواصل الذي ينشر آية أو حديثًا أو موعظة حسنة، هو مبلغ لرسالات الله، وله أجر من قرأ وانتفع.

ب. الأمانة في التبليغ: لا كتمان ولا تحريف

الآية تذكرنا بأن الرسالة هي رسالة الله، وليست رسالتنا الشخصية. فلا يحق لنا أن نكتم منها شيئًا، أو نحرفها لتوافق أهواء الناس، أو نسقط منها ما لا يعجبهم. فالمبلغ أمين على وحي الله، وسيحاسبه الله على أمانته.

تطبيق عملي:

· عندما تقدم نصيحة أو درسًا، احرص على أن تنقل كلام الله ورسوله كما هو، دون زيادة أو نقصان، ودون تأويل يخالف مراد الشارع.
· إذا كنت في مجلس وطُلب منك الفتوى، فلا تقل بغير علم، ولا تخفف من حكم الله خوفًا من رد فعل السائل. بل اصدع بالحق، وقل: "قال الله، قال رسوله"، بأدب وحكمة.

ج. استمرارية التبليغ: لا تتوقف عند عقبة

"يُبَلِّغُونَ" بصيغة المضارع تدل على الاستمرار. فالمبلغ الحق لا يتوقف عن دعوته بسبب صعوبة، أو إعراض الناس، أو كثرة المعوقات. إنه مستمر في تبليغ رسالة الله، بالليل والنهار، في السر والعلن، بكل وسيلة متاحة.

تطبيق معاصر:
إذا أغلق في وجهك باب من أبواب الدعوة (مثل: منعك من إلقاء درس في مسجد، أو حظر حسابك على وسائل التواصل)، فلا تيأس، بل ابحث عن باب آخر. فالرسالة يجب أن تبلغ، والله سيفتح لك من أبواب الخير ما لا تحتسب.
الأمر الثاني:
ش "وَيَخْشَوْنَهُ" – خشية الله: وقود التبليغ وسر الثبات

بعد أن ذكرت الآية التبليغ، أتبعته بـ "وَيَخْشَوْنَهُ". وهذا الترتيب له دلالة عظيمة: أن خشية الله هي الدافع للتبليغ، وهي الوقود الذي يمد المبلغ بالطاقة والصبر.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَيَخْشَوْنَهُ"

١.الواو: عطف الصفات المتكاملة

الواو هنا واو العطف، وهي تفيد الجمع بين صفات المبلغين: فهم يبلغون وهم يخشون. فالتبليغ بدون خشية قد يكون رياءً أو طلبًا للشهرة. والخشية بدون تبليغ قد تكون أنانية روحية. أما كمال الصورة فهو في الجمع بينهما.

٢."يَخْشَوْنَ" – الفرق بين الخشية والخوف

لفظة "الخَشْيَة" أخص من "الخوف". فالخوف قد يكون من عقاب أو ضرر، أما الخشية فهي خوف ممزوج بتعظيم وإجلال ومحبة. وهي ثمرة العلم بالله ومعرفة عظمته. قال تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" (فاطر: 28).

فالأنبياء – ومن سار على دربهم – يخشون الله، أي: يخافونه خوف إجلال وتعظيم، وليس مجرد خوف من عقابه فقط. وهذه الخشية هي التي تدفعهم إلى التبليغ (خوفًا من كتمان العلم)، وتمنعهم من التحريف (خوفًا من عقابه)، وتصبرهم على الأذى (لأنهم يعظمون أمر الله فوق كل شيء).

٣.الضمير "الهاء" في "وَيَخْشَوْنَهُ": العودة إلى الله

الضمير في "يَخْشَوْنَهُ" يعود إلى الله تعالى. فهم يخشون الله وحده، لا يخشون سواه. وهذا هو سر قوتهم وثباتهم.

الرسائل التربوية والنفسية من صفة "وَيَخْشَوْنَهُ"

أ. الخشية هي دافع التبليغ وضابطه

الداعية الذي يمتلئ قلبه بخشية الله، لا ينتظر مكافأة من الناس، ولا يطلب شهرة أو جاهاً. إنه يبلغ لأن الله أمره بذلك، ويخشى أن يسأله عن كتمانه للعلم. وهذه الخشية تجعله صادقًا في دعوته، مخلصًا في عمله، ثابتًا على الحق.

تطبيق عملي:
قبل أن تلقي كلمة، أو تنشر منشورًا، اسأل نفسك: "لماذا أفعل هذا؟". هل هو ابتغاء مرضاة الله وخشيته، أم طلبًا لمدح الناس وإعجابهم؟ فإن كان لله، فامض. وإن كان لغيره، فراجع نيتك، وجدد إخ لاصك.

ب. الخشية تورث الشجاعة في التبليغ

الغريب أن الخشية من الله تورث الشجاعة في مواجهة الناس. فمن خاف الله، لم يخف أحدًا سواه. ومن عظم أمر الله في قلبه، صغر في عينه كل أمر سواه. ولذلك قال بعدها: "وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ".

مثال من الواقع:

· داعية يُطلب منه أن يسكت عن حق، أو يخفف من حكم شرعي، فيأبى، لأنه يخشى الله، ولا يخشى صاحب السلطة أو الجاه.
· عالم يُعرض عليه منصب أو مال مقابل الفتوى بغير الحق، فيرفض، لأنه يخشى الله، ولا يخشى فوات المنصب أو المال.

ج. الخشية من الله هي ميزان العلم الحقيقي

الآية تربط – ضمناً – بين التبليغ والخشية. وهذا يعني أن العالم الحقيقي هو من يخشى الله، وأن الخشية هي ثمرة العلم ودليله. فإذا رأيت داعية أو عالماً لا تظهر عليه سمت الخشية (من تواضع، وورع، وخوف من الله)، فاعلم أن علمه لم ينفعه، وأنه لم يبلغ الدرجة العالية من العلم الذي يورث الخشية.
الأمر الثالث:
"وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ" – إعلان التحرر من الخوف من المخلوقين

هذا هو المقطع الثالث في وصف هؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله. وهو ذروة الشجاعة وقمة التحرر. بعد أن أثبتت الآية خشيتهم لله، نفت عنهم خشية أحد سواه.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ"

١."وَلَا يَخْشَوْنَ" – نفي مطلق للخشية عن غير الله

صيغة "لَا يَخْشَوْنَ" – مع الفعل المضارع – تفيد نفي الخشية عنهم في الحال والاستقبال. فهم لا يخشون أحدًا في الماضي، ولا يخشون أحدًا في الحاضر، ولن يخشوا أحدًا في المستقبل، إلا الله وحده.

٢."أَحَدًا" – نكرة في سياق النفي: عموم وشمول

لفظة "أَحَدًا" نكرة في سياق النفي، وهي تفيد العموم والشمول. أي: لا يخشون أي مخلوق كان، مهما عظم سلطانه، أو كثر ماله، أو اشتد بأسه. فـ "أحدًا" تشمل:

· الملوك والسلاطين بكل جبروتهم.
· الأعداء والخصوم بكل كيدهم.
· عامة الناس بكل كلامهم وانتقاداتهم.

٣."إِلَّا اللَّهَ" – استثناء مفرغ: قصر الخشية على الله وحده

"إِلَّا" هنا استثناء مفرغ من أعم الأحوال، وهو يفيد القصر والحصر. فالمعنى: هم يخشون الله وحده،

ولا يخشون أحدًا سواه. فهذا قصر للخشية على الله، وهو منتهى التوحيد وكمال الإخلاص.

لماذا لا يخشون أحدًا إلا الله؟ سر القوة والثبات

الأنبياء والدعاة الصادقون لا يخشون أحدًا إلا الله، لأنهم:

أ. أيقنوا أن النفع والضر بيد الله وحده

هم يعلمون يقينًا أن الناس لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا إلا بإذن الله. فلماذا يخشون من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا؟ قال تعالى: "وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ" (يونس: 107).

ب. امتلأت قلوبهم بعظمة الله

عندما يمتلئ القلب بعظمة الله، فإنه يستصغر كل عظمة سواه. فمن عرف الله حق معرفته، هانت عليه مخاوف الدنيا بأسرها. إنهم يخشون الله، فلا يبقى في قلوبهم متسع لخشية غيره.

ج. تعلقوا بما عند الله من الأجر والثواب

هم يعلمون أن ما عند الله من الأجر والرضوان هو خير وأبقى من كل ما يخافون فواته من الدنيا. فلماذا يخشون فوات رزق، أو فقدان منصب، وهم موقنون بأن الله هو الرزاق، وأن ما عنده خير وأبقى؟

الرسائل التربوية والنفسية من صفة "وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ"

أ. التحرر من "عبودية الخوف من الناس"

هذه الآية عتق وتحرير للمؤمن من أعظم أنواع العبودية: عبودية الخوف من الناس. كم من إنسان يملك الحق، ويعرف الصواب، لكنه يسكت خوفًا من قالة الناس، أو يتراجع عن مبدأ خوفًا من فقدان منصب، أو يجامل في دينه خوفًا من سخرية زملائه!

الآية تقول لك: "كن من الذين لا يخشون أحدًا إلا الله". تحرر من هذا الخوف المهين، واجعل خشيتك لله وحده. فإذا امتلأ قلبك بخشية الله، خرجت منه خشية المخلوقين.

تطبيق عملي:

· الموظف الذي يُطلب منه الكذب أو الغش في عمله، عليه أن يقول: "أنا لا أخشى المدير، ولكن أخشى الله".
· الطالبة التي تُسخر منها زميلاتها بسبب حجابها الشرعي، عليها أن تقول: "أنا لا أخشى سخريةكن، ولكن أخشى الله".

ب. الفرق بين "الخوف الطبيعي" و"الخشية المذمومة"

من المهم أن نفرق بين الخوف الطبيعي (كالحذر من عدو، أو الخوف من نار) والخشية المذمومة (وهي الخوف الذي يمنع من طاعة الله). فالأنبياء – وهم بشر – كانوا يحذرون من الأعداء، ويتخذون الأسباب للوقاية. ولكن هذا الحذر لم يمنعهم من تبليغ رسالة الله.

فـ "لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا" تعني: لا يخافون خوفًا يمنعهم من طاعة الله وتبليغ رسالته. أما الخوف الطبيعي الذي لا يمنع من الطاعة، فهو جائز، ولا يتنافى مع كمال الإيمان.

مثال توضيحي:

· النبي صلى الله عليه وسلم كان يحذر من كيد الأعداء، وكان يلبس الدروع في المعارك. هذا خوف طبيعي (حذر واحتياط). ولكنه لم يمنعه من تبليغ الدعوة ومواجهة المشركين. فهو لا يخشى أحدًا إلا الله.

ج. أن الخشية من الله هي مصدر الشجاعة الحقيقية

قد يظن البعض أن الشجاعة هي عدم الخوف مطلقًا. وهذا غير صحيح، فالأنبياء يخافون، ولكنهم يخافون الله. وهذا الخوف من الله هو الذي يمنحهم الشجاعة لمواجهة كل ما سواه. فـ الشجاع ليس من لا يخاف، بل هو من يخاف الله، في يخاف شيئًا سواه.
الأمر الرابع:
"وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا" – ختم الآية بالثقة المطلقة في كفاية الله

بعد أن رسمت الآية صورة المبلغين الذين يبلغون رسالات الله، ويخشونه، ولا يخشون أحدًا إلا الله، جاءت بهذا الختم الإلهي العظيم، الذي هو عقد تاج الآية وسر قوتها: "وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا"

١."وَكَفَىٰ" – فعل ماض: تأكيد وقوع الكفاية وتحققها

"كَفَى" فعل ماض، وهو يفيد تحقق الكفاية وثبوتها. فكأنه يقول: "كفى الله، وسيكفي، وهو كافٍ عباده". فالكفاية ثابتة ومتحققة، لا شك فيها ولا تردد.

٢."بِاللَّهِ" – الباء زائدة للتوكيد، واسم الجلالة فاعل

الباء في "بِاللَّهِ" هي باء زائدة، دخلت على اسم الجلالة وهو فاعل في المعنى. والتقدير: "وكفى الله حسيبًا". وزيادة الباء هنا تفيد التوكيد والتعظيم. فكأنه يقول: "كفى بِاللَّهِ! نعم الكافي هو اللَّهُ!".

٣."حَسِيبًا" – تمييز: بيان جهة الكفاية

"حَسِيبًا" منصوب على التمييز، وهو يبين جهة الكفاية. فـالله كافٍ عباده من جهة الحساب والمحاسبة.

معاني "حسيبًا":

· الحسيب: الكافي. أي: كفى بِاللَّهِ كافيًا لعباده، يحميهم، ويرزقهم، وينصرهم. وهذا هو المعنى الأبرز في الآية.
· الحسيب: المحاسب. أي: كفى بِاللَّهِ محاسبًا لأعمال عباده، ومجازيًا لهم عليها. فهو يحصي أعمالهم، وسيحاسبهم عليها يوم القيامة.
· الحسيب: الرقيب الشهيد. أي: كفى بِاللَّهِ رقيبًا على أعمال عباده، شهيدًا عليهم، لا تخفى عليه خافية.

والآية تشمل كل هذه المعاني. فـالله كافٍ للمبلغين عن كل ما يخشونه، وهو محاسبهم على تبليغهم وخشيتهم، وهو رقيب عليهم، يعلم صدقهم وإخلاصهم.

الرسائل التربوية والنفسية من ختم الآية "وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا"

أ. الثقة المطلقة في كفاية الله وحده

هذه الآية تزرع في قلب الداعية وكل مؤمن يقينًا راسخًا بأن الله كافيه في كل شيء:

· كافيه في حمايته من كيد الأعداء.
· كافيه في رزقه من حيث لا يحتسب.
· كافيه في نصرته على من عاداه.
· كافيه في حسابه وجزائه على عمله.

فإذا بلغت رسالة الله، وخشيته، ولم تخش أحدًا سواه، فثق أن الله كافيك، ولن يضيع أجرك، ولن يخذلك، ولن يسلمك لأعدائك.

تطبيق نفسي:
عندما تشعر بالقلق من رد فعل الناس على دعوتك، أو تخاف من فقدان رزقك بسبب تمسكك بالحق، قل لنفسك: "كفى بِاللَّهِ حسيبًا". هو حسبي، وهو كافيني، وهو نعم الوكيل.

ب. التذكير بالحساب: تحفيز على الإخلاص والتقوى

كون الله "حسيبًا" بمعنى محاسبًا، يجعل الداعية دائم المراقبة لنيته وعمله. فهو يعلم أن الله سيحاسبه على تبليغه: هل بلغ كاملًا أم ناقصًا؟ وهل كان مخلصًا أم مرائيًا؟ وهل خشي الله أم خشي الناس؟

هذا الاستحضار الدائم للحساب هو أعظم حافز على الإخلاص والتقوى والصدق في الدعوة.

تطبيق عملي:

· قبل أن تنشر منشورًا، أو تلقي كلمة، اسأل نفسك: "ماذا سأقول لله يوم القيامة عندما يسألني عن هذا التبليغ؟ هل سأقول: بلغته خالصًا لوجهك؟ أم سأقول: أردت به مدح الناس؟".
· تذكر أن الله حسيبك، فليكن عملك خالصًا، وقولك صادقًا، وخشيتك لله وحده.

ج. كفاية الله تغني عن كفاية المخلوقين

إذا كفاك الله، فمن ذا الذي يستطيع أن يضرك؟ وإذا لم يكفك الله (بسبب ذنب أو تقصير)، فمن ذا الذي يستطيع أن ينفعك؟ هذه الآية تقطع تعلق القلب بالمخلوقين، وتجعله متعلقًا بالله وحده.

تطبيق معاصر:

· الداعية الذي يعتمد على علاقاته بالمسؤولين، أو دعم الأثرياء، قد يخذل يومًا ما. أما من اعتمد على الله، ووثق في كفايته، فهو في حصن حصين، لا يضره من خذله، ولا ينفعه من نصره، إلا بإذن الله.

خامسًا: كيف نعيش آية "الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ" في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.تبليغ رسالات الله في محيطنا الخاص والعام

التطبيق العملي:

· في الأسرة: أنتِ – أيتها الأم – مبلغة لرسالات الله إلى أبنائك. علميهم القرآن، والسنة، والأخلاق الإ سلامية. كوني لهم القدوة في الخشية من الله وعدم الخوف من الناس.
· في العمل: أنت – أيها الموظف – مبلغ لرسالات الله بأخلاقك وتعاملاتك. كن أمينًا، صادقًا، محترمًا، تذكر الله في كل تصرفاتك. هذا تبليغ صامت، ولكنه بليغ.
· على وسائل التواصل: أنت – أيها الناشط – مبلغ لرسالات الله بكل كلمة طيبة، وآية تنشرها، وحديث تذكر به. اجعل حسابك منبرًا للدعوة، لا ساحة للغو والجدال.

٢.تربية القلب على خشية الله وحده

التطبيق العملي:

· تدبر القرآن: اجعل لك وردًا يوميًا من القرآن، تتدبره وتتفكر في معانيه. القرآن هو أعظم وسيلة لزرع خشية الله في القلب.
· ذكر الله: أكثر من ذكر الله في كل أوقاتك: "سُبْحَانَ اللهِ، وَالحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ". الذكر يملأ القلب بتعظيم الله، ويطرد منه خشية المخلوقين.
· محاسبة النفس: قبل النوم، حاسب نفسك: "هل خشيت الله اليوم؟ أم خشيت الناس؟". هذه المحاسبة تعين على تزكية النفس.

٣.التحرر من الخوف من الناس في نصرة الحق

التطبيق العملي:

· في مواجهة المنكر: إذا رأيت منكرًا، فأنكره بقلبك (وهذا أضعف الإيمان)، فإن استطعت فـ بلسانك (بكلمة طيبة، أو نصيحة برفق)، فإن استطعت فـ بيدك (إذا كنت صاحب سلطة).
· في نصرة المظلوم: إذا رأيت مظلومًا، فانصره، ولو بكلمة حق تقال في وجه ظالم. لا تخف من سلطان الظالم، فإن الله هو الحسيب.
· في الدفاع عن شرع الله: إذا سمعت من يطعن في شرع الله (مثل: الاستهزاء بالحجاب، أو تحليل الربا)، فدافع عن شرع الله بعلم وحكمة، ولا تخش سخرية المستهزئين.

٤.التوكل على الله والثقة في كفايته

التطبيق العملي:

· عند الهم والحزن: إذا ضاقت بك الدنيا، وأحاطت بك الهموم، فقل: "حسبي الله ونعم الوكيل، كفى ب الله حسيبًا". كررها بقلب موقن، وستجد الفرج من عند الله.
· عند الخوف من المستقبل: إذا قلقك المستقبل، وخفت من الفقر أو المرض أو كيد الأعداء، فقل: "كفى بـالله حسيبًا". هو كافيني، وهو حسبي، وهو وكيلي.
· عند الشروع في عمل صالح: إذا هممت بـ عمل صالح (دعوة، مشروع خيري، طلب علم)، وخفت من الفشل أو انتقاد الناس، فتوكل على الله، وقل: "كفى بـالله حسيبًا"، وامضِ في طريقك.

٥.تربية الأبناء على صفات المبلغين

التطبيق العملي:

· قصص الأنبياء: احكِ لأبنائك قصص الأنبياء، وكيف كانوا يبلغون رسالات الله، ويخشونه، ولا يخشون أحدًا سواه. (قصة موسى مع فرعون، قصة إبراهيم مع النمرود، قصة محمد مع قريش).
· تدريبهم على الصدع بالحق: شجع أبناءك على قول الحق، ولو على أنفسهم. وإذا قال أحدهم الحق في موقف صعب، فامدحه وكافئه.
· تعليمهم التوكل على الله: إذا خاف ابنك من امتحان، أو موقف صعب، فعلّمه أن يقول: "كفى بـالله حسيبًا"، واشرح له معناها.
سادسًا: القيم المستفادة من الآية 39

القيمة تجلياتها في الآية
شرف حمل رسالة الله "الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ" – المهمة الأشرف في الوجود.
الأمانة في التبليغ التبليغ الكامل غير المنقوص، دون كتمان أو تحريف.
خشية الله "وَيَخْشَوْنَهُ" – الدافع للتبليغ، والضابط للسلوك.
الشجاعة في الحق "وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ" – التحرر من الخوف من المخلوقين.
التوحيد الخالص قصر الخشية على الله وحده، وهو منتهى التوحيد.
الثقة في كفاية الله "وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا" – اليقين بأن الله كافٍ عباده.
مراقبة الله في العمل الله حسيب (محاسب)، مما يستوجب الإخلاص والتقوى.
الاستمرار في الدعوة "يُبَلِّغُونَ" بصيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار.

خاتمة: في رحاب التبليغ والخشية والثقة بـالله

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي ترسم لنا صورة الدعاة الصادقين، والمبلغين الأمناء، والعباد الخاشعين، الذين حملوا رسالات الله إلى الناس، وخشوا الله حق خشيته، ولم يخشوا أحدًا سواه، ووثقوا في كفايته وحده.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· تبليغ رسالة الله هو أشرف مهمة في الوجود، وهي مهمة الأنبياء وورثتهم من العلماء والدعاة.
· خشية الله هي وقود التبليغ، وهي التي تمنح الشجاعة والصدق والإخلاص.
· التحرر من الخوف من الناس هو ثمرة الخشية من الله، وهو دليل كمال الإيمان.
· الثقة في كفاية الله هي زاد الطريق، وهي حصن الداعية، وهي اليقين الذي لا يتزعزع.

فلنحرص – رجالًا ونساءً – أن نكون من الذين يبلغون رسالات الله في محيطنا، كل حسب موقعه وقدرته. ولنملأ قلوبنا بخشية الله، حتى نتحرر من خشية المخلوقين. ولنوقن بأن الله كافينا، وهو نعم

الوكيل، وهو حسبنا في كل أمورنا.

.

المبحث الثاني

تفسير آية "مَّا كانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ" (الأحزاب: 40) – خاتم النبيين وإعلان ختام الرسالات

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا الإعلان الإلهي العظيم، الذي يرسم الحد الفاصل بين زمن النبوة وزمن ما بعد النبوة، ويؤسس لعقيدة ختم الرسالات، ويثبت مكانة النبي صلى الله عليه وسلم كآخر الأنبياء وسيد المرسلين. إنها الآية التي تقطع كل طريق على مدعي النبوة، وتغلق كل باب أمام المتنبئين الكذابين، وتؤكد أن السماء لن تمطر وحيًا بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الأرض لن تشهد نبيًا بعد خاتم النبيين.

بعد أن قصّ الله علينا قصة زيد بن حارثة، الذي كان يُدعى "زيد بن محمد" قبل إبطال التبني، والذي طلق زوجته زينب ليتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله، تأتي هذه الآية الكريمة لترسخ الحقيقة الكبرى التي كانت سببًا في هذا التشريع: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم ليس أبًا لأحد من الرجال. فهو ليس والدًا حقيقيًا لأحد، حتى لزيد الذي كان يُدعى ابنه. وبذلك ينقطع نسب التبني، وتتحرر العلاقات الأسرية من الأوهام الجاهلية.

ولكن الآية لا تقف عند هذا النفي، بل تنتقل إلى الإثبات الأعظم: "وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ". فهو – وإن لم يكن أبًا لأحد – هو رسول الله إلى العالمين، وهو خاتم النبيين الذي لا نبي بعده. وهذا الإثبات هو شرف لا يدانيه شرف، ومقام لا يبلغه أحد من البشر.

يقول الله تعالى: "مَّا كانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، ليؤكد لنا أن السماء قد أغلقت أبوابها بعد هذا النبي الكريم، وأن الهداية قد اكتملت برسالته، وأن الطريق إلى الله قد وُضحت معالمه، فلا حاجة لنبي جديد، ولا مجال لرسالة مستحدثة.

الأمر الأول:
"مَّا كانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ" – نفي الأبوة عن النبي وتحرير العلاقات من التبني

اللمسة البيانية الأولى: "مَّا كانَ" – أقوى صيغ النفي المؤكد

تبدأ الآية الكريمة بصيغة "مَّا كانَ"، وهي – كما أسلفنا مرارًا – من أقوى صيغ النفي في لغة العرب، وتفيد نفي الشيء واستحالة وقوعه. فالمعنى: يستحيل، ولا يمكن أن يكون، ولا يتصور بحال، أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم أبًا لأحد من الرجال.

وهذا النفي القوي يقطع كل شبهة، ويسد كل باب للقول بأن زيدًا أو غيره ابن للنبي من النسب الحقيقي. فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن له أبناء ذكور عاشوا حتى يبلغوا مبلغ الرجال. فأبناؤه الذكور (القاسم، وعبد الله، وإبراهيم) ماتوا صغارًا. فلم يكن له ابن ذكر بالغ يمكن أن يُنسب إليه نسبًا حقيقيًا. أما زيد فكان متبناه فقط، وقد أبطل الله التبني.

اللمسة البيانية الثانية: "مُحَمَّدٌ" – ذكر الاسم العلم للنبي: تكريم وتشريف

لاحظ أن الآية ذكرت اسم النبي العلم: "مُحَمَّدٌ"، ولم تقل: "ما كان النبي" أو "ما كان الرسول". وهذا لفتة بيانية عظيمة:

· التشريف والتكريم: ذكر اسمه العلم هو تشريف له، وتخليد لاسمه في كتاب الله إلى يوم القيامة. إنه محمد بن عبد الله، الذي اختاره الله ليكون خاتم النبيين.
· التحديد والتخصيص: ذكر الاسم العلم يقطع كل احتمال، ويرفع كل لبس. فالمقصود هو محمد بعينه، لا أي نبي آخر.

وقد ورد اسم "محمد" في القرآن الكريم أربع مرات فقط: في آل عمران (144)، والأحزاب (40)، ومحمد (2)، والفتح (29). وهذا من دقة البيان القرآني، حيث يذكر الاسم في المواضع التي تقتضي التوكيد والتشريف.

اللمسة البيانية الثالثة: "أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ" – تحديد الأبوة المنفية

الآية لم تنفِ الأبوة عن النبي مطلقًا، بل نفتها عن الرجال خاصة: "مِّن رِّجَالِكُمْ". وهذا التحديد له دلالا ت مهمة:

١. النبي أب للمؤمنين جميعًا من جهة الشفقة والتربية

النبي صلى الله عليه وسلم هو أب روحي لجميع المؤمنين، رجالًا ونساءً. قال تعالى: "النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ" (الأحزاب: 6). فهو أب لهم من جهة الشفقة والتربية و التعليم، لا من جهة النسب والميراث.

فالآية تقول: ليس أبًا لأحد من الرجال من جهة النسب الحقيقي، ولكنه رسول الله الذي هو أولى بهم من أنفسهم، وأب روحي لهم جميعًا.

٢. النبي له بنات، وله أبناء ماتوا صغارًا

النبي صلى الله عليه وسلم كان له أبناء ذكور (القاسم، عبد الله، إبراهيم)، ولكنهم ماتوا صغارًا، فلم يبلغوا مبلغ الرجال. فلم يكن له ابن رجل حي. أما بناته (زينب، رقية، أم كلثوم، فاطمة) فقد عشن وتزوجن وأنجبن. فالآية تنفي الأبوة عن الرجال فقط، لأن البنات كن موجودات، وهن بناته حقًا من النسب.

وهذا من دقة القرآن الذي يزن الكلمة بميزان الحكمة.

الرسائل التربوية والنفسية من نفي الأبوة عن الرجال

أ. إبطال التبني وتحرير الأنساب

هذه الآية هي الضربة القاضية لنظام التبني الجاهلي، الذي كان يجعل الابن بالتبني كالابن الحقيقي في جميع الأحكام: النسب، والميراث، وحرمة المصاهرة. فلما نفت الآية أن يكون زيد – أو غيره – ابنًا للنبي من النسب، فقد أبطلت التبني، وحررت الأنساب من هذا الاختلاط.

وهذا فيه حكمة عظيمة: حفظ الأنساب الحقيقية من الضياع والاختلاط. فالطفل المتبنى يجب أن ينسب إلى أبيه الحقيقي، ولا يجوز أن ينسب إلى غير أبيه. قال تعالى: "ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ" (الأحزاب: 5).

تطبيق معاصر:
في عصرنا، توجد حالات تبني في بعض المجتمعات، حيث يُعطى الطفل المتبنى اسم الأسرة المتبنية، ويُحرَم من نسبه الحقيقي. هذه الآية ترفض هذا، وتأمر بأن يحفظ للطفل نسبه الحقيقي، وأن يُربى ويُحسن إليه دون أن يُنسب إلى غير أبيه.

ب. أن مكانة النبي عند ربه أعظم من مجرد أبوة بشرية

نفي الأبوة عن النبي ليس انتقاصًا من قدره، بل هو إعلان أن مكانته عند الله أعظم من مجرد أبوة بشرية. فهو رسول الله وخاتم النبيين، وهذه الرسالة والخاتمية هي شرف لا يدانيه شرف. فكونه ليس أبًا لأحد من الرجال جعله أبًا روحيًا للأمة جمعاء، ورسولًا للعالمين.

وهذا يعلمنا أن المناصب الربانية (كالنبوة والعلم والدعوة) هي أعظم من المناصب البشرية (كالأبوة و الرئاسة). فإذا أعطاك الله مقامًا من مقامات الدين، فلا تحزن على ما فاتك من مقامات الدنيا.

الأمر الثاني:
"وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ" – إثبات الرسالة والخاتمية

بعد النفي، يأتي الإثبات الأعظم: "وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ". وهذا هو محور الآية وذروة سنامها. فالنبي صلى الله عليه وسلم ليس أبًا لأحد من الرجال، ولكنه – في مقابل ذلك – رسول الله وخاتم النبيين. وهذا الإثبات يمحو أي وهم بأن نفي الأبوة هو انتقاص من قدره، بل هو إعلان عن مقامه الأعظم.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ"

١. "وَلَٰكِن" – حرف استدراك: الانتقال من النفي إلى الإثبات

"وَلَٰكِن" حرف استدراك، وهو يفيد إثبات حكم لما بعدها يخالف ما قبلها. فما قبلها نفي (ليس أبًا)، وما بعدها إثبات (رسول الله وخاتم النبيين). وكأنه يقول: "ليس أبًا، ولكن شيئًا أعظم: رسول الله".

٢. "رَّسُولَ اللَّهِ" – إثبات الرسالة: أشرف الأوصاف

وصف "رسول الله" هو أشرف وصف يمكن أن يوصف به بشر. فالرسول هو المبعوث من الله برسالة إلى الناس. وإضافة "رسول" إلى "الله" هي تشريف عظيم، لأنها تدل على اصطفاء الله له، وتكليفه بأعظم مهمة.

٣. "وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ" – إثبات الخاتمية: الحقيقة الكبرى

هذا هو الإعلان العظيم الذي تهتز له القلوب المؤمنة، وترتجف منه فرائص المبطلين: "وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ".

معنى "خاتم النبيين":

· الخاتم هو الطابع الذي يُختم به على الشيء ليكون آخره، فلا يُزاد عليه. ويُقال: "خاتم القوم": آخرهم.
· فالمعنى: أن النبي صلى الله عليه وسلم هو آخر الأنبياء، لا نبي بعده إلى يوم القيامة. وقد جاءت ا لأحاديث الصحيحة لتؤكد هذا المعنى:
  · قال صلى الله عليه وسلم: "وختُم بي النبيون" (رواه مسلم).
  · وقال: "وإني خاتم النبيين، لا نبي بعدي" (رواه الترمذي وصححه).

دلالة "خاتم النبيين":

· انقطاع النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم.
· كمال الدين وتمام النعمة: قال تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" (المائدة: 3). فلا حاجة لنبي جديد، لأن الرسالة قد اكتملت.
· بطلان دعوى كل من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم: كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، وسجاح، وطليحة الأسدي، وغلام أحمد القادياني، وغيرهم.

الرسائل التربوية والنفسية من إثبات الرسالة والخاتمية

أ. الاعتزاز بالانتماء إلى خاتم النبيين

المؤمن يفتخر بأن نبيه هو خاتم النبيين، ورسوله هو سيد المرسلين. فإذا كان الأنبياء سادة، فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو سيدهم وخاتمهم. وهذا الشرف ينعكس على أمته، فهي خير أمة أخرجت للناس، ورسالتها هي آخر الرسالات، وكتابها هو المهيمن على الكتب السابقة.

تطبيق عملي:
عندما تقرأ عن الأنبياء السابقين، فلا تحزن لأنك لم تدركهم، بل احمد الله أن جعلك من أمة محمد خاتم النبيين، الذي اصطفاه الله على جميع خلقه، وجعل اتباعه هو الطريق الوحيد إلى الجنة.

ب. اليقين بأن لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم

هذه الآية تزرع في قلب المؤمن يقينًا راسخًا بأن باب النبوة قد أغلق إلى الأبد بعد محمد صلى الله عليه وسلم. فكل من ادعى النبوة بعده، فهو كذاب، وكل من صدقه فهو ضال. وهذا اليقين يحصن الأ

أمة من فتنة المتنبئين الذين يظهرون بين الحين والآخر.

تطبيق معاصر:
في عصرنا، ظهرت دعاوى من بعض الجماعات (مثل القاديانية) تزعم أن النبوة مستمرة، أو أن هناك نبيًا بعد محمد صلى الله عليه وسلم. هذه الآية – مع الأحاديث الصحيحة – هي السيف البتار في وجوههم، وهي الحجة الدامغة على كذبهم.

ج. التمسك بالكتاب والسنة: المصدران الوحيدان للهداية بعد انقطاع الوحي

بما أن النبوة قد ختمت، ولم يعد هناك وحي ينزل من السماء، فإن المصدرين الوحيدين للهداية هما: القرآن الكريم، والسنة النبوية. فلا يجوز الالتفات إلى أي مصدر آخر يدعي أنه وحي أو إلهام ملزم.

وهذا يحمل العلماء والدعاة مسؤولية عظيمة في حفظ الكتاب والسنة، وبيانهما للناس، والذب عنهما من تحريف الغالين وانتحال المبطلين.
الأمر الثالث:
"وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" – ختم الآية باسم الله "العليم"

بعد أن قررت الآية نفي الأبوة عن النبي للرجال، وإثبات الرسالة والخاتمية له، جاءت بهذا الختم الإ لهي العظيم: "وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا". وهذا الختم هو تاج الآية وسر إعجازها.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"

١. "وَكَانَ" – فعل الكون: دوام وثبوت الصفة

"كانَ" هنا تفيد الدوام والثبوت. فالله لم يزل ولا يزال عليمًا بكل شيء.

٢. "بِكُلِّ شَيْءٍ" – عموم علم الله وشموله

"كُلِّ شَيْءٍ" تفيد العموم والشمول. فعلم الله محيط بكل كلي وجزئي، بكل دقيق وجليل، في السماوات والأرض، في الماضي والحاضر والمستقبل.

٣. "عَلِيمًا" – صفة المبالغة: سعة العلم وكماله

"عَلِيم" صيغة مبالغة، تدل على سعة علم الله وكماله. فهو العليم الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

لماذا ختمت الآية بـ "وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"؟

الربط بين مضمون الآية وختمها بهذا الاسم الكريم له دلالات عميقة:

أ. الله يعلم حكمة نفي الأبوة عن النبي وإثبات الرسالة

كأن الله يقول: "لقد نفيتُ عن محمد الأبوة للرجال، وجعلتُه خاتم النبيين، وأنا أعلم بما في ذلك من حكمة ومصلحة لعبادي". فما شرعه الله من إبطال التبني، وختم النبوة، هو صادر عن علمه المحيط وحكمته البالغة.

ب. الله يعلم مقام نبيه وفضله

الله عليم بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو أفضل خلقه، وأكرم رسله. ولذلك اصطفاه ليكون خاتم النبيين، وختم به الرسالات. فما نفاه عنه (الأبوة للرجال) هو لحكمة، وما أثبته له (الرسالة والخاتمية) هو لفضله ومقامه.

ج. الله عليم بمن يطعن في هذا الحكم ومن يسلم له

الله عليم بمن يؤمن بأن محمدًا خاتم النبيين، فيثيبه، وبمن يكذب بهذا فيعاقبه. وهو عليم بمن يستنكر إبطال التبني، وبمن يسلم لأمر الله. وسيجازي كلا بما يستحق.

الرسائل التربوية والنفسية من ختم الآية بـ "عليمًا"

أ. الثقة في حكمة الله وتدبيره

عندما يقرأ المؤمن هذه الآية، ويعلم أن الله عليم بكل شيء، فإنه يثق بأن ما شرعه الله من أحكام (كإبطال التبني، وختم النبوة) هو الحق، والخير، والصواب، حتى لو خالف هوى النفوس أو عادات المجتمع.

تطبيق نفسي:
إذا استثقلت نفسك حكمًا من أحكام الله (مثل: وجوب الحجاب، أو تحريم الربا)، فتذكر أن الله عليم، وأنه يعلم ما يصلحك وما يفسدك، وأن شرعه هو الرحمة والهداية.

ب. مراقبة الله في السر والعلن

إذا كان الله عليمًا بكل شيء، فهو يعلم ما في قلبك من إيمان أو نفاق، ويعلم ما تفعله في سرك وعلانيتك. وهذا يستوجب مراقبته في كل حركاتك وسكناتك.

تطبيق عملي:

· قبل أن تغتاب أحدًا، تذكر أن الله عليم بما تقول.
· قبل أن تنظر إلى حرام، تذكر أن الله عليم بنظرتك.
· قبل أن تهم بمعصية، تذكر أن الله عليم بما تخفي في نفسك.

ج. التسليم لله في أقداره وأحكامه

إذا كان الله عليمًا، وهو الحكيم، فعلى العبد أن يسلم له في كل ما يقضيه من أقدار (مرض، فقر، موت عزيز)، وفي كل ما يشرعه من أحكام (حلال وحرام). فـالله يعلم وأنت لا تعلم، والله حكيم وأنت قاصر.

تطبيق عملي:
عندما يُصاب أحد أحبابك بمصيبة، فلا تجزع، وقل: "إن الله عليم حكيم، قدر فهدى". وارضَ بقضاء الله، وثق أن الخيرة فيما اختاره الله.
رابعًا:
كيف نعيش آية "مَّا كانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ" في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١. التمسك بعقيدة ختم النبوة والتحذير من المتنبئين

التطبيق العملي:

· تعلم عقيدة ختم النبوة: اقرأ عن معنى ختم النبوة، وعن الأدلة من القرآن والسنة على أن لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم.
· حذر أبناءك ومجتمعك: من دعاوى المتنبئين الكذابين، الذين يظهرون بين الحين والآخر. علمهم أن باب النبوة قد أغلق إلى الأبد.
· لا تلتفت إلى الإشاعات: التي تروجها بعض الجماعات المنحرفة عن استمرار الوحي أو وجود نبي جديد. تمسك بالكتاب والسنة، واعرض عليهما كل ما تسمع.

٢. الاعتزاز بالانتماء إلى أمة خاتم النبيين

التطبيق العملي:

· احمد الله أن جعلك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الذي هو خاتم النبيين وسيد المرسلين.
· تشبه بأخلاقه: اجعل سيرته نصب عينيك، واقتدِ به في أخلاقه وعبادته ومعاملاته.

· انشر سنته: بلغ حديثه، وادعُ إلى اتباعه، فإن اتباعه هو الطريق إلى الجنة.

٣. إبطال عادة التبني إذا كانت تخالف الشرع

التطبيق العملي:

· إذا كنت تعرف طفلًا متبنى يُنسب إلى غير أبيه، فاسعَ – بالحكمة والرفق – إلى تصحيح وضعه، وإرجاعه إلى نسبه الحقيقي.
· شجع كفالة الأيتام: الإسلام يحث على كفالة اليتيم والإحسان إليه، ولكن دون أن ينسب إلى غير أبيه، ودون أن تترتب عليه أحكام النسب (مثل الميراث وحرمة المصاهرة).
· وضح للناس الفرق بين التبني المحرم (نسبة الطفل إلى غير أبيه) وكفالة اليتيم المستحبة (تربيته و الإحسان إليه مع بقائه على نسبه الحقيقي).

٤. التعلق بالقرآن والسنة كمصدرين وحيدين للهداية

التطبيق العملي:

· اجعل القرآن والسنة هما المصدرين الوحيدين لمعرفة الحلال والحرام، والعقيدة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة.
· لا تلتفت إلى البدع والخرافات التي لا أصل لها في الكتاب والسنة، مهما كان مصدرها.
· احذر من الغلو في الأولياء والصالحين، وادعائهم علم الغيب أو التصرف في الكون. فالوحي قد انقطع، وعلم الغيب لله وحده.

٥. مراقبة الله في كل شيء لأنه "بكل شيء عليم"

التطبيق العملي:

· استحضر دائمًا أن الله عليم بكل حركاتك وسكناتك، بكل كلمة تقولها، بكل فكرة تدور في ذهنك.
· راقب الله في خلواتك كما تراقبه في جلواتك. فإن استشعار علم الله هو أعظم وازع عن المعصية.
· إذا هممت بمعصية، فقل لنفسك: "الله يراني، الله عليم بما أفعل". فهذا يطفئ نار الشهوة، ويردع عن المعصية.

خامسًا: القيم المستفادة من الآية 40

القيمة تجلياتها في الآية
إبطال التبني "مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ" – نفي الأبوة الحقيقية عن زيد وغيره.
تكريم النبي صلى الله عليه وسلم "وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ" – إثبات أعظم مقام.
عقيدة ختم النبوة "وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ" – لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم.
كمال الدين وتمام النعمة ختم النبوة يعني أن الرسالة قد اكتملت، فلا حاجة لنبي جديد.
الاعتماد على الكتاب والسنة بعد انقطاع الوحي، هما المصدران الوحيدان للهداية.
إثبات علم الله المطلق "وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" – إحاطة علمه بكل شيء.
مراقبة الله في السر والعلن استشعار أن الله عليم بكل شيء يدفع إلى التقوى.
الثقة في حكمة الله وتدبيره الله عليم بما يصلح عباده، فشرعه كله خير ورحمة.
خاتمة: في رحاب ختم النبوة وكمال الدين

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تعلن حقيقتين عظيمتين:

· الأولى: أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس أبًا لأحد من الرجال، إبطالًا لنظام التبني الجاهلي، وتحريرًا للأنساب من الاختلاط.
· الثانية: أنه رسول الله وخاتم النبيين، فلا نبي بعده، ولا رسالة بعد رسالته، ولا وحي بعد وحيه.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· الانتساب إلى محمد صلى الله عليه وسلم هو انتساب إلى خاتم النبيين وسيد المرسلين، وهو شرف لا يدانيه شرف.

· الدين قد اكتمل، والنعمة قد تمت، فلا حاجة لنبي جديد، ولا لرسالة مستحدثة.
· القرآن والسنة هما الهاديان إلى الصراط المستقيم بعد انقطاع الوحي.
· الله عليم بكل شيء، يعلم ما يصلح عباده، وما يخفون وما يعلنون.

فلنحرص – رجالًا ونساءً – أن نكون صادقين في اتباع خاتم النبيين، متمسكين بكتاب ربنا وسنة نبينا، محذرين من كل بدعة وضلالة، موقنين بأن الله عليم بكل شيء، فنسلم له في شرعه وقدره، حتى نلقاه وهو راض عنا.

القسم الثالث
فضل الذكر والتسبيح والتحميد واثره في حياه الفرد والمجتمع
المبحث الأول .
تفسير آيات الذكر والتسبيح وصلاة الله على المؤمنين (الأحزاب: 41-43) – في رحاب النور الإلهي و الذكر المتصل

مدخل إلى رحاب الآيات الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا النداء الرباني العذب، الذي يتسلل إلى أعماق القلب، ويوقظ الروح من سباتها، ويدعو المؤمنين إلى واحة الذكر ونبع النور. بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن مقام النبي صلى الله عليه وسلم كخاتم النبيين، وعن رفع الحرج عن المؤمنين، وعن واجب التسليم لأمر الله ورسوله، تأتي هذه الآيات الثلاث لتفتح لنا نافذة النور، وتكشف لنا عن سر القوة، وطريق النجاة من ظلمات الحياة إلى نور الإيمان.

إنها آيات تجمع بين الأمر الإلهي والوعد الإلهي، بين التكليف والتشريف، بين عمل المؤمن وجزاء الرحمن. تبدأ ب- نداء الإيمان: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"، لتهز القلوب وتذكرها ب- هويتها وعهدها مع الله. ثم تأمر ب- الذكر الكثير والتسبيح الدائم. ثم تكشف عن الحقيقة العظمى: أن الله يصلي عليكم وملا ئكته، ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وكان بكم رحيماً.

يقول الله تعالى:
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا" (41)
"وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" (42)
"هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا" (43)

فلنغص معًا في أعماق هذه الآيات الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، في زمن كثُرت فيه الظلمات (ظلمات الشهوات، والشبهات، و القلق، واليأس)، واشتدت فيه الحاجة إلى النور (نور الإيمان، والطمأنينة، واليقين).
الأمر الأول:
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا" – نداء الإيمان ودعوة الذكر الدائم

اللمسة البيانية الأولى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" – نداء الهوية والعهد

يبدأ المقطع القرآني بهذا النداء العظيم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا". إنه ليس مجرد أداة نداء، بل هو إعلان هوية، وتذكير بعهد، وتحفيز للاستجابة. فلماذا هذا النداء بالذات؟

١.استنهاض الهمة بوصف الإيمان

حين يناديك الله ب- "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"، فإنه يذكرك ب- أعظم صفة فيك، وهي الإيمان. وكأنه يقول لك: "يا من آمنت بي، وصدقت برسولي، واتبعت ديني... اسمع وصيتي، وتقبل نصيحتي، وانهض لتكليفي". إنه نداء يحرك كوامن الخير في النفس، ويدفعها إلى الاستجابة والامتثال.

٢.الربط بين الإيمان والذكر

اختيار وصف "الذين آمنوا" في هذا المقام له دلالة عميقة: أن الإيمان الحقيقي يقتضي الذكر. فمن كان إيمانه صادقًا، فإنه يذكر الله كثيرًا. ومن قلّ ذكره لله، فهذا دليل على ضعف إيمانه أو مرض قلبه. فالذكر هو ثمرة الإيمان وغذاؤه في آن واحد.

اللمسة البيانية الثانية: "اذكرُوا اللهَ" – الأمر بالذكر ولزومه

لفظة "اذكرُوا" فعل أمر، وهو يفيد الوجوب أو الاستحباب المؤكد. والأمر هنا يشمل كل أنواع الذكر:

· ذكر القلب: بالتفكر في عظمة الله، وفي آلائه، وفي أسمائه وصفاته.
· ذكر اللسان: بالتسبيح، والتهليل، والتكبير، والتحميد، والاستغفار، وتلاوة القرآن.
· ذكر الجوارح: بالعمل بطاعة الله، واجتناب معاصيه، استحضارًا لمراقبته.

اللمسة البيانية الثالثة: "ذِكرًا كثِيرًا" – تأكيد الكثرة والتكرار

وصف الذكر بأنه "كثِيرًا" له دلالتان مهمتان:

١.الكثرة في العدد والكم

أي: أكثروا من ذكر الله في كل أوقاتكم وأحوالكم. لا تذكروه مرة أو مرتين، بل اجعلوا ألسنتكم رطبة بذكره، وقلوبكم عامرة بحبه، وجوارحكم مشغولة بطاعته.

٢.الكثرة في الكيف والنوع

أي: اذكروه ذكرًا عظيمًا، كثيرًا في معناه وأثره، لا ذكرًا غافلًا أو عابرًا. فالذكر الكثير هو ما كان بقلب حاضر، ونفس خاشعة، وروح متصلة بالله.

الرسائل التربوية والنفسية من الأمر بالذكر الكثير

أ. الذكر هو غذاء الروح وقوت القلب

كما أن الجسد يحتاج إلى الطعام والشراب عدة مرات في اليوم ليبقى حيًا، فإن الروح تحتاج إلى ذكر الله عدة مرات في اليوم لتبقى حية ومنتعشة. القلب الذي لا يذكر الله هو قلب ميت، أو قلب مريض. قال صلى الله عليه وسلم: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت" (رواه البخاري).

تطبيق معاصر:
في عصرنا، نحرص على تغذية أجسادنا ثلاث وجبات يوميًا، ونحرص على تغذية عقولنا بساعات من تصفح الإنترنت ووسائل التواصل. ولكن كم من الوقت نخصصه لتغذية أرواحنا بذكر الله؟ هذه الآية تذكرنا بأن الروح أحق بالغذاء من الجسد، لأن موت الروح أشد من موت الجسد.

ب. الذكر الكثير هو سلاح المؤمن في معركة الحياة

الحياة مليئة بالمغريات والشهوات والوساوس. والشيطان متربص بالمؤمن، يريد أن يغويه ويصده عن ذكر الله. وأفضل سلاح لمواجهة هذه الحرب الضروس هو ذكر الله الكثير. قال تعالى: "وَاذْكُر رَّبَّكَ كثِيرًا وَسَبِّحْ بِالعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ" (آل عمران: 41).

تطبيق عملي:
عندما تشعر بضيق أو قلق أو وسوسة، فالجأ إلى ذكر الله. قل: "لا إله إلا الله، سبحان الله، الحمد لله، الله أكبر". ستجد أن هذه الكلمات النورانية تطرد ظلمات الشيطان، وتملأ قلبك سكينة وطمأنينة.

ج. الذكر الكثير علامة على محبة الله

من أحب شيئًا، أكثر من ذكره. فإذا كنت تحب الله حقًا، فسيظهر هذا الحب في كثرة ذكره في لسانك وقلبك. وإذا كان ذكر الله قليلًا على لسانك، فراجع محبتك لله، وجدد إيمانك، واطلب من الله أن يرزقك حبه وحب ذكره.

الأمر الثاني:
"وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" – تخصيص التسبيح في أوقات محددة

بعد الأمر بـ الذكر الكثير بشكل عام، جاء الأمر بـ التسبيح في أوقات محددة: "بُكْرَةً وَأَصِيلًا". وهذا

تخصيص بعد تعميم، لبيان أفضل أوقات الذكر، وأحبها إلى الله.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا"

١."وَسَبِّحُوهُ" – التسبيح: تنزيه الله عن كل نقص

التسبيح هو تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله، من الشريك، والولد، والنقائص، والعيوب. وهو أعظم أنواع الذكر وأحبها إلى الله. قال صلى الله عليه وسلم: "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" (رواه البخاري ومسلم).

٢."بُكْرَةً" – وقت الصباح الباكر

"البكرة" هي أول النهار، من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. وهو وقت بداية النشاط، وصفاء الذهن، وإقبال القلب. والتسبيح في هذا الوقت له فضل عظيم، لأنه يكون في بداية اليوم، فيجعل البركة في سائر اليوم.

٣."وَأَصِيلًا" – وقت العشي وآخر النهار

"الأصيل" هو آخر النهار، من بعد العصر إلى غروب الشمس. وهو وقت ختام العمل، وإياب النفس إلى بيتها. والتسبيح في هذا الوقت هو خاتمة طيبة لليوم، واستعداد للقاء الله في الليل.

لماذا خص الله هذين الوقتين بالتسبيح؟

أ. لأنهما وقتا تحول وانتقال

· البكرة: انتقال من ظلمة الليل إلى نور النهار.
· الأصيل: انتقال من نور النهار إلى ظلمة الليل.

وهذان الوقتان يذكران المؤمن بـ تحول الأحوال، وتقلب الليل والنهار، مما يدفعه إلى تسبيح الله الذي يقلب الليل والنهار، ويدبر الأمر بحكمة. قال تعالى: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ" (آل عمران: 190-191).

ب. لأنهما وقتا تجمع الملائكة

في صلاة الفجر (وقت البكرة) وصلاة العصر (وقت الأصيل)، تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار. قال صلى الله عليه وسلم: "يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلا ة العصر" (رواه البخاري ومسلم). فالتسبيح في هذين الوقتين يكون بحضور جمع من الملائكة، فيشهدون للمؤمن بالخير.

الرسائل التربوية والنفسية من تخصيص أوقات التسبيح

أ. تنظيم الوقت حول ذكر الله

هذه الآية تعلمنا فن إدارة الوقت في ضوء ذكر الله. فبدلًا من أن يكون اليوم مجرد ساعات عمل ولهو، يصبح اليوم رحلة إيمانية، تبدأ بـ ذكر الله وتنتهي بـ ذكر الله. وهذا يجعل اليوم كله مباركًا، ويمنح المؤمن طاقة روحية تعينه على مواجهة تحديات الحياة.

تطبيق عملي:

· في البكرة: ابدأ يومك بـ أذكار الصباح، وصلاة الفجر في وقتها، وقراءة ورد من القرآن. هذا يشحن روحك بالطاقة الإيجابية طوال اليوم.
· في الأصيل: اختم يومك بـ أذكار المساء، وصلاة العصر، والاستغفار عن تقصير اليوم. هذا يغسل عنك أدران اليوم، ويهيئك لنوم هادئ وليل عامر بالعبادة.

ب. التغلب على فتور منتصف النهار ببركة الذكر في طرفيه

كثير من الناس يصيبهم الفتور والملل في منتصف النهار، بسبب ضغوط العمل والانشغال بالدنيا. ولكن من بدأ يومه بذكر الله، وختمه بذكر الله، فإنه يجد بركة في سائر يومه، ويكون أقدر على مقاومة هذا الفتور، وأكثر إنتاجية وسعادة.
الأمر الثالث:
"هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ" – إعلان الصلاة الإلهية والملائكية على المؤمنين

بعد أن أمر الله المؤمنين بـ ذكره وتسبيحه، كشف لهم عن الحقيقة العظمى التي تفيض شرفًا وكرامة: أن الله يصلي عليهم، وملائكته يصلون عليهم! يا له من شرف عظيم، وفضل عميم!

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ"

١."هُوَ الَّذِي" – ضمير الفصل: تأكيد الاختصاص

"هُوَ" ضمير فصل يفيد التوكيد والاختصاص. فالمعنى: الله وحده، لا غيره، هو الذي يصلي عليكم. وهذا تعظيم لشأن هذه الصلاة، وتأكيد على أنها خاصة بـالله وملائكته، لا يشاركهم فيها أحد.

٢."يُصَلِّي" – فعل مضارع: التجدد والاستمرار

صيغة المضارع "يُصَلِّي" تفيد التجدد والاستمرار. فصلاة الله على المؤمنين ليست حادثة عابرة، بل هي متجددة في كل وقت، مستمرة ما داموا مؤمنين ذاكرين.

ما معنى صلاة الله على المؤمنين؟

· صلاة الله على عباده: هي رحمة منه، وثناء عليهم في الملأ الأعلى، وإحسان إليهم، وتزكية لهم.
· صلاة الملائكة على المؤمنين: هي استغفار لهم، ودعاء لهم بالرحمة والمغفرة، وتنزيه لهم عن الذنوب.

٣."وَمَلَائِكَتُهُ" – مشاركة الملائكة في الصلاة: تكريم عظيم

لم يكتفِ الله بأن يصلي هو على المؤمنين، بل أشرك ملائكته في هذه الصلاة. وهذا تكريم عظيم للمؤمنين، أن يكونوا موضع صلاة الله وصلاة ملائكته المقربين.

لماذا يصلي الله وملائكته على المؤمنين؟

الجواب يكمن في سبب نزول الآية وسياقها: لأنهم يذكرون الله كثيرًا ويسبحونه. فمن أكثر من ذكر الله، ذكره الله في الملأ الأعلى، وأثنى عليه، وصلى عليه. قال تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ" (البقرة: 152). وقال صلى الله عليه وسلم: "يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم" (رواه البخاري ومسلم).

الرسائل التربوية والنفسية من صلاة الله وملائكته على المؤمنين

أ. أي شرف هذا؟! أن يصلي عليك رب العالمين!

تأمل معي – أيها المؤمن – هذا المعنى العظيم: رب العالمين، ملك الملوك، الذي له الأمر كله، والخلق كله، يذكرك في ملئه الأعلى، ويثني عليك، ويصلي عليك! أي شرف هذا؟! وأي كرامة هذه؟! إنها أعظم وسام يمكن أن يناله بشر.

هذا المعنى – إذا استقر في القلب – يحرر المؤمن من التعلق بثناء الناس ومدحهم. فماذا يضره إذا ذمه الناس، والله يصلي عليه؟ وماذا ينفعه إذا مدحه الناس، والله غاضب عليه؟!

تطبيق نفسي:
عندما تشعر بالحزن لأن الناس لم يقدروا عملك، أو انتقدوك بغير حق، تذكر أن الله يصلي عليك (إن كنت من الذاكرين). فهذا يكفيك، ويغنيك عن ثناء الخلق.

ب. الذكر سبب لصلاة الله وملائكته عليك

الآية تربط – ضمنيًا – بين الذكر (في الآيتين 41-42) وصلاة الله وملائكته (في الآية 43). فمن أكثر من ذكر الله، نال هذا الشرف العظيم. وهذا حافز قوي للمؤمن على الإكثار من الذكر.

تطبيق عملي:
كلما قلت: "سبحان الله وبحمده"، فتذكر أن الله يصلي عليك بسبب هذا الذكر. وكلما قلت: "لا إله إلا الله"، فتذكر أن الملائكة تستغفر لك وتدعو لك. هذا الاستحضار يجعل الذكر لذة للقلب، ونعيمًا للروح.
الأمر الرابع:
"لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" – غاية الصلاة الإلهية: النور بعد الظلام

بعد أن أخبرنا الله أنه يصلي علينا وملائكته، بيّن لنا الغاية من هذه الصلاة: "لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ". وهذا هو المقصد الأعظم، والثمرة اليانعة من صلاة الله وملائكته على المؤمنين.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"

١."لِيُخْرِجَكُم" – لام التعليل: بيان الغاية

اللام في "لِيُخْرِجَكُم" هي لام التعليل، وهي تفيد بيان الغاية من صلاة الله وملائكته. فكأنه يقول: "يصلي عليكم وملائكته لأجل أن يخرجكم من الظلمات إلى النور".

٢."الظُّلُمَاتِ" – جمع: تعدد أنواع الظلمات

لفظة "الظُّلُمَاتِ" جاءت جمعًا، للدلالة على كثرة أنواع الظلمات التي تحيط بالإنسان:

· ظلمة الكفر والشرك.
· ظلمة الشهوات والمعاصي.
· ظلمة الشبهات والضلالات الفكرية.
· ظلمة الجهل والغفلة.
· ظلمة الهم والقلق واليأس.

فالإنسان – بدون هداية الله – غارق في بحر من الظلمات متلاطم الأمواج، لا يرى طريق النجاة.

٣."النُّورِ" – مفرد: وحدة الحق ووضوحه

بينما الظلمات كثيرة ومتعددة، فإن النور واحد: نور الإيمان، ونور القرآن، ونور الهداية. فالحق واحد، و الباطل متعدد متشعب. والله يريد أن يخرجنا من شتات الظلمات إلى وحدة النور.

كيف تخرجنا صلاة الله وملائكته من الظلمات إلى النور؟

أ. بإلهام التوبة والإنابة

صلاة الله على المؤمنين تعني رحمته بهم، وإحسانه إليهم. ومن أعظم الرحمة أن يلهمهم التوبة من الذنوب، والإنابة إليه، فتكون التوبة نورًا يمحو ظلمات المعاصي.

ب. بتثبيت الإيمان في القلوب

صلاة الملائكة على المؤمنين تعني دعاءهم لهم بالثبات على الإيمان. فإذا ثبت الإيمان في القلب، كان ذلك نورًا يبدد ظلمات الشك والريب.

ج. بفتح أبواب العلم والمعرفة

من رحمة الله بالمؤمنين أن يفتح لهم أبواب العلم النافع، ويفقههم في الدين، فيخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم.

الرسائل التربوية والنفسية من غاية "لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"

أ. أنت لست وحدك في معركة الخروج من الظلمات

هذه الآية تمنح المؤمن طمأنينة عظيمة: أنت لست وحدك في معركتك ضد الظلمات. الله يصلي عليك، وملائكته يصلون عليك، وكلهم يسعون لإخراجك من ظلماتك إلى النور. فثق بمعية الله، واطلب المدد منه، وسترى النور يتسلل إلى قلبك وحياتك.

تطبيق نفسي:
إذا كنت تعاني من ذنب تكرر فيه، أو شهوة تغلبك، أو شبهة تؤرقك، فلا تيأس. استعن بصلاة الله وم لائكته عليك بالإكثار من الذكر والدعاء. واعلم أن الله يريد أن يخرجك من هذه الظلمات، وسيخرجك إن صدقت اللجوء إليه.

ب. الخروج من الظلمات إلى النور هو رحلة مستمرة

الخروج من الظلمات إلى النور ليس حدثًا واحدًا يقع في لحظة، بل هو رحلة مستمرة، وجهاد دائم. ف المؤمن في ترقٍ دائم من نور إلى نور. قال تعالى: "يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ" (النور: 35). فكلما ازداد إيمانًا، وكثر ذكره، ازداد نورًا.

تطبيق عملي:
لا تقل: "لقد اهتديت، وانتهى الأمر". بل كن دائم التطلع إلى مزيد من النور. اسأل الله دائمًا: "اللهم زدني نورًا". واجتهد في الطاعات، وداوم على الذكر، لتكون في رحلة صاعدة من نور إلى نور، حتى تلقى الله بقلب سليم ووجه نير.
الأمر الخامس:
"وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا" – ختم الآية باسم الله "الرحيم"

بعد كل هذه الأوامر (الذكر، التسبيح) والوعود (صلاة الله وملائكته، إخراج من الظلمات إلى النور)، تختم الآية بهذا الختم الإلهي العظيم: "وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا"

١."وَكَانَ" – فعل الكون: دوام وثبوت الصفة

"كانَ" هنا تفيد الدوام والثبوت. فالله لم يزل ولا يزال رحيمًا بالمؤمنين. رحمته بهم قديمة أزلية، ودائمة أبدية.

٢."بِالْمُؤْمِنِينَ" – تخصيص الرحمة بالمؤمنين

لاحظ أن الآية خصت المؤمنين بالذكر: "بِالْمُؤْمِنِينَ". مع أن الله رحيم بجميع خلقه في الدنيا (رحمة عامة)، إلا أن رحمة خاصة يدخرها للمؤمنين في الدنيا والآخرة. وهذه الرحمة الخاصة هي التي تخرجهم من الظلمات إلى النور، وتثبتهم على الحق، وتدخلهم الجنة.

٣."رَحِيمًا" – صفة المبالغة: سعة الرحمة وكمالها

"رَحِيم" صيغة مبالغة، تدل على سعة رحمة الله وكمالها. فهو الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، و الذي يرحم المؤمنين برحمة خاصة تليق بجلاله وكرمه.

لماذا ختمت الآية بـ "وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا"؟

هذا الختم هو جواب عن سؤال قد يخطر بالبال: لماذا كل هذا؟ لماذا يأمرنا الله بالذكر؟ لماذا يعدنا بصلاة الملائكة؟ لماذا يريد إخراجنا من الظلمات إلى النور؟

الجواب: لأنه رحيم بالمؤمنين. فرحمته بهم هي الدافع لكل هذه الأوامر والوعود. إنه يريد بهم الخير، وييسر لهم الهدى، ويحب لهم النور، ويكره لهم الظلمات. فكل ما أمرهم به، وما نهاهم عنه، هو رحمة بهم، لا حاجة منه إليهم.

الرسائل التربوية والنفسية من ختم الآية بـ "رَحِيمًا"

أ. استشعار رحمة الله في كل أمر ونهي

عندما تقرأ أمرًا من أوامر الله (مثل: "اذكروا الله")، أو نهيًا من نواهيه، فاعلم أن وراءه رحمة الله بك. فهو لم يأمرك ليشق عليك، بل ليرحمك ويسعدك. فاستجب لأمره شعورًا بهذه الرحمة، لا شعورًا بالثقل والإكراه.

تطبيق عملي:
عندما تستيقظ لصلاة الفجر، وقد ثقل عليك النوم، قل لنفسك: "ربي رحيم بي، يأمرني بهذا لخيري وسعادتي". هذا الاستحضار يجعل الطاعة محبوبة إلى النفس، لا ثقيلة عليها.

ب. الرجاء في رحمة الله عند التقصير

إذا قصرت في ذكر الله، أو ضعفت عن التسبيح، فلا تيأس من رحمة الله. تذكر أن الله رحيم بـ المؤمنين، وأنه يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات. فبادر بالاستغفار، وجدد عهدك مع الله، وعد إلى الذكر، وستجد رحمة الله تتلقاك.

تطبيق نفسي:
إذا مر عليك يوم لم تذكر فيه الله إلا قليلًا، فلا تقل: "لقد فاتني القطار". بل قل: "ربي رحيم، وسأعود إليه الآن". وابدأ بالاستغفار، ثم الذكر. فإن رحمة الله تسبق غضبه، وعطاءه يسبق منعه.

سادسًا:
كيف نعيش آيات الذكر والتسبيح وصلاة الله في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني هذه الآيات الكريمة، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نجعل هذه الآيات حية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.تنظيم اليوم حول الذكر: برنامج عملي للأذكار

التطبيق العملي:

· أذكار الصباح: اجعلها عادة ثابتة بعد صلاة الفجر مباشرة. (يمكنك استخدام تطبيق للأذكار، أو كتاب صغير).
· أذكار المساء: اجعلها عادة ثابتة بعد صلاة العصر أو قبل غروب الشمس.
· الذكر المطلق: املأ فراغات يومك بالذكر: وأنت في السيارة، وأنت في طابور الانتظار، وأنت تمشي في الطريق. قل: "سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم" مائة مرة، فإنها تغرس لك نخلة في الجنة.

٢.تحويل التسبيح إلى "تنفس روحي" دائم

التطبيق العملي:

· التسبيح عند رؤية آيات الله في الكون: عند رؤية غروب الشمس، أو جمال الطبيعة، أو نجم في السماء، قل: "سبحان الله!". هذا يربط الذكر بـ التأمل، ويجعل التسبيح حالة قلبية دائمة.
· التسبيح عند التعجب: إذا رأيت شيئًا عجيبًا، أو سمعت خبرًا مفرحًا، أو واجهت موقفًا صعبًا، فسبح الله. فهذا يذكرك بأن الأمر كله بيد الله.

٣.استشعار "صلاة الله وملائكته" عند الذكر

التطبيق العملي:

· كلما جلست تذكر الله (بعد صلاة الفجر مثلًا)، استحضر أن الله يذكرك في ملئه الأعلى، وأن الملائكة تحفك وتستغفر لك. هذا الاستحضار يرفع الهمة، ويجعل الذكر متعة روحية لا توصف.

٤.طلب "النور" في كل شؤون الحياة

التطبيق العملي:

· عند اتخاذ قرار: ادعُ الله أن يرزقك النور لترى الصواب. قل: "اللهم أرني الحق حقًا وارزقني اتباعه،

وأرني الباطل باطلًا وارزقني اجتنابه".
· عند مواجهة شبهة فكرية: لا تستسلم للظلمة، بل اطلب النور من الله بالدعاء، وسؤال أهل العلم، وقراءة الردود العلمية.
· عند الشعور بالضيق والهم: أكثر من الذكر والدعاء، واطلب من الله أن يخرجك من ظلمة الهم إلى نور الفرج.

٥التعامل مع الآخرين برحمة لأن الله "رَحِيم" بالمؤمنين.

التطبيق العملي:

· إذا كان الله رحيماً بك، فكن رحيماً بعباده. ارحم من هو دونك، واعفُ عمن ظلمك، وتجاوز عن المخطئ. فإن الراحمين يرحمهم الرحمن.
· في تربية الأبناء: عاملهم برحمة ورفق، كما يعاملك الله برحمته. ولا تكن فظًا غليظًا، فتنفرهم من الدين.
سابعًا: القيم المستفادة من الآيات 41-43

القيمة تجلياتها في الآيات
مركزية الذكر في حياة المؤمن "اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا" – الأمر بالذكر الكثير.
التسبيح في أوقات محددة "وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا" – تنظيم اليوم حول الذكر.
شرف صلاة الله على المؤمنين "هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ" – أعظم وسام إلهي.
دور الملائكة في حياة المؤمن "وَمَلَائِكَتُهُ" – الملائكة تستغفر للمؤمنين وتدعو لهم.
الخروج من الظلمات إلى النور "لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" – غاية الهداية الإلهية.
رحمة الله الخاصة بالمؤمنين "وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا" – الرحمة هي الدافع لكل تشريع.
الترابط بين الذكر وصلاة الله من يذكر الله كثيرًا، يصلي الله عليه وملائكته.
استشعار معية الله في رحلة النور لست وحدك في مواجهة الظلمات، الله وملائكته معك.

خاتمة: في رحاب الذكر والنور والرحمة

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآيات الكريمة، التي ترسم لنا طريق النجاة في زمن كثُرت فيه الظلمات. إنها آيات تأمرنا بـ الذكر الكثير والتسبيح الدائم، وتبشرنا بأن الله يصلي علينا وملائكته، لتخرجنا من ظلمات الشهوات والشبهات والهموم إلى نور الإيمان والطمأنينة واليقين.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· الذكر هو غذاء الروح وسلاح المؤمن وعلامة محبة الله.
· التسبيح في البكرة والأصيل هو تنظيم إلهي ليوم المؤمن، يجعله مباركًا من أوله إلى آخره.
· صلاة الله وملائكته علينا هي أعظم شرف وأكبر تكريم، وهي سبب النور وطريق النجاة.
· رحمة الله بالمؤمنين هي السر وراء كل هذه الأوامر والوعود، وهي البلسم الذي يداوي جراح التقصير والذنوب.

فلنحرص – رجالًا ونساءً – أن نجعل ألسنتنا رطبة بذكر الله، وقلوبنا عامرة بحبه، وجوارحنا مشغولة بطاعته. ولنبدأ يومنا بذكره، ونختمه بتسبيحه، حتى نكون أهلًا لـ صلاته وصلاة ملائكته، وحتى يخرجنا من الظلمات إلى النور، ويدخلنا في رحمته التي وسعت كل شيء.

المبحث الثاني
تفسير آية "تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ" (الأحزاب: 44) – في رحاب لقاء الله وتحية السلام والأجر الكريم

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني العذب، الذي يرسم للمؤمنين لحظة اللقاء الأعظم، وموعد الفرح الأكبر، حين يقفون بين يدي رب العالمين، لا ليحاسبوا حسابًا عسيرًا، بل ليُستقبلوا استقبال الكرام، وتُهدى إليهم تحية السلام من ملك السلام. إنها آية تفيض رجاءً وطمأنينة، وتفتح نافذة الأمل على اللقاء المحبوب، وتزرع في القلب الشوق إلى يوم الجزاء، بعد أن يبشر المؤمنين بما أعده الله لهم من نعيم مقيم.

بعد أن أمر الله المؤمنين في الآيات السابقة بـ الذكر الكثير والتسبيح، ووعدهم بأنه يصلي عليهم وم لائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وختم بأنه كان بالمؤمنين رحيمًا، تأتي هذه الآية الكريمة لتكمل البشارة، وتعلن عن الجزاء الأوفى، والنعيم الأعظم في دار القرار. إنها الآية التي تخبرنا أن تحية المؤمنين يوم يلقون ربهم هي سلام، وأن الله أعد لهم أجرًا كريمًا.

يقول الله تعالى: "تحيّتُهُمْ يَوْمَ يَلقوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدّ لَهُمْ أَجْرًا كرِيمًا"

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأننا نعيش تلك اللحظة الفارقة، لحظة لقاء الله، ونسمع بأذاننا تحية السلام من الرحمن الرحيم، في زمن كثُرت فيه الهموم، وتقطعت فيه الأسباب، وتاقت فيه النفوس إلى الأمن والسلام الحقيقي.
الأمر الأول:
"تحيّتُهُمْ يَوْمَ يَلقوْنَهُ سَلَامٌ" – استقبال الملوك في حضرة ملك الملوك

اللمسة البيانية الأولى: "تحيّتُهُمْ" – إضافة التحية إليهم: شرف واختصاص

تبدأ الآية الكريمة بقوله: "تحيّتُهُمْ". وهذه الكلمة وحدها تحمل بشارة عظيمة، وتكشف عن مقام المؤمنين عند ربهم. فلنتأمل معًا أبعادها:

١."تحيّة" – معناها ودلالتها

التحية في اللغة: السلام، والدعاء بالحياة الطيبة، والإكرام، والترحيب. وهي ما يُستقبل به القادم من حبيب أو ملك أو ضيف عزيز. فإذا كانت التحية هي السلام، فما أعظمها من تحية!

٢.إضافة التحية إلى "هم" – ضمير الجمع: تشريف وتخصيص

قوله: "تحيّتُهُمْ" – بإضافة التحية إلى ضمير المؤمنين – يدل على أن هذه التحية خاصة بهم، معدة لهم، مهداة إليهم من رب العالمين. فكأنه يقول: "تحية خاصة كرامة لهم، لا يشاركهم فيها غيرهم".

وهذه الإضافة تشبه إضافة "بيوتكن" لنساء النبي، و"أجرهم" للمتقين. ففيها تشريف للمضاف إليه، وتخصيص له بهذا الفضل.

٣.لماذا ذكرت "التحية" هنا؟

الآية تتحدث عن يوم يلقون الله. وفي الدنيا، إذا لقي الملكُ أحدَ رعيته، فإن الرعية هي التي تبادر بـ التحية والسلام. أما هنا، فالأمر معكوس: الله هو الذي يبادر المؤمنين بالتحية! يا له من شرف عظيم! رب العالمين، ملك الملوك، هو الذي يحييهم ويسلم عليهم. وهذا من عظيم لطفه وكرمه ورحمته بعباده المؤمنين.

اللمسة البيانية الثانية: "يَوْمَ يَلقوْنَهُ" – تحديد زمان التحية: يوم اللقاء الأعظم

هذا هو الظرف الزماني لهذه التحية العظيمة: "يَوْمَ يَلقوْنَهُ". وكل كلمة في هذا التعبير تحمل دلالات عميقة:

١."يَوْمَ" – تفخيم اليوم وتهويله

لفظة "يَوْمَ" – مع إضافتها إلى الجملة الفعلية – تفيد تعظيم هذا اليوم، وتهويل شأنه. إنه يوم القيامة ، يوم لقاء الله، اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، ولكن المؤمنين فيه في أمان وسلام، يتلقون تحية ربهم.

٢."يَلقوْنَهُ" – صيغة المضارع: استحضار المشهد وكأنه حاضر

فعل "يَلقوْنَهُ" مضارع، وهو يفيد استحضار المشهد وكأنه واقع الآن. فكأننا – ونحن نقرأ الآية – نعيش لحظة اللقاء، ونشهد المؤمنين وهم يتلقون تحية ربهم. وهذا الأسلوب القرآني يجعل الغيب حاضرًا، والمستقبل واقعًا، فيزيد إيماننا ويقيننا ويبعث في قلوبنا الشوق إلى هذا اليوم الموعود.

.٣"اللقاء" – دلالة القرب والمحبة

لفظة "اللقاء" – بدلًا من "يرونه" أو "يحضرون" – توحي بـ القرب والمحبة والأنس. فاللقاء يكون بين الأحباب، بعد طول غياب وشوق. والمؤمنون في الدنيا يشتاقون إلى لقاء ربهم، ويتمنون الخلاص من دار البلاء إلى دار النعيم وجوار الرحمن. فيوم القيامة هو يوم اللقاء المحبوب، الذي طالما تاقت إليه أرواحهم.

اللمسة البيانية الثالثة: "سَلَامٌ" – التحية الإلهية: أمن وأمان أبدي

هذا هو جوهر الآية وذروة البشارة: "سَلَامٌ". كلمة واحدة، ولكنها تحمل معاني لا تعد ولا تحصى:

.١"سَلَامٌ" – تنكير للتعظيم والتفخيم

لفظة "سَلَامٌ" جاءت نكرة، والتنكير هنا للتعظيم والتفخيم. فهو سلام عظيم، لا يشبهه سلام المخلوقين. إنه سلام الله، الذي هو مصدر السلام، وواهب السلام، والمتفضل بالسلام.

.٢معاني "السلام" الإلهي

· الأمن المطلق: سلام من كل خوف، وسلام من كل أذى، وسلام من كل مكروه .فلا حزن بعدها، ولا موت بعدها، ولا مرض بعدها، ولا هم بعدها.
· التحية والتكريم: سلام بمعنى التحية والإكرام .فالله يسلم عليهم، ويرحب بهم، ويشرفهم بخطابه.
· النجاة والسلامة: سلام بمعنى السلامة من العذاب، والنجاة من النار، والفوز بـ الجنة.
· الطمأنينة والسكينة: سلام يملأ القلوب طمأنينة، والأرواح سكينة، بعد أهوال القيامة.

.٣الربط بين "السلام" واسم الله "السلام"

الله تعالى اسمه "السلام"، وهو الذي يسلم على عباده يوم القيامة. فإذا سلم عليك السلام، فمن ذا الذي يستطيع أن يمسك بسوء؟ وإذا رحب بك ملك الملوك، فمن ذا الذي يستطيع أن يطردك؟ إنها كلمة واحدة من الله، ولكنها تزن الجنة وما فيها.

الرسائل التربوية والنفسية من تحية السلام يوم اللقاء

أ. اطمئنان قلب المؤمن على مصيره يوم القيامة

هذه الآية تمنح المؤمن طمأنينة عظيمة، وتزيل عنه الخوف من أهوال يوم القيامة. فإذا كان المؤمنون – وهم الذاكرون الله كثيرًا – سيتلقون تحية السلام من ربهم، فإن هذا يعني أنهم في أمان، وأن حسابهم يسير، وأن مصيرهم إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

تطبيق نفسي:
عندما يمر بك خاطر الخوف من الموت أو يوم القيامة، فاستحضر هذه الآية: "تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ". واعلم أنك – إن كنت من الذاكرين والمتقين – ستكون في ضيافة الله، وستتلقى تحيته وسلا مه. فهذا يطرد الخوف، ويملأ القلب رجاءً وأملًا.

ب. الشوق إلى لقاء الله: ثمرة الذكر والتقوى

المؤمن الذي يذكر الله كثيرًا، ويسبحه بكرة وأصيلًا، يتولد في قلبه حب الله والشوق إلى لقائه. فهو يعلم أن لقاء الله ليس لقاء مخيفًا، بل هو لقاء حبيب لحبيبه، فيه التحية والسلام والأجر الكريم.

تطبيق عملي:
اجعل الذكر والتسبيح زادك في رحلتك إلى الله. وكلما أكثرت من ذكر الله، زاد شوقك إلى لقائه. وكلما زاد شوقك إلى لقائه، هانت عليك مشاق الدنيا، واستصغرت همومها.

ج. السلام الحقيقي هو سلام الله، لا سلام الدنيا الزائف

الناس في الدنيا يلهثون وراء السلام (الأمن، الطمأنينة، راحة البال)، ولكنهم يبحثون عنه في غير

موضعه: في المال، والمنصب، والشهرة، والعلاقات. وهذه كلها سلام زائف، سرعان ما يزول ويتبدد. أما السلام الحقيقي، فهو سلام الله الذي يلقاه المؤمن يوم القيامة، والذي يبدأ أثره في الدنيا بـ طمأنينة القلب وسكينة النفس التي يمنحها ذكر الله.

الأمر الثاني: "وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا" – وعد إلهي بالأجر الكريم بعد السلام

بعد أن بشر الله المؤمنين بـ تحية السلام يوم لقائه، أتبعها ببشارة أخرى لا تقل عنها عظمة: "وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا". وهذا تتميم للنعمة، وإكمال للفرحة. فليس فقط يسلم عليهم، بل أعد لهم فوق ذلك أجرًا كريمًا.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا"

١."أَعَدَّ" – الإعداد المسبق والعناية الفائقة

لفظة "أَعَدَّ" – من الإعداد والعتاد – تفيد أن هذا الأجر مُعَدّ مسبقًا، ومُهيّأ بعناية فائقة. فـالله تعالى لم يقل: "وسيعطيهم"، بل قال: "أَعَدَّ"، أي: هيأ وجهز وهيأ. وهذا يدل على:

· كرم الله المسبق: فـالله يعد لعباده الصالحين من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، قبل أن يعملوا أعمالهم.
· عناية خاصة: فالإعداد يعني التهيئة والتحضير بعناية، وهذا يدل على أن هذا الأجر ليس شيئًا عاديًا ، بل هو شيء خاص أعد بعناية فائقة للمؤمنين.

٢."لَهُمْ" – اللام: اختصاص الأجر بهم

اللام في "لَهُمْ" هي لام الاختصاص. أي: هذا الأجر خاص بهم، معد لهم وحدهم، لا يشاركهم فيه غيرهم من الكافرين والمنافقين.

٣."أَجْرًا" – تنكير للتعظيم

لفظة "أَجْرًا" جاءت نكرة، والتنكير هنا للتعظيم والتفخيم. فهو أجر عظيم، لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه. وهو جزاء على أعمالهم الصالحة في الدنيا (من ذكر، وتسبيح، وتقوى).

٤."كَرِيمًا" – وصف الأجر بالكرم: من كريم إلى كريم

وصف الأجر بأنه "كريم" يحمل معاني سامية:

· كريم في مصدره: فهو من الله الكريم، الذي يعطي بغير حساب، ولا يمن بغير استحقاق.
· كريم في صفته: فهو أجر طيب، ليس فيه كدر ولا نغص، وليس فيه منة ولا أذى.
· كريم في مقداره: فهو أجر واسع فسيح، لا ضيق فيه ولا شح .إنه جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.
· كريم في دوامه: فهو أجر دائم غير منقطع، ليس كأجور الدنيا التي تزول وتنقطع.

ما هو هذا "الأجر الكريم"؟

الآية لم تفصل في طبيعة هذا الأجر، لتترك للخيال أن يتصور ما لا يمكن وصفه. ولكن من خلال آيات أخرى وأحاديث، نعلم أن الأجر الكريم يشمل:

· الجنة ونعيمها: "جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ") مريم:.(61
· رضوان الله: "وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ") التوبة: .(72 فرؤية الله، وسماع كلامه، والفوز برضوانه، هو أعظم الأجر الكريم.
· النظر إلى وجه الله الكريم: وهو أعلى نعيم الجنة، وأسمى ما يتمناه المؤمن.

الرسائل التربوية والنفسية من وعد الأجر الكريم

أ. تحفيز المؤمن على العمل الصالح والذكر

هذه الآية – مع أختها السابقة – تضع حافزًا عظيمًا للمؤمن على الإكثار من ذكر الله وتسبيحه وطاعته. فهو يعلم أن ثمرة هذا الذكر هي تحية السلام من الله يوم القيامة، والأجر الكريم الذي لا يفنى. وهذا يخفف عنه مشقة التكليف، ويجعل الطاعة محبوبة إلى نفسه.

تطبيق عملي:
عندما تشعر بالكسل عن الذكر أو الصلاة، تذكر أن الله أعد لك – إن كنت من الذاكرين – تحية سلام وأجرًا كريمًا. فاستعن بهذا الوعد على دفع الكسل، وتجديد النشاط.

ب. الزهد في أجور الدنيا الفانية والتطلع إلى الأجر الكريم الباقي

المؤمن الذي يوقن بأن الله أعد له أجرًا كريمًا في الآخرة، يزهد في أجور الدنيا الفانية، ولا يجعلها أكبر همه. فهو يعمل في الدنيا، ويطلب الرزق الحلال، ولكنه لا يتعلق قلبه بالدنيا، لأن ما عند الله خير وأبقى.

تطبيق معاصر:
في عصر الماديات والاستهلاك، يلهث كثير من الناس وراء المكاسب الدنيوية، ويضحون بدينهم وقيمهم من أجلها. أما المؤمن، فإنه يتذكر الأجر الكريم الذي أعده الله له، فيهون عليه ما فاته من الدنيا، ويقنع بالكفاف، ويجعل همه في مرضاة الله.

ج. الأجر الكريم يشمل الدنيا والآخرة

مع أن الأجر الكريم المذكور في الآية هو أجر الآخرة، إلا أن بركته وأثره يمتدان إلى الدنيا. فالمؤمن الذي يذكر الله كثيرًا، ينعم في الدنيا بـ طمأنينة القلب، وسكينة النفس، وبركة الرزق، ومحبة الناس. وهذه كلها عاجل بشرى المؤمن، وجزء من أجره الكريم في الدنيا قبل الآخرة.
الأمر الثالث:
كيف نعيش آية "تحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلقوْنهُ سَلَامٌ" في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

.١استشعار "تحية السلام" عند الذكر والعبادة

التطبيق العملي:

· عندما تنتهي من الصلاة، وتسلم عن يمينك وشمالك، استحضر أنك تتدرب على تحية السلام التي ستتلقاها من الله يوم القيامة .فهذا يرفع من قيمة الصلاة في قلبك، ويجعل السلام فيها أكثر خشوعًا.
· عندما تلقي السلام على إخوانك المسلمين، استحضر أنه من آداب الإسلام، وأنه تدريب على تحية أهل الجنة: "تحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ") إبراهيم:.(23

.٢تذوق "الأجر الكريم" في الدنيا قبل الآخرة

التطبيق العملي:

· تأمل نعم الله عليك: كل نعمة تتمتع بها) الصحة، الأمن، الإيمان، الأسرة (هي جزء من الأجر الكريم الذي يعجله الله لك في الدنيا .فاحمد الله عليها، واستشعر كرمه سبحانه.
· ابحث عن "الأجر الكريم" في غير المال: كما ذكرنا في تفسير الآية31 ، الأجر الكريم ليس فقط المال، بل هو القناعة، والسكينة، ومحبة الناس، والذرية الصالحة .هذه كلها أرزاق كريمة من الله.

.٣التربية على "حب لقاء الله" لا "كراهية الموت"

التطبيق العملي:

· غير نظرتك للموت: لا تنظر إلى الموت على أنه نهاية مخيفة، بل انظر إليه على أنه بداية اللقاء المحبوب مع الرحمن الرحيم .هذه النظرة الإيمانية تجعلك تعيش حياتك بطمأنينة، وتستعد للقاء الله بـ

العمل الصالح، لا بالخوف والهلع.
· ربِّ أبناءك على حب لقاء الله: لا تخوفهم من الموت وعذاب القبر فقط، بل بشرهم بلقاء الله، وتحية السلام، والأجر الكريم .فهذا يزرع فيهم الأمل والرجاء، ويجعلهم يقبلون على الطاعة بدافع الحب، لا بدافع الخوف فقط.

٤.في أوقات الشدة والضيق: استحضار لقاء الله والسلام

التطبيق العملي:

· عندما تشعر بالضيق أو الهم أو الظلم، تذكر أن لقاء الله قريب، وأنه سيجازيك أجرًا كريمًا، وسيسلم عليك سلامًا .هذا التذكر يخفف عنك وطأة البلاء، ويمنحك صبرًا وثباتًا.
· ادعُ الله أن يرزقك تحية السلام يوم لقائه: كان من دعاء بعض السلف: "اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة" .فهذا الدعاء يجمع بين خوف العبد ورجائه، وشوقه إلى لقاء ربه.
رابعًا: القيم المستفادة من الآية 44

القيمة تجلياتها في الآية
البشارة للمؤمنين بلقاء الله "تحيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلقَوْنَهُ" – تأكيد أن لقاء الله هو لقاء تكريم وتحية.
أمن المؤمنين يوم القيامة "سَلَامٌ" – تحية السلام تعني الأمان من العذاب والفزع الأكبر.
فضل الذكر والتسبيح السياق يربط بين الذكر (في الآيات السابقة) وهذه البشارة.
كرم الله المسبق "أَعَدَّ لَهُمْ" – الأجر معد مسبقًا بعناية فائقة.
عظمة الأجر الأخروي "أَجْرًا كَرِيمًا" – أجر لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه.
التحرر من الخوف من الموت المؤمن يشتاق إلى لقاء الله، لأنه يعلم ما ينتظره من تحية وأجر.
الزهد في الدنيا والتطلع إلى الآخرة "أَجْرًا كَرِيمًا" في الآخرة يهون متاع الدنيا الزائل.
التربية على الرجاء مع الخوف الآية تبعث الرجاء في رحمة الله، مع استحضار عظم يوم اللقاء.
خاتمة: في رحاب لقاء الله وتحيتة السلام

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تفتح لنا نافذة الأمل على أعظم لقاء في الوجود: لقاء الله. إنها آية تفيض بالبشارة والرجاء، وتزرع في القلب الشوق إلى دار السلام، وإلى تحية السلام من ملك السلام.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· المؤمنون الذاكرون الله كثيرًا سينالون شرفًا عظيمًا يوم القيامة: تحية السلام من رب العالمين.
· لقاء الله ليس لقاء خوف وهلع للمؤمنين، بل هو لقاء حب وتكريم، تبدأ مراسمه بـ تحية السلام.
· الأجر الكريم الذي أعده الله للمؤمنين هو أجر لا يوصف، يشمل الجنة والنظر إلى وجهه الكريم ورضوانه الأكبر.
· الاستعداد لهذا اللقاء يكون بـ الذكر الكثير والتسبيح والتقوى، وبـ الاشتياق إلى الله والعمل الصالح.

فلنحرص – رجالًا ونساءً – أن نكون من الذين يذكرون الله كثيرًا، ويسبحونه بكرة وأصيلًا، حتى نكون أهلًا لـ تحيته وسلامه يوم نلقاه، وحتى نفوز بـ الأجر الكريم الذي لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

القسم الرابع
يتناول ايات هذا القسم مهمه الرسول وثقلها فى الايات 45--48
تفسير آيات مهمة النبي وثقل الأمانة (الأحزاب: 45-48) – في رحاب الرسالة الخاتمة وحامل لواء الهداية

مدخل إلى رحاب الآيات الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني المهيب، الذي يرسم لحظة التكليف الأعظم، ولحظة إعلان المهمة الكبرى، حيث يخاطب الله تبارك وتعالى نبيه وحبيبه محمدًا صلى الله عليه وسلم، ليعرفه بأبعاد رسالته، وجسامة مسؤوليته، وثقل الأمانة التي حملها للبشرية جمعاء. إنها آيات تكشف عن هوية النبي الوظيفية، وعن أوصافه المباركة، وعن التوجيهات الإلهية التي تصونه وتثبته

في وجه أعداء الدعوة من الكافرين والمنافقين.

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن مقام النبي كخاتم النبيين، وعن رفع الحرج عنه، وعن بشارات المؤمنين بلقاء ربهم، تأتي هذه الآيات الأربع لتضعنا أمام اللوحة المتكاملة لمهمة النبي صلى الله عليه وسلم: إنه شاهد على أمته، ومبشر للمؤمنين، ونذير للكافرين، وداعٍ إلى الله بإذنه، وسراج منير يضيء الطريق للعالمين. ثم يأتي الأمر الإلهي بتبشير المؤمنين بالفضل الكبير، والنهي عن طاعة الكافرين و المنافقين، والأمر بترك أذاهم والتوكل على الله.

يقول الله تعالى:
"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" (45)
"وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا" (46)
"وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا" (47)
"وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا" (48)

فلنغص معًا في أعماق هذه الآيات الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، لنعيش عظمة الرسالة، وجلال المهمة، وثقل الأمانة التي حملها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والتي ورثها من بعده العلماء والدعاة إلى يوم الدين.
الأمر الأول:
"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" – أبعاد المهمة النبوية العظمى

اللمسة البيانية الأولى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" – نداء التكليف والتشريف معًا

تبدأ الآيات بهذا النداء العلوي الكريم: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ". إنه نداء يتكرر في القرآن في مواطن التكليف العظيم والتوجيه الخاص. ولنتأمل معًا لماذا خص الله نبيه بهذا النداء في هذا المقام؟

١.الوصف بـ "النبي" لا "الرسول" – سر البيان

لاحظ أن الله قال: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" ولم يقل: "يا أيها الرسول". وهذا اختيار دقيق له مغزاه العميق:

· النبوة هي مقام التلقي الخاص من الله، والاتصال المباشر بالوحي .فالنبي هو من أوحى الله إليه وأطلعه على غيبه.
· الرسالة هي مقام التبليغ للأمة .فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولًا.

فنداؤه بـ "النبي" هنا يناسب سياق إعلامه بأبعاد مهمته التي تبدأ بالتلقي من الله (شاهدًا، مبشرًا، نذيرًا، داعيًا، سراجًا) قبل تبليغها للأمة. فكأن الله يقول له: "يا من أوحيتُ إليه، واصطفيته لذاتي... إني أرسلتك بهذه المهمة العظيمة".

٢."إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ" – ضمير الجمع للتعظيم

قوله: "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ" – بضمير المتكلم الجمع – هو من باب التعظيم. فالله تعالى ينسب إرسال النبي إلى ذاته العلية بصيغة الجمع، إيذانًا بـ عظمة المرسِل، وجلالة المرسَل، وضخامة المهمة. فمن كان مرسِله هو الله، فكيف تكون عظمة مهمته؟!

اللمسة البيانية الثانية: "شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" – ثلاثية المهمة النبوية

هذه الأوصاف الثلاثة هي محور الآية وقلب المهمة. فلنقف مع كل وصف منها وقفة متأنية:

١."شَاهِدًا" – الشهادة على الأمة

ما معنى "شاهدًا"؟
الشاهد هو من يحضر ويرى ويعلم، ثم يخبر بما رأى وعلم، ويشهد به يوم القيامة. والنبي صلى الله عليه وسلم هو:

· شاهد على أمته: يشهد عليهم بما فعلوا من خير أو شر .قال تعالى: "فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا") النساء:.(41

· شاهد لله بالتوحيد: يشهد لله بالوحدانية، ولرسالته بالصدق، بلسانه وعمله وحاله.
· شاهد على تبليغ الرسالة: يشهد أنه بلغ ما أمره الله به كاملًا غير منقوص.

دلالة تقديم "شاهدًا" على سائر الأوصاف:
قدم وصف "شاهدًا" لأنه الأساس الذي تبنى عليه الأوصاف الأخرى. فكونه شاهدًا يعني أنه معايش لأ مته، مراقب لأحوالهم، عالم بأسرارهم، وهذا يجعله أهلًا لأن يكون مبشرًا ونذيرًا عن علم ويقين، لا عن جهل أو تخمين.

.٢"وَمُبَشِّرًا" – التبشير بالخير والثواب

ما معنى "مبشرًا"؟
المبشر هو من يأتي بالخبر السار، الذي يملأ القلب فرحًا وأملًا. والنبي صلى الله عليه وسلم هو:

· مبشر للمؤمنين: يبشرهم برضوان الله، وجنات النعيم، والمغفرة، والرحمة، إذا آمنوا وعملوا الصالحات.
· مبشر للعالمين: يبشرهم بأن الإسلام هو دين الفطرة، وطريق السعادة في الدنيا والآخرة.

الترتيب بين "مبشرًا" و"نذيرًا":
قدم التبشير على الإنذار، لأن رحمة الله سبقت غضبه، ولأن الترغيب في الخير مقدم على الترهيب من الشر في منهج الدعوة. فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يفتح أبواب الأمل قبل أن يغلق أبواب اليأس.

.٣"وَنَذِيرًا" – الإنذار من الشر والعقاب

ما معنى "نذيرًا"؟
النذير هو من يحذر من خطر وشيك، ويدعو إلى الحذر والاستعداد. والنبي صلى الله عليه وسلم هو:

· نذير للكافرين: ينذرهم بعذاب الله في الدنيا والآخرة إذا استمروا على كفرهم وعنادهم.
· نذير للمؤمنين: ينذرهم بمعصية الله، ويحذرهم من غضبه وعقابه، ليكونوا على حذر وتقوى.

الجمع بين التبشير والإنذار: منهج متوازن
النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الترغيب والترهيب، بين البشارة والنذارة، ليكون طبيب القلوب الذي يعالج أمراض اليأس بـ بشارة الرحمة، وأمراض الغفلة بـ نذارة العذاب. وهذا هو المنهج المتوازن الذي ينبغي أن يسير عليه كل داعية ومصلح.

الرسائل التربوية والنفسية من هذه الأوصاف الثلاثة

أ. النبي ليس مجرد ناقل أخبار، بل هو شاهد حي على أمته

كون النبي شاهدًا يعني أنه لم يكن بعيدًا عن هموم أمته، ولا منعزلًا عن واقعهم. بل كان يعيش معهم ، يشاركهم أفراحهم وأتراحهم، يعلم خبايا نفوسهم، فيكون شهادته يوم القيامة شهادة حق وعدل، مبنية على علم ويقين.

وهذا يعلمنا أن الداعية أو المربي لا يمكن أن يكون مؤثرًا إلا إذا كان قريبًا من الناس، عارفًا بأحوالهم ، مشاركًا لهم في حياتهم. فالداعية البرج العاجي الذي لا يخالط الناس، لا يمكن أن يكون شاهدًا عليهم، ولا مبشرًا لهم، ولا نذيرًا لهم.

ب. التبشير قبل الإنذار: فتح أبواب الأمل قبل إغلاقها

المنهج النبوي في الدعوة يقوم على تقديم البشارة على النذارة. فالناس بحاجة إلى من يفتح لهم أبواب الأمل، ويزرع في قلوبهم حب الله ورجاء رحمته، قبل أن يخوفهم من عذابه. فالقلوب إذا امتلأ ت بمحبة الله، سهل عليها امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

تطبيق معاصر:
عندما تدعو شابًا عاصيًا إلى التوبة، فلا تبدأ بـ "أنت في النار!" و"عذاب الله شديد!"، بل ابدأ بـ "ربك رحيم، يحب التوابين، يفرح بتوبتك، يبدل سيئاتك حسنات". ثم بعد أن تفتح قلبه بهذه البشارة،

حذره برفق من عاقبة الإصرار على المعصية. هذا هو الهدي النبوي في الدعوة.

ج. النذارة رحمة قبل أن تكون عقوبة

قد يظن البعض أن الإنذار هو تشاؤم أو تخويف مقيت. ولكن الحقيقة أن الإنذار هو رحمة من الله بعباده. فالله ينذرهم قبل أن يعاقبهم، ليكون لهم فرصة للتوبة والرجوع. فالطبيب الذي يحذرك من مرض خفي في جسدك، هو أرحم بك من الذي يسكت عنك حتى يفتك بك المرض. وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم، هو الطبيب الذي ينذر أمته من أمراض القلوب ليتداركوها قبل فوات الأوان.
الأمر الثاني:
"وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا" – إكمال أوصاف المهمة وبيان مصدر النور

بعد أن ذكر الله أوصاف النبي الثلاثة (شاهدًا، مبشرًا، نذيرًا)، أضاف وصفين آخرين يكملان الصورة ويوضحان جوهر المهمة: "وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ"

١."وَدَاعِيًا" – الدعوة إلى الله: لب المهمة وغايتها

ما معنى "داعيًا إلى الله"؟
الداعي إلى الله هو من يدعو الناس إلى عبادة الله وحده، وطاعته، والتقرب إليه. وهذا هو لب مهمة النبي صلى الله عليه وسلم، وغاية إرساله. فكل الأوصاف السابقة (شاهدًا، مبشرًا، نذيرًا) تخدم هذه الغاية العظمى: دعوة الناس إلى الله.

الفرق بين "الداعي إلى الله" و"الداعي إلى نفسه أو إلى مذهب":
النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يدعو إلى نفسه، ولا إلى قبيلته، ولا إلى حزبه، ولا إلى مذهبه. بل كان يدعو إلى الله وحده. وهذا هو الفرق الجوهري بين الدعاة الصادقين وأدعياء الدعوة. فالداعية الصادق هو من يدعو إلى الله، لا إلى شخصه أو جماعته أو منصبه.

٢."بِإِذْنِهِ" – قيد عظيم: لا دعوة إلا بتوفيق الله وأمره

لفظة "بِإِذْنِهِ" هي قيد مهم جدًا. وهي تعني:

· بأمره: فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يدعُ إلا بأمر الله .فالدعوة تكليف إلهي، لا تطوع شخصي.
· بتوفيقه وتيسيره: فالدعوة إلى الله لا تنجح إلا بإذن الله وتوفيقه .فمهما اجتهد الداعية، ومهما أوتي من فصاحة وعلم، فإن الهداية بيد الله وحده: "إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ") القصص:.(56

وهذا القيد يحرر الداعية من غرور النفس، ومن اليأس من قلة النتائج. فهو يعلم أن دوره هو التبليغ، والهداية من الله. فيجتهد في أداء الأمانة، ويفوض النتائج إلى الله.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَسِرَاجًا مُنِيرًا"

١."سِرَاجًا" – النبي مصدر النور والهداية

السراج هو المصباح الذي يضيء الظلمات، ويهدي السالكين في الليل البهيم. والنبي صلى الله عليه وسلم هو السراج الذي أرسله الله ليضيء للبشرية ظلمات الجهل والكفر والشهوات.

لماذا سماه "سراجًا" وليس "شمسًا" أو "قمرًا"؟
السراج هو نور يحتاج إلى وقود، وهو يمكن إطفاؤه إذا انقطع الوقود. والنبي صلى الله عليه وسلم بشر يحتاج إلى وحي الله (الوقود) ليستمد منه النور. أما الشمس فهي نور ذاتي لا ينقطع، وهذا لله وحده. فاختيار لفظ "سراجًا" فيه إشارة إلى بشرية النبي، وأن نوره مستمد من نور الوحي.

٢."مُنِيرًا" – تأكيد قوة النور ووضوحه

وصف السراج بأنه "مُنِير" (اسم فاعل من أنار) يفيد المبالغة في قوة النور ووضوحه. فالنبي صلى الله

عليه وسلم ليس مجرد سراج خافت، بل هو سراج منير، قوي الضوء، واضح الهداية، لا غموض فيه و لا التواء. من تبعه نجا، ومن تخلف عنه هلك.

الرسائل التربوية والنفسية من وصفي "داعيًا إلى الله" و"سراجًا منيرًا"

أ. أن الدعوة إلى الله أشرف مهمة وأعظمها

كون النبي صلى الله عليه وسلم – وهو سيد ولد آدم – يوصف بأنه "داعيًا إلى الله"، فهذا يدل على أن الدعوة إلى الله هي أشرف مهمة في الوجود. فكل من سار على دربه من العلماء والدعاة و المصلحين، فإنه يشارك النبي في أشرف مهمة، وله من الأجر بقدر إخلاصه وجهده.

تطبيق معاصر:
لا تحتقر أي جهد تبذله في الدعوة إلى الله، ولو كان كلمة طيبة تنصح بها زميلك، أو منشورًا تنشره على وسائل التواصل. فأنت بذلك داعٍ إلى الله، وتسير على درب الأنبياء.

ب. التواضع واستمداد النور من الوحي

كون النبي سراجًا منيرًا لا شمسًا، يذكرنا بأن كل نور عند البشر – مهما علا شأنهم – هو مستمد من نور الوحي. فلا غرور ولا استعلاء. بل على الداعية أن يكون متواضعًا، مستمدًا نوره من كتاب الله وسنة رسوله، لا من هواه أو عقله المجرد.

ج. الدعوة "بإذن الله": التوكل وتفويض النتائج

قوله: "بِإِذْنِهِ" يعلم الداعية أن يعلق قلبه بالله، لا بجهده ولا بوسائله. فهو يجتهد في إيصال الدعوة بأفضل الأساليب، ثم يفوض النتائج إلى الله. فإذا نجحت دعوته، حمد الله على توفيقه. وإذا لم تنجح ، لم يصبه اليأس، لأنه يعلم أن الهداية بيد الله وحده.
الأمر الثالث:
"وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا" – بشارة خاصة للمؤمنين

بعد أن بين الله مهمة النبي العامة (شاهدًا، مبشرًا، نذيرًا، داعيًا، سراجًا)، جاء بـ أمر خاص للنبي صلى الله عليه وسلم: "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا". وهذا الأمر يحمل بشارة عظيمة تفيض رجاءً وأملًا.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا"

١."وَبَشِّرِ" – فعل أمر: تأكيد على أهمية التبشير

الأمر "بَشِّرِ" – مع كونه للنبي – هو توجيه لكل داعية إلى أهمية التبشير في منهج الدعوة. فالناس – وخاصة المؤمنين – بحاجة إلى من يبشرهم ويفتح لهم أبواب الأمل، ويربطهم برحمة الله وفضله.

٢."الْمُؤْمِنِينَ" – تخصيص المؤمنين بهذه البشارة

لاحظ أن الآية خصت المؤمنين بهذه البشارة: "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ". وهذا لا يعني أن غير المؤمنين لا بشارة لهم (فقد قال: "وَمُبَشِّرًا" عامة)، ولكن هذه البشارة الخاصة – وهي الفضل الكبير – هي للمؤمنين فقط. فـ الفضل الكبير (وهو الجنة ورؤية الله) لا يناله إلا المؤمنون.

٣."بِأَنَّ لَهُم" – تأكيد الاختصاص والتملك

"بِأَنَّ لَهُم" – بـ أنّ المؤكدة، ولام الاختصاص – تفيد أن هذا الفضل ثابت لهم، ومختص بهم، وملك لهم، لا يشاركهم فيه غيرهم.

٤."مِّنَ اللهِ" – بيان مصدر الفضل: من الكريم المنان

الفضل من الله، وليس من أحد سواه. وهذا يرفع من قيمة الفضل، ويعظم من شأنه. فما كان من الله فهو كريم، عظيم، دائم.

.٥"فَضْلًا كَبِيرًا" – وصف الفضل بالكبر: عظمة لا توصف

وصف الفضل بأنه "كَبِيرًا" – مع تنكير "فضلًا" للتعظيم – يدل على أن هذا الفضل يفوق الوصف، ويجل عن الإدراك. إنه الجنة وما فيها من نعيم مقيم، ورضوان الله الأكبر، والنظر إلى وجهه الكريم.

الرسائل التربوية والنفسية من بشارة "الفضل الكبير"

أ. التوازن بين الترغيب والترهيب في التعامل مع المؤمنين

هذه الآية تركز على بشارة المؤمنين، مما يدل على أن المؤمنين – رغم تقصيرهم – يستحقون البشارة والترغيب، أكثر مما يستحقون الترهيب والتخويف. فالداعية الحكيم يفتح للمؤمنين أبواب الأ مل، ويذكرهم بسعة رحمة الله، وعظيم فضله، ليزدادوا حبًا لله وإقبالًا على طاعته.

تطبيق عملي:
عندما تتعامل مع شاب مؤمن ولكنه مقصر في بعض الطاعات، فلا تقنطه من رحمة الله، ولا تهمله. بل بشره بأن الله غفور رحيم، وأن فضله كبير، وأن التوبة تجب ما قبلها. ثم ارشده برفق إلى الطريق الصحيح. هذا يفتح قلبه، ويجعله مقبلًا على الخير.

ب. الفضل الكبير: حافز للعمل الصالح

المؤمن الذي يوقن بأن الله أعد له فضلًا كبيرًا، يزداد حرصًا على العمل الصالح، وشوقًا إلى لقاء الله. فهو يعمل لآخرته، ويصبر على مشاق الدنيا، لأنه يعلم أن ما ينتظره عند الله هو أعظم وأبقى.

ج. الفضل الكبير يشمل الدنيا والآخرة

مع أن الفضل الكبير المذكور في الآية هو فضل الآخرة (الجنة والرضوان)، إلا أن بركته تمتد إلى الدنيا. فالمؤمن الذي يبشر بهذا الفضل، ينعم في الدنيا بـ طمأنينة القلب، وسكينة النفس، وبركة الرزق، ومحبة الناس. وهذه كلها عاجل بشرى المؤمن.
الأمر الرابع:
"وَلَا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا" – درع النبي في مواجهة الأعداء

بعد أن بين الله مهمة النبي وأبعادها، وبشارة المؤمنين، جاءت هذه الآية لتضع الدرع الواقي للنبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة أعداء الدعوة: الكافرين والمنافقين. إنها توجيهات إلهية تحميه من كيدهم، وتثبته على الحق، وتأمره بالتوكل على الله وحده.

اللمسات البيانية والبلاغية في النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين

.١"وَلَا تُطِعِ" – نهي مؤكد عن الطاعة

النهي بـ "لَا تُطِعْ" – مع نون التوكيد الخفيفة – هو نهي قاطع عن طاعة الكافرين والمنافقين في أي أمر يخالف شرع الله. فالنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يعرض عن أقوالهم وإغراءاتهم وتهديداتهم، وألا يلين لهم، ولا يستجيب لضغوطهم.

.٢"الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ" – ذكر الصنفين معًا: شمولية الخطر

لاحظ أن الآية جمعت بين الكافرين (المعلنين كفرهم) والمنافقين (المبطنين كفرهم). وهذا يدل على أن خطر المنافقين لا يقل عن خطر الكافرين، بل قد يكون أشد، لأنهم يتخفون وراء قناع الإيمان، ويدبرون المكائد في الخفاء.

.٣"وَدَعْ أَذَاهُمْ" – الأمر بترك أذاهم وعدم الالتفات إليه

"دَعْ" فعل أمر من الودع، وهو الترك .فالله يأمر نبيه أن يترك أذى الكافرين والمنافقين، وألا يشغل بـ اله به، ولا يرد عليه بالمثل .وهذا ليس ضعفًا، بل هو قوة وثقة بـالله .فالنبي صلى الله عليه وسلم ماضٍ في طريقه، مبلغ لرسالة ربه، لا تثنيه سخرية ساخر، ولا أذى مؤذٍ.

اللمسات البيانية والبلاغية في الأمر بالتوكل

٤."وَتوَكلْ عَلَى اللهِ" – الأمر بالتوكل: مصدر القوة والثبات

بعد النهي عن الطاعة، والأمر بترك الأذى، يأتي الأمر بالتوكل على الله. والتوكل هو تفويض الأمر إلى الله، مع الثقة به، والأخذ بالأسباب. فالنبي صلى الله عليه وسلم يتوكل على الله في حمايته من كيد الأعداء، وفي نصرته عليهم، وفي تثبيته على الحق.

٥."وَكفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا" – ختم الآية بكفاية الله المطلقة

هذا الختم الإلهي هو عقد تاج الآية، وسر قوتها. فالله كافٍ لنبيه، وكافٍ لكل مؤمن يتوكل عليه. فهو الوكيل (الذي توكل إليه الأمور)، وهو نعم الوكيل. فمن وكله الله، كفاه، وحماه، ونصره، ورزقه من حيث لا يحتسب.

الرسائل التربوية والنفسية من هذه التوجيهات الربانية

أ. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق

النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين هو تطبيق عملي لقاعدة "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". فالنبي صلى الله عليه وسلم – وهو سيد الخلق – يُنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين. فكيف بغيره من المؤمنين؟! فلا يجوز لمؤمن أن يطيع أحدًا في معصية الله، كائنًا من كان.

تطبيق معاصر:

· الموظف الذي يأمره مديره بـ الكذب أو الغش، عليه أن لا يطيعه، لأن طاعة الله مقدمة على طاعة المدير.
· الزوجة التي يأمرها زوجها بـ خلع الحجاب، عليها أن لا تطيعه، لأن طاعة الله مقدمة على طاعة الزوج) في المعصية.(

ب. ترك أذى الأعداء: قمة القوة والثقة بالله

الأمر بـ "وَدَعْ أَذَاهُمْ" يعلمنا أن الانشغال بالرد على أذى السفهاء هو مضيعة للوقت، واستنزاف للطاقة. فالداعية الحكيم يمضي في طريقه، مبلغًا رسالته، غير مبالٍ بـ سخرية الساخرين، ولا أذى المؤذين. وهذا لا يعني الضعف، بل هو قمة القوة والثقة بالله الذي سيتولى رد كيدهم في نحورهم.

تطبيق معاصر:
إذا كنت داعية أو مصلحًا، وتعرضت لسخرية أو انتقادات من الحاقدين، فلا تتوقف عندها، ولا تشغل بالك بالرد عليها. امضِ في طريقك، وتوكل على الله، ودع أذاهم. فالله كافيك، وهو نعم الوكيل.

ج. التوكل على الله: سر القوة والثبات

التوكل على الله هو الزاد الحقيقي للداعية في طريقه المليء بالأشواك. فمن توكل على الله، كفاه، ونصره، وثبته. والتوكل لا يعني ترك الأسباب، بل يعني الأخذ بالأسباب مع تفويض النتائج إلى الله.

تطبيق عملي:
عندما تقدم على أمر مهم (دعوة، مشروع، قرار مصيري)، فـ استشر، وادرس، وخطط (هذه هي الأسباب). ثم توكل على الله، وفوض الأمر إليه، وثق بأنه لن يخذلك. هذا التوازن بين الأخذ بالأسباب و التوكل على الله هو سر النجاح في الدنيا والآخرة.

خامسًا:
ثقل المهمة النبوية – كيف تجلت في هذه الآيات؟

بعد أن استعرضنا الآيات الأربع، نلاحظ أن ثقل المهمة النبوية يتجلى في عدة جوانب:

١.تعدد الأوصاف وتنوعها

النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مكلفًا بمهمة واحدة، بل بـ خمس مهام رئيسية (شاهدًا، مبشرًا، نذيرًا، داعيًا، سراجًا). وكل مهمة منها ثقيلة بذاتها، فكيف إذا اجتمعت في شخص واحد؟! هذا يدل على عظم الأمانة التي حملها النبي، وجسامة المسؤولية التي ألقيت على عاتقه.

.٢شمولية المهمة لكل أصناف الناس

النبي صلى الله عليه وسلم كان مبشرًا للمؤمنين، ونذيرًا للكافرين، وشاهدًا على الجميع. وهذا يعني أنه مسؤول عن هداية البشرية جمعاء، لا عن قومه فقط. وهذه مسؤولية لا يقوى عليها إلا من أيده الله بروح من عنده.

.٣مواجهة جبهتين معاديتين: الكافرين والمنافقين

الآية 48 تكشف عن ثقل آخر من أثقال المهمة: مواجهة أعداء الدعوة من الكافرين (الظاهرين) و المنافقين (المستترين). فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في بيئة محايدة، بل كان محاطًا بأعداء يتربصون به، يؤذونه ويكيدون له. ومع ذلك، أمره الله أن يمضي في طريقه، مستعينًا بالتوكل على الله.

.٤الحاجة إلى التوكل المطلق على الله

لولا التوكل على الله، لما استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يحتمل كل هذه الأثقال. فالتوكل هو الزاد الذي مكنه من الصبر على أذى الكافرين، ومكر المنافقين، وجفاء الأعراب، وتولي المستكبرين. وهو السر الذي جعله يمضي في طريقه، لا يلتفت إلى السفهاء، ولا يخشى في الله لومة لائم.
سادسًا: كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآيات، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

.١حمل رسالة الدعوة إلى الله كلٌ حسب موقعه

التطبيق العملي:

· أنت – أيها المسلم – "داعٍ إلى الله" بقدر علمك واستطاعتك .فلا تحتقر أي جهد تبذله في نشر الخير: كلمة طيبة، نصيحة محبة، منشور هادف، أمر بمعروف، نهي عن منكر.
· اجعل من نفسك "سراجًا منيرًا" في محيطك: كن قدوة في أخلاقك، نموذجًا في تعاملك، مثالًا في صدقك وأمانتك .فهذا أبلغ من ألف محاضرة.

.٢التوازن بين التبشير والإنذار في تربية الأبناء والدعوة

التطبيق العملي:

· في تربية الأبناء: لا تجعل أسلوبك معهم قائمًا على التخويف والتهديد فقط) "إن فعلت كذا ستعذب في النارا" .(بل بشرهم برحمة الله، وافتح لهم أبواب الأمل) "إن أطعت الله أحبك وأدخلك جنته" .(ثم حذرهم برفق من عاقبة المعاصي.
· في دعوة الآخرين: ابدأ بـ الترغيب قبل الترهيب .ذكرهم بسعة رحمة الله، وبجمال الإسلام، قبل أن تخوفهم من عذاب الله.

.٣الصمود في وجه ضغوط المجتمع وعدم طاعة المخلوق في معصية الخالق

التطبيق العملي:

· لا تطع الكافرين والمنافقين: لا تستجب لضغوطهم التي تهدف إلى إضعاف دينك، أو تغيير قيمك، أو التنازل عن مبادئك.
· دع أذاهم: لا تشغل بالك بـ سخرية الساخرين، ولا انتقادات الحاقدين .امض في طريقك، محافظًا على دينك، متوكلا ً على الله .فالله كافيك، وهو نعم الوكيل.

٤.التوكل على الله: زادنا في زمن القلق والاضطراب

التطبيق العملي:

· في زمن كثرت فيه الأزمات والقلاقل) اقتصادية، صحية، سياسية(، اجعل التوكل على الله ملاذك وملجأك.
· خذ بالأسباب) تعلم، اعمل، خطط، استشر(، ثم فوض الأمر إلى الله، وثق بأنه لن يضيعك، وأن ما قدره الله لك هو الخير كله.
· ردد دائمًا: "حسبي الله ونعم الوكيل، كفى بالله وكيلًا" .هذه الكلمات تملأ القلب طمأنينة، وتقوي العزيمة، وتطرد اليأس.

٥.استشعار ثقل المهمة النبوية: شكر وحب واتباع

التطبيق العملي:

· تأمل في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، وفي معاناته في سبيل تبليغ الرسالة .هذا يزيدك حبًا له ، وشكرًا لله على نعمة الإسلام.
· اجعل اتباع النبي هو دستور حياتك .فالطريق إلى الفضل الكبير وتحية السلام يوم القيامة، يمر عبر اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بهديه.
سابعًا: القيم المستفادة من الآيات 45-48

القيمة تجلياتها في الآيات
عظمة مهمة النبي صلى الله عليه وسلم "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" – تعدد الأوصاف يدل على جسامة المسؤولية.
التوازن بين الترغيب والترهيب "وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا" – الجمع بين البشارة والنذارة في الدعوة.
الدعوة إلى الله أشرف المهمات "وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ" – غاية الإرسال ولب المهمة.
الدعوة بتوفيق الله لا بالاعتماد على الذات "بِإِذْنِهِ" – التوفيق والهداية بيد الله وحده.
النبي نور وهداية للعالمين "وَسِرَاجًا مُنِيرًا" – النبي مصدر النور المستمد من الوحي.
بشارة المؤمنين بالفضل الكبير "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا" – فتح أبواب الأمل.
عدم طاعة الكافرين والمنافقين "وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ" – الصمود في وجه الضغوط المعادية.
ترك أذى السفهاء والثقة بالله "وَدَعْ أَذَاهُمْ" – عدم الانشغال بالردود الجانبية.
التوكل على الله والثقة في كفايته "وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا" – زاد الداعية في طريقه الشاق.
خاتمة: في رحاب الرسالة الخاتمة وحامل لواء الهداية

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآيات الكريمة، التي ترسم لنا صورة النبي صلى الله عليه وسلم في أسمى معانيها، وتكشف لنا عن عظمة المهمة التي حملها، وثقل الأمانة التي أداها. إنها آيات تفيض بالحب والتقدير لهذا النبي العظيم، الذي كان شاهدًا على أمته، ومبشرًا للمؤمنين، ونذيرًا للكافرين، وداعيًا إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا أضاء للبشرية طريق الهداية.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· مهمة النبي صلى الله عليه وسلم كانت شاملة متكاملة، تجمع بين الشهادة والتبشير والإنذار والدعوة والإضاءة.
· الدعوة إلى الله هي أشرف مهمة، وأعظم تكليف، وهي امتداد لمهمة النبي في كل زمان ومكان.
· المنهج النبوي في الدعوة يقوم على التوازن بين الترغيب والترهيب، وتقديم البشارة على النذارة.
· التوكل على الله هو الدرع الواقي للداعية، والزاد الذي يمكنه من الصمود في وجه الأعداء والصعاب.
· الفضل الكبير الذي أعده الله للمؤمنين هو حافز للعمل الصالح، ومصدر للأمل والرجاء.

فلنحرص – رجالًا ونساءً – أن نكون من الدعاة إلى الله على بصيرة، كل حسب موقعه وقدرته. ولنقتدِ بسيد الدعاة وإمام المرسلين، في صبره وتوازنه وتوكله على الله. ولنوقن بأن الله كافينا، وهو نعم الوكيل، وأن ما أعده للمؤمنين من فضل كبير هو خير وأبقى.
القسم الخامس
ايه احكام الطلاق . المتعلقة بالمرأة التى لم يمسها الرجل
.تفسير آية "فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا" (الأحزاب: 49) – ميثاق العدل والكرامة في الفراق قبل

البناء

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد التشريعي العظيم، الذي يتنزل به الوحي على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، ليضع قاعدة ذهبية في العلاقات الزوجية، ويرسم حدود الرحمة والعدل في لحظة قد تكون من أقسى لحظات الحياة: لحظة الفراق .إنها آية تفيض بالإنصاف والحكمة والرفق ، وتكشف عن جوهر الشريعة الإسلامية التي لا تريد بالمرأة إلا كرامة وعزة، حتى وهي تغادر بيتًا لم تدخله، وتفارق رجلا ً لم يمسسها.

إنها الآية التي تتحدث عن الطلاق قبل الدخول، تلك الحالة التي قد يظن البعض أنها هامشية أو قليلة الوقوع، ولكن القرآن الكريم – وهو كتاب الهداية الكاملة – لم يغفلها، بل أفرد لها تشريعًا خاصًا، جمع فيه بين حق الزوج وحق الزوجة، وراعى مشاعر الطرفين، وحفظ كرامة المرأة، وقطع دابر النزاع والخصام.

يقول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا"

إنها آية واحدة، ولكنها تختزل أحكامًا عظيمة، وتؤسس لمبادئ خالدة في العدل والإحسان والسراح الجميل .وهي آية تتفرد مع آية سورة البقرة (237) بوضع أحكام الطلاق قبل المسيس، في تكامل بديع يعجز عن وصفه البيان.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، ليؤسس لمجتمع مسلم متماسك، يحفظ للمرأة مكانتها، ويصون كرامتها، ويرعى مشاعرها، في كل مراحل حياتها، حتى في لحظات الوداع.
الأمر الأول:
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" – نداء الإيمان وربط التشريع بالعقيدة

اللمسة البيانية الأولى: افتتاح الآية بنداء الإيمان

تبدأ الآية الكريمة بهذا النداء القرآني العظيم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" .وهو نداء يتكرر في القرآن في مواطن التشريع والتوجيه والتربية .فلماذا افتتحت الآية بهذا النداء بالذات؟

١.ربط الأحكام العملية بأصل الإيمان

حين ينادي الله عباده بـ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا"، فإنه يذكرهم بـ أصل العقيدة الذي ينبغي أن تنبني عليه جميع تصرفاتهم .وكأنه يقول لهم: "يا من آمنتم بي، وصدقتم برسولي، واتبعتم ديني ...اسمعوا هذا التشريع، واعملوا به، فإن إيمانكم يقتضي منكم الطاعة والامتثال".

وهذا الربط بين الإيمان والأحكام العملية يرسخ في قلب المؤمن أن الالتزام بأحكام الطلاق – وغيرها من الأحكام – ليس مجرد قانون اجتماعي أو عرف قبلي، بل هو عبادة وطاعة لله، يثاب عليها إن أحسن، ويعاقب عليها إن أساء.

٢.إضفاء صبغة القداسة على العلاقات الأسرية

اختيار هذا النداء في بداية الحديث عن الطلاق – وهو أبغض الحلال إلى الله – يدل على أن العلا قات الأسرية في الإسلام محفوفة بـ سياج من القداسة، وأن الفراق – إن وقع – يجب أن يكون محكومًا بـ ضوابط الإيمان، لا بأهواء النفوس وانتقاماتها.

اللمسة البيانية الثانية: الخطاب للأزواج – إلقاء المسؤولية على الرجل

لاحظ أن الخطاب في الآية موجه إلى الرجال: "إِذَا نَكَحْتُمُ" ، "ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ" ، "فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ" ، "فَمَتِّعُوهُنَّ" ، "وَسَرِّحُوهُنَّ" .وهذا التوجيه المباشر للرجال يحمل دلالات عميقة:

· إلقاء المسؤولية الكبرى على الرجل: فالرجل هو المسؤول الأول عن إتمام الزواج أو إنهائه، وهو

المطالب بأن يراعي حقوق المرأة، حتى في لحظة الفراق.
· تذكير الرجل بولايته ومسؤوليته: "الرِّجَالُ قوّامُونَ عَلَى النِّسَاء") النساء: .(34 فكما أن له حق القوامة، عليه واجب العدل والإحسان.
· حماية المرأة من التسلط: بتوجيه الخطاب للرجال، فإن الآية تمنعهم من التعسف في استعمال حق الطلاق، وتلزمهم بـ آداب الفراق وحقوق المرأة.
الأمر الثاني:
"إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثمّ طَلّقْتُمُوهُنّ" – تحديد نطاق الحكم وبيان حقيقة النكاح

هذا المقطع من الآية يضع الإطار العام للحكم، ويفتح بابًا واسعًا من البيان القرآني المعجز.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ"

.١"إِذَا" – أداة الشرط: ربط الحكم بوقوع الحدث

"إِذَا" ظرف للمستقبل، يفيد تحقق الوقوع .فكأن الآية تقول: "في أي وقت، وفي أي زمان، إذا وقع أن نكحتم المؤمنات، ثم طلقتموهن قبل المسيس، فاعلموا أن الحكم هو كذا وكذا" .وهذا يدل على أن هذا الحكم ثابت وعام، لا يتغير بتغير الأزمان والأحوال.

.٢"نَكَحْتُمُ" – دلالة النكاح على العقد وحده: آية محكمة في الباب

هذه الكلمة – "نَكَحْتُمُ" – هي محور جدل لغوي وفقهي كبير .فما هو النكاح؟ هل هو العقد أم الوطء؟

الآية الكريمة تأتي لتحسم هذا الجدل في هذا الموضع بالذات: "ثمّ طَلّقْتُمُوهُنّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنّ" . فلو كان النكاح هو الوطء، لكان المعنى: "إذا وطئتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن"! وهذا تناقض واضح.

لذلك أجمع العلماء على أن النكاح في هذه الآية هو العقد وحده .قال ابن كثير رحمه الله: "هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة .منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها".

وهذا من دقة البيان القرآني، حيث يستعمل اللفظ الواحد في معان متعددة، والقرائن هي التي تحدد المراد .فالنكاح قد يراد به العقد، وقد يراد به الوطء، وقد يراد به مجموعهما، بحسب السياق.

.٣"الْمُؤْمِنَاتِ" – خرج مخرج الغالب، والحكم عام

لاحظ أن الآية خصت "الْمُؤْمِنَاتِ" بالذكر .فهل الحكم خاص بهن؟ أم يشمل الكتابيات) اليهوديات و النصرانيات (أيضًا؟

جمهور العلماء على أن الحكم عام يشمل المؤمنات والكتابيات، وأن ذكر "المؤمنات" هنا خرج مخرج الغالب؛ لأن نساء المؤمنين في ذلك الوقت كنّ مؤمنات، وليس فيهن كتابيات .قال ابن كثير: "وقوله:)المؤمنات (خرج مخرج الغالب؛ إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق".

وفي تخصيص "المؤمنات" بالذكر إشارة لطيفة إلى أنه ينبغي للمؤمن أن يختار المؤمنة زوجة له، لا الفاسقة ولا الكافرة .قال الألوسي: "وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شأنه أن يتخيّر لنطفته ولا ينكح إلا مؤمنة، وحاصله أنه لبيان الأحرى والأليق".

.٤"ثمّ طَلّقْتُمُوهُنّ" – ترتيب الطلاق على النكاح: شرط الصحة

"ثمّ" حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي .فالمعنى: "عقدتم عليهن، ثم بعد ذلك طلقتموهن" .وهذا الترتيب يدل على أن الطلاق لا يصح إلا بعد النكاح .فلو طلق الرجل امرأة قبل أن ينكحها) مثل أن يقول: "إن تزوجت فلانة فهي طالق"(، فإن الطلاق لا يقع عند جمهور العلماء) الشافعي وأحمد وطائفة كبيرة من السلف(، استدلالا ً بهذه الآية الكريمة .قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح؟!".

وهذا من محاسن الشريعة التي تغلق باب الطلاق إلا في موضعه الشرعي، فلا يكون الطلاق سيفًا

مسلطًا على المرأة قبل أن تدخل في عصمته.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "مِن قَبْلِ أن تمَسُّوهُنّ"

١."تمَسُّوهُنّ" – كناية لطيفة عن الجماع

لفظة "تمَسُّوهُنّ" من المسيس، وهو اللمس .والقرآن الكريم يكني به عن الجماع، تحاشيًا لذكر الألفاظ الصريحة التي تستقبحها النفوس .وهذا من أدب القرآن ورفيع بيانه .قال ابن عاشور: "والمس و المسيس: كناية عن الوطء".

وقد ورد في القرآن كنايات متعددة عن الجماع، مثل: الدخول، والغشيان، والملامسة، والقربان، والإ تيان .وهذا كله من جماليات البيان القرآني الذي يراعي الذوق السليم والحياء الفطري.

٢."مِن قَبْلِ" – تحديد وقت الطلاق: قبل المسيس

قوله: "مِن قَبْلِ أن تمَسُّوهُنّ" هو قيد مهم يحدد نطاق الحكم .فالآية تتحدث عن حالة خاصة من حالا ت الطلاق، وهي: الطلاق قبل الدخول .أما إذا طلقها بعد الدخول، فلها أحكام أخرى) العدة، المهر الكامل، السكنى، النفقة.(...

وهذا التحديد الدقيق يدل على شمولية الشريعة واستيعابها لجميع الحالات والاحتمالات، فلا تترك مسألة إلا ولها حكم شرعي.
الأمر الثالث:
"فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنّ مِنْ عِدّةٍ تعْتَدُونهَا" – رفع العدة: رحمة بالمرأة ومراعاة للواقع

هذا هو الحكم الأول الذي تقرره الآية في حالة الطلاق قبل الدخول: "فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنّ مِنْ عِدّةٍ تعْتَدُونهَا" .وهذا الحكم يحمل في طياته حكمًا بالغة، ورحمة واسعة بالمرأة.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنّ مِنْ عِدّةٍ تعْتَدُونهَا"

١."فَمَا لَكُمْ" – نفي الاستحقاق والولاية

"فَمَا لَكُمْ" – بـ "ما" النافية، و"لكم") لام الاختصاص (– تفيد نفي استحقاق الأزواج للعدة على زوجاتهم المطلقات قبل الدخول .فالعدة حق للزوج في الأصل، لأنه ينتظر فيها رجعة زوجته .ولكن لما كان الطلاق قبل الدخول طلاقًا بائنًا لا رجعة فيه، سقط حق الزوج في العدة.

٢."مِنْ عِدّةٍ" – تنكير "عدة" للعموم

لفظة "عِدّةٍ" جاءت نكرة في سياق النفي، وهي تفيد العموم .أي: لا عدة من أي نوع) لا عدة الطلاق ويشمل جميع انواع العده ، الا عدة الوفاة، فإن بعض العلماء قد ذهبوا إلى. الاستثناء بأنها تعتد منه اربعه اشهر وعشر

٣."تعْتَدُونهَا" – إضافة الفعل إلى الأزواج: تأكيد النفي

قوله: "تعْتَدُونهَا" – أي: تعدّونها عليهن، أو تستوفون عددها عليهن .وهذا تأكيد لنفي العدة، وأن الأزواج ليس لهم حق في إحصاء الأيام على زوجاتهم، ولا إلزامهن بالبقاء في البيوت.

ما هي العدة؟ ولماذا رفعت هنا؟

العدة هي: المدة التي تتربص فيها المرأة بعد الطلاق أو الوفاة، لمعرفة براءة رحمها، أو للتعبد، أو للتفجع على زوج مات.

والحكمة من مشروعية العدة:

· العلم ببراءة الرحم: لئلا تختلط الأنساب، فيحمل رحم المرأة من زوجين في وقت واحد.
· إعطاء فرصة للزوج: ليراجع زوجته في الطلاق الرجعي.
· التعبد لله: بامتثال أمره في التربص.

· التفجع على الزوج: في عدة الوفاة.

فلماذا رفعت العدة في الطلاق قبل الدخول؟

· لأن براءة الرحم متحققة: مادام لم يقع مسيس، فـ الرحم بريء يقينًا، فلا حاجة للتربص لمعرفة ذلك.
· لأن الطلاق بائن لا رجعة فيه: فلا حق للزوج في المراجعة، فتنتفي الحكمة الثانية من العدة.

وهذا التشريع رفع للحرج عن المرأة، ومنع لتعطيلها دون سبب .فإلزامها بالعدة – مع عدم الدخول – فيه تضييع لوقتها، ومنع لها من الزواج ممن ترغب فيه، وإضرار بها نفسيًا واجتماعيًا.

الرسائل التربوية والنفسية من رفع العدة

أ .رحمة الله بالمرأة ورفع الحرج عنها

هذه الآية تظهر رحمة الله بالمرأة، وحرصه على عدم تعطيلها، وتيسير سبل الزواج لها .فبدلا ً من أن تحبس في بيت لم تدخله، وتنتظر عدة لا حكمة منها، أطلقها الشرع حرة طليقة، لتتزوج من تشاء، وتبني حياتها من جديد.

وهذا يدل على أن الشريعة الإسلامية لا تريد بالمطلقة إلا الخير، وتفتح لها أبواب الأمل، ولا تغلقها في وجهها.

ب .قطع دابر النزاع والخصام

رفع العدة في هذه الحالة يقطع الطريق على النزاع والخصام بين الزوجين وأهلهما .فالزوج قد يضار زوجته بإطالة العدة، أو يمتنع عن طلاقها لئلا تتزوج غيره، أو يضغط عليها للتنازل عن حقوقها .أما وقد رفع الله العدة، فقد انقطع أمله فيها، وتحررت هي من ضغطه وإرهاقه.

ج .العدة حق للزوج، تسقط بسقوط موجبه

في الفقه الإسلامي، الحقوق تدور مع عللها وجودًا وعدمًا .فلما كان موجب العدة) وهو الدخول واحتمال الحمل (منتفيًا، سقطت العدة .وهذا من دقة الشريعة وعدلها، حيث تعطي كل ذي حق حقه، ولا تكلف أحدًا بما لا طائل تحته.
الأمر الرابع:
"فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" – الأمر بالمتعة والسراح الجميل: قمة الوفاء والإحسان

بعد أن رفعت الآية العدة عن المطلقة قبل الدخول، جاءت بأمرين يجبان على الزوج تجاهها: "فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" .وهذان الأمران هما ذروة الإحسان وقمة الوفاء، وهما اللذان يحفظان للمرأة كرامتها، ويجبران خاطرها المكسور.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "فَمَتِّعُوهُنَّ"

.١"فَمَتِّعُوهُنَّ" – الأمر بالمتعة: جبر للخاطر وتعويض عن الضرر

المتعة في اللغة: ما يتمتع به الإنسان، أي ينتفع به ويلتذ به .وفي الشرع: ما يعطيه الزوج لمطلقته إكرامًا لها، وجبرًا لخاطرها المكسور، وتعويضًا لها عما لحقها من ضرر بسبب الطلاق.

وقد اختلف الفقهاء في حكم المتعة:

· جمهور العلماء: المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول بها إذا لم يفرض لها مهر .وهذا هو محل الآية.
· المالكية: المتعة مندوبة في كل حال، وليست بواجبة.
· الحنفية: المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول إذا لم يفرض لها مهر، أما إذا فرض لها مهر، فلها نصف المهر، ولا متعة لها.

والراجح – والله أعلم – هو وجوب المتعة للمطلقة قبل الدخول التي لم يفرض لها مهر، جبرًا لخاطرها، وتعويضًا لها عن ضرر الطلاق.

.٢ما مقدار المتعة؟

لم تحدد الآية مقدار المتعة، بل أطلقته ليكون بحسب حال الزوج من اليسار أو الإعسار .قال تعالى في سورة البقرة: "وَلِلمُطلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى المُتَّقِينَ") البقرة: .(241 وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "أرفع المتعة: خادم، ثم كسوة، ثم نفقة".

فالمتعة ليست محددة بقدر معين، بل تختلف باختلاف حال الزوج ومكانة الزوجة وعرف المجتمع . وهذا من مرونة الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا"

.١"وَسَرِّحُوهُنَّ" – التسريح: الإطلاق والإرسال

"سَرِّحُوهُنَّ" من التسريح، وهو الإطلاق والإرسال .وهو كناية عن إتمام الطلاق وتخلية سبيلها، لتعود حرة إلى أهلها، وتتزوج من تشاء.

والأمر بـ "سرحوهن" بعد الأمر بـ "متعوهن" يدل على أن المتعة هي آخر واجبات الزوج تجاه زوجته قبل أن يسرحها .فإذا أعطاها المتعة، فقد أدى ما عليه، وحق له أن يسرحها.

.٢"سَرَاحًا جَمِيلًا" – وصف السراح بالجمال: أدب قرآني رفيع

وصف السراح بأنه "جَمِيلًا" هو قمة الأدب القرآني، وذروة الإحسان في لحظات الفراق .فما هو السراح الجميل؟

السراح الجميل هو: الطلاق الذي لا أذى فيه ولا ضرر، ولا مطالبة بما وهب، ولا خصومة ولا خشونة.

ومن معاني السراح الجميل:

· أن يكون الطلاق على السنة: طلقة واحدة في طهر لم يمسها فيه، لا ثلاثًا مجتمعة.
· ألا يضارها: فلا يمسكها وهو لا يريدها، ولا يطلقها في وقت يضيق عليها.
· ألا يشهر بها: فلا يفشي أسرارها، ولا يذكر عيوبها، ولا يذمها عند أهلها أو الناس.
· أن يحفظ الود: فلا يقطع المعروف الذي كان بينهما، بل يذكرها بخير، ويدعو لها.

الرسائل التربوية والنفسية من المتعة والسراح الجميل

أ .المتعة: جبر لخاطر المرأة وتعويض عن الضرر المعنوي

المرأة التي تعقد على رجل، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها، قد يصيبها من الضرر المعنوي والكسر النفسي ما الله به عليم .فهي تشعر أنها غير مرغوب فيها، أو أن عيوبًا فيها دفعت الزوج إلى طلاقها . وقد تتعرض لكلام الناس، وتخوض في سمعتها.

فجاءت المتعة لتكون جبرًا لهذا الخاطر المكسور، وتعويضًا عن هذا الضرر المعنوي .إنها رسالة من الشارع إلى المرأة: "أنت مكرمة، وحتى في لحظة الفراق، لك حقوق، ولك عطية، ولست مهملة ولا منسية".

ب .السراح الجميل: حفظ للكرامة في لحظة الوداع

كم من الأزواج من يسيء إلى زوجته عند الطلاق، يشهر بها، يذكر عيوبها، يماطل في حقوقها، يضارها في العدة! وكم من النساء من خرجت من بيت زوجها بدموع المرارة وحسرة القلب، بعد أن سمعت كلمات جارحة، وتعرضت لإذلال مهين!

هذه الآية تأتي لتقول: "لا"! حتى في لحظة إنهاء العلاقة، يجب أن يكون الفراق كريمًا، جميلًا، محترمًا . "سَرَاحًا جَمِيلًا" يعني: وداعًا جميلًا، فراقًا بلا أذى، انفصالا ً بسلام.

وهذا هو الرقي الحضاري الذي يعلمه الإسلام للمسلمين في أشد لحظات الحياة قسوة.

ج .التوازن بين الحقوق المادية) المتعة (والحقوق المعنوية) السراح الجميل(

الآية تجمع بين الحق المادي) المتعة (والحق المعنوي) السراح الجميل .(وهذا التوازن هو سمة الشريعة الإسلامية .فالمرأة ليست مجرد كائن مادي تحتاج إلى المال فقط، بل هي كيان معنوي له مشاعر وكرامة وسمعة يجب أن تصان .فجاءت الآية لـ تحفظ لها الأمرين معًا.
الأمر الخامس:
التكامل البديع بين آية الأحزاب (49) وآية البقرة (237) – خصوصية التشريع وتمامه

من بدائع القرآن وإعجازه التشريعي أن أحكام الطلاق قبل الدخول لم تأتِ في آية واحدة، بل توزعت بين آيتين كريمتين، في تكامل بديع لا مثيل له.

مقارنة بين الآيتين:

وجه المقارنة آية الأحزاب (49) آية البقرة(237)
نوع الطلاق طلاق قبل الدخول بعد العقد طلاق قبل الدخول بعد العقد
فرض المهر لم يفرض لها مهر) مسكوت عنه (وقد فرضتم لهن فريضة
العدة لا عدة عليها لا عدة عليها) بالإجماع(
المهر لا مهر لها) لأنه لم يفرض (لها نصف المهر المفروض
المتعة يجب لها المتعة) جبرًا لخاطرها (لا متعة لها) لأن نصف المهر يكفي(
الحكمة جبر خاطر المرأة التي لم تحصل على مهر إنصاف المرأة التي فرض لها مهر

دلالات هذا التكامل:

١.شمولية التشريع واستيعابه لكل الحالات

الشريعة الإسلامية لم تترك حالة من حالات الطلاق قبل الدخول إلا وفصلت فيها:

· الحالة الأولى: طلاق قبل الدخول وقبل فرض المهر) .آية الأحزاب(49
· الحالة الثانية: طلاق قبل الدخول وبعد فرض المهر) .آية البقرة(237

وهذا يدل على أن القرآن هو كتاب الهداية الكاملة، الذي يفصل الأحكام، ويبين الحقوق، ويرفع الخلا ف، ويقطع النزاع.

٢.العدالة المطلقة في توزيع الحقوق

انظر إلى عدل الله في هاتين الآيتين:

· المرأة التي فرض لها مهر، استحقت نصفه، ولم تستحق متعة) لأن نصف المهر كافٍ لجبر خاطرها.(
· المرأة التي لم يفرض لها مهر، لم تستحق شيئًا من المهر) لأنه لم يفرض(، ولكنها استحقت متعة)جبرًا لخاطرها.(

وهذا هو العدل الذي لا ظلم فيه ولا ميل .لكل حالة حكمها، ولكل ذي حق حقه.

٣.إظهار عظمة البيان القرآني في توزيع الأحكام

توزيع أحكام الطلاق قبل الدخول على آيتين في سورتين مختلفتين، له حكمة بيانية وتشريعية عظيمة:

· آية الأحزاب: نزلت في سياق الحديث عن نساء النبي، وعن العلاقات الزوجية، وعن رفع الحرج.
· آية البقرة: نزلت في سياق سورة الأحكام، التي فصلت في أحكام الطلاق والعدة والرضاع والنفقات.

وهذا التوزيع يجعل كل آية تؤدي دورها في سياقها، مع تكامل المعنى بينهما .وهذا من أعظم وجوه ا لإعجاز في النظم القرآني.
الأمر السادس:
دور الآية في بناء المجتمع المسلم المتماسك والحضارة الإسلامية

هذه الآية الكريمة – بما تضمنته من أحكام دقيقة وآداب رفيعة – هي لبنة أساسية في بناء المجتمع المسلم والحضارة الإسلامية .فكيف تساهم هذه الآية في البناء والتنمية والحفاظ على مكونات المجتمع؟

.١حماية المرأة وصيانة كرامتها: أساس المجتمع المتماسك

المجتمع الذي تهان فيه المرأة، وتسلب حقوقها، وتجرح مشاعرها، هو مجتمع مفكك، لا يمكن أن ينهض ولا أن يبني حضارة .هذه الآية تأتي لـ تحمي المرأة في أحرج لحظات حياتها) لحظة الطلاق(، فتجعل لها حقوقًا مادية) المتعة(، وحقوقًا معنوية) السراح الجميل(، وترفع عنها الحرج) رفع العدة.(

وهذا الصون للمرأة، والاعتراف بحقوقها، ومراعاة مشاعرها، هو الذي يبني المجتمع المتماسك، الذي يشعر فيه كل فرد – رجلا ً كان أو امرأة – بأنه مصون الحقوق، محفوظ الكرامة.

.٢تحقيق العدل ورفع الظلم: أساس التنمية والاستقرار

الظلم يهدم المجتمعات، ويفكك الأسر، ويولد الأحقاد والضغائن .والطلاق – إن لم يحكم بضوابط الشرع – قد يكون مظنة للظلم والتعدي على الحقوق .هذه الآية تأتي لـ تحقق العدل بين الزوجين، وتمنع الظلم، وتقطع النزاع:

· العدل للزوج: رفعت عنه العدة، ولم تكلفه بالمهر كاملا ً) لأنه لم يدخل بها(، وأباحت له طلاقها إذا لم يرغب فيها.
· العدل للزوجة: أوجبت له المتعة، وأمرته بـ السراح الجميل، ومنعته من حبسها في عدة لا حكمة منها.

وهذا التوازن بين حقوق الطرفين هو الذي يحقق الاستقرار الأسري، ويمنع تراكم الأحقاد، ويؤسس لمجتمع عادل، قادر على التنمية والبناء.

.٣غرس قيم الوفاء والإحسان حتى في لحظات الفراق

من أعظم ما تغرسه هذه الآية في النفوس: قيمة الوفاء والإحسان حتى في لحظات الوداع .فالمؤمن لا ينسى المعروف، ولا يجحد الفضل، ولا يقابل الإحسان بالإساءة .فإذا تعذرت العشرة، ووقع الفراق، فإن أدب الإسلام يوجب عليه أن يودع زوجته بالتي هي أحسن، وأن يعطيها حقها، وأن يحفظ سرها، وألا يذكرها إلا بخير.

هذه القيم هي التي تبني الحضارة الحقيقية .فالحضارة ليست ناطحات سحاب ولا تقنيات متطورة فقط، بل هي قيم وأخلاق ومعاملة إنسانية راقية .والسراح الجميل قمة الرقي الحضاري.

.٤المساهمة في التنمية البشرية: تحرير طاقات المرأة وإطلاق إمكاناتها

عندما ترفع الشريعة عن المرأة العدة في الطلاق قبل الدخول، فإنها تحررها من قيود لا مبرر لها، وتفتح لها أبواب المستقبل على مصراعيها .فهي حرة في أن تتزوج من ترضاه، وأن تبني حياتها من جديد، وأن تشارك في بناء المجتمع بكل طاقاتها وإمكاناتها.

وهذا هو عين التنمية البشرية: أن يُستثمر كل فرد في المجتمع، وألا تُعطل طاقات أحد، وألا تُحبس مواهب في قيود باطلة .فرفع العدة عن المطلقة قبل الدخول هو إطلاق لطاقتها، وفتح لأبواب الخير أمامها.
سابعًا:
كيف نعيش آية "فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

.١في التعامل مع المطلقة قبل الدخول: إعطاؤها حقها كاملا ً

التطبيق العملي:

· إذا طلقت زوجتك قبل الدخول: فلا تبخسها حقها .أعطها المتعة الواجبة لها) إن لم تكن قد فرضت لها مهرًا(، أو نصف المهر) إن كنت قد فرضت لها مهرًا.(
· لا تماطل في دفع حقوقها: المماطلة في دفع الحقوق من أخلاق اللئام .كن كريمًا في وداعك، كما كنت كريمًا في لقائك.
· لا تشترط عليها التنازل عن حقوقها: بعض الأزواج يضغطون على المطلقة للتنازل عن حقوقها مقابل الطلاق .وهذا ظلم وإثم .أعطها حقها، ثم سرحها سراحًا جميلا ً.

.٢السراح الجميل: تطبيقات عملية في واقعنا

التطبيق العملي:

· لا تشهر بها: لا تتحدث عن عيوبها أو أسرار بيتك لأحد ."وَلَا تنسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكم") البقرة:.(237
· لا تؤذها نفسيًا: لا تتصل بها لتذكرها بأخطائها، ولا ترسل لها رسائل مؤذية، ولا تضايقها بأي شكل من الأشكال.
· احفظ الود: إذا لقيتها صدفة، فـ سلم عليها، وابتسم في وجهها، واذكرها بخير .فالعلاقة قد انتهت، ولكن الإسلام والأخلاق باقية.

.٣دور الأسرة والمجتمع في إنجاح "السراح الجميل"

التطبيق العملي:

· أهل الزوج: لا تؤلبوا ابنكم على مطلقته، ولا تحرضوه على منع حقوقها .بل انصحوه بأن يتقي الله، وأن يسرحها سراحًا جميلا ً.
· أهل الزوجة: لا تشعلوا نار الفتنة، ولا تطالبوا بما ليس لكم بحق .بل انصحوا ابنتكم بأن تحتسب، وأن ترضى بما قسم الله، وأن تتجاوز هذه المرحلة بسلام.
· المجتمع: لا تخوضوا في أعراض المطلقات، ولا تشيعوا أسباب الطلاق، ولا تتخذوا منه مادة للسخرية والغمز واللمز.

.٤استلهام "السراح الجميل" في علاقاتنا غير الزوجية

مبدأ "السراح الجميل" لا يقتصر على العلاقات الزوجية فقط، بل هو مبدأ عام في جميع العلاقات الإ نسانية:

· في علاقات العمل: إذا ترك موظف عمله، فلا تشوه سمعته، ولا تمنعه حقوقه، وأعطه نهاية خدمة كريمة.
· في علاقات الصداقة: إذا افترق صديقان، فلا يفشي أحدهما أسرار الآخر، ولا يذكره بسوء.
· في علاقات الجوار: إذا انتقل جار إلى حي آخر، فـ ودعه بمعروف، واذكره بخير.

هذا هو الرقي الأخلاقي الذي يعلمه الإسلام للمسلمين، والذي يجعل المجتمع المسلم مجتمعًا متماسكًا، تسوده المحبة والاحترام، حتى في لحظات الوداع.
ثامنًا: القيم المستفادة من الآية49

القيمة تجلياتها في الآية
ربط الأحكام العملية بالعقيدة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" – نداء الإيمان يسبق التشريع.
إلقاء المسؤولية على الرجل توجيه الخطاب للأزواج: "نكحتم"، "طلقتموهن"، "فمتعوهن".
رفع الحرج عن المرأة "فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ" – لا عدة في الطلاق قبل الدخول.
جبر خاطر المطلقة "فَمَتِّعُوهُنَّ" – إعطاء المتعة تعويضًا عن ضرر الطلاق.
حفظ الكرامة في الفراق "وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا" – الطلاق بلا أذى ولا ضرر.
العدالة في توزيع الحقوق التكامل مع آية البقرة (237) يعطي كل ذي حق حقه.
مراعاة المشاعر المتعة والسراح الجميل يحفظان للمرأة كرامتها ومشاعرها.
شمولية الشريعة واستيعابها تفصيل أحكام الطلاق قبل الدخول في حالتيه) مع مهر، بدون مهر.(
الرقي الحضاري والأخلاقي "سَرَاحًا جَمِيلًا" – قمة الأدب والوفاء في لحظات الوداع.
المساهمة في التنمية البشرية رفع العدة يحرر طاقات المرأة ويفتح لها أبواب المستقبل.

خاتمة: في رحاب العدل والكرامة والسراح الجميل

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تختزل فلسفة الإسلام في العلاقات الإنسانية، وتؤسس لمجتمع تسوده العدالة والرحمة والإحسان .إنها آية تذكرنا بأن الشريعة الإسلامية لم تهمل أي حالة من حالات الحياة الزوجية، بل فصلت في أدق التفاصيل، ليكون المجتمع المسلم على بينة من أمره، ولتكون الأسرة المسلمة على أسس متينة من العدل والمودة.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· الإيمان هو الأساس الذي تبنى عليه جميع الأحكام والتصرفات.
· الطلاق قبل الدخول له أحكام خاصة، تراعي حال المرأة وترفع عنها الحرج.
· المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول، جبرًا لخاطرها، وتعويضًا لها.
· السراح الجميل هو قمة الوفاء والإحسان في لحظات الوداع.
· التكامل بين آية الأحزاب وآية البقرة يظهر شمولية الشريعة وعدلها المطلق.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نكون عند حسن الظن بهذا الدين العظيم، وأن نطبق أحكامه في جميع شؤون حياتنا، وأن نجعل من بيوتنا رياضًا من رياض الجنة، يسودها الحب والاحترام والمودة و الرحمة .فإن تعذرت العشرة، ووقع الفراق، فليكن الفراق كريمًا، جميلا ً، محترمًا، كما أمر الله: "وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا".

القسم السادس
تتناول ايات هذا القسم خصوصيه النبي صلى الله عليه وسلم من الايه 50 الى الايه 52
المبحث الأول
تفسير آية "إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ" (الأحزاب: 50) – خصوصية النبي في الزواج ورفع الحرج في دائرة التشريف

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني الفريد، الذي يفتح لنا نافذة على خصوصيات بيت النبوة، ويكشف عن بعض ما اختص الله به نبيه وحبيبه محمدًا صلى الله عليه وسلم من أحكام، تخفيفًا عنه، وتوسعة عليه، وتكريمًا لمقامه الشريف. إنها آية تفيض بالرحمة الإلهية والعناية الربانية بهذا النبي العظيم، الذي حمل أثقال الرسالة، وصبر على أذى المشركين، وضحى بكل غال ونفيس في سبيل تبليغ دين الله.

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن مهمة النبي وثقل الأمانة، وعن أحكام الطلاق والسراح الجميل، تأتي هذه الآية الكريمة لتضع تشريعًا خاصًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، يتعلق بأصناف النساء اللاتي أحلهن الله له. إنها آية تعلن بوضوح: "إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ"، لتؤكد أن الأمر كله بيد الله، وأن ما أحله الله لنبيه هو فضل منه ورحمة، لا تشهيًا ولا هوى.

يقول الله تعالى:
"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا"

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، لنعيش لحظات التشريف الإلهي لنبينا صلى الله عليه وسلم، وندرك حكمة الله في تخصيصه ببعض الأحكام، رفعًا للحرج عنه، وتخفيفًا لأعباء الرسالة الثقيلة.
الأمر الأول:
"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ" – افتتاح التشريف وبيان مصدر الإحلال

اللمسة البيانية الأولى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" – نداء التكريم والتشريف الخاص

تبدأ الآية الكريمة بهذا النداء العلوي العظيم: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ". وهو نداء يتكرر في القرآن في مواطن التشريف الخاص والتوجيه المباشر للنبي صلى الله عليه وسلم. ولنتأمل معًا لماذا خص الله نبيه بهذا

النداء في هذا المقام؟

١.الوصف بـ "النبي" – إشارة إلى مقام التلقي الخاص

كما أسلفنا في الآيات السابقة، اختيار وصف "النبي" دون "الرسول" له دلالته العميقة. فالنبوة هي مقام الاتصال الخاص بالله، وتلقي الوحي والتشريع. وهذه الآية تتضمن تشريعًا خاصًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، يتعلق بأحكام زواجه وخصوصياته. فناسب أن ينادى بـ "النبي"، لأنه المتلقي لهذا التشريع الخاص من ربه.

٢.النداء قبل التشريع الخاص – تهيئة نفسية وتكريم

حين يوجه الله الخطاب لنبيه بـ "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ"، ثم يتبعه بـ "إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ"، فإن في ذلك تهيئة نفسية للنبي صلى الله عليه وسلم لتلقي هذا التشريع، وتكريمًا له بأن يخصه بخطابه، ويبين له ما أحل له وما حرم. وهذا النداء يملأ قلب النبي طمأنينة ويقينًا بأن ما أحله الله له هو خير وبركة، وليس فيه حرج ولا عيب.

اللمسة البيانية الثانية: "إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ" – إسناد الإحلال إلى الله بصيغة التعظيم

قوله: "إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ" – بضمير المتكلم الجمع – هو من باب التعظيم. فالله تعالى ينسب إحلال هذه ا لأصناف من النساء إلى ذاته العلية بصيغة الجمع، إيذانًا بـ عظمة هذا التشريع، وجلالة مصدره، وكمال الحكمة فيه.

١."إِنَّا" – تأكيد وتقرير

"إنّ" للتوكيد، و"نا" للتعظيم .فكأنه يقول: "نحن – بجلالنا وعظمتنا – أحللنا لك هذه الأصناف" .وهذا التأكيد يقطع كل شبهة، ويدفع كل وهم بأن للنبي هوى أو تشهيًا في زواجه .فما أحله الله له هو تشريع إلهي، لا رغبة شخصية.

٢."أَحْلَلْنَا لَكَ" – اللام للاختصاص والتشريف

اللام في "لَكَ" هي لام الاختصاص والتشريف. فما أحله الله لنبيه هو خاص به، كرامة له، تخفيفًا عنه. وهذا الإحلال الخاص هو مظهر من مظاهر محبة الله لنبيه، وتكريمه له، ورفع الحرج عنه.

اللمسة البيانية الثالثة: "أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ" – القسم الأول من النساء المحللات

هذا هو الصنف الأول من النساء اللاتي أحلهن الله لنبيه: زوجاته اللاتي أعطاهن مهورهن.

١."أَزْوَاجَكَ" – إضافة الأزواج إلى النبي: تشريف وتكريم

إضافة "أزواج" إلى ضمير النبي "كَ" هي تشريف عظيم لهن. فهن زوجات النبي، وأمهات المؤمنين، وأفضل نساء العالمين. وهذه الإضافة تذكرهن بـ مكانتهن، وتحثهن على القيام بحقوق هذه المكانة من التقوى والطاعة.

٢."اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ" – بيان حقيقة المهور

"اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ" أي: اللواتي أعطيتهن مهورهن .وفي هذا التعبير لفتات بيانية عظيمة:

· تسمية المهر "أجرًا": إشارة إلى أن المهر هو أجر للمرأة على حلها للزوج، وحق خالص لها، ليس لأحد فيه منة ولا فضل .قال الألوسي: "وسمى المهر أجرًا إيذانًا بأنه عوض عن البضع".
· "آتَيْتَ" – بصيغة الماضي: إشارة إلى أن إيتاء المهر قد تم ووقع، وأن الزوجية قائمة على الوفاء ب الحقوق.

من هن هؤلاء الأزواج؟
هن اللواتي تزوجهن النبي صلى الله عليه وسلم بعقد شرعي كامل، وأعطاهن مهورهن. وهن أمهات المؤمنين المعروفات: خديجة، سودة، عائشة، حفصة، زينب بنت خزيمة، أم سلمة، زينب بنت جحش، جويرية بنت الحارث، أم حبيبة، صفية، ميمونة (رضي الله عنهن أجمعين).

الأمر الثاني:
"وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ" – الصنف الثاني من النساء المحللات

هذا هو الصنف الثاني من النساء اللاتي أحلهن الله لنبيه: ما ملكت يمينه من الإماء.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ"

.١"وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ" – التعبير القرآني عن الرقيق

"ما ملكت اليمين" هو التعبير القرآني عن الرقيق) الإماء والعبيد .(وهو تعبير لطيف، يشعر المالك بأن ملكه لهذا الرقيق هو بإذن الله، وليس بقوته أو سلطانه .فـ "اليد" هي آلة البطش والقوة، وإضافتها إلى "الملك" تذكر بأن القوة وحدها لا تملك، بل الملك لله، وهو الذي يسخر الرقيق للمالك.

.٢"مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ" – بيان مصدر الملك: الفيء الإلهي

"الفيء" هو ما أعاده الله على المسلمين من أموال الكفار بغير قتال، أو ما أفاءه الله على نبيه خاصة .وقوله: "مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ" يبين أن ملك يمين النبي لم يكن عن سبي أو شراء فقط، بل هو فيء من الله، تكريمًا له، وتوسعة عليه.

من هن ما ملكت يمين النبي؟

· مارية القبطية: أهداها المقوقس عظيم مصر للنبي صلى الله عليه وسلم، فأعتقها وتزوجها، وهي أم إبراهيم ابن النبي.
· ريحانة بنت زيد: من بني النضير، أسلمت فأعتقها النبي وتزوجها.

وقد أعتق النبي جميع ما ملكت يمينه، وتزوجهن، فصرن أمهات للمؤمنين، ولم يمت عن أمة.
الأمر الثالث:
"وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ" – الصنف الثالث: القرابات المهاجرات

هذا هو الصنف الثالث من النساء اللاتي أحلهن الله لنبيه: قريباته من بنات العم والعمات والأخوال و الخالات، اللواتي هاجرن معه.

اللمسات البيانية والبلاغية في ذكر القرابات المهاجرات

.١تفصيل القرابات الأربعة – شمول الدائرة القريبة

لاحظ أن الآية فصلت في ذكر القرابات الأربعة:

· بنات العم: وهن أقرب العصبات.
· بنات العمات: وهن من فروع الأعمام، لكن من جهة الإناث.
· بنات الخال: وهن من فروع الأخوال) أخوال الأم.(
· بنات الخالات: وهن من فروع الخالات.

وهذا التفصيل يشمل جميع القرابات من جهة الأب (العم والعمات) والأم (الخال والخالات). وفيه توسعة على النبي صلى الله عليه وسلم، وتخفيف عنه، حيث أبيح له أن يتزوج من قريباته دون قيد العدد (كما سيأتي).

.٢"اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ" – قيد الهجرة: فضل وتمييز

هذا القيد – "اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ" – له دلالتان عظيمتان:

الدلالة الأولى: بيان الواقع. فاللاتي هاجرن مع النبي من مكة إلى المدينة، أو لحقن به بعد الهجرة، هن اللاتي شرفهن الله بهذا الحكم. أما اللاتي تخلفن عن الهجرة، وبقين في دار الكفر، فلم يأذن الله لنبيه في نكاحهن. وهذا من عدل الله، حيث خص المهاجرات بهذا الشرف، لأنهن آثرن الله ورسوله على الأهل والوطن.

الدلالة الثانية: بيان الحكم. جمهور العلماء على أن هذا القيد خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز لمسلم أن يتزوج قريبة له لم تهاجر وبقيت على شركها. أما المؤمنون فلا يتزوجون إلا المؤمنات (أو الكتابيات بشروط). أما النبي صلى الله عليه وسلم، فقد خصصه الله بأن لا يتزوج من قريباته إلا من هاجرن معه، تكريمًا للمهاجرات، وترغيبًا في الهجرة.

لماذا خص الله النبي بهذا الصنف؟

هذا الصنف – القريبات المهاجرات – هو خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، لم يشاركه فيه أحد من المؤمنين. وذلك لأن النبي له خصوصيات في النكاح، منها:

· جواز نكاح أكثر من أربع نسوة.
· جواز نكاح القريبات المهاجرات دون غيرهن.
· حرمة نكاح أزواجه من بعده.

وهذه الخصوصيات ليست تشهيًا، بل لحكم بالغة، منها: تكريم المهاجرات، وتوسعة دائرة المصاهرة بين بيت النبوة وقبائل العرب، مما يزيد الألفة والتواصل وتثبيت الدعوة.
الأمر الرابع:
"وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا" – الصنف الرابع: الواهبة نفسها

هذا هو الصنف الرابع والأخير من النساء اللاتي أحلهن الله لنبيه: المرأة المؤمنة التي تهب نفسها للنبي ، دون مهر.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ"

١."وَامْرَأَةً" – نكرة: إشارة إلى أن هذا الصنف لم يتحقق إلا نادرًا

لفظة "وَامْرَأَةً" جاءت نكرة، وهذا يشير إلى أن هذا الصنف لم يكن كثيرًا، بل كان نادرًا. وقد اختلف العلماء: هل تزوج النبي امرأة بغير مهر؟ الجمهور على أنه لم يتزوج امرأة وهبت نفسها له، لأن الله ق ال: "إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا"، والنبي لم يرد ذلك. وقيل: بل تزوج بعض من وهبن أنفسهن، مثل ميمونة بنت الحارث (على خلاف في ذلك).

٢."إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ" – الهبة: تمليك بلا عوض

"وهبت نفسها" أي: جعلت نفسها هبة للنبي، تزوجه بغير مهر .وهذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز لمسلم أن يتزوج امرأة بغير مهر .قال تعالى: "وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً") النساء: .(4 أما النبي فقد أبيح له ذلك، تخفيفًا عنه، وتوسعة عليه.

٣."إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا" – تعليق الحل بإرادة النبي

هذا القيد – "إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا" – يبين أن هبة المرأة نفسها لا تلزم النبي بقبولها. بل الأمر إليه، إن شاء قبل، وإن شاء رد. وهذا من كمال الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، وصيانة لحرمه، ألا يفرض عليه أحد زوجًا لا يرغب فيه.
الأمر الخامس:
"خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ" – خصوصية النبي في هذه الأحكام

بعد أن فصل الله أصناف النساء اللاتي أحلهن لنبيه، جاء بهذا التأكيد العظيم: "خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ". وهذا هو محور الآية وسر خصوصيتها.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ"

١."خَالِصَةً" – حال مؤكدة: تفيد القصر والاختصاص

لفظة "خَالِصَةً" منصوبة على الحال من الضمير المستتر في "أَحْلَلْنَا" ، أو من الأصناف المذكورة. و المعنى: أحللناها لك حال كونها خالصة لك، خاصة بك، لا يشاركك فيها أحد من المؤمنين.

.٢"لَكَ" – اللام: تأكيد الاختصاص

اللام في "لَكَ" هي لام الاختصاص. فهذه الأحكام خاصة بك يا محمد، كرامة من الله لك، وتخفيفًا عنك، وتوسعة عليك.

.٣"مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ" – تأكيد نفي المشاركة

"مِن دُونِ" تفيد الاستثناء والانفراد .فالمؤمنون ليس لهم هذه الخصوصيات، بل هم على الأحكام العامة التي سنذكرها بعد.

ما هي الخصوصيات التي أفادتها "خَالِصَةً"؟

اختلف المفسرون في نطاق الخصوصية التي أفادتها "خَالِصَةً" :

· القول الأول) وهو الراجح(: أن الخصوصية تشمل جميع الأصناف المذكورة في الآية) الأزواج بالمهر، وما ملكت اليمين، والقريبات المهاجرات، والواهبة نفسها .(فالنبي صلى الله عليه وسلم خاص بهذه الأ حكام دون المؤمنين.
· القول الثاني: أن الخصوصية خاصة بـ الواهبة نفسها فقط .لأن ما قبلها ثابت للمؤمنين) الأزواج بـ المهر، وما ملكت اليمين(، ولأن القريبات للمؤمنين داخل في عموم الأزواج) إذا عقدوا عليهن بمهر.(

والراجح – والله أعلم – هو القول الأول، لأن سياق الآية وختامها بقوله: "لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ" يدل على أن جميع الأصناف المذكورة هي تخفيف خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، رفعًا للحرج عنه.
الأمر السادس:
"قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ" – بيان الأحكام العامة للمؤمنين

بعد أن بين الله خصوصيات النبي في الزواج، أردف ذلك ببيان الأحكام العامة للمؤمنين: "قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا البيان

.١"قَدْ عَلِمْنَا" – تأكيد العلم الإلهي المسبق

"قَدْ" للتحقيق، و"عَلِمْنَا" – بصيغة الماضي – تفيد أن الله قد علم في الأزل ما فرضه على المؤمنين من أحكام في أزواجهم وما ملكت أيمانهم .وهذا تأكيد على أن أحكام الله ليست طارئة، بل هي مقدرة في علمه الأزلي، وجارية وفق حكمته.

.٢"مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ" – بيان مصدر الأحكام: الفرض الإلهي

الأحكام التي تلزم المؤمنين في أزواجهم وما ملكت أيمانهم هي فرض من الله، وليست اختيارًا شخصيًا أو عرفًا اجتماعيًا. وهذا يقطع الطريق على من يحاول أن يغير أو يبدل أحكام الله.

.٣"فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ" – شمول الأحكام للحرة والأمة

الأحكام التي فرضها الله على المؤمنين تشمل الأزواج الحرائر والإماء المملوكات. ومن هذه الأحكام:

· أن لا يتزوج المؤمن أكثر من أربع نسوة.
· أن لا يتزوج المؤمن إلا بمهر.
· أن لا يتزوج المؤمن قريباته المهاجرات إلا بعقد ومهر.
· أن المؤمن لا تحل له الواهبة نفسها بغير مهر.

فهذه الأحكام عامة لجميع المؤمنين، والنبي صلى الله عليه وسلم مستثنى منها في بعضها، تخفيفًا عنه وتوسعة عليه.
الأمر السابع:
"لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ" – بيان الحكمة من هذه الخصوصية

بعد أن بين الله خصوصيات النبي وأحكام المؤمنين العامة، جاء ببيان الحكمة من هذه الخصوصية: "لِكيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ".

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "لِكيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ"

١."لِكيْلَا" – لام التعليل: بيان الغاية

اللام في "لِكيْلَا" هي لام التعليل (أو كي للتعليل، واللام زائدة). فالمعنى: شرعنا لك هذه الخصوصيات، وأحللنا لك هذه الأصناف، لأجل أن لا يكون عليك حرج.

٢."حَرَجٌ" – نكرة في سياق النفي: شمول كل أنواع الحرج

"الحرج" هو الضيق والمشقة والإثم .والآية تنفي كل أنواع الحرج عن النبي صلى الله عليه وسلم في زواجه وعلاقاته الأسرية .فما أحله الله له هو توسعة وتخفيف، لا تضييق ولا إثم.

كيف كان رفع الحرج عن النبي في هذه الأحكام؟

أ. رفع الحرج بتوسعة دائرة النساء المحللات له

النبي صلى الله عليه وسلم كان محاطًا بالأعداء، مشغولا ً بالدعوة والجهاد وإدارة شؤون الأمة. فلو ضُيق عليه في دائرة النساء اللاتي يحل له نكاحهن، لكان ذلك حرجًا عليه، وإرهاقًا له. فوسع الله عليه، وأباح له أصنافًا متعددة من النساء، ليكون في سعة من أمره، لا ضيق.

ب. رفع الحرج بإباحة نكاح أكثر من أربع

النبي صلى الله عليه وسلم تزوج أكثر من أربع نسوة، وهذا خاص به. وذلك لأن بيت النبوة هو مدرسة الأمة، ومهبط الوحي، وملجأ المستضعفين. فكان يحتاج إلى نساء كثيرات يقمن بتربية الأجيال ، ونقل العلم، وخدمة الدعوة. فلو قيد بأربع كسائر المؤمنين، لكان ذلك حرجًا عليه، وتضييقًا على مهمته العظيمة.

ج. رفع الحرج بإباحة نكاح القريبات المهاجرات

النبي صلى الله عليه وسلم كان قائد الأمة ومرشدها. فكان يحتاج إلى توثيق الصلات مع قبائل العرب، لـ تأليف قلوبهم، وتثبيت أقدامهم في الإسلام. وكان زواجه من نساء القبائل من أعظم وسائل هذا التأليف. فلو منع من نكاح قريباته المهاجرات، لكان ذلك حرجًا عليه، وتفويتًا لمصلحة كبرى.

د. رفع الحرج بإباحة نكاح الواهبة نفسها

النبي صلى الله عليه وسلم كان مشغولا ً بأمور الدعوة والجهاد، فربما لا يتيسر له الوقت أو المال لـ دفع المهور. فأباح الله له أن يتزوج المرأة التي تهب نفسها له دون مهر، تخفيفًا عنه، وتوسعة عليه. وهذا من رحمة الله به، ورعايته لأحواله.
الأمر الثامن:
"وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا" – ختم الآية باسمي المغفرة والرحمة

بعد كل هذه الأحكام والتفصيلات، تختم الآية بهذا الختم الإلهي العظيم: "وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا". وهذا الختم هو تاج الآية وسر لطفها.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا"

١."وَكَانَ" – فعل الكون: دوام وثبوت الصفة

"كانَ" هنا تفيد الدوام والثبوت .فالله لم يزل ولا يزال غفورًا رحيمًا.

٢."غَفُورًا" – صيغة مبالغة: سعة المغفرة

"غَفُور" صيغة مبالغة، تدل على سعة مغفرة الله، وشمولها للذنوب العظام والصغار.

.٣"رَحِيمًا" – صيغة مبالغة: سعة الرحمة

"رَحِيم" صيغة مبالغة، تدل على سعة رحمة الله، ودوامها، وشمولها للمؤمنين.

لماذا ختمت الآية بـ "غفورًا رحيمًا"؟

هذا الختم يحمل رسائل عظيمة:

أ. تطمين النبي صلى الله عليه وسلم

قد يظن النبي صلى الله عليه وسلم – وهو البشر – أن في هذه الخصوصيات شيئًا من الحساسية أو الحرج من كلام المنافقين. فختم الله الآية بـ "غَفُورًا رَحِيمًا" ليطمئنه: "لا عليك يا محمد مما يقولون، فالله غفور رحيم، وقد وسعك برحمته، وأحل لك ما أحل، فلا تلتفت إلى أقوالهم".

ب. تذكير المؤمنين بأن أحكام الله رحمة ومغفرة

قد يستثقل بعض المؤمنين أحكام الله في الزواج والطلاق، ويظنون أنها تضييق عليهم. فختمت الآية بـ "غَفُورًا رَّحِيمًا" لتذكرهم بأن أحكام الله صادرة عن رحمته ومغفرته، وأن فيها الخير والبركة لهم في الدنيا والآخرة.

ج. فتح باب التوبة لمن قصر في حقوق الزوجية

هذه الآية تذكر الأزواج بأن الله غفور رحيم، فإذا قصروا في حقوق زوجاتهم، أو أساءوا في معاملتهن ، فليتوبوا إلى الله، وليستغفروه، فإنه غفور رحيم.
تاسعًا:
كيف نعيش آية "إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ" في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

.١معرفة خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم والاعتزاز بها

التطبيق العملي:

· تعلم خصوصيات النبي: اقرأ عن خصائص النبي صلى الله عليه وسلم، واعلم أنها تكريم من الله له، وتخفيف عنه، وليست تشهيًا أو هوى.
· ادفع الشبهات عن النبي: إذا سمعت شبهة حول تعدد زوجات النبي أو زواجه ببعض النساء، فردها بـ العلم والحكمة، وبين أن أحكام الله هي الحكمة والرحمة.
· اعتز بنبيك: افتخر بأن نبيك هو خاتم النبيين، وأن الله خصه بكرامات لم يخص بها أحدًا من العالمين.

.٢التأسي بالنبي في الوفاء بحقوق الزوجات

التطبيق العملي:

· أعط زوجتك مهرها كاملا ً غير منقوص: "آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ" تذكرك بأن المهر هو حق للمرأة، وأجر لها، فلا تبخسها إياه، ولا تماطل في دفعه.
· أحسن معاشرة زوجتك: النبي صلى الله عليه وسلم – مع كثرة أزواجه وأعباء الرسالة – كان خير الناس لأهله .فكن خير الناس لأهلك.
· لا تظلم زوجتك: تذكر أن الله غفور رحيم، فإن ظلمت زوجتك، فبادر بالتوبة ورد المظالم.

.٣فهم حكمة تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

التطبيق العملي:

· لا تقس تعدد زوجات النبي على تعدد زوجات غيره: تعدد زوجات النبي خاص به، وله حكم بالغة)تشريعية، تربوية، سياسية .(فلا تجعل تعدد زوجات النبي حجة للتعدد المطلق دون ضوابط.
· إذا تعددت زوجاتك، فاعدل بينهن: النبي صلى الله عليه وسلم كان يعدل بين زوجاته في القسمة و النفقة، وكان يدعو: "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" .فكن عادلا ً، وإلا فاكتف بواحدة.

٤.استشعار رحمة الله في تشريعاته

التطبيق العملي:

· لا تستثقل أحكام الله: تذكر أن الله غفور رحيم، وأن أحكامه صادرة عن رحمته وعلمه بما يصلح عباده .فاستجب لأمره طواعية ومحبة، لا كراهية وضيق.
· إذا قصرت، فتب: "وَكانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا" تفتح لك باب التوبة .فلا تيأس من رحمة الله، ولو عظمت ذنوبك.

٥.رفع الحرج عن الناس في أمور الزواج

التطبيق العملي:

· يسروا ولا تعسروا: اقتدوا بسنة النبي في التيسير في المهور وحفلات الزفاف .لا تغالوا في المهور، ولا تكلفوا أنفسكم ما لا تطيقون من نفقات الزواج ."لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَمْ حَرَجٌ".
· لا تعيروا المطلقين أو المطلقات: الطلاق أبغض الحلال إلى الله، ولكنه حلال .فلا تعيروا من طلق أو تطلق، ويسروا لهم سبل الزواج من جديد.
عاشرًا: القيم المستفادة من الآية 50

القيمة تجلياتها في الآية
خصوصية النبي وتكريمه "إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ" – إحلال خاص من الله لنبيه.
شمولية التشريع الإلهي تفصيل أصناف النساء المحللات للنبي.
رفع الحرج عن النبي "لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ" – التوسعة والتخفيف.
بيان الأحكام العامة للمؤمنين "قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ" – الفرق بين خاص النبي وعام المؤمنين.
تكريم المهاجرات "اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ" – تخصيص المهاجرات بهذا الشرف.
الوفاء بحقوق الزوجات "اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ" – الأمر بإعطاء المهور كاملة.
الرحمة والمغفرة الإلهية "وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا" – ختم الآية بصفات الرحمة.
التوازن بين التوسعة والضوابط التوسعة على النبي مقيدة بـ "خَالِصَةً لَكَ" و"لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ".
الاعتزاز بالنبي ودفع الشبهات فهم خصوصيات النبي يدفع الشبهات ويثبت الإيمان.
التيسير في الزواج استلهام رفع الحرج في تيسير أمور الزواج للمسلمين.
خاتمة: في رحاب الخصوصية النبوية والرحمة الإلهية

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تكشف لنا بعض خصائص النبي صلى الله عليه وسلم، وتبين لنا حكمة الله في تخصيصه ببعض الأحكام، رفعًا للحرج عنه، وتخفيفًا لأعباء الرسالة الثقيلة. إنها آية تفيض بالرحمة الإلهية والعناية الربانية بهذا النبي العظيم، وتذكرنا بأن أحكام الله – خاصة كانت أم عامة – هي رحمة وخير وبركة.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· النبي صلى الله عليه وسلم له خصوصيات في النكاح، تكريمًا من الله له، وتخفيفًا عنه.
· أصناف النساء اللاتي أحلهن الله لنبيه متعددة، وكل صنف له حكمته ومصلحته.
· المؤمنون لهم أحكام عامة في الزواج، تختلف عن خصوصيات النبي.
· رفع الحرج هو مقصد عظيم من مقاصد الشريعة، ظهر جليًا في خصوصيات النبي.
· الله غفور رحيم، يغفر الزلات، ويرحم العباد، ويفتح لهم أبواب التوبة.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نتعلم خصائص نبينا، وندافع عنه، ونعتز به. ولنطبق أحكام الله في زواجنا وطلاقنا، مقتدين بالنبي في وفائه وعدله وإحسانه. ولنوقن بأن الله غفور رحيم، بنا، وبعباده المؤمنين.
المبحث الثاني

تفسير آيتي التخيير والتكريم لأمهات المؤمنين) الأحزاب:51 - (52– في رحاب العدل الإلهي و الخصوصية النبوية وثبات أمهات المؤمنين

مدخل إلى رحاب الآيتين الكريمتين

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني الفريد، الذي يرسم لنا لوحة من أروع لوحات الوفاء والعدل والكرامة في بيت النبوة .إنه مشهد يتجلى فيه لطف الله بنبيه صلى الله عليه وسلم، وتخفيفه عنه في أعباء القسم بين زوجاته، مع إعلان صريح عن حرصه على مرضاتهن ومشاعرهن . ثم يأتي الإعلان الأعظم: تحريم نكاح غير أمهات المؤمنين على النبي بعد أن اخترن الله ورسوله و الدار الآخرة، ليكون ذلك تكريماً أبدياً لهن، وجزاءً عادلا ً لاختيارهن العظيم.

بعد أن بين الله في الآية السابقة خصوصيات النبي في أصناف النساء اللاتي أحلهن له، تأتي هاتان ا لآيتان لتكملا الصورة التشريعية لبيت النبوة .الآية الأولى (51) تضع قاعدة التخفيف على النبي في القسم بين أزواجه، وتفتح له باب الإرجاء والإيواء، مع تأكيد حرصه على عدله ومرضاته لهن .والآية الثانية (52) تضع الحد الفاصل، وتعلن تحريم نكاح غير أزواجه عليه بعد تخييرهن واختيارهن الله ورسوله، ليكون جزاء وفاقاً لهن على صنيعهن العظيم.

يقول الله تعالى:
"تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا"(51)

"لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا"(52)

فلنغص معًا في أعماق هاتين الآيتين الكريمتين، ولنستخرج دررهما وحكمهما، بنفس الروح المتأملة و القلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، لنعيش لحظات التخفيف الإلهي عن النبي، ولحظات التكريم الأبدي لأمهات المؤمنين، وندرك حكمة الله في تشريعه وعدله ولطفه بعباده.
الأمر الأول:
"تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ" – تخفيف القسم وتوسعة الخيار للنبي

اللمسة البيانية الأولى: "تُرْجِي" و"تُؤْوِي" – بين الإرجاء والإيواء

تبدأ الآية الكريمة بفعلين متقابلين: "تُرْجِي" و"تُؤْوِي" .وهما مفتاح فهم هذه الخصوصية النبوية . فلنتأمل معانيهما:

.١"تُرْجِي" – الإرجاء: التأخير وعدم القسم

لفظة "تُرْجِي" مشتقة من الإرجاء، وهو التأخير والتأجيل .والمراد هنا: تؤخر من تشاء من أزواجك، فلا تقسم لها، ولا تبيت عندها .وهذا يشمل:

· تأخير القسم: أي: لا تجعل لها يوماً معيناً في القسمة.
· تأخير الدخول بها: أي: لا تبني بها الآن، بل ترجئها إلى وقت آخر.

.٢"تُؤْوِي" – الإيواء: الضم والاصطفاء

لفظة "تُؤْوِي" مشتقة من الإيواء، وهو الضم والإيواء إلى المنزل والحظيرة .والمراد هنا: تضم إليك من تشاء من أزواجك، وتقسم لها، وتبيت عندها .وهذا يشمل:

· تعيين القسم: أي: تجعل لها يوماً معلوماً في القسمة.
· المبيت عندها: أي: تأوي إليها، وتبيت في بيتها.

.٣"مَن تَشَاءُ" – تفويض الأمر إلى مشيئة النبي

قوله: "مَن تَشَاءُ" يدل على أن الأمر في الإرجاء والإيواء مفوض إلى مشيئة النبي صلى الله عليه

وسلم، تخفيفاً عنه، وتوسعة عليه .فله أن يؤخر من يشاء، وله أن يضم من يشاء، بحسب ما يراه من مصلحة، ودون حرج عليه في ذلك.

اللمسة البيانية الثانية: "وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ" – توسعة إضافية ورفع تام للحرج

بعد أن خير الله نبيه بين الإرجاء والإيواء، فتح له باباً آخر من التوسعة: "وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ".

١."ابْتَغَيْتَ" – الابتغاء: الطلب والرغبة

"ابْتَغَيْتَ" أي: طلبت وأردت .فالنبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يعود إلى من عزلها وأرجأها، فله ذلك، ولا حرج عليه.

٢."مِمَّنْ عَزَلْتَ" – العزل: الإبعاد عن القسم

"عَزَلْتَ" أي: أبعدت عن القسم والمبيت .فالنبي صلى الله عليه وسلم كان له أن يعزل بعض نسائه عن القسمة) بإرجائهن(، ثم يعود إليهن متى شاء.

٣."فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ" – رفع الحرج تأكيداً وتقريراً

"لَا جُنَاحَ" أي: لا إثم ولا حرج .وهذا تأكيد على أن هذه التوسعة هي رفع للحرج عن النبي صلى الله عليه وسلم، وتخفيف لأعبائه الكثيرة.

ما هو القسم؟ ولماذا خفف الله عن نبيه فيه؟

القسم هو: التسوية بين الزوجات في المبيت والنفقة .وهو واجب على الزوج إذا كان له أكثر من زوجة .قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشقه مائل") رواه أبو داود والترمذي.(

ولكن الله خفف عن نبيه صلى الله عليه وسلم هذا الواجب، وجعل له الخيار في الإرجاء والإيواء، وذلك لحكم بالغة:

· انشغال النبي بأعباء الرسالة: النبي صلى الله عليه وسلم كان مشغولا ً بأمور الدعوة والجهاد وإدارة شؤون الأمة، وتبليغ الوحي .فلو ألزم بـ القسم العادل بين تسع نسوة، لكان ذلك حرجاً عليه، وإرهاقاً له، وربما شغله عن مهامه العظيمة.
· مراعاة أحوال النساء وطباعهن: بعض النساء قد تكون أكثر صبراً وتحملا ً للإرجاء من غيرهن . فجعل الله للنبي الخيار في تقديم من يرى تقديمها، وتأخير من يرى تأخيرها، بحسب المصلحة و الظروف.

وهذا من رحمة الله بنبيه، وتخفيفه عنه، وعلمه بما يصلح بيت النبوة ومهمة الرسالة.
الأمر الثاني:
"ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ" – بيان الحكمة من هذا التخيير

بعد أن بين الله حكم التخيير، جاء ببيان الحكمة منه: "ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ" .وهذا هو المقصد التربوي والنفسي من هذا التشريع.

اللمسات البيانية والبلاغية في بيان الحكمة

١."ذَٰلِكَ" – اسم الإشارة: تعظيم الأمر المشار إليه

"ذَٰلِكَ" إشارة إلى ما تقدم من حكم التخيير) الإرجاء والإيواء والابتغاء .(والإشارة بـ "ذلك") للبعيد (تدل على عظم هذا الحكم وجلالة شأنه.

٢."أَدْنَىٰ" – أقرب وأحرى

"أَدْنَىٰ" بمعنى أقرب وأحرى وأجدر .أي: هذا التخيير هو أقرب إلى أن تتحقق هذه الغايات الثلاث.

.٣الغايات الثلاث: "أَن تقرّ أَعْيُنُهُنّ وَلَا يَحْزَنّ وَيَرْضَيْنَ"

هذه ثلاث غايات نفسية وتربوية عظيمة:

الغاية الأولى: "أَن تقرّ أَعْيُنُهُنّ" – قرة العين وطمأنينة القلب
"قرة العين" هي سكونها وفرحها ورضاها .والمراد: أن هذا التخيير هو أقرب إلى أن تطمئن قلوب أزواج النبي، وتفرح أعينهن، لأنهن يعلمن أن النبي لا يؤخر منهن إلا لمصلحة، وليس كراهية أو إيثاراً لغيرها عليها.

الغاية الثانية: "وَلَا يَحْزَنّ" – نفي الحزن والهم
"لَا يَحْزَنّ" نفي للحزن والهم .والمراد: أن هذا التخيير هو أقرب إلى أن لا يحزنّ من أرجئت، لأنها تعلم أن للنبي أن يعود إليها متى شاء، وأن تأخيرها ليس هجراً أو إعراضاً.

الغاية الثالثة: "وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنّ كُلُّهُنّ" – الرضا الشامل من الجميع
"يَرْضَيْنَ" أي: يرضين جميعاً، من أويت ومن أرجئت .فالتي أويت رضيت بقسمها، والتي أرجئت رضيت بتأخيرها، لأنهن يعلمن أن هذا أمر الله، وأن النبي لا يفعله إلا بإذن الله ولحكمة.

كيف يحقق هذا التخيير هذه الغايات الثلاث؟

أ .إزالة الغيرة والتنافس المذموم بين النساء

عندما تعلم زوجات النبي أن القسم ليس حقاً واجباً عليهن، بل هو تفضل من النبي، وأن الأمر في الإ رجاء والإيواء مفوض إليه، فإن ذلك يخفف من الغيرة والتنافس بينهن .فلم تعُدْ كل واحدة تطالب بيومها كحق واجب، بل صارت تنتظر فضل النبي وإحسانه، وتعلم أن تأخيرها ليس ظلماً لها.

ب .تعزيز الثقة بمحبة النبي وعدله

هذا التخيير يعزز ثقة أزواج النبي بمحبته وعدله .فهن يعلمن أن النبي صلى الله عليه وسلم يحبهن جميعاً، وأنه لا يؤخر واحدة إلا لمصلحة، أو لظروف معينة .وهذه الثقة هي السياج الذي يحمي بيت النبوة من الخلافات والمنغصات.

ج .تحقيق الرضا النفسي والقناعة

الغاية الكبرى هي "وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنّ كُلُّهُنّ" .فالرضا هو قمة السعادة النفسية .ونساء النبي – بهذا التشريع – وصلن إلى مقام الرضا، فلم تعُدْ الواحدة منهن تتطلع إلى ما عند الأخرى، بل رضيت بما قسمه الله لها على يد نبيه .وهذا هو الكمال الإيماني والأدب الرفيع.
الأمر الثالث:
"وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا" – ختم الآية بصفات العلم والحلم

بعد بيان حكم التخيير والحكمة منه، تختم الآية بهذا الختم الإلهي العظيم: "وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الختم

.١"وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ" – إعلام بعلم الله بيواطن الأمور

هذا إعلام من الله بأنه يعلم ما في قلوب عباده، من محبة أو كراهية، من رضا أو سخط، من غيرة أو قناعة .والخطاب هنا يشمل:

· النبي صلى الله عليه وسلم: يعلم الله حرصه على مرضاة أزواجه، وعدله بينهن، وشدة حبه لهن.
· أزواج النبي: يعلم الله ما في قلوبهن من الغيرة الفطرية، ومحبتهن للنبي، وحرصهن على القرب منه.
· المؤمنون عامة: يعلم الله ما في قلوبهم من التساؤلات أو الاستثقال لبعض الأحكام.

.٢"وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا" – صفة العلم المطلق

"عَلِيمًا" صيغة مبالغة، تدل على سعة علم الله، وشموله لكل شيء، في الماضي والحاضر والمستقبل، في الظواهر والبواطن.

.٣"حَلِيمًا" – صفة الحلم: عدم المعاجلة بالعقوبة

"حَلِيمًا" صيغة مبالغة، تدل على سعة حلم الله، وعدم معاجلته للعصاة بالعقوبة، بل يمهلهم ويستأني بهم، لعلهم يتوبون ويرجعون.

لماذا ختمت الآية بـ "عليمًا حليمًا"؟

هذا الختم يحمل رسائل عظيمة:

أ .تذكير الجميع بمراقبة الله

الله عليم بما في القلوب .فلتتقوا الله في خفايا نفوسكم، ولتراقبوه في سرائركم، فإنه يعلم ما تخفون وما تعلنون.

ب .تطمين النبي صلى الله عليه وسلم

النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصاً على مرضاة أزواجه، ويخشى أن يكون في إرجاء بعضهن إيذاء لهن .فجاء هذا الختم ليطمئنه: "لا عليك يا محمد، فالله عليم بحرصك وعدلك، وهو حليم لا يؤاخذك بما لا تملك".

ج .تحذير أزواج النبي من الغيرة المذمومة

الله عليم بما في قلوب أزواج النبي من الغيرة .فلتتقين الله، ولترضين بما قسمه لكن، ولا يحملنكن الغيرة على ما لا يليق بأمهات المؤمنين .والله حليم، فإن تبتن ورجعتن، غفر لكن.

د .تعليم المؤمنين الأدب مع أحكام الله

قد يستثقل بعض المؤمنين أحكام الله في الزواج والطلاق والقسم .فلتتقوا الله، ولتعلموا أنه عليم بما يصلحكم، حليم بكم، فلا تعترضوا على حكمه، بل سلموا وارضوا.
الأمر الرابع:
"لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ" – تحريم نكاح غير أمهات المؤمنين وتكريمهن الأبدي

بعد أن بين الله في الآية (51) تخفيف القسم على النبي، جاءت الآية (52) لتضع الحد الفاصل، وتعلن تحريم نكاح غير أزواجه عليه بعد تخييرهن واختيارهن الله ورسوله .وهذا هو الجزاء الأوفى لهن على صنيعهن العظيم.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ"

.١"لَّا يَحِلُّ" – نفي الحل: تحريم قاطع

"لَّا يَحِلُّ" نفي للحل، وهو أقوى من "يحرم" .فالمعنى: لا يجوز لك، ولا يباح لك، ولا يسوغ لك أن تتزوج نساء غير أزواجك الحاليات بعد هذه الآية.

.٢"مِن بَعْدُ" – ظرف زمان: بيان ابتداء التحريم

"مِن بَعْدُ" أي: من بعد ما مضى من تشريع وتخيير واختيار .فالتحريم يبدأ من نزول هذه الآية، ويستمر إلى يوم القيامة.

ما هو "بعد"؟

· القول الأول: بعد نزول هذه الآية .فما تزوجه النبي قبلها) وهن التسع (حلال باق، وما عداهن فهو حرام.

· القول الثاني: بعد اختيار أزواجه لله ورسوله والدار الآخرة) في آية التخيير28 - .(29فلما اخترنه، كافأهن الله بأن حرم عليه نكاح غيرهن، وجعلهن أمهات المؤمنين إلى يوم القيامة.

والقولان متقاربان، ويدلان على أن أمهات المؤمنين) اللاتي اخترن الله ورسوله (هن آخر أزواج النبي، لا يزيد عليهن أحد بعدهن.

.٣"النِّسَاءُ" – جمع محلى بـ "ال-": عموم وشمول

"النِّسَاءُ" جمع محلى بـ "ال-" الاستغراقية .أي: جميع النساء غير أزواجك الحاليات حرام عليك .وهذا يشمل:

· الحرائر: لا يجوز له أن يتزوج حرة بعد أزواجه.
· الإماء: لا يجوز له أن يتزوج أمة بعد أزواجه) إلا ما استثناه: "إلا ما ملكت يمينك".(
· القريبات: لا يجوز له أن يتزوج قريبة بعد أزواجه.
· الواهبات أنفسهن: لا يجوز له أن يتزوج واهبة بعد أزواجه.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ"

هذه الجملة تؤكد التحريم من جهة أخرى: "وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ".

.١"تَبَدَّلَ" – التبديل: الطلاق والزواج بغيرها

"تَبَدَّلَ" أي: تطلق واحدة منهن، وتتزوج بغيرها مكانها .وهذا حرام على النبي صلى الله عليه وسلم . فليس له أن يطلق واحدة من أمهات المؤمنين ليتزوج غيرها.

.٢"بِهِنَّ" – الضمير يعود على أزواجه الحاليات

الضمير في "بِهِنَّ" يعود على أزواج النبي اللاتي اخترنه، وهن التسع رضي الله عنهن.

.٣"مِنْ أَزْوَاجٍ" – نكرة: شمول أي زوجة جديدة

"مِنْ أَزْوَاجٍ" نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم .أي: لا تبدل بهن أي زوجة كانت، مهما كان حسبها أو نسبها أو جمالها.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ"

هذه مبالغة في تأكيد التحريم: "وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ".

.١"وَلَوْ" – حرف امتناع لامتناع: تعليق على أمر مستحيل

"لو" هنا حرف شرط يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط .والمعنى: حتى لو فرضنا أن هناك نساء يعجبك حسنهن، فإن نكاحهن والتبديل بهن حرام عليك .فكيف والواقع أنك لا ترغب في تبديلهن؟!

.٢"أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ" – الإعجاب بالحسن: أعلى دوافع النكاح

ذكر "أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ" هو إشارة إلى أن الدافع الأقوى للزواج هو الإعجاب بالحسن .فإذا كان التبديل حراماً ولو مع هذا الدافع القوي، فمن باب أولى أن يكون حراماً مع الدوافع الأضعف.

لماذا حرم الله على نبيه نكاح غير أزواجه؟

هذا التحريم ليس تضييقاً على النبي صلى الله عليه وسلم، بل هو تكريم عظيم له ولأزواجه، وله حكم بالغة:

أ .تكريم أمهات المؤمنين وجزاء اختيارهن

لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة) في آية التخيير(، وتركن زينة الدنيا ومتاعها، كافأهن الله بأن

حرم على نبيه نكاح غيرهن، وجعلهن أزواجه في الدنيا والآخرة، وأمهات للمؤمنين إلى يوم القيامة . وهذا أعظم تكريم يمكن أن تناله امرأة.

ب .رفع الحرج عن النبي وقطع أطماع النساء فيه

النبي صلى الله عليه وسلم كان محط أنظار النساء، وكثير منهن كن يتمنين أن يتزوجهن .فلو بقي باب النكاح مفتوحاً له، لكان ذلك حرجاً عليه، وتطلعاً من النساء إليه، وغيرة من أزواجه .فجاء هذا التحريم ليقطع الأطماع، ويريح النبي، ويقر أعين أزواجه.

ج .بيان أن الفضل في النكاح ليس بكثرة النساء

النبي صلى الله عليه وسلم تزوج أكثر من أربع لحكم تشريعية وسياسية وتربوية .ولما انتهت هذه الحكم، واكتمل التشريع، حرم الله عليه نكاح غيرهن، ليعلم الناس أن الفضل ليس في كثرة النساء، بل في الاكتفاء بما أحل الله، والعدل بينهن، والقيام بحقوقهن.
الأمر الخامس:
"إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ" – استثناء من التحريم

بعد التحريم الشامل، جاء استثناء واحد: "إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ".

اللمسات البيانية والبلاغية في الاستثناء

.١"إِلَّا" – أداة استثناء: إخراج بعض الأفراد من الحكم

"إِلَّا" أداة استثناء، تفيد إخراج المستثنى من حكم المستثنى منه.

.٢"مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ" – الإماء المملوكات

"مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ" هن الإماء اللاتي يملكهن النبي صلى الله عليه وسلم .فهن مستثنيات من التحريم، فيحل له وطؤهن بملك اليمين، دون عقد نكاح.

هل تزوج النبي أو تسرى بإماء بعد هذه الآية؟

جمهور العلماء على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتزوج، ولم يتسرّ، بأمة بعد نزول هذه الآية . وإنما الاستثناء هو بيان لحكم ما ملكت يمينه قبل نزول الآية) مثل مارية القبطية(، أو إعلام بأن ملك اليمين لا يدخل في التحريم، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يستحدث شيئاً بعده.
الأمر السادس:
"وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا" – ختم الآية بصفة الرقابة الإلهية

بعد هذا التحريم الشامل والاستثناء المحدود، تختم الآية بهذا الختم الإلهي العظيم: "وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الختم

.١"وَكَانَ" – فعل الكون: دوام وثبوت الصفة

"كانَ" هنا تفيد الدوام والثبوت .فالله لم يزل ولا يزال رقيباً على كل شيء.

.٢"عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ" – عموم الرقابة وشمولها

"عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ" تفيد عموم رقابة الله وشمولها لكل كبير وصغير، في السماوات والأرض.

.٣"رَقِيبًا" – صفة المبالغة: إحاطة الرقابة ودقتها

"رَقِيب" صيغة مبالغة، تدل على إحاطة علم الله، ودقة مراقبته، وعدم غفلته عن أي شيء.

لماذا ختمت الآية بـ "رَقِيبًا"؟

هذا الختم يحمل رسائل عظيمة:

أ .تذكير النبي صلى الله عليه وسلم بمراقبة الله

النبي صلى الله عليه وسلم – وهو أتقى الناس – يُذكر بأن الله رقيب عليه، ليكون أكثر حرصاً على الالتزام بهذا التحريم، وألا تتوق نفسه إلى ما حرم الله عليه.

ب .تذكير أزواج النبي بمراقبة الله

أمهات المؤمنين يُذكرن بأن الله رقيب على قلوبهن وأعمالهن، فعليهن أن يشكرن الله على هذه النعمة)تحريم نكاح غيرهن(، وألا يبطرن، ولا يتطاولن على النبي، ولا يغتررن بهذا التكريم.

ج .تذكير المؤمنين بمراقبة الله في حقوق الزوجية

جميع المؤمنين يُذكرون بأن الله رقيب عليهم، فليتقوا الله في أزواجهم، وليعدلوا بينهن، وليؤدوا حقوقهن، وليجتنبوا الظلم والحيف.
سابعًا: كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآيتين، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

.١في تعدد الزوجات: العدل والتخفيف عن الزوجات

التطبيق العملي:

· إذا كنت متزوجاً بأكثر من واحدة: اعدل بين زوجاتك في القسمة والنفقة، قدر استطاعتك .ولا تمل إلى واحدة فتذر الأخرى كالمعلقة .تذكر أن النبي – مع تخفيف القسم عنه – كان أعدل الناس، وكان يدعو: "اللّهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك".
· خفف عن زوجاتك: لا تشدد عليهن في طلب حقوقهن، وتجاوز عن هفواتهن، وقابل إساءتهن بالإ حسان .فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يخفف عن أزواجه، ويتجاوز عن غيرتهن، ويداريهن برفق.

.٢تحقيق الرضا والقناعة في الحياة الزوجية

التطبيق العملي:

· أيتها الزوجة: ارضَيْ بما قسمه الله لك من زوج ورزق .ولا تتطلعي إلى ما عند غيرك .تذكري أن أمهات المؤمنين – وهن أفضل النساء – رضين بما آتاهن النبي، ولم يحزنّ إذا أرجئت إحداهن.
· أيها الزوج: ارضَ بزوجتك، ولا تتطلع إلى غيرها .تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم – وهو سيد الخلق – حُرم عليه نكاح غير أزواجه بعد أن اخترنه، فكان راضياً بهن، مكتفياً بهن، وفياً لهن.

.٣الوفاء للزوجة وعدم التبديل بها لمجرد الإعجاب بغيرها

التطبيق العملي:

· لا تطلق زوجتك لمجرد أنك أعجبت بجمال غيرها: "وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ" . هذا نهي للنبي، وهو تحذير للأمة .فكم من بيت هدم، وكم من أسرة تشتت، بسبب إعجاب الزوج بغير زوجته، وطلاقه لها ليتزوج تلك! ثم يندم حيث لا ينفع الندم.
· احفظ الود لزوجتك: تذكر أيامها الأولى، ووفاءها لك، وتربيتها لأبنائك، وصبرها على ضيقك .ولا تجحد إحسانها، ولا تقابل إحسانها بالإساءة.

.٤استشعار مراقبة الله في العلاقات الزوجية

التطبيق العملي:

· الله رقيب عليك: فلتتق الله في زوجتك .لا تظلمها، ولا تهنها، ولا تضربها، ولا تمنعها حقها .تذكر أن

الله يراك، ويسمعك، وسيسألك عن هذه الأمانة يوم القيامة.
· الله رقيب عليك: أيتها الزوجة، فلتتقي الله في زوجك .لا تنشزي عليه، ولا ترفعي صوتك عليه، ولا تمنعيه حقه .تذكري أن الله يراكِ، وسيحاسبكِ على تقصيركِ.

٥التأسي بالنبي في وفائه لأزواجه وعدله بينهن

التطبيق العملي:

· اقرأ سيرة النبي مع أزواجه: كيف كان وفياً لخديجة بعد موتها، يذكرها بالخير، ويصل صديقاتها .
كيف كان يعدل بين أزواجه في القسمة والنفقة .كيف كان صابراً على غيرتهن، حليماً على طباعهن .
هذه السيرة العطرة هي المنهج الذي يجب أن يسير عليه كل زوج مسلم.
· علم أبناءك سيرة النبي مع أزواجه: ليتعلموا كيف يعاملون زوجاتهم في المستقبل.
ثامنًا: القيم المستفادة من الآيتين51 -52

القيمة تجلياتها في الآيتين
رفع الحرج عن النبي "تُرْجِي مَن تشَاءُ" و"فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ" – تخفيف القسم عنه.
تحقيق الرضا والقناعة "أَدْنَىٰ أَن تقرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ" – غايات نفسية عظيمة.
تكريم أمهات المؤمنين "لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ" – جزاء اختيارهن الله ورسوله.
الوفاء للزوجة وعدم التبديل "وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ" – حث على الوفاء والثبات.
مراقبة الله في العلاقات الزوجية "وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا" – استشعار رقابة الله.
العلم الإلهي بالبواطن "وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ" – تطمين وتحذير.
الحلم الإلهي "وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا" – فتح باب التوبة وعدم اليأس.
العدل بين الزوجات إشارة الآية إلى القسم والتخفيف فيه تذكر بوجوب العدل.
القناعة بما قسم الله "وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ" – دعوة للقناعة والرضا.
خاتمة: في رحاب الوفاء والعدل والتكريم الإلهي

في الختام، نقف بخشوع أمام هاتين الآيتين الكريمتين، اللتين تكشفان لنا جانباً مشرقاً من حياة النبي صلى الله عليه وسلم مع أزواجه الطاهرات، وتظهران لطف الله بنبيه، وتخفيفه عنه، وتكريمه لأمهات المؤمنين، وتربيته للأمة على الوفاء والعدل والرضا.

لقد علمتنا هاتان الآيتان أن:

· الله لطيف بعباده، يخفف عنهم، ويرفع الحرج عنهم، ويعلم ما في قلوبهم، ويحلم عليهم.
· النبي صلى الله عليه وسلم كان أكمل الناس في وفائه وعدله وإحسانه إلى أزواجه.
· أمهات المؤمنين نلن شرفاً عظيماً باختيارهن الله ورسوله، وجازاهن الله خير الجزاء.
· العلاقات الزوجية في الإسلام مبنية على العدل والمودة والرحمة والوفاء.
· الرضا والقناعة هما سر السعادة الزوجية، وطريق الاستقرار الأسري.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نتأسى بنبينا صلى الله عليه وسلم في وفائه وعدله، وأن نقتدي بأمهات المؤمنين في رضاهن وقناعتهن، وأن نستشعر مراقبة الله لنا في كل شؤوننا، وخاصة في بيوتنا وعلاقاتنا الأسرية.
القسم السابع:
تتناول هذا القسم الاداب الاسلاميه التي ادب بها المجتمع الاسلامي من الاكل والشرب وسلامه القلوب وعدم الاذيه للرسول صلى الله عليه وسلم وغيرها من الصفات التي كان بها تاديب المسلمين والانتقال بهم من حياه البداوه والخشونه الى التمدن والحضاره والرقي في الايات 53الى55
المبحث الأول.
.تفسير آية آداب البيوت والحجاب) الأحزاب: (53 – دستور الرقي الحضاري وثورة الأخلاق على البداوة والجلف

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني المهيب، الذي لا يتحدث عن أحكام فقهية جافة، بل يرسم لوحة حضارية متكاملة، تنقل الإنسان العربي من جلف البادية وخشونة الطبع إلى رقة الحضارة وأدب المتمدنين .إنها آية تفيض بالذوق الرفيع، والأدب الجم، والاحترام العميق للخصوصيات، وتؤسس لأعظم ثورة اجتماعية في تاريخ العرب: ثورة الأخلاق والآداب.

في هذه الآية الكريمة، نرى الإسلام وهو يصنع الإنسان من جديد .إنه يأخذ ذلك العربي البدوي، الذي لا يعرف الاستئذان، ولا يقيم وزناً للوقت، ولا يدرك معنى الخصوصية، ولا يخضع إلا لسيف القبيلة، فيحوّله إلى إنسان راق، متأدب، يحترم بيوت الآخرين، ويراعي مشاعرهم، ويصون حرماتهم، حتى في أدق تفاصيل الحياة: في دخول البيوت، وأوقات الطعام، والحديث بعد الأكل، ومخاطبة النساء.

إنها الآية التي تقول لنا: "الحضارة ليست ناطحات سحاب، بل هي أخلاق وآداب" .وهي التي تضع الدستور الإلهي لـ بناء المجتمع الراقي، والإنسان المتمدن، والحضارة الإنسانية الحقيقية.

يقول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا"

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، ولنرَ كيف صنع الإسلام من الصحراء حضارة، ومن الجلف رقة، ومن الفوضى نظامًا، وكيف يمكننا نحن اليوم أن نستفيد من هذا الدستور الإلهي في بناء أنفسنا ومجتمعاتنا وحضارتنا.
الأمر الأول:
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ" – ثورة الاستئذان واحترام الخصوصية

اللمسة البيانية الأولى: افتتاح الآية بنداء الإيمان – ربط الآداب بالعقيدة

تبدأ الآية الكريمة بهذا النداء القرآني العظيم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" .إنه نداء يتكرر في مواطن التشريع والتربية، ليربط السلوك والأخلاق بـ أصل الإيمان .فكأنه يقول: "يا من آمنتم بـالله، وصدقتم برسوله، واتبعتم دينه ...اسمعوا هذه الآداب، واعملوا بها، فإن إيمانكم يقتضي منكم هذا السلوك الراقي".

هذا الربط بين الإيمان وآداب الاستئذان واحترام الخصوصية هو أساس الثورة الحضارية التي صنعها الإسلام .فالعربي في الجاهلية كان لا يعرف الاستئذان، بل كان يقتحم البيوت من أبوابها وظهورها، ويقول: "دخلتُ"! لا يستأذن، ولا يسلم، ولا يراعي حرمة أحد .جاء الإسلام ليجعل الاستئذان عبادة، واحترام الخصوصية إيمانًا.

اللمسة البيانية الثانية: "لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ" – النهي عن الدخول بغير إذن

١."لَا تَدْخُلُوا" – نهي قاطع عن اقتحام البيوت

"لَا تَدْخُلُوا" نهي جازم، وهو أساس التشريع في احترام حرمة البيوت .فبيت الإنسان – وخاصة بيت النبي – هو حرم آمن، لا يجوز اقتحامه، ولا دخوله إلا بإذن من صاحبه.

٢."بُيُوتَ النَّبِيِّ" – تخصيص بيوت النبي بالذكر: تعليم بالقدوة

خص الله بيوت النبي بالذكر، مع أن الحكم عام لجميع البيوت) كما في سورة النور: "لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا" .(وذلك لأن بيت النبي هو النموذج والقدوة .فإذا تأدب المسلمون مع بيت النبي، تأدبوا مع بيوت بعضهم بعضًا.

٣."إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ" – الاستثناء: الدخول بالإذن فقط

"إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ" هو الاستثناء الوحيد من حرمة الدخول .فلا يدخل المؤمن بيت النبي) ولا بيت غيره (إلا إذا أذن له .وهذا الإذن هو مفتاح الدخول، والشرط الأساسي لاحترام الخصوصية.

كيف كان العربي قبل هذا التشريع؟
كان العربي الجاهلي لا يعرف معنى الإذن .يزور صديقه أو قريبه في أي وقت، ويدخل بيته دون استئذان، وقد يراه في حالة لا يحب أن يراه عليها أحد .كان هذا الجلف والخشونة من طباع البادية .
فجاء الإسلام بهذه الآية، وبنظيرتها في سورة النور، ليقلب هذه الطباع رأسًا على عقب، وليزرع الذوق والأدب واحترام الخصوصية.

الأمر الثاني:
"إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا" – ثورة آداب الطعام وإدارة الوقت

هذا المقطع من الآية يتناول أدبًا آخر من آداب الحضارة: أدب الدعوة إلى الطعام، وأدب انتظار الطعام ، وأدب الدخول بعد الدعوة.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ"

.١"إِلَىٰ طَعَامٍ" – بيان الغرض من الإذن: الطعام

الغرض من الإذن هنا هو الدعوة إلى طعام .وهذا هو السبب الذي نزلت فيه الآية، كما سيأتي في قصة وليمة زينب.

.٢"غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ" – النهي عن انتظار نضج الطعام

هذه العبارة هي قمة الأدب والذوق الرفيع:

· "نَاظِرِينَ" أي: منتظرين.
· "إِنَاهُ" أي: وقت نضجه واستوائه.

فالمعنى: لا تدخلوا بيوت النبي قبل وقت الطعام، فتقعدوا فيها تنتظرون نضج الطعام .وهذا نهي عن التطفل، وعن إطالة المكث بغير حاجة، وعن إحراج صاحب البيت الذي قد يستحي أن يطلب منكم الخروج.

كيف كان العربي قبل هذا التشريع؟
العربي البدوي كان لا يعرف معنى الوقت، ولا يقدر إحراج الآخرين .يأتي إلى بيت صديقه قبل موعد الطعام بساعات، فيجلس ينتظر، يتطلع إلى القدر متى ينضج، ويشم رائحة الطعام، ويتململ من الجوع! هذا الجلف وقلة الذوق هو ما جاء الإسلام ليهذبه ويرقيه.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا"

.١"وَلَٰكِنْ" – حرف استدراك: الانتقال إلى الصواب

"وَلَٰكِنْ" للاستدراك، أي: لا تفعلوا كذا) الانتظار(، ولكن افعلوا كذا) الدخول بعد الدعوة.(

.٢"إِذَا دُعِيتُمْ" – تعليق الدخول بالدعوة

"إِذَا دُعِيتُمْ" أي: إذا أرسل إليكم النبي يدعوكم إلى الطعام) بعد نضجه .(فالدخول يكون بعد الدعوة، لا قبلها.

.٣"فَادْخُلُوا" – الأمر بالدخول بعد الدعوة

"فَادْخُلُوا" أمر، وهو يفيد الإباحة بعد المنع .فإذا دعيتم، فقد أذن لكم، فادخلوا بلا حرج.

ما الحكمة من هذا التشريع؟
هذا التشريع يعلمنا أدبًا عظيمًا: لا تذهب إلى بيت أحد قبل أن يدعوك، ولا تذهب قبل موعد الدعوة . فإذا دعاك، فاذهب في الوقت المحدد، لا قبله ولا بعده كثيرًا .وهذا من الذوق الرفيع الذي يحترم وقت المضيف، ويريحه من الإحراج.
الأمر الثالث:
"فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ" – ثورة الانصراف بعد الطعام واحترام خصوصية المضيف

هذا المقطع هو قمة الأدب الحضاري، ويكشف عن عمق الفهم الإسلامي للنفس البشرية، وعن ذوق رفيع في التعامل الاجتماعي.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا"

.١"فَإِذَا طُعِمْتُمْ" – ترتيب الانصراف على الطعام

"فَإِذَا" للترتيب والتعقيب .فبمجرد أن تنتهوا من طعامكم، فعليكم أن تنصرفوا .لا تمكثوا بعد الطعام للحديث والسمر.

.٢"فَانتَشِرُوا" – الأمر بالانتشار والتفرق

"فَانتَشِرُوا" أمر من الانتشار، وهو التفرق والخروج .والمعنى: قوموا، وتفرقوا، واخرجوا من بيت النبي، ولا تجلسوا بعد الطعام.

كيف كان العربي قبل هذا التشريع؟
العربي البدوي كان إذا أكل عند أحد، جلس بعد الطعام يثرثر، ويتبادل أحاديث البادية، وأنساب الإبل، وأخبار القبائل، ساعات طويلة، دون أن يشعر بإحراج صاحب البيت، الذي قد يكون متعبًا، أو له شأن آخر، أو يريد الخلوة بأهله .هذا الجلف وقلة الذوق هو ما جاء الإسلام ليعالجه.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ"

.١"وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ" – حال مؤكدة: النهي عن الاستئناس للحديث

"وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ" حال من فاعل "تنتَشِرُوا" . والمعنى: انتشروا غير مستأنسين للحديث .أي: لا تجلسوا بعد الطعام للاستئناس والحديث.

.٢"لِحَدِيثٍ" – تنكير "حديث": أي حديث كان

"حَدِيثٍ" نكرة، فتشمل أي نوع من الحديث، حتى حديث العلم والذكر .فما دام المضيف لم يأذن لكم بالجلوس، فعليكم الانصراف فورًا بعد الطعام.

لماذا هذا التشديد؟
هذا التشديد ليس جفاءً، بل هو قمة الأدب ومراعاة المشاعر .فالنبي صلى الله عليه وسلم – وهو أكرم الناس وأشدهم حياءً – كان يستحي أن يطلب من ضيوفه الانصراف، حتى لو تأذى من طول جلوسهم .فجاء هذا التشريع ليريحه من هذا الحرج، وليعلم الأمة أن من الأدب أن ينصرف الضيف بعد الطعام، إلا إذا ألح عليه المضيف بالبقاء.
الأمر الرابع:
"إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ" – بيان سبب النهي ورفع الحرج عن النبي

بعد أن بين الله أحكام الدخول والجلوس والانتشار، كشف عن السبب الذي دعا إلى هذا التشريع: "إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ" .وهذا البيان هو منتهى اللطف الإلهي بنبيه، وأعظم تكريم له.

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا البيان

.١"إِنَّ ذَٰلِكُمْ" – إشارة إلى ما تقدم من الأفعال

"ذَٰلِكُمْ" إشارة إلى الأفعال المنهي عنها: الدخول بغير إذن، وانتظار نضج الطعام، والجلوس للحديث بعد الطعام.

.٢"كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ" – إخبار بأن هذه الأفعال كانت تؤذيه

"يُؤْذِي النَّبِيَّ" بصيغة المضارع، تفيد أن هذا الأذى كان متكررًا، ومستمرًا .فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يتأذى من طول جلوسهم، وانتظارهم للطعام، ودخولهم بغير إذن، ولكنه يستحي أن يطلب منهم الخروج.

.٣"فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ" – بيان سبب سكوته: الحياء

"فَيَسْتَحْيِي" أي: يمنعه الحياء من أن يقول لكم: اخرجوا .وهذا من كمال خلقه صلى الله عليه وسلم،

وشدة حيائه .فكان يصبر على الأذى، ولا يواجه ضيوفه بما يجرح مشاعرهم.

٤."وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ" – إعلان رباني عظيم

هذه الجملة هي قمة البيان وذروة الحكمة: "وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ" .فالله تعالى – وهو أكرم الأكرمين – لا يمنعه الحياء من أن يشرع الحق، ويبين الصواب، وينهى عن الخطأ، ولو كان ذلك مما تستثقله النفوس .فـ الحياء في موطن الحق ليس فضيلة، بل هو مذمة .فالله يبين لكم الحق، ولا يترككم في جهلكم وجفائكم، حياءً منكم!

هذه الآية دستور في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
هذه الجملة العظيمة – "وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ" – هي أساس عظيم في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .فالداعية، والمربي، والمسؤول، لا ينبغي أن يمنعه الحياء من قول الحق، وبيان الصواب، والنهي عن الخطأ، ما دام ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة .فـ الحياء المذموم هو الذي يمنع من قول الحق، أما الحياء المحمود فهو الذي يمنع من فعل القبيح.
الأمر الخامس:
قصة وليمة زينب – التجسيد العملي للآية وأسباب النزول

لا يكتمل فهم هذه الآية دون الوقوف على سبب نزولها، وقصة وليمة زينب بنت جحش رضي الله عنها، التي كانت مدرسة عملية في آداب الاستئذان والطعام والانصراف.

القصة باختصار

· لما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش) بعد طلاقها من زيد بن حارثة(، أولم عليها وليمة، وذبح شاة، ودعا القوم.
· دخل القوم، وأكلوا، ثم جلسوا بعد الطعام يتحدثون، ويستأنسون للحديث.
· النبي صلى الله عليه وسلم كان يستحي أن يطلب منهم الخروج، فقام كأنه يريد حاجة، فخرج، وخرج بعضهم، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون.
· رجع النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا القوم جلوس، فدخل بيته، وأرخى الحجاب بينه وبينهم.
· نزلت هذه الآية: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ...".
· قال أنس رضي الله عنه: "فنزلت آية الحجاب، وضُرب الحجاب بيني وبينه") رواه البخاري.(

الدروس التربوية والحضارية من قصة وليمة زينب

أ .النبي بشر يتأذى ويستحي، ولكنه لا يغضب لنفسه

النبي صلى الله عليه وسلم – وهو سيد الخلق – تأذى من طول جلوس أصحابه، ولكنه لم يغضب، ولم ينهرهم، بل استحيا منهم .وهذا من كمال خلقه وعظيم صبره .وفيه درس للأمة: أن الصبر على جفاء الناس وقلة ذوقهم هو من أخلاق الأنبياء.

ب .التشريع يأتي لرفع الحرج عن النبي والمؤمنين

هذه القصة تظهر رحمة الله بنبيه، حيث أنزل التشريع ليرفع عنه الحرج، وليمنع تكرار هذا الموقف المحرج .وبهذا التشريع، ارتاحت نفس النبي، وتأدب المؤمنون، وعرفوا حدود الله.

ج .تحويل الموقف المحرج إلى تشريع خالد

انظر إلى عظمة الإسلام! موقف محرج في بيت النبي، يتحول إلى تشريع خالد، وآداب رفيعة، ودستور اجتماعي، تتناقله الأجيال، وتتعلم منه أصول الحضارة والرقي الإنساني .هذا هو القرآن الذي يصنع من الأحداث مناهج حياة.
الأمر السادس:
"وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ" – ثورة الحجاب وصيانة المرأة

بعد أن بين الله آداب الدخول والطعام والانصراف، انتقل إلى أدب آخر لا يقل أهمية: أدب مخاطبة نساء النبي، ووجوب الحجاب بينهن وبين الرجال الأجانب.

اللمسات البيانية والبلاغية في آية الحجاب

.١"وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا" – بيان سبب المخاطبة: طلب المتاع

"مَتَاعًا" أي: شيئًا من أمتعة البيت، كالطعام، أو الإناء، أو الفراش .وكان المؤمنون يحتاجون أحيانًا إلى استعارة بعض الأمتعة من بيوت النبي .فأرشدهم الله إلى كيفية سؤالها: من وراء حجاب.

.٢"فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ" – الأمر بالسؤال من وراء حجاب

"مِن وَرَاءِ حِجَابٍ" أي: من خلف ستر، بحيث لا يرون وجوههن، ولا يختلطون بهن .وهذا هو أصل مشروعية الحجاب في الإسلام.

تنبيه مهم: هذا الحكم – وجوب الحجاب – وإن كان خطابًا لأمهات المؤمنين خاصة، إلا أن جمهور العلماء على أنه عام لجميع نساء المؤمنين، قياسًا عليهن، ولأدلة أخرى في الكتاب والسنة) مثل آيات النور: "وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ".(

.٣"ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ" – بيان الحكمة من الحجاب: الطهارة

هذا هو المقصد الأعظم من تشريع الحجاب: الطهارة .فالحجاب:

· يطهر قلوب الرجال: من الخواطر الشيطانية، والنظرات المريبة، والطمع في النساء.
· يطهر قلوب النساء: من التطلع إلى الرجال، والرغبة في لفت أنظارهم، والتبرج لهم.

فالحجاب سياج من الطهر، وحصن من العفاف، وضمان لسلامة القلوب من الأمراض.

كيف كان العربي قبل هذا التشريع؟
العربي الجاهلي كان لا يعرف الحجاب، ولا يستنكف من مخالطة النساء، والحديث إليهن، والنظر إليهن . وكان هذا سببًا في كثير من الفتن والفوضى الأخلاقية .جاء الإسلام بالحجاب ليصون المرأة، وليحمي المجتمع، وليؤسس للطهارة والعفاف.
الأمر السابع:
"وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا" – تعظيم حرمة النبي وأزواجه

هذا هو المقطع الختامي من الآية، وهو تأكيد على حرمة النبي وحرمة أزواجه، وتحذير شديد من أذاه أو الطمع في أزواجه من بعده.

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الختام

.١"وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ" – نفي مؤكد لاستحقاق أذى الرسول

"وَمَا كَانَ لَكُمْ" – كما سبق في آيات كثيرة – هي أقوى صيغ النفي، وتفيد الاستحالة .أي: يستحيل، و لا يمكن أن يكون، ولا يتصور بحال، أن تؤذوا رسول الله .فأذاه حرام، وجرم عظيم.

.٢"وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا" – تحريم أبدي لنكاح أزواج النبي بعده

هذا هو أعظم تكريم لأمهات المؤمنين: تحريم نكاحهن على أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .فهن أزواجه في الدنيا، وأزواجه في الآخرة .وهذا التشريع هو جزاء وفاق لاختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة على زينة الدنيا ومتاعها.

.٣"إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا" – تعظيم هذا التحريم في ميزان الله

"ذَٰلِكُمْ" إشارة إلى أذى الرسول، أو إلى نكاح أزواجه من بعده .وكلاهما عظيم عند الله، شديد العقاب عليه.

الأمر الثامن:
كيف صاغت هذه الآية الإنسان العربي من الجلف إلى الرقة والتمدن؟

هذه الآية الكريمة – بما تضمنته من آداب رفيعة – هي وثيقة حضارية تظهر كيف نقل الإسلام العربي من البداوة إلى التمدن .فلنقارن بين حال العربي قبل الإسلام وحاله بعده، في ضوء هذه الآية:

.١في الاستئذان واحترام الخصوصية

العربي قبل الإسلام العربي بعد الإسلام
يقتحم البيوت دون استئذان، ويدخل بغير إذن .لا يدخل بيتًا إلا بعد الاستئذان والسلام.
لا يقدّر معنى الخصوصية، ويرى البيت مشاعًا .يقدس خصوصية البيوت، ويعتبرها حرمًا آمنًا.
لا يبالي برؤية أهل البيت في أحوالهم الخاصة .يحترم حرمات البيوت، ويغض بصره عن المحارم.

.٢في آداب الطعام والزيارة

العربي قبل الإسلام العربي بعد الإسلام
يأتي إلى بيت المضيف قبل الطعام بساعات، وينتظر نضجه .لا يذهب إلا إذا دُعي، ولا يذهب قبل الوقت.
يجلس بعد الطعام ساعات يتحدث ويسمر .ينصرف بعد الطعام مباشرة، إلا إذا ألح عليه المضيف.
لا يراعي إحراج المضيف أو تعبه .يراعي مشاعر المضيف، ويخفف عنه.

.٣في التعامل مع النساء والعفة

العربي قبل الإسلام العربي بعد الإسلام
يخالط النساء، ويحادثهن، وينظر إليهن بغير حجاب .لا يخاطب النساء الأجنبيات إلا من وراء حجاب.
لا يرى بأسًا في التبرج وإظهار الزينة .يلتزم بالحجاب والعفاف، ويصون المرأة.
الفتنة منتشرة، والقلوب مريضة .القلوب طاهرة، والمجتمع عفيف.

كيف حدث هذا التحول العظيم؟

هذا التحول لم يحدث فجأة، ولا بضغط سلطة، ولا بقانون وضعي، بل حدث بسببين رئيسيين:

أ .الإيمان بالله واليوم الآخر

المسلم الذي آمن بالله، وصدق برسوله، وأيقن باليوم الآخر، أصبح يرى في امتثال هذه الآداب عبادة وقربة إلى الله .فهو لا يستأذن خوفًا من صاحب البيت، بل طاعة لله .وهو لا ينصرف بعد الطعام حياءً من المضيف فقط، بل امتثالا ً لأمر الله .وهذا الدافع الإيماني هو أقوى محرك لتغيير السلوك و الطباع.

ب .القدوة العملية في النبي صلى الله عليه وسلم

النبي صلى الله عليه وسلم كان النموذج الحي لهذه الآداب .فالمسلمون رأوا كيف كان النبي يستأذن، ويأكل، ويجلس، ويخاطب النساء، فـ تأسوا به، واقتدوا بهديه .وهذا التطبيق العملي هو الذي رسخ هذه الآداب في النفوس، وجعلها طبعًا وسجية.
الأمر التاسع:
كيف نستفيد من هذه الآية في بناء الإنسان والمجتمع والحضارة والتنمية؟

بعد أن رأينا كيف صنعت هذه الآية الإنسان العربي وحولته من الجلف إلى الرقة، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نستفيد نحن اليوم من هذا الدستور الإلهي في بناء أنفسنا ومجتمعاتنا وحضارتنا؟

.١في بناء الإنسان: تربية الذوق والأدب والاحترام

التطبيق العملي:

· علم أبناءك آداب الاستئذان: لا تدعهم يقتحمون غرفتك أو غرف إخوتهم دون استئذان .دربهم على الطرق والسلام قبل الدخول.
· علم أبناءك آداب الزيارة: لا تذهب بهم إلى زيارة أحد دون موعد مسبق، والتزم بالوقت المحدد .

وعند الطعام، لا تطل الجلوس بعد الأكل.
· علم أبناءك احترام خصوصيات الآخرين: لا تسمح لهم بالتطفل على أسرار الناس، أو التنصت على حديثهم، أو النظر في بيوتهم.

.٢في بناء المجتمع: إشاعة ثقافة الاحترام والخصوصية

التطبيق العملي:

· لا تقتحم بيوت الناس بغير استئذان: حتى أقرب الأقربين، لا تدخل بيته إلا بعد الاستئذان والسلام . وإذا طرقت الباب ثلاثًا ولم يُفتح لك، فانصرف.
· لا تطل الزيارة: إذا زرت صديقًا أو قريبًا، فلا تثقل عليه بطول الجلوس .وخاصة إذا كان مريضًا أو مشغولا ً.
· لا تذهب إلى وليمة إلا بدعوة: ولا تذهب قبل الوقت المحدد، ولا تتأخر كثيرًا .وإذا انتهى الطعام، فانصرف بأدب، إلا إذا ألح عليك المضيف بالبقاء.

.٣في بناء الحضارة: استعادة الذوق الرفيع في التعاملات

التطبيق العملي:

· في بيئة العمل: احترم خصوصيات زملائك .لا تقتحم مكتب أحد دون استئذان .لا تطل الاجتماعات بغير حاجة .لا تستأثر بوقت المدير أو الموظفين.
· في وسائل التواصل: لا ترسل رسائل في أوقات متأخرة من الليل إلا لضرورة .لا تتصل بالناس في أوقات راحتهم .احترم خصوصياتهم، ولا تنشر ما يؤذيهم.
· في الأماكن العامة: احترم خصوصيات الآخرين .لا ترفع صوتك، ولا تضايق الناس بفضولك .التزم بالآ داب العامة.

.٤في تحقيق التنمية: توفير الوقت والجهد وتعزيز الإنتاجية

التطبيق العملي:

· الالتزام بالمواعيد: من أهم عوامل التنمية هو احترام الوقت .فالموظف الذي يأتي في وقته، والزائر الذي ينصرف في وقته، والاجتماع الذي ينتهي في وقته، كل ذلك يوفر الوقت ويزيد الإنتاجية.
· عدم التطفل على أوقات الآخرين: "غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ" تعلمنا ألا نضيع أوقات الآخرين في انتظارنا، أو في الجلوس الفارغ بعد انتهاء الحاجة.
· التركيز على جوهر العلاقات لا على المظاهر: "فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا" تعلمنا أن العلاقات الاجتماعية ينبغي أن تكون هادفة، لا مضيعة للوقت .فلقاء الأحبة يكون بقدر الحاجة، دون إسراف في الوقت.

.٥في صيانة الأسرة والمجتمع: الحجاب والعفاف

التطبيق العملي:

· التزمي بالحجاب الشرعي: "فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ" هو أصل في وجوب الحجاب .فالحجاب طهارة للقلوب، وصيانة للمرأة، وحماية للمجتمع من الفتن.
· غض البصر: كما أن الحجاب مطلوب من المرأة، فإن غض البصر مطلوب من الرجل ."ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ".
· لا للخلوة بالأجنبية: احذروا الخلوة بالنساء الأجنبيات، فإنها مدخل الشيطان، وسبب الفتنة.
عاشرًا: القيم المستفادة من الآية53

القيمة تجلياتها في الآية
احترام الخصوصية "لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ" – حرمة البيوت.
الاستئذان قبل الدخول "إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ" – الإذن شرط الدخول.
آداب الدعوة والطعام "غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ" – عدم التطفل وانتظار الطعام.
الانصراف بعد الطعام "فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا" – عدم إطالة الجلوس.
مراعاة مشاعر المضيف "إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ" – عدم إحراج صاحب البيت.
قول الحق وعدم الاستحياء منه "وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ" – الشجاعة في بيان الحق.

الحجاب والعفاف "فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ" – صيانة المرأة وطهارة المجتمع.
طهارة القلوب "ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ" – الحجاب يطهر القلوب.
تعظيم حرمة النبي وأزواجه "وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ" – حرمة النبي.
الارتقاء الحضاري والذوق الرفيع مجموع الآداب في الآية يمثل دستورًا للرقي والتمدن.
خاتمة: في رحاب الذوق الرفيع والرقي الحضاري

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تمثل ثورة أخلاقية وحضارية غيرت وجه التاريخ، ونقلت أمة بأكملها من جلف البادية وخشونة الطبع إلى رقة الحضارة وأدب المتمدنين .إنها آية تذكرنا بأن الإسلام لم يكن دين عبادة فقط، بل كان دين حضارة ومدنية وذوق رفيع.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· الحضارة ليست ناطحات سحاب، بل هي أخلاق وآداب واحترام للآخرين.
· الاستئذان واحترام الخصوصية وعدم التطفل والانصراف بعد الطعام والحجاب ...كل هذه ليست مجرد أحكام فقهية، بل هي مظاهر حضارية راقية.
· الإسلام صنع الإنسان، وهذب طباعه، ورقق مشاعره، وجعله يستحي من اقتحام البيوت، وإطالة الجلوس، وإحراج المضيف.
· القرآن هو الدستور الذي يجب أن نعود إليه لبناء أنفسنا ومجتمعاتنا وحضارتنا من جديد.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نعيش هذه الآداب في حياتنا اليومية، وأن نربي أبناءنا عليها، وأن نجعل من مجتمعنا مجتمعًا راقيًا، تسوده المحبة والاحترام والذوق الرفيع.

المبحث الثاني

تفسير آيتي علم الله المطلق ورخصة المحارم (الأحزاب: 54-55) – في رحاب العلم الإلهي وتخفيف الحجاب عن المحارم

مدخل إلى رحاب الآيتين الكريمتين

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني الفريد، الذي يجمع بين إعلان العلم الإلهي المطلق ورخصة المحارم في الحجاب. إنه مشهد يتجلى فيه كمال التشريع الإسلامي، الذي لا يغفل عن خفايا النفوس، ولا يهمل دقائق العلاقات، بل يضع لكل حال حكمها المناسب، ويوازن بين التكليف والتخفيف، بين العام والخاص.

بعد أن أمر الله في الآية (53) بـ الحجاب، وجعل مخاطبة النساء من وراء حجاب، وأكد على طهارة القلوب بهذا التشريع، تأتي هاتان الآيتان لتكملا الصورة التشريعية والتربوية. الآية الأولى (54) تذكر الجميع بأن الله عليم بكل شيء، ما أبدوه وما أخفوه، فلا يمكن التحايل على أحكامه، ولا إخفاء ما في النفوس عنه. والآية الثانية (55) تأتي بـ تخفيف ورخصة، فتبين أن الحجاب ليس مطلوبًا من المحارم، الذين لا فتنة في رؤيتهم، ولا ريبة في مخالطتهم.

يقول الله تعالى:
"إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" (54)
"لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا" (55)

فلنغص معًا في أعماق هاتين الآيتين الكريمتين، ولنستخرج دررهما وحكمهما، بنفس الروح المتأملة و القلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، لنعيش لحظات اليقين بعلم الله، ولحظات التخفيف و التيسير في تشريع الحجاب، وندرك حكمة الله في التشديد والتخفيف، والعام والخاص.

الأمر الأول:
"إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" – إعلان العلم الإلهي المطلق

اللمسة البيانية الأولى: "إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ" – شرط شامل لجميع الأحوال

تبدأ الآية الكريمة بـ "إِن تُبْدُوا" ، وهو شرط يفيد العموم والشمول. فالمعنى: أي شيء، في أي وقت، تحت أي ظرف، إن تظهروه أو تخفوه، فإن الله عليم به. وهذا الشمول يقطع كل عذر، ويسد كل باب للتحايل أو التخفي.

.١"تُبْدُوا" – الإبداء: الإظهار والجهر

"تُبْدُوا" من الإبداء، وهو الإظهار والجهر بالشيء .فما تظهرونه من أقوال وأفعال ونيات، فاللّه عليم به.

.٢"تُخْفُوهُ" – الإخفاء: الستر والكتمان

"تُخْفُوهُ" من الإخفاء، وهو الستر والكتمان .فما تخفونه في صدوركم، وتكتمونه عن الناس، فاللّه عليم به.

.٣"شَيْئًا" – نكرة في سياق الشرط: عموم وشمول

لفظة "شَيْئًا" نكرة في سياق الشرط، فتفيد العموم والشمول. أي: أي شيء كان، كبيرًا أو صغيرًا، جليلا ً أو حقيرًا، في أمر الحجاب أو في غيره.

اللمسة البيانية الثانية: "فَإِنّ اللّهَ كانَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمًا" – جواب الشرط: تقرير العلم الإلهي المطلق

هذا هو جواب الشرط، وهو تقرير وتأكيد على علم الله المطلق بكل شيء.

.١"فَإِنّ" – الفاء الرابطة والتأكيد

الفاء رابطة للجواب، و"إنّ" للتوكيد. فالجواب مؤكد، وثابت، لا شك فيه.

.٢"اللّهَ" – اسم الجلالة: مصدر العلم المطلق

العلم المضاف إلى "اللّه" هو علم كامل، لا يعتريه نقص، ولا يخالطه جهل.

.٣"كانَ" – فعل الكون: دوام وثبوت الصفة

"كانَ" هنا تفيد الدوام والثبوت .فاللّه لم يزل ولا يزال عليمًا بكل شيء.

.٤"بِكلّ شَيْءٍ" – عموم العلم وشموله

"كلّ شَيْءٍ" تفيد العموم والشمول .فعلم اللّه محيط بكل كلي وجزئي، بكل ظاهر وباطن، بكل ماضٍ وحاضر ومستقبل.

.٥"عَلِيمًا" – صيغة المبالغة: سعة العلم وكماله

"عَلِيم" صيغة مبالغة، تدل على سعة علم اللّه وكماله .فهو العليم الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى.

لماذا جاءت هذه الآية في هذا السياق؟

الآية السابقة (53) أمرت بـ الحجاب، ونهت عن الدخول بغير إذن، وإطالة الجلوس، وأذى النبي. وقد يظن ظان أنه يستطيع إخفاء ما في نفسه من اعتراض على هذه الأحكام، أو التحايل عليها، أو التظاهر بالطاعة مع إضمار المعصية. فجاءت هذه الآية لتقول: "انتبهوا! اللّه يعلم ما تظهرون وما تخفون. فلا يمكنكم أن تخفوا عليه شيئًا من اعتراضاتكم، أو تحايلاتكم، أو نياتكم".

وهذا ربط عجيب بين التشريع والعقيدة. فالإيمان بـ علم اللّه المطلق هو الرادع عن المعصية، و الحافز على الطاعة، والضامن لـ الإخلاص في الامتثال.

الرسائل التربوية والنفسية من آية العلم الإلهي المطلق

أ. تربية الضمير الحي والمراقبة الدائمة لله

هذه الآية تغرس في قلب المؤمن أعظم وازع: استشعار مراقبة اللّه. فالمؤمن الذي يوقن بأن اللّه

عليم بكل شيء، يعيش حياته كلها في حالة مراقبة دائمة. فهو يستحي من الله أن يراه حيث نهاه، أو يفتقده حيث أمره.

تطبيق عملي:

· في الخلوة: إذا كنت وحدك، ولا يراك أحد، فتذكر أن الله يراك، وهو عليم بما تفعله .فهذا يمنعك من المعصية، ويدفعك إلى الطاعة.
· في العلن: إذا كنت بين الناس، فتذكر أن الله عليم بـ نيتك، وبما تخفيه في قلبك .فلا تراء الناس بعملك، بل أخلصه لله.

ب. قطع الطريق على التحايل على أحكام الله

كم من الناس من يتحايل على أحكام الله، ويظن أنه يخفي تحايله على الناس، وينسى أن الله عليم بما يخفي وما يعلن! هذه الآية تقول له: "مهما تحايلت، ومهما أخفيت، فإن الله مطلع عليك، وسيحاسبك على تحايلك".

تطبيق معاصر:

· في الحجاب: بعض النساء تتحايل على الحجاب الشرعي، فتلبس طرحة وتظهر شعرها أو رقبتها، وتظن أنها أدت ما عليها .هذه الآية تذكرها بأن الله عليم بما تخفي من شعرها ورقبتها، وأن الحجاب الحقيقي هو ما ستر جميع الزينة.
· في المعاملات: بعض الناس يتحايلون على الربا، أو الرشوة، بتسميتها بغير اسمها .هذه الآية تذكرهم بأن الله عليم بحقيقة ما يفعلون، وسيحاسبهم على نياتهم وأفعالهم.

ج. تحقيق الإخلاص في العبادة والطاعة

المؤمن الذي يستشعر علم الله بـ ما في قلبه، يجتهد في إخلاص نيته لله، لأنه يعلم أن الله لا ينظر إلى صورته، ولا إلى قوله، ولكن ينظر إلى قلبه وعمله.

تطبيق عملي:

· عند الصلاة: لا تكتفِ بـ حركات الصلاة الظاهرة، بل اجتهد في حضور القلب والخشوع، لأن الله عليم بما في قلبك من حضور أو غفلة.
· عند الصدقة: لا تمنّ على الفقير، ولا تؤذه، بل أخفِ صدقتك إن استطعت، لأن الله عليم بصدقتك، وهو يجزيك عليها.
الأمر الثاني:
"لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ..." – رخصة المحارم وتخفيف الحجاب

بعد أن أمر الله بـ الحجاب في الآية (53)، وجعله أصلًا في التعامل مع الأجانب، جاءت هذه الآية لتستثني فئة خاصة من هذا الحكم، وهم المحارم، الذين لا فتنة في رؤيتهم، ولا ريبة في مخالطتهم.

اللمسات البيانية والبلاغية في آية المحارم

.١"لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ" – رفع الحرج والتخفيف

"لَّا جُنَاحَ" أي: لا إثم ولا حرج .وهذا تصريح برفع الحكم العام) وجوب الحجاب (عن هذه الفئة الخاصة .فالحجاب واجب على المرأة أمام الأجانب، ولكنه غير واجب عليها أمام محارمها.

.٢تفصيل المحارم: دقة التشريع وشموله

لاحظ أن الآية فصلت في ذكر أصناف المحارم، ولم تقتصر على لفظ عام. وهذا التفصيل له حكم عظيمة:

· رفع اللبس: حتى لا يختلف الناس في تحديد المحارم، جاءت الآية بـ قائمة واضحة لا غموض فيها.

· التيسير على الأمة: بذكر الأصناف، سهل على النساء معرفة من يحل لهن إبداء زينتهن أمامه.
· إظهار كمال الشريعة: فالشريعة لا تترك الأمور غامضة، بل تفصل وتبين.

.٣تحليل قائمة المحارم في الآية

الصنف بيانه
آبَائِهِنّ الآباء: الأب الحقيقي، والجد من جهة الأب أو الأم، وإن علا.
أَبْنَائِهِنّ الأبناء: الابن الحقيقي، وابن الابن، وابن البنت، وإن نزل.
إِخْوَانِهِنّ الإخوة الأشقاء، أو لأب، أو لأم.
أَبْنَاء إِخْوَانِهِنّ أبناء الإخوة (أولاد الأخ)، وإن نزلوا.
أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنّ أبناء الأخوات (أولاد الأخت)، وإن نزلوا.
نِسَائِهِنّ النساء المؤمنات (الصاحبات والقريبات)، وقيل: النساء عامة.
مَا مَلَكتْ أَيْمَانُهُنّ الإماء المملوكات لهن.

تنبيه: هذه القائمة ليست حصرية لجميع المحارم، بل هناك محارم آخرون ذكروا في آيات أخرى (مثل: الأعمام، والأخوال، وأبناء الزوج، وآباء الزوج...). والآية هنا اقتصرت على هؤلاء لأنهم أكثر المحارم مخالطة ودخولًا إلى البيوت.

لماذا رفع الحجاب عن المحارم؟

أ. انتفاء الفتنة والريبة

المحارم (كالأب، والابن، والأخ) لا تتجه إليهم شهوة المرأة عادة، ولا تتجه شهوتهم إليها (بسبب القرابة والطبع السليم). فانتفاء مظنة الفتنة هو العلة في رفع الحجاب عنهم.

ب. المشقة في الاحتجاب عنهم

هؤلاء المحارم يعيشون مع المرأة في بيت واحد، أو يترددون عليها كثيرًا. فلو ألزمت بالحجاب أمامهم ، لكان في ذلك حرج ومشقة عليها. فجاءت الرخصة رفعًا للحرج، وتيسيرًا عليها.

ج. الحاجة إلى المخالطة والخدمة

المرأة تحتاج إلى خدمة محارمها (كالأب والابن والأخ)، ويحتاجون إلى خدمتها. فرفع الحجاب يسهل هذه المخالطة والتعاون داخل الأسرة الواحدة.

الرسائل التربوية والنفسية من آية المحارم

أ. التوازن بين التشديد والتخفيف في الشريعة

هذه الآية تظهر التوازن العجيب في الشريعة الإسلامية. فهي تشدد في الحجاب مع الأجانب (سدًا للذريعة، وحماية للمجتمع)، وتخفف فيه مع المحارم (رفعًا للحرج، وتيسيرًا للحياة). وهذا التوازن هو سمة الشريعة في كل أحكامها.

ب. تعريف المرأة بمحارمها: صيانة لها وحماية

بذكر قائمة المحارم، تعرف المرأة من يحل لها أن تبدي زينتها أمامه، ومن لا يحل. وهذا يحفظها من الوقوع في الحرام بغير علم، ويحميها من الخضوع بالقول أو التبرج أمام غير المحارم.

تطبيق عملي:

· تعلمي محارمك: احفظي قائمة المحارم من القرآن والسنة .واعلمي أن ابن العم وابن الخال وزوج الأ خت وأخو الزوج ...ليسوا من المحارم، فلا تبدي زينتك أمامهم.
· علمي بناتك محارمهن: منذ الصغر، علميهن من هو محرم ومن هو أجنبي .فهذا يغرس فيهن الحياء والعفاف، ويعدهن لـ الالتزام بالحجاب عند البلوغ.

ج. الحجاب ليس انعزالًا عن الأسرة والمجتمع

قد يظن البعض أن الحجاب يعني انعزال المرأة عن أسرتها ومجتمعها. هذه الآية ترد على هذا الظن، وتبين أن الحجاب هو للأجانب فقط، أما المحارم فللمرأة أن تتزين أمامهم، وأن تخالطهم، وأن تشاركهم حياتهم. وهذا يحفظ للمرأة دورها الأسري والاجتماعي، دون تفريط في عفتها وكرامتها.
الأمر الثالث:
"وَاتقِينَ اللهَ ۚ إِنّ اللهَ كانَ عَلىٰ كلّ شَيْءٍ شَهيدًا" – ختم الآية بالأمر بالتقوى وصفة الشهادة

بعد أن بين الله رخصة المحارم، ورفع الحرج عن النساء في إبداء زينتهن لهم، ختم الآية بهذا الأمر ا لإلهي العظيم: "وَاتقِينَ اللهَ"، وأردفه ب- "إِنّ اللهَ كانَ عَلىٰ كلّ شَيْءٍ شَهيدًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الختم

.١"وَاتقِينَ" – أمر خاص بالنساء: تأكيد على مسؤوليتهن

"وَاتقِينَ" خطاب للنساء خاصة، وهو أمر ب- التقوى .فبعد أن رخص لهن في إبداء زينتهن للمحارم، أمرهن ب- التقوى، لئلا يتجاوزن حدود الرخصة، أو يتساهلن في الحجاب مع غير المحارم.

.٢"اللهَ" – التقوى لله وحده

التقوى لله، لا للناس، ولا للعادات، ولا للتقاليد. فلتتقين الله في التزامكن بالحجاب مع الأجانب، وفي عدم التبرج أمام المحارم بما لا يليق.

.٣"إِنّ اللهَ كانَ عَلىٰ كلّ شَيْءٍ شَهيدًا" – تعليل الأمر بالتقوى

هذا تعليل للأمر ب- التقوى. فالله شهيد على كل شيء، يرى ما تفعلنه، ويسمع ما تقلنه، ويعلم ما تخفينه. فلتتقين الله، ولتحذرن مخالفته، فإنه شهيد عليكن، مطلع على سرائركن.

الفرق بين "عليمًا" (في الآية 54) و"شهيدًا" (في الآية 55):

· "عليمًا" تدل على سعة العلم وإحاطته بكل شيء.
· "شَهيدًا" تدل على الحضور والمشاهدة، وأن الله يرى ويسمع كل شيء.

والجمع بينهما في الآيتين يعطي صورة متكاملة: الله عليم بما في القلوب، وشهيد على الأعمال الظاهرة. فلا يخفى عليه شيء من أمركن، لا في الباطن ولا في الظاهر.

الرسائل التربوية والنفسية من ختم الآية بالأمر بالتقوى وصفة الشهادة

أ. التربية على مراقبة الله في الخلوات والجلوات

الأمر ب- "وَاتقِينَ" مع "شَهيدًا" يربي المرأة المسلمة على مراقبة الله في كل أحوالها. فهي تتقي الله في خلوتها مع محارمها (فلا تتبرج تبرجًا فاحشًا)، وتتقي الله في خروجها (فتلتزم بالحجاب الشرعي الكامل).

تطبيق عملي:

· في البيت مع المحارم: لا تلبسي من الثياب ما يصف أو يشف، ولا تتعمدي لفت أنظارهم إلى مفاتنك .تذكري أن الله شهيد عليك.
· في الخارج مع الأجانب: التزمي بالحجاب الكامل) الفضفاض، غير الشفاف، الساتر لجميع البدن .(تذكري أن الله شهيد عليك، وأن ملائكته يكتبون ما تفعلين.

ب. أن الرخصة لا تعني إباحة كل شيء

رفع الحجاب عن المحارم ليس رخصة مطلقة، بل هي رخصة مقيدة ب- التقوى. فلا يجوز للمرأة أن تتبرج أمام محارمها، أو تلبس ما لا يليق، أو تتعمد إثارة شهواتهم. فعليها أن تتقي الله، وأن تستشعر أنه شهيد عليها.

تطبيق معاصر:

· أمام الأب والأخ: لا تلبسي الملابس الضيقة جدًا، أو الشفافة، أو القصيرة التي تكشف عن الساقين أو الفخذين .تذكري أن الله شهيد عليك، وأن الحياء هو زينة المرأة المسلمة.
· أمام النساء: حتى أمام النساء، لا تتبرجي تبرجًا فاحشًا، كأن تكشفي عن العورة المغلظة .فإن الله شهيد عليك.

ج. أن التقوى هي الضمان لعدم تجاوز حدود الله

الأمر ب- "وَاتقِينَ" هو الضمان الوحيد لعدم تجاوز حدود الله في الحجاب وغيره. فالمرأة التي تتقي الله، لا تتحايل على أحكام الحجاب، ولا تتهاون فيه، ولا تتبرج أمام غير المحارم، لأنها تخاف من الله ، وتستحي منه.
الأمر الرابع:
كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآيتين، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.تربية النفس والأبناء على استشعار علم الله وشهادته

التطبيق العملي:

· ذكرهم دائمًا بأن الله يراهم: إذا رأيت طفلك يهم بمعصية في الخلوة، فذكره بأن الله يراه، وأن الله عليم بما يفعل، وشهيد عليه.
· قصص من السيرة: احكِ لهم قصص السلف في مراقبة الله .مثل قصة تلك الفتاة التي كانت تخلط اللبن بالماء، فذكرتها أمها بأن عمر بن الخطاب لا يراها، فقالت: "إن كان عمر لا يرانا، فإن رب عمر يرانا".
· التطبيق العملي: إذا وجدت مالا ً في الطريق، ولا أحد يراك، فرده إلى صاحبه، وقل في نفسك: " الله يراني، وأنا أستحي أن يراني الله آخذ ما ليس لي".

٢.الالتزام بالحجاب الشرعي الكامل أمام الأجانب

التطبيق العملي:

· تعلمي شروط الحجاب الشرعي:) ساتر لجميع البدن، فضفاض غير ضيق، غير شفاف، ليس فيه زينة لافتة، ليس فيه تشبه بالرجال أو الكافرات.(
· لا تتحايلي على الحجاب: لا تلبسي طرحة وتظهري شعرك أو رقبتك .لا تلبسي عباءة وتتعطري أو تتزيني بزينة لافتة .تذكري أن الله عليم بما تخفين.
· كوني قدوة لغيرك: إذا رأتك امرأة أخرى ملتزمة بالحجاب الكامل، فستقتدي بك، ولك أجرها.

٣.عدم التبرج أمام المحارم بما لا يليق

التطبيق العملي:

· في البيت: اجعلي لك ملابس للبيت) مريحة، محتشمة، تليق بمحارمك(، وملابس للخروج) للأجانب .(ولا تجعلي ملابس البيت ضيقة جدًا أو شفافة.
· احترمي مشاعر محارمك: لا تتعمدي لفت أنظارهم إلى مفاتنك، ولا تتحدثي معهم بصوت خاضع . تذكري أن الشيطان قد يزين حتى للمحارم، فعليك بالتقوى.

٤.تعليم الأبناء حدود المحارم والأجانب

التطبيق العملي:

· علمي بناتك محارمهن: احفظيهن قائمة المحارم، وعلميهن أن الحجاب واجب أمام غير المحارم) مثل: أبناء العم، أبناء الخال، أبناء الخالة.(...

· علمي أبناءك غض البصر: "قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ" .دربهم على عدم النظر إلى النساء الأجنبيات، وخاصة في وسائل الإعلام والشوارع.
· عوديهم على الاستئذان: دربهم على الاستئذان قبل الدخول على أمهاتهم وأخواتهم في أوقات الخلوة)قبل الفجر، بعد العشاء، وقت القيلولة.(

.٥استشعار لطف الله في التخفيف والتيسير

التطبيق العملي:

· احمدي الله على رخصته في رفع الحجاب عن المحارم .فهذا من تيسيره ورحمته بعباده.
· لا تشددي على نفسك في غير موضع التشديد .فالله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.
خامسًا: القيم المستفادة من الآيتين 54-55

القيمة تجلياتها في الآيتين
الإيمان بعلم الله المطلق "إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" – علم الله محيط بكل شيء.
مراقبة الله في السر والعلن استشعار علم الله وشهادته يدفع إلى تقوى الله.
التوازن بين التشديد والتخفيف تشديد الحجاب مع الأجانب، وتخفيفه مع المحارم.
تحديد المحارم بوضوح "لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ..." – قائمة واضحة بالمحارم.
التقوى هي الضمان لعدم تجاوز الحدود "وَاتَّقِينَ اللَّهَ" – التقوى تمنع من التهاون في الحجاب.
الله شهيد على كل شيء "إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا" – استشعار رقابة الله.
عدم التحايل على أحكام الله الله عليم بما نخفي، فلا ينفع التحايل.
التيسير ورفع الحرج "لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ" – رفع الحرج عن النساء مع محارمهن.
صيانة المجتمع من الفتن الحجاب مع الأجانب يمنع الفتنة، والرخصة مع المحارم تمنع الحرج.
خاتمة: في رحاب العلم الإلهي والتيسير الشرعي

في الختام، نقف بخشوع أمام هاتين الآيتين الكريمتين، اللتين تكشفان لنا جانبًا مشرقًا من كمال الشريعة الإسلامية، التي تجمع بين التشديد في مواضع الحزم، والتخفيف في مواضع الرحمة، وتغرس في النفوس أعظم وازع: استشعار علم الله وشهادته.

لقد علمتنا هاتان الآيتان أن:

· الله عليم بكل شيء، ما أبديناه وما أخفيناه، فلا يمكننا أن نخفي عنه شيئًا من أعمالنا أو نياتنا.
· الحجاب أصل واجب مع الأجانب، ولكن المحارم لهم رخصة وتخفيف، رفعًا للحرج، وتيسيرًا للحياة.
· التقوى هي الضمان لعدم تجاوز حدود الله، والالتزام بـ أحكام الحجاب وغيرها.
· الله شهيد على كل شيء، يرانا ويسمعنا، فعلينا أن نستحي منه، ونراقبه في كل أحوالنا.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نستشعر علم الله وشهادته في كل لحظة من حياتنا. ولنلتزم – أيتها المرأة المسلمة – بـ الحجاب الشرعي الكامل أمام الأجانب، ولتتقي الله في محارمها، فلا تتبرج أمامهم بما لا يليق. ولنعلم أن الله بنا رؤوف رحيم، شرع لنا ما يصلحنا، ويسر لنا سبل الهداية..
القسم الثامن
تتناول ايات هذا القسم تحريم ايذاء الله تعالى ورسوله والمؤمنين
.تفسير آيات الصلاة على النبي ووعيد المؤذين (الأحزاب: 56-58) – في رحاب التكريم النبوي وحرمة المؤمنين

مدخل إلى رحاب الآيات الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني المهيب، الذي يجمع بين أعلى مقامات التكريم وأشد ألوان الوعيد .إنه مشهد يتجلى فيه مقام النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه، وتظهر فيه حرمته ومنزلته التي لم يبلغها أحد من العالمين .ثم يمتد شعاع الحرمة من جناب النبي ليشمل كل مؤمن ومؤمنة، فيعلن القرآن أن أذى المؤمنين جريمة لا تقل شناعة عن أذى النبي نفسه.

تبدأ هذه اللوحة الربانية بإعلان عظيم يهز الوجدان: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ" .الله – سبحانه – يصلي على نبيه، وملائكته يصلون عليه! فأي شرف هذا؟ وأي مقام هذا؟ ثم يأتي النداء

للمؤمنين: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" .إنها دعوة للانضمام إلى هذا الموكب النوراني ، موكب الصلاة والسلام على خير الأنام.

ثم تنعطف الآيات إلى الوجه الآخر: الوعيد الشديد لمن يؤذي الله ورسوله ."لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا" .لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة، وعذاب مهين! ما أشدها من عقوبة!

ثم يختم المقطع بإلحاق أذى المؤمنين بأذى الله ورسوله: "وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا" .فحرمة المؤمن عند الله عظيمة، وأذاه جريمة كبرى.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآيات الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، لنعيش لحظات التكريم النبوي، ونرتعد من شدة الوعيد، ونعي حرمة المؤمنين في ميزان الله.
الأمر الأول:
"إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ" – إعلان الصلاة الإلهية والملائكية على النبي

اللمسة البيانية الأولى: "إِنَّ اللَّهَ" – افتتاح بالتوكيد والتعظيم

تبدأ الآية الكريمة بـ "إِنَّ اللَّهَ"، وهي صيغة توكيد وتعظيم .فكأن الله يقول: "حقًا ويقينًا، إن الله – بجلاله وعظمته – يصلي على نبيه" .وهذا الافتتاح يهيئ القلب لتلقي الخبر العظيم، ويجعله متشوقًا لمعرفة مضمونه.

١."إِنَّ" – تأكيد الخبر وتقريره

"إِنَّ" تفيد التوكيد، فالمعنى: "إنه لخبر عظيم، فاعلموه وتيقنوه".

٢."اللَّهَ" – اسم الجلالة: مصدر الصلاة

الصلاة هنا صادرة من الله، مالك الملك، رب العالمين .وهذا يكفي لبيان عظم هذه الصلاة وجلالة شأنها.

اللمسة البيانية الثانية: "وَمَلَائِكَتَهُ" – مشاركة الملائكة في الصلاة: تشريف وتكريم

لم يكتفِ الله بأن يصلي هو على نبيه، بل أشرك ملائكته في هذه الصلاة .وهذا تكريم عظيم للنبي صلى الله عليه وسلم، أن يكون موضع صلاة الله وصلاة ملائكته المقربين.

١."وَمَلَائِكَتَهُ" – عطف على اسم الجلالة: رفع لمقام الملائكة

عطف الملائكة على الله في هذا المقام هو تشريف للملائكة أيضًا، لأنهم يشاركون الله في الصلاة على النبي .وهذا يدل على علو مقامهم وطهارتهم.

٢."يُصَلُّونَ" – صيغة المضارع: التجدد والاستمرار

صيغة المضارع "يُصَلُّونَ" تفيد التجدد والاستمرار .فصلاة الله وملائكته على النبي متجددة في كل وقت، مستمرة لا تنقطع.

ما معنى صلاة الله على النبي؟
اختلفت عبارات العلماء في معنى صلاة الله على النبي، وكلها ترجع إلى معانٍ عظيمة:

· الثناء عليه في الملأ الأعلى: فالله يثني على نبيه، ويذكر محاسنه وفضائله عند ملائكته المقربين.
· الرحمة والبركة: صلاة الله على النبي تعني الرحمة والبركة والخير العميم الذي يفيضه الله عليه.
· التعظيم والتكريم: صلاة الله على النبي تعني تعظيمه وتكريمه ورفع ذكره.

ما معنى صلاة الملائكة على النبي؟
صلاة الملائكة على النبي هي: دعاؤهم له بالرحمة والمغفرة ورفع الدرجات، واستغفارهم له، وثناؤهم عليه.

الرسائل التربوية والنفسية من صلاة الله وملائكته على النبي

أ .بيان عظيم مقام النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه

هذه الآية تكشف عن مكانة النبي عند الله، مكانة لم يبلغها أحد من البشر .فالله يصلي عليه، وملا ئكته يصلون عليه! وهذا يكفي المؤمن فخرًا واعتزازًا بنبيه، ويدفعه إلى محبته واتباعه.

تطبيق عملي:
عندما تقرأ هذه الآية، استشعر عظمة نبيك، وافتخر بأنك من أمته .واعلم أن شرفك وكرامتك مستمدة من شرف نبيك وكرامته.

ب .الدعوة إلى الإكثار من الصلاة على النبي

لما كان الله وملائكته يصلون على النبي، كان حريًا بالمؤمنين أن يشاركوا في هذه الصلاة، وأن يكثروا منها .وهذا هو مقتضى الأدب والمحبة والوفاء.

تطبيق معاصر:
في زمن المشاغل والملهيات، قد يغفل المسلم عن الصلاة على النبي .هذه الآية تذكره بأن الصلاة على النبي هي عبادة عظيمة، وقربة جليلة، ووسيلة لنيل الشفاعة والقرب من النبي يوم القيامة.
الأمر الثاني:
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" – أمر المؤمنين بالصلاة والسلام على النبي

بعد أن أخبر الله بأنه يصلي على النبي وملائكته يصلون عليه، جاء بالأمر للمؤمنين: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الأمر

١."يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" – نداء الإيمان: ربط الصلاة على النبي بالإيمان

هذا النداء يذكر المؤمنين بأن الإيمان يقتضي محبة النبي، وتعظيمه، والصلاة عليه .فمن كان إيمانه صادقًا، فإنه يكثر من الصلاة على النبي.

٢."صَلُّوا عَلَيْهِ" – الأمر بالصلاة

"صَلُّوا" أمر من الصلاة، وهو يفيد الوجوب) عند بعض العلماء (أو الاستحباب المؤكد) عند الجمهور .(و المقصود: ادعوا الله أن يصلي على نبيه، بأن تقولوا: "اللّهم صلّ على محمد".

٣."وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" – الأمر بالتسليم مع التوكيد بالمصدر

"وَسَلِّمُوا" أمر من التسليم، وهو الدعاء بالسلامة للنبي .والتسليم هو قول: "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته" في الصلاة، وقول: "السلام عليكم" في التحية.

وقوله: "تَسْلِيمًا" – وهو مفعول مطلق – يفيد تأكيد الأمر بالتسليم، والمبالغة فيه .فالمعنى: سلِّموا تسليمًا كاملًا، بليغًا، خالصًا.

الفرق بين الصلاة والتسليم

· الصلاة على النبي: هي طلب الرحمة والبركة والثناء من الله لنبيه.
· التسليم على النبي: هو الدعاء له بالسلامة من كل سوء، والتحية له.

وقد جمع الله بينهما في هذه الآية، ليكتمل التكريم والتعظيم.

كيف نصلي ونسلم على النبي صلى الله عليه وسلم؟

وردت صيغ متعددة للصلاة على النبي، منها:

· الصلاة الإبراهيمية: "اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد .اللّهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد".
· الصيغة المختصرة: "صلى الله عليه وسلم" عند كتابة اسمه، أو ذكره.

الرسائل التربوية والنفسية من الأمر بالصلاة والسلام على النبي

أ .الصلاة على النبي: عبادة عظيمة وأجر كبير

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ليست مجرد كلمات تقال باللسان، بل هي عبادة عظيمة، وقربة جليلة، وسبب لنيل الشفاعة ورفع الدرجات ومغفرة الذنوب.

تطبيق عملي:

· اجعل لك وردًا يوميًا من الصلاة على النبي: ولو مائة مرة في اليوم .قال صلى الله عليه وسلم: "من صلى عليّ واحدة، صلى الله عليه بها عشرًا") رواه مسلم.(
· أكثر من الصلاة على النبي يوم الجمعة: قال صلى الله عليه وسلم: "إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ...فأكثروا عليّ من الصلاة فيه") رواه أبو داود.(

ب .الصلاة على النبي: دليل على المحبة والوفاء

من أحب النبي صلى الله عليه وسلم، أكثر من الصلاة عليه .فالصلاة على النبي هي مظهر من مظاهر المحبة والوفاء، وهي تعبير عن الشكر لهذا النبي العظيم الذي هدانا الله به، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور.

تطبيق نفسي:
عندما تصلي على النبي، استحضر محبته في قلبك، وتذكر فضله عليك، وتألمه من أجل هدايتك .فهذا يزيد إيمانك، ويرقق قلبك.

ج .الصلاة على النبي: سبب لتفريج الهموم وتيسير الأمور

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم أسباب تفريج الهموم، وتيسير الأمور، وقضاء الحوائج .قال أبي بن كعب رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: "ما شئت" .قلت: الربع؟ قال: "ما شئت، فإن زدت فهو خير لك" .قلت: الثلثين؟ قال: "ما شئت، فإن زدت فهو خير لك" .قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: "إذًا تُكفى همك، ويُغفر ذنبك")رواه الترمذي وصححه.(

تطبيق معاصر:
إذا ضاقت بك الدنيا، وأحاطت بك الهموم، فالجأ إلى الصلاة على النبي .أكثر منها، واجعلها دأبك، وسترى الفرج من عند الله.
الأمر الثالث:
"إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا" – وعيد شديد لمن يؤذي الله ورسوله

بعد أن كرم الله نبيه، وأمر المؤمنين بالصلاة والسلام عليه، جاء بهذا الوعيد الشديد لمن يؤذي الله ورسوله .وهذا هو الوجه الآخر للموضوع: تحريم أذى النبي وبيان عاقبته الوخيمة.

اللمسات البيانية والبلاغية في آية الوعيد

١."إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ" – بيان الجريمة: أذى الله ورسوله

"إِنَّ" للتوكيد، و"الَّذِينَ" اسم موصول للعموم .فكل من آذى الله ورسوله، فهو داخل في هذا الوعيد.

ما هو أذى الله؟
أذى الله لا يعني إيقاع الأذى بالله) تعالى الله عن ذلك(، بل هو أذى رسوله، وأذى أوليائه، والاستهزاء

بآياته، والكفر به، ونسبة الولد والشريك إليه .فكل هذا يؤذي الله بمعنى يغضبه ويسخطه.

ما هو أذى الرسول؟
أذى الرسول يشمل:

· سبه وشتمه.
· الاستهزاء به أو بشيء مما جاء به.
· الكذب عليه، ونسبة ما لم يقله إليه.
· الطعن في عرضه أو أزواجه أو أهل بيته.
· إيذاؤه في حياته بالقول أو الفعل.

.٢"لَعَنَهُمُ اللهُ" – اللعنة: الطرد والإبعاد من رحمة الله

"اللعنة" هي الطرد والإبعاد من رحمة الله .فمن لعنهم الله، فقد حرمهم رحمته، وأبعدهم عن جنته.

.٣"فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ" – شمول اللعنة للدنيا والآخرة

"فِي الدُّنْيَا" أي: مطرودون من رحمة الله في الدنيا، محرومون من التوفيق والسعادة والبركة.
"وَالآخِرَةِ" أي: مطرودون من رحمة الله يوم القيامة، محرومون من الجنة، مستحقون للعذاب.

.٤"وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا" – زيادة الوعيد بعذاب مهين

"وَأَعَدَّ" أي: هيأ وجهز لهم في الآخرة عذابًا مهينًا .ووصف العذاب بأنه "مُهين" يفيد أنه عذاب فيه إذلا ل وإهانة، يخزيهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد، جزاء إيذائهم لله ورسوله.

الرسائل التربوية والنفسية من آية الوعيد

أ .تعظيم حرمة النبي صلى الله عليه وسلم في قلوب المؤمنين

هذه الآية تزرع في قلب المؤمن هيبة عظيمة لجناب النبي، وخوفًا شديدًا من الوقوع في أذاه .ف المؤمن يحب النبي، ويعظمه، ويذب عنه، ولا يمكن أن يؤذيه بقول أو فعل.

تطبيق معاصر:
في عصر الاستهزاء والتطاول على المقدسات، يجب على المسلم أن يكون شديد الغيرة على عرض النبي، وأن يدافع عنه بكل وسيلة مشروعة، وألا يسمح لأحد أن ينال منه أو يسخر منه.

ب .أن أذى النبي ليس كأذى غيره

هذه الآية تبين أن أذى النبي جريمة عظيمة، وعقوبتها شديدة .فمن آذى النبي، فقد آذى الله، واستحق اللعنة في الدنيا والآخرة، والعذاب المهين .وهذا يختلف عن أذى عامة الناس) وإن كان أذاهم محرمًا أيضًا.(

ج .وجوب الذب عن عرض النبي والدفاع عنه

المؤمن الذي يسمع من يسب النبي أو يستهزئ به، لا يجوز له أن يسكت أو يقر هذا المنكر، بل يجب عليه أن ينكره بقلبه، فإن استطاع فبلسانه، فإن استطاع فبيده .وهذا من تمام محبته للنبي، وتعظيمه له.
الأمر الرابع:
"وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا" – حرمة أذى المؤمنين وامتداد حرمة النبي إليهم

بعد أن بين الله وعيد من يؤذي الله ورسوله، ألحق به وعيد من يؤذي المؤمنين والمؤمنات .وهذا يدل على عظم حرمة المؤمن عند الله، وأن أذاه جريمة لا تقل شناعة عن أذى النبي) وإن تفاوتت العقوبة.(

اللمسات البيانية والبلاغية في آية أذى المؤمنين

.١"وَالذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ" – شمول الحكم للرجال والنساء

لاحظ أن الآية فصلت بين المؤمنين والمؤمنات، مع أن لفظ "المؤمنين" يشمل الجنسين غالبًا .وهذا التفصيل للتأكيد على شمول الحكم، وأن أذى المؤمنات لا يقل شناعة عن أذى المؤمنين.

.٢"بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا" – قيد مهم: الأذى بغير جريمة

هذا القيد – "بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا" – يبين أن الأذى المحرم هو ما كان بغير حق .أي: يؤذونهم وهم أبرياء ، لم يقترفوا ذنبًا، ولم يرتكبوا جرمًا يستوجب هذا الأذى .أما إذا أوذي المؤمن بسبب جريمة ارتكبها)كأن يقام عليه الحد، أو يعاقب على معصية(، فهذا ليس من الأذى المحرم، بل هو إقامة للعدل.

.٣"فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا" – بيان عظم الجريمة

"احْتَمَلُوا" أي: حملوا على ظهورهم، وتحملوا وزر بهتان وإثم مبين.

· "بُهْتَانًا" : البهتان هو الكذب الذي يبهت المظلوم، ويدهشه لشدته .وهو أشد أنواع الكذب.
· "وَإِثْمًا مُبِينًا" : والإثم المبين هو الذنب الواضح الذي لا شبهة فيه.

فالمؤذي للمؤمنين يجمع بين الكذب) البهتان (والعدوان) الإثم(، وكلاهما جرم عظيم.

لماذا ألحق أذى المؤمنين بأذى الله ورسوله؟

هذا الإلحاق يدل على عظم حرمة المؤمن عند الله .فالمؤمن هو ولي الله، وحبيبه، وأهل طاعته .فمن آذاه، فقد تعرض لسخط الله، واستحق عقوبته.

قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب") رواه البخاري .(فإذا كان أذى ولي الله إيذانًا بحرب من الله، فكيف تكون عاقبته؟!

الرسائل التربوية والنفسية من آية أذى المؤمنين

أ .حرمة أعراض المؤمنين: لا للغيبة والنميمة والبهتان

هذه الآية تؤسس لقاعدة عظيمة في المجتمع المسلم: حرمة أعراض المؤمنين .فلا يجوز اغتيابهم، ولا النميمة بينهم، ولا بهتانهم، ولا أذيتهم بأي قول أو فعل.

تطبيق عملي:

· لا تغتب أحدًا: إذا ذكرت أخاك المسلم بما يكره في غيابه، فقد اغتبته، وآذيته، وتحملت بهتانًا وإثمًا مبينًا.
· لا تنم بين الناس: النميمة هي نقل الكلام بين الناس للإفساد بينهم، وهي من كبائر الذنوب، وسبب للعذاب في القبر.
· لا تبهت أحدًا: البهتان هو الكذب على البريء، وهو أشد حرمة من الغيبة.

ب .صيانة المجتمع المسلم من الأحقاد والضغائن

عندما يلتزم المسلمون بحرمة أعراض بعضهم بعضًا، فإنهم يصونون مجتمعهم من الأحقاد والضغائن و الخصومات .فالمجتمع الذي تكثر فيه الغيبة والنميمة والبهتان، هو مجتمع مفكك، تسوده الكراهية و العداوة.

تطبيق معاصر:
في عصر وسائل التواصل الاجتماعي، انتشرت الغيبة والنميمة والبهتان انتشارًا هائلا ً .فكم من مسلم اغتاب أخاه في تغريدة! وكم من مسلمة نمت بين صديقاتها في مجموعة واتساب! هذه الآية تحذر من هذا كله، وتذكر بأن عاقبته وخيمة.

ج .أن أذى المؤمن ليس كأذى الكافر

لاحظ أن الآية خصت "الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ" بالذكر .وهذا يدل على أن أذى المؤمن أشد حرمة من أذى الكافر .فالمؤمن له حرمة وكرامة عند الله، وأذاه جريمة عظيمة.
الأمر الخامس:
كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآيات، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.الإكثار من الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم

التطبيق العملي:

· اجعل لك وردًا يوميًا: صلِّ على النبي مائة مرة على الأقل يوميًا .ويمكنك توزيعها على أوقات اليوم: بعد الصلوات، في أوقات الانتظار، قبل النوم.
· أكثر من الصلاة على النبي يوم الجمعة: خصص وقتًا أطول للصلاة على النبي يوم الجمعة وليلتها.
· علم أبناءك الصلاة على النبي: غرس فيهم حب النبي، وعلمهم الصلاة عليه منذ الصغر.

٢.الذب عن عرض النبي صلى الله عليه وسلم والدفاع عنه

التطبيق العملي:

· إذا سمعت من يسب النبي أو يستهزئ به: فأنكر عليه بقدر استطاعتك .فإن لم تستطع، فغادر المجلس، ولا تشاركهم في إثمهم.
· انشر سيرة النبي وأخلاقه: الدفاع عن النبي لا يكون فقط بالرد على المسيئين، بل يكون أيضًا بنشر سيرته العطرة، وبيان أخلاقه الكريمة، وإظهار محاسن دينه.
· ادعم المؤسسات والجهات التي تدافع عن النبي: بالمال، أو بالجهد، أو بالنشر.

٣.صيانة أعراض المؤمنين: لا للغيبة والنميمة والبهتان

التطبيق العملي:

· قبل أن تتحدث عن أحد: اسأل نفسك: "هل هذا الكلام مما يكرهه؟ هل هو حق؟ هل هناك ضرورة لذكره؟" .فإن كان غيبة، فامتنع.
· إذا سمعت غيبة: فأنكر بقلبك) وهذا أضعف الإيمان(، فإن استطعت فـ بلسانك) بكلمة: "اتق الله، هذا غيبة"(، فإن استطعت فـ غادر المجلس.
· لا تشارك في نشر الإشاعات: تأكد من صحة الأخبار قبل نشرها، ولا تكن أداة في إيذاء الأبرياء.

٤.استشعار عظم حرمة المؤمن عند الله

التطبيق العملي:

· عامل المؤمنين بالحسنى: أحب لهم ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك.
· لا تحتقر أحدًا من المؤمنين: فكل مؤمن له حرمة وكرامة عند الله، وإن كان فقيرًا أو ضعيفًا.
· انصر أخاك المؤمن: إذا رأيت مؤمنًا يُظلم أو يُؤذى، فانصره بقدر استطاعتك.
سادسًا: القيم المستفادة من الآيات56 -58

القيمة تجلياتها في الآيات
عظيم مقام النبي صلى الله عليه وسلم "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ" – الله يصلي عليه وملا ئكته.
وجوب الصلاة والسلام على النبي "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا" – أمر إلهي بالصلاة والسلام.
تعظيم حرمة النبي "إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ" – وعيد شديد لمن يؤذيه.
شمول اللعنة للدنيا والآخرة "لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" – الطرد من رحمة الله في الدارين.
العذاب المهين للمؤذين "وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا" – عذاب فيه إذلال وخزي.

حرمة أذى المؤمنين "وَالذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ" – أذى المؤمن جريمة عظيمة.
البهتان والإثم المبين "فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا" – أذى المؤمنين كذب وعدوان.
صيانة المجتمع المسلم حرمة الأعراض تحمي المجتمع من الأحقاد والضغائن.
الذب عن عرض النبي والمؤمنين وجوب الدفاع عن النبي، وعن أعراض المؤمنين.
خاتمة: في رحاب الصلاة على النبي وحرمة المؤمنين

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآيات الكريمة، التي تجمع بين أعلى مقامات التكريم) الصلاة على النبي (وأشد ألوان الوعيد) لعنة الله والعذاب المهين(، ثم تمتد حرمة النبي إلى حرمة كل مؤمن ومؤمنة.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· النبي صلى الله عليه وسلم له مقام عظيم عند ربه، حيث يصلي الله عليه وملائكته، وأمرنا أن نصلي ونسلم عليه.
· أذى النبي جريمة لا تغتفر، وعقوبتها اللعنة في الدنيا والآخرة، والعذاب المهين.
· أذى المؤمنين جريمة عظيمة، وهي بهتان وإثم مبين، لأن حرمة المؤمن عند الله عظيمة.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نكثر من الصلاة والسلام على خير الأنام، وأن نذب عن عرضه، وأن نصون أعراض إخواننا المؤمنين، فلا نغتابهم، ولا ننم بينهم، ولا نبهتهم، حتى نكون من عباد الله الصالحين، الذين يحبهم الله ويحبونه.
القسم التاسع
تتناول الايه وجوب ستر عورات النساء المؤمنات وضروره التميز عن سائر النساء خاصه عندما يكون في المجتمع المختلط مسلمات وغير مسلمات .

تفسير آية الحجاب (الأحزاب: 59) – إعلان العفة والكرامة وصيانة المرأة في المجتمع

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني العظيم، الذي لا يتحدث عن قطعة قماش تغطي جسدًا، بل يرسم لوحة ربانية من العفة والكرامة والصيانة. إنها آية تتوج رحلة التشريع في سورة الأحزاب، وتضع التاج على رأس المرأة المسلمة، لا لتقيدها، بل لتحررها من نظرات السفهاء، وأطماع الفساق، وأذى المتربصين.

في هذه الآية الكريمة، نرى الإسلام وهو يصنع المجتمع الطاهر، ويحمي أعراضه، ويصون نساءه. إنه يأخذ المرأة – التي كانت في الجاهلية سلعة تبتذل، وعارًا تخفى – فيرفعها إلى مقام العزة والكرامة، ويجعلها جوهرة مصونة، لا ينال منها إلا من استحقها بعقد شرعي كريم.

إنها الآية التي تعلن: "الحجاب ليس سجنًا، بل هو حصن". ليس تقييدًا، بل تحريرًا. ليس تخلفًا، بل رقيًا حضاريًا يصون المرأة من أن تكون سلعة رخيصة في سوق الشهوات.

يقول الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا"

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، ليؤسس لمجتمع طاهر، ولمرأة مصونة، ولحضارة إنسانية راقية، في زمن اختلطت فيه المفاهيم، وانعكست فيه الموازين، وأصبح التعري "تحضرًا"، والعفاف "تخلفًا"!
الأمر الأول:
"يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ" – وساطة النبوة وشمولية التشريع

اللمسة البيانية الأولى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" – نداء التشريف والتكليف معًا

تبدأ الآية الكريمة بهذا النداء العلوي العظيم: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ". إنه نداء يتكرر في مواطن التشريع الخاص والتوجيه المباشر للنبي صلى الله عليه وسلم. فلماذا خصه الله بهذا النداء هنا؟

١.الوصف بـ "النبي" – إشارة إلى مقام التلقي الخاص

اختيار وصف "النبي" دون "الرسول" له دلالته العميقة. فالنبوة هي مقام الاتصال الخاص بالله، وتلقي الوحي والتشريع. وهذه الآية تتضمن تشريعًا عظيمًا يتعلق بنساء الأمة جميعًا، ابتداءً من أهل بيت النبي. فناسب أن ينادى بـ "النبي"، لأنه المتلقي لهذا التشريع من ربه، والمبلغ عنه.

٢.النداء قبل التشريع – تهيئة نفسية وتكريم

حين يوجه الله الخطاب لنبيه بـ "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ"، ثم يتبعه بـ "قُل"، فإن في ذلك تهيئة نفسية للنبي صلى الله عليه وسلم لتلقي هذا التشريع، وتكريمًا له بأن يخصه بخطابه، ويجعله الواسطة في تبليغ هذا الحكم العظيم لأهل بيته ولنساء المؤمنين.

اللمسة البيانية الثانية: "قُل" – وساطة النبوة في التبليغ

لم يوجه الله الخطاب للنساء مباشرة، بل قال: "قُل". وهذا الأسلوب – الوساطة النبوية – يحمل رسائل عظيمة:

١.إضفاء صبغة المنهج النبوي على الأمر

حين يتلقى النبي صلى الله عليه وسلم الأمر من ربه، ثم ينقله إلى أهله وإلى نساء المؤمنين، فإنه بذلك يحوّل الحجاب من عادة اجتماعية أو تقاليد قبلية إلى منهج تربوي متكامل، وإلى تشريع إلهي ملزم. فالحجاب ليس اختيارًا شخصيًا أو تقاليد عائلية، بل هو أمر من الله، بلغه رسول الله.

٢.تعظيم شأن المرأة وتكريم مقامها

تأمل معي هذا المعنى الدقيق: الله تعالى – وهو الغني عن العالمين – لم يفرض الحجاب على النساء فرضًا مباشرًا، بل جعل النبي هو من يعرض هذا الأمر، ويبلغه لأقرب الناس إليه: أزواجه وبناته. وهذا تكريم عظيم للمرأة، فالحجاب لم يفرض عليها إذلالا ً، بل عُرض عليها عبر أكرم وسيط وأعظم مبلغ، لتتلقاه بطواعية وقناعة.

٣.بناء هالة القداسة حول الحجاب

حين يصدر الأمر من الله إلى النبي، ثم من النبي إلى النساء، فإن المجتمع المسلم برمته يصبح شاهدًا على هذا المشهد المهيب. إنه أشبه بإعلان رسمي من السماء بأن الحجاب هو شعار المؤمنات، ودثار العفيفات، وتاج الوقار.

اللمسة البيانية الثالثة: "لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ" – ترتيب عجيب يبدأ بالأقرب

لاحظ هذا الترتيب الإلهي فيمن يشملهم الأمر بالحجاب:

١."لِأَزْوَاجِكَ" – البداية بالأقرب فالأقرب

بدأ الله بـ أزواج النبي، وهن أمهات المؤمنين، وأفضل نساء العالمين. وهذا يعلمنا مبدأً تربويًا عظيمًا: أن الإصلاح يبدأ من الدائرة الأقرب. فالنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يبدأ بأهل بيته، ليكونوا النموذج والقدوة لسائر النساء. فإذا التزمن بالحجاب، كان ذلك أدعى لالتزام غيرهن.

٢."وَبَنَاتِكَ" – بنات النبي: امتداد التشريف والتكليف

ثم انتقل إلى بنات النبي، وهن فاطمة، وزينب، ورقية، وأم كلثوم رضي الله عنهن. وهن – مع أنهن في بيت النبوة – مشمولات بالأمر، ولا استثناء لأحد من حكم الله.

٣."وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ" – تعميم الحكم على جميع المؤمنات

ثم عمم الحكم على جميع نساء المؤمنين إلى يوم القيامة. وهذا الترتيب – من الخاص إلى العام – هو من بدائع البيان القرآني، ومن حكم التربية النبوية.

لماذا خص "نساء المؤمنين" دون "نساء المسلمين"؟

لفظة "المُؤْمِنِينَ" – بدل "المسلمين" – تحمل دلالة عظيمة: أن الحجاب هو مظهر من مظاهر الإيمان، وعلامة على صدق التدين. فالمرأة التي تلتزم بالحجاب، إنما تدفعها إلى ذلك قوة إيمانها، واستجابتها لأمر ربها. أما التي تتهاون فيه، فإن في إيمانها ضعفًا.

الرسائل التربوية والنفسية من صدر الآية

أ. الحجاب تشريع إلهي، لا عادة اجتماعية

الآية تبدأ بـ "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قل"، وهذا يقطع الطريق على من يزعم أن الحجاب عادة بدوية، أو تقاليد قبلية. إنه أمر من الله، بلغه رسول الله، فلا يجوز الاعتراض عليه، ولا التهاون فيه.

ب. القدوة تبدأ من بيت القيادة

النبي صلى الله عليه وسلم بدأ بأهل بيته قبل أن يأمر عامة النساء. وهذا يعلمنا أن الإصلاح يبدأ من أنفسنا وأهلينا. فلا يصح أن نأمر الناس بالحجاب، ونسكت عن نسائنا. بل القدوة يجب أن تكون من داخل بيوتنا أولا ً.

ج. شمولية التشريع: لا استثناء لأحد

الآية شملت أزواج النبي وبناته ونساء المؤمنين. فلم تستثنِ أحدًا، حتى أفضل النساء وأشرفهن نسبًا. وهذا يغلق الباب على من تدعي أن الحجاب لعامة النساء فقط، أما الشريفات والعالمات والداعيات فلهن رخصة في تركه أو التخفف منه! كلا، فالحجاب واجب على كل مؤمنة، مهما كان حسبها أو نسبها أو علمها.
الأمر الثاني:
"يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ" – بيان كيفية الحجاب وماهيته

بعد أن بين الله من المخاطبات بالحجاب، جاء ليبين كيفية هذا الحجاب: "يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ". وهذا هو محور الآية وقلب التشريع.

اللمسات البيانية والبلاغية في قوله: "يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ"

١."يُدْنِينَ" – الإدناء: التقريب والإرخاء

لفظة "يُدْنِينَ" من الإدناء، وهو التقريب والإرخاء. والمعنى: يُرخين عليهن من جلابيبهن، ويُغطين بها وجوههن وصدورهن. وهذا هو الوصف الشرعي للحجاب الكامل: أن يكون ساترًا لجميع البدن، فضفاضًا غير ضيق، يُرخى على الجسد فلا يصفه ولا يشف عنه.

٢."عَلَيْهِنَّ" – الإدناء على جميع البدن

"عَلَيْهِنَّ" أي: على جميع أبدانهن .فالجلابيب تغطي المرأة من فوق رأسها إلى أسفل قدميها .وهذا يشمل الوجه) عند جمهور العلماء (أو جميع البدن ما عدا الوجه والكفين) عند آخرين .(وعلى كلا القولين، فإن الإدناء يعني الستر الكامل، وعدم إظهار الزينة.

٣."مِن جَلَابِيبِهِنَّ" – الجلباب: الرداء الواسع الذي يستر البدن

"الجَلَابِيب" جمع "جلباب"، وهو الرداء الواسع الذي تلبسه المرأة فوق ثيابها، فيسترها من رأسها إلى قدميها .وقيل: هو الملاءة التي تغطي البدن كله .وهو أوسع من الخمار) الذي يغطي الرأس والصدر(، وأشمل من العباءة) التي قد تكون ضيقة أو شفافة.(

خصائص الجلباب الشرعي:

· واسع فضفاض: لا يصف الجسد، ولا يظهر تقاطيعه.
· ساتر لجميع البدن: من الرأس إلى القدمين.
· غير شفاف: لا يرى من ورائه لون البشرة أو الملابس الداخلية.
· ليس فيه زينة لافتة: ليس ملوثًا بألوان صارخة، ولا مطرزًا بتطريزات تلفت الأنظار.

· ليس فيه تشبه بالرجال أو الكافرات.

سبب نزول الآية: حماية الحرائر من أذى السفهاء

روي أن سبب نزول هذه الآية أن نساء المؤمنين كن يخرجن ليلا ً لقضاء حوائجهن، وكان بعض الفساق يتعرضون لهن، ويظنونهن إماءً (لأن الإماء لم يكن عليهن حجاب في ذلك الوقت). فأنزل الله هذه الآية لتمييز الحرائر بالإماء، ولحمايتهن من أذى السفهاء.

وهذا السبب يظهر الحكمة العظيمة من تشريع الحجاب: حماية المرأة من الأذى، وصيانتها من الطمع، وتمييزها بالعفة والكرامة.

الرسائل التربوية والنفسية من كيفية الحجاب

أ. الحجاب ليس مجرد غطاء، بل هو "إدناء" و"ستر كامل"

الآية لم تأمر بـ "لبس الجلباب" فقط، بل أمرت بـ "الإدناء" ، أي: إرخاء الجلباب على جميع البدن. وهذا يعني أن الحجاب الشرعي ليس مجرد قطعة قماش توضع على الرأس، أو عباءة ضيقة تصف الجسد، بل هو ستر كامل، فضفاض، يُرخى على البدن فلا يظهر منه شيء.

تطبيق معاصر:

· لا يكفي أن تلبس المرأة "طرحة" وتلبس بنطالا ً ضيقًا أو تنورة قصيرة .هذا ليس إدناء، وليس حجابًا شرعيًا.
· لا يكفي أن تلبس "عباءة" لكنها مطرزة وملونة وملفتة للأنظار .فالحجاب ليس للزينة، بل للستر و العفاف.

ب. الحجاب تشريف وتكريم، لا تقييد وإذلال

سبب النزول يظهر أن الحجاب شرع لتكريم الحرائر وتمييزهن عن الإماء. فالحجاب في الإسلام هو ع لامة على العفة والشرف، ووسام كرامة للمرأة المسلمة. وليس قيدًا يمنعها من الحركة، أو سجنًا يحبسها عن الحياة.

تطبيق نفسي:
عندما تلبسين حجابك الشرعي، استشعري أنك تلبسين وسام الشرف الذي أكرمك الله به. أنت لست كا لإماء في الجاهلية، تبتذل وتُبتذل. أنت حرة مصونة، جوهرة ثمينة، لا يراها إلا من يستحق.

ج. الحجاب حماية من الأذى، لا سبب له

قد يقول قائل: "إذا كان الحجاب لحماية المرأة من الأذى، فلماذا نرى المحجبات يتعرضن للأذى أيضًا؟". والجواب: الحجاب يمنع الأذى في الأصل، ولكن السفهاء موجودون في كل زمان ومكان. وإذا تعرضت المحجبة للأذى، فالإثم على المؤذي، وليس على الحجاب. فالحجاب يقلل من فرص الأذى، ويغلق أبواب الفتنة، ويحمي المجتمع من الفوضى الأخلاقية.
الأمر الثالث:
"ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ" – بيان الحكمة من الحجاب: المعرفة ودفع الأذى

بعد أن أمر الله بإدناء الجلابيب، بين الحكمة من هذا التشريع: "ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ". وهذا هو المقصد الأعظم من الحجاب.

اللمسات البيانية والبلاغية في بيان الحكمة

١."ذَٰلِكَ" – اسم الإشارة: تعظيم الأمر المشار إليه

"ذَٰلِكَ" إشارة إلى ما تقدم من أمر الإدناء .والإشارة بـ "ذلك") للبعيد (تدل على عظم هذا الحكم وجلا لة شأنه.

٢."أَدْنَىٰ" – أقرب وأحرى

"أدنى" بمعنى أقرب وأحرى وأجدر .أي: هذا الإدناء هو أقرب إلى أن تتحقق هاتان الغايتان.

٣.الغايتان: "أن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ"

الغاية الأولى: "أن يُعْرَفْنَ" – المعرفة: تمييز الحرائر عن الإماء
"أن يُعْرَفْنَ" أي: يُعرفن بلباسهن أنهن حرائر، عفيفات، مؤمنات، فلا يطمع فيهن طامع، ولا يتعرض لهن سفيه. فالحجاب هو العلامة الفارقة التي تميز المرأة المسلمة العفيفة عن غيرها.

وهذه المعرفة لها بعدان:

· بعد اجتماعي: تمييز الحرائر عن الإماء) في ذلك الزمان(، وتمييز المؤمنات العفيفات عن المتبرجات)في كل زمان.(
· بعد إيماني: يعرفن أنهن مؤمنات، ملتزمات بأمر الله، مقتديات بأمهات المؤمنين.

الغاية الثانية: "فَلَا يُؤْذَيْنَ" – دفع الأذى: حماية وصيانة
"فَلَا يُؤْذَيْنَ" أي: فلا يتعرض لهن السفهاء بالأذى، من قول سيئ، أو نظرة خبيثة، أو تحرش، أو مضايقة. فالحجاب سياج يحمي المرأة، وحصن يصونها من أطماع الفساق وأذى السفهاء.

كيف يحقق الحجاب هاتين الغايتين؟

أ. الحجاب يغلق أبواب الفتنة ويمنع الأذى في أصله

المرأة المتبرجة التي تبدي زينتها، وتظهر مفاتنها، تكون عرضة للأذى أكثر من غيرها. فـ الشيطان يزين للرجل النظر إليها، والسفهاء يطمعون فيها، والفساق يتجرؤون على مضايقتها. أما المرأة المحجبة التي سترت زينتها، وأدنت جلبابها، فإنها تغلق على نفسها أبواب الفتنة، وتصون نفسها من الأذى.

مثال من الواقع:
كم من امرأة متبرجة تعرضت للمضايقات في الشارع أو العمل! وكم من امرأة محجبة مرت آمنة مطمئنة، لم يتعرض لها أحد! هذا هو الفرق الذي تحققه الآية: "فَلَا يُؤْذَيْنَ".

ب. الحجاب يفرض الاحترام ويقطع الأطماع

المرأة المحجبة تفرض الاحترام على كل من يراها. فـ لباسها يقول بلسان الحال: "أنا امرأة عفيفة، مصونة، لا أرضى أن أكون سلعة للأنظار، فابتعد عني، ولا تقترب من حمى". وهذا الخطاب الصامت هو أقوى من ألف كلمة، وهو يقطع أطماع السفهاء قبل أن تولد.

الرسائل التربوية والنفسية من بيان الحكمة

أ. الحجاب ليس انعزالا ً عن المجتمع، بل هو مشاركة آمنة

قد يظن البعض أن الحجاب يعني انعزال المرأة عن المجتمع، وحبسها في البيت. هذه الآية ترد على هذا الظن، وتبين أن الحجاب شرع لتتمكن المرأة من الخروج والمشاركة في الحياة الاجتماعية، وهي آمنة مطمئنة، لا يؤذيها أحد، ولا يتعرض لها سفيه. فالحجاب هو الدرع الذي تلبسه المرأة لتخوض غمار الحياة بكل عزة وكرامة.

تطبيق معاصر:

· الطالبة التي تذهب إلى جامعتها بحجابها الكامل، هي تشارك في طلب العلم، وتبني مستقبلها، وهي في أمان وعزة.
· الموظفة التي تذهب إلى عملها بحجابها الكامل، هي تشارك في تنمية المجتمع، وتخدم أسرتها، وهي في صيانة وكرامة.

ب. "يُعْرَفْنَ": الحجاب هوية ورسالة

"أن يُعْرَفْنَ" تعني أن الحجاب هو هوية المرأة المسلمة، ورسالتها إلى المجتمع .فهي تُعرف به، وتتميز

به، وتدعو إليه بسلوكها قبل لسانها .فكل محجبة هي سفيرة للإسلام، وداعية إلى العفاف، ب- صمتها وسترها ووقارها.

تطبيق عملي:
عندما تخرجين بحجابك الشرعي، تذكري أنك تمثلين الإسلام، وتحملين رسالة العفاف. فكوني عند حسن الظن، واجعلي سلوكك موافقًا لمظهرك. فلا ترفعي صوتك، ولا تضحكي بصوت عال، ولا تخضعي بالقول، ولا تزاحمي الرجال. كوني وقورة، عفيفة، مؤدبة، ليكون حجابك دعوة صامتة إلى الخير.

ج. "فَلَا يُؤْذَيْنَ": وعد إلهي بالحماية

"فَلَا يُؤْذَيْنَ" ليس مجرد تعليل، بل هو وعد إلهي للملتزمات بالحجاب بأنهن لن يُؤْذَيْنَ .والله لا يخلف الميعاد .فإذا التزمت المرأة بحجابها الشرعي، وخرجت لحاجتها، فإن الله يحفظها ويصونها، ويدفع عنها أذى السفهاء.

تطبيق نفسي:
إذا خرجت بحجابك، وشعرت بالخوف من المضايقات، فتذكري وعد الله: "فَلَا يُؤْذَيْنَ". وثقي بأن الله حافظك، وكافيك، ولن يخذلك ما دمت مطيعة له.
الأمر الرابع:
"وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" – ختم الآية باسمي المغفرة والرحمة

بعد أن أمر الله بالحجاب، وبين حكمته، ختم الآية بهذا الختم الإلهي العظيم: "وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الختم

١."وَكَانَ" – فعل الكون: دوام وثبوت الصفة

"كانَ" هنا تفيد الدوام والثبوت .فالله لم يزل ولا يزال غفورًا رحيمًا.

٢."غَفُورًا" – صيغة مبالغة: سعة المغفرة

"غَفُور" صيغة مبالغة، تدل على سعة مغفرة الله، وشمولها للذنوب العظام والصغار.

٣."رَحِيمًا" – صيغة مبالغة: سعة الرحمة

"رَحِيم" صيغة مبالغة، تدل على سعة رحمة الله، ودوامها، وشمولها للمؤمنين.

لماذا ختمت آية الحجاب بـ "غفورًا رحيمًا"؟

هذا الختم يحمل رسائل عظيمة:

أ. فتح باب التوبة للنساء اللاتي قصرن في الحجاب

الآية تختم بـ "غَفُورًا رَحِيمًا" لتفتح باب الأمل أمام النساء اللاتي لم يلتزمن بالحجاب بعد، أو قصرن فيه. فالله يغفر ما سلف، ويرحم من تاب وأناب. فلا تيأسي من رحمة الله، ولو تأخرت في الالتزام بـ الحجاب. عودي إلى الله، والبسي حجابك، وثقي بأن الله غفور رحيم.

تطبيق عملي:
إذا كنتِ امرأة لم تلتزمي بالحجاب بعد، أو كنتِ تلبسينه على وجه غير شرعي (ضيقة، شفافة، ملفتة)، فلا تقنطي من رحمة الله. توبي الآن، والبسي الحجاب الشرعي الكامل، واستقبلي حياة جديدة من العفة والكرامة. والله يغفر لك ما مضى، ويرحمك ويثبتك.

ب. تذكير بأن أحكام الله صادرة عن رحمة ومغفرة

ختم الآية بـ "غَفُورًا رَحِيمًا" يذكرنا بأن تشريع الحجاب – كغيره من التشريعات – صادر عن رحمة الله بعباده، ومغفرته لهم. فهو لم يفرضه ليشق عليهم، بل ليرحمهم ويصونهم ويحميهم.

تطبيق نفسي:
إذا شعرت بالضيق من الحجاب، أو تثاقلته نفسك، فتذكري أن الله رحيم بك، وأنه لم يفرضه إلا لمصلحتك وسعادتك. فاستجيبي لأمره محبة وطواعية، لا كراهية وضيق.

ج. دعوة للمجتمع إلى العفو عن الماضيات والتائبات

هذا الختم هو رسالة للمجتمع أيضًا: لا تعيروا النساء اللاتي لم يلتزمن بالحجاب في الماضي، أو اللاتي تائبات اليوم. اقبلوهن، وشجعوهن، وادعوا لهن، وستروا عليهن. فالله غفور رحيم، فكونوا أنتم كذلك.
الأمر الخامس:
كيف نعيش آية الحجاب في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.الالتزام بالحجاب الشرعي الكامل: إدناء الجلباب

التطبيق العملي:

· تعلمي شروط الحجاب الشرعي:) ساتر لجميع البدن، فضفاض غير ضيق، غير شفاف، ليس فيه زينة لافتة، ليس فيه تشبه بالرجال أو الكافرات.(
· اجعلي حجابك "إدناء" حقيقيًا: لا تلبسي عباءة ضيقة تصف جسدك .لا تلبسي طرحة قصيرة تظهر رقبتك أو صدرك .لا تلبسي بنطالا ً وتضعي فوقه عباءة .أدني جلبابك، وأرخيه على جميع بدنك.
· لا تتحايلي على الحجاب: لا تلبسي حجابًا وتتعطري، أو تتزيني بزينة لافتة، أو تضعي مساحيق تجميل صارخة .فالحجاب للستر، لا للزينة.

٢.الحجاب هوية ورسالة: كوني قدوة حسنة

التطبيق العملي:

· اجعلي سلوكك موافقًا لمظهرك: لا ترفعي صوتك في الأماكن العامة .لا تضحكي بصوت عال .لا تخضعي بالقول للرجال الأجانب .لا تزاحمي الرجال في الطوابير والمواصلات.
· كوني داعية بصمتك: حجابك هو أعظم دعاية للإسلام .فإذا رأتك امرأة غير محجبة، وأعجبت بوقارك وأدبك وعفتك، فقد تقتدي بك، ولك أجرها.
· انشري ثقافة الحجاب بين النساء: شجعي صديقاتك وقريباتك على الالتزام بالحجاب، ولكن برفق وحكمة، وبأسلوب محبب.

٣.تربية الأبناء على حب الحجاب والعفاف

التطبيق العملي:

· اغرسي في بناتك حب الحجاب منذ الصغر: لا تنتظري حتى يبلغن، بل عوديهن على اللباس المحتشم، واشرحي لهن أن الحجاب هو وسام الشرف للمرأة المسلمة.
· علمي أبناءك غض البصر واحترام النساء: "قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ" .دربهم على عدم النظر إلى النساء الأجنبيات، واحترام خصوصياتهن.
· كوني قدوة لهم: البسي حجابك أمامهم، وتحدثي عن حبك للحجاب، وسعادتك به .فالأطفال يتعلمون بالقدوة أكثر مما يتعلمون بالكلام.

٤.مواجهة الحملات المغرضة ضد الحجاب بالعلم والثبات

التطبيق العملي:

· لا تهتزي أمام الشبهات: إذا سمعت شبهة عن الحجاب) أنه عادة بدوية، أو سجن للمرأة، أو غير مناسب للعصر(، فلا تهتزي .تعلمي الردود العلمية، وثبتي على حقك.
· انشري الوعي بمحاسن الحجاب: اكتبي منشورات، أو شاركي مقاطع فيديو تشرح حكمة الحجاب وفضائله، وتظهر جمال المحجبات ووقارهن.

· ادعمي المصممات اللاتي يقدمن أزياء محتشمة: شجعي صناعة الأزياء المحتشمة، التي تقدم ملابس جميلة وعصرية، وفي نفس الوقت ملتزمة بالضوابط الشرعية.

.ەاستشعار وعد الله بالحماية: "فَلَا يُؤْذَيْنَ"

التطبيق العملي:

· اخرجي بحجابك وأنت واثقة من وعد الله: لا تخافي من نظرات الناس، ولا تلتفتي إلى سخريتهم . أنت على حق، والله معك، ووعدك بأنك لن تؤذي.
· إذا تعرضت لأذى، فاحتسبي الأجر عند الله: السفهاء موجودون في كل زمان .فإذا آذاك أحد وأنت محجبة، فاعلمي أن الإثم عليه، وأن الله سينتقم لك منه .احتسبي الأجر، واصبري، ولا تتركي الحجاب بسببه.
سادسًا: القيم المستفادة من الآية 59

القيمة تجلياتها في الآية
الحجاب تشريع إلهي واجب "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل" – أمر من الله بلغه الرسول.
شمولية التشريع لجميع المؤمنات "لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ" – لا استثناء لأحد.
الحجاب ستر كامل للبدن "يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ" – الإدناء والستر الفضفاض.
الحجاب هوية وعلامة على العفة "ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ" – تمييز المؤمنات العفيفات.
الحجاب حماية من الأذى "فَلَا يُؤْذَيْنَ" – صيانة المرأة من أطماع السفهاء.
الحجاب مشاركة آمنة في المجتمع الآية تشرع الحجاب لتخرج المرأة آمنة مطمئنة.
فتح باب التوبة للمقصرات "وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا" – مغفرة الله ورحمته واسعة.
القدوة تبدأ من بيت القيادة البدء بأزواج النبي وبناته قبل نساء المؤمنين.
الحجاب ليس انعزالا ً ولا تقييدًا الآية ترد على الشبهات التي تصف الحجاب بالسجن.
الحجاب وسام شرف وكرامة سبب النزول يظهر أن الحجاب لتكريم الحرائر.
خاتمة: في رحاب العفة والكرامة والصيانة

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تضع تاج العفة على رأس المرأة المسلمة، وتعلن ميلاد أمة طاهرة، نساؤها مصونات، عفيفات، وقورات. إنها آية لا تقيد المرأة، بل تحررها من أغ لال الشهوات، ونظرات السفهاء، وأطماع الفساق. إنها آية تمنحها هوية، وكرامة، وحماية، ووعدًا إلهيًا با لأمن والسلام.

لقد علمتنا هذه الآية أن:

· الحجاب هو تشريع إلهي، لا عادة اجتماعية، ولا تقاليد قبلية.
· الحجاب هو ستر كامل، فضفاض، يُرخى على جميع البدن، لا مجرد قطعة قماش على الرأس.
· الحجاب هو هوية ورسالة، تُعرف بها المؤمنة العفيفة، فتُحترم وتُصان.
· الحجاب هو حماية من الأذى، وصيانة من الطمع، ووعد إلهي بالأمن.
· الحجاب هو فتح لباب التوبة، فالله غفور رحيم، يقبل التائبات، ويغفر للمقصرات.

فلتحرصي – أيتها المرأة المسلمة – أن تكوني من أهل هذه الآية، وأن تلتزمي بحجابك الشرعي الكامل، وأن تجعلي منه وسام شرف وتاج وقار. ولتثقي بأن الله معك، وحافظك، ولن يخذلك ما دمت مطيعة له.

المقطع الخامس
المبحث الأول
تفسير آيتي وعيد المنافقين والمرجفين) الأحزاب:60 - (61– تطهير المجتمع من عوامل الهدم الداخلي

مدخل إلى رحاب الآيتين الكريمتين

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني المهيب، الذي لا يتحدث عن أحكام العبادات و لا عن آداب المعاملات، بل يتحدث عن جراحة استئصال للخطر الداخلي الذي يهدد كيان الأمة .إنه مشهد تتجلى فيه قوة التشريع الإلهي في حماية المجتمع المسلم من عناصر الهدم والفتنة والإرجاف . إنها آيات تكشف عن الوجه الآخر للدين: وجه الحزم والقوة والردع، بعد أن تقدم وجه الرحمة و التيسير.

بعد أن شرع الله الحجاب، وصان أعراض المؤمنين، ونهى عن أذاهم، تأتي هاتان الآيتان لتواجه العدو الداخلي الذي لا يقل خطرًا عن العدو الخارجي: المنافقون، ومرضى القلوب، والمرجفون في المدينة . إنهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويثيرون الشائعات، ويزعزعون الثقة في قيادة النبي صلى الله عليه وسلم، ويثبطون الهمم عن الجهاد .إنهم السرطان الذي ينخر في جسد الأمة، والخنجر المسموم الذي يطعنها من الداخل.

إنها الآيات التي تعلن الحرب على النفاق والإرجاف، وتضع الدستور الإلهي في تطهير المجتمع من هذه الأمراض الخبيثة .إنها تقول بكل وضوح: "لا مكان للمنافقين والمرجفين في المدينة المنورة، مدينة النبي ودار الهجرة، فإن لم ينتهوا عن نفاقهم وإرجافهم، فإما القتل وإما النفي والتشريد".

يقول الله تعالى:
"لَئِن لَمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا"(60)
"مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا"(61)

فلنغص معًا في أعماق هاتين الآيتين الكريمتين، ولنستخرج دررهما وحكمهما، بنفس الروح المتأملة و القلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، ليؤسس لقاعدة صارمة في حماية المجتمعات من الأ مراض الداخلية، وليعلمنا كيف نواجه النفاق والإرجاف في كل زمان ومكان.
الأمر الأول:
"لَئِن لَمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ" – تحديد أصناف الخطر الداخلي

اللمسة البيانية الأولى: "لَئِن لَمْ يَنتَهِ" – قسم مؤكد ووعيد مشروط

تبدأ الآية الكريمة بـ "لَئِن لَمْ يَنتَهِ" .وهذه الصيغة تحمل في طياتها معاني عظيمة:

١."اللام" – لام القسم: توكيد الوعيد

اللام في "لَئِن" هي لام القسم، وتقدير الكلام: "والله لئن لم ينتهوا..." .فالله تعالى يقسم على هذا الوعيد، تأكيدًا لوقوعه، وتهويلا ً لشأنه .وهذا القسم الإلهي يجعل القلب يرتجف خوفًا من عاقبة النفاق والإرجاف.

٢."إن" – أداة شرط: تعليق الوعيد على عدم الانتهاء

"إن" شرطية، تفيد تعليق الوعيد على عدم الانتهاء .فالمعنى: إن استمروا في نفاقهم وإرجافهم، ولم ينتهوا عنه، فسيكون لهم هذا الوعيد الشديد .وهذا يدل على أن باب التوبة كان مفتوحًا أمامهم، وأن الله يمهلهم لعلهم يرجعون.

٣."لَمْ يَنتَهِ" – النهي المطلوب: الكف عن النفاق والإرجاف

"يَنتَهِ" أي: يكفوا عن نفاقهم، وعن مرض قلوبهم، وعن إرجافهم في المدينة .فالمطلوب منهم هو التوبة الصادقة، والإقلاع عن هذه الجرائم التي تهدد أمن المجتمع واستقراره.

اللمسة البيانية الثانية: تفصيل أصناف الخطر – ثلاثة أصناف مفسدة

لاحظ أن الآية فصلت في ذكر أصحاب الوعيد، فلم تكتفِ بلفظ عام، بل ذكرت ثلاثة أصناف، لكل صنف وصفه وخطره:

.١"المُنَافِقُونَ" – الصنف الأول: المظهرون للإسلام المبطنون للكفر

المنافقون هم أخطر الأصناف على الإطلاق .إنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، يدخلون الصف المسلم وهم أعداء له، يأتمرون به، ويسعون في هدمه من الداخل .وهم أشد خطرًا من الكافرين المجاهرين، لأن الكافر المجاهر يمكن الاستعداد له ومواجهته، أما المنافق فـ يأتي من حيث لا يحتسب.

.٢"وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ" – الصنف الثاني: مرضى القلوب بالشهوة والشك

"الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ" هم الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، أو مرض الشهوة والافتتان بـ النساء .وقد وصفهم الله بهذا الوصف في مواضع أخرى من القرآن: "فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا") البقرة: .(10 وهؤلاء أقل خطرًا من المنافقين الخلص، ولكنهم قاعدة لهم، ومادة للنفاق، وبذرة للفتنة.

.٣"وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ" – الصنف الثالث: مروجو الشائعات ومثيرو الفتن

"المُرْجِفُونَ" من الإرجاف، وهو تحريك الشيء واضطرابه .والمراد بهم: الذين يثيرون الشائعات، وينشرون الأخبار الكاذبة، ويزعزعون الثقة في القيادة، ويثبطون الهمم عن الجهاد، وينشرون الرعب في قلوب المؤمنين .وهم أداة الحرب النفسية التي يستخدمها المنافقون ومرضى القلوب لـ إضعاف الأمة.

**لماذا خص "الْمَدِينَةِ" بالذكر؟

خص الله "الْمَدِينَةِ" بالذكر، وهي مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، دار الهجرة، وعاصمة الدولة الإسلا مية الناشئة .وذلك لأن:

· المدينة هي قلب الأمة: فإذا تطهّرت المدينة من النفاق والإرجاف، تطهّرت الأمة كلها .وإذا فسدت، فسدت الأمة.
· المدينة هي دار الهجرة والأمن: فلا ينبغي أن يسكنها من يرجف فيها، ويزعزع أمنها، ويهدد استقرارها.
· المدينة هي جوار النبي: فمن آذى النبي بنفاقه وإرجافه، فلا حق له في مجاورته، بل يطرد منها.

الرسائل التربوية والنفسية من تحديد أصناف الخطر

أ .العدو الداخلي أخطر من العدو الخارجي

هذه الآية تلفت انتباهنا إلى خطر العدو الداخلي) المنافقين، مرضى القلوب، المرجفين (الذي لا يقل – بل قد يزيد – عن خطر العدو الخارجي) الكافرين المجاهرين .(فالأمة التي تنشغل بعدوها الخارجي، وتغفل عن تطهير داخلها من المنافقين والمرجفين، هي أمة مهددة بالانهيار من الداخل.

تطبيق معاصر:
في عصرنا، تواجه الأمة الإسلامية أعداء خارجيين) الاستعمار، الصهيونية، العلمانية(...، ولكن الخطر الأ كبر يأتي من الداخل: من المنافقين الذين يتظاهرون بالإسلام وهم يسعون في هدمه، ومن مرضى القلوب الذين يروجون للشهوات والشبهات، ومن المرجفين الذين ينشرون الشائعات والإحباط واليأس في وسائل الإعلام ومواقع التواصل.

ب .ضرورة التمييز بين أصناف الخطر لمعرفة كيفية التعامل معهم

الآية تميز بين ثلاثة أصناف، وهذا يعلمنا أن التعامل مع كل صنف يختلف:

· المنافقون الخلص: هؤلاء خطر داهم، يجب كشفهم والتحذير منهم وعزلهم عن مراكز التأثير.

· مرضى القلوب: هؤلاء يحتاجون إلى علاج، ونصح، وتذكير، لعلهم يتوبون ويرجعون.
· المرجفون: هؤلاء يجب قطع لسانهم، وتكذيب شائعاتهم، وعدم الالتفات إليهم.

ج .أن الإرجاف جريمة تهدد الأمن القومي

الآية تضع "المُرْجِفُونَ" في مصاف المنافقين ومرضى القلوب، وتتوعدهم بالعقاب الشديد .وهذا يدل على أن الإرجاف) نشر الشائعات، إثارة الفتن، بث الرعب (ليس أمرًا هينًا، بل هو جريمة كبرى تهدد أمن المجتمع واستقراره.
الأمر الثاني:
"لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا" – الوعيد الإلهي بتسليط النبي عليهم وطردهم من المدينة

بعد أن بين الله أصناف الخطر، وشرط عدم انتهائهم، جاء بـ جواب القسم: "لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا" .وهذا هو الوعيد الإلهي الشديد.

اللمسات البيانية والبلاغية في الوعيد

.١"لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ" – تسليط النبي عليهم: قوة وتمكين

"لَنُغْرِيَنَّكَ" من الإغراء، وهو التسليط والتحريض .والمعنى: لنسلطنك عليهم، ولنمكننك من رقابهم، ولنجعلنك تستأصل شأفتهم .وهذا وعد من الله لنبيه بأنه سينصره على هؤلاء المنافقين والمرجفين، ويمكنه من تطهير المدينة منهم.

وقد تحقق هذا الوعد، حيث أخرج النبي صلى الله عليه وسلم يهود بني النضير وبني قينقاع، وقتل يهود بني قريظة، وفضح المنافقين، حتى طهرت المدينة من دنسهم.

.٢"ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا" – طردهم من جوار النبي

"لَا يُجَاوِرُونَكَ" أي: لا يساكنونك في المدينة، بل يخرجون منها أذلاء صاغرين.
"إِلَّا قَلِيلًا" أي: إلا زمنًا قليلا ً، ريثما يتهيأون للخروج، أو حتى يقتلوا أو يطردوا.

وهذا الطرد من جوار النبي هو أعظم عقوبة للمنافقين، لأنهم كانوا يتمتعون بـ الأمن والرزق في المدينة، ويستمعون إلى القرآن، ويشاهدون النبي .فحرمانهم من هذا الشرف هو خزي لهم في الدنيا.

**لماذا كان الطرد من المدينة عقوبة عظيمة؟

· المدينة هي دار الهجرة والنصرة: فمن طُرد منها، فقد طُرد من حظيرة الإيمان، وحرم من بركة الجوار مع النبي والمؤمنين.
· الطرد هو إذلال وتشريد: المنافقون كانوا مستقرين في المدينة، لهم فيها دور وأموال .فطردهم منها هو إذلال لهم، وتشريد لهم في الأرض، وقطع لأرزاقهم.
· الطرد هو تطهير للمدينة: المدينة هي عاصمة الإسلام، ومنبع الدعوة، فلا يصح أن تكون مأوى للمنافقين والمرجفين، بل يجب أن تطهر منهم.

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الوعيد

أ .أن الله يدافع عن نبيه وعن المؤمنين

هذا الوعيد يظهر عناية الله بنبيه، ودفاعه عنه، وتمكينه من أعدائه .فالله لم يترك النبي صلى الله عليه وسلم يواجه المنافقين وحده، بل وعده بأنه سيغريه بهم، ويمكنه منهم، ويطهر المدينة من رجسهم.

تطبيق نفسي:
المؤمن الذي يجاهد في سبيل الله، ويواجه الأعداء، لا ينبغي أن يشعر بالوحدة، أو ييأس من نصرة الله .فالله مع المؤمنين، ويدافع عنهم، ويمكنهم من أعدائهم، كما مكن نبيه من المنافقين.

ب .أن تطهير المجتمع من العناصر المفسدة واجب شرعي

الآية تأمر – ضمنًا – بـ تطهير المجتمع من العناصر المفسدة) المنافقين، المرجفين، مروجي الشائعات .(فكما طهر النبي المدينة من المنافقين والمرجفين، يجب على ولاة الأمر في كل زمان أن يسعوا في تطهير مجتمعاتهم من كل من يهدد أمنها واستقرارها وقيمها.

تطبيق معاصر:

· مواجهة المنافقين الجدد: في عصرنا، يوجد منافقون جدد، يتظاهرون بالإسلام، ويعملون على هدمه من الداخل) بإثارة الشبهات، والتشكيك في الثوابت، والطعن في العلماء .(يجب كشفهم، والتحذير منهم ، وعزلهم عن منابر التأثير.
· مواجهة المرجفين: الإعلام المضلل، ومواقع التواصل التي تنشر الشائعات والإحباط واليأس، هي مرجفون جدد .يجب مواجهتهم بـ الإعلام الصادق، ونشر الحقائق، وعدم الالتفات إلى أكاذيبهم.

ج .أن العقوبة قد تكون بالقتل أو النفي

الآية توعدت المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين بـ القتل أو النفي .وهذا يدل على أن عقوبة الخيانة العظمى وتهديد الأمن القومي قد تصل إلى القتل أو النفي، حسبما تقتضيه المصلحة الشرعية.
الأمر الثالث:
"مَلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا" – اشتداد الوعيد: لعنة دائمة وقتل حيثما وجدوا

بعد الوعيد بـ الإغراء بهم والطرد من المدينة، جاءت الآية الثانية لتزيد الوعيد شدة وصرامة:
"مَلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الوعيد الشديد

١."مَلْعُونِينَ" – حال مؤكدة: لعنة دائمة

"مَلْعُونِينَ" حال من ضمير "بِهِمْ" في الآية السابقة .أي: لنغرينك بهم في هذه الحال، حال كونهم ملعونين .واللعنة هي الطرد من رحمة الله .فوصفهم بأنهم "ملعونين" يدل على أن اللعنة قد حلت بهم، ولازمتهم، فهم مطرودون من رحمة الله في الدنيا والآخرة.

٢."أَيْنَمَا ثُقِفُوا" – شمول الوعيد لكل مكان وزمان

"أَيْنَمَا" تفيد العموم والشمول .أي: في أي مكان وُجدوا فيه، وفي أي زمان كانوا فيه .فليس لهم ملاذ آمن، ولا مكان يحميهم من عقاب الله.
"ثُقِفُوا" أي: وُجدوا وظُفر بهم وأُدركوا.

٣."أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا" – بيان العقوبة: الأسر والقتل الشديد

"أُخِذُوا" أي: أُسروا، ولم يُتركوا أحرارًا.
"وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا" أي: قُتلوا قتلا ً شديدًا، مبالغًا فيه .فالمفعول المطلق "تَقْتِيلًا" يفيد تأكيد القتل و المبالغة فيه، ليكون عبرة ونكالا ً لغيرهم.

لماذا اشتد الوعيد على المنافقين والمرجفين؟

أ .لأنهم أخطر على الأمة من الكافرين المجاهرين

المنافقون يأتمرون بالأمة من الداخل، ويعرفون أسرارها، ويضربونها في مقتل .والمرجفون يزعزعون ثقتها بنفسها، ويثبطون هممها، وينشرون الرعب في صفوفها .فخطرهم أعظم من خطر الكافرين المجاهرين، ولذلك استحقوا هذا الوعيد الشديد.

ب .لأنهم جمعوا بين الكفر والخيانة والإرجاف

المنافقون جمعوا بين الكفر بالله، وخيانة الرسول والمؤمنين، والإرجاف في المدينة .وهذه جرائم متراكبة، تستوجب أشد العقوبات.

ج .لتطهير الأرض من دنسهم

القتل الشديد "تقتيلًا" هو لتطهير الأرض من دنس هؤلاء المفسدين، ولئلا يبقى لهم أثر في المدينة أو في غيرها من بلاد الإسلام.

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الوعيد الشديد

أ .أن النفاق والإرجاف جريمتان لا تغتفران

هذه الآيات تظهر أن النفاق والإرجاف هما جريمتان عظيمتان في ميزان الله، تستوجبان اللعنة في الدنيا والآخرة، والقتل والنفي في الدنيا .وهذا يدل على خطورة هاتين الجريمتين، وضرورة تطهير المجتمع منهما.

تطبيق نفسي:
المؤمن يجب أن يحذر من النفاق بكل صوره: نفاق العقيدة) إظهار الإسلام وإبطان الكفر(، ونفاق السلوك) الكذب، وخلف الوعد، وخيانة الأمانة .(كما يجب أن يحذر من الإرجاف) نشر الشائعات، والكلا م الذي يثير الفتن، ويثبط الهمم.(

ب .أن الأمن الفكري والنفسي لا يقل أهمية عن الأمن المادي

هذه الآيات تحمي الأمن الفكري والنفسي للمجتمع المسلم، بمواجهة المرجفين الذين ينشرون الشائعات والإحباط .فالأمة التي تترك المرجفين يعبثون بأفكارها ونفوسها، هي أمة مهددة بالانهيار، حتى لو كانت قوية ماديًا.

تطبيق معاصر:
في عصر الحروب النفسية والإعلام المضلل، يجب على الأمة أن تحمي نفسها من الإرجاف، بأن تتحقق من الأخبار، ولا تنشر الشائعات، وتواجه الإعلام الكاذب بـ الإعلام الصادق.

ج .أن العقوبات الشرعية شرعت لحماية المجتمع

القتل، والنفي، واللعنة ...هذه العقوبات ليست تشفيًا، بل هي حماية للمجتمع، وردع للمفسدين، وتطهير للأرض من الخبث .فالمجتمع الذي لا يطبق العقوبات الشرعية على الخونة والمفسدين، هو مجتمع مهدد بالفساد والانهيار.
الأمر الرابع:
كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآيتين، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.الحذر من النفاق بكل صوره

التطبيق العملي:

· طهر قلبك من النفاق: "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ" .فاحذر النفاق الأكبر) الكفر الباطن مع إظهار الإسلام(، واحذر النفاق الأصغر) الكذب، وخلف الوعد، وخيانة الأمانة.(
· جرد نفسك: اسأل نفسك: "هل أخلص في أعمالي لله؟ أم أرائي الناس؟" ."هل أنا صادق في وعدي؟ أم أخلفه؟" ."هل أنا أمين على ما اؤتمنت عليه؟ أم أخون؟".

٢.مواجهة الإرجاف والشائعات

التطبيق العملي:

· لا تنشر الشائعات: قبل أن تنشر خبرًا أو مقطعًا على وسائل التواصل، تثبت من صحته .ولا تكن أداة في يد المرجفين.
· واجه الإرجاف بالحق: إذا سمعت شائعة، أو كلامًا محبطًا، فـ كذبه، وانشر الحق، وشجع الناس،

وذكرهم بنصر الله.
· لا تلتفت إلى المرجفين: "وَلَا تُطِعِ الكافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ" .لا تلتفت إلى كلام المحبطين والمشككين، وامضِ في طريقك، متوكلا ً على الله.

٣.تطهير المجتمع من العناصر المفسدة

التطبيق العملي:

· كشف المنافقين والمرجفين: لا تسكت على من يتظاهر بالإسلام وهو يسعى في هدمه .حذر منه، واكشف زيفه، وادعُ إلى مقاطعته.
· ادعم ولاة الأمر في تطهير المجتمع: إذا رأيت ولاة الأمر يسعون في تطهير المجتمع من المفسدين، فـ ادعمهم، ولا تكن مع المفسدين.
· ربِّ أبناءك على كراهية النفاق والإرجاف: علمهم أن النفاق من أبغض الصفات، وأن الإرجاف من أخطر الجرائم.

٤.استشعار أن الله يدافع عن المؤمنين

التطبيق العملي:

· لا تخف من كيد المنافقين والمرجفين: "لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ" .ثق بأن الله مع المؤمنين، ويدافع عنهم، ويمكنهم من أعدائهم.
· توكل على الله: "وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلًا" .فوض أمرك إلى الله، واثق بأنه كافيك، ولن يخذلك.

خامسًا: القيم المستفادة من الآيتين60 -61

القيمة تجلياتها في الآيتين
خطورة النفاق "لَئِن لَّمْ يَنتَهِ المُنَافِقُونَ" – النفاق جريمة تهدد كيان الأمة.
خطورة الإرجاف "وَالمُرْجِفُونَ فِي المَدِينَةِ" – نشر الشائعات جريمة كبرى.
تطهير المجتمع من المفسدين "ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا" – طرد المفسدين من المدينة.
الدفاع الإلهي عن المؤمنين "لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ" – وعد إلهي بتمكين النبي من أعدائه.
اللعنة على المنافقين والمرجفين "مَّلْعُونِينَ" – طرد من رحمة الله في الدنيا والآخرة.
القتل عقوبة للخيانة العظمى "أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا" – حماية المجتمع من المفسدين.
شمول العقوبة لكل مكان وزمان "أَيْنَمَا ثُقِفُوا" – لا ملاذ للمنافقين والمرجفين.
الحذر من النفاق الأصغر والأكبر الآيات تحذر من كل صور النفاق.
مواجهة الإرجاف بالحق والصبر عدم الالتفات إلى المرجفين، والثقة بنصر الله.
خاتمة: في رحاب الحزم الإلهي وتطهير المجتمع

في الختام، نقف بخشوع أمام هاتين الآيتين الكريمتين، اللتين تكشفان لنا جانب الحزم والقوة في الشريعة الإسلامية .إنها آيات لا تتلعثم في مواجهة الخطر الداخلي، بل تضع الدستور الصارم في تطهير المجتمع من المنافقين ومرضى القلوب والمرجفين .إنها آيات تذكرنا بأن الأمة التي تتهاون مع الخونة والمفسدين ومروجي الشائعات، هي أمة تسير بخطى حثيثة نحو الانهيار.

لقد علمتنا هاتان الآيتان أن:

· المنافقون والمرجفون هم أخطر على الأمة من الأعداء الخارجيين.
· تطهير المجتمع من هذه العناصر المفسدة هو واجب شرعي، وضرورة حضارية.
· الله يدافع عن المؤمنين، ويمكنهم من أعدائهم، إذا أخلصوا له واتبعوا شرعه.
· العقوبات الشرعية) كالقتل والنفي (شرعت لحماية المجتمع، لا للتشفي والانتقام.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نطهر قلوبنا من النفاق ومرض القلوب، وأن نطهر ألسنتنا من الإ رجاف ونشر الشائعات، وأن نكون أعوانًا على تطهير مجتمعاتنا من كل مفسد ومرجف، حتى نستحق نصر الله وتأييده.

المبحث الثاني
السنن التي تحكم الحياه بكل تحولاتها

.تفسير آية سنة الله في الذين خلوا) الأحزاب: (62 – في رحاب السنن الإلهية: مفتاح فهم الحياة و التاريخ والاستخلاف

مدخل إلى رحاب الآية الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني العظيم، الذي لا يتحدث عن حكم فقهي جزئي، ولا عن قصة تاريخية عابرة، بل يرسم لنا خارطة الوجود، ويكشف لنا عن الناموس الأكبر الذي يحكم الحياة والتاريخ والمجتمعات والأفراد .إنها آية تفتح لنا أوسع الأبواب لفهم سر الوجود، ومعادلات النجاح والفشل، وقوانين الصعود والهبوط في مسيرة الإنسان على هذه الأرض.

إنها الآية التي تعلن الحقيقة الكبرى: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" . إنها المعادلة الرياضية الإلهية التي لا تتغير، والقانون الكوني الذي لا يتبدل، والناموس المطرد الذي يحكم الأمم والحضارات والأفراد على حد سواء.

في هذه الآية – مع أختها الآية (38) من السورة نفسها – يضع الله بين أيدينا مفتاح المعرفة، وسبيل الهداية، ودليل العمل في هذه الحياة .إنه يخبرنا أن الوجود لا يسير عشوائيًا، ولا فوضى، ولا بلا ضوابط، بل تحكمه سنن إلهية، ثابتة، مطردة، لا تتبدل ولا تتحول .من أدركها وفهمها وتعامل معها بوعي، نجح وسعد واستخلف في الأرض .ومن جهلها أو تجاهلها أو صادمها، فشل وخسر وانهارت حضارته.

يقول الله تعالى: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا") الأحزاب:(62

ويقول في الآية (38) من السورة نفسها: "سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا"

فلنغص معًا في أعماق هذه الآية الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، ولنربطها بالآية (38) ، ولنستكشف كيف أن معرفة السنن الإلهية هي سبيل الهداية، ودليل العمل، ومفتاح الاستخلاف، وطريق النجاة من الأزمات والكوارث .ولنرَ كيف أن الحياة لا يمكن فهمها إلا بإدراك هذه السنن، التي هي أشبه بمعادلات رياضية دقيقة، تحكم كل شيء في هذا الوجود.

الأمر الأول:
"سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" – الإعلان عن الناموس الأكبر للوجود

اللمسة البيانية الأولى: "سُنَّةَ اللَّهِ" – تعريف وتنكير وتعظيم

تبدأ الآية الكريمة بقوله: "سُنَّةَ اللَّهِ" .وهذه الكلمة وحدها تحمل أبعادًا معرفية وحضارية لا تكاد تحدها حدود.

.١ما هي "السنة" في اللغة والاصطلاح القرآني؟

السنة في اللغة: الطريقة، والنهج، والسيرة، والعادة المطردة .وفي الاصطلاح القرآني: الطريقة الإلهية الثابتة التي أجراها الله في خلقه، وحكم بها في عباده، وربط بها الأسباب بالمسببات، والأعمال بـ النتائج.

فـ "سنة الله" هي القانون الإلهي الذي لا يتغير، والناموس الكوني الذي لا يتبدل، والحكمة البالغة التي تسير الوجود بأسره.

.٢إضافة "السنة" إلى "الله" – مصدر القداسة والثبات

إضافة "السنة" إلى اسم الجلالة "اللهِ" هي تشريف لهذه السنة، وتأكيد على ثباتها واطرادها .فهي ليست سنة بشرية تتغير وتتبدل، بل هي سنة إلهية، صادرة عن العليم الحكيم، الذي وسع كل شيء علمًا، وأحاط بكل شيء خبرًا.

.٣"فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" – مجال جريان السنة: الأمم السابقة

"الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" هم الأمم والأقوام والحضارات التي مضت وانقرضت قبل أمة محمد صلى الله عليه وسلم .والآية تخبرنا أن سنة الله قد جرت فيهم، وحكمت مسيرتهم، وحددت مصائرهم.

فمن آمن وعمل صالحًا، نجا ومُكِن له في الأرض .ومن كفر وطغى وأفسد، أهلك ودُمّر وصار أحاديث . هذه هي السنة التي لا تتخلف، ولا تحابي أحدًا.

اللمسة البيانية الثانية: "وَلَن تجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تبْدِيلًا" – تأكيد الثبات والاطراد

هذا هو القسم الثاني من الآية، وهو تأكيد قاطع على ثبات السنة الإلهية واطرادها.

١."وَلَن" – حرف نفي للمستقبل: تأبيد النفي

"لن" حرف نفي، ينفي المستقبل .فالمعنى: ولن تجد أبدًا، في أي وقت، وفي أي مكان، تبديلًا لسنة الله .فهي ثابتة إلى يوم القيامة.

٢."تجِدَ" – فعل الوجدان: العلم اليقيني بعد البحث والتجربة

"تجِدَ" من الوجدان، وهو العلم اليقيني الذي يأتي بعد البحث والتجربة والتأمل .فكأن الآية تدعونا إلى السير في الأرض، والنظر في مصارع الأمم، والتفكر في أحوال الحضارات، حتى نصل إلى علم يقيني بأن سنة الله ثابتة لا تتبدل.

٣."تبْدِيلًا" – نفي التبديل: نفي التغيير والتحويل

"التَبْدِيل" هو تغيير الشيء عن حاله، أو استبداله بغيره .والآية تنفي كل أنواع التبديل عن سنة الله . فهي لا تتغير، ولا تتبدل، ولا تحابي أحدًا، ولا تجامل أمة، ولا ترحم فردًا خالف أسباب النجاة.

التكامل البديع بين آية (62) وآية (38) – سنة الله في التشريع وسنة الله في الجزاء

لقد ورد تعبير "سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" في موضعين من سورة الأحزاب:

· الموضع الأول) الآية(38 : في سياق رفع الحرج عن النبي صلى الله عليه وسلم في زواجه بزينب، وبيان أن إباحة زواج مطلقة الدعي هو سنة الله في الأنبياء من قبله .فهذه سنة تشريعية.
· الموضع الثاني) الآية(62 : في سياق وعيد المنافقين والمرجفين باللعنة والقتل والنفي، وبيان أن هذه العقوبات هي سنة الله في المفسدين عبر التاريخ .فهذه سنة جزائية.

وهذا التكامل يظهر أن سنة الله تشمل جميع جوانب الحياة:

· سنن التشريع:(الحلال والحرام، الأوامر والنواهي.)
· سنن الجزاء: الثواب والعقاب، النصر والهزيمة، العزة والذلة.
· سنن الاجتماع: التمكين والاستخلاف، الصعود والهبوط، قيام الحضارات وسقوطها.
· سنن الكون:(الليل والنهار، الفصول الأربعة، الموت والحياة.)

الأمر الثاني: السنن الإلهية – مفتاح فهم الحياة والتاريخ والاستخلاف

بعد أن بينا معنى السنة الإلهية وثباتها، نأتي إلى السؤال الأهم: كيف تكون معرفة هذه السنن سبيلًا للهداية، ودليلا ً للعمل، ومفتاحًا للاستخلاف؟

١.السنن الإلهية: أشبه بمعادلات رياضية دقيقة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا التشبيه العظيم: السنن الإلهية أشبه ما تكون بمعادلات رياضية دقيقة، وضعها رب العالمين لتكون قوانين تحكم الوجود.

· في الرياضيات: .2 = 1 + 1 هذه معادلة ثابتة، لا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو الأشخاص .من أدركها وعمل بها، وصل إلى النتيجة الصحيحة .ومن خالفها، وصل إلى نتيجة خاطئة.
· في سنن الله: "إن تنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ"(محمد: .)7 هذه معادلة إلهية ثابتة .من نصر الله(بالإيمان و العمل الصالح والجهاد)، نصره الله .ومن خذل دين الله، خذله الله .هذه المعادلة لا تتخلف، ولا تحابي

أحدًا.

وكما أن الطالب الذي يعرف المعادلات الرياضية ويطبقها، ينجح في الامتحان .فإن المؤمن الذي يعرف السنن الإلهية ويعمل بموجبها، ينجح في امتحان الحياة، ويفوز في الدنيا والآخرة.

.٢معرفة السنن: سبيل الهداية ودليل العمل

أ .السنن تهدي إلى معرفة أسباب النجاح والفشل
عندما نقرأ في القرآن عن أقوام سبقوا، آمنوا وعملوا صالحًا، فـ نجوا ومُكِن لهم في الأرض .وعن أقوام آخرين، كفروا وطغوا وأفسدوا، فـ أهلكوا ودُمّروا .فإننا بذلك نتعلم معادلات النجاح ومعادلات الفشل .فنعرف أن الإيمان والعمل الصالح والعدل والإحسان هي أسباب النجاح .وأن الكفر والظلم و الفساد والإرجاف هي أسباب الفشل.

ب .السنن تعطي دليلا ً عمليًا للتعامل مع الحياة
معرفة السنن الإلهية ليست معرفة نظرية فقط، بل هي دليل عملي للتعامل مع تحولات الحياة وتحدياتها .فإذا أصابت الأمة هزيمة، فإننا لا نعزوها إلى الصدفة أو الحظ، بل نبحث عن السبب في مخالفة سنة من سنن الله) مثل: التنازع والاختلاف، أو حب الدنيا وكراهية الموت، أو ترك الجهاد والأ مر بالمعروف .(ثم نعالج هذا السبب، لتعود الأمة إلى سابق عهدها من النصر والتمكين.

.٣السنن الإلهية: مفتاح الاستخلاف وحمل الأمانة

أ .الاستخلاف في الأرض ليس عشوائيًا، بل تحكمه سنن
الله تعالى استخلف الإنسان في الأرض، وجعله خليفة، يحمل الأمانة، ويعمر الأرض، ويقيم العدل . وهذا الاستخلاف ليس عشوائيًا، ولا يُعطى لأي أحد، بل تحكمه سنن إلهية ثابتة .قال تعالى: "وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ") النور: .(55 هذه معادلة الاستخلاف: إيمان + عمل صالح = تمكين في الأرض.

ب .حمل الأمانة يتطلب معرفة السنن
الأمانة التي حملها الإنسان(وهي التكليف والعبادة والعمران فى الارض)لا يمكن أداؤها إلا بمعرفة السنن الإلهية التي تحكم الحياة .فمن جهل سنن التغيير والتمكين والابتلاء والصراع، فشل في حمل ا لأمانة، وخان الله ورسوله والمؤمنين.

.٤السنن الإلهية: مفتاح فهم قصة الإنسان منذ بدء الخلق

أ .السنن تكشف معالم قصة الإنسان على الأرض
عندما نتتبع قصة الإنسان منذ هبوط آدم إلى الأرض، مرورًا بـ نوح والطوفان، وإبراهيم والنموردة، وموسى وفرعون، ومحمد وقياصرة وكسرى ...نجد أن هذه القصة ليست مجرد أحداث متفرقة، بل هي تجسيد لـ سنن إلهية ثابتة .فـ الصراع بين الحق والباطل، والابتلاء بالخير والشر، والتداول بين الناس، وهلاك المكذبين، ونجاة المؤمنين ...كل هذه سنن تتكرر في كل زمان ومكان.

ب .السنن توضح سيرورة التاريخ وحركته
التاريخ ليس فوضى، ولا عشوائية، بل هو حركة تحكمها سنن إلهية .فالأمم تصعد وتهبط، والحضارات تقوم وتسقط، والدول تقوى وتضعف، وفق معادلات ثابتة .معرفة هذه المعادلات هي مفتاح فهم التاريخ، والاستفادة من دروسه، وعدم تكرار أخطائه.

الأمر الثالث: عند مواجهة الأزمات والتحديات – العودة إلى السنن

هذه الآية الكريمة تضع أمامنا منهجًا عمليًا للتعامل مع الأزمات والتحديات التي تواجه الأفراد و المجتمعات والأمم .إنها تقول لنا بكل وضوح: "عندما تواجهون أزمة، أو تقعون في مشكلة، فلا تنظروا إلى السطح، بل ابحثوا عن الجذور .اسألوا أنفسكم: أي سنة من سنن الله خالفنا؟ وأي معادلة إلهية أهملنا؟"

.١قبل كل شيء: إدراك أن الحياة تحكمها سنن ونظام وأقدار

أول خطوة في معالجة الأزمات هي إدراك أن الحياة ليست فوضى، بل تحكمها سنن ونظام وأقدار .

وأن ما أصابنا من مصيبة أو فشل أو هزيمة، لم يكن عشوائيًا، بل هو نتيجة حتمية لـ مخالفة سنة من سنن الله.

تطبيق عملي:
عندما تواجه أزمة اقتصادية، أو هزيمة عسكرية، أو تفككًا اجتماعيًا، أو ضعفًا إيمانيًا ...لا تقل: "هذا سوء حظ"، أو "هذه مؤامرة خارجية" .بل قل: "هذه نتيجة مخالفة سنة من سنن الله .فلنبحث عن أسبابها الحقيقية في أنفسنا ومجتمعاتنا، ولنعالجها".

.٢الخلل في التعامل مع السنن يفضي إلى الفشل والكوارث

الآية تؤكد أن الخلل في التعامل مع السنن الإلهية، سواء بجهلها، أو تجاهلها، أو مصادمتها، سيؤدي حتمًا إلى الفشل ووقوع الأزمات والكوارث.

مثال من الواقع:

· أمة تركت الجهاد في سبيل الله، وآثرت الدعة والراحة .هذه مخالفة لسنة الجهاد .والنتيجة: ذل وهوان، وتسلط الأعداء.
· مجتمع فشا فيه الظلم، وأكل المال بالباطل، ومنع الحقوق .هذه مخالفة لسنة العدل .والنتيجة: تفكك وفساد، وخراب ودمار.
· فرد أعرض عن ذكر الله، واتبع هواه، وغفل عن الآخرة .هذه مخالفة لسنة الذكر والتقوى .والنتيجة: ضنك في المعيشة، وشقاء في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

.٣مصدر المعرفة بالسنن: الوحي والعلم والتجربة

كيف نعرف هذه السنن الإلهية؟
الآية توجهنا إلى ثلاثة مصادر أساسية:

أ .الوحي) القرآن والسنة(:
القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان لمعرفة السنن الإلهية .فالله يخبرنا في كتابه عن سننه في الأمم، والمجتمعات، والأفراد .قال تعالى: "قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ") آل عمران:.(137

ب .العلم والمعرفة:
العلم بفروعه المختلفة) التاريخ، الاجتماع، الاقتصاد، السياسة (...يكشف لنا عن تجليات السنن الإلهية في الواقع .فدراسة التاريخ تظهر لنا سنن الصعود والهبوط .ودراسة الاجتماع تظهر لنا سنن التماسك والتفكك .ودراسة الاقتصاد تظهر لنا سنن الرخاء والكساد.

ج .التجربة والسير في الأرض:
الله يأمرنا بـ "السير في الأرض" ، أي: التجربة والمشاهدة والمعاينة .فبالنظر في أحوال الأمم، ومصارع الحضارات، وتجارب الشعوب، نصل إلى معرفة يقينية بـ السنن الإلهية واطرادها.
الأمر الرابع:
التكامل بين الآية (62) والآية (38) – سنة الله في التشريع وسنة الله في الجزاء

كما ذكرنا، ورد تعبير "سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" في موضعين من سورة الأحزاب .وهذا التكامل له دلالات عظيمة:

.١الآية(38) : سنة الله في التشريع ورفع الحرج

في الآية(38) ، ذكرت "سنة الله" في سياق إباحة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد بن حارثة .وهذا تشريع يرفع الحرج عن المؤمنين في زواج مطلقات الأ دعياء .فبين الله أن إباحة هذا الزواج هو سنة الله في الأنبياء من قبل) مثل داود وسليمان .(فهذه سنة تشريعية.

.٢الآية(62) : سنة الله في الجزاء وعقاب المفسدين

في الآية(62) ، ذكرت "سنة الله" في سياق وعيد المنافقين والمرجفين باللعنة والقتل والنفي .وهذا جزاء وعقاب للمفسدين في الأرض .فبين الله أن هذه العقوبات هي سنة الله في المفسدين عبر التاريخ .فهذه سنة جزائية.

.٣دلالة التكامل: شمول السنة الإلهية لجميع جوانب الحياة

هذا التكامل بين سنة التشريع وسنة الجزاء يدل على أن السنة الإلهية تشمل جميع جوانب الحياة:

· في جانب التشريع: الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، هي سنن إلهية، من التزمها نجا، ومن خالفها هلك.
· في جانب الجزاء: الثواب والعقاب، والنصر والهزيمة، والعزة والذلة، هي سنن إلهية، مطردة، لا تحابي أحدًا.

فالمؤمن يتعامل مع السنن التشريعية بـ الطاعة والامتثال .ويتعامل مع السنن الجزائية بـ الاحتساب والصبر والأخذ بالأسباب.
الأمر الخامس:
كيف نعيش آية "سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآية، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه المعرفة بـ السنن الإلهية في حياتنا اليومية وفي واقعنا المعاصر؟

.١دراسة السنن الإلهية في القرآن والسنة

التطبيق العملي:

· اجعل لك وردًا قرآنيًا تبحث فيه عن السنن الإلهية .اقرأ قصص الأنبياء، والأمم السابقة، واسأل نفسك: "ما هي السنة التي تكررت هنا؟".
· اقرأ في كتب "السنن الإلهية" التي ألفها العلماء المعاصرون) مثل: "سنن الله في الأمم" للدكتور محمد عبد الله دراز، و"السنن الإلهية في القرآن" للدكتور زغلول النجار.(
· تعلم من السنة النبوية: أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مليئة بالإشارات إلى السنن الإلهية) مثل: حديث "إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم".(

.٢تحليل الأحداث الجارية في ضوء السنن الإلهية

التطبيق العملي:

· لا تمر على الأحداث مرورًا عابرًا .عندما تسمع عن أزمة اقتصادية، أو حرب، أو انهيار دولة، أو صحوة أمة، اسأل نفسك: "ما هي السنن الإلهية التي تجلت في هذا الحدث؟".
· استخدم "المعادلات الإلهية" في التحليل: "إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ" ، "وَمَنْ يَتَقِ اللهَ يَجْعَل لهُ مَخْرَجًا" ، "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَىٰ آمَنُوا وَاتقوْا لفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ" ... هذه المعادلات تفسر الكثير مما يجري في العالم.

.٣معالجة أزماتنا الفردية والجماعية بالعودة إلى السنن

التطبيق العملي:

· إذا وقعت في مشكلة فردية) ضيق رزق، هم وغم، مرض، فشل في دراسة أو عمل(...، فلا تستسلم لليأس .بل ابحث عن السبب في مخالفة سنة إلهية .هل قطعت رحمًا؟ هل أكلت حرامًا؟ هل تركت ذكر الله؟ هل اتبعت هوى نفسك؟ ثم عالج السبب، وعد إلى الله، وسترى الفرج.
· إذا واجهت الأمة أزمة) هزيمة، تخلف، فرقة(...، فلا نلقي باللوم على المؤامرات الخارجية فقط .بل نبحث عن أسبابنا الداخلية: هل تركنا الجهاد؟ هل فشا فينا الظلم؟ هل تنازعنا واختلفنا؟ هل أحببنا الدنيا وكرهنا الموت؟ ثم نعالج هذه الأسباب، لنستحق نصر الله.

.٤تربية الأبناء على فهم السنن الإلهية

التطبيق العملي:

· قصص القرآن: احكِ لأبنائك قصص القرآن، واربطها بـ السنن الإلهية .قل لهم: "انظروا كيف نجا نوح والمؤمنون لأنهم آمنوا وعملوا صالحًا، وكيف هلك فرعون وجنوده لأنهم كفروا وطغوا .هذه سنة الله التي لا تتبدل".
· علمهم أن النجاح له معادلات: "النجاح = إيمان + عمل صالح + صبر + توكل على الله" .و"الفشل = كفر + فساد + ظلم + غفلة" .هذه معادلات بسيطة، ولكنها تغرس فيهم فهم السنن.

٥.استشعار المسؤولية عن الاختيار: أنت تختار النتيجة باختيارك السبب

التطبيق العملي:

· أدرك أنك مسؤول عن اختيارك .فالله لم يجبرك على طريق النجاة ولا على طريق الهلاك .بل بين لك السنن، وأرشدك إلى المعادلات، وأعطاك حرية الاختيار .فإن اخترت أسباب النجاة، نجوت .وإن اخترت أسباب الهلاك، هلكت ."وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ") الكهف: 29).
· لا تلم إلا نفسك .إذا فشلت، فلا تقل: "هذا قدري" .بل قل: "هذا نتيجة اختياري، ومخالفتي لسنة الله " .وتب إلى الله، وأصلح من حالك.
سادسًا: القيم المستفادة من الآية) 62 مع الآية(38

القيمة تجلياتها في الآيتين
ثبات السنن الإلهية واطرادها "سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ" – سنن ثابتة لا تتغير.
السنن مفتاح فهم الحياة والتاريخ دراسة السنن تشرح لنا قصة الإنسان وسيرورة التاريخ.
السنن أشبه بمعادلات رياضية دقيقة "إِن تنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُم" – معادلات للنجاح والفشل.
معرفة السنن سبيل الهداية ودليل العمل السنن ترشدنا إلى أسباب النجاة وأسباب الهلاك.
السنن مفتاح الاستخلاف وحمل الأمانة "وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا ...لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ" – معادلة الاستخلاف.
الخلل في التعامل مع السنن يفضي إلى الفشل مخالفة السنن تؤدي حتمًا إلى الكوارث والأزمات.
مصادر معرفة السنن: الوحي والعلم والتجربة "فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ" – دعوة للبحث والتأمل.
شمول السنن للتشريع والجزاء التكامل بين آية (38) وآية (62) يظهر شمول السنن.
المسؤولية عن الاختيار أنت تختار النتيجة باختيارك السبب.
العودة إلى السنن لمعالجة الأزمات تحليل الأزمات في ضوء السنن يكشف أسبابها وعلاجها.
خاتمة: في رحاب السنن الإلهية – مفتاح المعرفة وسبيل الهداية

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآية الكريمة، التي تفتح لنا أوسع الآفاق لفهم الوجود والحياة و التاريخ .إنها آية تضع بين أيدينا المفتاح الذهبي لـ معرفة أسباب النجاح والفشل، والصعود والهبوط، والعزة والذلة .إنها آية تذكرنا بأن الله لم يخلق هذا الكون عبثًا، ولم يترك الحياة فوضى، بل أقامها على سنن ونواميس وقوانين، من أدركها وعمل بها، نجا وسعد، ومن جهلها أو صادمها، هلك وخسر.

لقد علمتنا هذه الآية – مع أختها (38) – أن:

· السنن الإلهية هي قوانين ثابتة، مطردة، لا تتبدل ولا تتحول.
· معرفة هذه السنن هي سبيل الهداية، ودليل العمل، ومفتاح الاستخلاف في الأرض.
· الحياة بكل تحولاتها وأزماتها لا يمكن فهمها إلا بإدراك هذه السنن، التي هي أشبه بمعادلات رياضية دقيقة.
· الخلل في التعامل مع السنن يفضي حتمًا إلى الفشل ووقوع الكوارث.
· مصادر معرفة السنن هي الوحي، والعلم، والتجربة، والسير في الأرض.
· نحن مسؤولون عن اختياراتنا، فمن اختار أسباب النجاة، نجا، ومن اختار أسباب الهلاك، هلك.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نتعلم السنن الإلهية من كتاب ربنا وسنة نبينا، وأن نحلل أحداث حياتنا وواقعنا في ضوئها، وأن نعالج أزماتنا بـ العودة إليها .ولنوقن بأن سنة الله ماضية، وأن وعد الله حق، وأن العاقبة للمتقين..

القسم الثانى
التوعد بالنار وقرب الساعه وبيان نوع العقاب في الايات من 63 الى 68
المبحث الأول
تفسير آيات الساعة ولعنة الكافرين وخلودهم (الأحزاب: 63-65) – في رحاب علم الغيب ومصير

المكذبين

مدخل إلى رحاب الآيات الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني المهيب، الذي ينقلنا من أجواء التشريع والسنن الاجتماعية إلى أعماق الغيب وأهوال الآخرة. بعد أن تحدثت السورة الكريمة عن المنافقين والمرجفين، ووعيدهم باللعنة والقتل والنفي، يأتي هذا المقطع ليضع النقطة الأخيرة في هذا الملف، وليكشف عن المصير الأبدي الذي ينتظر الكافرين والمكذبين. إنه مشهد تتجلى فيه هيبة الله وجبروته، وعدله وحكمته، ورحمته بالمؤمنين ونقمته من المجرمين.

تبدأ هذه اللوحة الربانية بسؤال استفزازي كان يوجهه المشركون والمنافقون للنبي صلى الله عليه وسلم: "يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ". سؤال المتعنت، لا المسترشد. سؤال من يريد التعجيز والتكذيب، لا الهداية والإيمان. فيأتي الرد الإلهي حاسمًا، قاطعًا: "قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ". علم الساعة غيب، استأثر الله به، لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب. إنها الضربة القاضية على كل فضولي ومتشكك.

ثم ينتقل السياق إلى المصير المحتوم لهؤلاء السائلين المتعنتين، ول- كل كافر ومكذب: "إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا". لعنة في الدنيا، ولعنة في الآخرة، ونار تسعر عليهم، خالدين فيها أبدًا، لا يجدون وليًا ولا نصيرًا. إنه الخزي الأبدي، والعذاب المقيم.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآيات الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، لنعيش لحظات اليقين بالغيب، ونرتعد من شدة الوعيد، ونزداد إيمانًا وتسليمًا لله رب العالمين.
الأمر الأول:
"يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ" – السؤال الاستفزازي وكشف دوافعه

اللمسة البيانية الأولى: "يَسْأَلُكَ" – صيغة المضارع: تجدد السؤال واستمراره

تبدأ الآية الكريمة بقوله: "يَسْأَلُكَ". والفعل مضارع، وهو يفيد التجدد والاستمرار. فكأن الآية تقول: "يسألك الناس، وسيظلون يسألونك، عن الساعة، في كل وقت وحين". وهذا الإخبار عن استمرار السؤال يحمل في طياته تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيتًا له: "لا تحزن يا محمد من كثرة أسئلتهم وتكرارها، فهذا دأبهم، وهذه عادتهم، وسيظلون يسألون إلى أن تقوم الساعة".

اللمسة البيانية الثانية: "النَّاسُ" – عموم السائلين: المشركون والمنافقون واليهود

لفظة "النَّاسُ" عامة، وتشمل كل من سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة من المشركين (قريش)، والمنافقين (الذين في قلوبهم مرض)، واليهود (الذين كانوا يختبرون نبوته). وقد ورد في أسباب النزول أن قريشًا قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: "إن بيننا وبينك قرابة، فأسر إلينا: متى الساعة؟". وقيل: إن اليهود قالوا: "يا محمد، أخبرنا متى الساعة إن كنت نبيًا كما تزعم، فإن الأنبياء يعلمون الساعة!". فنزلت هذه الآية.

وهذا التنوع في السائلين يدل على أن السؤال عن الساعة لم يكن سؤال مسترشد يطلب الهداية، بل كان سؤال متعنت يريد التعجيز والتكذيب وإحراج النبي.

اللمسة البيانية الثالثة: "عَنِ السَّاعَةِ" – ما هي الساعة؟

"السَّاعَة" في القرآن هي يوم القيامة، والوقت الذي تقوم فيه القيامة .وسميت "الساعة" لأنها تأتي بغتة في ساعة من ساعات الدنيا، أو لأنها ساعة عظيمة يهول أمرها.

والسؤال عن الساعة كان سؤالا ً عن توقيتها: "متى تقوم الساعة؟"، "أيان يوم القيامة؟". وهذا من الأ سئلة الخمسة التي استأثر الله بعلمها، كما في الحديث: "مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: إن الله عنده علم الساعة..." (رواه البخاري).

الرسائل التربوية والنفسية من سؤال المشركين عن الساعة

أ. كشف نوايا السائلين: التعنت لا الاسترشاد

الآية تكشف حقيقة دوافع السائلين عن الساعة. فهم لم يسألوا استرشادًا، ولا طلبًا للهداية، بل سألوا تعنتًا وتكذيبًا واستهزاءً. فهم يعلمون أن علم الساعة من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولكنهم يسألون ليحرجوا النبي، وليقولوا: "إن كان نبيًا حقًا فليخبرنا متى الساعة!". فلما عجز عن الإخبار (لأن الله لم يطلعه عليه)، قالوا: "لو كان نبيًا لعلم الساعة!".

وهذا يعلمنا أن أسئلة المتعنتين لا تنتهي، ولا تشبع من الأجوبة. فمهما أجبتهم، سيأتون بأسئلة جديدة. فالأولى عدم الانشغال بهم، وتفويض الأمر إلى الله.

ب. أن العلم بالساعة ليس شرطًا للنبوة

الآية ترد على زعم اليهود أن الأنبياء يعلمون الساعة. فالنبي صلى الله عليه وسلم نبي حق، ورسول صدق، ومع ذلك لم يُطلعه الله على وقت الساعة. فعلم الساعة ليس شرطًا للنبوة، بل هو غيب استأثر الله به، لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل.

ج. الأدب مع الغيب: التسليم لله وعدم الخوض فيما لا يعلم

سؤال المشركين عن الساعة هو سوء أدب مع الغيب. فالمؤمن يسلم لله، ويؤمن بما أخبر به، ولا يخوض فيما استأثر الله بعلمه. قال تعالى: "وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ" (الإسراء: 36).
الأمر الثاني:
"قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ" – الإعلان القاطع بحصر علم الساعة بالله

بعد أن بين الله سؤال الناس عن الساعة، أمر نبيه أن يجيبهم بهذا الجواب القاطع: "قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الجواب

١."قُلْ" – الأمر بالتبليغ: إعلان الحق وعدم الخوف من لومة لائم

"قُلْ" أمر من الله لنبيه أن يعلن هذا الجواب، ولا يخفي منه شيئًا، ولا يخشى في الله لومة لائم .فـ النبي صلى الله عليه وسلم مبلِّغ عن ربه، وليس له أن يضيف أو ينقص من الجواب الإلهي.

٢."إِنَّمَا" – أداة حصر: قصر علم الساعة على الله

"إِنَّمَا" تفيد الحصر والقصر .فالمعنى: علم الساعة عند الله وحده، لا عند غيره .فليس لنبي، ولا لملك، ولا لولي، ولا لعراف، أي علم بـ وقت الساعة .هذا الحصر يقطع كل أطماع المتعنتين، ويسد كل باب للمتشككين.

٣."عِلْمُهَا" – إضافة العلم إلى الساعة: تخصيص وتأكيد

"عِلْمُهَا" أي: معرفة وقتها وتعيينه .وهذا تخصيص بعد تعميم) في الآية السابقة: "عَنِ السَّاعَةِ" .(فالمراد علم وقتها، لا أصلها) فأصلها معلوم أنها آتية.(

٤."عِندَ اللَّهِ" – عندية المكانة والاختصاص

"عِندَ اللَّهِ" لا تعني المكان) لأن الله منزه عن المكان(، بل تعني الاختصاص والملكية .فعلم الساعة خاص بالله، مستأثر به، لا يشركه فيه أحد .وقد ورد في الحديث: "في خمس لا يعلمهن إلا الله ...إن الله عنده علم الساعة".

اللمسة البيانية الرابعة: "وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا" – إشارة إلى قرب الساعة

هذه الجملة تكمل الجواب الإلهي، وتضيف بُعدًا جديدًا: "وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا".

١."وَمَا يُدْرِيكَ" – استفهام إنكاري: أنت لا تدري

"مَا يُدْرِيكَ" استفهام إنكاري، أي: ما الذي يعلمك؟ والمعنى: لا أحد يدريك، ولا أحد يعلمك، أنت لا

تدري متى الساعة .وهذا تأكيد على أن النبي نفسه لا يعلم وقت الساعة.

.٢"لَعَلَّ" – للترجي والتقريب: إشارة إلى قرب الساعة

"لَعَلَّ" هنا ليست للترجي الحقيقي) فاللّه لا يترجى(، بل هي للإشعار بالقرب والاحتمال .فالمعنى: "إن الساعة قريبة، فيوشك أن تقوم" .وهذا تحذير للمكذبين، وحث للمؤمنين على الاستعداد.

.٣"تَكُونُ قَرِيبًا" – وصف الساعة بالقرب: قرب نسبي لا مطلق

وصف الساعة بأنها "قَرِيبًا" (بصيغة المذكر، مع أن الساعة مؤنثة) فيه مبالغة في القرب. والمعنى: الساعة قريبة جدًا. وهذا القرب نسبي بالنسبة إلى عمر الدنيا، وإلى الأمم السابقة. قال صلى الله عليه وسلم: "بعثت أنا والساعة كهاتين" وأشار بالسبابة والوسطى (رواه البخاري).

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الجواب الإلهي

أ. التسليم المطلق لله في علم الغيب

الآية تغرس في قلب المؤمن مبدأ التسليم المطلق لله في علم الغيب. فما استأثر الله بعلمه، لا يجوز السؤال عنه (سؤال تعنت)، ولا الخوض فيه بغير علم. بل الواجب التسليم، والإيمان بأن الله أعلم حيث يجعل علمه.

ب. أن الجهل بوقت الساعة رحمة وحكمة

من رحمة الله بعباده أنه أخفى عنهم وقت الساعة. فلو علموا وقتها، لكانوا في قلق دائم، ولتعطلت الحياة، ولتركوا العمل. ولكن إخفاءها يجعل المؤمن دائم الاستعداد، خائفًا من بغتة الساعة، متأهبًا للقاء الله في كل لحظة.

ج. قرب الساعة: حافز للعمل الصالح والاستعداد

وصف الساعة بأنها "قَرِيبًا" هو حافز قوي للمؤمن على العمل الصالح، والتوبة، والاستعداد للقاء الله. فما دامت الساعة قريبة، فلماذا التسويف؟ ولماذا التعلق بالدنيا؟ ولماذا الغفلة عن الآخرة؟
الأمر الثالث:
"إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا" – الوعيد باللعنة والنار

بعد أن بين الله جواب السؤال عن الساعة، انتقل إلى بيان مصير هؤلاء السائلين المتعنتين، وكل كافر ومكذب: "إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الوعيد

.١"إِنَّ" – تأكيد الخبر وتقريره

"إِنَّ" للتوكيد، فالمعنى: "إنه لحق ويقين، أن الله لعن الكافرين" .وهذا التأكيد يقطع كل شك، ويدفع كل وهم.

.٢"اللَّهَ" – اسم الجلالة: مصدر اللعنة والعذاب

اللعنة صادرة من الله، مالك الملك، رب العالمين. وهذا يكفي لبيان عظم هذه اللعنة وجلالة شأنها. فمن لعنهم الله، فقد حرمهم رحمته، وأبعدهم عن جنته، وأعد لهم عذابًا أليمًا.

.٣"لَعَنَ" – الفعل الماضي: تحقق الوقوع وثبوته

"لَعَنَ" فعل ماض، يفيد تحقق الوقوع وثبوته .فاللعنة قد وقعت على الكافرين، وثبتت عليهم، ولازمتهم.

ما هي اللعنة؟
اللعنة هي الطرد والإبعاد من رحمة الله. فمن لعنهم الله، فهم مطرودون من رحمته في الدنيا والآخرة، محرومون من توفيقه وهدايته وجنته.

.٤"الكافِرِينَ" – جمع معرف بـ "ال-": عموم وشمول

"الكافِرِينَ" جمع معرف بـ "ال-" الاستغراقية .فيشمل كل كافر، سواء كان مشركًا أو منافقًا أو يهوديًا أو نصرانيًا أو ملحدًا .فكل من كفر باللّه ورسله وكتبه واليوم الآخر، فهو داخل في هذه اللعنة.

.٥"وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا" – زيادة الوعيد بإعداد النار

"أَعَدَّ" أي: هيأ وجهز .فاللّه أعد للكافرين نارًا تسعر عليهم، أي: تشتعل وتتوقد .ووصف النار بأنها "سَعِيرًا") صيغة مبالغة (يدل على شدة اشتعالها، وعظم لهيبها، وكثرة وقودها.

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الوعيد

أ. بيان عاقبة الكفر والتكذيب

هذه الآية تظهر عاقبة الكفر الوخيمة: اللعنة من اللّه، والطرد من رحمته، والنار التي تسعر عليهم. وهذا تحذير شديد لكل من يسوّل له الشيطان الكفر أو التكذيب.

ب. أن الكفر جريمة لا تغتفر إلا بالتوبة

الآية تؤكد أن الكفر هو أعظم جريمة في ميزان اللّه، وعقوبته اللعنة والنار. ولا ينجو من هذه العقوبة إلا من تاب قبل الموت، ورجع إلى اللّه، وآمن وعمل صالحًا.

ج. الترهيب من الكفر والترغيب في الإيمان

الآية تستخدم أسلوب الترهيب لتخويف الناس من الكفر، ودفعهم إلى الإيمان. فمن سمع هذا الوعيد، وخاف من اللعنة والنار، فإنه يسارع إلى الإيمان والعمل الصالح.
الأمر الرابع:
"خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا" – تأكيد الخلود ونفي النصير

بعد الوعيد بـ اللعنة والسعير، جاءت هذه الآية لتؤكد دوام العذاب وانقطاع الأمل في النجاة: "خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا التأكيد

.١"خَالِدِينَ" – حال مؤكدة: الدوام والبقاء

"خَالِدِينَ" حال من "الكافِرِينَ" ، أو من ضمير "لَهُمْ" في الآية السابقة .والمعنى: أعد لهم سعيرًا حال كونهم خالدين فيها .والخلود هو البقاء الدائم، بلا انقطاع، وبلا موت.

.٢"فِيهَا" – في النار: مكان العذاب

"فِيهَا" أي: في السعير .فهم محبوسون في النار، لا يخرجون منها، ولا يخفف عنهم عذابها.

.٣"أَبَدًا" – ظرف زمان: تأكيد الدوام والاستمرار

"أَبَدًا" تفيد الاستمرار والدوام بلا نهاية .فالخلود أبدي، لا انقطاع له .وهذا أشد ما في العذاب: أنه دائم لا ينقطع، ومقيم لا يزول.

.٤"لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا" – نفي كل أمل في النجاة

هذه الجملة تقطع كل أمل في النجاة أو الشفاعة أو النصرة:

· "وَلِيًّا" : أي: قريبًا أو حليفًا أو صديقًا يتولى أمرهم ويدافع عنهم.
· "نَصِيرًا" : أي: ناصرًا ينصرهم، ويدفع عنهم العذاب.

فلا ولي ولا نصير للكافرين يوم القيامة. انقطعت بهم الأسباب، وخابت آمالهم، وبقوا في العذاب الأ بدي لا منقذ لهم.

لماذا أكد الله على خلود الكافرين ونفي النصير عنهم؟

أ. بيان عدل الله المطلق

الكافرون اختاروا الكفر، ورفضوا الإيمان، وكذبوا الرسل، واستكبروا عن طاعة الله. فكان من عدل الله أن يجازيهم بالخلود في النار، جزاء كفرهم واستكبارهم.

ب. قطع الأمل في الشفاعة أو التخفيف

الآية تقطع كل أمل قد يخطر ببال الكافرين من شفاعة أو تخفيف أو نصرة. فما داموا خالدين أبدًا، وما داموا لا يجدون وليًا ولا نصيرًا، فلا مخرج لهم مما هم فيه.

ج. تحذير المؤمنين من الاغترار بالدنيا

هذا الوعيد الشديد للكافرين هو تحذير للمؤمنين من الاغترار بالدنيا، والانشغال بها عن الآخرة. ف المؤمن يرى مصير الكافرين، فيزداد حرصًا على طاعة الله، وبعدًا عن معصيته.
الأمر الخامس:
كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآيات، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١.التسليم لله في علم الغيب وعدم الخوض فيما استأثر الله به

التطبيق العملي:

· لا تشغل بالك بمعرفة الغيب: "متى الساعة؟" ، "متى يموت فلان؟" ، "ماذا سيحدث في المستقبل؟" ... هذه أسئلة لا يجوز الخوض فيها .سلم لله، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا.
· احذر من المنجمين والعرافين: لا تذهب إليهم، ولا تسألهم، ولا تصدقهم .فمن صدقهم، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

٢.الاستعداد للساعة بالعمل الصالح لا بالسؤال عن وقتها

التطبيق العملي:

· لا تقل: "متى الساعة؟" بل قل: "ماذا أعددت للساعة؟" .هذا هو السؤال النافع الذي ينبغي أن يشغل با لك.
· استعد للساعة بـ: الإيمان، والعمل الصالح، والتوبة من الذنوب، وأداء الحقوق إلى أهلها، والإحسان إلى الناس.

٣.الخوف من اللعنة والنار: وازع عن المعاصي

التطبيق العملي:

· استحضر مشهد النار: إذا دعتك نفسك إلى معصية، فتذكر النار التي أعدها الله للكافرين، وخاف من أن تكون من أهلها.
· استحضر اللعنة: إذا هممت بـ كبيرة من كبائر الذنوب) كالزنا، والربا، والسرقة(، فتذكر اللعنة التي لعن الله بها الكافرين، واخشَ أن تلحقك هذه اللعنة.

٤.الدعوة إلى الله: إنقاذ الناس من النار

التطبيق العملي:

· ادعُ إلى الله: من رأى هذا الوعيد الشديد للكافرين، وجب عليه أن يدعو الناس إلى الإيمان، لينقذهم من النار.
· كن داعية بالحسنى: "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" .لا تخوّف الناس فقط، بل رغّبهم في رحمة الله، وبشّرهم بـ جنته.

.٥استشعار قرب الساعة: حافز للعمل وعدم التسويف

التطبيق العملي:

· لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد: "لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا" .تذكر أن الساعة قد تقوم في أي لحظة .فلا تسوّف في التوبة، ولا تؤجل العمل الصالح.
· عش حياتك بين الخوف والرجاء: خف من بغتة الساعة، وارجُ رحمة الله .فهذا التوازن هو سر الطمأنينة والسعادة.
سادسًا: القيم المستفادة من الآيات 63-65

القيمة تجلياتها في الآيات
علم الساعة من الغيب الذي استأثر الله به "إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ" – حصر علم الساعة بالله.
التسليم لله في علم الغيب "قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ" – رد علم الغيب إلى الله.
قرب الساعة "لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا" – حث على الاستعداد.
اللعنة على الكافرين "إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ" – طرد من رحمة الله.
إعداد النار للكافرين "وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا" – نار تتوقد وتشتعل.
خلود الكافرين في النار "خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا" – عذاب دائم لا ينقطع.
انقطاع الأمل في النجاة "لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا" – لا شفيع ولا ناصر.
الاستعداد للساعة بالعمل الصالح السؤال النافع: "ماذا أعددت للساعة؟".
الدعوة إلى الله لإنقاذ الناس من النار من علم هذا الوعيد وجب عليه الدعوة.
خاتمة: في رحاب الغيب ومصير الكافرين

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآيات الكريمة، التي تنقلنا إلى عالم الغيب، وتكشف لنا عن المصير الأبدي الذي ينتظر الكافرين والمكذبين. إنها آيات تفيض بالهيبة والجلال، وتذكرنا بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن علمها عند الله وحده، وأن الكافرين ملعونون في الدنيا والآخرة، وأن النار معدة لهم، خالدين فيها أبدًا، لا يجدون وليًا ولا نصيرًا.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· علم الساعة من الغيب الذي استأثر الله به، فلا يعلمه نبي ولا ملك.
· السؤال عن الساعة) سؤال تعنت (هو سوء أدب مع الغيب، والواجب التسليم لله.
· الساعة قريبة، فعلينا الاستعداد لها بـ الإيمان والعمل الصالح.
· الكافرين ملعونون، والنار معدة لهم، وخلودهم فيها أبدي، ولا ناصر لهم.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نسلم لله في علم الغيب، وأن نستعد للساعة بـ العمل الصالح، وأن نخاف من اللعنة والنار، وأن ندعو الناس إلى الإيمان، لينجوا من هذا المصير الرهيب..

المبحث الثاني
تفسير آيات ندم الأتباع ودعائهم على السادة والكبراء (الأحزاب: 66-68) – في رحاب التحرر من عبودية البشر ووهم الأكابر

مدخل إلى رحاب الآيات الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني المهيب، الذي ينقلنا إلى أعماق النار، وإلى لحظات الندم الأبدي، حيث يقف الأتباع والسادة وجهًا لوجه، بعد أن جمعتهم الدنيا على الضلال، وفرقتهم الآخرة في العداوة واللعنة. إنه مشهد تتجلى فيه حقيقة العلاقة بين التابع والمتبوع عندما تنكشف الأقنعة، وتسقط الأوهام، ويظهر الخسران المبين.

في هذه الآيات الكريمة، يرسم لنا القرآن لوحة فريدة من أهوال يوم القيامة، حيث تتقلب وجوه الكافرين في النار، وتنطلق ألسنتهم بالندم والتحسر، لا على ما فاتهم من متاع الدنيا، بل على أعظم

خسارة: ترك طاعة الله ورسوله، واتباع السادة والكبراء الذين أضلوهم السبيل. ثم تتحول الصحبة إلى عداوة، والطاعة إلى لعنة، حيث يدعو الأتباع على سادتهم بمضاعفة العذاب واللعنة الكبيرة.

إنها الآيات التي تكشف زيف العلاقات المبنية على الباطل، ووهن الروابط القائمة على غير طاعة الله. وتؤكد أن كل اتباع لغير هدى الله ورسوله هو ضلال وهلاك، وأن السادة والكبراء لن ينفعوا أتباعهم شيئًا يوم القيامة، بل سيكونون سببًا في مضاعفة عذابهم.

فلنغص معًا في أعماق هذه الآيات الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأننا نعيش هول ذلك الموقف، ونسمع صرخات الندم، ونرى تقلب الوجوه في النار، لنعود إلى أنفسنا، ونصحح مساراتنا، ونتحرر من عبودية البشر، ونلزم طاعة الله ورسوله.
الأمر الأول:
"يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا" – مشهد الندم الأبدي وأمنية الطاعة

اللمسة البيانية الأولى: "يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ" – استحضار المشهد وتهويله

تبدأ الآية الكريمة بظرف الزمان: "يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ". وهذا الاستحضار للمشهد يجعل الغيب كأنه واقع أمام الأعين.

١."يَوْمَ" – ظرف زمان: تهويل اليوم وتعظيمه

"يَوْمَ" هو يوم القيامة، اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت. وإضافته إلى جملة "تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ" يزيده تهويلا ً وتفظيعًا.

٢."تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ" – تقليب الوجوه: أشد ألوان العذاب

"تُقَلَّبُ" فعل مضارع مبني للمجهول، وهو يفيد الاستمرار والتكرار. فالوجوه لا تستقر على حال، بل تتقلب في النار من جهة إلى جهة، ومن لون إلى لون (من السواد إلى الاحمرار إلى البياض...). وهذا أشد في العذاب من بقائها على حال واحدة.

لماذا الوجوه بالذات؟
لأن الوجه هو أشرف ما في الإنسان، وبه يتميز، وبه يواجه الناس. فكان تعذيبه في النار هو أشد الإ هانة والخزي. كما أن الوجوه هي التي كانت تستكبر عن الحق، وتعرض عن الهدى، وتتجهم في وجوه المؤمنين. فجاء العذاب من جنس العمل.

٣."فِي النَّارِ" – مكان العذاب: السعير الذي أعد لهم

"فِي النَّارِ" هو مكان هذا التقليب المهين. وهي النار التي أعدها الله للكافرين، والتي تسعر عليهم، خ الدين فيها أبدًا.

اللمسة البيانية الثانية: "يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا" – صرخة الندم والاعتراف بالخطأ

في هذا المشهد المهيب، وهم يتقلبون في النار، تنطلق ألسنتهم بهذه الصرخة المدوية: "يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا".

١."يَقُولُونَ" – صيغة المضارع: استمرار الندم وتجدده

"يَقُولُونَ" مضارع، يفيد أن هذا الندم والتحسر متجدد، مستمر، لا ينقطع. فكلما تقلبت وجوههم في النار، تذكروا ما فاتهم، فـ انطلقت ألسنتهم بهذه الأمنية.

٢."يَا لَيْتَنَا" – أداة التمني: حسرة على ما فات

"يَا لَيْتَنَا" للتمني، وهو طلب الشيء المحبوب الذي فات. وهم يتمنون أمرًا مستحيلا ً، وهو العودة إلى الدنيا ليطيعوا الله ورسوله. وهذا التمني هو غاية الحسرة والندم.

٣."أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا" – الاعتراف بالحق بعد فوات الأوان

يتمنون أنهم أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا، بدل طاعة السادة والكبراء. وهذا اعتراف منهم بأن الحق كان في طاعة الله ورسوله، ولكنهم اعترفوا بعد فوات الأوان.

الترتيب بين "الله" و"الرسول":
قدموا طاعة الله على طاعة الرسول، لأن طاعة الرسول هي تابعة لطاعة الله. قال تعالى: "مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ" (النساء: 80).

٤."الرَّسُولَا" – إثبات الألف في الوصل: حكاية للفظ المنادى

قرئت "الرَّسُولَا" بإثبات الألف في الوصل، على لغة من يقف على المنادى بالألف. وهذا يحكي صوتهم وهم ينادون في ذلك الموقف العصيب. وفيه إشارة إلى شدة الندم والانفعال.

الرسائل التربوية والنفسية من مشهد الندم

أ. الندم بعد الموت لا ينفع

هذه الآية تظهر أن الندم بعد الموت، وفي النار، هو ندم لا ينفع. فما فات قد فات، ولا عودة إلى الدنيا لاستدراك ما فات. فليحرص العاقل على التوبة والعمل الصالح قبل فوات الأوان.

ب. أن طاعة الله ورسوله هي سبيل النجاة الوحيد

تمني الكافرين أنهم أطاعوا الله والرسول يدل على أن طاعة الله ورسوله هي السبيل الوحيد للنجاة من النار، والفوز بـ الجنة. فمن أطاع الله ورسوله، نجا. ومن عصاهما، هلك.

ج. أن الكافرين يعترفون بالحق يوم القيامة ولكن لا ينفعهم الاعتراف

الآية تظهر أن الكافرين سيعترفون بـ الحق يوم القيامة، وسيعلمون أن طاعة الله ورسوله هي الحق. ولكن هذا الاعتراف لا ينفعهم، لأنه بعد فوات الأوان. فليعترف المؤمن بالحق الآن، وليعمل به، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الاعتراف.
الأمر الثاني:
"وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا" – الاعتراف بسبب الضلال: اتباع السادة و الكبراء

بعد أن تمنوا طاعة الله ورسوله، اعترفوا بالسبب الذي منعهم من ذلك، وأوقعهم في هذا المصير المشؤوم: "وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الاعتراف

١."وَقَالُوا" – عطف على "يقولون": استمرار الاعتراف

"وَقَالُوا" معطوف على "يَقُولُونَ" ، وهو يفيد أنهم يستمرون في الاعتراف والتحسر، وينتقلون من التمني إلى بيان السبب.

٢."رَبَّنَا" – نداء الرب: استعطاف بعد فوات الأوان

"رَبَّنَا" نداء استعطاف، يوجهونه إلى الله، ربهم الذي خلقهم ورزقهم، ولكنهم عصوه وأشركوا به. وهم ينادونه في ذلك الموقف العصيب، لعل رحمة تدركهم، أو تخفيفًا يصيبهم. ولكن هيهات!

٣."إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا" – الاعتراف بالطاعة العمياء

"إِنَّا" للتوكيد. فهم يؤكدون أنهم أطاعوا سادتهم وكبراءهم، طاعة عمياء، بلا تفكير ولا تدبر.

· "سَادَتَنَا" جمع "سيد" ، وهم الرؤساء وأهل الحل والعقد في القبيلة أو المجتمع.
· "وَكُبَرَاءَنَا" جمع "كبير" ، وهم العظماء وأهل الثراء والجاه.

والجمع بينهما يدل على أنهم أطاعوا كل من له سلطة عليهم، سواء كانت سلطة اجتماعية (السادة) أو سلطة مالية أو فكرية (الكبراء).

٤."فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا" – بيان نتيجة الطاعة العمياء: الضلال عن السبيل

"فَأَضَلُّونَا" أي: فأبعدونا وصرفونا عن السبيل. و"السَّبِيلَا" هو طريق الحق والهدى، وهو طاعة الله ورسوله. فسادتهم وكبراؤهم زينوا لهم الباطل، وصدوهم عن الحق، حتى ضلوا وهلكوا.

إثبات الألف في "السَّبِيلَا":
كما في "الرَّسُولَا" ، إثبات الألف هنا يحكي صوتهم وهم ينطقون بهذه الكلمة في ذلك الموقف، مما يدل على شدة الانفعال والحسرة.

خطورة التنازل عن الشخصية والرأي واتباع السادة والكبراء

هذه الآية تضع أيدينا على أخطر أمراض الأمة: التنازل عن الشخصية، والرأي، والتفكير المستقل، واتباع السادة والكبراء طاعة عمياء، بلا تمحيص ولا تدبر.

أ. الطاعة العمياء: ضياع للهوية والشخصية

عندما يتنازل الإنسان عن عقله وتفكيره، ويسلم قياده لـ سادة وكبراء، دون أن يمحص ما يأمرونه به ، فإنه يفقد هويته، ويصبح أداة طيعة في أيديهم، يوجهونه حيث شاءوا، ولو إلى الهاوية.

ب. السادة والكبراء قد يضلون ولا يهدون

الآية تظهر أن السادة والكبراء الذين اتبعوهم لم يكونوا على هدى، بل كانوا على ضلال. فـ أطاعوهم، فأضلوهم السبيل. وهذا يعلمنا ألا نثق ثقة عمياء بأي مخلوق، كائنًا من كان، إلا إذا كان يدعو إلى طاعة الله ورسوله.

ج. مسؤولية الفرد عن اختياره: لا عذر للأتباع

قد يقول الأتباع: "نحن لم نكن نعلم، لقد أضلنا السادة والكبراء". ولكن القرآن لا يقبل هذا العذر. فكل إنسان مسؤول عن نفسه، وعليه أن يمحص ما يسمع، وأن يتبع الحق حيثما كان. فمن قلد واتبع بلا دليل، فهو مسؤول عن ضلاله.

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الاعتراف

أ. تحرير العقل من التبعية العمياء

الآية تدعونا إلى تحرير عقولنا من التبعية العمياء لأي مخلوق. فعلينا أن نفكر، ونتدبر، ونميز بين الحق والباطل، ولا نسلم عقولنا لـ أحد إلا لله ورسوله.

ب. أن الكبراء والسادة لن ينفعوا أتباعهم يوم القيامة

في الدنيا، قد ينفع السادة والكبراء أتباعهم، يوفرون لهم الحماية، أو المال، أو الجاه. أما يوم القيامة، فقد انقطعت الأسباب، ولا ينفع أحد أحدًا. بل إن الأتباع سيدعون على سادتهم (كما سيأتي في الآية التالية).

ج. وجوب اتباع الحق ولو خالف السادة والكبراء

المؤمن يتبع الحق حيثما كان، ولو خالف سادته وكبراءه. فـ الحق هو مقياس الولاء والبراء، لا الأشخاص ولا المناصب. قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ" (النساء: 135).
الأمر الثالث:
"رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا" – دعاء الأتباع على السادة والكبراء

بعد أن اعترفوا بأنهم أطاعوا سادتهم وكبراءهم فأضلوهم، تحولت الصحبة إلى عداوة، والطاعة إلى

لعنة. فبدلا ً من أن يطلبوا لأنفسهم الرحمة، انصرفوا إلى الدعاء على سادتهم بمضاعفة العذاب و اللعنة الكبيرة.

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الدعاء

.١"رَبَّنَا" – تكرار النداء: استعطاف وتأكيد

كرروا نداء "رَبَّنَا" مرة أخرى، مما يدل على شدة تعلقهم بربهم في ذلك الموقف، ورغبتهم في أن يستجيب لدعائهم.

.٢"آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ" – طلب مضاعفة العذاب

"آتِهِمْ" أي: أعطهم. و"ضِعْفَيْنِ" أي: مثلين، أو أضعافًا مضاعفة. والمعنى: ضاعف لهم العذاب، واجعله ضعفين: ضعفًا على كفرهم، وضعفًا على إضلالهم لنا. وهذا من شدة غيظهم منهم، وحقدهم عليهم.

.٣"وَالعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا" – طلب اللعنة الكبيرة

"وَالعَنْهُمْ" أي: اطردهم من رحمتك، وأبعدهم عن جنتك. و"لَعْنًا كَبِيرًا" أي: لعنة عظيمة، دائمة، متكاثرة. وهذا تأكيد على شدة بغضهم لهم.

لماذا دعا الأتباع على سادتهم بهذا الدعاء؟

أ. لأنهم كانوا سبب ضلالهم وهلاكهم

الأتباع أدركوا أن سادتهم وكبراءهم هم السبب المباشر في ضلالهم وهلاكهم. فهم الذين زينوا لهم الباطل، وصدوهم عن الحق، وأوقعوهم في النار. فكان الانتقام منهم هو كل ما يشغل بالهم.

ب. لأن السادة والكبراء لم ينفعوهم شيئًا يوم القيامة

في الدنيا، كان السادة والكبراء يعدونهم ويمنونهم، ويدافعون عنهم. أما يوم القيامة، فقد تبرأوا منهم (كما قال تعالى: "وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم" (إبراهيم: 22)). فازداد غيظهم منهم، ودعوا عليهم بهذا الدعاء.

ج. لأن العذاب مضاعف على من أضل غيره

من سنن الله أن العذاب يضاعف على من أضل غيره، لأنه جمع بين ضلال نفسه وإضلال غيره. قال صلى الله عليه وسلم: "من دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا" (رواه مسلم). فدعاء الأتباع بمضاعفة العذاب على سادتهم هو موافق لسنة الله في مضاعفة العذاب على المضلين.

الرسائل التربوية والنفسية من هذا الدعاء

أ. أن العلاقات المبنية على الباطل تنقلب عداوة يوم القيامة

الآية تظهر أن الصحبة والولاء المبنيين على الباطل، والطاعة العمياء لغير الله ورسوله، سينقلبان يوم القيامة إلى عداوة ولعنة. "الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ" (الزخرف: 67).

ب. تحذير السادة والكبراء من إضلال الناس

هذه الآية تحذير شديد لكل من تصدر للقيادة، أو أصبح قدوة، أو له أتباع. فعليه أن يحذر من إضلا لهم، أو توجيههم إلى غير طاعة الله. فإن عذابه سيكون مضاعفًا، ولعنة أتباعه ستلحقه.

ج. أن الأتباع لن يجدوا في سادتهم ملاذًا يوم القيامة

هذه الآية تقطع كل أمل لدى الأتباع في أن ينفعهم سادتهم وكبراؤهم يوم القيامة. بل إن سادتهم

سيكونون أشد أعدائهم، وسيدعون عليهم (كما يدعون هم عليهم). فليحرص العاقل على أن يكون ولا ؤه لله ورسوله والمؤمنين، لا للسادة والكبراء المضلين.
الأمر الرابع:
الربط بين الآيات الثلاث – لوحة متكاملة من الندم والاعتراف واللعنة

الآيات الثلاث (66-68) ترسم لوحة متكاملة من ثلاثة مشاهد متتابعة:

الآية المشهد العاطفة المسيطرة
66تقلب الوجوه في النار وتمني طاعة الله والرسول الندم والحسرة على ما فات
67الاعتراف بأن طاعة السادة والكبراء هي سبب الضلال الاعتراف بالخطأ وإلقاء اللوم على المضلين
68الدعاء على السادة والكبراء بمضاعفة العذاب واللعنة الكبيرة الغيظ والانتقام ممن كانوا سببًا في الهلاك

وهذه المشاهد الثلاثة تكشف عن حقيقة العلاقة بين الأتباع والمتبوعين في الدنيا والآخرة:

· في الدنيا: ولاء وطاعة واتباع.
· في الآخرة: عداوة ولعنة ودعاء بمضاعفة العذاب.

وهذا التحول الدراماتيكي في العلاقة هو أبلغ تحذير للمؤمن من الاغترار بـ السادة والكبراء، ومن التنازل عن عقله وشخصيته لأي مخلوق.
الأمر الخامس:
كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآيات، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

.١تحرير العقل من التبعية العمياء للأشخاص

التطبيق العملي:

· لا تقلد أحدًا في دينك بلا دليل: سواء كان عالمًا أو داعية أو شيخ قبيلة أو مؤثرًا على وسائل التواصل. اسأل عن الدليل، وتعلم، وافهم. فأنت مسؤول عن نفسك يوم القيامة.
· كن صاحب شخصية مستقلة: لا تذوب في شخصية غيرك، ولا تقلد أحدًا في كل شيء. فكر، وتدبر، واختر ما يرضى الله.

.٢الحذر من "السادة والكبراء" المضلين في عصرنا

التطبيق العملي:

· السادة والكبراء في عصرنا ليسوا فقط شيوخ القبائل وأصحاب الثراء، بل هم أيضًا:
  · المشاهير والمؤثرون على وسائل التواصل الاجتماعي.
  · أصحاب النظريات والأيديولوجيات المنحرفة.
  · القادة الفكريون للتيارات المنحرفة عن الإسلام.
· لا تتبعهم في ضلالهم، ولو كانوا يتحدثون باسم "التقدم" أو "التحرر" أو "التنوير". المقياس هو كتاب الله وسنة رسوله.

.٣مراجعة ولاءاتنا وعلاقاتنا

التطبيق العملي:

· اسأل نفسك: "من هم سادتي وكبرائي الذين أطيعهم؟". هل هم يدعونني إلى طاعة الله ورسوله؟ أم يضلونني السبيل؟
· صحح ولاءاتك: اجعل ولاءك لله ورسوله والمؤمنين. وتبرأ من كل من يدعو إلى غير طاعة الله، ولو كان قريبًا أو صديقًا.

٤.تحذير السادة والكبراء المعاصرين من إضلال الناس

التطبيق العملي:

· إذا كنت صاحب نفوذ أو تأثير (أب، معلم، داعية، صاحب حساب مؤثر)، فاحذر أشد الحذر من أن تضل من يتبعك، أو توجههم إلى غير طاعة الله. فإن عذابك سيكون مضاعفًا، ولعنة أتباعك ستلحقك.
· ادعُ إلى الله على بصيرة: "قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي" (يوسف: 108).

٥.تربية الأبناء على الاستقلال الفكري واتباع الحق

التطبيق العملي:

· علم أبناءك أن يسألوا، ويفكروا، ولا يقلدوا أحدًا بلا دليل. "لماذا نفعل هذا؟" ، "ما الدليل من القرآن والسنة؟".
· اغرس فيهم أن الحق هو المقياس، لا الأشخاص. فإذا أخطأ العالم أو الداعية، نرد خطأه، ولا نتبعه فيه.
· قص عليهم قصة الأتباع والسادة في هذه الآيات، ليعرفوا عاقبة الطاعة العمياء.
سادسًا: القيم المستفادة من الآيات 66-68

القيمة تجلياتها في الآيات
الندم بعد فوات الأوان لا ينفع "يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا" – تمني مستحيل.
طاعة الله ورسوله هي سبيل النجاة تمنيهم طاعة الله والرسول يدل على أنها سبيل النجاة الوحيد.
خطورة التنازل عن الشخصية والرأي "إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا" – طاعة عمياء أودت بهم إلى النار.
السادة والكبراء قد يضلون ولا يهدون "فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا" – اتباعهم كان سبب الضلال.
العلاقات المبنية على الباطل تنقلب عداوة الأتباع يدعون على سادتهم بمضاعفة العذاب واللعنة.
مضاعفة العذاب على المضلين "رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ" – عذاب مضاعف على من أضل غيره.
تحرير العقل من التبعية العمياء وجوب التفكير والتدبر وعدم تقليد أحد بلا دليل.
مسؤولية الفرد عن اختياره الأتباع لم يعذروا باتباع السادة، بل عوقبوا على ضلالهم.
الولاء لله ورسوله لا للسادة والكبراء "يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا" – الولاء الحق.
خاتمة: في رحاب التحرر من عبودية البشر والالتزام بطاعة الله ورسوله

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآيات الكريمة، التي ترسم لنا لوحة من أهوال يوم القيامة، وتكشف لنا عن حقيقة العلاقات المبنية على الباطل، وتدعونا إلى التحرر من عبودية البشر، والالتزام بـ طاعة الله ورسوله.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· الندم بعد الموت وفي النار لا ينفع، فليبادر العاقل إلى التوبة والعمل الصالح.
· طاعة الله ورسوله هي سبيل النجاة الوحيد من النار.
· التنازل عن الشخصية والرأي، واتباع السادة والكبراء طاعة عمياء، هو سبب الضلال والهلاك.
· السادة والكبراء الذين يضلون أتباعهم، لن ينفعوهم يوم القيامة، بل سيكونون سببًا في مضاعفة عذابهم، وسيلحقهم لعنة أتباعهم.
· العلاقات المبنية على غير طاعة الله، ستنقلب يوم القيامة إلى عداوة ولعنة.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نحرر عقولنا من التبعية العمياء، وأن نكون أصحاب شخصية مستقلة، نفكر ونتدبر، ونتبع الحق حيثما كان. ولنلزم طاعة الله ورسوله، ونجعل ولاءنا لله ولرسوله وللمؤمنين. ولنحذر أشد الحذر من السادة والكبراء الذين يدعون إلى غير طاعة الله، مهما كان منصبهم أو تأثيرهم..

القسم الثالث

.تفسير آيات الصبر على الأذى والتقوى والقول السديد (الأحزاب: 69-71) – في رحاب التسلية النبوية ودستور النجاة

مدخل إلى رحاب الآيات الكريمة

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني الفريد، الذي ينتقل بنا من أجواء الوعيد ومصارع الكافرين، إلى أجواء التسلية والتثبيت والتربية. بعد أن كشف الله عن مصير المنافقين و المرجفين، والكافرين وأتباع السادة والكبراء، يأتي هذا المقطع ليوجه خطابًا مباشرًا إلى المؤمنين، وخاصة النبي صلى الله عليه وسلم، ليثبت قلبه، ويربط على قلوبهم، ويضع بين أيديهم دستور النجاة في معركة الحياة.

تبدأ هذه اللوحة الربانية بتذكير للمؤمنين بقصة موسى عليه السلام، ذلك النبي العظيم الذي آذاه قومه أشد الأذى، واتهموه بما هو براء منه، فصبر واحتسب، حتى برأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيهًا. إنها تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيت للمؤمنين، بأن طريق الدعوة مليء بالأشواك، وأن أذى السفهاء هو سنة ماضية في الأنبياء، وأن العاقبة للصابرين المتقين.

ثم يأتي الأمر الإلهي الجامع: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا". أمر بالتقوى (في الباطن) وبالقول السديد (في الظاهر). فإذا استقام الباطن والظاهر، كانت الثمرة اليانعة: "يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ". ثم الجائزة الكبرى: "فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا".

فلنغص معًا في أعماق هذه الآيات الكريمة، ولنستخرج دررها وحكمها، بنفس الروح المتأملة والقلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، لنعيش لحظات التسلية والتثبيت، ونتلقى دستور النجاة، ونسعى إلى الفوز العظيم.
الأمر الأول:
"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ۚ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا" – تسلية النبي والمؤمنين بقصة موسى عليه السلام

اللمسة البيانية الأولى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" – نداء الإيمان: ربط الصبر على الأذى بالعقيدة

تبدأ الآية الكريمة بهذا النداء القرآني العظيم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا". إنه نداء يتكرر في مواطن التشريع والتوجيه والتربية. فلماذا افتتحت الآية بهذا النداء بالذات؟

١. ربط الصبر على الأذى بأصل الإيمان

حين ينادي الله عباده بـ "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" ، فإنه يذكرهم بـ أصل العقيدة الذي ينبغي أن تنبني عليه جميع تصرفاتهم. وكأنه يقول لهم: "يا من آمنتم بي، وصدقتم برسولي، واتبعتم ديني... اسمعوا هذا التوجيه، واعملوا به، فإن إيمانكم يقتضي منكم الصبر على الأذى، والاقتداء بالأنبياء".

٢. توجيه الخطاب للمؤمنين عامة: تثبيت للجميع

الخطاب موجه لجميع المؤمنين، وليس للنبي وحده. وهذا يدل على أن الأذى الذي يواجهه المؤمنون في سبيل الله هو أمر متوقع، وسنة ماضية، فعليهم أن يقتدوا بالأنبياء في الصبر والاحتساب.

اللمسة البيانية الثانية: "لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ" – النهي عن التشبه بالمؤذين

١. "لَا تَكُونُوا" – نهي قاطع عن التشبه بالمؤذين

"لَا تَكُونُوا" نهي جازم، وهو تحذير للمؤمنين من أن يكونوا مثل الذين آذوا موسى عليه السلام. و المقصود: لا تؤذوا نبيكم محمدًا صلى الله عليه وسلم كما آذى بنو إسرائيل موسى. فـ أذى النبي من أعظم الكبائر، وهو مشابهة لأعداء الأنبياء.

٢. "كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ" – تشبيه وتذكير بقصة موسى

"الَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ" هم بنو إسرائيل، الذين آذوه بأنواع الأذى:

· اتهموه بأنه قتل هارون (مع أن الله هو الذي توفاه).
· قالوا عنه: "إنه آدر" (أي: به عيب في بدنه)، فكان يستتر إذا اغتسل، حتى برأه الله مما قالوا، حين رفع الله الحجر الذي وضع عليه ثيابه، فظهر سليمًا معافى.
· آذوه بـ الكلام والاستهزاء والعصيان (كما في قوله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا

مُوسَى").

فالآية تنهى المؤمنين أن يكونوا مثل بني إسرائيل في أذى أنبيائهم.

اللمسة البيانية الثالثة: "فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا" – بيان عاقبة الصبر: تبرئة الله لنبيه

١. "فَبَرَّأَهُ اللهُ" – الفاء للتعقيب: تبرئة فورية

"فَبَرَّأَهُ" أي: طهره ونزهه مما اتهموه به. والفاء تفيد التعقيب والسرعة. فبمجرد أن صبر موسى على أذاهم، وفوض أمره إلى الله، برأه الله وأظهر براءته للناس.

٢. "مِمَّا قَالُوا" – إشارة إلى أن الأذى كان بالقول

"مِمَّا قَالُوا" أي: من التهم والأقوال الباطلة التي رموه بها. وهذا يدل على أن أذى القول (كـ السب، وا لاستهزاء، والاتهام الباطل) هو من أشد أنواع الأذى، وخاصة إذا كان لنبي أو داعية.

اللمسة البيانية الرابعة: "وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا" – بيان مقام موسى عند الله بعد صبره

١. "وَكَانَ" – فعل الكون: دوام وثبوت الصفة

"كانَ" تفيد الدوام والثبوت. فموسى عليه السلام لم يزل ولا يزال وجيهًا عند الله.

٢. "عِندَ اللهِ" – عندية المكانة والاختصاص

"عِندَ اللهِ" لا تعني المكان، بل تعني المكانة والمنزلة. فموسى له مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة عند الله.

٣. "وَجِيهًا" – ذو جاه وقدر ومنزلة

"الوجيه" هو ذو الجاه والقدر والمنزلة. والمعنى: كان موسى مقبولا ً عند الله، مجاب الدعوة، رفيع المنزلة. وهذا الجاه والمنزلة هو جزاء صبره على أذى قومه، واحتسابه عند الله.

الرسائل التربوية والنفسية من قصة موسى عليه السلام

أ. تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتثبيته

هذه الآية نزلت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وتثبيتًا لقلبه، بعد أن آذاه المنافقون والمرجفون في المدينة. فكأن الله يقول له: "لا تحزن يا محمد مما يقولون، فموسى قبلك أوذي أشد الأذى، فصبر، فبرأه الله، ورفع منزلته. فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل". وهذا من عظيم لطف الله بنبيه، حيث يذكره بسيرة إخوانه من الأنبياء ليهون عليه ما يلقى من الأذى.

ب. أن أذى المؤمنين للدعاة هو سنة ماضية

الآية تذكر المؤمنين بأن أذى السفهاء للدعاة والمصلحين هو سنة ماضية، لا تنقطع. فمن تصدر للدعوة إلى الله، فعليه أن يتوقع الأذى، وأن يصبر عليه، كما صبر الأنبياء من قبله.

ج. أن الصبر على الأذى يرفع المنزلة عند الله

الآية تختم ببيان مكانة موسى عند الله: "وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهًا". وهذا يدل على أن الصبر على الأذى في سبيل الله هو سبب لرفعة المنزلة عند الله. فكلما ازداد أذى الناس للمؤمن، وصبر واحتسب، ارتفعت منزلته عند الله.
الأمر الثاني:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا" – دستور النجاة: التقوى والقول السديد

بعد أن ذكر الله قصة موسى، وما لاقاه من أذى قومه، وصبره حتى برأه الله ورفع منزلته، جاء بهذا الأمر الإلهي الجامع، الذي هو دستور النجاة لكل مؤمن: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا

سَدِيدًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الأمر

١. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" – تكرار النداء: تأكيد وتقرير

تكرار نداء "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" في الآية الثانية يدل على أهمية ما سيأتي من أوامر، وعظم شأنها. فكأنه يقول: "انتبهوا! اسمعوا! هذا أمر عظيم، فيه نجاتكم وفوزكم".

٢. "اتقوا اللهَ" – الأمر بالتقوى: أصل الإصلاح كله

"اتقوا اللهَ" أمر بـ التقوى، وهي جماع الخير كله. والتقوى هي: الخوف من الله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، واستشعار مراقبته في السر والعلن.

لماذا بدأ بالتقوى؟
لأن التقوى هي أصل كل صلاح، ومصدر كل خير. فمن اتقى الله، صلحت سريرته، واستقامت جوارحه ، وسعد في دنياه وأخراه. وهي الدرع الواقي من الذنوب، والزاد ليوم المعاد.

٣. "وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا" – الأمر بالقول السديد: استقامة اللسان

"وَقُولُوا" أمر من القول. و"قَوْلًا سَدِيدًا" أي: قولا ً صوابًا، عدلا ً، حقًا، موافقًا للشرع، خاليًا من الباطل واللغو والإثم.

ما هو القول السديد؟
القول السديد هو الكلام الذي يسد الطريق على الباطل، وينفع ولا يضر، ويهدي ولا يضل. وهو يشمل:

· قول الحق ولو كان مرًا.
· الكلمة الطيبة التي تؤلف القلوب.
· النصيحة التي تصلح ولا تفسد.
· الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة.
· اجتناب الغيبة والنميمة والكذب والبهتان.

لماذا جمع بين التقوى والقول السديد؟

الجمع بين تقوى الله (في الباطن) والقول السديد (في الظاهر) هو دستور متكامل لـ صلاح الفرد و المجتمع:

· التقوى تصلح الباطن: القلب، والنية، والسريرة.
· القول السديد يصلح الظاهر: اللسان، والكلام، والتعامل مع الناس.

فإذا صلح الباطن والظاهر، صلح الإنسان كله، وصلح المجتمع بأسره. قال صلى الله عليه وسلم: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالا ً، يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بـ الكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالا ً، يهوي بها في جهنم" (رواه البخاري).

الرسائل التربوية والنفسية من الأمر بالتقوى والقول السديد

أ. التقوى هي الأساس، والقول السديد هو الثمرة

الآية تقدم التقوى على القول السديد، لأن التقوى هي الأساس الذي تنبني عليه جميع الأعمال الصالحة. فمن اتقى الله، صلح قلبه، فـ صلح لسانه، واستقام كلامه. أما من فقد التقوى، فإن لسانه ينطلق بكل باطل وإثم.

ب. ضبط اللسان: من أعظم أبواب التقوى

الأمر بـ "قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا" هو تأكيد على أهمية ضبط اللسان. فاللسان هو أخطر جارحة في الإنسان ، به يدخل الجنة، وبه يدخل النار. فالمؤمن يراقب كلامه، ويزن ألفاظه، ولا يتكلم إلا بخير.

ج. العلاقة بين القول السديد ومواجهة الأذى

في سياق الآية (بعد ذكر أذى موسى)، يأتي الأمر بـ "قولوا قولًا سَدِيدًا" ليكون توجيهًا للمؤمنين في كيفية الرد على أذى المشركين والمنافقين. فلا يقابلوا أذاهم بـ أذى مثله (من سب وشتم)، بل يقولوا قولا ً سديدًا (يدفع بالتي هي أحسن، ويرد بالحكمة، ويفوض الأمر إلى الله).
الأمر الثالث:
"يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ" – ثمرة التقوى والقول السديد

بعد أن أمر الله بالتقوى والقول السديد، بين الثمرة التي يجنيها المؤمن من الالتزام بهذين الأمرين: "يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ".

اللمسات البيانية والبلاغية في بيان الثمرة

١. "يُصْلِحْ" – فعل مضارع مجزوم: جواب الأمر

"يُصْلِحْ" مجزوم لأنه جواب الأمر (اتقوا... قولوا...). والمعنى: إن تتقوا الله وتقولوا قولا ً سديدًا، يصلح الله لكم أعمالكم.

٢. "لَكُمْ" – لام الاختصاص: الإصلاح خاص بالمؤمنين

"لَكُمْ" تفيد أن هذا الإصلاح هو خاص بالمؤمنين الذين اتقوا الله وقالوا قولا ً سديدًا. أما غيرهم، فلا نصيب لهم في هذا الوعد الإلهي.

٣. "أَعْمَالَكُمْ" – إصلاح الأعمال: توفيق للصواب وقبول عند الله

إصلاح الأعمال يشمل:

· توفيق الله للعبد إلى الأعمال الصالحة التي ترضيه.
· إخلاص النية في العمل، وإتقانه على الوجه المطلوب.
· قبول العمل عند الله، ورفعه إليه.

فالمؤمن الذي يتقي الله ويقول سديدًا، يوفقه الله إلى الأعمال الصالحة، ويعينه عليها، ويتقبلها منه.

٤. "وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ" – مغفرة الذنوب: سترها والتجاوز عنها

"وَيَغْفِرْ" أي: يستر ويتجاوز عن ذنوبكم. فمن اتقى الله وقال سديدًا، غفر الله له ما سلف من ذنوبه، ومحاها، وبدلها حسنات.

الرسائل التربوية والنفسية من هذه الثمرة

أ. الترابط بين صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب

الآية تجمع بين إصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب. فالمؤمن الذي يتقي الله ويقول سديدًا، يصلح الله أعماله في المستقبل (بالتوفيق والقبول)، ويغفر له ذنوبه في الماضي (بالستر والتجاوز). وهذا كمال النعمة وتمام الفضل.

ب. أن التقوى والقول السديد سبب لتوفيق الله ومغفرته

هذه الآية تفتح باب الأمل أمام كل مؤمن يريد أن يصلح الله أعماله ويغفر ذنوبه. فالطريق واضح، و السبب ميسور: "اتقوا اللهَ وَقولوا قولًا سَدِيدًا". فمن سلك هذا الطريق، نال هذه الثمرة اليانعة.

ج. أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ً

الآية تؤكد أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ً. فمن اتقى الله وقال سديدًا، فإن الله سيكافئه بـ إصلاح أعماله ومغفرة ذنوبه. وهذا تشجيع للمؤمن على الاستمرار في طاعة الله، والثبات على الحق.

الأمر الرابع:
"وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" – الفوز العظيم: غاية الآمال

بعد أن بين الله ثمرة التقوى والقول السديد (إصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب)، ختم الآية ببيان الغاية الكبرى والجائزة العظمى: "وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا".

اللمسات البيانية والبلاغية في هذا الختم

١. "وَمَن يُطِعِ" – من الشرطية: عموم وشمول

"مَن" من أدوات الشرط، وهي تفيد العموم. أي: أي شخص، في أي زمان، في أي مكان، يطع الله ورسوله، فإنه يفوز بهذا الفوز العظيم.

٢. "اللهَ وَرَسُولَهُ" – الجمع بينهما: تلازم الطاعتين

الجمع بين طاعة الله وطاعة رسوله يدل على تلازمهما. فلا تصح طاعة الله بدون طاعة رسوله. قال تعالى: "مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ" (النساء: 80).

٣. "فَقَدْ فَازَ" – الفاء الرابطة للجواب: تحقق الفوز

الفاء في "فَقَدْ فَازَ" هي فاء الجزاء، وهي تربط بين الطاعة والفوز ربطًا مباشرًا. فمن أطاع الله ورسوله، فقد تحقق فوزه، وضمن نجاته.

٤. "فَوْزًا عَظِيمًا" – وصف الفوز بالعظم: مبالغة في التعظيم

وصف الفوز بأنه "عَظِيم" (مع تنكير "فوزًا" للتعظيم) يدل على أن هذا الفوز يفوق الوصف، ويجل عن الإدراك. إنه النجاة من النار، ودخول الجنة، ورضوان الله الأكبر، والنظر إلى وجهه الكريم.

ما هو الفوز العظيم؟

الفوز العظيم هو غاية ما يتمناه المؤمن، وأقصى ما يرجوه:

· في الدنيا: طمأنينة القلب، وسكينة النفس، وبركة الرزق، وحسن الخاتمة.
· في الآخرة: النجاة من النار، ودخول الجنة، والنظر إلى وجه الله الكريم، ورضوانه الأكبر.

قال تعالى: "وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" (النساء: 69).

الرسائل التربوية والنفسية من وعد الفوز العظيم

أ. تحفيز المؤمن على طاعة الله ورسوله

هذه الآية تضع حافزًا عظيمًا للمؤمن على طاعة الله ورسوله. فهو يعلم أن ثمرة هذه الطاعة هي الفوز العظيم، الذي لا يدانيه فوز، ولا يقاربه نجاح. وهذا يخفف عنه مشقة التكليف، ويجعل الطاعة محبوبة إلى نفسه.

ب. أن الفوز الحقيقي ليس في الدنيا، بل في الآخرة

الآية تعيد توجيه البوصلة لدى المؤمن. فالفوز الحقيقي ليس في جمع المال، ولا في نيل المناصب، و لا في الشهرة، بل هو في طاعة الله ورسوله، والفوز بـ رضوان الله وجنته. فمن أدرك هذه الحقيقة، زهد في الدنيا، وأقبل على الآخرة.

ج. أن الطاعة المطلقة لله ورسوله هي سبيل الفوز

الآية تحصر سبيل الفوز في طاعة الله ورسوله. فلا فوز لأحد إلا بهذه الطاعة. فمن ابتغى الفوز في غير هذا الطريق، فهو ضال، وسعيه خاسر.

الأمر الخامس:
الربط بين الآيات الثلاث – من الصبر على الأذى إلى الفوز العظيم
الآيات الثلاث (69-71) ترسم خارطة طريق متكاملة للمؤمن في مواجهة الأذى وتحقيق النجاة:

الآية المرحلة الدليل العملي
69 الصبر على الأذى "لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى" – اقتدوا بالأنبياء في الصبر.
70 التقوى والقول السديد "اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا" – أصلحوا بواطنكم وظواهركم.
71 الفوز العظيم "وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" – هذه هي الجائزة.

وهذا الترتيب يعلمنا أن:

· الصبر على الأذى هو الخطوة الأولى في طريق الدعوة.
· التقوى والقول السديد هما الزاد في هذا الطريق.
· الفوز العظيم هو الغاية التي ينشدها المؤمن.
الأمر السادس:
كيف نعيش هذه الآيات في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآيات، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١. الصبر على أذى الناس في سبيل الدعوة والإصلاح

التطبيق العملي:

· توقع الأذى: إذا كنت داعية أو مصلحًا، أو حتى ملتزمًا بدينك، فتوقع أن يؤذيك الناس (بالكلام، أو السخرية، أو التجاهل). هذا سنة ماضية في الأنبياء، فلا تستغرب، ولا تحزن.
· اصبر واحتسب: "فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا". إذا صبرت واحتسبت، فإن الله سيبرئك مما يقولون، وسيرفع منزلتك عنده.

٢. تحقيق التقوى في السر والعلن

التطبيق العملي:

· راقب الله في خلواتك: "اتقوا اللهَ" تبدأ من السريرة. فإذا كنت وحدك، ولا يراك أحد، فاستحضر مراقبة الله، واترك المعصية.
· امتثل أوامر الله واجتنب نواهيه: التقوى ليست مشاعر قلبية فقط، بل هي عمل وامتثال. صلِّ، وصم، وزكِّ، وتصدق، واترك الحرام.

٣. ضبط اللسان: لا للغيبة والنميمة والكذب

التطبيق العملي:

· زن كلامك قبل أن تنطق: "وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا". قبل أن تتكلم، اسأل نفسك: "هل هذا الكلام حق؟ هل هو خير؟ هل هو ضروري؟". فإن كان غيبة أو نميمة أو كذبًا، فامتنع.
· في وسائل التواصل: لا تنشر ما يؤذي الناس، أو يثير الفتن، أو يشيع الشائعات. كن صادقًا، ومخلصًا ، ومصلحًا.

٤. طاعة الله ورسوله في كل شؤون الحياة

التطبيق العملي:

· اجعل الكتاب والسنة دستور حياتك: "وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ". في عقيدتك، في عبادتك، في معاملا تك، في أخلاقك... كل شيء وفق ما أمر الله ورسوله.
· لا تطع مخلوقًا في معصية الخالق: إذا تعارض أمر الناس مع أمر الله، فـ أطع الله، ولو غضب الناس.

٥. تربية الأبناء على الصبر والتقوى والقول السديد

التطبيق العملي:

· قصص الأنبياء: احكِ لأبنائك قصص الأنبياء، وكيف صبروا على أذى أقوامهم، وكيف برأهم الله ونصرهم.
· علمهم مراقبة الله: "اتقوا الله". علمهم أن الله يراهم في كل مكان، ويعلم ما يخفون وما يعلنون.
· عودهم على القول السديد: لا تسمح لهم بالكذب، أو الغيبة، أو النميمة، أو الكلام البذيء. شجعهم على الكلمة الطيبة والصدق.
سابعًا: القيم المستفادة من الآيات 69-71

القيمة تجلياتها في الآيات
الصبر على الأذى في سبيل الله "لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى" – قصة موسى تسلية وتثبيت.
الاقتداء بالأنبياء في الصبر والاحتساب موسى صبر فبرأه الله ورفع منزلته.
التقوى أساس كل صلاح "اتقوا الله" – الأمر بالتقوى في الباطن.
القول السديد مفتاح الخير "وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا" – الأمر باستقامة اللسان.
إصلاح الأعمال بالتوفيق والقبول "يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ" – ثمرة التقوى والقول السديد.
مغفرة الذنوب وسترها "وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ" – التجاوز عن السيئات.
طاعة الله ورسوله سبيل الفوز "وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا".
الفوز العظيم غاية المؤمن "فَوْزًا عَظِيمًا" – النجاة من النار ودخول الجنة ورضوان الله.
التكامل بين إصلاح الباطن والظاهر الجمع بين "اتقوا الله" (الباطن) و"قولوا قولا ً سديدًا" (الظاهر).
خاتمة: في رحاب الصبر والتقوى والقول السديد والفوز العظيم

في الختام، نقف بخشوع أمام هذه الآيات الكريمة، التي ترسم لنا خارطة طريق واضحة المعالم، ودستور نجاة لا لبس فيه. إنها آيات تبدأ ب- التسلية والتثبيت بقصة موسى عليه السلام، وتمر ب- الأ مر بالتقوى والقول السديد، وتنتهي ب- الوعد بالفوز العظيم.

لقد علمتنا هذه الآيات أن:

· الصبر على الأذى في سبيل الله هو سنة الأنبياء، وطريق الرفعة عند الله.
· التقوى هي أساس كل صلاح، والقول السديد هو ثمرتها وعنوانها.
· الجزاء على التقوى والقول السديد هو إصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب.
· الفوز العظيم هو غاية الآمال، وأقصى ما يتمناه المؤمن، وهو مرتبط ب- طاعة الله ورسوله.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نصبر على أذى الناس في سبيل الله، وأن نتقي الله في سرنا وعلا نيتنا، وأن نقول قولا ً سديدًا في كل أحوالنا. ولنوقن بأن الله س- يصلح أعمالنا، ويغفر ذنوبنا، ويفوزنا الفوز العظيم، إن أطعناه وأطعنا رسوله.
اخيرا
تفسير آيتي عرض الأمانة وحمل الإنسان (الأحزاب: 72-73) – في رحاب الأمانة الكبرى: التكليف والخلا فة ومصير الإنسان

مدخل إلى رحاب الآيتين الكريمتين

تأمل معي – أيها القارئ الكريم – هذا المشهد القرآني المهيب، الذي لا يتحدث عن حكم فقهي جزئي، ولا عن قصة تاريخية عابرة، بل يرسم لنا اللوحة الكبرى للوجود كله، ويكشف لنا عن سر الإنسان وجوهر وجوده، وسبب خلقه، وغاية حياته. إنه مشهد عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، تلك المخلوقات العظام، التي أشفقت من حملها، وخشيت من عواقبها. ثم يتقدم الإنسان – هذا المخلوق الضعيف – ليحمل هذه الأمانة الثقيلة، فيكون إما شاكرًا وإما كفورًا.

إنها الآيتان اللتان تختمان سورة الأحزاب، وتجيبان على أعظم سؤال في الوجود الإنساني: لماذا خُلقنا ؟ وما هي مهمتنا في هذه الحياة؟ وما هو مصيرنا بعد الموت؟ إنهما تضعان بين أيدينا المفتاح الذهبي لفهم قصة الإنسان على هذه الأرض، منذ أن حمل الأمانة، إلى أن يلقى الله في الدار الآخرة.

يقول الله تعالى:

"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" (72)
"لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا" (73)

فلنغص معًا في أعماق هاتين الآيتين الكريمتين، ولنستخرج دررهما وحكمهما، بنفس الروح المتأملة و القلب الحاضر، وكأن الوحي يتنزل علينا الآن، لنعيش لحظة عرض الأمانة، وندرك عظم المسؤولية الملقاة على عواتقنا، ونسعى إلى أداء الأمانة حق أدائها، لنكون من الفائزين برحمة الله ورضوانه.
الأمر الأول:
"إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا" – المشهد المهيب لعرض الأمانة على المخلوقات العظام

اللمسة البيانية الأولى: "إِنَّا عَرَضْنَا" – إسناد العرض إلى الله بصيغة التعظيم

تبدأ الآية الكريمة بقوله: "إِنَّا عَرَضْنَا". وهذه الصيغة تحمل في طياتها معاني عظيمة:

١. "إِنَّا" – ضمير الجمع للتعظيم

"إِنَّا" ضمير الجمع، وهو من باب التعظيم. فاللّٰه تعالى ينسب عرض الأمانة إلى ذاته العلية بصيغة الجمع، إيذانًا بـ عظمة هذا العرض، وجلالة هذه الأمانة، وضخامة المسؤولية المترتبة عليها.

٢. "عَرَضْنَا" – الفعل الماضي: تحقق العرض وثبوته

"عَرَضْنَا" فعل ماض، يفيد تحقق العرض وثبوته في علم الله وقدره. وهذا العرض تم في عالم الغيب، قبل خلق الإنسان، أو عند خلقه، على اختلاف أقوال المفسرين. والمهم أن الأمر قد قُدّر وثبت في علم الله الأزلي.

اللمسة البيانية الثانية: "الْأَمَانَةَ" – ما هي الأمانة التي عرضها الله؟

لفظة "الْأَمَانَةَ" هي محور الآية وسر وجود الإنسان. فما هي هذه الأمانة العظيمة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال، وحملها الإنسان؟

اختلف المفسرون في تحديد الأمانة على أقوال متعددة، وكلها ترجع إلى معنى واحد جامع:

أ. الأمانة هي التكليف والطاعة والعبادة

قال كثير من المفسرين: الأمانة هي التكليف الذي كلف الله به عباده، من أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والالتزام بشرع الله. فاللّٰه عرض هذا التكليف على السماوات والأرض والجبال، فـ أشفقت من عواقبه (من الثواب والعقاب)، وخشيت ألا تؤديه حق أدائه. فـ حَمَلَهُ الإنسان، وكان ظلومًا جهولا ً بنفسه، حيث تحمل ما أشفقت منه هذه المخلوقات العظام.

ب. الأمانة هي الخلافة في الأرض

قال آخرون: الأمانة هي الخلافة في الأرض، وعمارتها، وإقامة العدل فيها، وتحكيم شرع الله. فاللّٰه استخلف الإنسان في الأرض، وحمّله مسؤولية إصلاحها وعدم الإفساد فيها. وهذا المعنى يتفق مع قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" (البقرة: 30).

ج. الأمانة هي العقل والإدراك والتمييز

قال بعض العلماء: الأمانة هي العقل، الذي يميز به الإنسان بين الحق والباطل، والخير والشر، والنافع والضار. وهذا العقل هو مناط التكليف، وبه حمل الإنسان الأمانة.

د. الأمانة هي جميع ما ائتمن الله عليه الإنسان

والقول الجامع: الأمانة هي كل ما ائتمن الله عليه الإنسان، من التكليف والعبادة، والخلافة في الأرض، والعلم والعقل، والأسرار التي استودعها الله في الإنسان، والحقوق التي ألزمه بأدائها. فـ الإنسان هو

حامل الأمانة في هذه الحياة.

اللمسة البيانية الثالثة: "عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ" – عرض الأمانة على أعظم المخلوقات

لاحظ أن الله عرض الأمانة على أعظم مخلوقاته وأشدها قوة وثباتًا:

١. "السَّمَاوَاتِ" – جمع: عظمها وسعتها

السماوات هي أعظم المخلوقات وأوسعها. وقد عرض الله عليها الأمانة، فـ أبت أن تحملها، وأشفقت منها.

٢. "وَالْأَرْضِ" – عظمها وثقلها

الأرض هي مستقر الإنسان، ومهاد الكون. وقد عرض الله عليها الأمانة، فـ أبت أن تحملها.

٣. "وَالْجِبَالِ" – قوتها ورسوخها

الجبال هي أوتاد الأرض، ومصدر قوتها وثباتها. ومع ذلك، أبت أن تحمل الأمانة، وأشفقت منها.

اللمسة البيانية الرابعة: "فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا" – إباء وإشفاق المخلوقات العظام

١. "فَأَبَيْنَ" – الإباء: الامتناع والرفض

"أَبَيْنَ" أي: امتنعن ورفضن أن يحملن هذه الأمانة. وهذا الإباء ليس معصية، بل هو خوف من عواقبها، وإدراك لعظمها، وخشية من التقصير فيها.

٢. "أَن يَحْمِلْنَهَا" – الحمل: التكليف والمسؤولية

"يَحْمِلْنَهَا" أي: يتكفلن بها، ويؤدين حقها، ويتحملن تبعاتها. فحمل الأمانة ليس شرفًا مجردًا، بل هو مسؤولية جسيمة، وتبعة ثقيلة.

٣. "وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا" – الإشفاق: الخوف الشديد

"أَشْفَقْنَ" أي: خفن خوفًا شديدًا من عواقبها، ومن التقصير في أدائها، ومن العقاب المترتب على تضييعها. وهذا الإشفاق يدل على عظم الأمانة وجسامة المسؤولية.

الرسائل التربوية والنفسية من إباء المخلوقات وإشفاقها

أ. بيان عظم الأمانة وجسامة المسؤولية

إباء السماوات والأرض والجبال – مع عظمها وقوتها – عن حمل الأمانة، وإشفاقها منها، يدل على عظم هذه الأمانة، وجسامة المسؤولية المترتبة عليها. فكيف بحال الإنسان – وهو أضعف المخلوقات – وقد تحملها؟!

ب. أن الأمانة ليست شرفًا مجردًا، بل هي تكليف ومسؤولية

حمل الأمانة ليس وسامًا على الصدر فقط، بل هو تكليف ومسؤولية، وتبعة وحساب. فمن تحملها، وجب عليه أن يؤديها حق أدائها، وإلا استحق العقاب.

ج. أن المخلوقات العظام تعرف قدر نفسها وتخشى الله

إباء السماوات والأرض والجبال عن حمل الأمانة يدل على أنها تعرف قدر نفسها، وتخشى الله، وتدرك عظم التكليف. وهذا عكس الإنسان، الذي تحمل الأمانة وهو ظلوم جهول بنفسه.

الأمر الثاني:

"وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" – حمل الإنسان للأمانة ووصفه بالظلم والجهل

بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملن الأمانة، وأشفقن منها، جاء الدور على الإنسان: "وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ".

اللمسات البيانية والبلاغية في وصف الإنسان

١. "وَحَمَلَهَا" – الفعل الماضي: تحقق الحمل وثبوته

"حَمَلَهَا" فعل ماض، يفيد تحقق الحمل وثبوته. فالإنسان قد حمل الأمانة، وأصبح مسؤولا ً عنها، وسيحاسب عليها يوم القيامة.

٢. "الإِنسَانُ" – الاسم العام: آدم وذريته

"الإِنسَانُ" يشمل آدم عليه السلام، وجميع ذريته من بعده. فكل إنسان على وجه الأرض هو حامل لهذه الأمانة، ومسؤول عنها أمام الله.

٣. "إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" – وصف الإنسان بالظلم والجهل

هذا هو الوصف الذي يفسر لماذا حمل الإنسان الأمانة مع عظمها وجسامتها: "إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا".

ما معنى "ظلومًا جهولا ً"؟

· "ظَلُومًا" صيغة مبالغة من الظلم. أي: كثير الظلم لنفسه، حيث عرضها لهذه المسؤولية العظيمة، وتحمل ما أشفقت منه المخلوقات العظام.
· "جَهُولًا" صيغة مبالغة من الجهل. أي: شديد الجهل بـ عاقبة ما تحمله، وبـ قدر نفسه، وبـ عظم ا لأمانة.

فالإنسان – في أصل جبلته – ظلوم لنفسه، جهول بقدره، يغتر بقوته، ينخدع بزخارف الدنيا، ينسى عاقبته. وهذا الظلم والجهل هو الذي دفعه إلى حمل الأمانة، مع أن الأولى به أن يأبى كما أبت المخلوقات العظام.

هل "ظلومًا جهولا ً" وصف ذم أم وصف طبيعة؟

الوصف بـ "ظَلُومًا جَهُولًا" ليس ذمًا مطلقًا للإنسان، بل هو وصف لجبلته وطبيعته التي خلق عليها. فا لإنسان خلق ضعيفًا، عجولا ً، جهولا ً، ظلومًا لنفسه. قال تعالى: "وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا" (النساء: 28). وقال: "وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولًا" (الإسراء: 11).

ولكن هذه الجبلة لا تعفيه من المسؤولية، بل تجعله في حاجة دائمة إلى الله، وإلى التزكية والتعلم، ليتخلص من ظلمه وجهله، ويؤدي الأمانة حق أدائها.

كيف يتخلص الإنسان من ظلمه وجهله ليؤدي الأمانة؟

الآية تشير – ضمناً – إلى الطريق الذي يجب على الإنسان أن يسلكه ليتخلص من ظلمه وجهله، ويؤدي الأمانة حق أدائها:

أ. التخلص من الجهل بالعلم

الجهل هو أصل الداء، وسبب كل بلاء. وعلاج الجهل هو العلم. فالإنسان الذي يريد أن يؤدي الأمانة، يجب عليه أن يتعلم:

· علم الوحي: القرآن الكريم، والسنة النبوية، ليعرف ما هي الأمانة، وكيف يؤديها.
· علم الحياة: ما يحتاجه من علوم الدنيا (الطب، الهندسة، الاقتصاد...) ليعمر الأرض، ويقوم بخلافته فيها.

مثال من الواقع:

· أمانة تربية الأبناء: الأم أو الأب الجاهل بأساليب التربية، سيفشل في تربية أبنائه، وسيضيع الأمانة.

أما المتعلم، الذي يعرف كيف يربي، وكيف يغرس القيم، فإنه يؤدي الأمانة حق أدائها.
· أمانة العمل: الموظف الجاهل بمهام وظيفته، لن يؤديها على الوجه المطلوب، وسيكون خائنًا للأمانة. أما المتعلم، الذي يتقن عمله، فهو مؤدٍ للأمانة.

ب. التخلص من الظلم بالعدل والتقوى

الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، وتجاوز الحدود، والتعدي على حقوق الآخرين. وعلاج الظلم هو العدل والتقوى. فالإنسان الذي يريد أن يؤدي الأمانة، يجب عليه أن:

· يعدل في كل أموره: مع نفسه، ومع أهله، ومع الناس.
· يتقي الله في السر والعلن، فيمنعه خوف الله من الظلم.

مثال من الواقع:

· أمانة الولاية: المسؤول الذي يظلم رعيته، يأكل أموالهم، يحابي أقاربه، هو خائن للأمانة، وسيحاسبه الله أشد الحساب. أما العادل، الذي يخاف الله، ويرعى حقوق الناس، فهو مؤدٍ للأمانة.

ج. الاستعانة بالله والتوكل عليه

الإنسان – مهما تعلم، ومهما اجتهد – يبقى ضعيفًا، عاجزًا عن أداء الأمانة كاملة. ولذلك، وجب عليه أن يستعين بالله، ويتوكل عليه، ويسأله التوفيق والسداد. قال تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" (الفاتحة: 5).
الأمر الثالث:
"لِيُعَذِّبَ اللهُ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا" – بيان عاقبة حمل الأمانة: عذاب الخائنين وتوبة المؤمنين

بعد أن بين الله عرض الأمانة، وحمل الإنسان لها، ووصفه بالظلم والجهل، جاء في الآية الثانية ليبين عاقبة هذا الحمل، ونتيجته يوم القيامة: "لِيُعَذِّبَ اللهُ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ... وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ".

اللمسات البيانية والبلاغية في بيان العاقبة

١. "لِيُعَذِّبَ" – لام التعليل: بيان الغاية

اللام في "لِيُعَذِّبَ" هي لام التعليل. فالمعنى: حمل الإنسان الأمانة، وكان ظلومًا جهولا ً، ليترتب على ذلك: تعذيب الخائنين، وتوبة المؤمنين. فـ حمل الأمانة هو سبب هذا الابتلاء، وهذا التمييز بين الناس.

٢. "المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ" – تفصيل لأصناف الخائنين

الآية تفصل أصناف الخائنين للأمانة:

· المنافقون والمنافقات: الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ويخونون الله ورسوله والمؤمنين.
· المشركون والمشركات: الذين يشركون بالله، ويعبدون غيره، ويكفرون برسالاته.

هؤلاء جميعًا خانوا الأمانة، ولم يؤدوها، فاستحقوا عذاب الله في الدنيا والآخرة.

٣. "وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ" – تفصيل لأصناف المؤدين للأمانة

في مقابل الخائنين، تذكر الآية المؤمنين والمؤمنات، الذين أدوا الأمانة، وتابوا إلى الله من تقصيرهم، فـ تاب الله عليهم، وغفر لهم، ورحمهم.

٤. "وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا" – ختم الآية بصفات المغفرة والرحمة

هذا الختم الإلهي هو تاج الآية وسر رحمتها. فالله غفور لمن تاب من خيانة الأمانة، ورحيم بعباده المؤمنين الذين يجتهدون في أدائها، ويستغفرونه من تقصيرهم.

الرسائل التربوية والنفسية من بيان العاقبة

أ. أن حمل الأمانة ابتلاء واختبار

الآية تبين أن حمل الأمانة هو ابتلاء واختبار من الله لعباده. فمن أدى الأمانة، وتاب من تقصيره، نجا وفاز. ومن خان الأمانة، وأصر على خيانته، هلك وخسر.

ب. أن عاقبة خيانة الأمانة هي العذاب

الآية تضع أشد وعيد لمن يخون الأمانة، من المنافقين والمشركين. فعذاب الله شديد، ولن يغني عنهم مالهم ولا جاههم شيئًا.

ج. أن باب التوبة مفتوح للمؤمنين

الآية تختم بـ "غَفُورًا رَحِيمًا" ، لتفتح باب الأمل أمام المؤمنين الذين يقصرون في أداء الأمانة. ف الله يقبل التوبة، ويغفر الذنوب، ويرحم عباده. فلا ييأس مؤمن من رحمة الله، ولو كثرت ذنوبه، ما دام يتوب ويرجع إلى الله.
الأمر الرابع:
أثر الأمانة في حياة الفرد والمجتمع المسلم

بعد أن بينا معنى الأمانة، وحمل الإنسان لها، وكيفية التخلص من الجهل والظلم لأدائها، نأتي إلى بيان أثر الأمانة في حياة الفرد والمجتمع المسلم.

١. أثر الأمانة في حياة الفرد

الجانب أثر أداء الأمانة أثر خيانة الأمانة
الإيماني رضوان الله، ومغفرة الذنوب، والفوز بالجنة. سخط الله، والعذاب، والخسران المبين.
النفسي طمأنينة القلب، وسكينة النفس، والشعور بالرضا. قلق، واضطراب، وشعور بالذنب، وخوف من الفضيحة.
الاجتماعي ثقة الناس، ومحبتهم، وحسن السمعة. عدم الثقة، والازدراء، وسوء السمعة.
العملي البركة في الرزق، والتوفيق في العمل، والنجاح. نزع البركة، والفشل، والخسارة.

٢. أثر الأمانة في حياة المجتمع المسلم

الجانب أثر أداء الأمانة أثر خيانة الأمانة
الاستقرار مجتمع متماسك، تسوده الثقة والاحترام. مجتمع مفكك، تسوده الريبة والخيانة.
العدل إقامة العدل، وإعطاء كل ذي حق حقه. انتشار الظلم، وأكل الحقوق، والفساد.
التنمية تقدم وازدهار، واستثمار للطاقات. تخلف وفقر، وضياع للجهود.
الأمن أمن واستقرار، وحفظ للحقوق. خوف واضطراب، وضياع للحقوق.

٣. أهمية التخلص من الجهل والظلم لحمل الأمانة

الآية تصف الإنسان بأنه "ظَلُومًا جَهُولًا" ، مما يدل على أن الجهل والظلم هما أكبر عائقين أمام أداء ا لأمانة. فكيف يتخلص الإنسان منهما؟

الآفة معناها كيفية التخلص منها
الجهل عدم العلم بما يجب عليه تجاه الأمانة. طلب العلم الشرعي والدنيوي. التعلم من القرآن والسنة والحياة.
الظلم وضع الشيء في غير موضعه، والتعدي على الحقوق. تقوى الله، ومراقبته، والعدل في كل شيء.

أمانة العلم:

· العالم الذي يتعلم ولا يعمل بعلمه، أو يكتم العلم، فهو خائن للأمانة.

· طالب العلم الذي يتهاون في طلبه، ولا يجتهد، فهو مضيع للأمانة.

أمانة الخلافة:

· الحاكم الذي يظلم رعيته، ولا يقيم العدل، فهو خائن للأمانة.
· المواطن الذي لا يقوم بواجباته تجاه مجتمعه، ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، فهو مضيع لـ لأمانة.
الأمر الخامس:
كيف نعيش هاتين الآيتين في واقعنا المعاصر؟

بعد هذا الغوص العميق في معاني الآيتين، نأتي إلى السؤال العملي الأهم: كيف نطبق هذه التوجيهات الربانية في حياتنا اليومية في القرن الحادي والعشرين؟

١. استشعار عظم الأمانة الملقاة على عواتقنا

التطبيق العملي:

· تذكر دائمًا: أنك حامل للأمانة، ومسؤول عنها أمام الله. فـ كل نعمة أعطاك الله إياها (الصحة، المال ، العلم، الأولاد، المنصب...) هي أمانة، وسيحاسبك الله عليها يوم القيامة.
· لا تستهن بأي أمانة: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا" (النساء: 58). أدِّ الأمانات إلى أهلها، ولا تفرط فيها.

٢. التخلص من الجهل بطلب العلم النافع

التطبيق العملي:

· تعلم ما يلزمك من دينك: "طَلَبُ العِلمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ". تعلم أحكام العبادات (الصلاة، الصيام، الزكاة...)، وأحكام المعاملات (البيع، الشراء، الزواج، الطلاق...).
· تعلم ما تحتاجه في دنياك: العلم هو مفتاح التقدم والازدهار. تعلم المهن والحرف والعلوم التي تنفعك وتنفع أمتك.

٣. التخلص من الظلم بتقوى الله والعدل

التطبيق العملي:

· اتق الله في نفسك: لا تحملها ما لا تطيق، ولا تعرضها للهلاك. "وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ" (البقرة: 195).
· اعدل مع أهلك وأولادك: "وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ" (الأنعام: 152). لا تظلم أحدًا من أهلك، واعدل بينهم في العطاء والمعاملة.
· اعدل مع الناس: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ" (النحل: 90). لا تظلم أحدًا، وأعط كل ذي حق حقه.

٤. أداء الأمانة في كل مجالات الحياة

التطبيق العملي:

· في العمل: أتقن عملك، ولا تغش، ولا تخن، ولا ترتش. "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَن يُتْقِنَهُ" (رواه البيهقي).
· في البيت: أدِّ حقوق زوجك وأولادك. "وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" (النساء: 19).
· في المجتمع: أدِّ حقوق جيرانك، وإخوانك المسلمين. "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ" (النساء: 36).

٥. التوبة والاستغفار من التقصير في الأمانة

التطبيق العملي:

· اعترف بتقصيرك: كل إنسان مقصر في أداء الأمانة. فلا تغتر بعملك، واعترف بتقصيرك.

· تب إلى الله: "وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ". تب إلى الله من خيانتك للأمانة، واستغفره، وعاهد نفسك على أدائها حق أدائها.
· لا تيأس من رحمة الله: "وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا". مهما عظمت ذنوبك، فإن رحمة الله أوسع. تب إليه ، وسيجد قلبك الطمأنينة والسكينة.
سادسًا: القيم المستفادة من الآيتين 72-73

القيمة تجلياتها في الآيتين
عظم الأمانة وجسامتها "إنّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ" – عرضها على أعظم المخلوقات.
إباء المخلوقات العظام وإشفاقها "فَأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا" – خوفها من التقصير.
حمل الإنسان للأمانة "وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ" – تكليف ومسؤولية.
وصف الإنسان بالظلم والجهل "إِنّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولًا" – جبلته وضعفه.
ضرورة التخلص من الجهل بالعلم الجهل عائق عن أداء الأمانة، وعلاجه العلم.
ضرورة التخلص من الظلم بالعدل والتقوى الظلم عائق عن أداء الأمانة، وعلاجه العدل والتقوى.
عاقبة خيانة الأمانة "لِيُعَذِبَ اللهُ المُنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ وَالمُشْرِكِينَ وَالمُشْرِكَاتِ" – العذاب.
عاقبة أداء الأمانة والتوبة "وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ" – التوبة والمغفرة.
رحمة الله الواسعة "وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا" – فتح باب التوبة والأمل.
الأمانة تشمل كل ما ائتمن الله عليه الإنسان التكليف، الخلافة، العلم، العبادة، الحقوق...
خاتمة: في رحاب الأمانة الكبرى ومصير الإنسان

في الختام، نقف بخشوع أمام هاتين الآيتين الكريمتين، اللتين تختمان سورة الأحزاب، وتضعان بين أيدينا المفتاح الذهبي لفهم سر الوجود وجوهر الإنسان. إنهما آيتان تذكراننا بأننا حملة الأمانة، ومسؤولون عنها أمام رب العالمين. وأن سعادتنا في الدنيا والآخرة متوقفة على أدائنا لهذه الأمانة حق أدائها.

لقد علمتنا هاتان الآيتان أن:

· الأمانة هي التكليف، والخلافة، والعلم، والعبادة، وكل ما ائتمن الله عليه الإنسان.
· حمل الأمانة هو مسؤولية عظيمة، أشفقت منها السماوات والأرض والجبال.
· الإنسان – بجهله وظلمه – تحمل هذه الأمانة، فعليه أن يجتهد في أدائها، ويتخلص من جهله وظلمه.
· عاقبة خيانة الأمانة هي العذاب، وعاقبة أدائها والتوبة هي المغفرة والرحمة.

فلنحرص – رجالا ً ونساءً – أن نؤدي الأمانات إلى أهلها، وأن نتقي الله في كل ما ائتمننا عليه، وأن نطلب العلم لنتخلص من جهلنا، وأن نعدل لنتخلص من ظلمنا. ولنوقن بأن الله غفور رحيم، يقبل التوبة، ويغفر الذنوب، ويرحم عباده المؤمنين.

بسم الله الرحمن الرحيم
المراجع والمصادر المعتمدة في تفسير وتدبر سورة الأحزاب)
أولا ً: المراجع الأساسية في التفسير وعلوم القرآن

أ .كتب التفسير بالمأثور

.1جامع البيان عن تأويل آي القرآن) تفسير الطبري(
· المؤلف: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري) ت310 ه-(
· الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت
· الاعتماد: مرجع أساسي في تفسير آيات الأحزاب، خاصة في أسباب النزول وأقوال السلف.
.2تفسير القرآن العظيم) تفسير ابن كثير(
· المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي) ت774 ه-(
· الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع
· الاعتماد: أساسي في ربط الآيات بالأحاديث النبوية والروايات التاريخية عن غزوة الأحزاب وبني قريظة.
.3الدر المنثور في التفسير بالمأثور
· المؤلف: جلال الدين السيوطي) ت911 ه-(
· الناشر: دار الفكر، بيروت
· الاعتماد: موسوعة في الروايات التفسيرية، مفيدة في معرفة أقوال الصحابة والتابعين في الآ يات.
.4معالم التنزيل) تفسير البغوي(
· المؤلف: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي) ت516 ه-(
· الناشر: دار إحياء التراث العربي
· الاعتماد: تفسير متوسط جمع بين المأثور والمعقول، مع عناية بالأحكام والمواعظ.

ب .كتب التفسير اللغوي والبلاغي

.1الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل
· المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري) ت538 ه-(
· الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت
· الاعتماد: المرجع الأساسي في اللمسات البيانية والبلاغية، والإعجاز اللغوي في الآيات.
.2مفاتيح الغيب) التفسير الكبير(
· المؤلف: فخر الدين الرازي) ت606 ه-(
· الناشر: دار الفكر، بيروت
· الاعتماد: غني بالتحليلات العقلية والكلامية والفلسفية، والربط بين الآيات.
.3البحر المحيط
· المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي) ت745 ه-(
· الناشر: دار الفكر، بيروت
· الاعتماد: موسوعة في إعراب القرآن ووجوه القراءات واللغويات والبلاغة.
.4روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني
· المؤلف: شهاب الدين محمود الألوسي) ت1270 ه-(
· الناشر: دار إحياء التراث العربي
· الاعتماد: جامع لأقوال المفسرين، مع عناية بالمناسبات والإشارات الصوفية والبلاغية.
.5التحرير والتنوير) تفسير ابن عاشور(
· المؤلف: محمد الطاهر بن عاشور) ت1393 ه-(
· الناشر: الدار التونسية للنشر
· الاعتماد: مرجع رئيسي في بيان مقاصد السور، والتحليل اللغوي والبلاغي العميق، والمناسبات بين الآيات.

ج .كتب التفسير الموضوعي والتربوي

.1في ظلال القرآن
· المؤلف: سيد قطب) ت1386 ه-(
· الناشر: دار الشروق

· الاعتماد: استلهام الظلال التربوية والنفسية والتصوير الفني للمشاهد، خاصة مشاهد الأحزاب و المنافقين.

2.التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج
· المؤلف: د .وهبة الزحيلي) ت1436 ه-(
· الناشر: دار الفكر المعاصر
· الاعتماد: تفسير سهل واضح، مع عناية بالأحكام الفقهية والمقاصد العامة.

3.صفوة التفاسير
· المؤلف: محمد علي الصابوني
· الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر
· الاعتماد: خلاصة لأهم أقوال المفسرين مع إضافات في البلاغة والمناسبة.

ثانياً: المراجع في البلاغة والبيان واللمسات الفنية

1.دلائل الإعجاز
· المؤلف: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني) ت471 ه-(
· الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة
· الاعتماد: أصل نظرية النظم، والتحليل البلاغي للتركيب القرآني.

2.أسرار البلاغة
· المؤلف: عبد القاهر الجرجاني
· الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة
· الاعتماد: تحليل التشبيهات والاستعارات والكنايات في الآيات.

3.البرهان في علوم القرآن
· المؤلف: بدر الدين الزركشي) ت794 ه-(
· الناشر: دار المعرفة، بيروت
· الاعتماد: أنواع علوم القرآن، المناسبات، الفواصل.

4.الإتقان في علوم القرآن
· المؤلف: جلال الدين السيوطي) ت911 ه-(
· الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب
· الاعتماد: موسوعة في علوم القرآن، مهمة لبيان خصائص السورة وأسلوبها.

5.معجم ألفاظ القرآن الكريم
· المؤلف: مجمع اللغة العربية، القاهرة
· الاعتماد: الرجوع إلى أصول الألفاظ ومعانيها الدقيقة.

6.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
· المؤلف: محمد فؤاد عبد الباقي
· الاعتماد: تتبع تكرار الألفاظ مثل "النبي"، "الأحزاب"، ودلالات التكرار.

ثالثاً: المراجع في الحديث والسيرة النبوية

1.صحيح البخاري
· المؤلف: محمد بن إسماعيل البخاري) ت256 ه-(
· الاعتماد: روايات غزوة الخندق) الأحزاب(، حفر الخندق، قصة بني قريظة، شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم.

2.صحيح مسلم
· المؤلف: مسلم بن الحجاج النيسابوري) ت261 ه-(
· الاعتماد: تتمة روايات الأحزاب وأحداثها.

3.السيرة النبوية لابن هشام
· المؤلف: عبد الملك بن هشام) ت213 ه-(
· الناشر: دار الجيل، بيروت
· الاعتماد: التفاصيل التاريخية الكاملة لغزوة الأحزاب، مواقف المنافقين، قصة زيد بن حارثة و التبني.

4.الرحيق المختوم
· المؤلف: صفي الرحمن المباركفوري
· الاعتماد: سيرة مرتبة بشكل حديث، تسهل استحضار الأحداث وربطها بالآيات.

5.زاد المعاد في هدي خير العباد
· المؤلف: ابن قيم الجوزية) ت751 ه-(
· الناشر: مؤسسة الرسالة

· الاعتماد: هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد، والعبادة، والأخلاق، لبيان الأسوة الحسنة.
.6فتح الباري بشرح صحيح البخاري
· المؤلف: ابن حجر العسقلاني) ت852 ه-(
· الاعتماد: الشروح العميقة لأحاديث الأحزاب، واستنباطات الفقهاء والمحدثين.
رابعاً: المراجع في التربية وعلم النفس والتزكية

.1مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين
· المؤلف: ابن قيم الجوزية
· الناشر: دار الكتاب العربي
· الاعتماد: تحليل منازل الصدق، التوكل، اليقين، الثبات، وهي جوهر صفات المؤمنين في الآيات.
.2إحياء علوم الدين
· المؤلف: أبو حامد الغزالي) ت505 ه-(
· الناشر: دار المعرفة، بيروت
· الاعتماد: أمراض القلوب) النفاق، الجبن، البخل (وعلاجها، وهو صميم تحليل الآيات للمنافقين.
.3الرسالة التبوكية) زاد المهاجر إلى ربه(
· المؤلف: ابن قيم الجوزية
· الاعتماد: مفهوم الهجرة وترك التخاذل والتمني، كما في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾.
.4مقدمة ابن خلدون
· المؤلف: عبد الرحمن بن خلدون) ت808 ه-(
· الاعتماد: علم الاجتماع، تحليل العصبية، الانهزام النفسي للأمم، الترف وأثره على الجهاد.
.5نظرية الفستق
· المؤلف: فهد عامر الأحمدي
· الاعتماد: أفكار مبسطة في تطوير الذات، الاستقلالية، عدم التأثر بالقطيع، مستلهمة للرسائل التربوية في الآيات.
.6العادات السبع للناس الأكثر فعالية
· المؤلف: ستيفن كوفي
· الاعتماد: مفاهيم الاستقلالية، ترتيب الأولويات، المناعة النفسية، مقاربة لمفاهيم الآيات بأسلوب إداري حديث.
.7الذكاء العاطفي
· المؤلف: دانييل جولمان
· الاعتماد: تحليل الانفعالات) الخوف، الرعب، الغيظ (والتحكم بها، وهو مطابق لوصف القرآن لنفسيات المنافقين والمؤمنين.
.8الإنسان وعلم النفس
· المؤلف: د .عبد الستار إبراهيم
· الاعتماد: الصحة النفسية، القلق، الخوف، الثبات الانفعالي في ضوء التصور الإسلامي.
خامساً: المراجع في الإعجاز العلمي والطبي

.1الإعجاز العلمي في القرآن والسنة
· المؤلف: د .زغلول النجار
· الاعتماد: الإشارات العلمية مثل وصف "بلغت القلوب الحناجر" وعلاقتها بالطب الحديث) تأثير الخوف على الحجاب الحاجز والقلب.(
.2موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة
· إعداد: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي، رابطة العالم الإسلامي
· الاعتماد: الأبحاث الطبية المتعلقة بتأثير الخوف والرعب على فسيولوجيا الإنسان.
سادساً: المواقع الإلكترونية والمكتبات الرقمية

.1المكتبة الشاملة
· www.shamela.ws
· الاعتماد: الرجوع إلى نصوص جميع كتب التفسير والحديث واللغة المذكورة أعلاه بصيغتها الأ صلية.
.2موقع إسلام ويب
· www.islamweb.net
· الاعتماد: المكتبة التفسيرية والحديثية، والمقالات الموثوقة في أسباب النزول وشرح الآيات.

.3موقع الألوكة
· www.alukah.net
· الاعتماد: مقالات وبحوث في الإعجاز البياني والتربية الإسلامية وعلم النفس.
.4موقع الدرر السنية
· www.dorar.net
· الاعتماد: الموسوعة الحديثية للتحقق من صحة الأحاديث وتخريجها.
.5تطبيق آية) جامعة الملك سعود(
· الاعتماد: التفسير الميسر، معاني الكلمات، والتفاسير المعتمدة) السعدي، ابن كثير، الطبري.(
.6موقع تفسير) الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة(
· tafsir.app
· الاعتماد: عرض مقارن لأقوال المفسرين بشكل علمي دقيق.
سابعاً: مراجع إضافية في علوم التنمية البشرية والاجتماع والثقافة

.1أمة من العباقرة: كيف تخلق الأمم المبدعة
· المؤلف: د .راغب السرجاني
· الاعتماد: تحليل أسباب قوة الأمة الإسلامية وثباتها في وجه الأحزاب، ودور القيادة.
.2حتى لا تكون فتنة: جدلية الدين والسياسة في الإسلام
· المؤلف: فهمي هويدي
· الاعتماد: تحليل موقف المنافقين السياسي تحت غطاء "المصلحة"، والمقارنة بضغوط السياسة المعاصرة.
.3النفس البشرية في القرآن الكريم
· المؤلف: د .محمد عثمان نجاتي
· الاعتماد: دراسة أكاديمية لنفسية المنافقين والمؤمنين في ضوء آيات القرآن، وهي مرجع رئيسي للتحليل النفسي في التدبر.
.4مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي
· المؤلف: مالك بن نبي
· الاعتماد: فكرة "القابلية للاستعمار" النفسي، وعلاقتها بـ "وهن" المنافقين واستعدادهم للطاعة.
.